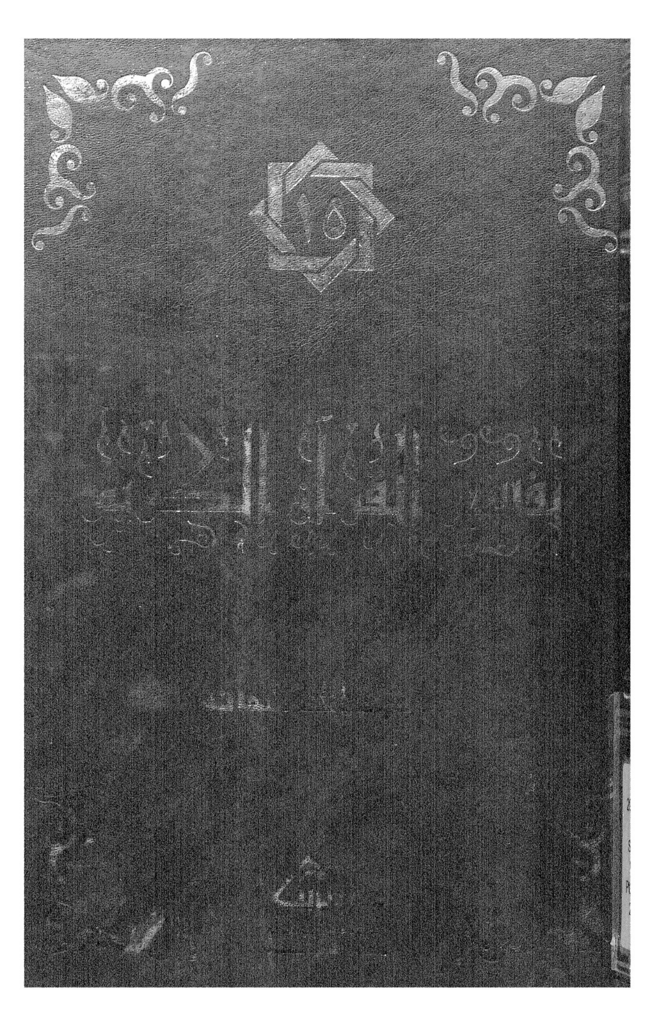


إهــــداء 2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

# تفسير القرآن الكريم

## الجزء التاسع والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته




تفسير سورة الملك

# أهـداف سـورة الملـك

(سورة الملك مكية ، وآياتها ٣٠ آية ، نزلت بعد سورة الطور) .

وسورة الملك لها من اسمها أكبر نصيب ، إنها سورة تعرض بركات الله فى هذه الدنيا ، وقدرته العالية ، وحكمته السامية ، فهو الخالق الرازق المهيمن ، المدبّر الحكيم المبدع ، الذى أبدع كل شىء خلقه .

وتستلفت السورة نظر الإنسان إلى خلق الأرض ، وخلق السماء والطير والرزق ، والسمع والأبصار ، والموت والحياة ، والزرع والثمار ، والماء والهواء والفضاء .

وتحث القلب على التفكير والتأمل ، والنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وتهيج فيه البحث والاستنباط ليصل بنفسه إلى التعرف على قدرة الله وجلاله ، وسابغ فضله على الناس أجمعين .

**مطلع السورة :**

مطلع السورة مطلع جامع يهز القلب هزا ، وينبه إلى بركات الله ونعمه وقدرته :

تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (الملك : ١) .

وعن حقيقة الملك والقدرة ، تتفرع سائر الصور التى عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة ، والتى نبهت القلوب إليها .

«فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما ، وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح ، وجعلها رجومًا للشياطين ، وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها ، وكان العلم بالسر والجهر ، وكان جعل الأرض ذلولاً للبشر ، وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين ، وكان إمساك الطير فى السماء ، وكان القهر والاستعلاء ، وكان الرزق كما يشاء ، وكان الإنشاء ، وهبة السمع والأبصار والأفئدة ، وكان الخلق فى الأرض والحشر ، وكان الاختصاص بعلم الآخرة ، وكان عذاب الكافرين ، وكان الماء الذى به الحياة ، فكل حقائق السورة وموضوعاتها مستمدة من ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير»[1] .

## مع آيات السورة

١ – تبدأ السورة بتمجيد الله سبحانه بقوله : تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ... (الملك : ١) . فهو كثير البركة تفيض بركته على عباده ، وهو المالك المهيمن على الخلق ، وهو القادر قدرة مطلقة بلا حدود ولا قيود ، يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وهو على كل شيء قدير .

٢ – ومن آثار قدرته أنه خلق الموت السابق على الحياة واللاحق بها ، وخلق الحياة وهى تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة ، ليمتحن الإنسان بالوجود والاختيار والعقل والكسب ، حتى يعمل فى الحياة الأولى ليرى جزاء عمله فى الحياة الآخرة .

٣ – يوجه القرآن النظر إلى خلق السماوات السبع ، ويذكر أنها طبقات على أبعاد متفاوتة ، وليس فى خلقها خلل ولا اضطراب ، وانظر إليها بعينيك فهل تستطيع أن تجد بها نقصًا أو عيبًا ؟

٤ – تأمل كثيرًا فى هذا الكون وشاهد عجائبه ، فلن تجد فيه إلا الإبداع والتنسيق ، والضبط والإحكام .

٥ – لقد رفع الله السماء الدنيا ، وخلق فيها الكواكب والنجوم زينة للسماء ، وهداية للمسافرين ، وهذه النجوم منها الباهر الزاهر والخافت ، والمنفرد والمجتمع ، ولكل نجم مكان ومسار وطريق خاص ، وهذه النجوم منها شهب تنزل على الشياطين الذين يحاولون استراق السمع ، والتنصت على كلام الملائكة ، فيرجمون بالشهب التى تقتلهم أو تخبلهم .

٦ – ومن كفر بالله فإنه يستحق عذاب جهنم ، وبئس هذا المصير .

٧ – إن جهنم تتميز غيظًا على من عصى الله ، وتغلى وتفور حنقا على الكفار .

٨ – كلما أُلقى جماعة من الكفار فى النار ، سألهم خزنة جهنم : ألم يأتكم رسول ينذركم هول هذا اليوم ؟

٩ – ويجيب الكفار بأن الرسول قد جاءنا ، ولكن العمى أضلنا فكذبنا بالرسول ، وقلنا : ما أنزل الله من وحى ولا رسالة ، واتهمنا الرسول بالضلال والكذب .

١٠ – ولو حكمنا عقلنا وسمعنا لاهتدينا إلى الحق وآمنا ، وحفظنا أنفسنا من هذا الهلاك ومن هذا العذاب .

١١ – لقد جاء هذا الاعتراف بالذنب متأخرًا فى غير وقته ، فسحقًا وعذابًا لأصحاب جهنم ، حيث لا يؤمنون إلا بعد فوات الأوان .

١٢ – إن المؤمن يحس برقابة الله عليه ، ويخشى عقابه وإن لم يره بعينه ، أو يخشى ربه وهو فى خفية عن الأعين ، غائب عن أعين الناس . وله مغفرة لذنبه وأجر كبير جزاء عمله .

١٣ – ما يفعله العبد مكشوف ظاهر أمام الله ، وسيان أجهرتم بأقوالكم أم أسررتم بها فالله مطلع عليها .

١٤ – ألا يعلم الخالق الأشياء التى خلقها ؟ وهو سبحانه عالم بخفيات الأمور ودقائقها ، وهو اللطيف الخبير .

١٥ – ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم إلى الأرض التى خلقها الله لهم وذللها وأودعها أسباب الحياة .

فهذه الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل فى الساعة ، ثم تدور حول الشمس بسرعة حوالى خمسة وستين ألف ميل فى الساعة ، ومع هذه السرعة يبقى الإنسان على ظهرها آمنًا مستريحًا مطمئنًا .

وقد جعل الله الهواء المحيط بالأرض محتويًا للعناصر التى تحتاج إليها الحياة بالنسب الدقيقة اللازمة ، فنسبة الأكسجين ٢١٪ ونسبة الأزوت أو النتروجين ٧٨٪ والبقية من ثانى أكسيد الكربون وعناصر أخرى . وهذه النسب هى اللازمة لقيام الحياة على الأرض .

وحجم الأرض وحجم الشمس وحجم القمر ، وبُعْد الأرض عن الشمس والقمر ، كل ذلك بنسب لازمة لاستمرار الحياة على ظهر الأرض .

إن الحيوان يستنشق الهواء فيمتص الأكسجين ويخرج ثانى أكسيد الكربون ، والنباتات تمتص ثانى أكسيد الكربون ، وبكيمياء سحرية يغذى النبات نفسه ، ويخرج الأكسجين الذى نتنفسه وبدونه تنتهى الحياة بعد خمس دقائق ، ولو كانت هذه المقايضة غير موجودة ، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد فى النهاية كل الأكسجين أو كل ثانى أكسيد الكربون تقريبًا ، ومتى انقلب التوازن تمامًا ذوى النبات أو مات الإنسان .

والأرزاق المخبوءة فى جوف الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التى لابستها ، والله يتفضل على الإنسان بتسخير الأرض والنبات والفضاء والهواء له : فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ... (الملك : ١٥) . وإلى الله النشور والرجوع فى يوم الحساب .

١٦ ، ١٧ – هذه الأرض الذلول التى يأمن الإنسان عليها ويهدأ ويستريح تتحول – إذا أراد الله – إلى دابة جامحة فيها الزلازل والبراكين ، كما يمكن أن يُنزل الله الصواعق والعواصف الجامحة التى تعصف بالإنسان وتدمره : وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ... (الرعد : ١٣) .

١٨ – ولقد كذب الكفار السابقون رسلهم ، فعاقبهم الله أشد العقوبة ، لقد غرق قوم نوح ، وأهلكت ثمود بصاعقة ، وأهلكت عاد بريح عاتية ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .

إن الإنسان قوى بالقدر الذى وهبه الله من القوة ، ولكن هذا الكون الهائل زمامه فى يد خالقه ، ونواميسه من صنعه ، وما يصيب الإنسان منها مقدر مرسوم : إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ . (القمر : ٤٩) .

١٩ – فليتأمل الإنسان أسراب الطير ترتفع وتنخفض ، وتبسط أجنحتها وتقبضها ، فى حركة ممتعة تدعو إلى التأمل والتدبر ، فقدرة الله ممسكة بهذا الطائر ، فى قبضه وبسطه ، والله سبحانه ييسر له أمره ، ويهيئ وينسق ويعطى القدرة ، ويرعى كل شىء فى كل لحظة ، رعاية الخبير البصير .

٢٠ – من هذا الذى يحميكم من بطش الله وغضبه ؟ من هذا الذى يدفع عنكم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ إن الكافر فى غرور ، يظن أنه آمن بعيد عن بطش الله به ، وما هو ببعيد .

٢١ – من يرزق البشر إن أمسك الله الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك الحياة عنهم ؟ إن بعض النفوس تعرض عن الله فى طغيان وتبجح ونفور ، مع أنها تعيش عالة على الله فى حياتها ورزقها .

٢٢ – ترسم الآية مشهد جماعة يمشون على وجوههم ، أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق ، ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات مستقيمة الخطوات فى طريق مستقيم لهدف مرسوم ، ثم تستفهم أيهما أهدى ؟ .

٢٣ – لقد خلق الله الناس ، وجعل لهم السمع ليسمعوا ، والأبصار ليروا ، والأفئدة ليتفكروا فى جليل قدرة الله ، ولكن الإنسان قلَّما يفكر فى شكر نعمة الله عليه ، وامتثال أمره واجتناب نواهيه ، والاعتراف له بالفضل والمنة .

«ويذكر العلم أن حاسة السمع تبدأ بالأذن الخارجية ، والصوت ينتقل منها إلى طبلة الأذن ثم ينتقل إلى التيه داخل الأذن ، والتيه يشتمل على أربعة آلاف قوس صغيرة ، متصلة بعصب السمع فى الرأس ، وفى الأذن مائة ألف خلية سمعية ، وتنتهى الأعصاب بأهداب دقيقة ، دقة وعظمة تحير الألباب .

ومركز حاسة الإبصار العين ، التى تحتوى على مائة وثلاثين مليونًا من مستقبلات الضوء ، وهى أطراف أعصاب الإبصار ، وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية .. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية»[٢] .

أما الأفئدة فهى هذه الخاصية التى صار بها الإنسان إنسانًا ، وهى قوة الإدراك والتمييز ، والمعرفة التى استخلف الله بها الإنسان فى هذا الملك العريض .

٢٤ – إن ربكم هو الذى برأكم فى الأرض ، وبعثكم فى أرجائها على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، وأشكالكم وصوركم ، وكما بدأكم يعيدكم ، وإليه تحشرون وترجعون .

٢٥ – ويسألون سؤال الشاك المستريب عن يوم الجزاء والحساب .

٢٦ – قل علم هذا اليوم عند الله ، وما علىَّ إلا البلاغ والبيان ، أما العلم فعند صاحب العلم ، الواحد بلا شريك .

٢٧ – ولو أذن الله لرأى البشر يوم الحساب واقعًا لا محالة ، وعند هذه المفاجأة ورؤية الحساب والجزاء ، سيظهر الحزن والاستياء عليهم ، وتؤنبهم الملائكة ، وتقول لهم : هذا هو اليوم الذى كنتم تستعجلون وقوعه . والآية جرت على طريقة القرآن فى عرض ما سيكون حاضرًا مشاهدًا ، بمفاجأة شعورية تصويرية ، تَقِفُ المكذبَ والشاك وجهًا لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .

٢٨ – رُوِى أن كفار مكة كانوا يتربصون بالنبى ﷺ أن يهلك فيستريحوا منه ومن دعوته ، فقال لهم القرآن : سواء أهلك النبى حسب أمانيهم ، أو رحمه الله ومن معه ، فلن يغير ذلك من وضعهم ، لأن عذابًا أليمًا ينتظرهم ، ولن تجيرهم الأصنام ، ولن يجيرهم من الرحمن إلا الإيمان .

٢٩ – إن المؤمنين فى قربى من الرحمن ، فهم يؤمنون به ويتوكلون عليه ، وهم موصولون بالله ، منتسبون إليه . وسيتبين للكافرين من الضال ومن المهتدى ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة .

٣٠ – أخبرونى إن ذهب ماؤكم فى الأرض ، ولم تصل إليه الدلاء ، من يأتيكم بماء جارٍ نابع فائض متدفق ، تشربونه عذبًا زلالاً .

وهكذا تختم السورة بهذه اللمسة القريبة من القلب ، تذكره بفضل الله الذى أجرى الماء ، ولو شاء لحرم الإنسان مصدر الحياة ، ولا ينقذ الإنسان من الله إلا الله ، قال تعالى : فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ... (الذاريات ٥٠) .

## المعنى الإجمالى للسورة

**قال الفيروزبادى :**

معظم مقصود السورة : بيان استحقاق الله الملك ، وخلق الحياة والموت للتجربة والاختبار ، والنظر إلى السماوات للعبرة ، واشتعال النجوم والكواكب للزينة ، وما أُعد للمنكرين من العذاب والعقوبة ، وما وُعد

به المتقون من الثواب والكرامة ، وتأخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرحمة ، وحفظ الطيور فى الهواء بكمال القدرة ، واتصال الرزق إلى الخليقة بالنوال والمنة ، وبيان حال أهل الضلالة والهداية ، وتعجل الكفار بمجىء يوم القيامة ، وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله : فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ . (الملك : ٣٠) .

## أسماء السورة

لسورة تبارك فى القرآن والسنة سبعة أسماء :

«سورة الملك لمفتتحها . والمنجية لأنها تنجى قارئها من العذاب . والمانعة لأنها تمنع قارئها من عذاب القبر . والدافعة لأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب الآخرة عن قارئها . والشافعة لأنها تشفع فى القيامة لقارئها . والمجادلة لأنها تجادل منكرًا ونكيرًا ، فتناظرهما كيلا يؤذيا قارئها . والمخلصة لأنها تخاصم زبانية جهنم ، لئلا يكون لهم يد على قارئها»[٣] .

وفى شأن السورة قال رسول الله ﷺ : «إن سورةً من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل فأخرجته من النار وأدخلته الجنة ، وهى سورة تبارك»[٤] .

★ ★ ★

## من دلائل القدرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ ﴾

**المفردات :**

**تبارك :** تعالى وتمجّد ، أو تكاثر خيره .

**الذى بيده الملك :** له الأمر والنهى والسلطان .

**خلق الموت :** أوجده ، أو قدّره أزلا .

**ليبلوكم :** ليختبركم فيما بين الحياة والموت .

**أحسن عملا :** أصوبه وأخلصه ، أو أسرع طاعة .

**طباقا :** بعضها فوق بعض ، جمع طبق أو طبقة .

**فطور :** شقوق وخروق ، أو خلل .

**كرّتين :** رجعتين ، رجعة بعد رجعة ، والمراد التكرار بكثرة .

**خاسئا :** صاغرًا لعدم وجدان الفُطُور .

**وهو حسير :** كليل متعب من كثرة المراجعة .

**السماء الدنيا :** السماء القربى منكم ، وهى الأولى .

بمصابيح : بكواكب عظيمة مضيئة .

رجوما للشياطين : بانقضاض الشهب منها عليهم .

وأعتدنا لهم عذاب السعير : وأعددنا للشياطين أشدّ الحريق ، يقال : سعرت النار فهى مسعورة وسعيرة ، أى : أوقدتها فهى موقدة .

**تمهيد :**

هذا الجزء التاسع والعشرون كلّه من السور المكيّة ، كما كان الجزء الذى سبقه كله من السور المدنية .

وقد عنى القرآن فى مكة بما يأتى :

( أ ) غرس عقيدة التوحيد ، والإيمان بالله تعالى ، وبيان قدرته وعظمته وصفاته وأسمائه .

(ب) مهاجمة عبادة الأوثان والأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمن ولا تغنى من جوع .

(جـ) عرض مظاهر القدرة الإلهية فى خلق الكون ، والسماء والأرض ، والجبال والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسائر المخلوقات ، كالإنسان والحيوان والطيور والوحوش والزواحف .

(د) الحديث عن القيامة والبعث والحشر ، والجزاء والحساب ، والجنة والنار .

(هـ) عرض قصص الأنبياء وجهادهم وكفاحهم ، وتسجيل ذكراهم وأمجادهم ، وبيان هلاك أعدائهم .

وسورة الملك نموذج عملى للسورة المكية ، فهى تبدأ ببيان ملك الله تعالى ، وسيطرته وإحاطة علمه ، بكل شىء فى هذا الكون ، وهو سبحانه على كل شىء قدير .

ومن هذه القدرة خلق الموت والحياة للاختبار والابتلاء ، حتى يتبيّن الصالح من الطالح .

ومن هذه القدرة خلق السماوات سبع طبقات ، بعضها فوق بعض فى غاية الكمال والإبداع ، مهما بحثت عن عيب أو خلل أو تشقق ، فلن تجد أى فطور أو تشقق ، لأنها أثر من آثار الكامل كمالاً مطلقًا .

**التفسير :**

١ - تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

تعاظمت بركة الله تعالى ، فهو سبحانه مالك الملك ، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، بيده الخلق والأمر ، كل يوم هو فى شأن ، يضع رفيعًا ويرفع وضيعًا ، يُفقر غنيًا ويغنى فقيرًا ، يبتلى معافى ويُعافى مبتلى ، يخفض أقوامًا ويرفع آخرين .

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

هو سبحانه القادر على كلّ شيء ، له القدرة التامة ، والتصرف الكامل فى كلّ الأمور ، من غير منازع ولا مدافع .

٢ - ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ .

قدّر سبحانه الموت لكل ميّت ، والحياة لكل حيّ ، وقدّم الموت على الحياة لأنه أبلغ فى الرهبة والقدرة ، فهو سبحانه الذى يتوفى الأنفس حين موتها ، ويتوفى أنْفُسَ النائمين عند نومها ، وهو سبحانه واهب الحياة ، وخالق الروح فى الجسم .

**قال العلماء :**

ليس الموت فناء وانقطاعًا بالكلية عن الحياة ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار ، ولهذا ثبت فى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا وُضع فى قبره وتولّى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، يأتيه ملكان فيجلسانه ويسألانه ...»[٥] . الحديث .

وقال ﷺ عن قتلى المشركين يوم بدر : «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنّهم لا يجيبون»[٦] .

فالموت هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقتها للجسم .

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ...

خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسكنه فسيح الجنة ، وأسجد له الملائكة ، وأنزله إلى الأرض واستعمره فيها ، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، ومنح الإنسان العقل والإرادة والاختيار ، ليظهر التفاضل بين الناس ، ويرى سبحانه المحسن من المسيء ، ومن يستحق الثواب ومن يستحق العقاب .

فهو سبحانه عادل عدلاً مطلقًا ، ومن هذه العدالة إعطاء الإنسان الفرصة كاملة الحياة فى هذه الدنيا ، ومعه إمكانيات الطاعة والمعصية ، فمن اختار الطاعة كان أهلاً للجنة ، ومن اختار المعصية كان أهلاً للنار ، فمن دخل النار فلا يلومن إلا نفسه ، لأنه هو الذى آثر الهوى واتّباع الشيطان على الاستقامة واتّباع هدى الرحمن .

قال تعالى : فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ . (النازعات : ٣٧ - ٤١) .

وهو سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ . الغالب فى انتقامه ممن عصاه . ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ . لمن تاب إليه .

٣ - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ .

لقد خلق الله سبع سماوات متطابقة ، كل طبقة فوقها أخرى ، وخلق ذلك فى غاية الكمال والإبداع ، وليس فى خلق الرحمن خلل أو اضطراب أو عيب أو تصادم ، بل قدرة الله هى التى منحت هذا الكون الإبداع والتكامل والجمال .

قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ... (الرعد : ٢) .

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ .

ردِّدْ بصرك فى عالم السماء ، وقلِّبه فى أرجائها ، هل ترى فى خلق الرحمن من عيوب ؟

ونسب خلق السماء إلى الرحمن ليبين أنه من رحمة الله بِنَا أن جعل السماء سقفًا مرفوعًا ، ممتدًا بلايين السنين ، لا يوجد فيها عيب أو خلل أو تشقق ، والناس تبنى بنايات محدودة ، وتحتاج إلى صيانة مستمرة ، وتدارك لما فيها من خلل أو فطور ، لكن خلق الرحمن كبير قديم ممتد ، وافرٍ وكافٍ وشافٍ ، يتمتع بالكمال والإبداع وانعدام النظير .

قال تعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ ... (غافر : ٥٧) .

٤ - ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ .

كرِّر النَّظر وردِّد الطرف ، وارجع مرة أخرى ، بل مرة إثر مرة ، فمهما نظرت إلى السماء باحثًا عن عيب أو خلل أو فطور أو تشقق فلن تجد عيبًا ، وسيرتدّ إليك البصر كليلاً متعبًا ، فقد عَادَ بدُون طائل .

إن الكون كتاب مفتوح ، ينظر فيه الأعمى والبصير ، وساكن القصور وساكن الأكواخ ، ينظر إلى السماء ، البدوىّ فى الصحراء ، وراكب البحار ، والفلكى بالمنظار ، وكل واحد من هؤلاء يرى الجمال والإبداع ، لأن هذا الخلق خلق الله وتقديره وإبداعه ، فسبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ... (السجدة : ٧) .

٥ - وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ .

زيّن الله السماء الدنيا وهى القريبة منّا ، أى السماء الأولى ، وفى صحيح البخارى أن السماوات سبع وأن النبى ﷺ صعد إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج ، ورأى فى السماء الأولى آدم ، وفى الثانية يحي وعيسى وهما ابنا الخالة ، وفى الثالثة يوسف وقد أعطى شطر الحسن ، وفى الرابعة إدريس ، وفى الخامس هارون ، وفى السادسة موسى ، وفى السابعة إبراهيم عليه السلام .

وقد خلق الله النجوم فى السماء لفوائد ثلاث :

الأولى : أن النجوم تُزيِّن السماء ، كما نزيِّن بيوتنا بالكهرباء .

الثانية : أنّها رجوم للشياطين الذين يحاولون استراق السمع ، فيصيبهم الله بالشهب التى تحرقهم أو تخبلهم

الثالثة : أن النجوم هداية للسائرين فى الصحراء ، وللسائرين فى البحار ، ولراغبى معرفة القبلة أو الجهات الأربع الأصلية .

والقرآن الكريم يلفت أنظارنا إلى السماء ونجومها المتلألئة ، حيث نجد نجومًا لامعة ، وأخرى خافتة وقمرًا منيرًا ، وللسماء مناظر وجمال له مذاق خاص ، فى أوّل الليل ووسطه وآخره ، والإنسان الذى يريد أن يخلو بنفسه للتأمل فى ملكوت السماوات والأرض ، سيجدُ مجالاً للتدبر ، والانتقال من الصنعة البديعة إلى الصانع المبدع .

قال تعالى : إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) .

ومع كون النجوم زينة للسماء ، فإنه ينفصل منها بعض الشهب لتصيب الجنىّ الذى يحاول استراق السمع ، واختطاف أخبار السماء ، ونقلها إلى الكهان فى الأرض .

قال تعالى : وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ...

وسيأتى إن شاء الله تعالى فى سورة الجنّ ، ما يفيد أن الجن كانت ترصّ بعضها ، ويصعد الجنىّ فوق كتف أخيه ، حتى يكون الأخير فى السماء متمكنًا من استراق السمع ، فسلّط الله عليهم الشُّهُب ، فلم يقدروا على استراق السمع .

قال تعالى : وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا . (الجن : ٨ ، ٩) .

وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ .

أعددنا وهيأنا للشياطين فى الآخرة عذاب النار المستعرة التى تحرقهم وتهلكهم بعد إحراقهم بالشهب فى الدنيا .

## لطيفة

إن قيل : إن الشياطين خُلقوا من النار فكيف يعذَّبون بها ؟ قلنا : إن النار هى مادة خَلْقهم ، ولكنهم تحوَّلوا إلى أجسام أخرى قابلة للاحتراق بها ، كما تحوّل بنو آدم من الطين إلى أجسام خالية من الطين .

★ ★ ★

## ألوان العذاب فى جهنم

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ ﴾

**المفردات :**

**ألقوا فيها :** طُرحوا فيها كما يُطرح الحطب فى النار .

**شهيق :** تنفسٌ كتنفس المتغيِّظ .

**تفور :** تغلى بهم كغلى المرجل .

**تميز :** ينفصل بعضها من بعض .

**الغيظ :** شدة الغضب .

**فوج :** جماعة .

**خـزنـتـهـا :** واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه .

**نـــذيـــر :** رسول ينذركم بأس الله وشديد عقابه .

**إن أنـــتـــم :** ما أنتم .

**ضلال كبير :** ضلال بعيد عن الحق والصواب .

**فســحــقــا :** فبعدًا لهم من رحمة ربهم .

**تمهيد :**

في هذه الآيات بيان لعذاب الذين كفروا بنار جهنم ، وفيها وصف لجهنم بالصفات الآتية :

( أ ) هى تتميز غضبًا وغيظًا على من عصى الله .

(ب) هى كائن حىّ له شهيق ، أى رغبة فى الانتقام ممن عصى الله ، كرغبة البغلة فى الشعير حين يُقدم لها .

(جـ) لها فوران وغليان وتموُّج كتموّج الحبّ القليل فى الماء الكثير .

(د) تسألهم الملائكة من خزنة جهنم : ألم يرسل إليكم رسول ؟ ويجيبون : لقد جاءت لنا الرسل فكذبنا بهم ، وبنزول الوحى عليهم ، وسخرنا منهم .

(هـ) يندم الكافرون أشد الندم بعد فوات الأوان ، فيقولون : لو استخدمنا سمعنا وتأمّلنا وتفكّرنا ، أو استخدمنا عقولنا بالتروّى والتأمل ما كنّا فى أهل جهنم .

(و) لقد اعترفوا بخطئهم ، وأنهم يستحقون النار ، فسحقا وهلاكًا لهم .

**التفسير :**

٦ - وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

من جحد وجود الله ، وأنكر وحدانيّة الخالق سبحانه وتعالى ، وصمم على هذا الكفر تصميمًا أبديًا ، فسيعذّبه الله فى نار جهنم ، وبئس المصير والمآل والمرجع أن يقيم إنسان فى جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا .

٧ - إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ .

عندما يُلقى الكفّار فى جهنم ، يُسمع لها صوت المتلهف المشتاق إلى الانتقام ممن عصى الله ، وهى تغلى بهم كما يغلى الماء الكثير بالحب القليل ، والتعبير يجعل جهنم فيها صفات العقلاء ، الذين يغضبون

لانتهاك حرمات الله ، ويجعل جهنم غاضبة ، تشهق شهيق البغلة حين ترى الشعير سيقدم لها ، ثم تغلى بهم جهنم وتفور فورانًا شديدًا .

٨ - ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ .

تكاد جهنم تتقطع من الغيظ والغضب والرغبة فى الانتقام ممن كفر بالله ، وجحد رسالات السماء ، وكلما أُلقى فى جهنم جماعة لينالوا العذاب توجّهت إليهم الزبانية بالسؤال الآتى :

ألم يأتكم رسول ينذركم مثل هذا العذاب ؟ وهو سؤال توبيخ وتحقير وإيلام ، وفى نفس الوقت إلزام الكافر بالحجّة ، واعترافه بأنه يستحق النار عدلاً من الله تعالى .

٩ - ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ .

قال الكفار لزبانية جهنم : لقد أرسل الله إلينا رسولاً ، ينذرنا هذا العذاب إن كفرنا ، لكننا كذبنا هذا الرسول ، واتهمناه بأنه كاذب فى دعوى الرسالة ، وأن الله لم يرسله رسولاً ، أو لم ينزل وحيًا ، ولم يرسل رسلاً ، فما أنت أيها المدَّعى للرِّسالة إلاّ ضالٌّ ، مجانف للحق ، بعيد عن الصواب ، مختلق تعيش فى وهم كبير وكذبة عريضة .

١٠ - ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ .

لو كنا نسمع سماع تأمّل وتفكّر ، أو نتدبّر بعقولنا ونتأمل فى كلام الرسول لنا ، ما صِرْنا إلى النَّار ، وبئس المصير جهنم .

١١ ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ .

لقد اعترفوا بذنبهم وكفرهم وجحودهم ، وأن قلوبهم كانت قد تحجرت ، وصمموا على الكفر ، ولم يتركوا لعقولهم سبيلاً إلى التفكّر والتأمل ، ثم اعترفوا بذلك بعد فوات الأوان ، فهلاكًا وعذابًا لهم .

روى الإمام أحمد من حديث أبى البخترى الطائى : «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم» .[٧] .

وفى حديث آخر : «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة» .[٨] .

★ ★ ★

## مدح المتقين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**يخشون ربهم بالغيب :** يخافونه وهم غائبون عن أعين الناس فلا يعصونه .

**لهم مغفرة وأجر كبير :** لذنوبهم ، وأجر كبير هو الجنة .

**ألا يعلم من خلق :** كيف لا يعلم سرّكم كما يعلم جهركم ، وهو الخالق لكم ، فالخالق يعرف مخلوقه .

**وهو اللطيف :** العالم بالخفيّات .

**الخبير :** بعباده وبأعمالهم .

**الأرض ذلولا :** مذللة لينة سهلة تستقرون عليها .

**مناكبها :** جوانبها ، أو طرقها وفجاجها .

**النشور :** إليه وحده مهمة نشركم ، أى إحيائكم من قبوركم للحساب والجزاء .

**التفسير :**

١٢ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

إن الذين يخافون غضب الله ، ولا يجترئون على معصيته حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، لهم غفران من الله لذنوبهم ، وجزاء عظيم فى الجنة .

وفى معنى الآية ما رواه البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله تعالى فى ظلّه يوم لا ظل إلا ظله» ، وعدَّ منهم : «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»[٩] .

١٣ - وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

من أسباب نزول هذه الآية :

أن المشركين كانوا ينالون من النبى ﷺ ، فلما أطلعه الله تعالى على أمرهم ؛ قال بعضهم لبعض : أسرُّوا قولكم كيلا يسمعه رب محمد ، فقال الله تعالى لهم :

إذا أسررتم قولكم أو جهرتم به ، فإن علم الله تعالى شامل للغيب والشهادة ، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، ويمتد علمه إلى حديث النفس وخواطرها ، ومكنون الصدور ودخائلها .

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . (ق : ١٦) .

١٤ - أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ .

ألا يعلم الله الخفايا وبواطن الأمور للإنسان الذى خلقه ، وشقّ سمعه وبصره ، وهو الدّقيق فى علمه ، الخبير بكلّ كائن قبل أن يكون ، إنه سبحانه خالقنا ورازقنا ، وهو العليم بخبايا نفوسنا .

قال الشاعر :

يا عالم الأسرار حسبى محنة　　علمى بأنّك عالم الأسرار

١٥ - هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ .

أرسى اللّه الأرض بالجبال ، وحفظ سبحانه توازنها ، وأودع فيها الجاذبية ، وذلل الطرق ويسَّر الرزق ، وأودع فى الأرض أقواتها وأرزاقها ، ويسَّر للإنسان طرق الكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ، والعلوم والفنون وغيرها .

وأودع الله فى الأرض المعادن والمياه ، والحديد والبترول ، وذلل الأرض لاستفادة الإنسان ، وفى ذلك دعوة من الله لنا ، لاستخدام طاقات الأرض وإعمارها ، فلا يكفى أن نستخرج البترول ، بل ينبغى تصنيع البترول والاستفادة بمشتقاته ، والناس لطول إلفهم بالأرض ينسون فضل الله عليهم فى تسخير الأرض لهم .

ومعنى الآية :

لقد أنعم الله عليكم بأرض مذللة ممهدة للاستفادة بها فى الزراعة والسير ، واستخراج ما فى باطنها ، والبناء عليها ، فسيروا فى الأرض ، وتمكّنوا من نواحيها ومناكبها ، وسيطروا على أرض الإسلام وبلاده ،

واستفيدوا من خيرات بلادكم ورزق ربكم ، وإلى الله مرجعكم فيحاسبكم على أعمالكم ، وفى الآية دعوة لأمة الإسلام أن تلتمس العزّ والسؤدد ، باستثمار خيرات بلادها ، وتعاون المسلمين فيما بينهم ، وأن يكون هناك تكامل بين الأمة الإسلامية وتعاون وترابط ، حتى نكون كما أمر الله تعالى : صفًّا واحدًا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا .

قال تعالى : إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٩٢) .

وقال ﷺ : «ترى المسلمين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[١٠] .

★ ★ ★

## شدة بطش الله بالمكذبين

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

**المفردات :**

**الأمن :** ضد الخوف .

**من فى السماء :** هو ربكم الأعلى ، أو من فى السماء عرشه .

**يخسف بكم الأرض :** يغيبكم فيها ، ومنه قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ... (القصص ٨١) .

**تمور :** تهتز وتضطرب ، وأصل المور : التردد فى المجىء والذهاب .

**حاصبا :** ريحًا شديدة فيها حصباء تهلككم .

**نذير :** إنذارى وتخويفى .

**نكير :** إنكارى عليهم بإنزال العذاب بهم .

**صافات :** باسطات أجنحتها فى الجوّ حين طيرانها تارة .

ويـــــقـــــبضــــــن : ويضممنها تارة أخرى .

**تمهيد :**

تكلمت السورة عن عذاب جهنم ، وهددت بعذاب فى الدنيا مثل خسف الأرض كما حدث لقارون ، أو الانتقام بمثل ما أصاب عادًا وثمود وقوم نوح ، ولفتت الأنظار إلى دلائل القدرة فى تيسير الطيران للطير فى الجوّ ، صافّات أجنحتها تارة ، وقابضة أجنحتها تارة أخرى ، بإلهام الله وبديع قدرته .

**التفسير :**

١٦ - ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ .

هذه الآيات تهديد ووعيد لكفار مكة الذين أنكروا الوحى والرسالة ، وفيها تهديد لكل كفّار عنيد .

ومعنى الآية :

هل تأمنون بطش الله وعقوبته ، بأن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون فظل يهوى فيها ؟ وهو سبحانه فى السماء عرشه ، أو ملكه وملكوته ، أو أمره وقضاؤه ، وبيده الخلق والأمر ، وهو القادر على أن يعذبكم بعذاب من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم .

ونحو الآية قوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ... (الأنعام : ٦٥)

١٧ - أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ .

أى : بل هل أمنتم من فى السماء ملكه وسلطانه وأمره وقضاؤه ، أن يرسل عليكم ريحًا مصحوبة بحجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط ، وأصحاب الفيل بمكة ؟ وعند نزول العذاب بكم فسترون كيف تكون شدة غضبى وقوة انتقامى .

١٨ - وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .

كذب قوم نوح نوحًا ، فأدركهم الغرق ، واستمر تكذيب الرسل من قوم هود ومن قوم صالح ومن قوم لوط كما كُذب موسى ، وكم كان عقاب السماء قويًّا مدمّرًا ، أى كيف كان إنكارى وعقابى لمن كذّبوا رسلى وحاربوا أنبيائى ، ألم أنكر عليهم ؟ ألم أعاقبهم ؟

١٩ - أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ .

أو لم ينظر الإنسان ببصره إلى أسراب الطير فى الفضاء ، وكأنها وسيلة لاستعراض البراعة والجمال ، والطير يرتفع وينخفض ، ويستدير ، ويفرد جناحيه فى أحيان كثيرة ، ويقبض جناحيه فى أحيان قليلة ، أو يقبض جناحًا ويبسط جناحًا ، لقد ألهم الله الطير حياته وحركته وطيرانه ، وألهم كلّ كائن عوامل وجوده وطرائق حياته ، ما يمسك الطير فى السماء فى حالات البسط والقبض إلا الرحمن الذى أبدع نظام هذا الكون ، وألهم كل كائن وسيلة حياته فى هذه الدنيا .

إنه سبحانه بصير بكل شىء ، مُطّلع على كل شىء ، مُمْسِكٌ بنظام هذا الكون ، بديع السماوات والأرض .

★ ★ ★

## استفهام وأجوبته

﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

**المفردات :**

**أم من هذا :** بل من هذا ؟

**جند لكم :** أعوان لكم ومنعة .

**غرور :** غرهم الشيطان بأن لا عذاب ينزل بهم .

**إن أمسك رزقه :** إن أمسك الرحمن رزقه ، لا أحد غير الله يرسله .

**لجوا فى عتو :** تمادوا فى استكبار وعناد

**نـــفـــور :** تباعد عن الحق وشراد منه .

**مكبا على وجهه :** ساقطًا عليه لا يأمن العثور .

**يـمشـى سـويـا :** مستويًا منتصبًا سالمًا من العثور . (مثل للمشرك والموحّد) .

**متى هذا الوعد :** فى أىّ وقت يتحقق الوعد بالحشر .

**نـذيـر مـبـيـن :** منذر واضح الإنذار .

**فلما رأوه زلفة :** فلما رأوا العذاب قريبًا منهم .

**ســـيـــئـت :** أصابتها الكآبة والمذلّة ، واسودت غمًّا .

**تـــدعـــون :** تطلبونه فى الدنيا ، وتستعجلون أن يأتيكم استهزاءً .

**تمهيد :**

توبِّخ الآيات المشركين على عبادتهم غير الله ، مع أنهم يعيشون فى نعم الله وخيراته وأرزاقه ، ولذلك يسألهم : من هذا الذى ينصركم إذا أراد عذابكم ؟ إن الشيطان قد جعل الغرور يتملككم بأن الأصنام تنصركم من هذا الذى يرزقكم إذا أمسك الله عنكم رزقه ؟ والجواب : لا أحد ينصركم من عذاب الله ولا أحد يرزقكم غير الله ، وضرب الله مثلاً للمؤمن الذى وضح طريقه ، فهو يسير فيه فى الدنيا ، معتدلاً فى سيره إلى المساجد وأداء الفرائض ، ويمشى على الصراط معتدلاً إلى الجنة يوم القيامة ، أما الكافر فإنه يتنكب الجادة ، فهو يمشى مكبًّا على وجهه ، لا يتبين طريقه ، وهو يمشى على غير هدى بعبادة الأصنام ، وكذلك يُسحب على وجهه ، ويلقى به فى جهنم يوم القيامة .

ثم عدد نعم الله بإعطاء السمع والبصر والفكر واللب والخلق ، وبيّن أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وحين يرى الكفار عذاب القيامة تعلو وجوههم الكآبة والمساءة .

**التفسير :**

٢٠ ـ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ .

يلمس القرآنُ القلوب ، ويوجه إليها هذا التساؤل ، وكان الشيطان يزين للكفار أنهم يُنْصرون بالأصنام ، فقال الله لهم :

من هذا الذى ينصركم ويحميكم من عذاب الله غير الله ؟ من هذا الذى يدفع عنكم بأس الرحمن إلاَّ الرحمن ؟ إنهم فى غرور ، غرَّهم به الشيطان ، حيث زين لهم أنَّ أصنامهم تحميهم ، مع أنهم يقيمون فى غضب من الله ، فهو سبحانه يخلقهم ، وهم يعبدون غيره .

٢١ - أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ .

إن الكون حافل بالأرزاق ، فالسماء والأرض والفضاء ، والليل والنهار ، والهواء والنبات والماء ، وسائر الموجودات كلّها أرزاق من الله ، بل والقوى العقلية المبدعة فى الإنسان ، كلّها من إبداع الخالق الرازق ، ولو حبس الله عنايته عن الإنسان لضلّ وزلّ .

**ومعنى الآية :**

من هذا الذى يرزقكم من فوقكم ومن تحتكم ومن خلجات أنفاسكم ، إذا أمسك الله عنكم رزقه ؟

والجواب : لا أحد يرزق غير الله ، لكن الكفار يسيرون فى عتوّ واستكبار ، وشراد عن الحق ، ونفور وامتعاض من دعوة الرسل .

٢٢ - أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

على طريقة القرآن الكريم فى التخييل الحسى والتجسيم ، نجد صورة رائعة لإنسان كافر يتنكب الجادة ، ويكفر بالرسل ، ويُغضب مولاه ، وينصرف إلى المعاصى ، حال كونه أعمى البصيرة ، مكبًّا على وجهه أشبه بمن وضع وجهه فى الأرض وسار معتمدًا على يديه فهو لا يبصر الطريق المعتدل ، وإنما يهيم على وجهه ، تأسره الشهوات ، وتستنزفه المعاصى ، حتى يحشر يوم القيامة ، ويتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة .

أما المؤمن فهو يمشى معتدلاً ، مرتفع القامة ، يعرف أين يضع قدميه ، لذلك يمشى فى مرضاة ربّه ، ويسير إلى الطاعات وما أمر به الله ، ويبتعد عن المحرمات وما نهى عنه الله ، ثم يتساءل الرحمن سبحانه وتعالى : أيهما أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً ، من يمشون فى الظلمات ، ويتنكبون الجادة ، وتستهويهم المعاصى والذنوب ؟ أمن يمشون على الصراط المستقيم فى طاعة الرحمن فى الدنيا ، ثم تتقدمهم أنوارهم وتحفّ بهم عن أيمانهم ، ويهديهم ربهم إلى الصراط المستقيم فى الطريق إلى الجنة ، ورضوان الله رب العالمين فى الآخرة ؟ والجواب : لا شك أن المستقيم أهدى وأفضل .

٢٣ - قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

الله تعالى هو الذى خلقكم ، خلق الخلق أجمعين ، هو الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وخلق له السمع ليسمع ويتأمّل ويهتدى ، وخلق الأبصار ، والعين فيها أعداد كثيرة من مكونات الإبصار ، وهو سبحانه خلق القلوب والعقول للتفكّر والتأمّل والاعتبار ، والإنسان مطالب بشكر هذه النّعم ، وشكر النعمة هو حُسن استخدامها فيما خلقت لأجله ، ولكنّ الإنسان قليلاً ما يشكر هذه النّعم ، مع أن شكر النعمة واجب على

الإنسان نحو خالقه ، بأنْ يحسن الاستماع إلى ما يفيد ، ويحسن النظر إلى ما ينفع ، ويحسن التأمل والتدبر فيما يفيده وينفعه فى دينه ودنياه وآخرته .

٢٤ - قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

قل لهم أيضًا يا محمد : إن الله تعالى هو الذى خلقكم وبثكم ووزعكم فى الأرض ، مع اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ثم تحشرون وتجمعون إلى الله تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء .

٢٥ - وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

كان الكفار يسألون عن الساعة سؤال المستبعد لها ، المكذِّب بوقوعها ، المتشكك فى أمورها . فيقولون للمؤمنين : متى يكون هذا البعث الذى توعدوننا به ؟

إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

فى أن الحشر كائن لا محالة .

٢٦ - قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى : علم وقت القيامة عند الله وحده ، لا يعلم بها أحد سواه ، وأنا رسول من عند الله ، أنذركم إنذارًا واضحًا مبينًا بالقيامة والساعة ، لتعملوا لها قبل حلولها .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا . (النازعات : ٤٢ - ٤٦) .

ويقول الله تعالى : إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ . (طه : ١٥ ، ١٦) .

٢٧ - فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ .

وينتقل القرآن إلى الحديث عن مشاهد اليوم الآخر ، حين يشاهد الكفّار العذابَ قريبًا منهم ، أو حين يرونه بعد وقت قريب (وكل آتٍ قريب) فإذا شاهد الكافر أهوال جهنم ، ظهرت الكآبة والقتام على وجهه .

قال تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ – ٤٢) .

لقد اسودَّت وجوه الكفَّار من هول العذاب الذى سيصلونه قريبًا ، ثم عنَّفتهم الملائكة ووبختهم على كفرهم وعلى تكذيبهم بالعذاب .

وقالت لهم زبانية جهنم : هذا هو العذاب الذى كنتم تدَّعون عدم وقوعه ، أو كنتم تطلبونه وتستعجلون وقوعه استهزاء به وتكذيبًا له .

★ ★ ★

## ختام سورة تبارك

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**أرأيتم :** أخبرونى أو أرونى .

**يجير الكافرين :** يمنعهم أو ينجيهم أو يؤمِّنهم .

**غورا :** غائرًا ، ذاهبًا فى الأرض لا يُنال .

**بماء معين :** جارٍ ، أو ظاهر سهل التناول ، أو تراه العيون لجريانه على الأرض .

**تمهيد :**

تختم سورة تبارك بثلاث آيات ، تؤكد حقيقة إيمان المؤمنين بالله ، وتوكُّلهم عليه ، ويقينهم بنصْره ، وهى تهزّ إصرار الكافر على كفره ، وترشده إلى الضلال الذى يسير فيه ، فتقول للكافرين ما يأتى :

(أ) سواء مات محمد ومن معه من المؤمنين أو نصرهم الله ، فمن ينقذ الكفّار من الهزيمة المنكرة فى الدنيا أو من عذاب جهنم يوم القيامة ؟

(ب) لقد اعتمد المؤمنون على ربّهم وتوكلوا عليه ، أى عرفوا طريقهم وقرْبهم من خالقهم ، ودخولهم فى جنته ، أما الكفار الجاحدون المكذبون للرسل فسيعلمون غدًا من هو الواقع فى الضلال الظاهر .

(جـ) هذا الماء الذى تشربونه إذا غار فى الأرض فأصبح بعيدًا لا تناله الدلاء ، من الذى يأتيكم بماء ظاهر تراه العين يجرى أمامكم ، يسقى زراعاتكم وحيواناتكم وأشخاصكم ؟

**التفسير :**

٢٨ - قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

أنتم مصرّون على الكفر ، ولا يُجير الكافرين من عذاب الله سوى التوبة والإسلام والإيمان ، وكان الكفار يتمنون وقوع الهلاك لمحمد وأصحابه .

قال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ .

(الطور : ٣٠ ، ٣١)

وخلاصة معنى الآية :

سواء مِتْنا أو قُتلنا فإننا سننتقل إلى الجنة ، وإذا رحمنا الله بالنصر عليكم فسيكون لنا عز الدنيا وشرف الآخرة . أما الكفار فمن ينقذهم من الهزيمة فى الدنيا ، أو عذاب جهنم يوم القيامة ؟

والآية تضع الظاهر مكان المضْمَر ، كأنَّها تستدرجهم للتفكير فى الإيمان ، فهى لم تقل : فمن يجيركم من عذاب أليم . وكأنها تفتح الباب للمخاطبين للتراجع عن الكفر ، أو لا تجبههم بأنهم كفّار ، لعلهم أن يتركوا العناد إلى التفكير فى الإيمان .

٢٩ - قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

قل لهم يا محمد : الله ربنا ، وهو الرحمن يشملنا برحمته وعنايته وفضله ، وقد توكلنا عليه واعتمدنا ، أما أنتم فستعلمون غدًا من الواقع فى الضلال المبين .

والآية أيضًا لا تصرِّح لهم بأنهم ضالون كافرون ، آثمون بعبادة الأصنام وترك عبادة الرحمن ، بل تترك لهم مجالاً للتفكير وعدم العناد .

٣٠ - قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ .

هنا تصريح بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، والآية تلمس قلوبهم فتقول : أخبرونى ، إن ذهب ماؤكم بعيدًا فى الأرض ، لا تستطيع الدلاء أن تنقله إليكم ، هل هناك أحدٌ غير الله يستطيع أن يأتيكم بماءٍ ظاهر تراه العين ؟ فمن فضل الله أن أجرى الماء للناس ، يستفيدون به فى الزراعة والشرب ونواحى الحياة المتعددة .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

وقال سبحانه وتعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . (الواقعة : ٦٨ - ٧٠) .

وبذلك تختم سورة الملك ، سورة أرست دعائم الإيمان بالله الخالق ، وحقيقة الابتلاء والرزق ، والعلم المطلق ، والسر والنجوى ، سورةٌ تبين أن الكون كله فى قبضة الله ، وفيها منهج حياة المؤمن مع ربه ومع نفسه ومع الناس .

★ ★ ★

## خلاصة ما اشتملت عليه سورة الملك

١ – وصف السماوات .

٢ – بيان أن نظام العالم لا عوج فيه ولا اختلاف .

٣ – وصف عذاب الكافرين فى الدنيا والآخرة .

٤ – التذكير بخلق الإنسان ورزقه وأشباه ذلك .

★ ★ ★



# تفسير سورة القلم

# أهداف سورة القلم

(سورة القلم مكية ، وآياتها ٥٢ آية ، نزلت بعد سورة العلق)

وتشير الروايات إلى أنها من أوائل السور التى نزلت من القرآن ، ونلمح من سياق السورة أنها نزلت بعد الجهر بالدعوة الإسلامية فى مكة ، حيث تعرض النبى الأمين ﷺ للاتهام بالجنون ، فنزلت السورة تنفى عنه هذه التهمة ، وتصف مكارم أخلاقه ، وتتهدد المكذبين ، وتذكر قصة أصحاب الجنة الذين منعوا زكاة الثمار والفاكهة ، فأهلك الله جنتهم ، وكذلك يهلك كل كافر معاند ، وتوجهت السورة إلى أهل مكة بهذا الاستفهام الإنكارى : أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ . (القلم : ٣٥) . هل يستوى المستقيم والفاجر ؟ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ . (القلم : ٤٦) . هل تطلب منهم أجرًا كبيرًا على تبليغ الرسالة ، فلا يستطيعون أداءه ولذلك يتثاقلون عن اتباعك ؟

ثم تذكر السورة طرفًا من قصة يونس عليه السلام من باب التسلية والاعتبار ، وتختم السورة ببيان حقد الكافرين وحسدهم ، حتى أن عيونهم ينبعث منها شرار الحسد والغيظ ، ويتهمون النبى ﷺ بالجنون ، وما يحمل إلا الذكر والهداية للعالمين .

## مع آيات السورة

١ – أقسم الله بالقلم والدواة والكتابة ، ليدل على عظيم شأنها فى نشر الرسالات والدعوات والعلم والمعرفة ، وكانت أول آية من القرآن : ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . (العلق : ١) .

٢ ، ٣ – نفى القرآن عن النبى ﷺ الاتهام الكاذب بالجنون ، ثم أثبت أن له أجرًا كاملاً غير منقوص على تبليغ الرسالة .

٤ – ومدحه الله بحسن الخلق ، فقال سبحانه : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . (القلم : ٤) . لقد كان خلقه القرآن ، وكان جامعًا للصفات الكريمة ، والقدوة الحسنة ، فقد اتصف بالفصاحة والشجاعة والكرم والحلم ، والأدب والعفة والنزاهة والأمانة ، والصدق والرحمة والتسامح واللين وحسن المعاملة .

وكان ﷺ حسن الصورة ، معتدل البناء ، جياش العواطف ، قويًا فى دين الله ، حريصًا على تبليغ الرسالة ، قائدًا ومعلمًا ومربيًا وموجهًا ، أمينًا على وحى السماء .

وكانت عظمة أخلاقه فى أنه تمثل القرآن سلوكًا وهديًا وتطبيقًا ، فكان قرآنًا متحركًا ، يجد فيه الصحابة القدوة العملية ، والتطبيق الأمين للوحى ، فيقتدون بخلقه وعمله وهديه وسلوكه .

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا . (الأحزاب : ٢١) .

٥ ، ٦ – فسيكشف الغد عن حقيقة النبى وحقيقة مكذبيه ، ويثبت أيهم الممتحن بما هو فيه ، وأيهم الضالّ فيما يدعيه ، وستبصر ويبصرون غلبة الإسلام ، واستيلاءك عليهم بالقتل والأسر ، وهيبتك فى أعين الناس أجمعين ، وصيرورتهم أذلاء صاغرين .

٧ – إن ربك هو الذى أوحى إليك ، فهو يعلم أنك المهتدى ، والمكذب بك ضال عن طريق الهدى ، وسيجازى كل إنسان بحسب ما يستحق .

٨ ، ٩ – وقد ساوم الكفار النبى ﷺ ، وعرضوا عليه أن يعبدوا إلهه يومًا وأن يعبد آلهتهم يومًا ، فيصيب كل واحد بحظه من إله الآخر ؛ فنزل قوله تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . (الكافرون : ١ ، ٢) .

وفى كتب السيرة : أن الكفار حرَّضوا أبا طالب على أن يكفَّ عنهم محمدًا ، وأن ينهاه عن عيب آلهتهم ، فقال النبىُّ ﷺ لعمّه : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

وقد نزل الوحى ينهاه عن طاعة المكذبين ، وينهاه عن قبول المساومة أو الحل الوسط ، فإما إيمانًا أو لا إيمان : وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . (القلم : ٩) . والإدهان هو اللين والمصانعة ، أى : ودّ المشركون لو تلين لهم فى دينك بالركون إلى آلهتهم ، وتتخلى عن مهاجمتها ، حتى يتركوا خصامك وجدالك .

١٠ – ١٣ – نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة ، وقيل : فى الأخنس بن شريق ، وكلاهما كان ممن خاصموا رسول الله ﷺ ولجُّوا فى حربه ، والآيات تصف هذا الكافر بتسع صفات كلها ذميم :

١ – فهو حلّاف ، كثير الحلف .

٢ – مهين ، لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس قوله .

٣ – همّاز ، يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة .

٤ – مشاء بنميم ، يمشى بين الناس بالنميمة والفتنة والفساد .

٥ – مناع للخير ، بخيل ممسك ، وكان يمنع الناس من الإيمان ، ويهدد من يحس منه الاستعداد للإيمان .

٦ – معتدٍ ، متجاوز للحق والعدل ، ثم هو معتدٍ على النبى ﷺ وعلى المسلمين .

٧ – أثيم ، كثير الآثام ، لا يبالى بما ارتكب ولا بما اجترح .

٨ – عُتل بعد ذلك ، جامع للصفات المذمومة ، وهو فظٌ غليظ جاف .

٩ – زنيم ، أى لصيق فى قومه متهم فى نسبه ، أو معروف بالشرور والآثام .

١٤ – ١٦ – تذكر هذه الآيات موقفه من دين الله ، وجحوده بنعمة الله عليه ، فلأنه صاحب مال وولد ، إذا تلى عليه القرآن استهزأ بآياته ، وسخر من الرسول ، وهذه وحدها تعدل كل ما مرّ من وصف ذميم ، سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ . (القلم : ١٦) . أى : سنجعل له سمة وعلامة على أنفه ، والمراد أنا سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى لا يخفى على أحد ، أو سنذله فى الدنيا غاية الإذلال ، ونجعله ممقوتًا مذمومًا مشهورًا بالشر .

## قصة أصحاب الجنة

تتناول الآيات (١٧ – ٣٣) قصة أصحاب الجنة ، وهم قوم ورثوا عن أبيهم بستانًا جميلاً مثمرًا يانعًا ، وكان أبوهم يخرج زكاة البستان ، ويوزع مقدارًا منه على الفقراء والمساكين ، ولكنهم خالفوا أباهم ومنعوا حق الفقراء والمساكين ، فعاقبهم الله بهلاك البستان ، وكذلك يعاقب الكافرين يوم القيامة ، وقد عرضتها الآيات عرضًا رائعًا يمثل خطوات القصة ، وضعف تدبير الإنسان أمام تدبير الله الواحد الديان ، فلنسر مع الآيات :

١٧ ، ١٨ – لقد استقر رأى أصحاب الجنة أن يقطعوا ثمرها عند الصباح ، دون أن يستثنوا منه شيئًا للمساكين ، وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه .

١٩ ، ٢٠ – فطرق تلك الجنة طارق من أمر الله ليلاً وهم نيام : فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ . (القلم : ٢٠) . أى كالبستان الذى صرمت ثماره أى قطعت ، كأنها مقطوعة الثمار ، فقد ذهب الطائف الذى طاف عليها بكل ثمرها .

٢١ – ٢٤ – فنادى بعضهم بعضًا فى الصباح ، وانطلقوا يتحدثون فى خفوت ، زيادة فى إحكام التدبير ، ويوصى بعضهم بعضًا بأن يحتجزوا الثمر كله ، ويحرموا منه المساكين .

٢٥ – وغدوا مصممين على حرد[11] المساكين ومنعهم وحرمانهم ، قادرين عند أنفسهم على المنع وحجب منفعتها عن المساكين .

٢٦ ، ٢٧ – فلما شاهدوا بستانهم ورأوه محترقًا أنكروه ، وشكوا فيه وقالوا : أبستاننا هذا أم نحن ضالون طريقه ؟ ثم تيقنوا أنه بستانهم وقد حاق بهم الحرمان والندم .

٢٨ – ٣٢ – وبعد أن حدث ما حدث ألقى كل منهم تبعة ما وقع على غيره ، وتشاحنوا ، ثم تركوا التلاوم ، واعترفوا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ، عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم عن الجنة الضائعة .

٣٣ – هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه ، وأنعم به عليه ، ومنع حق البائس الفقير ، وفى الآخرة عذاب أكبر من هذا العذاب ، لكل جاحد بنعمة الله ، ولكل مكذب بالدين والإيمان ، فليعلم ذلك المشركون وأهل مكة ، وليحذروا عاقبة كفرهم وعنادهم .

والقصة مسوقة لغاية معينة هى بيان عاقبة الجحود ومنع حق الله ، إنها عاقبة سيئة فى الدنيا وفى الآخرة ، وفى القصة تهديد للكافرين ، وعظة للمؤمنين .

٣٤ – وفى مقابل ما أعد للكافرين ، بيان بالنعيم الذى أعد للمتقين .

٣٥ – ٤٧ – وعند هاتين الخاتمتين يدخل القرآن معهم فى جدل لا تعقيد فيه ولا تركيب ، ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال ، عن أمور ليس لها إلا جواب واحد تصعب فيه المغالطة ، ويهددهم فى الآخرة بمشهد رهيب ، وفى الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوى الشديد .

٤٨ – ٥٠ – توجه الآيات النبى الكريم ﷺ إلى الصبر على تكاليف الرسالة ، والصبر على الأذى والتكذيب ، وتذكر له تجربة أخ له من قبل ضاق صدره بتكذيب قومه ، وهو يونس عليه السلام .

## قصة يونس

أرسل الله يونس بن متى عليه السلام ، إلى أهل قرية نينوى بجوار مدينة الموصل بالعراق ، فاستبطأ إيمانهم وشق عليه تلكؤهم ، وضاق صدره بتكذيبهم ، فهجرهم مغاضبًا لهم ، وقاده الغضب إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينة مع آخرين ، فلما كانوا فى وسط اللجّة ثقلت السفينة وتعرضت للغرق ، فأقرعوا بين الركاب للتخفف من واحد منهم ، لتخفّ السفينة ، فكانت القرعة على يونس ، فألقوه فى اليم ، فابتلعه الحوت ، عندئذ نادى يونس ، وَهُوَ مَكْظُومٌ . (القلم : ٤٨) . مملوء غيظًا ، لوقوعه فى كرب شديد ، فى ظلمات البحر ، وفى بطن الحوت ، وفى وسط اللجة ، نادى ربه : أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ

ٱلظَّـٰلِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) . فتداركته نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطئ مريضًا سقيمًا ، ثم يسر الله له الأمور ، واصطفاه وأوحى إليه ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا به ، وجعله الله من الصالحين ، حيث ردّ إليه الوحى ، وشفعه فى نفسه وقومه .

٥٠ – ٥٢ – وفى ختام السورة نجد مشهدًا للكافرين ، وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم فى غيظ عنيف ، وحسد عميق ، ينسكب فى نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه .

**قال جار الله الزمخشرى :**

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . (القلم: ٥١) . يعنى أنهم من شدة تخوفهم ، ونظرهم إليك سرًّا بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يزلون قدمك ، أو يهلكونك ، من قولهم : نظر إلىّ نظرا يكاد يصرعنى ، أو يكاد يأكلنى ، أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله .

وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية ، وقد كان الكفار يريدون إصابة النبى ﷺ بعيونهم وحسدهم ، فعصمه الله تعالى وأنزل عليه الآية .

وقد صح فى الحديث من عدة طرق : «إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر»[١٢] .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى ذر مرفوعًا : «إن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقًا ثم يتردى منه»[١٣] .

**ومما يحفظ المؤمن من الحسد خمسة أشياء ، هى :**

١ – قراءة : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس .

٢ – إخراج صدقة .

٣ – قراءة : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير) عشر مرات بعد صلاة المغرب ، وعشر مرات بعد صلاة الصبح .

٤ – قراءة قوله تعالى : وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . (القلم ٥١) .

٥ – وأهم شىء فى الوقاية من الحسد ، الثقة الكاملة والاعتقاد اليقينى بأن الله هو النافع الضار ، وأن أحدًا لن ينفعك إلا بإذن الله ، ولن يضرك إلا بمشيئة الله .

## المعنى الإجمالى للسورة

بيان محاسن الأخلاق النبوية ، وسوء أخلاق بعض الكفار ، وعذاب مانعى الزكاة ، وضرب المثل بقصة أصحاب الجنة ، وتقريع المجرمين وتوبيخهم وإقامة الحجة عليهم ، وتهديد المشركين المكذبين بالقرآن ، وأمر الرسول ﷺ بالصبر ، والإشارة إلى حال يونس عليه السلام فى قلة الصبر على قومه ، وقصد الكفار رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين فى قوله : وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . (القلم: ٥١) .

أسماء السورة :

للسورة اسمان : سورة (ن) ، وسورة القلم .

والاسم الثانى أشهر من الأول .

★ ★ ★

# تمهيـــد

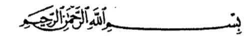
تفيد كتب علوم القرآن الكريم أن سورة القلم من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، فأول سورة من القرآن الكريم نزلت هى سورة العلق ، وفى صدر السورة حثّ على القراءة والعلم ، وكذلك سورة القلم فيها مدح للكتابة والتعليم ، وفيها قَسَمٌ بالقلم والكتابة والتسطير ، لبيان أهمية ذلك فى تبليغ الدعوة الإسلامية ، وارتفاع شأن الأمّة .

وقد اختار الله رسوله أمّيًّا لحكمة عليا : حتى لا يرتاب المبطلون ، ولا يظن الظانون أنّه نقل القرآن من الكتب السابقة ، وهذا النبىّ الأمى علّم الناس الوحى ، وارتقى بأمّته من الجهل والتدابر إلى العلم والتواصل .

وإذا كان صدر سورة القلم قد نزل مبكرًا ، فإن بقية السورة نزلت بعد ذلك ، ويرجّح الأستاذ سيد قطب فى تفسيره (فى ظلال القرآن) أن السورة نزلت تهاجم الكافرين وتهددهم ، وذلك يوضّح أن تاريخ نزولها كان بعد الجهر بالدعوة ، أى بعد ثلاث سنوات من مرحلة الإسرار بالدعوة .

* * *

## الخلق العظيم



﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

**المفردات :**

**ن** : حروف أقسم الله بها ، أو استفتح بها السُّور ، أو هى للتحدّى والإعجاز ، أو هى كالجرس الذى يُقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة ، أو هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

**يسطرون :** يكتبون

**ممنون :** منقوص ، أو مقطوع ، يقال : منَّه السير ، إذا أضعفه ، والمنين الضعيف .

**المفتون :** المجنون لأنَّه فُتن ، أى ابتلى بالجنون .

**تمهيد :**

أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم والكتابة فتحا لباب التعليم ، ولا يقسم الله تعالى إلا بالأمور العظام فقد أقْسم بالشمس والقمر ، والسماء والليل والفجر ، وذلك لعظمة الخلق وجمال الصنع ، كما أقْسم بالقلم والكتابة لبيان أثر العلم فى رفع شأن الأمّة ، ورقى شئونها الاجتماعية والعمرانية ، حتى تكون كما وصف الله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... (آل عمران : ١١٠) .

ثم مدح رسوله الأمين ﷺ بقوله : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ .

**التفسير :**

١ - نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ .

أقسم الله تعالى ببعض الحروف التى افتتح بها بعض سور القرآن الكريم ، مثل : نٓ ص ، حمٓ ، طسم المر ، المص ، حم عسق ، كهيعص .

وهى حروف يقصد بها التحدّى والإعجاز ، وبيان أن القرآن مُكوَّنٌ من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، ولكنه تنزيل من عليم حكيم .

وقيل : هى أدوات للتنبيه ، كالجرس الذى يُقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة .

وَٱلْقَلَمِ .

أقسم الله بالقلم ، وهو وسيلة الكتابة وأداة التعليم ، تحريرًا لنا من الأمّية ، وتوجيها لنا إلى فضل العلم وأهمية الكتابة ، حتى قال القائل :

تعلم العلم واقرأ تحز فخار النبوّة
فالله قال ليحيى خذ الكتاب بقوّة

ويمكن أن يراد بالقلم أيضًا ، القلم الذى يكتب به الملائكة ما فى اللوح المحفوظ ، ويسجّلون به فى صحائفهم أعمال الناس.

إن ديننا دين العلم والكتابة ، والتسابق العلمى والفكرى ، ومن واجب الأمة الإسلامية أن تتسابق فى ميادين العلم النظرى والعملى والدينى ، ليعود لها مجدها وعزّها .

قال تعالى : قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... (الزمر : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ... (ال عمران ١٨) .

وقال سبحانه وتعالى : وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٣) .

وَمَا يَسْطُرُونَ .

وما يكتب بالقلم ، وما يسطَّر به من الكتب .

٢ - مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ .

كان الحقد والحسد على محمد ﷺ قد بلغ أشدَّه من الكافرين ، فادعوا أن محمدًا مجنون ، وأن هذا القرآن آثر من آثار هذيانه وجنونه ، ومحمد ﷺ فى الذروة العليا من العقل والحكمة والرشد ، قد أرسله الله لهداية الناس ورحمتهم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

لذلك أقسم الله على أن محمدًا بسبب نعمة الله ورحمته به ، منتفٍ عنه الجنون ، مؤهلٌ للرسالة ، موصول القلب بالله ، متلقٍ لنعم الله وفيوضاته .

٣ - وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ .

وإن لك من الله تعالى أجرا دائما ، وثوابا متصلا لامِنَّة فيه ولا نقصان ، بل هو فيض رحمة الله بك وحنانه عليك ، وتكريمه لك ، بسبب ما تلقاه من عنت المشركين وتكذيبهم لك .

٤ - وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ .

هذه شهادة من الله لمحمد ﷺ ، الذى اختاره رسولا أمينا ، وأنزل عليه آخر رسالات السماء ، الرسالة التى اشتملت على صلاح البشرية ، وهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وأنزل الله القرآن الكريم نورا وهداية وصلاحًا ، وكانت أخلاقه ﷺ قرآنا متحركا .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خُلُقه القرآن.[١٤] رواه مسلم فى صحيحه .

وفى الصحيحين عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لى أفٍّ قط ، ولا قال لشىءٍ فعلته لم فعلته ، ولا قال لشىءٍ لم أفعله ألا فعلته ، وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا .[١٥].

لقد تحمل الأذى فى مكة قبل الهجرة ، ثم نصره الله عليهم ، ودخل مكة فاتحا منتصرا ، فعفا عن أهلها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

قال تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ... (آل عمران : ١٥٩) .

٥ ، ٦ – فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ .

فسترى أيها الرسول الكريم ويرون من منكم المفتون المجنون ، من الذى سينهزم فى بدر ، وفى فتح مكة ، ومن الذى سينتصر .

وأغلب الظنّ أن أهل مكة حين اتهموه ﷺ بالجنون ، لم يكونوا يقصدون ذهاب العقل ، بل كانوا يذهبون إلى أن الجن تزيّن له ما يقول وتقدمه له ، فيخلط كلام الجن بكلامه ، كما ادعى العرب أن لكل شاعر شيطانًا من الجنّ يعينه ويمدّه بالشعر .

قال تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ . (الشعراء ٢١٠ ٢١٢) .

وقال تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

٧ – إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ .

استئناف لبيان ما قبله ، وتأكيد لما تضمنه من الوعد والوعيد .

إن الله أعلم من المجنون فيكما ، فالمجنون هو الذى ضلّ عن سبيل الهدى ، وتنكب الجادة ، واختار طريق الكفر والضلال ، وهو سبحانه أعلم بالمهتدى الذى بلّغ رسالة السماء ، وتمتع بالخلق العظيم ، وجعله الله خاتمًا للنبيين ، ومتعه بأسمى صفات البشر .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا . (الأحزاب ٥٦) .

وقد جعل الله طاعة الرسول من طاعة اللّه ، وجعله مبيّنًا وموضحًا للوحى ، وقائدًا لأمّته ، ومتعه الله بالشفاعة يوم القيامة ، ويسّر له النصر ويسر لأمّته فتحًا مبينًا ، ونصرًا عظيما .

قال تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . (الصف ٩) .

وقال تعالى : مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ... (النساء : ٨٠) .

وقال عز شأنه : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... (النحل : ٤٤) .

★ ★ ★

## لا التقاء بين الإيمان والكفر

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**وذوا لو تدهن :** تمنوا لو تلين لهم بعض الشىء ، وتصانعهم فى الدِّين . قال الليث : الإدهان : اللين والمصانعة والمقاربة .

**حلاف :** كثير الحلف فى الحق والباطل .

**مهين :** محتقر فى الرأى والتمييز .

**همَّاز :** عيّاب طعّان ، أو مغتاب .

**مشاء بنميم :** الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم .

**مناع للخير :** بخيل .

**معتد :** يتجاوز الحق ، ويسير فى الباطل .

**أثيم :** كثير الآثام والذنوب .

**عتُل :** غليظ القلب ، جاف الطبع .

**زنيم :** دعىٌّ ، معروف بالشر واللوْم .

**سنسمه :** نجعل له سمة وعلامة .

**الخرطوم :** الأنف ، والمراد : سنلحق به عاراً لا يفارقه ، كالوسم على الأنف .

**التفسير :**

٨ - فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

أى : كما أنعمنا عليك بالرسالة والوحى والقرب، وأعطيناك الشرع المستقيم ، فلا تطع المكذبين .

وذلك أن رؤساء مكة دعوه إلى دين آبائه ، فنهاه الله أن يطيعهم .

٩ – وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ .

طلب كفار مكة من النبى ﷺ أن يعبد آلهتهم وقتًا ما ، وأن يعبدوا إلهه وقتًا ما ، فإن كان فى إلهه خير أصابوا منه ، وإن كان فى آلهتهم خيرٌ أصاب منه رسول الله ﷺ ، وتمنَّوا أن يلين معهم ، وأن يتقرب من آلهتهم ، وأن يصل معهم إلى منتصف الطريق ، فلا يهاجم آلهتهم ، وأن يتقرب إليها أىَّ تقرّب ، وأن يفعلوا مثل ذلك مع إلهه ، لكن الله تعالى نهاه عن ذلك ، وبيّن أن الحق والباطل لا يلتقيان .

قال الحسن :

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ .

أى : لو تصانعهم فى دينك ، فيصانعون فى دينهم .

وقال ابن السائب : لو تلين فيلينون لك .

وقال ابن جرير الطبرى :

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : ودّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم فى دينك ، بإجابتك إيّاهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلهك .

كما قال جل ثناؤه : وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا . (الإسراء : ٧٤) .

قال : وإنما هو مأخوذ من الدُّهن ، شبَّه التليين فى القول بتليين الدُّهن .

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآيات على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الوليد بن المغيرة .

الثانى : الأخنس بن شريق .

الثالث : الأسود بن عبد يغوث .

١٠ – وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ .

وهو كثير الحلف بالباطل . مَّهِينٍ . دنىء كذّاب ، فهو حين يكذب يغطى كذبه بالأيمان الباطلة ، وكفى بذلك مهانة وذلاً له عند نفسه وعند الآخرين ، ويكفى الكذب عيبا أن الله بدأ به تسع صفات مذمومة .

١١ – هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ .

هو كثير الهمز واللمز ، بحّاث عن عيوب النّاس ، مما يدلّ على عيب فى ذاته ، وقد ذمّ الله هذا الخُلق ، ونهى عن التماس عيوب الآخرين .

قال تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . (الهمزة : ١) .

وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ... (الحجرات : ١١) .

مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ .

إنسان وصولى ، حاقد على تواصل الناس وترابطهم ، فهو يمشى بالنميمة، ويقطع أواصر الأخوّة ، ويحوّل أصدقاء الأمس إلى متباغضين ، وفى الأثر : «من نمّ لك نمَّ عليك ، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك» .

وقد أخرج أبو داود ، والترمذى من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان ينهى أن ينقل إليه أحدٌ ما يغيّر قلبه على صاحب من أصحابه ، وكان يقول : «لا يبلِّغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا ، فإنى أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[١٦] .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : «إنهما يعذّبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأمّا الآخر فكان يمشى بالنميمة» [١٧] .

وروى الإمام أحمد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يدخل الجنة قتات»[١٨] .

وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عند تفسير هذه الآية ، وكذلك صاحب (فى ظلال القرآن) .

وأنقل لك هذا الحديث :

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : «ألا أخبركم بخياركم» ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : «الذين إذا رؤوا ذُكِر الله عز وجل» ، ثم قال : «ألا أنبئكم بشراركم؟ المشّاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب» [١٩] .

١٢ - مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ .

هو نموذج من نماذج الشر ، فقد كان يمنع أولاده وأهله من الدخول فى الإسلام ، ويهددهم بمنع ماله ومعروفه ومساعدته عمن دخل فى دين محمد.

ولا يوجد خير أعظم من الإسلام ، فقد كان يمنع الناس منه ، كان ظالما معتديا ، وقد حارب القرآن الظلم والعدوان بجميع طرقه وأصنافه ، حتى فى الطعام والشراب .

قال تعالى : كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ ... (طه : ٨١) .

وهو أثيم يرتكب المعاصى والإثم بدون تحديد ، وهو يدل على تنوّع المعاصى والآثام التى يرتكبها .

وقيل : إن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى ، كان موسرًا وكان له عشرة من البنين ، وكان يقول لهم ولأقربائه : من أسلم منكم منعته رِفْدِى وعطائى ، وقيل : نزلت فى أبى جهل ، وقيل : فى غيرهما.

وقد ذكر العلماء أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالآيات تحذر من اتباع كل إنسان متصف بهذه الصفات التسع :

١ - وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ .

٢ - مَّهِينٍ .

٣ - هَمَّازٍ .

٤ - مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ .

٥ - مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ .

٦ - مُعْتَدٍ

٧ - أَثِيمٍ .

٨ - عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ .

٩ - زَنِيمٍ .

وهذه الصفات ترسم نموذجا بلغ الغايات فى الشرور والآثام .

١٣ – عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ .

عُتُلٍّ . غليظ جاف ، يعامل الناس بالغلظة والفظاظة .

زَنِيمٍ . معروف بالشرور والآثام ، كما تعرف الشاة بالزنمة وهى ما يتدلى من رقبتها .

قال سعيد بن جبير : الزنيم الذى يعرف بالشرّ ، كما تعرف الشاة بزنمتها .

وروى عن ابن عباس أنه قال : هو الرجل يمرّ على القوم ، فيقولون : رجل سوء .

وكلمة عُتُلٍّ . تعبر بجرسها وظلّها عن مجموعة من الصفات ، فقد يقال : إن العُتلّ هو الغليظ الجاف ، وإنه الأكول الشروب ، وإنه الشره المنّاع للخير ، وإنه الفظّ فى طبعه ، اللئيم فى نفسه، السيئ فى معاملته .

زَنِيمٍ .

وهذه خاتمة الصفات الكريهة المذمومة .

والزنيم من معانيها : اللصيق فى القوم ولا نسب له فيهم ، ومن معانى الزنيم : الذى اشتهر بين الناس بلؤمه وخبثه ، وكثرة شروره .

١٤ – أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ .

لقد أعطاه الله المال والبنين ومنّ عليه بالنعم ، وكانت تستحق منه شكر النعمة ، وتصديق رسالة الرسول ، لكنّه قابل نعمة الله بالتكذيب والاختلاق .

١٥ – إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

إذا قرئ عليه القرآن رفض الإيمان والتصديق به ، وقال : إنه أكاذيب السابقين التى دُوّنت فى الكتب ، وليس من كلام الله .

وفى هذا المعنى قوله تعالى : ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ .

(المدثر : ١١ – ٢٥)

**والخلاصة :**

لقد أعطاه الله المال والبنين ، فجعل الكفر مكان الشكر ، وكذّب بآيات الله ، وقال : إنها أكاذيب السابقين .

**١٦ – سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ .**

سنُقيِّض له وسائل الإذلال والمهانة ، فقد ذمّه الخالق الكريم ، وسجّل ذلك فى كتابه الخالد .

والمعنى الحرفى للآية : سنجعل وسمًا وعلامة على أنفه ، ليتذكر كلّ من رآه تاريخه ومذلّته .

والأنف رمز العلوّ والرفعة . يقال : أنف أشمّ ، للعزيز . وأنف فى الرغام ، للذليل ، أى فى التراب ، ويقال : ورم أنفه ، وحمى أنفه ، إذا غضب معتزًا ، ومنه الأنفة .

وقد أذلّه الله يوم بدر ، وسينتظره ذلٌّ أعظم يوم القيامة .

**جاء فى تفسير المراغى :**

وفى التعبير بلفظ : ٱلْخُرْطُومِ . استخفاف به ، لأنه لا يُستعمل إلا فى الفيل والخنزير ، وفى استعمال أعضاء الحيوان للإنسان، كالمشفر للشفة والظلف للقدم ، دلالة على التحقير كما لا يخفى .

**والخلاصة :**

سنذلّه فى الدنيا غاية الإذلال ، ونجعله ممقوتا مذموما ، مشهورًا بالشرّ ، ونسمه يوم القيامة على أنفه ، ليُعرف بذلك كفره وانحطاط قدره .

★ ★ ★

## قصة أصحاب الجنة

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

**المفردات :**

**بلوناهم :** امتحنّاهم بألوان من البلاء والآفات .

**الجنة :** البستان .

**ليصرمنّها :** ليقطعن ثمارها بعد نضجها .

**مصبحين :** وقت الصباح المبكّر .

**ولا يستثنون :** ولا يثنُون عمّا همُّوا به من منع المساكين .

**طائف من ربك :** طارق من عذاب ربّك ، نار محرقة ، أو صاعقة أحرقت البستان .

**كالصريم :** كالليل البهيم في السواد ، بعد أن احترقت .

**فتنادوا :** نادى بعضهم بعضا .

**اغدوا :** اخرجوا غدوة مبكرين .

**صارمين :** قاصدين للصرم وقطع الثمار .

**يتخافتون :** يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمناجاة ، حتى لا يسمعهم أحد .

**على حرد :** على منع ، أو انفراد عن المساكين .

لضالون : قد ضللنا طريق جنتنا ، وما هذه هى .

محرومون : حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا .

أوسطهم : أحسنهم رأيا .

لولا تسبحون : هلا تذكرون الله ، وتتوبون إليه من خبث نيتكم .

يتلاومون : يلوم بعضهم بعضا على عزمهم منع المساكين .

طاغين : متجاوزين حدود الله .

راغبون : راجون العفو ، طالبون الخير .

**تمهيد :**

يضرب الله مثلا وقصة ، قيل كانت بأرض اليمن ، قريبًا من صنعاء ، لرجل صالح كان يؤدى حق الله فى ماله ، ويترك للمساكين جانبًا من ثمار بستانه ، فلما مات أصرّ أولاده على منع حق المساكين ، وحلفوا ليقطعنّ ثمار البستان فى الصباح الباكر خفية عن المساكين ، فجازاهم الله بما يستحقون ، وأرسل على بستانهم صاعقة أحرقته ، وجعلته أسود فاحمًا خاليًا من الثمار ، فحرمهم الله من بستانهم عقوبة لهم .

**التفسير :**

١٧ - إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ .

اختبرنا أهل مكة بالمال والغنى والبلد الأمين ، لكنهم لم يشكروا هذه النعمة ، وكذّبوا محمدًا ﷺ ، وشأنهم فى ذلك شأن أصحاب الجنة ، وقصتهم مشهورة باليمن ، فقد كان البستان لرجل صالح يخرج زكاة بستانه ، ويجعل للمساكين بعد ذلك ما أخطأه الحاصد ، وما تبقّى تحت النخلة من ثمر ، فلما مات الأب أصرّ أبناؤه أن يقطعوا ثمار البستان فى الصباح الباكر .

١٨ - وَلَا يَسْتَثْنُونَ .

ولا يتركون شيئًا فى بستانهم للفقراء والمساكين ، أو لم يقولوا إن شاء الله .

١٩ - فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ .

دبّروا كيدًا بليل ، وناموا غافلين عن أمر السماء ، فأرسل الله على البستان ليلاً صاعقة أحرقته ، وصار أسود فاحمًا ، لا أثر فيه للثمار ، وأصحابه فى غفلة عما جرت به المقادير .

٢٠ - فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ .

أصبحت جنتهم كالبستان الذى صرمت ثماره ، وقطعت بحيث لم يبق فيها شىء ، أو أصبحت كالليل البهيم الحالك السواد من آثار الحريق ، جزاء رغبتهم فى حرمان المساكين من أىّ شىء من ثمار جنتهم .

أخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعصية ، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقًا قد كان هيئ له» ، ثم تلا : فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ ... الآية ، «قد حُرموا خير جنتهم بذنبهم» .

٢١ ، ٢٢ - فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ .

يصوّر القرآن حال هؤلاء الناس ، غافلين عما دبره القدر ليلاً بإحراق بستانهم ، فانطلقوا فى الصباح ينادى بعضهم بعضًا : هلموا نذهب إلى البستان لنجمع ثماره ونقطعها .

٢٣ ، ٢٤ - فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ .

وانطلقوا إلى عملهم ، يتشاورون فى سرية وصوت منخفض ، ويوصّى بعضهم بعضًا بأن البستان لنا وحدنا ، ولم يعد فيه حق لمسكين أو فقير ، فأغلِقوا أبوابه ، مع توصية الحرّاس ألا يُدخلوا أى مسكين إلى الجنة .

٢٥ - وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ .

أى : وساروا أول النهار قادرين على منع المساكين من دخول البستان ، أو منع أنفسهم من إيصال الثواب إليهم .

ولكلمة حَرْدٍ . معانٍ كثيرة ذكرها المفسرون ، والمستفاد من سياق القصة أنهم ساروا يمنّون أنفسهم بتنفيذ خطّتهم ، ومنع المساكين من الاستفادة بجزء من ثمار البستان ، ومنع أنفسهم من التخلّى عن هذه الرغبة ، أى أنهم مضوا لتنفيذ ما عزموا عليه ، حال كونهم على تنفيذه من وجهة نظرهم قادرين .

٢٦ ، ٢٧ - فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

فلما شاهدوا جنتهم محترقة ، قالوا : لقد ضللنا الطريق فليست هذه جنتنا ، ثم تيقّنوا منها ، فقالوا :

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

إنه بستاننا بعينه ، لكنّا حرمنا خيره بسبب عزمنا المؤكد على حرمان المساكين ، وأظهروا الندم والتلاوم بعد فوات الأوان وضياع البستان .

٢٨ – قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ .

قال أعقلهم وأحسنهم رأيًا : ألم أقل لكم اتقوا الله ، وتذكروا نعماءه ، واشكروه وعظموه بإخراج الزكاة والصدقة : وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ... (الأنعام : ١٤١) .

٢٩ – قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ .

قالوا : تنزه الله عن الظلم ، إنا كنّا ظالمين لأنفسنا ، معتدين على حق المساكين . لقد اعترفوا بذنبهم بعد فوات الأوان .

٣٠ – فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ .

أى : يلوم بعضهم بعضا على منع المساكين حقوقهم ، يقول هذا لهذا : أنت أشرت علينا ، ويقول الآخر : أنت فعلت ، فإن منهم من أشار بذلك ، ومنهم من استحسنه ، ومنهم من سكت راضيًا ، ومنهم من أنكره .

٣١ – قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ .

أخذوا يلومون أنفسهم ، وينادون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، حيث تكبّروا وطغوا ، ومنعوا حق المساكين ، ولم يشكروا نعم الله عليهم كما شكرها أبوهم ، حتى أصابهم ما أصابهم .

وفى القصة عظة وعبرة ، وتحذير للإنسان من الطغيان وعدم شكر النعمة ، فالنعمة مجنونة ، وتحصينها بالشكر ، واستخدامها فيما خلقت له .

٣٢ – عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ .

نرجو أن يعوّضنا الله خيرًا من جنتنا ، إنا تائبون نادمون على فعلنا ، راغبون فى فضل الله وعظيم ثوابه .

**وعن مجاهد** : إنهم تابوا فأبدلوا خيرًا منها .

٣٣ - كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ .

**جاء فى الدرّ المنثور للسيوطى :**

أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة فى قوله تعالى : كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ . قال : عقوبة الدنيا ، وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ . قال : عقوبة الآخرة .

**ومعنى الآية :**

ما فعلنا بأصحاب الجنة نفعله بكل من تعدّى حدودنا ، وعصى رسلنا ، كما فعلنا بعاد وثمود وفرعون ، وعذاب الآخرة أكبر وأشدّ وأخزى ، لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ . أى : لو كان الكفار من أهل العلم لأفاقوا من غفلتهم ، وأخذوا من العذاب حذرهم ، ولما وقعوا فيما وقعوا فيه .

**وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :**

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب :

كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ .

وكذلك الابتلاء بالنعمة ، فليعلم المشركون أهل مكة :

إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ...

ولينظروا ماذا وراء الابتلاء ، ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا :

وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ .

★ ★ ★

## مناقشة المشركين

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

**تمهيد :**

تفيد الآيات أن للمتقين عند الله جنات النعيم ، ولما سمع الكفار ذلك قالوا : نحن فى الدنيا أحسن من المؤمنين ، وفى الآخرة سنكون أيضًا أحسن من المؤمنين ، أو على الأقل سنكون مثلهم ، فناقشهم القرآن نقاشًا متتابعًا ، حاكمهم فيه إلى المنطق والعقل ، فقال :

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ .

هل يستوى من أطاع الله ومن عصاه ؟ هل يحكم بذلك عاقل ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

ثم سألهم : هل عندكم دليل نقلى ، أو كتاب من السماء تدرسونه وتقرأونه بذلك ؟

ثم سألهم : هل لديكم وعد من الله بأن لكم الجنة مثل المؤمنين ، أو بأن لكم ما تحكمون به وما تختارونه ؟

وأمر الرسول أن يسألهم : من هو الزعيم فيكم بذلك ؟ وهل معكم شركاء يوافقونكم على ما تذهبون إليه ؟ فلتحضروا هؤلاء الشركاء فى يوم يكشف فيه عن ساق من شدة الهول ، ويدعون إلى السجود لله ، فلا يستطيعون السجود لتصلّب ظهورهم ، وقد كانوا يدعون إلى السجود فى الدنيا حال سلامة ظهورهم فلا يستجيبون ولا يسجدون .

**التفسير :**

**٣٤ - إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ .**

فى آيات سابقة تحدث القرآن الكريم عن قصة أصحاب الجنة ، التى انتهت بهلاك مروّع لبستانهم ، ثم قال تعالى : كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ .

وفى مقابل عذاب الكفار فى الآخرة تحدث القرآن عن نعيم أهل الجنة ، فقال :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

**والمعنى :**

إن للأبرار المؤمنين الذين اتقوا ربهم وراقبوه ، خشية لمقامه ، وطاعة لأوامره ، واجْتنابًا لمحرماته ، وامتثالاً لكتابه ، واهتداء بسنة نبيه ﷺ ، هؤلاء المتقون لهم منزلة عالية عند الله فى رضاه ونعيمه وقربه وحماه وفضله ، حيث يتمتعون بجنات فى النعيم الكامل : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ... (الزخرف : ٧١) .

وفى الحديث الشريف : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[٢٠] .

**قال مقاتل بن سليمان البلخى :**

لما نزلت هذه الآية قال كفّار مكة للمسلمين : إن الله فضّلنا عليكم فى الدّنيا فلابدّ أن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ، فردّ الله عليهم ما قالوا ، وأكدّ فوز المتقين بقوله :

**٣٥ - أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ .**

أنحيف فى الحكم ، ونظلم المسلمين المتقين ونسوّى بينهم وبين المجرمين الذين أجرموا بالشرك والكفر بالله ورسله ؟

**٣٦ - مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .**

ماذا حدث لكم من فساد الرأى ، وخبل العقل ، حتى حكمتم بالمساواة بين الأخيار والأشرار .

وفى ذلك المعنى يقول الله تعالى : أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ . (ص : ٢٨) .

٣٧ ، ٣٨ - أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ .

أفسدت عقولكم حتى حكمتم بذلك ، أم نزل عليكم كتاب يتدارسه الخلف عن السلف بأنّ الحكم بأيديكم تختارون ما يناسبكم منه ، وما تشتهون من نعيم الجنة ؟

قال صاحب الظلال :

فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذى يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذى لا يقبله عقل ولا عدل ، وهو الذى يقول لهم إن المسلمين كالمجرمين ، إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ، ويتملّق رغباتهم ، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف !

٣٩ - أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فهل معكم عهود موثقة على الله ، مستمرة مؤكدة إلى يوم القيامة بأن لكم ما تحكمون به ؟ أى ما تطلبونه ينفّذ ، كما ينفّذ حكم الحاكم أو قضاء القاضى .

٤٠ - سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ .

وجه إليهم السؤال ، وقل لهم : من منكم الزعيم الضامن بأن لكم على الله ما تشتهون وما تحكمون ؟ وهو تهكم ساخر عميق بليغ ، يذيب الوجوه من الحرج والتحدّى السافر المكشوف .

٤١ - أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ .

هل هناك من يشاركهم فى ذلك الرأى ، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين ؟ وإن كان كذلك فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

والمقصود : إن أحدًا لا يسلّم لهم بهذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنّهم لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به ويتصدّى لإنفاذه .

وربما احتملت الآية وجهًا آخر أو معنى آخر هو ما يأتى : لقد كان لكفار مكة شركاء للّه فى العبادة ، هى الأصنام والأوثان مثل : اللات والعزّى ومناة ، والقرآن هنا ينسب الشركاء إليهم لا إلى الله ، ويتحدّاهم أن يأتوا بهؤلاء الشركاء فى يوم شديد الهول هو يوم القيامة ، يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ...

٤٢ - يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ .

أى : فليأتوا بهؤلاء الشركاء ليعاونوهم إذا اشتد الهول وعظم الأمر يوم القيامة ، والكشف عن الساق فى تعبيرات اللغة العربية كناية عن الشدة والكرب ، فهو يوم القيامة الذى يشمّر فيه عن الساعد ، ويكشف فيه عن الساق ، ويشتد الكرب والضيق ، ويُدْعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأن الهول قد شدّ أجسامهم وأعصابهم ، فتوقفت ظهورهم فلا تستطيع الانحناء من العجز والكرب المخيف .

وفى الآية دليل على أنّهم يحاولون السجود فى الآخرة فلا يستطيعون ذلك ، بينما يوفَّق المؤمنون للسجود لله تعالى فى ذلك اليوم .

٤٣ - خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ .

يحشر هؤلاء المشركون فى حالة من الذلة والمهانة ، منكسرة أبصارهم ، تغشاهم المهانة والندامة والمذلّة والحسرة ، وقد كانوا يدعون إلى طاعة الله وشرعه فى الدنيا ، وهم سالمون أصحاء معافون متمكنون من السجود فلا يستجيبون كبرًا وإعراضًا وأنفة من الاستجابة للحقّ ، لذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة .

رُوى أنه كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه على عكس السجود ، بخلاف ما عليه المؤمن .

أخرج البخارى ، ومسلم وغيرهما ، عن أبى سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يكْشِفُ ربنا عن ساقه فيسجد له كلُّ مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا»[٢١] .

وقد أورد الحافظ السيوطى فى كتابه (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) طائفة من روايات هذا الحديث فى الصحيحين وفى كتب السنن .

وأنكر ذلك سعيد بن جبير ، فقد سُئل عن الآية : يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ... فغضب غضبًا شديدًا ، وقال : إن أقوامًا يزعمون أن الله سبحانه يكشف عن ساقه ، وإنما يكشف عن الأمر الشديد ، وعليه يحمل ما فى الحديث ، وقد أورد ذلك الآلوسى فى تفسيره ، (جزء ٢٩ ، ص ٣٥) .

وأرى أن الحديث صحيح ، وارد فى الصحيحين وفى كتب السنن ، والسلف يقولون فى المتشابه من الآيات والأحاديث : نؤمن بها كما وردت ، ونفوّض المراد منها إلى الله تعالى .

والخلف يقولون : يجب تأويلها على معانٍ تليق بذات الله تعالى .

وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول : (إذا صح الحديث فهو مذهبى ، واضربوا بقولى عرض الحائط) .

.ومن إعجاز القرآن الكريم أن الآية قد يكون لها معنى ، وتشير إلى معنى ، وتستتبع معنى .

والآية الكريمة : يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ... تحتمل المعنى المجازى ، ويمكن فهمها على المعنى الحقيقى ، ولنا أن نأخذ برأى السلف فنقول : نؤمن بها كما وردت ونفوّض المراد منها إلى الله تعالى ، ولنا أن نأخذ برأى الخلف فى أن كشف الساق كناية عن الشدّة والهول ، والله أعلم .

★ ★ ★

## ختام سورة القلم

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾

**المفردات :**

**فذرنى ومن يكذب :** أى كِلْه إلىّ فإنى أكفيكه .

**سنستدرجهم :** يقال : استدرجه إلى كذا ، إذا استنزله إليه درجة درجة حتى يورّطه فيه .

**وأملى لهم :** أمهلهم وأطيل لهم المدة ، يقال : أملى الله له ، أى : أطال له الملاوة ، وهى المدة من الزمن .

**كيدى متين :** تدبيرى قوىّ ، لا يفلت منه أحد .

**مغرم :** غرامة مالية .

**مثقلون :** مكلّفون أحمالاً ثقالاً ، فهم بسببها يعرضون عنك .

**الغيب :** ما كُتب فى اللوح ، واستأثر الله بعلمه .

يكتبون : يحكمون على الله بما شاءوا وأرادوا .

حكم ربك : هو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم .

صاحب الحوت : يونس عليه السلام .

مكظوم : مملوء غيظًا وغمًّا ، من قولهم : كظم السقاء ، إذا ملأه .

العراء : الأرض الخالية .

فاجتباه : اصطفاه بقبول توبته .

يزلقونك : ينظرون إليك نظرًا شديدًا يكاد يصرعك ويسقطك من مكانك لبغضهم لك .

الذكر : القرآن .

**التفسير :**

٤٤ - فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ .

يأتي أسلوب التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين المكذبين .

أي : خلّني وإياه ، وكِلْه إليّ لأجازيه بعمله ، وقيل : ذرني ، أي لا تشغل قلبك به ، ودعني وإياه فإني مجازيه ومكافئه ، وهو بمعنى الأوّل ، والعرب تقول مثل هذا القول ، وإن لم يكن هناك أحد يمنعه منه .

سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ .

الاستدراج في كلام العرب هو الأخذ قليلاً قليلاً ، ومنه : درج الصبيّ ، إذا مشى قليلاً قليلاً .

وقال سفيان الثوري : الاستدراج هو إسباغ النِّعم ، ومنع الشكر .

وقيل : هو أنه كلما جدد ذنبًا ، جدد اللّه له نعمة .

وعن عقبة بن مسلم قال : إذا كان العبد على معصية الله ، ثم أعطاه الله ما يحب ، فليعلم أنه في استدراج .

وعن الحسن البصري قال : كم من مُسْتَدرَج بِحُسن الثناء عليه ، ومغرور بستر الله عليه .

وقيل : سَنَسْتَدْرِجُهُم . أي : نمكر بهم من حيث لا يعلمون[٢٢]

وجاء فى تفسير البغوى ما يأتى :

فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ...

أى : فدعْنى والمكذبين بالقرآن ، وخلّ بينى وبينهم .

قال الزجاج : لا تشغل قلبك بهم ، كِلْهم إلىّ فإنى أكفيكهم ، ومثله : ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . (المدثر : ١١).

ومعناه فى اللغة : لا تشغل قلبك به ، وكله إلىّ فإنى أجازيه ، ومثله قول الرجل : ذرنى وإياه ، ليس أنه منعه منه ، ولكن تأويله : كِلْه إلىّ فإنى أكفيك أمره .[٢٣] .

٤٥ – وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ .

أى : أُمهلهم ولا أباغتهم جهرًا ، بتأخير العذاب عنهم ، وأمنحهم كثيرًا من النعم ليزدادوا إثمًا ، وهم يحسبون أن ذلك لإرادة الخير بهم .

إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ .

إن تدبيرى وعذابى لقوىٌّ شديد ، لا يُدفع بشىء ، فلا يفوتنى أحد ولا يعجزنى .

وأفاد صاحب الظلال ما يأتى :

إن المعركة بين الله وبين هؤلاء الظالمين المعتدين ، والرُّسل والهداة سبب ظاهرىّ ، أمّا المسبب الحقيقى فهو اللّه ، ولا يغلب الله غالب ، وهذا إنذارٌ رهيب للإنسان المسكين الذى يمثّل نملة صغيرة أمام قدرة الله القادرة ، إنّ هذه القدرة كانت وراء الرسول ﷺ وصحبه فى مكة ، وكانت أيضًا وراءهم فى المدينة حين أصبحت لهم دولة وقوة ، فقال تعالى لهم : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ... (الأنفال : ١٧) .

## من كلام المفسرين

ورد هذا المعنى فى كتاب الله تعالى فى نحو قوله سبحانه : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ . (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) .

وقوله تعالى : فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ . (الأنعام : ٤٤) .

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .

أى : أؤخرهم وأُنْسِئ فى آجالهم ملاوة من الزمان على كفرهم وتمرّدهم علىّ ، لتتكامل حججى عليهم ، وإن كيدى لأهل الكفر لقوى شديد[٢٤] .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ[٢٥] . (هود : ١٠٢) .

٤٦ - أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ .

ماذا أصاب هؤلاء القوم حتى أعرضوا عن رسالتك ؟

هل تطلب منهم جُعْلاً ومالاً إذا دخلوا فى الإسلام ، فهم يعرضون عنك بسبب الغرم العظيم والدَّين الثقيل الذى ينوء به كاهلهم ؟

وخلاصة ذلك : إن أمرهم لعجيب ، فإنك تدعوهم إلى الله بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجو ثواب ذلك من ربك ، وهم مع ذلك يكذّبونك ، ويكفرون بك جهلاً وعنادًا .

٤٧ - أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ .

هل عندهم علم اللوح المحفوظ ، بما هو كائن وما يكون ، فهم يكتبون منه ما يشاءون ، ويسطّرون ما يحتجُّون به عليك .

وقيل : المعنى أينزل عليهم الوحى بهذا الذى يحكمون به ، من أنهم على الحق ، ومحمد على الباطل .

والجواب : ليس عندهم شىء من ذلك .

٤٨ - فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ .

اصبر يا محمد لحكم ربك فى إمهال النصر ، وفى شدة البلاء عليك وعلى أصحابك ، لحكمة إلهية عليا ، هى تدريب المؤمنين على الصبر والمصابرة ، وتحمّل تبعات الجهاد ، وضَرَب الحق سبحانه نموذجًا عمليًا بنبى الله يونس حين كذّبه قومه ، وقد أرسله الله إلى قرية نينوى بالموصل ، فأبطأوا فى الاستجابة لدعوته ، فهجر القرية غضبانَ منهم ، وركب سفينة تنقله إلى جهة أخرى ، وفى منتصف البحر أوشكت السفينة على الغرق ، وأُجريت قرعة لإلقاء أحد الركاب فى البحر ، فخرجت القرعة على نبى الله يونس ،

فألقى فى البحر ، وفى شدة الظلمات والغم والألم نادى ربه : أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) .

فاستجاب الله دعاءه ، وألهَم الحوت أن يقذفه على الشاطئ ، وأنبت الله عليه شجرة القرع فأظلّته ، ويسَّر له طريق النجاة ، وطريق العودة إلى الرسالة والهداية ، وأرسله الله إلى قرية بها مائة ألف أو يزيد فآمنوا به .

رُوى أنه ﷺ أراد أن يدعو على ثقيف ، لمَّا آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة ، فنزل قوله تعالى : وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ .

وصاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد التقمه الحوت ، ونادى ربه وهو فى ظلمات البحر ، والغمّ والكرب والضيق ، فاستجاب الله له .

قال تعالى : فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الأنبياء : ٨٨) .

وقد أراد الله تعالى أن يجعل الرُّسل نموذجًا عمليًّا فى الصبر والمصابرة ، ليكونوا قدوة للمؤمنين ولأصحاب الدعوات .

قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وقال عز شأنه : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ... (يوسف : ١١٠) .

٤٩ - لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ .

لولا أن وفقه الله للتوبة والمناداة والمناجاة ، والاستجابة له ، لنبذه الحوت بالأرض الفضاء الخالية من الأشجار ، حال كونه واقعًا فى المذمَّة والملامة لهروبه من قومه الذين أرسل إليهم ثم ضاق بهم وتركهم .

وقيل : المعنى : لولا أن تداركته نعمة الله وفضله لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ثم نُبذ بعراء القيامة مذمومًا ، يدل عليه قوله تعالى : فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

(الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤)

وقرئ : رحمة من ربه ، وقرأ عبد الله وابن عباس : تداركته . بتاء التأنيث .

٥٠ - فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

فاختاره الله لفضله ونعمته ، بأن ردّ عليه الوحى ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، وجعله من الكاملين فى الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلاً تركه أولى .

٥١ - وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ .

من شدة عداوة الكافرين وتأثير البغضاء والحقد فى نفوسهم ، ينظرون إليك نظر الحقد والحسد أن منّ الله عليك بالنبوة والرسالة ، ويتهمونك بالجنون والهذيان .

**جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :**

**والمعنى :** إنهم من شدة عداوتهم لك ينظرون إليك شزرًا ، بحيث يكادون يصيبونك بالعين ، إذ قد رُوى أنه كان فى بنى أسد عيّانون ، فأراد بعضهم أن يؤذى رسول الله ﷺ بنظر عينه إليه ، فنزلت .

وفى الحديث : «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر»[٢٦] . ولعله من خصائص بعض النفوس[٢٧]

**وعن الحسن :** دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية : وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ .

## من كتاب

## (روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى)

### للعلامة الآلوسى البغدادى

أى : يكادون يصيبونك بالعين ، إذ رُوى أنه كان فى بنى أسد عيّانون ، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ ؛ فنزلت .

**وقال الكلبى :** كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنمًا أحسن من هذه ، فتسقط طائفة منها وتهْلك ، فاقترح الكفّار عليه أن يصيب رسول الله ﷺ ، فأجابهم وأنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيدا وإخال أنك سيد معيون

فعصم الله تعالى نبيّه ﷺ ، وأنزل عليه هذه الآية ، وقد قيل : إن قراءتها تدفع ضرر العين [٢٨] .

وعلّق الآلوسى قائلاً : وأنا لا أزيد على القول بأنّه من تأثيرات النفوس ، ولا أكيّف ذلك ، فالنفس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله عز وجل ، وكم طوى فيها أسرارًا وعجائب تتحير فيها العقول ، ولا ينكرها إلا مجنون أو جهول . ولا يسعنى أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها ، ومشاهدة آثارها على اختلاف الأعضاء [٢٩] .

أما صاحب الظلال فيقول :

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ ...

فهذه النظرات تكاد تؤثر فى أقدام الرسول ﷺ ، فتجعلها تزلّ وتزلق ، وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ، وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق ، وشر وحسد ، ونقمة وضغن ، وحمًى وسمّ ، مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشتم البذىء ، والافتراء الذميم .

وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ .

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة ، وتسجّله من مشاهد الدعوة العامة فى مكة ، فهو لا يكون إلا فى حلقة عامة ، بين كبار المعاندين المجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفى نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم .

٥٢ - وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ .

ما القرآن إلا تذكير للعالمين ، وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، فكيف يُحكم على من أُنزل عليه القرآن بالجنون ، والقرآن مشتمل على الذروة العليا من الفصاحة والبيان والتشريع والآداب وأخبار السابقين ، وحكم ما بين اللاحقين ، وأخبار القيامة والبعث ، وكلما تكرر حلا ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو معجز بما فيه من علوم وفنون وأخبار وأحكام يصدّقها العلم ، ولا تتصادم مع العقل ، فهو حقًّا تذكير للعالمين ، وسبيل من سبل الهداية لأهل المشارق والمغارب .

وقيل : معنى الذكر : الشرف والفضل ، لقوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤).

وإذا تأملنا السياق أدركنا أن المراد هو : الوحى والرسالة ودعوة الإسلام تذكير للعالمين .

كما قال سبحانه وتعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

وقد ادعى المستشرقون أن القرآن فى مكة كان محليًا للعرب ، فلما انتقل المسلمون إلى المدينة وأصبحت لهم دولة ، بدأ النبى ﷺ يكاتب الملوك ويدعوهم للإسلام ، واتجه القرآن إلى العالمية ، وإذا علمنا أن سورة القلم من أوائل ما نزل بمكة أدركنا أن عالمية الدعوة كانت وهى فى بدايات أمرها ، فهى دعوة الله إلى الناس كافة .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (سبأ : ٢٨) .

★ ★ ★

## خلاصة ما اشتملت عليه سورة القلم

١ – محاسن الأخلاق النبوية إلى قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ .

٢ – سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم من قوله تعالى : فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . إلى قوله تعالى : سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ .

٣ – ضرب المثل لهم بأصحاب الجنة من قوله تعالى : إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ... إلى قوله تعالى : كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ .

٤ – تقريع المجرمين وتوبيخهم وإقامة الحجج عليهم .

٥ – تهديد المشركين المكذبين بالقرآن فى قوله تعالى : فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ...

٦ – أمره ﷺ بالصبر على أذى المشركين حتى لا يكون كصاحب الحوت .

★ ★ ★


تفسير سورة الحاقة

# أهـــداف ســـورة الحاقــــة

(سورة الحاقة مكية ، وآياتها ٥٢ آية ، نزلت بعد سورة الملك)

وهى نموذج للسورة المكية التى تستولى على القلوب بأهوالها ومشاهدها وأفكارها المتتابعة ، وفواصلها القصيرة .

فى بداية السورة نلحظ هذه الرهبة من اسمها ، الحاقة ، لأن وقوعها حق يقينى ، ثم تصف مصارع المكذبين ، من ثمود إلى عاد إلى فرعون ، ثم تنتقل إلى مشاهد القيامة وأهوالها وصورها ، وتنوع الناس إلى فريقين : فريق يأخذ كتابه باليمين ، وفريق يأخذ كتابه بالشمال ، ويلقى كل فريق ما يستحق .

وفى المقطع الأخير من السورة تؤكد الآيات صدق رسول الله ﷺ ، وتنفى عنه تُهم المشركين ، وتثبت أن القرآن حق يقين ، من عند رب العالمين .

## مع آيات السورة

١ - ٣ - ٱلْحَاقَّةُ * مَا ٱلْحَاقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ .

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة ، ومن ثم تبدأ السورة باسم من أسماء القيامة : ٱلْحَاقَّةُ ، أى : الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجىء ، وهى آتية لا ريب فيها ، من : حقّ يحقّ بالكسر ، أى وجب .

وهذا المطلع يوحى بقدرة القدير ، وضعف الإنسان ، فهو لن يترك سدى ، بل أمامه يوم كله حق وعدل .

والألفاظ فى السورة توحى بهذا المعنى وتؤكده :

ٱلْحَاقَّةُ ، ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام ، مَا ٱلْحَاقَّةُ . ما هى ؟ أى شىء هى ؟ أى حقها أن يستفهم عنها لعظمها ، وهذا أسلوب من الكلام يفيد التفخيم والمبالغة فى الغرض الذى يساق له .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ . أى شىء أعلمك ما هى ؟ فهى خارجة عن دائرة علم المخلوقات لعظم شأنها ، ومدى هولها وشدتها ، ثم يسكت الأسلوب فلا يجيب على هذا السؤال ، لتذهب النفس فى هوله وشدته كل مذهب .

ومن أسماء القيامة الحاقة ، والقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

٤ ، ٥ – تصف الآيات ما أصاب ثمود من العذاب ، وثمود كانت تسكن الحجر فى شمال الحجاز ، بين الحجاز والشام ، وقد كذبوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم صيحة أهلكتهم ، وسميت الصيحة هنا طاغية لأنها جاوزت الحد فى الشدة ، وسميت فى سور أخرى بالصاعقة وبالرجفة وبالزلزلة ، وهى صفات للصيحة تبين أثرها فيمن نزلت بهم .

٦ – ٨ – تصف الآيات قصة هلاك عاد ، وقد كذبوا رسولهم ، فأرسل الله عليهم ريحًا باردة عاتية ، استمرت سبع ليال وثمانية أيام ، حُسُومًا : متتابعة ، حتى هلك القوم أجمعون ، وقد كانوا يسكنون بالأحقاف ، فى جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت ، وكانوا أشداء بطّاشين جبّارين ، وكان الجزاء من جنس العمل .

٩ ، ١٠– تصف مجيء فرعون ومن تقدمه من الأمم التى كفرت بآيات الله ، كقوم نوح وعاد وثمود ، والقرى التى ائتفكت بأهلها ، أى انقلبت بهم ، وهى قرى قوم لوط ، فقد عصى هؤلاء رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

١١ ، ١٢ – ترسم الآيتان مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، تشير بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا ، وتمتن على البشر بنجاة أصولهم التى انبثقوا منها ، والمشهور أن الناس كلهم من سلائل نوح وذريته .

١٣ – ١٨ – تصف الآيات أهوال القيامة وأحداثها ، فإسرافيل ينفخ فى الصور ، وتسوى الأرض والجبال ، وتدك كالكرة فيستوى عاليها بأسفلها ، عندئذ نزلت النازلة ، وجاءت القيامة . وقد انفرط عقد الكون المنظور ، واختلت روابطه وضوابطه التى تمسك به ، فترى السماء مشققه واهية مسترخية ، ساقطة القوة بعدما كانت محكمة ، والسماء مسكن الملائكة ، فإذا انشقت تعلق الملائكة بجوانبها وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية : ثمانية أملاك ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية أصناف ، أو طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله ولا ندرى نحن من هم ولا ما هم .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ . (الحاقة : ١٨) . فالكل مكشوف : مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف المصير .

ألا إنه لأمر عصيب ، وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ، ما ظهر منه وما استتر ، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع .

١٩ - ٢٤ - تصف الآيات مشهد المؤمن الناجى ، وهو ينطلق فى فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه فيهتف : اقرأوا كتابى فأنا من الناجين ، لقد أيقنت بالجزاء والحساب : فيعيش حياة ناعمة ، فى جنة عالية ، ثمارها قريبة التناول ، ويقول لهم ربهم جل ثناؤه : كلوا وتمتعوا جزاء عملكم السابق وطاعتكم لربكم .

٢٥ - ٢٩ - تصف الآيات حسرة المشرك ، وبؤسه ويأسه ، فهو يتمنى أنه لم يأت للموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هى القاضية ، التى تنهى وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئًا .

ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه ، فلا المال أغنى أو نفع ، ولا السلطان بقى أو دفع ، والرنة الحزينة الحسيرة المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة ، وفى ياء العلة بعد المد بالألف ، فى تحزن وتحسر تشعر بالحسرة والأسى والحزن العميق .

٣٠ - ٣٢ - ثم يقال لملائكة العذاب : خذوه إلى جهنم ، فيبتدره سبعون ألف ملك ، كلهم يبادر إلى جعل الغُلّ فى عنقه ، ويتقدم ليصطلى نار الجحيم ويشوى بها ، ويدخل فى سلسلة طولها سبعون ذراعًا تلف على جميع جسمه ، وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ، ولكن الآية تكشف عن شدة العذاب وهوله ، حفظنا الله من عذاب النار .

٣٣ ، ٣٤ - تذكر الآيتان أسباب العذاب والسعير ، فقد خلا قلب هذا الكافر من الإيمان بالله ، كما خلا قلبه من الرحمة بالعباد ، ومن العطف على المساكين ، ومن الحث على إطعامهم والبر بهم .

٣٥ - ٣٧ - ولهذا لا يجد له صديقًا ولا حميمًا يؤنسه ، ولا يأكل إلا غسالة أهل جهنم من القيح والصديد ، وهو طعام لا يأكله إلا المذنبون ، المتصفون بالخطيئة ، فليتق الله كل غنى فى ماله ، وليعلم أن للمساكين والأرامل والشيوخ والأطفال حقًّا فى هذا المال ، وسيترك المال لورثته ويسأل هو عن زكاته .

٣٨ - ٤٣ - إن الوجود أضخم بكثير مما يرى البشر ، والكون مملوء بعقول فعالة غير عقولنا .

«إن الإنسان قد يكون جهازًا ، ولكن ما الذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه ، والعلم لا يعلل من يتولى إدارته ، وكذلك لا يزعم أنه مادى ، لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسًا من نوره»[٣٠] .

والآيات تقسم بما تشاهدون من المخلوقات وبما غاب عنكم . وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .

إن القرآن كلام الله ومنهج الله وشريعة الله ، وليس قول شاعر ولا قول كاهن ، إنما هو قول رسول أرسل به من عند الله ، فحمله إلى عباد الله بأمانة وإخلاص فى تبليغ الرسالة .

٤٤ - ٤٦ - إن قدرة الله بالغة ، ولو كذب محمد علينا ، أو افترى بعضه ونسبه إلينا ، لعاجلناه بالعقوبة ، وأزهقنا روحه ، فكان كمن قطع وتينه . وهذا تصوير للهلاك بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، إذ يأخذه السياف بيمينه ، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه .

٤٧ - لا يمنعنا أحد من عقوبة محمد والتنكيل به إذا افترى علينا .

٤٨ - ٥٢ - إن القرآن يذكر القلوب التقية فتتذكر ، أن الحقيقة التى جاء بها كامنة فيها فهو يثيرها ويذكرها فتتذكر ، أما المطموسة قلوبهم فهم يكذبون بهذا القرآن ، والقرآن حجة على الكافرين فى الدنيا ، وحسرة عليهم إذا رأوا عذاب الآخرة .

وهذا القرآن عميق فى الحق ، عميق فى اليقين ، تنزيل من رب العالمين ، فعلينا أن نعظم الله وأن ننزهه ونُجِلّه ، ونعترف له بالقدرة والعظمة : فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . (الحاقة : ٥٢) .

## المعنى الإجمالى للسورة

الخبر عن صعوبة القيامة ، وهلاك الأمم المكذبة لرسلها ، وذكر نفخة الصور ، وانشقاق السماوات ، وحال السعداء والأشقياء فى وقت قراءة الكتب ، وذل الكفار مقهورين فى أيدى الزبانية ، وإثبات أن القرآن العظيم وحى من عند الله ، وليس بقول شاعر ولا كاهن ، والأمر بالتسبيح[٢١] فى قوله : فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . (الحاقة : ٥٢) .

* * *

## أهوال القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ ﴾

**المفردات :**

**الحاقة :** القيامة ، من حقّ الشيء إذا ثبت ووجب ، أي : الساعة الثابتة المجيء ، الواجبة الوقوع .

**القارعة :** القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

**الطاغية :** الواقعة التى جاوزت الحدّ فى الشدة والقوة .

**الصرصر :** الشديدة الصوت التى لها صرصرة .

**حسوما :** متتابعة ، واحدها حاسم ، والحسم القطع والاستئصال .

**صرعى :** هلكى لا حراك بهم ، واحدهم صريع ، أى ميّت .

**أعجاز نخل :** أصول نخل قد تآكلت ، وخلت أجوافها .

**الباقية :** البقاء .

**المؤتفكات :** المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة .

**الخاطئة :** الخطأ .

**رابية :** زائدة فى الشدة ، من ربا الشىء إذا زاد .

**طغى الماء :** تجاوز حدّه وارتفع .

**حملناكم :** حملنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم .

**الجارية :** السفينة التى تجرى فى الماء .

**تعيها :** تحفظها أذن من شأنها أن تحفظ ما سمعته .

**تمهيد :**

تشتمل الآيات على بيان أن يوم القيامة حق لا شك فيه ، وتذكر طائفة من أخبار الأمم التى كذّبت رسلها ، فأصابها هلاك الاستئصال ، فثمود أُهلكت بالصاعقة ، وعاد أُهلكت بريح صرصر عاتية ، وأُهلك فرعون وقومه بالغرق ، وأُهلك قوم لوط بالزلزال الشديد الذى دمَّر قُراهم ، وجعل عاليها سافلها ، وأُهلك قوم نوح بالطوفان .

**التفسير :**

١ ، ٢ ، ٣ - ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ .

افتتاح يهول النفس والقلب ، افتتاح معجز رهيب ، يتحدث عن القيامة ، فهى حاقّة بمعنى أن عذابها حق للكافرين ، ونعيمها حق للمؤمنين ، وحسابها حقّ ليتميز الخبيث من الطيب .

مَا ٱلْحَآقَّةُ . استفهام للتعظيم والاستهوال ، أى من حقها أن يُستفهم عنها لعظم أهوالها .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ .

أى شىء أعلمك بها أيها الرسول ؟ فهى خارجة عن دائرة علم المخلوقين لعظم شأنها وشدة هولها .

إنها سورة تستولى على النفس بجرسها وفواصلها ، وتتابع معانيها ، فى قصم الجبَّارين ، ووصف القيامة ، وما فيها من عذاب للمجرمين ونعيم للمؤمنين .

وقد ذهب عمر إلى النبى ﷺ فوجده فى الصلاة قد بدأ سورة الحاقة ، فاستولت السورة على نفسه ، وأُخذ بجلال القرآن وعظمته وبلاغته وبيانه وتتابع معانيه ، وأعلن إسلامه .

٤ - كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ .

تحدَّث صدر السورة عن القيامة وهى الحاقّة ، ثم انتقل إلى الحديث عمّن كذب بها ، وهم :

ثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون بالحجر فى شمال الحجاز ، بين الحجاز والشام ، وقد سلّط الله عليهم الصيحة الطاغية ، تطويهم طيًا ، وتغمرهم غمرًا ، وتعصف بهم عصفًا ، وتطغى عليهم فلا تبقى لهم ظلاً .

وأما عاد فكانوا يسكنون فى جنوب الجزيرة بين اليمن وسلطنة عمان ، وكانوا أشداء بطّاشين جبّارين ، وقد كذّبوا بالقارعة التى تقرع القلوب بأهوالها .

أى كذبت ثمود وكذبت عاد بالقارعة التى تقرع الناس بأهوالها ، وتقرع السماء فتنشق على غلظها ، وتقرع الأرض والجبال بالدك والنّسْف ، وتقرع النجوم بالطمس والسقوط .

٥ - فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ .

أهلك الله ثمود بالصيحة التى تجاوزت الحدّ فى الشدة والقوة ، وصاحبها الرجفة والزلزال المدمِّر ، وقد سمحت ثمودُ لقدار بن سالف أن يطعن الناقة طاغيًا معتديًا ، وقد أهلكهم الله جميعًا لأنهم رضوا بفعله .

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس ١١ - ١٥) .

٦ - وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .

كانت عاد قوية البنيان ، شديدة المراس : فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ... (فصلت : ١٥)

فأرسل الله عليهم ريحًا مزمجرة ، ذات صوت مخيف ، وبرد قارس ، وقوة قاهرة ، تقتل المعتدين ، فهى عَاتِيَةٍ . قاهرة للمعتدين ، نقّبت عن قلوبهم وأهلكتهم .

٧ - سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

استمرت الريح العاتية المزمجرة العاصفة المدمرة ، سبع ليال وثمانية أيام متتابعات ، دون فتور أو انقطاع .

قال ﷺ : «نُصرت بالصبا ، وأُهلكت عاد بالدبور»[٣٢] (رواه الشيخان) .

لقد قطعت رقابهم ، وتركتهم هلكى لا فائدة فيهم .

حُسُومًا . قاطعة كحد الحسام ، أو متتابعات ، أو نحسات ، كقوله تعالى : فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ... (فصلت : ١٦) .

قال ابن كثير : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض ، فيخرّ ميتًا على أمّ رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة ، كأنها قائمة النخلة إذا خرّت بلا أغصان ، إنه لمنظر رهيب ، وصورة معبرة عن الدمار الشامل والهلاك الكامل .

فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

ترى قبيلة عاد هلكى ، مصروعين متناثرين ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ . بأصولها وجذوعها . خَاوِيَةٍ . فارغة تآكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامدة .

٨ – فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ .

أى : بادوا جميعًا ، وأهلكوا عن آخرهم ، ولم يجعل الله لهم خلفًا .

قال تعالى : فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ... (الأحقاف : ٢٥) .

٩ – وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ .

وجاء فرعون موسى ، ومن قبله من الأمم التى كفرت بآيات الله ، كقوم نوح وعاد وثمود ، والقرى التى انقلبت بأهلها ، وصار عاليها سافلها ، بسبب الفعلة الخاطئة التى ارتكبتها هذه القرى ، وهى قرى قوم لوط التى اقتلعها جبريل ، ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها ، وكانت خمس قرى .

بِٱلْخَاطِئَةِ . بالفعلة الخاطئة المنكرة ، وهى الكفر والعصيان .

١٠ – فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً .

أى : عصت كل أمة رسولها ، فعصى قوم نوح نوحًا ، وعصى قوم لوط رسولهم لوطًا ، فأخذهم الله تعالى أخذة شديدة زادت فى الشدّة على هلاك من سبقهم من الأمم ، لأن جرائمهم زادت فى القبح والشناعة على سائر الكفار .

١١ - إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ .

يمتنّ الله على عباده جميعًا بإغراق المكذّبين ، ونجاة نوح ومن معه من المؤمنين ، حيث كان الناس جميعًا من نسل نوح عليه السلام ، فمنهم من استمرّ على إيمانه ، ومنهم من آثر الكفر والضلال ، والأصل أن كلّ شيء عند الله بمقدار ، فما نزلت قطرة ماء من السماء إلا بأمر ملك من الملائكة ، وحين دعا نوح ربّه : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ . (القمر : ١٠) .

استجاب الله سبحانه له ، كما قال تعالى : فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . (القمر : ١١ - ١٥) .

والآية هنا في سورة الحاقة تعرض صورة الماء طاغيًا زائدًا مرتفعًا ، متجاوزًا للحدود المألوفة ، طاغيًا ومرتفعًا فوق الجبال ، يُغرق كل شيء بإذن الله ، ثم سخّر الله السفينة الجارية ، تحمل نوحًا ومن معه من المؤمنين ، متجاوبة مع الكون كلّه في الخضوع لأمر الله ومشيئته .

قال تعالى : وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ... (هود : ٤١ ، ٤٢) .

١٢ - لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ .

جعلنا الطوفان الذي أصاب المنطقة كلها بالغرق ، وأغرق جميع الكافرين المكذبين ، وجعلنا السفينة التي تجري على سطح الماء وتسير فوق أمواج كالجبال ، تحركها مشيئة الله ، وتوقفها إرادته في تكريم المؤمنين ، جعلنا ذلك تذكرة لكل مؤمن ، بل لكل من يتأتّى منه التذكر والنظر ، ولتحرص على عبرتها وتعيها أذن تعي الكلام ، وتحفظه وتستفيد منه .

قال تعالى : إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا . (الإسراء : ٣٦) .

## من تفسير ابن كثير

روى ابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلّا بكيل على يدي ملك ، فلما كان يوم نوح أُذن للماء دون الخزّان ، فطغى الماء على الخزّان ، فخرج ، فذلك قوله تعالى : إِنَّا لَمَّا

طَغَا ٱلْمَآءُ ... أى : زاد على الحدّ بإذن الله . حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ . ولم ينزل شىء من الريح إلا بكيل على يدى ملك ، إلا يوم عاد فإنه أُذن لها دون الخزّان ، فخرجت ، فذلك قوله تعالى : بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .

ولهذا قال تعالى ممتنا على الناس : حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ . وهى السفينة الجارية على وجه الماء .

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ...

أى : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء فى البحار[٣٣].

كما قال : وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ . (الزخرف : ١٢) .

وقال تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ . (يس : ٤١ ، ٤٢) .

★ ★ ★

## بعض أهوال القيامة

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**نفخة واحدة :** النفخة الأولى لخراب العالم .

**حملت الأرض :** رُفعت من أماكنها بأمرنا .

**فدكّتا :** فدقّتا وكُسرتا ، أو فسويتا .

**وانشقت السماء :** تفطرت وتصدّعت من الهول .

**واهية :** ضعيفة متداعية بعدَ الإحكام .

**على أرجائها :** جوانبها وأطرافها .

**يومئذ تعرضون :** بعد النفخة الثانية للحساب والجزاء .

**تمهيد :**

شرع القرآن الكريم في بيان تفاصيل أحوال القيامة وأهوالها ، وابتدأ بمقدماتها .

**التفسير :**

١٣ - فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ .

فإذا نفخ إسرافيل في الصور - وهو القرن أو النفير - نفخة واحدة ، هي النفخة الأولى التي يصعق عندها من في السماوات ومن في الأرض ، وتموت الخلائق كلّها إلا من شاء الله .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

١٤ - وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً .

رفعت الأرض والجبال من أماكنها ، وضرب بعضها ببعض ، حتى تندقّ وتتفتت ، وتصير كثيبا مهيلا .

وقيل : المراد : فبسطتا بسطة واحدة ، وسويتا فصارتا أرضا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، أي لا تبصر انخفاضا ولا ارتفاعًا .

١٥ - فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ .

ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى ، وحدثت الداهية العظمى .

١٦ - وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ .

تشققت السماء على غلظها ، وتعلقت الملائكة بأرجائها ، وتفطّرت السماء، فهي في ذلك اليوم مسترخية ساقطة القوة ، ليس فيها تماسك ولا صلابة .

أي : لقد كانت السماء مستوية ، لا فطور فيها ولا تشقق ، تبحث العين فيها عن عيب أو خلل فلا تجد ، أما الآن فالسماء واهية ضعيفة ممزقة .

١٧ - وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ .

عند انشقاق السماء يوم القيامة تتعلق الملائكة بأطرافها من هول الموقف ، ومن خوف الجبار ، وهناك ثمانية من الملائكة ، أو ثمانية أصناف أو صفوف ، يحملون عرش الله تعالى .

روى الطبرى ، عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ . قال : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عِدّتهم إلا الله ، وهى صفوف من وراء الصفوف .

**قال ابن كثير** : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش : العرش العظيم ، أو العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم . ا هـ .

**وجاء فى تفسير القاسمى** :

ومثله مثل الغيوب التى يؤمن بها ، ولا يجب اكتناهها ، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالعرش : ملكه تعالى للسماوات والأرض ، وبـ ثَمَـٰنِيَةٌ . السماوات السبع والأرض ، وعبارة وَيَحْمِلُ . بالجذب . عَرْشَ رَبِّكَ . أى : ملك ربك للأرض والسماوات . فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ . أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة . ثَمَـٰنِيَةٌ . أى السماوات السبع والأرض (٣٤) .

١٨ - يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ .

أى : فى ذلك اليوم يعرض الناس للحساب ، والله سبحانه وتعالى مطّلع على سرائرهم وبواطنهم ، وقد ظهر كلّ شىء علنا أمام الناس .

أمّا المؤمنون فتظهر للناس أعمالهم ، وصدقة السِّرّ ، وكل ما عملوه ابتغاء وجه الله ، فيزداد سرورهم .

وأما الكافرون والمنافقون ، فيظهر للناس سوء أعمالهم ، فيزدادون حسرة .

والعرض هنا عبارة عن المساءلة والمحاسبة .

رُوى عن عمر بن الخطاب أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخفّ عليكم فى الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزيّنوا للعرض الأكبر : يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ .

وروى الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن جرير أن رسول الله ﷺ قال : « يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عَرْضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله» . (٣٥) .

**قال المفسرون** : وكل من الحمل والعرض لا يعنى التجسيم والتشبيه بالمخلوقات ، وإنما للتصوير والرمز والتقريب إلى الأذهان .

وقال صاحب الظلال ما يأتى :

وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ .

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية : ثمانية أملاك ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله ، لا ندرى نحن من هم ولا ماهم ، كما لا ندرى نحن ما العرش ، ولا كيف يحمل . ونخلص من كل هذه الغيبيات التى لا علم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من علمها إلاّ ما قصّ علينا ، نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظلّ الجليل الذى تخلعه على الموقف ، وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا ، وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ، ليشعر القلب البشرى بالجلال والرهبة والخشوع فى ذلك اليوم العظيم ، وفى ذلك الموقف الجليل .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ .

«فالكلّ مكشوف : مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير ، وتسقط جميع الأستار التى كانت تحجب الأسرار ، وتتعرى النفوس ، وتتعرى الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود ...» [٣٦] .

«ألا إنه لأمر عصيب ، أعصب من دكّ الأرض والجبال ، وأشدّ من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر ، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع» [٣٧] .

★ ★ ★

## سعادة من يأخذ كتابه بيمينه

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

**المفردات :**

**هـاؤم :** خذوا .

ظـــنـــنت : علمت .

مـــــلاق : معاين .

راضـــيـــة : يرضى بها صاحبها .

عـــالـــيـــة : مرتفعة المكان .

قـــطـــوفـــهـــا : جمع قِطْف ، وهو ما يجتنى من الثمر .

دانـــيـــة : قريبة التناول .

هـــنـــيـــئـــا : بلا تنغيص ولا كدر .

بـمـا أسـلـفـتـم : بما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا .

الـخـالـيـة : الماضية

**تمهيد :**

بعد أن ذكر أن الناس جميعا يُعرضون على الله تعالى للحساب ، ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، فصَّل أحكام هذا العرض .

فذكر أنَّ من أوتى كتابه بيمينه يشتد فرحه ، فيقول لكل من يقابله : هذا كتابى خذوه فاقرأوه ، لقد كنت متيقنا من لقاء ربِّى ، ومن الحساب والجزاء ، فينال نصيبه من السعادة فى عيشة هنيئة ، وجنة عالية المكان والمكانة ، ثمارها قريبة التناول ، ويقال لهؤلاء المؤمنين : كلوا هنيئا ، واشربوا مريئا ، بما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا .

**التفسير :**

١٩ - فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ .

يأخذ السعداء يوم القيامة كتبهم بأيمانهم ، فيثقون بالنجاة والفوز ، ويقولون لإخوانهم : تلك كُتُبُ النجاة والسعادة ، هذه كتبنا ، اقرأوها لتسعدوا بها كما سعدنا .

٢٠ - إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ .

لقد كنت متيقنا بيوم الحساب والجزاء ، مراقبا لربِّى فى حياتى ، مخلصا له فى العمل .

٢١ - فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ .

هذا المؤمن يأخذ كتابه بيمينه ، ويدخل الجنة راضيا مرضيا ، فهو فى عيشة هنيئة سعيدة ، راضٍ صاحبها بالجنة والنعيم والحبور ، أو هو فى عيشة مرضية ، يرضى بها صاحبها ولا يبغضها ، فهى فاعل بمعنى مفعول ، على حدّ قولهم : ماء دافق بمعنى مدفوق ، أى أن المعيشة لو كان لها عقل ارضيت لنفسها بحالتها ، ولفرحت بها فرحًا عظيما .

وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ : «إنهم يعيشون فلا يموتون أبدا ، ويصحّون فلا يمرضون أبدا ، وينعمون فلا يرون بؤسًا أبدا ، ويشبُّون فلا يهْرَمُون أبدا» [٣٨]

٢٢ - فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ .

فى جنة رفيعة المنزلة ، عالية المكان والمكانة ، وقد ثبت فى الصحيح : «إن الجنة مائة درجة ، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض »[٣٩].

قال ابن كثير :

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . اهـ .

والجنة نعيم متصل ، بها أنهار من لبن ، وأنهار من عسل ، وأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من خمر لَذّة للشاربين ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وتلذُّ ٱلْأَعْيُنُ . . .

(الزخرف ٧١)

الجنة فيها ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

٢٣ - قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ .

ثمارها قريبة التناول ، ينالها القائم والقاعد ، والمضطجع والمتكئ .

٢٤ - كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ .

أى : يقال لهم على سبيل التكريم والتقدير : كلوا أكلاً هنيئًا شهيًا مفيدًا ، واشربوا شربا مريئا ، بصحة وعافية ، ونعيم دائم . بسبب ما قدمتم فى الأيام الماضية من أيام الدنيا ، من عمل صالح ، وسلوك محمود ، والتزام بالطاعات ، واجتناب للمعاصى ، وطاعة لله وتقرب إليه ، وبعد عن كل ما يُغضبه ، فأنتم فى الجنة تستمتعون بنعيمها ، وفى قربى ورضوان وتكريم من الله رب العالمين .

★ ★ ★

## شقاء أهل الشمال

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴾

**المفردات :**

**يا ليتها :** يا ليت الموتة التى مِتّها فى الدنيا .

**كانت القاضية :** القاطعة لأمرى وحياتى ، فلم أبعث بعدها .

**ماليه :** ما لى من المال .

**سلطانيه :** حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، أو ملكى وسلطانى .

**فغلّوه :** اجعلوا الغلّ فى يديه وعنقه .

**الجحيم صَلّوه :** أدخلوه ، أو أحْرِقوه فيها .

**فاسلكوه :** فأدخلوه فيها .

**لا يحضّ :** لا يحث ولا يحرِّض .

**حميم :** قريب مشفق يحميه ، أو صديق ينتفع به .

**غسلين :** صديد أهل النار ، وما يسيل منهم من قيح ودم .

**الخاطئون :** الآثمون أصحاب الخطايا ، من خطِئ الرجل : إذا تعمّد الذنب ، لا من الخطأ المضاد للصواب.

**تمهيد :**

تصف الآيات حال الأشقياء الذين يأخذون كتابهم بشمالهم ، فيرون العذاب رأى العين ، فيتمنّى ذلك الكافر أن لو كانت حياته قد انتهت إلى غير صحوة ولا حساب .

حيث يجد نفسه تلقاء النار ، وجها لوجه ، ولا مال بيده ، ولا سلطان ينفعه ، ثم يسمع قول الجبّار سبحانه وتعالى : خُذوه فضعوه فى الأغلال والسلاسل ، وألقوه فى جهنم يصطلى بحرّها وسلاسلها ، لأن قلبه كان قلبًا نكدا ، خاليا من الإيمان بالله ، خاليا من الرحمة والشفقة بالمساكين والمحتاجين ، فليس له اليوم هاهنا صديق ينفعه ، أو قريب يعاونه ، وليس له طعام يأكله إلا عصارة أهل النار من القيح والصديد الذى لا يأكله إلا أصحاب الخطايا والكفر ، أعاذنا الله من النار ومن عذابها ، آمين .

**التفسير :**

**٢٥ – وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ .**

يلقى السعداء الجنة والتكريم ، ويلقى الأشقياء العذاب والإهانة .

**والمعنى :**

وأما الأشقياء فإنهم يأخذون كتابهم بشمالهم ، وهو علامة الذل والمهانة ، لما يرون فى كتابهم من الخطايا والذنوب ، وما ينتظرهم من العذاب والهوان ، فيتمنى أنّه لم يؤت كتابه مطلقا ، لما يحمل كتابه من الأعمال القبيحة .

قال سبحانه وتعالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

**٢٦ ، ٢٧ – وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ .**

ليتنى لم أعرف حسابى ، ولم أشاهده ، لأن الكتاب الذى استلمته حافل بالخطايا والذنوب ، ثم يندب حظه طويلاً ويصيح متفجعا : يا ليت الموت الذى تمّ فى الدنيا كان النهاية ، ولم أبعث ولم أحاسب .

**قال قتادة :** تمنَّى الموتَ ، ولم يكن شئ فى الدنيا أكره إليه منه .

**٢٨ ، ٢٩ – مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ .**

لم ينفعنى ما كان لى فى الدنيا من ذهب وفضّة ، وحرث وزرع ، ودور وقصور ، وحشم وخدم ، فقد وفدتُ على ربّى وحيدًا فريدًا .

قال تعالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ...

(الأنعام :٩٤) .

هلك عنى سلطانى وحجتى وبطلت وضاعت ، أو ذهب ملكى وتسلّطى وجبروتى ، وبقيت ذليلا مهينا .

٣٠ ، ٣١، ٣٢ - خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ .

يأمر الله تعالى الملائكة أن يأخذوه للعذاب ، وأن يشدُّوا بالأغلال والقيود يده إلى عنقه ، ثم يأمرهم الله ألا يجعلوا جسمه إلاّ فى الجحيم ، حتى يصطلى بنارها ويحترق بعذابها ، ثم يوضع فى سلسلة طولها سبعون ذراعًا ، يلفُّ بها جسمه من أوله إلى آخره ، وذراع واحدة تكفى لتعذيبه ، لكن الله جعل سلسلة العذاب سبعين ذراعًا لإرادة الوصف بالطول ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد ، والعذاب أقسى وأعنف .

٣٣ ، ٣٤ - إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ .

إن السبب فى هذا العذاب المؤلم هو أنه كان لا يؤمن بالله العلى العظيم ، فقد كذَّب بالله تعالى ، وكفر بالجزاء والحساب ، وخلا قلبه من الرحمة ، فلم يعطف على المساكين ، ولم يحضّ غيره على إطعام المساكين ، وكأنَّ الآية نداءٌ جهير فى الدعوة إلى الإيمان ، وإلى الحثّ على التراحم والتعاطف والتعاون ، فى رعاية المساكين .

وعن أبى الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر ؟

٣٥، ٣٦ - فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ .

فليس له يوم القيامة قريب يدافع عنه ، أو صديق وفىٌّ يكفيه شر العذاب ، ولا يجد طعامًا يأكله إلا الغسلين ، وهو غسالة أهل النار ، وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدمّ .

٣٧ - لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ .

لا يُقبل على هذا النوع من الطعام إلا من تعمد ارتكاب الأخطاء فى الدنيا ، أى تعوَّد على الإجرام والآثام .

قال المفسرون :

لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ .

أى : لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام .

وَٱلْخَـٰطِـُٔونَ . جمع خاطئ وهو الذى يتعمد الذنب ، والمخطئ الذى يفعل الشئ خطأ دون قصد ، ولهذا قال : ٱلْخَـٰطِـُٔونَ . ولم يقل : المخطئون .

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : لَّيْس لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا من ضَرِيعٍ . (الغاشية : ٦) .

والضريع شىء فى النار كالشوك مُرٌّ منتن .

**وقال قتادة :**

الغسلين هو شر طعام أهل النار .

وقد تحدث القرآن عن وصف طعام أهل النار بأنه طعام بشع ملهب للجوف ، حارق للأمعاء ، فيحتاج آكله إلى الشرب ، فيشرب ماءً شديد الحرارة يشوى الوجوه ، ويزيد العطش ويلهبه .

قال تعالى : إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

وقال تعالى : أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ . (الصافات : ٦٢ – ٦٨) .

وقال تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ * إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ .

(الدخان ٤٣ – ٥٠)

★ ★ ★

### القرآن ليس شعرا ولا كهانة ، بل هو وحى الله

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

**المفردات :**

**فلا أقسم :** أقسم و «لا» مزيدة .

**بما تبصرون :** بالمشاهدات المرئيات .

**وما لا تبصرون :** المغيبات المستورات ، أو أقسم بالكون وخالق الكون .

**إنه لقول رسول :** يبلّغ عن الله ما أُوحى إليه .

**تقول علينا :** افترى واختلق وادّعى علينا .

**باليمين :** بيمينه ، أو بالقوة والقدرة .

**الوتين :** نياط القلب ، أو نخاع الظهر .

**عنه حاجزين :** مانعين الهلاك عنه .

**لحسرة :** ندامة عظيمة .

**فسبح باسم ربك :** نزّهه عمّا لا يليق به تعالى .

**تمهيد :**

فى ختام السورة أقسم الله تعالى بما يفيد تعظيم القرآن ، وأنه منزل من عند الله على قلب محمد ﷺ ، وليس القرآن شعرًا ولا سحرًا ولا كهانة ، بل هو تنزيل من رب العالمين .

**سبب النزول:**

قال مقاتل :

سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال : إن محمدًا ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر، وقال عقبة : كاهن ، فقال الله تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ . أى : أقسم .

**التفسير:**

٣٨ ، ٣٩ – فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ .

أى : أقسم بما تشاهدونه بأعينكم فى هذا الكون ، مثل السماء والفضاء والهواء ، والأرض والجبال والبحار ، والأشجار والأنهار ، والنبات والإنسان ، والحيوان والجماد ، وسائر ما ترونه بأعينكم فى هذا الكون الفسيح .

وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . مثل الملائكة والجنّ والجاذبية ، والقيامة والبعث والحشر والصراط ، والجنة والنار ، وسائر ما غاب عن عيونكم فى هذا الكون الفسيح الأرجاء ، وفى اليوم الآخر وما فيه .

٤٠ – إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ .

إن هذا القرآن ليس سحرا ولا شعرًا ولا كهانة ، بل هو رسالة الله إلى رسوله محمد ﷺ ، يقوله ويقرؤه ويبلّغه عن الله تعالى .

٤١ – وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ .

وليس القرآن كلام شاعر ، فقد اشتمل على بدء الخليقة ، وأمور التشريع ، وبيان الحلال والحرام ، ووصف اليوم الآخر .

أما الشعر فله أوزان وقافية ، ويدخل فى التشريع وغير التشريع ، ويكون صادقا وغير صادق ، ويتحدث الشعراء عن أمور لا يفعلونها ، ولا يترجمونها إلى واقع .

قال تعالى : وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

(الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٦) .

قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ .

أى أنكم لا تؤمنون أصلا ، أو تؤمنون إيمانا قليلا ، بمعنى أنهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم ، ومع ذلك يعبدون معه الأصنام والأوثان .

٤٢ - وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ .

فالقرآن منهج متكامل للحياة ، يتفق مع الفِطْرة ويُقنع العقل ، أما الكهانة فهى كلمات متناسقة ، لا تكوّن منهجا محيطا بالكون والحياة كما نجده فى القرآن .

فمن الكهانة قول بعض الكهّان :

(والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، وما فى الأرض من سائر ، من منجد وعاثر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر) .

أما آيات القرآن فتفيد أن الكون كلّه فى رعاية الرحمن مثل :

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . (فاطر : ٤١) .

ومثل قوله سبحانه : إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

(الأنعام : ٩٥ ، ٩٦)

ومثل قوله عز وجل : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

والكاهن يعتمد على الشياطين فى نقل بعض الأخبار عن السماء ، والقرآن ورد بسبِّ الشياطين ، فلا يعقل أن يكون بإلهامهم ، والقرآن الكريم فيه لفتات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها ، مثل التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف ، فى قوله تعالى : وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

٤٣ – تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى أن القرآن تنزيل من عند الله تعالى ، وهو وحى السماء .

قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ . (البروج : ٢١ ، ٢٢) .

وقد انتقل القرآن الكريم من رب العزة جلّ جلاله إلى اللوح المحفوظ ، ونزل به جبريل الأمين على النبى ﷺ ، وتلقاه النبى ﷺ عن جبريل الأمين ، وتلقته الأمة عن النبى ﷺ ، وقد أُضيف القرآن الكريم إلى جبريل على أنه المبلِّغ به عن الله ، مثل قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٢ – ١٩٤) .

ومثل قوله تعالى : إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . حيث أضاف القرآن إلى النبى ﷺ على أنه المتلقى عن جبريل ، وقال بعض المفسرين : المراد بالرسول الكريم هو جبريل عليه السلام .

فالقرآن الكريم ليس شعرًا وليس كهانة ، وليس من عمل البشر وصنعهم ، والعرب كانت تعرف ذلك ، وتعرف أن القرآن فوق مستوى طاقة البشر ، وليس قولهم : شاعر أو كاهن ، إلا مشاغبة من المشركين للفت الأنظار عن القرآن الكريم ، لذلك أجاب الله تعالى بقوله :

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى : هو وحى السماء ، أنزله الله رب العالمين على رسوله محمد ﷺ .

قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أُسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقّة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . فقلت : كاهن ، فقرأ : وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . إلى آخر السورة ، فوقع الإسلام فى قلبى كلّ موقع ، فهذا من جملة الأسباب التى جعلها الله مؤثرة فى هداية عمر بن الخطاب رضى الله عنه [١٠] .

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ – وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ .

ولو ادَّعى محمد علينا بعض الادعاء ، أو نسب إلينا شيئا لم نقُله ، لعاقبناه عقوبة عاجلة ، شبيهة

بغضب بعض الملوك على من يكذب عليه ، حيث يمسك السياف بيمين الجانى ثم يكفحه بالسيف ، ويضرب عنقه فيقطع منه الوتين ، وهو عِرْق متصل بالقلب إذا قُطع قُضى على صاحبه ومات .

فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ .

فما يستطيع أحد من الناس أن يحجزنا ، أو يحول بيننا وبينه فى إهلاكه وقتله وقطع وتينه ، إذْ ليس ذلك فى قدرة أحد أو إمكانه .

ولمّا لم يَحْدُث شىء من ذلك ، كان محمدٌ رسولاً من عند الله ، صادقا فى أنّ وحى السماء ينزل عليه ، وفى أن القرآن تنزيل من رب العالمين .

٤٨ - وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

وإن القرآن الكريم لوسيلة لتذكير المؤمنين ، وإرشاد المتقين ، وإلهام الذاكرين ، وخصّ المتقين بالذكر لأنهم هم المستفيدون بالقرآن ، والمنتفعون بتوجيهاته ، والخاشعون عند سماعه .

قال تعالى : ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ . (الزمر : ٢٣) .

٤٩ - وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ .

نحن نعلم أن منكم من يكذّب بالقرآن ، ويدّعى أنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين ، ولا يصدّق بأنّه كلام رب العالمين ، أى نحن نعرف المكذبين ، ونعلم المصدّقين ، وسنجازى ونعاقب المكذبين كفرًا وعنادا وجحودًا .

كما قال تعالى : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

وقال عز شأنه : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام :٣٣) .

٥٠ - وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ .

وإن هذا القرآن العظيم لحسرة على الكافرين ، أى هو مصدر حسرة وندامة ، وأسف وحزن ، لأنهم يعرفون صدقه ، وقوته وبلاغته ، وتأثيره فيمن سمعه ، ويمنعهم الكبر أو التعاظم ، أو سوء الطويّة من الاستجابة للقرآن والإيمان به .

وفى كتب السيرة : أن ثلاثة من كبار كفّار قريش كانوا يتسللون بالليل لاستماع القرآن ، وفى الصباح يتواصون بعدم العودة لمثل ذلك ، ويعترفون بقوة القرآن ، وصدق محمد ﷺ ، ثم يمنعهم الحسد من الإيمان .

أو المعنى : القرآن حسرةٌ على الكافرين فى الدنيا ، حين يرون كتيبة الإسلام كل يوم فى ازدياد وانتصار وتقدم ، حتى فُتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا، والقرآن حسرة على الكافرين فى الآخرة ، حين يرون منازل المتّقين فى الجنة ، ومنازل الكافرين فى جهنم وبئس المصير .

٥١ - وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ .

وإن القرآن لهو اليقين الصادق ، والحق البيّن الواضح وضوح الشمس ، لظهور آياته وتشريعاته وأدابه ونظام أسلوبه ، وإضافة الحق إلى اليقين من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى لهو اليقين الحقّ ، أو هو من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما فى قوله تعالى : حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . (ق ١٦) . إذ الحبل هو الوريد .

قال المفسرون :

إن مراتب العلم ثلاثة : أعلاها حق اليقين ، ويليها عين اليقين ، ثم يليها علم اليقين .

فحق اليقين كعلم العاقل بالموت إذا ذاقه ، وعين اليقين كعلم العاقل بالموت عند معاينة ملائكته، وعلم اليقين كعلم العاقل بالموت فى حياته ، ومعرفته بأن كل نفس ذائقة الموت .

٥٢ - فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ .

نزّه ربك تنزيها مصحوبا بكل ما يليق به من طاعة وإخلاص ، ومواظبة على مراقبته وتقواه .

وتنزيه الاسم الكريم ، تنزيه للذات العليّة ، فهو سبحانه وتعالى منزه عن كلّ نقص ، متصف بكل كمال ، مستحق للحمد والذكر والشكر على أنعمه ، وعلى إنزاله القرآن العظيم مشتملا على صنوف الهداية .

وفى الحديث الشريف : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ». (١١) .

وفى الأثر : «الباقيات الصالحات هى : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» .

★ ★ ★


تفسير سورة المعارج

# أهـداف سـورة المعـارج

(سورة المعارج مكية ، وآياتها ٤٤ آية ، نزلت بعد سورة الحاقة )

تبدأ السورة بهذا المطلع المتميز ، وهو سؤال سأله أحد الكافرين عن يوم القيامة ، سؤال تهكم أو استعجال لهذا اليوم .

وفى الإجابة على هذا السؤال وصفت السورة يوم القيامة وألوان الهوان النفسى والحسى الذى يصيب الكافرين فيه ، ثم وصفت هلع الإنسان وجزعه ، واستثنت المؤمنين الموصولين بالله ، فهم فى يقين ثابت وأدب كريم .

تنوع أساليب القرآن :

سورة المعارج جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التى خاضها القرآن فى داخل النفس البشرية ، وخلال دروبها ومنحنياتها ، ورواسبها وركامها ، وهى أضخم وأشق من المعارك الحربية .

لقد سلك القرآن كل سبيل ليصل إلى نفوس المشركين ويقنع الجاحدين ، ويُثبّت المؤمنين ، ولوّن القرآن فى طرق الهداية والدعوة ، ومواجهة النفوس الجامحة .

«فتارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر ، من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة ، وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة ، وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة ، والمسارة الودود التى تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ، وتارة يواجهها بالهول المرعب والصرخة المفزعة التى تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ، وتارة يواجهها بالحقيقة فى بساطة ونصاعة ، وتارة يواجهها بالأمل والرجاء الذى يهتف لها ويناجيها ، وتارة يتخيل مساربها ودروبها ومنحنياتها ، فيلقى عليها الأضواء الكاشفة ... ومئات اللمسات والمؤثرات ، يطلع عليها قارئ القرآن الكريم» [٤٢] وهو يتابع تلك المعركة الطويلة التى قادها القرآن على عادات الجاهلية وركامها حتى انتصر عليها .

وسورة المعارج لون من ألوان البيان القرآنى ، فى تقرير حقيقة الآخرة ، وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء ، وإقرار هذه الحقيقة فى النفوس . وتكاد تكون لونا من ألوان السياط اللاذعة ، والأضواء الكاشفة التى ساقها القرآن لتفتح عيون المشركين على ما هم فيه من ضلال ، وما ينتظرهم من حساب وعقاب .

## مع آيات السورة

١ – ٥ – يسأل المشركون [٤٣] رسول الله ﷺ سؤال استهزاء عن العذاب الذى يخوفهم به ، ويجيب الله سبحانه بأنه واقع لا شك فى وقوعه ، ولا يستطيع أحد دفعه ، وهذا العذاب من الله ذى الدرجات العلى ، ويأمر الله نبيه بالصبر الجميل الهادئ .

٦ –١٤ – كان الكفار ينكرون حقيقة الآخرة ، ويرونها بعيدة الوقوع ، وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهشة والاستغراب .

وقد بينت الآيات أن ذلك اليوم قريب الوقوع ، وكل آتٍ قريب ، ثم رسمت مشاهد هذا اليوم فى مجال الكون وأغوار النفس ، وهى مشاهد توحى بالهول الشديد فى الكون وفى النفس . وفى يوم القيامة تكون السماء ، كَٱلْمُهْلِ . والمهل : ذوب المعادن الكدر ، أى كدردى الزيت . وتكون الجبال . كَٱلْعِهْنِ . أى كالصوف الواهن المنتفش ، ويتمنى الكافر فى ذلك اليوم لو يفتدى من العذاب ببنيه ، وزوجته وأخيه ، وقبيلته وجميع من فى الأرض وهى صورة للهول الشديد الذى يصيب الكافر فيتمنى النجاة ولو قدم أعز الناس إليه ، ومن كان يفتديهم بنفسه فى الحياة .

١٥ – ١٨ – تردع الآيات هذا الكافر عن تلك الأمانى المستحيلة ، فى الافتداء بالبنين والعشيرة . وتبين للكافر أن ما أمامه هو النار ، تتلظى وتتحرق ، وتنزع الجلود عن الوجوه والرءوس نزعا ، وهى غول مفزعة تنادى من أعرض عن الحق ، وحرص على المال وبخل به ، ليدخل فيها .

١٩ –٢١ – جُبِل الإنسان على الهلع فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، يجزع إذا نزل به الضر والألم ، فلا يتصور أن هناك فرجا ، ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع ، كما يغلبه الحرص والبخل عند وجود المال والعافية .

٢٢ – ٣٥ – تستثنى الآيات المصلين ، فإنهم يحافظون على صلاتهم ، فتمنحهم الصلاة الثبات والاستقرار ، وتراهم صابرين فى البأساء ، شاكرين فى النعماء ، يخرجون زكاة أموالهم ، ويتصدقون على الفقراء ، ويصدقون بيوم الجزاء ، ويخافون غضب الله وعقابه ، ويتسمون بالاستقامة والعفة ، وحفظ الفروج

عن الحرام ، والتمتع بالحلال من الزوجة وملك اليمين ، وأداء الشهادة بالحق والعدل ، والمحافظة على الصلاة فى أوقاتها ، وأداء سننها وآدابها وخشوعها ، تلك الصفات هى صفات هذا الفريق المؤمن الذى يستحق الجنة والتكريم ، ويتمتع بالنعيم الحسى والنعيم الروحى : أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ . (المعارج : ٣٥).

٣٦ ، ٣٧ – تعرض الآيتان مشهدا من مشاهد الدعوة فى مكة ، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذى يكون فيه الرسول يتلو القرآن ، ثم يتفرقون حواليه جماعات وفئات ، لا ليسمعوا ويهتدوا ، ولكن ليستطلعوا ثم يتفرقوا يدبرون الكيد والرد على ما سمعوا .

٣٨ – أيطمعون فى دخول الجنة وهم على هذا الحال من الإعراض والتكذيب ؟ .

٣٩ – ٤١ – لقد خُلقوا من ماء مهين ، وهم يعلمون أصل خلقتهم ، إن الله قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وهم لا يسبقونه ولا يفوتونه ، ولا يهربون من مصيرهم المحتوم .

٤٢ ، ٤٣ – ثم تتجه الآيات فى الختام إلى وعيدهم وتهديدهم بيوم الجزاء ، يوم يخرجون من القبور مسرعين ، كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ، وهم ، يُوفِضُونَ . أى يسرعون .

٤٤ – وترسم الآية الأخيرة سماتهم ، وتلمح صورة ذليلة عانية ، فى ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون به ، فيستريبون فيه ويشكون .

## المعنى الإجمالى للسورة

«بيان جزاء الكافر فى استعجال العذاب ، وطول القيامة وهولها ، وشغل الخلائق فى ذلك اليوم المهيب ، وتصوير النفس البشرية فى السراء والضراء ، وبيان محافظة المؤمنين على خصال الخير ، وطمع الكفار فى غير مطمع ، وذل الكافرين يوم القيامة» [11] فى قوله تعالى : خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ . (المعارج : ٤٤) .

أسماء السورة :

من أسماء السورة : سأل سائل لافتتاحها بذلك ، والمعارج لقوله تعالى فيها : مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ .

★ ★ ★

## أهوال القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**سأل سائل :** دعا داع .

**ليس له دافع :** إنه واقع لا محالة ، ونازل وحاصل ، لا مانع يردّه .

**المعارج :** واحدها معرج وهو المِصْعد (أسانسير) ، أى صاحب المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكة من سماء إلى سماء .

**الروح :** جبريل عليه السلام .

**فاصبر صبرا جميلا :** الصبر الجميل : هو الذى لا جزع فيه ، ولا شكوى لغير الله .

**المهل :** دردى الزيت ، وهو ما يكون فى قعر الإناء منه ، أى كعكر الزيت .

**العهن :** الصوف المصبوغ ألوانًا .

**الحميم :** القريب .

يُبصّرونهم : يبصر الأحماءُ الأحماءَ ويرونهم .

يود : يتمنى .

المجرم : المذنب .

صاحبته : زوجته .

فصيلته : عشيرته .

تؤويه : تضمّه ويأوى إليها .

كلا : هى كلمة تفيد الزجر عمّا يُطلب .

لظى : هى النار .

الشوى : واحدها شواة ، وهى جلدة الرأس تنتزعها النار انتزاعًا ، فتفرّقها ثم تعود إلى ما كانت عليه .

تدعو : تجذب وتحضر من أعطى ظهره للحق وأعرض عن الطاعة ، للدخول فيها .

وجمع فأوعى : جمع المال فجعله فى وعاء ، وكنزه ولم يؤدّ حقه .

**تمهيد :**

كان أهل مكة يسخرون من عذاب جهنم ، أو يستبطئونه ويقول بعضهم لبعض : إن محمدًا يخوفنا بالعذاب ، فما هذا العذاب ، ولمن هو ؟ وكان النضر بن الحارث ومن لفّ لفّه ، يقولون إنكارًا واستهزاءً :

ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢).
فنزلت هذه الآيات .

وسورة المعارج تأتى بعد سورة الحاقة التى تحدثت عن القيامة ، وعن تبدّل الكون ونهاية الحياة . وسورة المعارج تتحدث عن هذا الأمر لكن من منظور نفسى ، فالكافر يتمنى أن يفتدى نفسه من العذاب بأولاده وزوجته ، وإخوته وعشيرته ، ومن فى الأرض جميعًا ، لينجو من هول العذاب ، لكن لا أمل فى ذلك ، فجهنم تنزع فروة رأسه ، وتتحول جهنم إلى عنق طويل يبحث عن الكفّار المعرضين عن الحق ، وتمسك بهم ليصطلوا بنارها : كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ‎* نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ‎* تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ‎* وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ . (المعارج : ١٥ - ١٨).

**التفسير :**

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

دعا داع ، وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزول عذاب واقع لا محالة ، والسائل هو النضر ابن الحارث ، من صناديد قريش وطواغيتها ، لما خوّفهم رسول الله ﷺ بالعذاب قال استهزاء : ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

فأهلكه الله يوم بدر ، ومات شرّ ميتة ، ونزلت الآية بذمّه ، وهذا العذاب نازل بالكافرين لا محالة ، لا يستطيع أحد أن يدفعه أو يمنعه ، لأنه من الله الغالب ، ولا يغلب اللهَ غالبٌ .

مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ .

هذا العذاب نازل وصادر من الله تعالى ، صاحب المصاعد التى تصعد منها الملائكة وتنزل بأمره ووحيه .

تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ...

تصعد الملائكة وجبريل الأمين من سماء إلى سماء ، إلى عرش الرحمن ، حيث تهبط أوامره سبحانه وتعالى ، ويد القدرة تمسك بزمام هذا الكون ، وترفع السماء ، وتبسط الأرض ، وتسخّر السحاب والفضاء ، وتُيسّر مصاعد الملائكة إليه ومعها أعمال العباد .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وفى صلاة الفجر ، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . (الإسراء : ٧٨) . فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم ربّهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا ، تركناهم وهم يصلّون ، وأتيناهم وهم يصلّون ، فاغفر لهم يوم الدّين»[٤٥] .

والملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

أى : ذلك العذاب واقع لهؤلاء الكفّار فى يوم طويل ، يمتد طوله إلى خمسين ألف سنة .

قال ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، ثم يدخلون النار للاستقرار .

والجمع بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى : فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (السجدة : ٥) .

أن القيامة مواقف ومواطن ، فيها خمسون موطنا ، كل موطن ألف سنة «وأن هذه المدة الطويلة تخفّ على المؤمن حتى تكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا»[٦] .

٥ – فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا .

اصبر أيها الرسول على أذى قومك ، وتحمل ذلك موقنًا بوعد الله تعالى ، مع اليقين الكامل بأن الله معك ، ولن يتخلى عنك ، وقد أمر جميع الأنبياء بالصبر واليقين بالنصر ، والصبر الجميل هو ما كان صاحبه متيقنًا بثواب الله ، راضيًا بقضائه وقدره ، موقنًا بأن يد الله وراء الأحداث ، وقد قضت أن يقاوم الكفار رسالات السماء ، ويستبعدوا خضوعهم لها ، وأن يتحمّل الرسل أعباء الرسالة فى ثقة ويقين .

قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَـٰغٌ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وقال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ... (يوسف : ١١٠) .

٦ ، ٧ – إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا .

إن هؤلاء الكفار يستبعدون العذاب ، ويرونه بعيدًا ، أو غير نازل بهم ، ويتشككون فى وقوعه ، ونره نحن قريبًا ، فهو فى قبضتنا وتحت تصرفنا ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، وكل آتٍ قريب .

٨ ، ٩ – يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ .

تفقد السماء تماسكها ، وتنشقّ وتتشقق يوم القيامة ، وربما رجعت إلى حالتها الغازية الأولى .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

والمهل دردى الزيت ، أو الزيت العكر ، ولون السماء الآن يميل إلى الخضرة ، فيتغيّر لونها ويشبه ما أذيب من النّحاس والرصاص والفضة ، ويتحوّل لونها من الخُضْرة إلى الحمرة .

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ .

تكون الجبال متناثرة متطايرة فى الجوّ ، تشبه الصوف المنفوش .

وعن الحسن : تسيَّر الجبال مع الرياح ، ثم تنهدّ ، ثم تصير كالعهن ، ثم تنسف فتصير هباء .

**وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :**

المراد بالعهن المنفوش : الصوف المصبوغ ألوانًا ، لأن الجبال جُددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، فإذا بُسَّت وطيِّرت فى الجوّ أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

١٠ - وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا .

لا يسأل صديق صديقه ، ولا قريب قريبه عن شأنه ، لشغل كل إنسان بنفسه ، وذلك لشدّة ما يحيط بهم من الهول والفزع .

١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ - يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ .

أى : يبصر الحميم حميمه ، والصديق صديقه ، والقريب قريبه ، لا يخفى منهم أحد عن أحد ، ولا يتساءلون ، ولا يُكلِّم بعضهم بعضا من شدة الهول ، وانشغال كل إنسان بنفسه .

قال ابن عباس :

يُبَصَّرُونَهُمْ . أى : يعرف بعضهم بعضا ، ويتعارفون بينهم ، ثم يفرّ بعضهم من بعض .

يود الكافر أن يفدى نفسه من العذاب بأعزِّ ما يملك ، ويتمنّى أن يقدم أبناءه وزوجته وأخاه وعشيرته التى تؤويه وتضمّه إليها إذا ألمت به ملمّة ، ويتمنى أن يقدم أيضًا جميع من فى الأرض ، ليفتدى نفسه من العذاب ، فيقدم أعزّ الناس عليه ، بل كل من فى الأرض رغبة فى النجاة من العذاب فى ذلك اليوم .

١٥ ، ١٦ - كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ .

كَلَّآ . حرف ردع وزجر ، أي : ليرتدع المجرم عن هذه الأماني ، فلا فداء ولا شفاعة ، فليرتدع الكافر الأثيم عن ذلك ، فليس ينجيه من عذاب الله فداء ، بل أمامه جهنم تتلظّى نيرانها وتلتهب ، وتتلمظ غضبًا على من عصى الله ، وتلتهم الكافر فتنزع وتقتلع أطرافه ، وتلتهم جلدة رأسه فتبتّكها وتقطّعها ثم تعاد .

قال المفسرون :

نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ . والشواة جلدة الرأس ، تنزعها بشدة من الإنسان ، كلما قلعت عادت كما كانت ، زيادة فى التنكيل والعذاب ، وخصّها بالذّكر لأنها أشدّ أجزاء الجسم حساسية وتأثرًا بالنار .

١٧ ، ١٨ - تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ .

تدعو جهنم يوم القيامة إليها كلّ أصحابها ، وكل من استحق العذاب فيها ، تلتقط الكافرين من أرض المحشر ، كما يلتقط الطيرُ الحبَّ ، وتناديهم بلسان فصيح مبين ، تقول بلسان حالها ، أو بلسان يخلقه الله فيها : تعالوا إلىّ ، وتعذبوا فى داخلى ، واحتلُّوا أماكنكم فى جهنم ، يا كل من أدبر وولّى دبره لدعوة الإسلام ، وأعرض عن سماع القرآن ، وانشغل بجمع المال الحرام ، وكَنَزَهُ فى وعاء ، وربط عليه فلم يؤدّ زكاته .

قال ابن كثير :

وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ . أى : جمع المال بعضه على بعض ، فأوعاه أى أوكاه (أى ربط عليه ، وحبس حق الله فيه) ومنع الواجب عليه فى النفقات وإخراج الزكاة .

وقد ورد فى الحديث : «ولا توعى فيوعى الله عليك»[١٧] . أى : لا تحبس حق الفقير والمسكين ، فيضيّق الله عليك ، وكان عبد الله بن حكيم لا يُربط له كيس ، يقول : سمعت الله يقول : وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ .

وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا .

وقال قتادة : وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ . كان جموعًا قمومًا للخبيث .

وقال المفسرون : جمع المال ولم يؤدّ زكاته ، وتشاغل به عن دينه ، وزها باقتنائه ، وتكبر وتجبر فكان جموعا منوعا .

★ ★ ★

## الخصال العشر التى تعالج طبع الإنسان

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

**المفردات :**

**هلوعا :** كثير الجزع ، شديد الحرص .

**جزوعا :** كثير الجزع والأسى .

**منوعا :** كثير المنع والإمساك .

**على صلاتهم دائمون :** مواظبون عليها ، لا يشغلهم عنها شاغل .

**والذين فى أموالهم حق معلوم :** قدر معين يستوجبونه على أنفسهم ، تقربا إلى الله ، وهو الزكاة .

**المحروم :** من العطاء لتعففه عن السؤال .

**مشفقون :** خائفون استعظامًا لله تعالى .

**العادون :** المجاوزون الحلال إلى الحرام .

**لأماناتهم وعهدهم راعون :** لا يُخِلُّون بشىء مما اؤتمنوا عليه ، ولا مما أعطوا عليه العهد للوفاء به .

**تمهيد :**

بعد الحديث عن أوصاف يوم القيامة ، تحدثت السورة عن طبائع البشر ، واتّصافهم بالجزع والهلع والمنع التى تجمع أصول الأخلاق الذميمة ، ثم استثنى المؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال ، ويتصفون بعشر صفات كريمة ، وهى جماع المثل الأعلى لمن يكون قدوة يقتدى به فى خُلقه وسلوكه .

**التفسير :**

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ - إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا .

تلك صفات جِبلِّيَّة فطرية فى الإنسان ، أى الكافر أو أىّ إنسان لم يأنس قلبه بنور الإيمان ، من شأنه أن يتصف بالهلع ، وهو شدة الحرص وقلة الصبر ، فلا يصبر على بلاء ، ولا يشكر على نعماء .

إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا .

أى : إذا أصابه الفقر أو المرض ، أو المصيبة فى ماله أو زرعه ، أو أسرته أو منزله ، اشتدّ جزعه وحزنه وشكواه .

وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا .

وإذا جاء إليه المال أو الجاه ، أو السلطان أو العافية ، منع خيره عن الفقير واليتيم ، والأرملة والمصاب ، وبخل على غيره .

روى الإمام أحمد ، وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «شرّ ما فى رجل شحٌ هالع ، وجبن خالع»[٤٨] .

وقال ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له»[٤٩] .

٢٢ ، ٢٣ - إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ .

استثنى الله ممن اتصف بالهلع والجزع والمنع فئة المصلين ، فإن الصلاة تربط المؤمن بالله ، وتجعله يحنّ إلى الوقوف بين يديه وطاعته ، وامتثال أمره واجتناب نواهيه ، فتزيده الصلاة يقينًا وهدوء بال ، وانشراح صدر وجميل عطاء .

ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ .

فهم مستمرون فى المحافظة عليها ، لا يتركون صلاة مفروضة ، بل يؤدون جميع الفرائض ، ويحفّونها بالنوافل .

وقيل : معنى : ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ .

أى : خاشعون فى الصلاة ، يتدبَّرون معانى ما يقرأون ، وما يُسبِّحون ويحمدون ويكبِّرون ، فهم فى الصلاة جسمًا وروحًا ، مداومون على الخشوع داخل الصلاة ، مداومون على إتمام ركوعها وسجودها وخشوعها ، وذلك بمعنى قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . (المؤمنون : ١ ، ٢) .

ومن معانى المداومة على الصلاة الاستمرار فى الصلاة وإكمالها ، بإسباغ الوضوء لها وأدائها فى أول الوقت ، وصلاة النوافل معها ، والبعد عن المعصية واللغو وكل ما يضادّ الطاعة .

قال تعالى : إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ... (العنكبوت : ٤٥) .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»[٥٠] .

**٢٤ ، ٢٥ - وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ .**

لقد أوجبوا على أنفسهم حقًا معلومًا فى أموالهم ، فهم أوجبوا على أنفسهم فريضة الزكاة فى أموالهم أو تجارتهم أو زراعتهم ، أو أموال الرِّكاز وما يستخرج من باطن الأرض ، يخرجون زكاته ، وينفقونها فى مصارفها الشرعية ، ويقدِّمون الزكاة والصدقة للسائل الذى يسأل ، وللمحروم المتعفف الذى لا يسأل .

قال تعالى : يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٧٣) .

**٢٦ - وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ .**

والذين يوقنون بيوم الجزاء يقينًا صادقًا لا شك فيه ، كأنهم يرون القيامة ، ويشاهدون الحساب والجزاء ، وهذا يدفعهم إلى العمل الصالح والسلوك الحميد ، لأنّ الكثيرين يُصدّقون بيوم الدين لكن من ترجم التصديق إلى سلوك وعمل هو الفائز ، بتجنبه الحرام ، وإقباله على الطاعات ، وبعده عن المنهيات ، وتجنُّبه للشبهات ، وانشغاله بمرضاة ربّه .

**٢٧ ، ٢٨ - وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ .**

إنهم يخافون غضب الله وعقابه ، فلا يأمنون مكره ، ولا يجترئون على معاصيه ، وفى كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام أبى حامد الغزالى ، (باب فى فضل الرجاء والأمل فى رحمة الله) ثم (باب فى فضل الخوف والإشفاق من غضب الله) ، ثم ذكر أن الخوف والرجاء جناحان يطير بهما المؤمن فى سماء

الطاعات ، وإذا زاد الرجاء عن حدّه صار طمعًا بدون عمل ، وإذا زاد الخوف عن حده صار يأسًا من رحمة الله ، والمؤمن مطالب بالجمع بين الخوف والرجاء ، فإذا كان الإنسان فى مرحلة الشباب والقوّة ، وجب أن يغلّب الخوف على الرجاء حتى يعصمه ذلك من المعصية ، وإذا كان فى مرحلة الشيخوخة والضّعف ، وجب أن يغلب الرجاء على الخوف حتى يلقى الله وهو متمتّع بالأمل فى رحمته وقبول توبته .

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ .

إن عذاب الله واقع حتمًا بكل من يستحقّه .

قال تعالى : ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الأنفال : ٢) .

وقال عزّ شأنه : وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . (المؤمنون : ٦٠) .

وقال تعالى : فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . (الأعراف : ٩٩) .

٢٩ ، ٣٠ – وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ .

أباح الإسلام الاتصال الجنسى بين الزوج والزوجة ، ورسم لذلك نظامًا وآدابًا ، مثل عقد الزواج الصحيح ، والنفقة والعشرة بالمعروف ، وطاعة الزوجة لزوجها ، وقيام الزوج بواجباته ، والزوجة بواجباتها .

وفى هذه الآية ما يفيد أنّ المؤمنين من صفاتهم حفظ فروجهم عن الزنا واللواطة ، وبعدهم عن الفاحشة ، لكن الله أباح لهم إشباع رغبتهم وجماع زوجاتهم اللائى أحلهن الله لهم .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ . وهن الأسيرات من الجهاد فى سبيل الله ، يباح لمن ملكها أن يستبرئ رحمها ليتأكد من خلوّها من الحمل ، وله جماعها بعد العدّة ، فإذا حملت صارت أم ولد ، أعتقها ولدها ، ونهى الإسلام عن بيع أمّهات الأولاد ، وهذه العلاقة الصريحة النظيفة من محاسن الإسلام ، حيث أباح الزواج الشرعى والتّسرّى بملك اليمين ، وقد نظر الإسلام إلى الرّق نظرته إلى نهر يجرى ، فضيّق المنابع ووسّع المصبّات ، وكان ذلك حريًّا بأن يجفّ نهر الرق ، والآن .. انتهى الرقّ بحمد الله مدنيًّا ودينيًّا .

لكن التقارير تشير إلى أن هناك تجارة رائجة كبيرة ، هى ثالث تجارة فى العالم ، بعد تجارتى السّلاح والمخدّرات ، تلك التجارة هى تجارة الرقيق الأبيض ، تباع فيها ملايين النساء والأطفال والبنات ، بقصد الاتجار فى الجنس ، وهناك عصابات دولية تحدد ثمن كل فتاة وكل ولد وكل امرأة .

والقرآن نزل والزنا منتشر ، فحرّم الزّنا واللواط والمثلية الجنسية ، وشجّع الزّواج الحلال ، والعلاقات النظيفة الواضحة .

قال تعالى : وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ .

فهم لديهم شهوة ورغبة وقوّة ، لكنهم يحفظون فروجهم عن الحرام ، ولا يبيحون لأنفسهم الجماع إلا مع زوجاتهم الشرعيات ، أو جواريهم اللاتى يملكونهنّ بمِلْك اليمين الذى كان معاملة بالمثل لمن يحاربهم الإسلام فى بلاد الفرس والروم وغيرهما ، وكان الإسلام مضطرًا أن يعامل أسيرات الحرب بمثل ما تعامل به الأسيرات المسلمات فى تلك البلاد ، ومع ذلك وصّى القرآن بالرقيق ، وحث على العتق ، وجعل عتق الرقيق كفارة لأخطاء يتكرر وقوعها فى المجتمع ، مثل كفارة الظهار ، والحنث فى اليمين ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك .

إن غيرنا يبيح تعدد العشيقات والعُشّاق ، أما الإسلام فلا يبيح إلا علاقة شرعية نظيفة أمينة واضحة .

٣١ – فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ .

فمن أنشأ علاقة آثمة مع غير زوجته ، أو مع غير ما ملكت يمينه ، فإنه معتدٍ آثم ، حيث ترك زوجته الحلال ، وأنشأ علاقة آثمة مع من لا تحلُّ له .

قال ﷺ : «رأيت ليلة أسرى بى رجلاً بين يديه طعام هنىء نضيج ، وطعام خبيث نيِّئ ، فجعل الرجل يترك الطعام الهنىء النضيج ، ويأكل من الطعام الخبيث النيّئ ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أُمَّتِك تكونُ عنده زوجته حلالاً طيِّبًا ، فيتركها ويبيت بامرأة خبيثة ، والمرأة من أمتك تقوم من عند زوجها حلالاً طيبًا طاهرًا ، فتتركه وتبيت برجل خبيث» .

قال الطبرى :

من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه ، ففاعلو ذلك هم العادُون الذين تعدَّوا حدود ما أحلّ الله لهم إلى ما حرمه عليهم ، فهم الملومون . ا هـ .

٣٢ – وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ .

هم يحافظون على الأمانة ويوفون بالعهود ، وقد تكررت توصية القرآن الكريم والسنّة المطهرة بالمحافظة على الأمانة والوفاء بالعهد .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ...

(النساء : ٥٨)

والأمانة الكبرى هى طاعة الله وعدم الشرك به ، والالتزام بنواميس الإسلام وفرائضه ، وأركانه وآدابه ، فالصلاة أمانة ، والكيل أمانة ، والوزن أمانة ، وكذلك الزكاة والصيام والحج ، وسائر شعائر الإسلام .

قال تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ... (الأحزاب : ٧٢) .

وقال تعالى : وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً . (الإسراء : ٣٤) .

وقال تعالى : وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ... (البقرة : ١٧٧) .

وقال ﷺ : «يا معشر الناس ، اضمنوا لى ستًا أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانة إذا اؤتمنتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم»[١٥١] .

٣٣ - وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ .

يؤدون الشهادة احتسابًا لوجه الله ، ويؤدونها على وجهها الصحيح ، لما يرتبط بها من أداء الحقوق ، وصيانة الأمانة ، بل الشهادة نفسها أمانة من الأمانات ، وقد أفردها بالذكر لأهميتها .

قال تعالى : وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ... (الطلاق : ٢) .

وقال تعالى : وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ... (البقرة : ٢٨٣) .

وقد أُمرنا أن نُؤدِّى الشهادة على وجهها الصحيح ، بدون ميل إلى قريب أو شريف ، أو غنى أو فقير ، أو قريب أو حبيب ، إظهارًا للصلابة فى الدين ، ورغبة فى إحياء حقوق المسلمين .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . (النساء : ١٣٥) .

٣٤ - وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

يحافظون على إقامة الصلاة بتفريغ القلب لها ، وتدبّر التلاوة ، واستحضار الخشوع والخضوع فى القراءة والقيام والركوع والسجود ، مع طهارة البدن والثوب والمكان والقلب .

قال المفسرون :

والدوام غير المحافظة ، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها ، لا يَخلُون بها ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ، ويقيموا أركانها ، ويكملوها بسننها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات ، والمحافظة ترجع إلى أحوالها[٥٢] .

وإذا نظرنا إلى الصفات العشر وجدنا أنّها بُدئت بالصلاة ، وختمت بالصلاة ، مما يدل على العناية بها ، والتنويه بشرفها ، فهى صلة بين المخلوق والخالق ، وهى عماد الدين ، وهى وسيلة القربى والزلفى إلى الله رب العالمين .

وخلاصة الصفات التى اتصف بها المؤمنون ، عشر صفات هى :

١ – الصلاة .

٢ – المداومة عليها فى أوقاتها .

٣ – إقامتها على الوجه الأكمل بحضور القلب ، والخشوع للرب ، ومراعاة سننها وآدابها .

٤ – التصديق بيوم الجزاء يقينًا واعتقادًا وسلوكًا .

٥ – إخراج الزكاة وإعطاء الصدقات من أموالهم للفقراء والمحرومين .

٦ – مراعاة العهود والمواثيق .

٧ – أداء الأمانات إلى أهلها .

٨ – حفظ فروجهم عن الحرام .

٩ – أداء الشهادة على وجهها .

١٠ – الخوف من عذاب الله .

٣٥ - أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ .

أى : هؤلاء المتَّصفون بتلك الصفات الحميدة يستقرُّون فى جنات النعيم ، يلقون فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين ، ويلقون فيها صنوف التكريم الحسِّىّ ، والتكريم المعنوى ، ويشمل ذلك القربى من الله ، والتمتع برضوان الله ، ولذة النظر إلى وجه الله العظيم ، والحصول على رضوان الله فلا يسخط عليهم أبدًا .

★ ★ ★

## ختام سورة المعارج

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

**المفردات :**

**قِبَلَك :** فى الجهة التى تليك .

**مُهطعين :** مسرعين نحوك ، مادِّين أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يجعلونه هُزُوًا .

**عِزين :** فرقًا شتَّى ، حِلقا حِلقا ، واحدهم عِزَة ، وأصلها عزوة ، لأن كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تعتزى إليه الأخرى .

**بمسبوقين :** بمغلوبين ، إن شئنا تبديلهم بخير منهم .

**فذرهم يخوضوا ويلعبوا :** اتركهم فى باطلهم الذى تعوَّدوا الدخول فيه واقترافه والحديث عنه ، ولا تعبأ بلعبهم فى دنياهم فإنه لا يجدى .

**الأجداث :** القبور ، واحدها جدث .

**السِّراع :** واحدهم سريع ، أى مسرعين .

النصب : كل شيء منصوب كالعلم والراية ، وكذا ما ينصب للعبادة ، والأنصاب جمع جمع .

يوفضون : يسرعون .

خاشعة : ذليلة .

ترهقهم : تغشاهم .

## تمهيد :

تستعرض الآيات أعمال الكافرين ، واستماعهم للرسول ﷺ ثم نفارهم من دعوته ، وادعاءهم أنهم أولى بالجنة ونعيمها من الفقراء البسطاء أصحاب محمد ﷺ ، ثم ردّ عليهم القرآن بأن الله خلق الناس جميعًا من نطفة مزرة ، ثم سوّى الله الإنسان بشرًا سويًا ، وكرّمه بالعقل والإرادة والاختيار ، وحكم بأن من سما بنفسه وزكّاها بالطاعة والامتثال لأمر الله فله الجنة ، وبأنّ من دسّى نفسه وآثر الكفر والمعصية فله العذاب يوم القيامة ، ثم أقسم الحق سبحانه بنفسه أنه قادر على أن يهلكهم ، وينشئ خلقًا أطوع لله منهم ، ثم أمر نبيَّه ﷺ أن يتركهم وشأنهم ولا يُبالى بهم ، فسيلقون الجزاء يوم القيامة ، حين يخرجون من قُبورهم مسرعين ، كأنهم ذاهبون إلى أصنام منصوبة لعبادتها ، فهم يسرعون أيّهم يستلم الصّنم أوّلا ، وسيحشرون أذلاء ، ناكسة رؤوسهم ، ذليلة عيونهم ، حيث يقال لهم : هذا هو اليوم الذى وعدتم به فى الدنيا فأنكرتم واستكبرتم .

## سبب النزول :

ذكر الواحدى فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ .

قال : كان المشركون يجتمعون حول النبى ﷺ ، يستمعون كلامه ، ولا ينتفعون به ، بل يكذّبون به ويستهزئون ، ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة ، لندخلنّها قبلهم ، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

## التفسير :

٣٦ ، ٣٧ - ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ .

كان كفار مكة يسرعون الخطى إلى الكعبة ، ويلتفون جماعات جماعات حول النبى ﷺ ، يسمعون ما يقوله ثم يحرّفونه ، ويستهزئون بكلام النبى ﷺ ، ويسخرون من فقراء المؤمنين ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّها قبلهم ، فأنزل الله هذه الآيات .

والمعنى :

أىّ شىء حملهم على الإسراع تجاه المكان الذى تجلس فيه يا محمد ، حال كونهم متحلّقين عن يمينك وشمالك ، فرقًا متعددة ، كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير ما تنتسب إليه الفرقة الأخرى ، لقد حرمُوا أنفسهم من الهدى ، وأمامهم رسول كريم يحمل وحى السماء ، فلم يهتدوا به ، وأصرُّوا على الكفر والضلال ، ومحاولة الاستماع للقرآن استماع الباحث عن عيب ، الكاره للهداية ، فما أظلمهم لأنفسهم ، حيث باعوا الهدى واشتروا الضلالة ، مع قرب الوسيلة منهم ، فقد حرموا أنفسهم من أبلغ نافع ، مع وجوده قريبًا منهم .

**٣٨ ، ٣٩ - أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ .**

تجاوز الكفّار حدودهم حين قالوا : لئن دخل أتباع محمد الجنة ، وهم فقراء بسطاء ، لندخلنّها قبلهم ، فنحن أفضل منهم فى الدنيا ، وسنكون أفضل منهم فى الآخرة .

وكان جواب القرآن لهم :

كَلَّآ . حرف ردع وزجر .

لقد خلقنا النّاس جميعًا من منى يمنى ، أى أن الله سوّى بين الناس جميعًا فى الخلق ، وترك لكل إنسان العقل والإرادة والاختيار ليسلك طريقه فى الدنيا عن قصد وإرادة واختيار : فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ .

(النازعات : ٣٧ - ٤١)

وفى الحديث الشريف : «الخلق كلهم عيال الله ، الله ربّهم وهم عباده ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح» .

وقال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (الحجرات : ١٣) .

وخلاصة المعنى :

أيطمع هؤلاء الكفار - وحالتهم واضحة من الكفر والتكذيب لرسولى - أن يدخلوا الجنة ؟ كلا ، إن أعمالهم تقودهم إلى جهنم ، لقد خلقناهم مما يعلمون ، من نطفة مزرة ، ليعملوا ويطيعوا ، فتكبّروا وأعرضوا ، فصاروا أهلا للنار لا للجنة .

أخرج أحمد ، وابن ماجة ، عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : ابن آدم ، أنَّى تعجزنى وقد خلقتك من نطفة مزرة ، حتى إذا سوَّيتك وعدَّلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى أتى أوان الصدقة»[٥٣] .

٤٠ ، ٤١ – فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ .

أى أقسم بالله الخالق ، رب المشارق والمغارب ، أى مشارق الشمس والقمر والنجوم ومغاربها ، فللشمس فى كل يوم من أيام السنة منزلة لشروقها ومنزلة لغروبها ، وكذلك القمر والنجوم ، أو المراد مشارق الشمس وهى فى كل لحظة تشرق فى مكان وتغرب عن مكان ، وكذلك القمر والنجوم ، وكل ذلك يوحى بالعظمة والجلال ، والقدرة والإبداع للخالق المبدع الذى أحسن كلّ شىء خلقه .

قال تعالى : لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر : ٥٧) .

وقد أقسم القرآن بجهتى الشرق والغرب ، والمراد بهما الجنس ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، وعلى كل مغرب من مغاربها ، وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجىء لفظتى الشرق والغرب تارة بصيغة المفرد ، وتارة بصيغة المثنى ، وتارة بصيغة الجمع .

فقال تعالى : رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً . (المزمل : ٩) .

وقال تعالى : رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ . (الرحمن : ١٧) .

أى : مشرق ومغرب الشتاء والصيف ، أو الشمس والقمر .

وقال تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ .

والمقصود بيان عظمته تعالى وقدرته ، وبديع خلقه ، والتهوين من أمر الكافرين .

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ .

أى : أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نذهب بهؤلاء الكافرين كما أهلكنا من سبقهم من المكذبين ، وأن نأتى بقوم أطوع لله منهم ، وأفضل استقامة ، وأكثر اعترافًا بفضل الله ، وما نحن بمغلوبين على أمرنا ، ولا توجد قوة تمنعنا عن تنفيذ ما نريد ، سوى أن حكمتنا البالغة اقتضت تأخير عقوبتهم .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ . (فاطر : ١٥ – ١٧) .

٤٢ – ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ .

وما دام الأمر كذلك فاترك هؤلاء الكفار يخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى لهوهم وآثامهم ، واستخفافهم بوعيد الله وقدرته ، حتى يجدوا أمامهم يوم القيامة وجهًا لوجه ، ذلك اليوم الذى وعدهم القرآن به ، وحذَّرهم من عذابه وعقابه ، والمراد من الآية التهديد والوعيد بذلك اليوم ، الذى سيجدونه أمامهم وفيه جميع أعمالهم .

قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ . (الكهف : ٤٩) .

٤٣ ، ٤٤ – ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

اذكر يوم يقومون من قبورهم مسرعين لتلبية النداء ، والوقوف فى عرصات القيامة لفصل القضاء ، كأنهم فى إسراعهم إلى ساحة القيامة ، كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى شىء منصوب : علم أو راية أو صنم من الأصنام .

قال المفسرون :

كان الإسراع إلى المعبودات الباطلة وسائر الطواغيت من عادات المشركين ، وكانوا إذا أبصروا أصنامهم أسرعوا إليها ، يحاول كل منهم أن يستلم الصنم أوَّلا ، وفى هذا التشبيه تذكير بسخافة عقولهم ، وتهكّم بإسراعهم إلى الباطل ، وفرارهم من الحق .

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

إنهم يحشرون يوم القيامة أذلاء ، منكسرة عيونهم ، تغشاهم المذلة والمهانة والعذاب والهوان فى ذلك اليوم ، يوم القيامة ، الذى توعَّدهم القرآن به وحذّرهم من عذابه ، لقد كانوا فى أعيادهم يسرعون إلى أصنامهم ، فرحين لاهين عابثين فى باطلهم ، لكن الصورة اختلفت عند قيامهم من قبورهم ، فإنهم يحشرون أذلاء مرهقين ، قد بدا الانكسار فى عيونهم ، وإرهاق المذلة على أبدانهم ، بسبب استهتارهم بذلك اليوم ، واستبعادهم لوقوعه .

وبذلك تتوافق بداية السورة ونهايتها ، فقد كانت البداية سؤال سائل من الكافرين عن يوم القيامة ، سؤال استبعاد واستنكار ، وكانت نهاية السورة رؤية اليوم عيانًا ، والإسراع لتلبية الداعى إلى المحشر فى حالة من العذاب والهوان والانكسار ، وقد شاهدوا القيامة مشاهدة فعلية واقعية .

قال تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ . (آل عمران : ٣٠) .

★ ★ ★

## خلاصة ما اشتملت عليه سورة المعارج

١ – وصف يوم القيامة وأهواله .

٢ – وصف النار وعذابها .

٣ – صفات الإنسان التى أوجبت له الجحيم ، وصفات المصلّين الفائزين .

٤ – وعيد الكافرين ، وظهور المذلة والانكسار عليهم يوم القيامة .

★ ★ ★



# تفسير سورة نوح

# أهــداف ســورة نــوح

(سورة نوح مكية ، وآياتها ٢٨ آية ، نزلت بعد سورة النحل )

**فكرة السورة :**

السورة قصة نبى كريم من أولى العزم من الرسل ، أرسله الله إلى قومه ليدعوهم إلى الإيمان فقاوموا دعوته وأنكروا رسالته ، فلفت نوح نظرهم إلى التأمل فى خلق السماء والشمس والقمر ، والأرض والنبات وسائر المخلوقات ، ولكنهم صمُّوا آذانهم عن سماع الحق ، وحجبوا عيونهم عن النظر فى الأدلة الواضحة والحجة الدامغة ، فاستحقوا عقاب الله وأُغرقوا بالطوفان فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد .

**أهداف الرسالات :**

السورة نموذج حى لمعاناة الرسل مع أقوامهم ، وجهادهم فى سبيل الدعوة . لقد مكث نوح مع قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما آمن معه إلا قليل ، ولقد كان عناد قومه سببا فى هلاكهم ، وكأن الله أراد أن يحذر أهل مكة من العناد ، وأن يذكرهم بمن أهلك من الكافرين .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء ١٧) .

يعنى لقد أهلك الله قوم نوح ، وأهلك من بعده عددًا كبيرًا كعاد وثمود وفرعون ، وكان هلاكهم جزاء عادلا وعقابا مناسبا لقوم يعلم الله إصرارهم على الكفر وبعدهم عن قبول الحق .

لقد صبر الرسل وصابروا من أجل إبلاغ الدعوة إلى أقوامهم ، وحملوا كلمة الله ناصعة نقيه واضحة سليمة ، وعرضوها أمام العيون والقلوب لتبصر وترى آثار قدرة الله وعظيم خلقه ، وليكون إيمانها عن بينة ويقين ، ولئلا يحتج إنسان يوم القيامة بأن الرسالة لم تبلغه .

قال تعالى : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ... (النساء : ١٦٥) .

ومن هؤلاء الرسل خمسة كانوا أكثر معاناة مع أقوامهم ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ .

وقد كان جهادهم مع أقوامهم آية فى تحمل البلاء ، والصبر على الإيذاء والعناد .

قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

لقد صبر نوح دهرا طويلا على قومه ، وأُلقِىَ إبراهيم فى النار ، وأوذى موسى أبلغ الأذى فصبر ، وحاول اليهود الإيقاع بالمسيح ، والإغراء بقتله فرفعه الله إليه ، وكان خاتم الرسل محمد ﷺ يتحمّل صنوف الأذى وألوان الاضطهاد بمكة ، ويتحمل نفاق المنافقين وكيد اليهود بالمدينة .

ولكن العاقبة كانت للمتقين ، لقد أدى الرسل واجبهم ، وبلّغوا رسالتهم ، ونجاهم الله مع المؤمنين ، ثم عاقب الجاحدين .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ .

(الصافات : ١٧١ – ١٧٣) .

## مع آيات السورة

١ – ٤ – أرسل الله نوحا عليه السلام ليدعو قومه إلى عبادة الله وطاعته ، وقد بلّغ نوح دعوة ربه إلى قومه ، ولخص دعوته فى ثلاث كلمات : اعبدوا الله وحده ، واتقوه وآمنوا به عن يقين ، وأطيعوا رسولكم فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

وبهذا الإيمان تستحقون مغفرة الله لكم ، والبركة فى أعماركم ، ولا شك أن للطاعات مدخلا فى راحة البال ، واستقرار العيش ، وهدوء النفس ، وهذا بلا ريب يطيل العمر ويجعله مباركا حافلا بالأعمال النافعة .

٥ – ٩ – تعبر الآيات عن جهود نبى كريم فى دعوة قومه إلى الإيمان ، فهو يؤدى رسالته ، وينهض بدعوة قومه ، ويناجى ربه قائلا :

لقد دعوت قومى إلى عبادتك والإيمان بك فى الليل والنهار ، وانتهزت كل فرصة مناسبة لدعوتهم وإرشادهم ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوة الله ، وقابلوها بالجحود والعناد ، وأغلقوا فى وجه الدعوة قلوبهم ، وسدوا منافذ العلم إلى نفوسهم ، فجعلوا أصابعهم فى آذانهم ليمنعوها من السمع ، وغطوا عيونهم بثيابهم ليمنعوها من الإبصار ، واستمروا فى عنادهم وكفرهم .

وقد لوّن نوح فى أساليب الدعوة ، فدعاهم علنا فى أماكن التجمع فلم يستجيبوا ، فدعا كل فرد على حدة وحاول استمالة الأشخاص وإقناعهم فلم يلق قبولا .

١٠ – ١٢ – وقد دعاهم إلى التوبة والإنابة وطلب المغفرة من الله ، فإذا صدقوا فى توبتهم غمرهم الله بالنعم ، وأنزل عليهم المطر ، ورزقهم الأموال والذرية ، والبساتين النضرة والمياه الجارية .

١٣ – ٢٠ – لِمَ لا تعظمون الله وهو خالق الأولين والآخرين فى أطوار وجودهم ؟ وجميع ما فى الكون يدل على الله ، فالسماوات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض ، والشمس والقمر ، وخلق الإنسان ونموه كما ينمو النبات ، ثم عودته إلى الأرض بعد الموت ، والأرض الممهدة المهيأة للانتفاع بما فى باطنها من كنوز ومعادن ، وما فى ظاهرها من زراعة وصناعة وتجارة ، كل هذه المخلوقات تدل على الإله الخالق .

٢١ – ٢٥ – فى هذا المقطع نسمع آلام نبى كريم ، قدم لقومه سائر الحجج والبراهين ، ولكن قومه قابلوا دعوته بالتكذيب والعصيان ، واتبعوا الخاسرين الهالكين ، والزعماء المضللين ، وبيتوا أمرهم بالكيد لنوح ودعوته ، وتواصوا بالبقاء على كفرهم ومألوفهم وعبادة أصنامهم ، وخصوا بالذكر الأصنام الخمسة الكبار وهى : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، وهى أصنام كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب . وهنا ضاق نوح بقومه وضلالهم البعيد ، فدعا الله أن يزيدهم ضلالاً جزاء عنادهم ، لقد ارتكبوا كثيرا من الأخطاء ولذلك أغرقهم الله بالطوفان ، ثم أدخلوا فى عذاب القبر وعذاب النار ، ولم يجدوا أحدا ينصرهم وينقذهم من عذاب الله ، وهكذا جزاء كل كافر معاند ، أن يحل به بطش الله القوى الغالب .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ . (الفجر : ٦–١٤) .

٢٦ ، ٢٧ – وفى آخر السورة زفرات نبى مكلوم ، مكث ألف سنة ثم قوبل بالجحود ، فقال : يارب أهلك جميع الكافرين ، ولا تترك منهم أحدا ، وليس ذلك حبا فى الانتقام ، ولكن رغبة فى نظافة الأرض منهم ، لأن بقاءهم كفارا يخشى منه أن يفتنوا المؤمنين ويضلوهم بالرغبة أو الرهبة ، ولا يخرج من أصلاب هؤلاء الكافرين إلا فاجر كافر ، فالإناء ينضح بما فيه .

٢٨ – وفى آخر آية تبتل نبى كريم بدعاء ندى رضى ، يطلب فيه مغفرة الله له ولوالديه ، ولمن دخل فى دعوته وآمن به ، ولسائر المؤمنين والمؤمنات ، أما الظالمون فلا يستحقون الهداية التى أعرضوا عنها ، بل يستحقون أن يزيدهم الله ضلالا إلى ضلالهم ، فمن أعرض عن الله سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، وتركه يتخبط فى دياجير الظلام : نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ... (التوبة : ٦٧) .

## المعنى الإجمالى للسورة

الهدف الرئيسى للسورة بيان دعوة نوح ، وحرصه على إيمان قومه ، وقد حوت هذه الدعوة ما يأتى :

(أ) طلب تركهم للذنوب ، وأنهم إذا فعلوا ذلك أكثر الله لهم المال والبنين .

(ب) النظر فى خلق السماوات والأرض والأنهار والبحار .

(جـ) النظر فى خلق الإنسان ، وأنه يخلق فى الأرض كما يخلق النبات ، وأن الأرض مسخرة له يتصرف فيها كما يشاء .

وبينت السورة كفر قوم نوح وعنادهم ، وعقابهم فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

## إرسال نوح عليه السلام إلى قومه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾

**المفردات :**

**إلى قومه :** هم سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم .

**أن أنذر :** بأن أنذر ، أو بإنذار .

**عذاب أليم :** مؤلم في الدنيا بالطوفان ، ومؤلم في الآخرة بنار جهنم .

**نذير مبين :** منذر موضّح ، بيِّن الإنذار .

**يغفر لكم من ذنوبكم :** يغفر لكم ذنوبكم التي سبقت في الجاهلية .

**ويؤخركم إلى أجل مسمّى :** يمدّ في أعماركم إلى الأمد الأقصى الذي قدّره الله لكم .

**إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر :** ما قدره الله لكم ، إذا جاء على الوجه المقدّر به أزلاً لا يؤخّر ، فبادروا في أوقات الإمهال .

**التفسير :**

١ - ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

### رسالة الرسل

كان آدم عليه السلام الأب الأوّل للبشرية ، ولعل رسالته اقتصرت على أبنائه وأحفاده ، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون ، انحرفت فيها البشرية ، وعبدت أوثانا من دون الله تعالى ، فأرسل الله نوحًا إلى قومه .

وهو أوّل رسول أُرسل إلى قومه ، وأطول الرّسل عمرًا ، وربما كان أطول البشر عمرًا ، لقد جاءت إليه الرسالة وعمره أربعون عامًا ، ثم مكث فى قومه رسولا ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ثم جاء الطوفان فأغرق الكافرين ، ونجّى الله المؤمنين ، ثم مكث نوح فى قومه ستّين عامًا بعد الطوفان .

لقد طالت رسالة نوح ، وطال تكذيب قومه له ، مع تذرّع نوح بالصبر والحلم ، والجدال الواضح المبين ، حتى تحدّاه قومه قائلين : يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . (هود : ٣٢)

## الحكمة من إرسال الرسل

خلق الله الإنسان من تراب ، ثم نفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ، ومنحه العقل والحرية والاختيار ، وجعله أهلا للطاعة وأهلا للمعصية ، ثم أرسل الله له الرسل ، وأنزل له الكتب ، لإرشاده إلى الحق والخير والإيمان ، وتحذيره من الكفر والطغيان ، وقد جاهد الرُسل جهادًا مستمرًّا من عهد نوح الأب الثانى للبشرية إلى عهد محمد ﷺ خاتم المرسلين ، جاهد الرُسل وتحمّلوا التكذيب والتعذيب والقتل من أجل الدعوة إلى الإيمان ، وبيان حجة الله تعالى على عباده ، وحتى يكون للجنة أهلها عن عدالة وبيّنة ، وللنار أهلها عن عدالة وبيّنة .

قال تعالى : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

أرسل الله الرُسل دعاة إلى الإيمان ، وهداة للبشرية ، ومعلّمين للحق والخير ، ولا يتقاضون أجرًا على تبليغ الرسالة ، وإنما ينفّذون تعاليم السماء ، ويبلّغون الوحى ، وينصحون الناس ، ويذكّرون الخلق بقدرة الخالق وفضله ، ونعمائه وعدالته ، ويبيّنون للناس أن هناك بَعْثًا ونشرًا وحسابا وجزاء وجنة ونارًا ، فمن أطاع فله الجنة ، ومن عصى الله وكذّب رسله فله النار .

## قصة نوح فى سورة نوح

وسورة نوح تحمل قصته ، ودعوته ، وأدلته على هذا الإيمان ، وجهاده الطويل ليلاً ونهارًا ، وسرًّا وجهارًا ، ثم تكذيب قومه له ، وغرق الكافرين منهم ، ونجاة المؤمنين ، وظلّ هذا ديدن البشرية وعقوبة تكذيبها ، مثل قوم عاد ، وقوم ثمود ، وفرعون وملئه ، وغيرهم .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء :١٧) .

لقد استمرت رسالة الرسل فى تاريخ البشرية الطويل ، وهى من رحمات الله وأفضاله ، أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الكتب ، وأن يدعو الناس إلى الإيمان ، وأن يحذّرهم من الكفر والعصيان ، وأن يُمهل العصاة لعلهم أن يتوبوا ، فإذا تابوا قَبِل توبتهم .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ . (البقرة : ٢٢٢) .

## عود إلى التفسير

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

الله تعالى هو الذى يتحدث عن فضله بعباده ، فيقول : إنا أرسلنا نوحًا رسولا من عند الله إلى قومه فى جزيرة العرب وما حولها ، ليقول لقومه : إنّى أحذركم من عبادة الأوثان ، موضح لكم أن العبادة لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الخالق الرازق ، المتّصف بكل كمال ، المنزّه عن كل نقص .

٢ - قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

قال نوح لقومه : يا عشيرتى ويا قومى ، إنى لكم نذير واضح الإنذار ، صاحب رسالة ودعوة إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأصنام .

٣ - أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ .

تتلخص رسالة نوح فى هذه الأمور الثلاثة :

(أ) عبادة الله وحده ، والخضوع لأمره ، وامتثال أحكامه ، واجتناب نواهيه .

(ب) تقوى الله ، ومراقبته وخشيته ، فهو الرقيب الحسيب المطلع على كلّ شىء .

(جـ) طاعة الرسول ، فهو مبلّغ عن الله تعالى ، قال سبحانه : مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ...

(النساء : ٨٠)

٤ - يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

إن عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ، تؤدى بصاحبها إلى مغفرة الله ومرضاته ، والبركة فى العمر ، والنجاة من العذاب فى الدنيا ، ودخول الجنة فى الآخرة .

لقد كان نوح واضحا وضوح الشمس فى رائعة النهار ، حيث قال لقومه ما يأتى :

إن الإيمان بالله تعالى يحقق لكم مغفرة الله لذنوبكم التى ارتكبتموها قبل الإيمان ، ويحفظكم من عذاب الله فى الدنيا ، ويؤخّر حياتكم إلى الأجل المضروب لكم فى الأزل ، فقد قدّر الله تعالى لكل إنسان أجله وعمره ورزقه ، وهو جنين فى بطن أمّه ، وعقاب الله للكافرين إذا نزل بهم لا يتأخَّر ، كما أن أجل الإنسان فى هذه الدنيا لا يتقدم ولا يتأخر .

إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

وقال تعالى : فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (النحل : ٦١) .

وقال سبحانه وتعالى : وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ . (الرعد : ١١) .

★ ★ ★

## جهاد نوح فى تبليغ الدعوة

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**فرارا :** تباعدًا ونفارًا من الإيمان .

**جعلوا أصابعهم فى آذانهم :** سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة .

استغشوا ثيابهم : بالغوا فى التغطّى بها كراهة لى .

أصروا : تشدَّدوا وانهمكوا فى الكفر .

يرسل السماء : المطر الذى فى السحاب .

مدرارًا : غزيرًا متتابعًا .

لا ترجون لله وقارًا : لا تخافون عظمة الله .

خلقكم أطوارًا : مُدرجًا لكم فى حالات مختلفة .

سماوات طباقًا : متطابقة بعضها فوق بعض ، كالقباب من غير مماسة .

نورًا : منوِّرًا لوجه الأرض فى الظلام .

الشمس سراجًا : مصباحًا مضيئا يمحو الظلام .

أنبتكم من الأرض : أنشأكم من طينتها .

الأرض بساطًا : فراشًا مبسوطا للاستقرار عليها .

سبلا فجاجًا : طُرقا واسعات .

**تمهيد:**

تصور الآيات الكريمة اجتهاد نوح عليه السلام فى دعوة قومه إلى الهداية والإيمان ، وكأنما يناجى ربه ويشرح مهمته فيما يأتى :

لقد دعا قومه ليلاً ونهارًا ، أى بذل جهدًا متتابعا كبيرا ، لكنّهم أعرضوا عنه ، ولم يهتدوا بل عاندوا ، وقد قاوموا دعوته ، حتى وضعوا أنامل أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوه ، وغطُّوا وجوههم حتى لا يشاهدوه ، وقاوموا الإيمان بإصرار واستكبار .

وقد لوَّن نوح فى دعوته ، حيث دعاهم سرًّا ، ثم علنا ، ثم جمع بين الجهر والسر .

## أنعم الله

عرض نوح لبيان نعم الله وأفضاله على عباده ، ومن هذه النعم ما يأتى :

(أ) قبول الاستغفار والتوبة لمن تاب وأناب ، ثم التفضل بالنِّعم .

(ب) إنزال الأمطار ، ويتبعها إنبات النبات .

(جـ) توسعة الرزق بالمال والبنين .

(د) الإمداد بالبساتين والأنهار الجارية .

ثم التفت إليهم نوح متسائلا عن سبب عدم تعظيمهم لله وعدم طاعتهم له سبحانه ، فقد منّ الله على الخليقة بما يأتى :

١ – تطوّر مراحل تخليق الجنين فى بطن أمّه ، وتطوّر حياة الإنسان من الطفولة إلى الشباب ، ثم الرجولة والكهولة والشيخوخة .

٢ – خلق سبع سماوات متطابقة .

٣ – جعل الشمس سراجا مضيئا بذاته ، والقمر منيرا يستمدُّ ضوءه من غيره .

٤ – خلق آدم من تراب ، وخلق ذريته من المنىّ الذى يتكون من الغذاء ، وهو ينبت من الأرض .

٥ – خَلْق الإنسان من الأرض ، ثم عودته إليها عند الموت .

٦ – جعل الله الأرض مسطّحة أمام العين كالبساط ، ويسّر بها الطرق الواسعة الممهدة ، التى تيسِّر الانتفاع بالأرض ، والانتقال بين أرجائها .

**التفسير :**

٥ ، ٦ – قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا .

شكا نوح إلى ربّه قائلا : لقد دعوت قومى إلى الإيمان دعاءً مستمرًّا ، لم أُقصِّر عنه ، ولم أنقطع عن تقديمه بالليل أو بالنهار ، فمن الناس من ينقطع لعمله بالنهار ، ومنهم من يعمل بالليل ، فكان نوح ينتهز الفرصة المناسبة لمن يدعوهم ، لكنّهم قابلوا دعوته بالكنود والجحود ، والرفض والفرار منه ، بل كان الرجل يوصى أولاده بعدم الإيمان بنوح عليه السلام .

٧ – وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا .

إنها صورة معبِّرة عن فرار هؤلاء القوم من دعوته ، وخوفهم من مقابلته ، وإصرارهم على العناد والمكابرة ، فكلما دعاهم نوح إلى الله ليغفر لهم ذنوبهم ، أعرضوا عنه إعراضًا شديدا ، ووضعوا أنامل أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا صوته .

والتعبير هنا يوحى بأنهم حاولوا وضع أصابعهم كلها فى آذانهم ، ليتأكدوا من أنّ صوت نوح لن يصل إليهم ، لذلك قال : جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ... ولم يقل : جعلوا أناملهم فى آذانهم .

كما أنّهم جعلوا ثيابهم فوق وجوههم ، حتى لا يشاهدوا نوحًا ، رغبة فى الإصرار على الكفر والعناد ، وقد أصرُّوا على كفرهم ، واستكبروا استكبارًا شديدا فى عناد وتكبّر ، وعدم استجابة لدعوة نوح عليه السلام .

وقد أخبر القرآن الكريم عن كفّار قريش بما يثبت عنادهم وتكبّرهم ، فقال : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

٨ ، ٩ – ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا .

قدم نوح دعوته إليهم فى كل وقت ، سواء كان ذلك ليلاً أو نهارًا ، وسلك كلّ سبيل إلى دعوتهم .

فدعاهم سرًا فى البداية ، ثم دعاهم جهرًا مرة ثانية ، ثم قرن بين العلانية والسّرية حسب الحالة الأنسب لكل منهم .

ثم وضّح ما وعظهم به ، فقال :

١٠ – فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا .

أى : قلت : آمنوا بالله تعالى ووحّدوه ، وتوبوا إليه من الكفر وعبادة الأصنام ، فإن الله يغفر لكم ويقبل توبتكم ، ويحسن مثوبتكم .

١١ – يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا .

إن التوبة والاستغفار واللجوء إلى الله من أسباب نزول المطر المتتابع الذى يتسبب فى حياة الأرض بالزراعة ، وخروج الحَبّ والخير .

قال قتادة : كانوا أهل حُبٍّ للدنيا ، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التى يحبّونها . اهـ .

وكانوا قد أصيبوا بالقحط وقلة الذريّة وعقم النّساء ، فوعدهم إن آمنوا أن يرفع الله عنهم القحط ، وييسر لهم الرزق .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث ربط القرآن بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء .

قال تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٩٦) .

وقال عز شأنه : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ... (المائدة : ٦٥ ، ٦٦ ) .

وهذه القاعدة التى وضعها القرآن قاعدة صحيحة ، تقوم على أسبابها من وعد الله ومن سنة الحياة.

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

لقد كان الاتحاد السوفيتى من أعظم الدول ، وسادت فيه الجاسوسية وإهدار قيمة الإنسان ، وتفككت دوله وانهار كيانه .

«ونجد فى أمريكا وفرة فى الأرزاق ، وتمكينًا فى الأرض ، ومع ذلك نجد هبوطًا فى المستوى الأخلاقى ، وهبوطًا فى تصوّر الحياة إلى الدرك الأسفل ، فيقوم كلّه على الدولار » [٥٤] .

لقد بيّن القرآن أن الله يختبرنا بالخير والشر فتنة ، قال تعالى : وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ... (الأنبياء : ٣٥)

إن الأمة الإسلامية مدعوة إلى الرجوع إلى هدى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والارتفاع إلى مستوى الأحداث ، والتقدم العلمى والعملى ، والرقى فى السلوك والأخلاق ، لتعود بحق : خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... (آل عمران :١١٠) .

ولن نجد بابا مفتوحا لعز الدنيا وسعادة الآخرة أوسع من باب الله ، والفهم الصحيح لكتابه ، والقدوة الذكية لسُنّة نبينا ، والتبصّر بأحداث أيامنا ، وفقه الواقع الذى نعيش فيه ، حتى يغيّر الله ما بنا من تخلف وهوان .

كما قال سبحانه وتعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (الرعد :١١) .

وكما قال سبحانه وتعالى : إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد :٧) .

١٢ - وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا .

إن إيمانكم بالله والتوبة والاستغفار ، يكون مصدرًا للرزق والمطر وتيسير الأموال والأولاد ، أى يكثر أموالكم وأبناءكم ويجعل لكم الحدائق الظليلة ، والبساتين الفسيحة ذات الأشجار المظلّة المثمرة ، ويجعل لكم الأنهار تجرى خلالها .

لقد حرّك نوح فيهم الرغبة فى الغنى والمال والأولاد ، والزروع والبساتين والأنهار ، وبيّن أن كفرهم بالله وعبادة الأوثان مصدرُ القحط والبلاء ، وأن الطاعة والإيمان مَصْدرُ الخيرات والبركات .

ثم عاد نوحٌ فهزّ نفوسهم هزًّا ، وحرّك قلوبهم نحو الإيمان ، فقال :

١٣ - مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا .

ما لكم لا تعظمون الله حق تَعْظِيمِه ، ولا تخافون بأسه ولا انتقامه ، ولا تتقربون إليه بالطاعة ، ولا تخشون عقوبته بترك المعاصى .

١٤ - وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا .

وقد خلقكم فى أطوار مختلفة ، ومراحل متعددة تدلّ على كمال قدرته .

فقد خلقنا الله من النطفة ، ثم جعل النطفة (وهى الحيوان المنوى الذى يتم به إخصاب بويضة الأنثى) تتحول إلى علقة (أى قطعة دم تعلق بجدار الرحم وتمسك به لتكون فى قرار مكين) ، ثم مضغة (أى قطعة لحم قدر ما يمضغ الإنسان فى فمه) ، ثم تتحول المضغة إلى هيكل عظمى أولاً ، ثم تكسى العظام لحماً ثانيا ، ثم ينفخ الله فيه الروح فيصبح خلقا آخر وإنسانا سويا .

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ١٢ -١٦) .

ونلحظ أن الإنسان فى حياته يبدأ طفلاً ، ثم يافعا ، ثم فتى ، ثم شابا ، ثم رجلا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، فهى أطوار متعددة .

قال تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

١٥ ، ١٦ – أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا .

ألم تشاهدوا بأعينكم نعم الله تعالى فوقكم : هذه السماوات الممتدة امتدادًا بعيدا ، وهى محكمة البناء ، وأيضا متطابقة ، كل سماء فوق الأخرى ، وكل سماء طبق الأخرى أيضا من غير مماسة ، وهى فى غاية الإحكام والإتقان .

قال تعالى : مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ... (الملك : ٣) .

وقد جعل الله القمر نورا يضىء ظلام الليل ، ويمكّن الناس من أداء مهامهم فى البرّ والبحر والجوّ .

وجعله متدرجا ، فيبدأ هلالا صغيرا ، ثم يكبر إلى أن يصير بدرًا كامل الاستدارة ، ثم يتناقص حتى يعود هلالا صغيرا ، ثم يستتر ليلة أو ليلتين ، وذلك لنعرف عدد السنين والحساب .

قال تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ... (البقرة : ١٨٩) .

وجعل الله الشمس سراجا مضيئًا يستضىء به أهل الدنيا ، والسراج ما كان ضوءه من ذاته كالشمس ، والمنير ما استمد نوره من غيره كالقمر ، وهذا من إعجاز القرآن ، أنه عبّر عن الشمس بالسراج ، وعن القمر بالنور .

وقد تقرر فى علم الفلك أن نور الشمس ذاتى فيها ، ونور القمر عرضى مكتسب من نور الشمس ، فسبحان الذى أحاط بكل شىء علما ، وقد أنزل هذا القرآن على نبى أُمّىّ ، وأنزله بهذه الدّقة التى تبين أنه ليس من تأليف بشر ، ولكنه تنزيل من حكيم عليم .

ونحو الآية قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (يونس : ٥) .

١٧ ، ١٨ – وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا .

كما يَخرج النبات من الأرض ويتغذى بتربتها ، خلق الله آدم من تراب الأرض ، وخلق ذريته من النطفة ، وهى مكونة من الدّم ، والدّم خلاصة النّبات ، والنبات من الأرض ، وهناك صلة بيننا وبين الأرض ، فهى أمّنا نعيش عليها ، ونتمتع بخيراتها ، وندفن فى ترابها .

قال تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . (طه : ٥٥) .

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا .

ثم يعيدنا الله إلى الأرض عند الموت ، حيث ندفن فى ترابها ، ثم يخرجنا الله إخراجا محققا لا ريب فيه ، عند البعث والحشر والحساب والجزاء .

١٩ ، ٢٠ – وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا .

من نعم الله أنه جعل الأرض لنا بساطا ممتدًا ، نزرعها ونحصد خيراتها ، وننتفع بثمراتها ، وجعل لنا فيها طرقا واسعة للتنقل فيها ، أو مسالك ومعابر بين الجبال لننتقل من مكان إلى مكان .

أى أن نوحا لفت أنظارهم إلى بديع صنع الله فى خلق السماء والأرض ، والشمس والقمر ، وآفاق الكون ، وآفاق النَّفس .

قال تعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

★ ★ ★

## شكوى نوح إلى ربّه سبحانه وتعالى

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا (٢٤) ﴾

**المفردات :**

**الخسار :** الخسران .

**مكرا كبارا :** كبيرًا عظيما .

**لا تذرن آلهتكم :** التزموا عبادتها ولا تتركوها على الإطلاق .

**ودّ وسواع :** أسماء أصنام كانوا يعبدونها .

**تمهيد:**

يعرض نوح شكواه على ربه القدير ، فقد قدّم نوح النصح والإرشاد ، سرًا وجهرًا ، ليلاً ونهارًا ، ومع كل ما فعل هرب القوم منه ، وخالَفُوا أمره ، وتركوا دعوته ، وساروا وراء دعاة آثمين ، غرّهم المال والجاه ، والأولاد والسلطان ، فازدادوا خُسْرانا وكفرانا ، وبيتوا الاحتيال على البسطاء والعامة ، وألحّوا عليهم بالكفر والبعد عن نوح ، والالتزام بعبادة الأصنام ، خصوصا أكبر الأصنام وهى خمسة : ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، ولقد ضل هؤلاء الكفار وأضلوا كثيرا من العامة ، وهنا دعا نوح ربه بأن يزيد هؤلاء الظالمين الطغاة ، دعاة السوء والكفر ، ضلالا وبعدا عن الهداية ، عقوبة عاجلة فى الدنيا ، وسبيلا إلى النار فى الآخرة .

**التفسير:**

٢١ ، ٢٢ – قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا .

كرّر نوح شكواه إلى الله الخبير العليم ، فقال :

رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى . أى : خالفوا أمرى ، وأعرضوا عن رسالتى ، واتبعوا عمالقة الكفر الذين غرّهم المال والولد والجاه ، فتركوا الرشاد والإيمان ، وسلكوا طريق الكفر والخسران .

وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا .

دبّروا الكيد لإغراء البسطاء والدهماء من العامة ، بالكيد واستمرار التوصية لهم بالابتعاد عن نوح ، والاستمرار على عبادة الأصنام .

كما يقول الضعفاء لهؤلاء الكبراء المضللين يوم القيامة : بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ... (سبأ : ٣٣) .

٢٣ – وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا .

قال هؤلاء القادة المضللون لأتباعهم : لا تتبعوا نوحا ولا تعبدوا رب نوح ، ولا تتركوا عبادة آلهتكم ، أى التى عبدتموها سابقا فصارت آلهتكم ، لإثارة النخوة فيهم حتى يتعصبوا لها ، ولا تتركوا عبادة الأصنام والأوثان كلها ، وخصوصا عبادة الخمسة الكبار .

وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا .

وهى أصنام انتقلت إلى العرب فيما بعد ، وهى أسماء لأشخاص صالحين ، زيّن الشيطان لبعض أتباعهم أن يتخذوا لهم صوراً ورموزا ، ليكون هذا أنشط لهم فى العبادة والاقتداء ، فصوّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، فعبدوهم .[٥٥]

وقد أخرج البخارى ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : صارت هذه الأوثان فى العرب بعدُ ، فكان :

وَدّ : لكلب .

سُواع : لهُذيل .

يَغُوث : لغُطيف بالجَرْف عند سبأ .

يَعُوق : لهمدان .

نسر : لِحمْير آل ذى الكُلاع . اهـ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين ، مثل :

اللات : لثقيف بالطائف .

العُزّى : لسُليم وغطفان وجُشم.

مناة : لخُزاعة بقديد.

أساف : لأهل مكة.

نائلة : لأهل مكة.

هُبَل: لأهل مكة ، وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ، ومن ثمّ كان يوضع فوق الكعبة [٥٦].

وليس المراد أن أعيان هذه الأصنام صارت إليهم ، بل المراد أنهم أخذوا هذه الأسماء ، وسمّوا بها أصنامهم .

٢٤ - وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلاً .

أى : أضلّ القادة المبطلون خلقا كثيرا بهذه الأصنام ، أو أضلت الأصنام خلقا كثيرا ، حيث توهّموا أنها آلهة حقا ، وأنها تنفع أو تضرّ ، وهو وهم خاطئ ، وقد استمرت عبادتها قرونًا كثيرة ، فقلدهم النّاس بدون أدلة عقلية أو نقلية ، أو برهان أو حجة .

كما قال إبراهيم عليه السلام فى دعائه لله : وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ... (إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦) .

وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلاً .

توجه نوح إلى ربه بعد أن يئس من هداية هؤلاء الطغاة المضللين ، قائلاً : لا تزد هؤلاء الظالمين المشجّعين للناس على عبادة الأصنام إلا ضلالاً وبعدًا عن الهداية .

كما قال موسى عليه السلام حين دعا على فرعون وملئه : رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . (يونس : ٨٨ ) .

وقد استجاب الله لنوح فأغرق قومه المكذبين ، واستجاب الله لموسى فأغرق فرعون وملأه .

★ ★ ★

## ختام سورة نوح

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**مما خطيئاتهم :** من أجل ذنوبهم وآثامهم .

**أُغـــرقـــوا :** بالطوفان .

**فأدخلوا نارًا:** عذابا فى القبر.

**ديـــــارًا:** أى أحدًا، يقال: ما بالدار ديار، أى: ما بها أحد.

**إلا فاجرا كفارا:** من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه لوثوقه بذلك، نتيجة لتجربته الطويلة.

**تــبــارًا:** هلاكا، ويعدَّى بالتضعيف فيقال: تبَّره الله، إذا أهلكه.

**تمهيد:**

ذكر القرآن شكوى نوح إلى ربه فبين هنا استجابة الله له، وإغراق الكافرين من قوم نوح، وأنهم لم يجدوا من يدفع عنهم، ولم تنفعهم الأصنام التى عبدوها من دون الله.

ثم أخبر بدعاء نوح على قومه، وعلل نوح ذلك بأنهم ضالون، ولا يلدون إلا كفّارًا ضالاً، ثم ختم السورة بدعاء نوح لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة.

**التفسير:**

٢٥ - مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا.

بسبب ذنوبهم، وإعراضهم عن الإيمان، وإصرارهم على الكفر، أغرقهم الله بالطوفان، ثم أدخلهم النار فى عذاب القبر، أو أدخلهم نار جهنم، فلم يجدوا أحدًا ينصرهم، ولم تنفعهم الأصنام التى عبدوها من دون الله، لقد حاق بهم سوء عملهم، فأهلكهم الغرق فى الدنيا، ولهم عذاب السعير يوم القيامة.

وقريب من ذلك قوله تعالى: فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ.

(القمر: ١٠، ١١)

٢٦ - وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا.

توضح الآية أن غرقهم المذكور فى الآية السابقة كان بسبب ذنوبهم، وبسبب دعاء نوح عليهم، فقد طال مكثه فيهم، وما آمن منهم إلا قليل، وأخبره الله: أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ. (هود: ٣٦).

فدعا الله أن يُهلك جميع الكافرين، وألا يترك منهم أحدًا يسكن دارًا.

لقد مكث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وسلك كل سبيل إلى دعوتهم، لكنهم صمُّوا آذانهم، وتحجَّرت قلوبهم، وكانوا طغاة بغاة ظالمين، فدعا نوح ربه أن يُطهِّر الأرض من الظالمين، وأن يغسلها بالطوفان، حتى لا يكون هؤلاء الطغاة عقبة فى وجه إيمان الجيل الجديد.

٢٧ - إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا .

إنك يا ربّنا إذا تركت هؤلاء الكافرين الطغاة فسيحملون الناس على الشرك بدعوتهم لعبادة الأصنام .

وهم فى نفس الوقت يحذّرون ذريتهم من اتباع نوح ، فكان الرجل يأتى بابنه إلى نوح ، ويقول له : احذر من هذا الرجل فلا تتبعه ، فقد حذّرنى أبى من اتباعه ، وأنا أحذرك من اتباعه .

وتبين لنوح أن الضلال أصيل فيهم ، فهم أباطرة فى الضلال والإضلال ، لذلك قال نوح :

إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا .

إنك إن تتركهم أحياء يتسببوا فى إضلال المؤمنين من عبادك بحيلهم وكيدهم ، وأبناؤهم سيتبعونهم ويكونون مثلهم فى الفجور والكفران .

٢٨ - رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا.

تختم السورة بهذه الآية الكريمة ، وهى ترنيمة دعاء من نبىٍّ صالح .

رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى .

فالرسول بشر ، فى حاجة إلى مغفرة الله وستره وتوفيقه ، ثم دعاء لوالديه ، وبرّ المؤمن بوالديه من أصول الأديان .

ثم دعاء لكل من دخل بيته مؤمنا ، مشتركا معه فى حقيقة الإيمان . فَبَيْن المؤمنين أخوة عامة ، ورحم يجب أن توصل ، لذلك ختم دعاءه بقوله :

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ .

أى : واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يدل على سرٍّ عجيب ، وآصرة قوية تربط بين المؤمنين والمؤمنات ، مهما تباعد الزمان أو المكان ، فإن أخوّة الإيمان بالله أصرة قوية ، ورباط وثيق بين المؤمنين من عهد آدم إلى قيام الساعة .

وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا.

أى : أهلك هؤلاء الظالمين لأنهم عقبة فى سبيل دعوة الإيمان والخير .

وقد استجاب الله دعاءه فأغرق الظالمين ، ونجى المؤمنين .

وسجّلت السورة كفاح هذا النبى الكريم ، والرسول الصابر الذى لوّن فى أسلوب دعوته ، وصبر وصابر ، ليكون قدوة وأسوة للدعاة والهداة . والله ولى التوفيق .

★ ★ ★

وكان ختام تفسير سورة (نوح) مساء الجمعة ٢٨ من ذى الحجة ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٣ من مارس ٢٠٠١ م .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★



# تفسير سورة الجن

# أهــداف ســورة الجـــن

(سورة الجن مكية ، وآياتها ٢٨ آية ، نزلت بعد سورة الأعراف)

وهى سورة تصحح كثيرًا من المعلومات الخاطئة لأهل الجاهلية عن الجن ، حيث كانوا يزعمون أن محمدًا ﷺ يتلقى ما يقوله لهم من الجن ، فتجىء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التى يجحدونها ويجادلون فيها ، وبتكذيب دعواهم فى استمداد محمد من الجن شيئًا .

والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد ﷺ ، فهالهم وراعهم ومسّهم منه ما يدهش ويذهل ، فانطلقوا يحدثون عن هذا الحدث العظيم الذى شغل السماء والأرض ، والإنس والجن والملائكة والكواكب ، وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله ، وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتمًا .

## أوهام عن الجن

كان العرب يبالغون فى أهمية الجنّ ، ويعتقدون أن لهم سلطانًا فى الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بوادٍ أو قفر لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه .. ثم يبيت آمنًا .

كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب ، وتخبر به الكهان فينبئون بما يتنبأون ، وفيهم من عبد الجنّ ، وجعل بينهم وبين الله نسبًا ، وزعم أن له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة . وهكذا نجد كثيرًا من الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم ، وتصوراتهم عن الجن فى القديم ، ولا تزال هذه الأوهام تسود بعض البيئات إلى يومنا هذا .

ونجد فى الصف الآخر منكرين لوجود الجن أصلاً ، يصفون أى حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة .

وبين الإغراق فى الوهم ، والإغراق فى الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم .

## الجن فى القرآن

تحدث القرآن الكريم عن الجن فى عدد من السور ، وقد عالج القرآن الأخطاء الشائعة عن الجن ، وأثبت الحقيقة فيما يتصل بهم ، وأعطى للإنسان صورة واضحة دقيقة متحررة من الوهم والخرافة ، ومن التعسف فى الإنكار الجامح ، فالجن عالم نؤمن به وبخصائصه كما وردت فى القرآن الكريم ، والجن لا يظهر للعين ولا يراه الإنسان بحاسة البصر .

قال تعالى : إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... (الأعراف : ٢٧) .

والجن منهم الضالون المضلون ، ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون ، ومنهم المستقيمون على الطريق القويم والمنهج السليم ، وليس للجن معرفة بالغيب ، وليس لهم قوة ولا حيلة مع قوة الله ، وليس بينهم وبين الله صهر ولا نسب ، وقد كان إبليس من الجن ثم فسق عن أمر ربه وتمحض للشر والفساد والإغواء ، وقد خلق الجن من النار ، كما خلق الإنسان من الطين .

وقد سُخرت الجن لسليمان عليه السلام ، فمنهم من كان يبنى له المساجد والمنازل والأبنية المختلفة ، ومنهم من كان يغوص فى البحر يستخرج له اللؤلؤ والياقوت والأحجار الكريمة ، وسلطه الله على المردة والخارجين على القانون ، فكان يقيدهم فى السلاسل والأغلال ، ويسخرهم فى الأعمال ، ويرهقهم بألوان العذاب ، وقد جعل الله السيطرة على الجن منحة خاصة لسليمان عليه السلام ، فقد سأل ربه ملكًا لا يتهيأ لأحد من بعده ، فأعطاه الله ملك الريح والجن والشياطين والمردة :

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ . (ص : ٣٥ – ٤٠) .

«إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى ، وهذه السورة من القرآن – كغيرها – تمنحنا جوانب من الحقائق فى هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقى صحيح للوجود ، وما فيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا ، وهذا التصور هو الذى يميز المسلم ، ويقف به وسطًا بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول ، ومصدره هو القرآن والسُّنة ، وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر ، وكل قول ، وكل تفسير»[٥٧] .

## استماع الجن للقرآن

فى كتب السُّنة ما يفيد أن الجن قد استمعت للقرآن عرضًا دون قصد ، فأسلمت وآمنت ، وانطلقت تدعو قومها إلى الإسلام .

وفى روايات أخرى أن النبى ﷺ انطلق متعمدًا ليبلغ دعوته إلى الجن ، وقد افتقده أصحابه ذات ليلة فاشتد بهم القلق ، وباتوا بشرٌ ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحوا جاءهم النبى ﷺ من قبل حراء ، فقال : «أتانى داعى الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن» . والروايتان السابقتان واردتان فى الصحيح ، إحداهما عن ابن عباس تقول إن النبى ﷺ لم يعرف بحضور النفر من الجن ، والرواية الثانية عن ابن مسعود تقول إنهم استدعوه ، ويوفق البيهقى بين الروايتين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وفى رواية ثالثة لابن إسحاق أن الجن استمعت إلى النبى ﷺ ليلة عودته من الطائف قبل الهجرة .

ولعل الجن قد استمعت للنبى ﷺ أكثر من مرة ، وكان فى استماع الجن للنبى بمكة قبل الهجرة تطييب لخاطره ، وتصديق لدعوته ، وتحقيق للحق بشأن الجن ، وتصحيح لمفاهيم الجاهلية عن الجن ، وإرشاد للمسلمين ليكون إيمانهم عن بينة ، وقد ساقت سورة الجن كثيرًا من الحقائق عن الألوهية والعقيدة والوحدانية ، وإخلاص العبادة لله سبحانه ، فهى سورة الجن ولكنها توجيه وإرشاد وتعليم للخلق أجمعين .

## أسماء السورة

نلاحظ أن السورة فى القرآن تسمى بأغرب شىء فيها أو أهم شىء فيها ، فسورة البقرة اشتملت على قصة قتيل ضُرب بقطعة من البقرة فردت إليه الحياة ، وسورة آل عمران اشتملت على قصة مريم ابنة عمران ، وسورة النساء اشتملت على ذكر أحكام النساء ، وسورة المائدة اشتملت على قصة المائدة التى نزلت من السماء استجابة لدعاء عيسى عليه السلام .

كما سمى الله سبحانه سور كتابه بأسماء تبعث على النظر والاعتبار ، وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام ، وبالحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو ألطف من ذلك كالنور ، كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وببعض الأخلاق كالتوبة ، وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم ، وببعض الأوقات كالليل والفجر والضحى ، وببعض المعادن كالحديد ، وببعض الأماكن كالبلد ، وببعض النبات كالتين ، وكل ذلك مما نراه .

وهنا سمى هذه السورة بعالم لا نراه وهو عالم الجن ، وهو عالم لم يعرف فى الإسلام إلا من طريق الوحى ، وليس للعقل دليل عليه ، فالمؤمن يؤمن بالغيب ، ويؤمن بالملائكة وبالجن على نحو ما ورد فى القرآن .

وسميت السورة سورة الجن لأنها تحدثت عنهم وبدأت بذكرهم ، فقالت : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا . (الجن : ١) .

## مع آيات السورة

١ ، ٢ – تطالعنا السورة بأن الجن فوجئت باستماع القرآن الكريم ، فقالوا لقومهم : إنا سمعنا كتابًا بديعًا يهدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، فصدقنا به ، ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك بالله .

٣– ثم نزَّهوا ربهم عن الزوجة والولد ، فقالوا : علا ملك ربنا وسلطانه أن يكون ضعيفًا ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو ملامسة يكون منها الولد ، وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ، فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية ، فى تسبيح لله وتنزيه له .

٤ – وأن الجهال من الجن كانوا يقولون قولا شططا بعيدًا عن الصواب ، بنسبة الولد والصاحبة إليه تعالى .

٥ – وأنهم كانوا يستعظمون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله ، فلما قال لهم سفهاؤهم : إن لله صاحبة وولدًا ، صدقوهم لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله .

٦ – وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون فى القفر برجال من الجن فزادوا الجن بذلك طغيانًا وغيًّا ، إنهم لما استعاذوا بالجن خوفًا منهم ولم يستعيذوا بالله ، استذلوهم واجترأوا عليهم .

٧ – ظنَّت الطائفة الظالمة من الجن أن الله لن يبعث رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده والإيمان برسله واليوم الآخر . أو ظنّوا أن لن يبعث الله أحدًا بعد الموت ، وهذا الظن مخالف للاعتقاد فى حكمة الله وكماله . وهؤلاء النفر من الجن المؤمن يصححون لقومهم ظنّهم ، والقرآن فى حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

٨ ، ٩ – كان الجن يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شىء مما يدور فيه بين الملائكة ، عن شئون الخلائق فى الأرض ، ثم يوحون ما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، الذين يستغلون الكثير من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس .

وبعد رسالة النبى محمد ﷺ ، حاولت الجن استراق السمع من السماء فلم يتمكنوا ، لأن الحراسة شددت على السماء ، ومن حاول استراق السمع ومعرفة الغيب رجم بالشهب فتقتله أو تخبله .

١٠ – إن الجن لا تعلم شيئًا عن الغيب المقدر للبشر ، ولا يدرون الحكمة من حراسة السماء بالشهب ، ولا ماذا قدر الله لعباده فى الأرض ، أعذابًا أراد الله أن ينزله بهم ، أم أراد بهم ربهم الهدى ، بأن يبعث فيهم رسولاً مرشدًا يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

١١ – من الجن الصالح والطالح ، ومنهم المسلم والجائر ، فهم مثلهم مثل الإنسان فى طبيعته ، لديهم استعداد للخير والشر ، إلا من تمحض منهم للشرّ وهو إبليس وقبيله .

١٢ – إن الله قادر علينا حيث كنا فلا نفوته هربًا ، فهم يقررون ضعف المخلوق أمام الخالق ، ويشعرون بسلطان الله القاهر الغالب .

١٣ – لما سمعنا القرآن صدقنا به وأقررنا بأنه من عند الله ، ومن يصدق بالله وبما أنزله على رسله فلا يخاف نقصًا من حسناته ، ولا هوانًا ولا جورًا ، لأن المؤمن فى حماية الله وعونه ورعايته ، وسينال جزاءه وافرًا كاملاً .

١٤ – من الجن فريق مؤمن أطاع الله واستقام على الهدى ، وفريق قاسط جائر مائل عن الصواب ، وقد وصل الفريق المؤمن إلى الصواب ، حين اختار الإسلام وحرص على الرشد والاعتدال .

١٥ – أما الجائرون عن سنن الإسلام فشأنهم أن يكونوا حطبًا لجهنم ، تتلظى بهم وتزداد اشتعالاً ، كما تتلظى النار بالحطب .

١٦ – يلتفت القرآن فى الخطاب ، وينتقل من الحديث على لسان الجن إلى مخاطبة الرسول والخلق أجمعين فيقول : لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام لوسعنا عليهم أرزاقهم ، ولبسطنا لهم خيرات الحياة .

١٧ – وهذه النعم للاختبار والابتلاء ، فمن شكر النعمة وأحسن التصرف فيها استحق بقاءها ، ومن أعرض عن منهج الله دخل فى العذاب الشاق الذى يعلوه ويغلبه ولا يطيق له حملا .

١٨ – إن السجود أو مواضع السجود – وهى المساجد – لا تكون إلا لله ، فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار ، وينفرد الجو للعبودية الخالصة لله .

١٩ – لما قام محمد ﷺ يعبد الله ، كاد الجن يكونون جماعات بعضها فوق بعض تعجبًا مما شاهدوا من عبادته ، وسمعوا من قراءته ، واقتداء أصحابه به قيامًا وركوعًا وسجودًا ، وأُخذوا ودُهشوا من جلال

ما سمعوا ، وروعة ما شاهدوا ، وهو دليل على انشغال السماء والأرض والملائكة والجن بهذا الوحى ، وعلى الجِدّ الذى يتضمنه : إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ . (الطارق : ١٣ ، ١٤) .

٢٠ – قل يا محمد للناس : إنما أعبد الله وحده ، ولا أشرك بعبادته صنمًا ولا وثنًا ولا مخلوقًا .

٢١ – قل : إنى لا أملك لكم نفعًا ولا ضرًّا ، فالله وحده هو الذى يملك الضرّ ويملك الخير .

٢٢ ، ٢٣ – إنى لا أجد ملجأ أو حماية من دون الله ، إلا أن أبلغ هذا الأمر ، وأؤدى هذه الأمانة ، فهذا الأمر ليس أمرى ، وليس لى فيه شىء إلا التبليغ ، ولا مفر لى من هذا التبليغ ، والرسالة ليست تطوعًا ، وإنما هى تكليف صارم جازم لا مفر من أدائه ، فالله من ورائه .

يقول الله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ... (المائدة : ٦٧) .

ومن يكذب برسالات الله فإن له نارًا يصلاها ، خالدًا فيها إلى غير نهاية .

٢٤ – وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون ، أى الفريقين هو الضعيف المخذول ، القليل المهزول .

٢٥ – ويتجرد الرسول وينفض يده من أمر الغيب ، فالعذاب الذى يتوعد به الكافرين ليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعدًا ، ولا يدرى أقريب هو أم بعيد يجعل الله له أمدًا ممتدًّا ، سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فكله غيب فى علم الله .

٢٦ – والله سبحانه هو المختص بالغيب دون العالمين .

٢٧ – والرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحى : موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه فى اللوح المحفوظ ... إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم ، مما كان فى ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم .

وفى الوقت ذاته يحيط بهؤلاء الرسل الأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللوقاية ، يحمونهم من وسوسة النفس وتمنياتها ، ومن الضعف البشرى فى أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف ومن سائر ما يعترى البشر من النقص والضعف .

والخلاصة : إنه يدخل حفظة من الملائكة يحفظون قوى الرسول الظاهرة والباطنة من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم .

٢٨ – وهذه الحراسة الشديدة ليظهر الله للناس أجمعين أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم ، غير مشوبة بتخليط من الجن أو من الجنون ، وهو سبحانه محيط علمًا بجميع أحوال أولئك الوسائط ، وهو سبحانه أحصى كل شيء عددًا ، فلا تقتصر إحاطته على ما لدى الرسل ، بل يحيط بكل شيء إحصاء وعدًّا ، وهو أدق أنواع الإحاطة والعلم . وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة التى بدئت بروعة الجن من سماع القرآن ، وخُتمت بإحاطة الله الشاملة لمن يؤدون رسالته ، وحمايته لمن يبلغون دعوته ، وقد وسع علمه السماوات والأرض وكل ما فى الوجود .

## المقصد الإجمالى للسورة

اشتملت سورة الجن على مقصدين :

١ – حكاية أقوال صدرت عن الجن حين سمعوا القرآن ، كوصفهم له بأنه كتاب يهدى إلى الرشد ، وأن الربَّ سبحانه تنزه عن الصاحبة والولد ، وأنهم ما كانوا يظنون أن أحدا يكذب على الله ، وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون فى القفر برجال من الجن ، وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوى فمُنعوا ، وأن الجن لا يدرون ماذا يحل بالأرض من هذا المنع ، وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجّار ، ومنهم مسلمون وجائرون عادلون عن الحق .

٢ – ما أُمر النبى ﷺ بتبليغه إلى الخلق ، ككونه لا يُشرك بربه أحدًا ، وأنه لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ، وأنه لا يمنعه أحد من الله إن عصاه ، وأنه ﷺ لا يدرى متى يكون وقت تعذيبهم فالعلم لله وحده ، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله ، ثم من اصطفى من الرُّسل .

★ ★ ★

## استماع الجن للقرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

**المفردات :**

**أوحى إلىّ :** الوحى شرعا : إعلام الله تعالى أنبياءه ما يريد إبلاغهم به من الشرائع والأخبار بطريق خفى .

**النفر :** ما بين الثلاثة والعشرة .

**الجن :** واحدهم جنّى ، كروم وروميى .

**عجبا :** بديعًا مباينًا لكلام الناس ، فى حسن النظم ودقة المعنى .

**جدُّ ربنا :** عظمته وسلطانه وجلاله ، يقال : جدَّ فلان فى عينى ، أى : عظُم ، قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا ، أى : جل قدره وعظم .

**السفيه :** الجاهل أو الأحمق .

**شططا :** غلوًا مجاوزًا الحدّ ، فى نسبة الصاحبة والولد إلى الله .

**يعوذون :** يلتجئون ، وكان الرجل إذا أمسى بقفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه .

**رهقا :** تكبرًا ، وأصل الرهق : الإثم وغشيان المحارم .

**التفسير :**

١ - قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا .

قل يا محمد لقومك : إن جبريل أخبرنى بأنّ جماعة من الجنّ ، قد استمعت القرآن من النبى ﷺ وهو قائم فى صلاة الفجر بعد عودته من الطائف ، فقال الجن لإخوانهم ولقومهم :

إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا .

أى : باهرًا عجيبًا بديعًا فى حسن نظمه ، ودقة معانيه ، فهو عجيب باهر فى أسلوبه ونظامه ورصف معانيه ، وهو عجيب باهر فى رشاقة ألفاظه ، وتسلسل أفكاره ، وهو عجيب باهر فيما اشتمل عليه من أحكام وتشريع وآداب ، وأخبار عن الأمم الماضية ، ومشاهد للقيامة والحساب والجزاء ، والصراط والميزان ، والجنة والنار .

٢ - يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا .

هذا القرآن يهدى إلى الرُشد ، وإلى العقل والحكمة والهداية ومرضاة الله ، وإلى البعد عن النَزق والطيش والفساد والانحراف ، لذلك آمنّا بهذا الكتاب المتميزّ ، الهادى للرشاد والحكمة ، ولن نشرك بعبادة الله أحدًا ، بل نعبد الله وحده لا شريك له .

٣ - وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا .

الجدّ : العظمة والسموّ .

وفى الأثر : كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدّ فينا . أى : جلّ قدره .

**والمعنى :**

تنزه الله ، وجل قدر ربنا ، فهو إله منزه عن كل نقص ، متّصف بكل كمال ، ليس فى حاجة إلى صاحبة ، وليس فى حاجة إلى ولد ، إنما يحتاج إلى ذلك الإنسان ليأنس بالزوجة ، ويفتخر بالولد ، ويحتمى به عند الكبر ، أما الله جلّ جلاله ، وتقدّست أسماؤه ، فلا يحتاج إلى زوجة أو ولد ، وإنما هو سبحانه منزّه عن ذلك ، فهو الإله الحقّ ، المنزه عن الاحتياج إلى أىّ شىء ، المستغنى عن كل شىء .

**والخلاصة :** تنزّه الله العظيم الجليل عن أن يتخذ زوجة أو ولدًا .

٤ - وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا .

إن الجاهل فينا والأحمق ، أو ضعيف العقل ، أو إبليس كان يقول على الله قولاً بعيدًا عن الصواب ، بعيدًا عن الحق والاعتدال ، حيث كان يدّعى أن للّه صاحبة أو ولدا ، أو كان إبليس يدعوهم إلى عبادة غير الله .

٥ - وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا .

ظننا أن أحدًا من الإنس أو الجن لا يجرؤ على أن يكذب على اللّه الجليل العظيم ، فلما سمعنا القرآن يُنزِّه الله الواحد الأحد عن الشريك وعن الصاحبة والولد ، تيقنًا بصدق القرآن ، وبافتراء وكذب من ادعى أن للّه صاحبة أو ولدًا أو شريكًا ، حيث كان السفهاء يروِّجون أن الله تزوج من سراة الجن ، فأنجبت له الملائكة ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وأن للّه زوجة من الجنّ ، وكل هذه المفتريات أدركوا كذبها بعد سماع القرآن ، ووصول الإيمان إلى قلوبهم ، فأدركوا على الفور كذب هذا السَّفَه ، وهكذا الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وكأن هذه الآية نداء جهير لأهل مكة ، يقول لهم : أما تشاهدون أن الجن سمع القرآن مرة واحدة ، فاهتدى وآمن وصدّق بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً ، وبالقرآن كتابًا سماويًّا منزلاً من عند الله على رسوله ، هاديًا إلى الرشد والحقّ ، وأنتم تسمعون القرآن منذ الجهر بالدعوة ، وتعرضون عن هدايته ، فما أقسى قلوبكم ، وما أبعدكم عن الهدى .

٦ - وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا .

كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا أمسى فى قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادى ، أو بعزيز هذا المكان ، من شرّ سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم فيبيت فى جواره حتى يصبح .

وهذه الاستعاذة من الإنس بعزيز الجن وكبيرهم ، زادت الجنّ تيهًا وكِبرًا ، وصلفا وعُتوًّا ، حيث قالت الجنُّ : سُدنا الإنس والجنّ ، أو أن الجن زادوا الإنس خوفًا وفَرَقًا ، بل زادوهم كُفْرًا ، إذ الاستعاذة لا تكون إلا باللّه ، وأن تعظيم الجن والخوف منهم ، واعتقاد أن لهم ضررًا أو نفعًا بدون إذن الله ، يؤدى إلى فساد العقيدة .

وخلاصة المعنى :

كان بعض رجال الإنس يتحصَّنون ويتعوَّذون بسادة الجنّ ، فعبثت الجن بهؤلاء الناس ، وزادتهم خوفًا وقلقًا واضطرابًا ، ويؤخذ من ذلك أن المؤمن يتحصَّن بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة ، كما ورد فى المأثورات .

**ومما يتعوذ به المؤمن من الحسد والعين والسحر والجن ما يأتى :**

١ – قراءة الفاتحة .

٢ – آية الكرسى .

٣ – خواتيم سورة البقرة .

٤ – بسم الله ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .

٥ – قل هو الله أحد ، والمعوذتين .

٦ – فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . (يوسف : ٦٤) .

٧ – إخراج صدقة .

٨ – (أعيذك بكلمات ربنا التامَّات المباركات ، ما علمت منها وما لم أعلم ، من شرّ ما ينزل فى الأرض وما يخرج منها ، وما يصعد إلى السماء وما ينزل منها ، ومن طوارق الليل والنهار ، إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن) .

٩ – اليقين الجازم بأن بيد الله الخلق والأمر ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ما نفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضرُّوك بشىء ما ضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، فهذا اليقين هو الصخرة الصمَّاء التى تتكسر عليها سهام الحاسدين والمؤذين .

إن العقيدة الصادقة بأنَّ بيد الله كلّ شىء ، وأن الجن لا تستطيع نفعًا أو ضرًّا إلا بإذن الله ، ذلك هو الذى يبدد الخوف والقلق ، ويبعث على الرضا وراحة البال وسعادة النفس .

٧ – وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا .

ظنّ بعض الإنس كما ظن الجن أن الله لن يبعث رسولاً لهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وإرشادهم إلى العقيدة الصحيحة ، والتفكير الأمثل السوىّ .

**أو تُفهم الآية على النحو الآتى :**

ظنّ كفار قريش كما ظنّت الجن أنه لا بعث ولا حشر ، ولا حساب ولا جزاء ، وكلاهما فهم خاطئ . فالله يرسل الرسل لهداية الناس ، والله أكد أن البعث حق : قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ... (التغابن : ٧) .

حتى يجازى كل إنسان بما عمل ، بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا .

★ ★ ★

## معلومات عن الجن

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾

**المفردات :**

**وأنا لمسنا السماء :** طلبنا خبرها كما جرت بذلك عادتنا .

**حرسا :** الحرس والحراس واحدهم حارس ، وهو الرقيب .

**شديدا :** قويًا .

**السمع :** الاستماع .

**الشهب :** واحدها شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكواكب .

**رصدا :** أرصد له ليرمى به .

**طرائق قددا :** جماعات متفرقة ، وفرقًا شتى ، أو مذاهب مختلفة .

**قددا :** جمع قِدَّة ، وهى القطعة من الشيء .

**نُعجز الله :** نفوته ونتفلت منه .

**هربا :** هاربين إلى السماء .

**البخس :** النقص على سبيل الظلم .

**رهـــــقـــــا :** ظلمًا ومشقة عليه ، بالزيادة فى آثامه وسيئاته .

**الــقـــاســطــون :** الجائرون والمائلون عن طريق الحقّ .

**تــحــروا رشـــدا :** قصدوا طريق الحق والصواب .

**حـــطـــبـــا :** وقودًا للنار .

**الــطـــريـــقـــة :** هى طريق الإسلام .

**غـــــدقـــــا :** كثيرًا .

**لنفتنهم فيه :** لنختبرهم ، أيكفرون أم يشكرون .

**يســــلــكـــه :** يدخله .

**صــــعـــــدا :** شاقًا ، يعلوه ويغلبه فلا يطيقه ، ومنه قول عمر : (ما تصعّدنى شىء كما تصعّدنى فى خطبة النكاح) ، أى : ما شق علىّ .

**التفسير :**

٨ - وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا .

أى : طلبنا بلوغ السماء ، والتنصت على أخبارها كما كنّا نفعل فى الجاهلية ، فوجدنا السماء قد ملئت بالحرّاس الأشداء من الملائكة ، التى تمنع الجنّ من استراق السمع والتقاط أخبار السماء ونقلها إلى الكهان فيزيد الكاهن على الكلمة الواحدة تسعًا ، فيصدق فى كلمة ويكذب فى الباقى ، فإذا عيّروه بالكذب وعدم تحقق ما قاله ، أجاب الكاهن : ألم أخبركم بشأن كذا يوم كذا ، وقد صدق ؟

وإذا حمل الجنىّ خبر السماء ، وأفلت من حراسة الملائكة تبعه شهاب من نيران الكواكب ، يقتله أو يخبله ، ويمنعه من نقل أسرار السماء .

وفى الأحاديث النبوية الصحيحة ما يفيد أن الجنّ كانت ترصّ بعضها فوق بعض ، فيضع الجنى أقدامه فوق كتف الأوّل ، ويضع الثالث أقدامه فوق كتف الثانى وهكذا ، حتى يستطيع آخر جنّى أن يسمع خبر السماء ، وأن يتنصت على كلام الملائكة ، تقول لبعضها مثلاً : قضى الليلة بموت فلان ، أو نصْر فلان ، فينقل الجنّى الخبر إلى الكهّان ، فيكذب الكاهن مع الكلمة تسعًا ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ شددت الحراسة على السماء ، فمن أراد أن يقعد فى مكان قريب من السماء لاستراق السمع ، منعه الحرّاس وأحرقته الشهب بنيرانها لا تتخطاه ، والغرض من ذلك حفظ الوحى والقرآن الكريم من استراق الشياطين .

٩ – وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا .

أى : كنا فى الجاهلية نجد أماكن خالية نجلس فيها ، ونقعد لاستماع حديث الملائكة مع بعضها ، لكن الأمر تغيّر ، فمن حاول الجلوس لاستماع أخبار السماء وجد شهابًا محرقًا من النار ، مترصدًا له ليقتله أو ليخبله .

١٠ – وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا .

لقد تغير الحال عما أَلِفْناه ، فقد كنّا نسترق السمع ، ونجلس فى مقاعد قرب السماء نسمع أخبار الغيب فى الجاهلية ، والآن شُددت الحراسة على السماء ، ومُنعنا من استراق السمع ، لا ندرى ، هل هذا العمل بسبب عذاب أراده الله بأهل الأرض المكذبين لرسله ، أم أراد الله بهم خيرًا وفضلاً حين يرسل رسولاً ، فيؤمنون به ويهتدون برسالته .

١١ – وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا .

تخبر الجن عن نفسها بأنها نوعان : المؤمنون الصالحون المستقيمون على أمر الله ، والكافرون الرافضون للإيمان .

كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا .

كنّا مذاهب مختلفة ، وجماعات متعددة ، بعضها بالغ الحسن فى الصلاح ، وبعضها دون ذلك فى الدرجة والاستقامة ، أو بعضها كافر فاجر ، فكنّا فرقًا شتى ، وأديانًا مختلفة .

قال سعيد بن المسيب : كنّا مسلمين ويهودا ونصارى ومجوسًا .

١٢ – وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا .

تيقنّا وتأكدنا أننا فى قبضة الله وسلطانه أينما كنّا ، فأين المهرب من قضاء الله وقدره ، وبيده سبحانه الخلق والأمر ؟

قال القرطبى : أى علمنا بالاستدلال والتفكّر فى آيات الله أنّا فى قبضته وسلطانه ، لن نفوته بهرب ولا غيره . ا هـ .

وقال غيره : لن نعجز الله فى الأرض مع بسطها وسعتها وكثرة فجاجها ، وتشعب طرقها ، فلا نفوته إذا أراد بنا أمرًا أينما كنّا فيها ، ولن نستطيع أن نفلت منه - عز وجل - هربًا إلى السماء ، وإن هربنا فلن نخلُصَ منه ، وذلك لشدة قدرته وعظيم سلطانه .

هذه هى الجن تعترف بعجزها وانكسارها أمام القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

١٣ - وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فلا يخاف بخسًا ولا رهقًا .

يعود الجن إلى سعادتهم بالإيمان والقرآن ، فيقولون : وأنا لما سمعنا القرآن يتلى - وهو هداية ورشد - آمنا به ، وصدقنا بالإسلام ، وبرسالة محمد ﷺ ، فالمؤمن فى رعاية الله وعدالته ، وحاشا للّه أن يظلم أحدًا .

قال تعالى : مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ... (النساء ١٤٧) .

فمن يؤمن بالله فلا يخاف بخسًا ولا نقصًا من حسناته ، ولا يخاف رهقًا ، أى : إرهاقه بالسيئات أو بالهوان والمذلَّة .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عظيمًا . (النساء : ٤٠).

وقال عز شأنه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرًّا يرهُۥ . (الزلزلة ٧ ، ٨) .

١٤ ، ١٥ - وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تحرَّوْاْ رشدًا ۝ وأمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا .

الجنّ طائفة منها المسلم المؤمن المستقيم الذى رجّح جانب الخير على جانب الشر ، شأن مسلم الإنس ، ومنهم الجائر الظالم .

فأما المسلم فقد اختار الرشد ، وبحث وتحرّى عن عقيدته التى يدين بها ، فاختار الإسلام ، وأما الكافرون الظالمون فقد آثروا الضلال والعناد ، فمآلهم جهنم ، وسوف يكونون وقود النار وحطبها .

رُوى عن سعيد بن جبير رحمه الله ، أن الحجاج بن يوسف الثقفى قال له حين أراد قتله : ما تقول فىّ ؟ فقال سعيد : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ، فقال الحجاج : يا جهلة ، إنه سمّانى ظالمًا مشركًا ، وتلا لهم قوله تعالى : وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فكَانُواْ لِجهَنَّمَ حَطبًا . وقوله عز وجل : ثُمَّ ٱلَّذِينَ كفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . (الأنعام : ١) .

١٦ ، ١٧ - وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا .

يلتفت الخطاب ويتغير من الحديث على لسان الجن إلى خطاب موجَّهٍ من الله تعالى لنبيه وللبشرية كلها ، يدعوها إلى الهداية والإيمان بالله ، ويبين أن سعادة الدنيا والآخرة فى طاعة الله ورسوله ، والتمسك بأهداف التشريع الإلهى .

**والمعنى :**

لو أن الجن والإنس استقاموا على طريقة الإسلام لأغدق الله عليهم النِّعم ، وحفّتهم بركات السماء ، فحيث يكون الماء يكون المال ، وحيث يكون المال تكون الفتنة والاختبار .

لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ...

لنعاملهم معاملة المختبر ، حيث نعطيهم النعمة ونرى تصرُّفهم حيالها .

وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا .

ومن أعرض عن هدى الله ، واختار العاجلة على الآجلة ، ترك الله قلبه للشقاء والعذاب المتصاعد الأليم ، الذى يعلوه ويغلبه ولا يطيق له حملا .

والآيتان تشيران إلى سنة من سنن الله ، وهى إسعاد من يختار طريق الهدى ، لأنه متناسق مع الكون ، خاضع لأمر اللّه ، متوافق مع سنن الله ، ومع نواميس الكون والحياة ، وأن من يعرض عن هداية الله وشرعه يُصَبْ بالتعاسة والعذاب الداخلى الذى لا يطيق حمله ، ولا التغلب عليه .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥)

وقوله عز شأنه : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٩٦) .

وفى صحيح البخارى : «إن هذا المال خَضِرَة حلوة ، فمن أخذه بحقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه من غير حقّه كان كالذى يأكل ولا يشبع ، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلمّ ، إلا آكلة الخضراء ، أكلت حتى إذا امتلأت خَاصِرتَاهَا (جنباها) استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت»[٥٨] .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج لكم من زهرة الدنيا»، قالوا : وما زهرة الدنيا ؟ قال : «بركات الأرض»[٥٩] .

وجاء فى تفسير القرطبى : أن رسول الله ﷺ قال : «والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم»[٦٠] .

★ ★ ★

## صدق العقيدة

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

**المفردات :**

**المساجد :** واحدها مسجد ، وهو موضع السجود للصلاة والعبادة ، ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين .

**فلا تدعوا :** فلا تعبدوا .

**يدعوه :** يعبده .

**لبدا :** جماعات ، شُبهت بالشىء المتلبِّد ، المتراكم بعضه فوق بعض ، من ازدحامهم عليه .

**ولا رشدا :** ولا نفعًا .

**ملتحدا :** ملجأ يركن إليه ، قال الشاعر :

يا لهف نفسى ونفسى غيرُ مُجْدية   عنّى وما من قضاء الله مُلْتحدُ

**بلاغا من الله :** تبليغًا لرسالاته ، أى : لا أملك لكم إلا البلاغ ، أى : تبليغ الرسالات .

**حتى إذا رأوا ما يوعدون** : ما يوعدون به من العذاب فى الدنيا كوقعة بدر ، أو فى الآخرة بعذاب النار .

**فسيعلمون** : عند حلول العذاب بهم يوم بدر ، أو يوم القيامة .

**من أضعف ناصرا وأقل عددا** : من أضعف أعوانًا ، وأقل عددًا ، هو أم هم .

**سبب النزول :**

سبب نزول الآية (١٨) :

وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ ... الآية .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : قالت الجن : يا رسول الله ، ائذن لنا ، فنشهد معك الصلوات فى مسجدك ، فأنزل الله : وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا . وروى ذلك أيضًا عن الأعمش .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير قال : قالت الجن للنبى ﷺ : كيف لنا نأتى المسجد ونحن ناءُون عنك ، أى : بعيدون عنك ، أو كيف نشهد الصلاة ونحن ناءُون عنك ، فنزلت : وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ ... الآية .

سبب نزول الآية (٢٠) :

قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى ... سبب نزولها كما ذكر الشوكانى : أن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن نجيرك .

سبب نزول الآية (٢٢) :

قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى ... أخرج ابن جرير ، عن حضرمى أنه ذكر أن جنيًّا من الجن من أشرافهم ذا تَبَع قال : إنما يريد محمد أن يجيره الله ، وأنا أجيره ، فأنزل الله : قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ... الآية .[٦١]

**التفسير :**

١٨ - وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا .

كان المشركون يضعون الأصنام حول الكعبة ، ويدعونها ويتقربون إليها مع عبادتهم لله تعالى ، فأنزل الله تعالى هذا التوجيه الإلهى ، يفيد أن المساجد لله وحده ، فلا يجوز أن يُعبد صنم أو وثن أو شخص مع الله عز وجل ، أى أخلصوا المساجد لتوحيد الله وعبادته عبادةً خالصة له ، ولا تدعوا معه أى أحد من المخلوقين .

وقال سعيد بن جبير : نزلت فى أعضاء السجود ، أى هى لله فلا تسجدوا بها لغير الله .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «أُمرتُ أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة – وأشار بيده إلى أنفه – واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين»[١٢] . فلا يجوز السجود بها لغير الله .

وقيل : المعنى : أفردوا المساجد لذكر الله ، ولا تتخذوها هُزُوًا ومتجرًا ومجلسًا وطرقًا ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبًا .

وفى الحديث : «من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لا ردّها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لذلك»[١٣] .

وروى ابن عباس أن النبى ﷺ كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى وقال : وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا . «اللهم أنا عبدك وزائرك ، وعلى كلّ مزُور حقّ ، وأنت خير مزُور ، فأسألك برحمتك أن تفكّ رقبتى من النار» ، فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى وقال : «اللهم صُبّ على الخير صبًا ، ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدًا ، ولا تجعل معيشتى كدًّا ، واجعل لى فى الأرض جدًّا» . أى غنى .

١٩ – وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا .

وأنه لما قام رسول الله ﷺ يعبد ربه فى صلاة الفجر فى بطن نخلة ، ويؤم أصحابه خلفه فى نظام وعبادة ، ومتابعة فى الركوع والسجود ، تجمّع الجنّ وتراكموا متزاحمين ، متعجبين مما رأوه من عبادته ، ومما تلاه من القرآن العظيم .

واللبد : الشيء الذى تلبّد بعضه فوق بعض ، ولفظ : لِبَدًا . جمع لبدة ، وهى الجماعة المتزاحمة ، ومنه لبدة الأسد للشعر المتزاحم فى رقبته .

وقد وصف الله نبيه محمدًا ﷺ بأنه عبد الله ، تكريمًا وتشريفًا له ﷺ .

وقيل :

معنى الآية : لما قام عبد الله (محمد) ﷺ يدعو ربه ، ويعبده وحده ، مخالفًا المشركين فى عبادتهم ، كاد المشركون يزدحمون عليه ، متراكمين ، لا ليسمعوا ويطيعوا ، وإنما ليجدوا ثغرة أو وسيلة ينفذون منها ، لتنفير الناس من القرآن الكريم .

والرأى الأول أرجح ، لأن الآثار قد وردت ، فى أن الجن قد التفوا حول النبى ﷺ ، حين سمعوه يقرأ القرآن ، وهو الموافق للآية الأولى من سورة الجنّ .

قال الزبير بن العوام : هم الجنّ ، حين استمعوا القرآن من النبى ﷺ ، كادوا يركب بعضهم بعضًا ، ازدحامًا عليه .

٢٠ - قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا .

قل يا محمد لأهل مكة ، وللإنس والجن وسائر من تدعوهم للإسلام : إن دعوتى خالصة مجردة لعبادة الله وحده ، ولا أعبد مع الله صنمًا ولا وثنًا .

سبب النزول :

قال كفار قريش للرسول ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن نجيرك ؛ فنزلت الآية تأمر الرسول ﷺ أن يخبرهم بأنه يعبد ربّه وحده لا شريك له ، ولا يشرك بعبادته أحدًا ، وأنه لا مجير له من عذاب الله ، ولن يجد ملجأ أو ملتحدًا يحميه من عذاب الله إن أراده به .

٢١ - قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا .

إنَّه التَّجرُّد الكامل ، وبيان وظيفته ﷺ ، وهى الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة ، أمَّا الهداية أو الغِواية ، فذلك بيد الله وحده ، الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وييسر الهداية للمتقين ، ويسلب الهدى عن الضالين .

وفى الحديث الشريف : «أفلا نتكل يا رسول الله» ؟

أى : أفلا نعتمد على أنّ كلّ إنسان قد حُدد مصيره إلى الجنة أو إلى النار ؟

فقال ﷺ : «لا ، اعملوا فكلٌّ ميسر لما خُلق له ، إن الله عز وجل يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ .»[٦٤] (الليل : ٥ - ١٠) .

**قال ابن كثير :**

وقوله تعالى : قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا .

أى : إنما أنا عبد من عباد الله ، ليس لى من الأمر شىء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كلّه إلى الله عز وجلّ . ا هـ .

٢٢ ، ٢٣ - قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا .

قل يا محمد : إننى رسول الله ، أبلغ رسالته ، ولا أتأخَّر عما أمرنى به ربى ، ولا يملك أحد أن يجيرنى من عذاب الله ، ولا تملكون أنتم ذلك ، بل ولا تملك الدُّنيا كلها أن تحمينى من عذاب الله إن أرادنى بسوء ،

فلا رادّ لما يريده ، ولن أجد من دون الله ملجأ أو مهربا أو ملتحدا أركن إليه ، فما من قضاء الله مهرب ، وليس من أمر الله مفرّ .

وفى هذا المعنى يقول الله عز وجل : وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ . (الرعد : ١١)

إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ...

إن المخلص والنجاة لى من عذاب الله لا يكمن إلا فى أن أبلّغ رسالة ربى إليكم ، فليس علىَّ إلا البلاغ ، وأنا لا أملك هدايتكم ، فالله وحده هو الذى يملك ذلك ، فأنا متجرد لتبليغ الرسالة ، ولا يحمينى من عذاب الله إلا تبليغ ما أُرسلت به إليكم ، وحمل الرسالة والقرآن إلى مسامعكم .

كما قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ... (المائدة : ٦٧) .

قال ابن كثير : أى لا يجيرنى منه ويخلّصُنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب الله علىَّ أداءها .

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا .

أى : أنا أبلغكم رسالة الله ودعوته إلى التوحيد ، والإيمان بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً ، ومن يعص الله ورسوله فجزاؤه نار جهنم خالدين فيها ، أى ماكثين فيها أبدا على الدوام ، ولا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، فقد كانوا عازمين على الشرك بالله أبدًا مدّة حياتهم ، فعاقبهم الله بالخلود فى النار أبدًا مدّة آخرتهم .

وقوله : أَبَدًا . دليل على أن العصيان هنا هو الشرك ، وإنما جمع خَـٰلِدِينَ . حملا على معنى مَنْ . لأن لفظها مفرد ومعناها جمع .

٢٤ – حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا .

حتى إذا رأى المشركون المعاندون ما يوعدون من الهزيمة فى بدر ، أو عذاب جهنم يوم القيامة ، فسيعلمون من هو الضعيف المخذول ، المهزوم أمام خصمه ، هم أم المؤمنون فى الدنيا ، ومن هو الضعيف المهزوم أمام الآخر ، هم أم الله عز وجل وملائكته وجنده يوم القيامة ، وقد نُصر المؤمنون يوم بدر وهُزم المشركون ، وفى القيامة سيدخل المؤمنون الجنة ، ويدخل الكافرون النار .

قال صاحب الظلال :

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون - إما فى الدنيا وإما فى الآخرة - مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا . وأىّ الفريقين هو الضعيف المخذول ، القليل الهزيل . ا هـ .

★ ★ ★

## ختام سورة الجن

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

### المفردات :

**أمدا :** زمانًا بعيدًا أو قريبًا .

**الغيب :** ما خفى واستتر .

**ارتضى :** اختار واصطفى .

**رصدا :** حفظة .

**أحاط بما لديهم :** علمه علمًا تامًّا .

**وأحصى كل شىء عددا :** ضبط كل شىء معدودًا محصورًا .

### تمهيد :

أمر سبحانه وتعالى رسوله أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدرى أقريب وقتها أم بعيد ، وأنه لا يعلم شيئًا من الغيب إلا إذا أعلمه الله به ، وهو سبحانه يعلم أن الرّسل قد أبلغوا رسالات ربّهم ، ويعلم الأشياء إجمالاً وتفصيلاً ، وكان الكفار يتساءلون : متى يكون هذا اليوم الذى توعدنا به ؟ فأنزل الله هذه الآيات .

**التفسير :**

**٢٥ – قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا .**

كان النبى ﷺ كلما خوَّف المشركين أهوال الساعة ، وأهوال الحساب والجزاء ، وأهوال يوم القيامة ، قال المشركون : متى يكون هذا اليوم الذى تُخوِّفنا به ؟ سؤال استبعاد وتشكك ، فأنزل الله ردًّا عليهم أن القيامة ستقوم قطعًا ، ولا علم لى كرسول مبلِّغ عن الله بوقتها ، هل قريب أم بعيد ، فذلك لا يعلمه إلا اللَّه .

قال تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا . (النازعات : ٤٢ – ٤٥) .

وفى الصحيح أن النبى ﷺ سُئل عن الساعة فقال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأنبئك عن أشراطها (علاماتها) : أن تلد الأمة ربَّتها ، وأن يتطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان ، وأن يصبح الحفاةُ العالة سادة الأمم»[٦٥] .

والمعنى :

من علامات الساعة كثرة العقوق حتى أن الابن يستخدم أمّه كخادمة ، والبدو الرُّحل يتطاولون فى بناء العمارات العالية ، ويوسَّد الحكم إلى الحفاة الحثالة ، أو أن من لا أصل له ولا تاريخ يزيّنه يصبح سيد الموقف .

ونادى أعرابى على النبى ﷺ بصوت جهورى ، فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : «ويحك إنها كائنة ، فما أعددت لها» ؟ قال : أمَا إنّى لم أعدّ لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنّى أحب الله ورسوله ، قال ﷺ : «فأنت مع من أحببت» ، قال أنس : فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث[٦٦] .

**٢٦ – عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا .**

الله تعالى وحده هو عالم الغيب ، فلا يطلع على هذا الغيب أحد سواه ، ومن هذا الغيب علم الساعة .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ويعْلَمُ ما فى ٱلْأَرْحام وما تدْرى نفْسٌ مّاذا تكْسِبُ غدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ . (لقمان : ٣٤) .

٢٧ – إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .

اختص الله وحده بعلم الغيب ، لكن من ارتضاه سبحانه واختاره لرسالته ، سواء أكان من الملائكة كجبريل ، أم من البشر كمحمد ﷺ ، فإنَّ الله تعالى يُعلمه بشيء من الغيب ، بالطريقة التى يختارها الله ، وفى الوقت الذى يشاؤه الله ، وعندما ينتقل الوحى أو الغيب إلى الرسول من الملائكة أو إلى الرسول من البشر فإن الله تعالى ييسر له حراسة مترصِّدة تحفظه من جميع الجهات ، ليظلَّ الوحى فى مكان أمين حتى يصل إلى البشر غير مختلط بمعرفة الشياطين له .

وعن **الضحاك** : ما بُعث نبى إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين ، الذين يتشبَّهون بصورة الملك ، فإذا جاء شيطان فى صورة الملك ، قالوا : هذا شيطان فاحذره ، وإن جاء الملك قالوا : هذا رسول ربك .

**والخلاصة** : إن الله تعالى يسخِّر حفظة من الملائكة ، يحفظون قواه الظاهرة والباطنة من الشياطين ، ويعصمونه من وساوسهم .

وفى الآيتين (٢٦ ، ٢٧) من سورة الجن دليل على أن الرسل – عليهم السلام – مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات .

قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : **وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ** ... (آل عمران : ٤٩) .

وفى قوله تعالى : **إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ...

إشارة إلى إبطال الكهانة والسحر والتنجيم ؛ لأن أصحابها أبعد شيء عن ارتضاء الله ، وأدخل ما يكون فى سخطه وغضبه .

وقد أفاد القرطبى فى تفسير الآيتين أن الغيب لله وحده لا يطَّلع عليه إلا من ارتضى من رسله ، وليس المنجم ومن ضاهاه ، ممن يضرب بالحصى ، وينظر فى الكتب ، ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول ، فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله ، مُفْترٍ عليه بحدْسه وتخمينه وكذبه ، وليت شعرى ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها ألف إنسان ، على اختلاف أحوالهم وطوالعهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ، فعمَّهم حكم الغرق فى ساعة واحدة ، فلا فائدة أبدًا فى عمل المواليد ، ولا دلالة على شقى ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم ، وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم .

قل للمنجم صَبْحَةَ الطوفان هل وُلِد الجميعُ بكوكبِ الغَرَقِ

«وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أراد لقاء الخوارج : أتلقاهم والقمر فى العقرب ؟ فقال رضى الله عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك فى آخر الشهر .

فانظر إلى هذه الكلمة التى أجاب بها ، وما فيها من المبالغة فى الرد على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم .

وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ، لا تسر فى هذه الساعة ، وسر فى ثلاث ساعات يمضين من النهار . فقال له على رضى الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضرٌّ شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت . فقال على رضى الله عنه : ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده – فى كلام طويل يحتج فيه بآيات من التنزيل – فمن صدَّقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ندًا أو ضدًا ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر ، وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان . ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهى وقعة النهروان الثابتة فى الصحيح لمسلم .

ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل : سار فى الساعة التى أمر بها المنجم . ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ، ثم قال : يا أيها الناس ، توكلوا على الله وثقوا به ، فإنه يكفى ممن سواه»[١٧].

٢٨ – لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا .

ليعلم الله سبحانه وتعالى علم مشاهدة وواقع ، كما علمه غيبًا وأزلاً فى علمه القديم ، أن الرّسل عليهم السلام قد أبلغوا رسالات ربهم كما طلب منهم ، وألزموا العباد الحجة بهذا البلاغ ، وقد أحاط سبحانه وتعالى بما عند الرُّسل من الملائكة ، وبما عند الرسل من البشر ، ظاهرًا وباطنًا من الأحكام والشرائع ، وبما يسره لهم من الحفظ وتأمين وصول الرسالات سالمة من كل تغيير أو تبديل ، وأحاط علمه سبحانه وتعالى بكل شىء فى الوجود ، فهو عالم علمًا كاملاً بكل شيء في الكون ، وذلك مثل القطر والمطر والرمال وورق الأشجار وماء البحار ، وبالأفراد والجماعات والأمم وسائر المخلوقات .

وأورد القرطبى عدة آراء فى تفسير هذه الآية ، من بينها ما يأتى :

لقد أخبر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بحفظ الوحى ، ليعلم أن الرُسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحقّ والصدق ، أو ليعلم أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالة ربه .

وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته ، كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ . (آل عمران : ١٤٢) .

أى : ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبًا .

وقال مجاهد : ليعلم من كذَّب الرُسل أن المرسلين قد بلَّغوا رسالات ربهم .

وقرأ الجماعة : ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ . بفتح الياء ، وتأويله ما ذكرناه ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب بضم الياء ، أى ليُعْلَم الناس أن الرسل قد أبلغوا[٦٨] .

★ ★ ★



# تفسير سورة المزمل

# أهـداف سـورة المـزمـل

(سورة المزمل مكية ، وآياتها ٢٠ آية ، نزلت بعد سورة القلم )

وهى سورة تحمل النداء الإلهى للنبى الكريم بقيام الليل ، وقد جعله الله فريضة فى حقه ، نافلةً فى حق أمته .

قال تعالى : وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء ٧٩) .

وفى كتب السنة ما يفيد أن هذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، فقد كان النبى ﷺ يعيش بين قومه فى الجاهلية ، ثم حبب الله إليه الخلوة ليتأمل فى ملكوت السماوات والأرض ، وليعده الله لتحمل أعباء الرسالة ، ثم فجأه الوحى وهو فى غار حراء ، حيث قال له جبريل : اقرأ ، قال النبى : «ما أنا بقارئ» ثلاث مرات ، فقال جبريل : ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . (العلق : ١ – ٥) .

وقد عاد النبى ﷺ إلى خديجة وأخبرها الخبر ، فقالت له : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

ثم فتر الوحى مدة عن النبى ﷺ إلى أن كان بالجبل مرة أخرى ، فنظر فإذا جبريل ، فأدركته منه رجفة ، حتى جثا وهوى إلى الأرض ، وانطلق إلى أهله يرجف يقول : «زملونى ، دثرونى» ، ففعلوا ، وظل يرتجف مما به من الروع ، وإذا جبريل يناديه : يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر .

وسورة المزمل تعرض صفحة من تاريخ الدعوة الإسلامية ، إنها تنادى النبى الكريم ، وتأمره بقيام الليل ، والصلاة وترتيل القرآن ، والذكر الخاشع المتبتل ، والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل للمكذبين ، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار .

وتنتهى السورة بلمسة الرفق والرحمة ، والتخفيف والتيسير ، والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلويح برحمة الله ومغفرته : إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ . (المزمل : ٢٠) .

والسورة تمثل صفحة من جهاد النبى الكريم ، وصحبه الأبرار فى سبيل الدعوة إلى الله ، وحشد جميع الطاقات من أجل هذه الدعوة ، فقد قام النبى ﷺ فى مكة والمدينة داعيا إلى الله ، صابرا محتسبا ، مهاجرا ومجاهدا ومربيا ، وناشرا لدعوة الله بكل ما يملك ، منذ قال له القرآن : قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . (المزمل : ٢) .

وكان قيام الليل هو الزاد الروحى ، والتعبئة الإلهية لهذا القلب الكريم ، حتى يصدع بالدعوة ، ويتحمل فى سبيلها كل بلاء ، وليصبر ويصابر ، وليحتسب كل جهد فى سبيل الله : وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً . (المزمل : ١٠) .

## مع آيات السورة

١ – ٤ – أمر الله رسوله أن يقوم من الليل ثلثه أو نصفه أو ثلثيه ، فهو مخير فى ذلك ، وأن يقرأ القرآن الكريم على مهل وتؤدة ، مع حضور القلب لتدبر معانيه وفهم مقاصده .

٥ – والقرآن يسره الله للقراءة ، ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلوب ، ثقيل فى قيمته الراجحة ، ومعانيه الراقية ، وما فيه من تكاليف وأعباء .

٦ – إن قيام الليل هو أكبر موافقة بين القلب واللسان ، وأعدل قولا .

٧ – وفى النهار متسع لشئون المعاش ، ولك فيه تصرف فى مهام أمورك ، واشتغال بمشاغلك .

٨ ، ٩ – واتجه إلى الله بالعبادة وحضور القلب ، واذكره وتضرع إليه ، فى إنابة وطاعة وإخلاص ، فهو رب الكون كله ، والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة فى هذا الوجود .

١٠ – واصبر على ما يقولون فى حقك وحق ربك ، واهجرهم هجرا جميلا ، بأن تجانبهم وتغضى عن زلاتهم ولا تعاتبهم .

١١ – ثم توعد المشركين وتهددهم ، وقال لنبيه ﷺ : اترك عقابهم لى وحدى ، فأنا كفيل بهم ، هؤلاء الذين تنعموا فى نعمائى ، أمهلهم وقتا قليلا من الزمن ، وسترى ما يحل بهم .

١٢ ، ١٣ – إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً . أى : قيودا ثقيلة توضع فى أرجلهم ، كلما أرادوا أن يرتفعوا جذبتهم إلى أسفل ، ثم هناك الجحيم ، والطعام ذو الغصة ، الذى يمزق الحلوق ، والعذاب الأليم ، وكلها جزاء مناسب لمن كفر بنعمة الله .

١٤ – ويمتد الهول فى يوم القيامة إلى الأرض فتضطرب وتهتز ، وإلى الجبال فتتمزق أجزاؤها ، وتصير كالصوف المنفوش أو كومة الرمل المهيلة ، بعد أن كانت حجارة صماء متماسكة .

١٥ ، ١٦ – ويلتفت القرآن إلى أهل مكة فيخاطبهم ، ويهزّ قلوبهم هزًّا ، ويخلعها خلعا ، بعد مشهد الأرض والجبال وهى ترتجف وتنهار ، فيحذرهم مما أصاب فرعون الجبار ، وقد أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، ومضمون القول : لقد أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه : فأخذناه أخذا وبيلا ، وأرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم ، فاحذروا أن تعصوه فيصيبكم مثل ما أصابه .

١٧، ١٨ – وهبوا أنكم لا تؤخذون فى الدنيا كما أخذ فرعون ، فكيف تتقون عذاب يوم القيامة ، وهو هول يُشيب الولدان ، وتنشق السماء من شدته ، وكان وعد الله ثابتًا مؤكدًا لا خلف فيه ، وهو سبحانه فعال لما يريد .

١٩ – وأمام هول الآخرة يقول لهم : إن هذه الآيات تذكرة وعبرة ، فمن شاء اعتبر بها ، واتخذ طريقا إلى الله وهو آمن سالم ، قبل مجىء هذا الهول العصيب .

٢٠ – وفى الآية الأخيرة من السورة نجد لمسة التخفيف الندية ، ودعوة التيسير الإلهى ، فقد لبى النبى ﷺ الدعوة إلى قيام الليل ، ولبى المسلمون الدعوة ، وتجافت جنوبهم عن المضاجع ، وقاموا الليل حتى تورمت أقدامهم من طول القيام ، فقال القرآن : إن ربك يعلم أنك تقوم الليل ، ويرى تقلبك فى الساجدين ، والله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تاما ، فإذا زدتم على المفروض ثقل ذلك عليكم وكلفتم ما ليس بفرض ، وإن نقصتم شق هذا عليكم ، فتاب عليكم ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر ، وطلب إليكم أن تصلّوا ما تيسر من الليل على قدر طاقتكم .

وإن لهذا التخفيف حكمة أخرى ، وهى أنه علم أن سيكون منكم مرضى، وآخرون يسيحون فى الأرض يطلبون من فضل الله بالتجارة أو العلم ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فقد علم الله أن سيأذن لكم فى الانتصار ممن ظلمكم بالقتال ، فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل بدون تقيد بقدر محدد ، وأقيموا الصلاة المفروضة ، وآتوا الزكاة الواجبة ، وتصدقوا بعد ذلك قرضا لله ، يبْق لكم خيره ، ويرده الله إليكم أضعافا مضاعفة ، وما تقدموا لأنفسكم من صدقة أو عمل صالح فى الدنيا ، تجدوا ثوابه عند الله يوم القيامة ، خيرا مما أوتيتم فى دار الدنيا ، وأعظم منه أجرا ، واتجهوا إلى الله مستغفرين ، إن الله غفور رحيم .

إنها لمسة الرحمة والتخفيف بعد عام من الدعوة إلى القيام ، وقد خفف الله عن المسلمين فجعل قيام الليل لهم تطوعا لا فريضة .

أما رسول الله ﷺ فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجى ربه ويستمد منه العون والتوفيق فى أداء رسالته . وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود : ٨٨).

## خلاصة أحكام السورة

**أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بما يأتى :**

١ – قيام ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه .

٢ – قراءة القرآن بتؤدة وتمهل .

٣ – ذكر ربه ليلا ونهارا بالتحميد والتسبيح والصلاة .

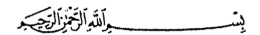
٤ – التوكل على الله والاعتماد عليه .

٥ – الصبر على ما يقول الكفار عنه من أنه ساحر أو شاعر ، وأن يهجرهم هجرا جميلا بمجانبتهم ومداراتهم ، وأن يكل أمرهم إلى ربهم فهو الذى يجازيهم ، وسيرى عاقبة أمرهم .

٦ – التخفيف من صلاة الليل ، بعد أن شق ذلك عليهم لأعذار كثيرة ، والاكتفاء بما تيسر من صلاة الليل ، ففى الصلاة المفروضة غنية للأمة ، مع إيتاء الزكاة ودوام الاستغفار .

★ ★ ★

## نداء إلهى



﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

**المفردات :**

**المزمل :** المتلفف بثيابه (النبى ﷺ) .

**الليل :** من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

**نصفه أو انقص منه قليلا :** انقص من النصف قليلا إلى الثلث .

**أو زد عليه :** إلى الثلثين ، والمراد به التخيير بين قيام النصف ، والناقص منه ، والزائد عليه ، فهو ﷺ مخيّر بين قيام ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه .

**رتل القرآن :** اقرأه بتمهّل وتبيين حروف .

**قولا ثقيلا :** شاقا على المكلّفين ، أو له وزن واعتبار حيث يكون سببا فى هداية أمّة .

**ناشئة الليل :** العبادة التى تنشأ به وتُحدث ، أو إحياء ما بين المغرب والعشاء ، أو إحياء الساعات التالية لصلاة العشاء .

**أشدُّ وطئا :** ثباتا للقدم ، ورسوخًا فى العبادة ، وقيل : أكثر مواطأة وتوافقا بين القلب واللسان .

**أقوم قيلا :** أثبت قراءة لحضور القلب فيها .

**سبحا :** تصرفا وتقلبا فى شواغلك .

تبتل إليه تبتيلا : انقطع إلى عبادته تعالى ، واستغرق فى مراقبته .

**التفسير :**

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ – يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً .

أول ما بُدئ به ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو فى غار حراء ، يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يعود إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الوحى وهو فى غار حراء ، حيث ضمّه الملك ضمًّا شديدا حتى بلغ منه ﷺ الجهد ، وأرسله فقال : ٱقْرَأْ . قال ﷺ : ما أنا بقارئ ، أى لا يعرف القراءة ، وتكرر ذلك ثلاث مرات .

ثم قال له : ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . (العلق : ١) .

وعاد ﷺ إلى مكة فدخل على خديجة ، وأخبرها الخبر ، ثم قال : «زملونى ، دثرونى» . أى : غطونى ولفّونى فى ثياب ، ليهدأ روعه ﷺ [٦٩] .

وسورة المزمّل هى السورة الرابعة فى النزول ، سبقتها سورة العلق ، ثم نٓ ، ثم المدّثر ، ثم نزلت المزمّل .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ .

يا أيها المتلفف بثيابه .

وقيل : كان ذلك تذكيرا له باللحظة التى كان فيها بعد نزول الوحى أوّل مرة ، وناداه الله بذلك تأنيسًا لقلبه ، وملاطفة له .

وقيل : يا أيها المزمّل بالنبوة ، والملتزم بالرسالة .

قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً .

شمّر عن ساعد الجدّ ، واهجر المنام ، واستعدّ للقيام بين يدى الملك العلام ، إنها فترة الإعداد لتلقى الوحى ، والجهاد فى سبيل تبليغ الرسالة ، وهذه المهمة تحتاج إلى تعبئة روحية ، وشدة اتصال بين المخلوق والخالق ، أى : استعدّ لقيام الليل ، إلا القليل منه تقضيه فى النوم والراحة ، للاستعانة بذلك على تبليغ الرسالة .

نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا

أى : قُم نصف الليل ، أو أقل من النصف قليلا ، وهو الثلث .

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا .

أو زد على النصف إلى الثلثين ، فخُيِّر رسول الله ﷺ بين قيام نصف الليل ، أو أقل منه قليلا وهو الثلث، أو أزيد من النصف وهو الثلثان .

وقيل : خُيِّر بين قيام نصف الليل ، أو ربعه ، أو ثلاثة أرباعه ، والرأى الأوّل أولى .

وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا .

اقرأ القرآن فى عناية وترتيل وتبيين ، وتجميل للصوت ، وأداء حسن ، فإن ذلك أعون على تبيُّن المعانى ، وانشغال القلب مع اللسان .

روى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال : «زينوا القرآن بأصواتكم» .

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» [٧٠] .

أى : يُحسِّن صوته ويجمّله ، ويهذّبه ويجوّده ، ليُعظّم تأثير القرآن فى قلوب سامعيه .

وروى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال لأبى موسى الأشعرى: «لقد أُعطيت مزمارًا من مزامير آل داود» .[٧١] فقال أبو موسى الأشعرى : يا رسول الله ، لو كنت أعلم أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرًا .

٥ - إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا .

أى : تهيأ روحيا بقيام الليل ، واستعد للمناجاة والصلاة والتهجد ، وشفافية الروح والعبادة والمناداة ، لأن وحيا ثقيلا من عالم الغيب ، سيصل إليك مع جبريل الروح الأمين .

أو لأن هذا القرآن كلام الله ، مشتمل على الأمر والنهى والحلال والحرام ، والتشريع والقصص ، وهو كلام له وزن وقيمة وثقل ، وليس كلامًا سفسافا لا ثقل له .

أو هو ثقيل فى ميزان العبد يوم القيامة .

أو هو يحرِّك القلب والنفس والفؤاد إلى معرفة الخالق ، والتجاوب مع هذا الكون الخاضع لأمر الله تعالى .

قال تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الحشر : ٢١) .

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : ولقد رأيت النبى ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقا . [٧٢] .

**وقال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :**

والمراد من كونه ثقيلاً هو عِظَمُ قدره وجلالة خطره ، وكل شئ عَظُمَ خطره فهو ثقيل ، وهذا معنى قول ابن عباس : قَوْلاً ثَقِيلًا . يعنى كلامًا عظيما .

**٦ – إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا .**

نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ . ساعات الليل ، وقيل : الصلاة بين المغرب والعشاء ، وقيل : ناشئة الليل هى الساعات التى تلى صلاة العشاء ، وقيل : هى الثلث الأخير من الليل .

وفى الصحيح : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : يا عبادى ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من طالب حاجة فأقضيها له ، حتى يطلع الفجر» . [٧٣] .

وقيل : ناشئة الليل هى جميع ساعات الليل وأوقاته ، حيث جعل الله ليلاً سُباتا ، ونومًا وراحة ، فقيام المؤمن يصلّى فى ظلام الليل ، وقد غارت النجوم ، ونامت العيون ، ويبقى الله الحى القيوم ، يجعل لهذه الصلاة مذاقًا خاصًا ، حيث يترك المؤمن فراشه ويتجافى عنه ، ويدعو ربّه .

كما قال تعالى : تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٦، ١٧) .

وقال تعالى : كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الذاريات : ١٧ ، ١٨) .

وفى الحديث الشريف : «عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومطردة للدّاء عن الجسد» . [٧٤] .

وقيام الليل يكون سببا فى نور القبور على أصحابها ، وفى قيام الليل صفاء وهدوء وراحة وسعادة، وموافقة القلب للسان ، وتغلب على الخلود إلى النوم .

ومعنى الآية :

إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ . ما ينشأ فى ساعات الليل بعد العشاء .

هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا . أجهد للبدن ، أو أشد مواطأةً وموافقةً بين القلب واللسان .

وَأَقْوَمُ قِيلًا . أثبت وأبين قولا لهدوء الأصوات ، وانقطاع الحركات ، وذلك أعون للنفس على التدبّر والتأمل فى أسرار القرآن ومقاصده .

٧ - إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا .

السّبح هنا هو التصرف فى الأعمال والأشغال .

لقد جعل الله النهار معاشا ، وفيه تصرف وتقلّب واشتغال طويل بشئون الإنسان ، فليكن الليل وهدوءه مبعث العبادة والمناجاة وذكر الله ، أى : يكفيك النهار للتصرف فى أشغالك ، وتفرغ بالليل لعبادة ربّك .

٨ - وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

اذكر ربك بالتسبيح والتهليل ، والتحميد والاستغفار ، وتلاوة القران والتهجّد .

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً .

انقطع إليه انقطاعا ، أى : حين تذكر الله اجمع مع ذكر اللسان موافقة القلب ، والتفرغ لعبادته ومناجاته ، والصفاء والنقاء فى ذكره .

والتبتل . هو الاشتغال الدائم بعبادته ، والانقطاع لطاعة الله تعالى .

ومنه قولهم : امرأة بتول ، أى : منقطعة عن الزواج ، ومتفرغة لعبادة الله .

وهذا الانقطاع والتفرّغ مقصودٌ به : انشغال الجوارح والذهن والفكر فى وقت الذكر بالله .

وفى الحديث الشريف : «أوصانى ربى بتسع : الإخلاص لله فى السر والعلن ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا» .

وقد أمرنا الله تعالى بذكره وشكره وحسن عبادته ، ومن الدُّعاء : «اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .

وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . (الأحزاب : ٤١ – ٤٣) .

ولعلّ ذلك أعون على تلقى الوحى والنهوض بشئون الرسالة .

٩ – رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً .

هو سبحانه وتعالى رب المشرق الذى تشرق منه الشمس ، والمغرب الذى تغرب منه الشمس ، والمراد أنّ الجهات كلها لله وتحت تصرفه .

لذلك ورد فى القرآن الكريم :

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ . (الرحمن : ١٧) .

أى : مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما ، أو مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما .

وورد فى القرآن الكريم أيضا قوله تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ . (المعارج : ٤٠).

أى : مشارق الشمس التى هى ٣٦٠ مشرقا ، بعدد أيام السنة ، ومغاربها التى هى ٣٦٠ مغربا ، بعدد أيام السنة . وكذلك مشارق القمر والكواكب ومغاربها .

لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ... لا إله غيره ، ولا ربّ سواه .

فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً . فاعتمد عليه ، وفوّض أمرك إليه ، وتوكّل عليه حق التوكل .

قال تعالى : وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٣) .

ونحو الآية قوله تعالى : فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا . (مريم : ٦٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . (الفاتحة : ٥) .

★ ★ ★

## تهديد الكفار وتوعدهم

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

**المفردات :**

**هجرا جميلا :** اعتزالا حسنا لا جزع فيه .

**ذرني والمكذبين :** دعني وإياهم فسأكفيكهم .

**أولي النعمة :** أصحاب التنعم والترفه ، وبكسر النون الإنعام .

**مهلهم قليلا :** أمهلهم زمانا قليلا ، بعده النكال .

**أنكالا :** جمع نكل ، وهو القيد الثقيل أو الشديد .

**ذا غصة :** يغصّ به فلا يستساغ في الحلق ، كالضريع والزقّوم ، والغسلين والشوك من نار ، فلا يخرج ولا ينزل .

**يوم ترجف الأرض :** تضطرب وَتتَزَلْزَلُ (يوم القيامة) .

**كثيبا مهيلا :** رملا مجتمعا ، سائلا مُنْهالاً .

**أخذا وبيلا :** شديدًا ثقيلاً ، وخيمَ العُقبى .

**السماء منفطر به :** شيء مُنشق في ذلك اليوم لِهَوْلِه .

**كان وعده مفعولا :** إن وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم كائن لا محالة .

**تمهيد :**

ذكر الله تعالى إرشاداته لنبيه ﷺ بالصبر والهجر الجميل ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أهوال يوم القيامة وشدائده التي يشيب الولدان من هولها ، وتتشقّق السماء منها .

**التفسير :**

١٠ - وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً .

اصبر يا محمد على ما يقولون في حقك وحق ربك ، فقد قالوا : شاعر وكاهن ومجنون ، ويختلق أساطير الأولين ، كما قالوا عن الله : إن له صاحبة ، وإن له ولدا . أي تذرع بالصبر ، فالداعية محتاج إليه ليبلّغ دعوته ، ومحتاج إلى الصبر في تحمّل الأذى .

قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً .

أي : بلّغ دعوتك إليهم ، وليس عليك هداهم ، إن عليك إلا البلاغ ، ثم تنحَّ عنهم، ولا ترد على أذاهم ، ولا تقابل الإساءة بمثلها ، والهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه .

**قال الإمام الرازي :**

والمعنى : إنك لمّا اتخذتني وكيلا ، فاصبر على ما يقولون ، وفوّض أمرهم إليّ ، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين : في كيفية معاملتهم مع اللّه ، وقد ذكر سبحانه ذلك في الآيات السابقة ، وفي كيفية معاملتهم مع الخلق ، وقد جمع سبحانه وتعالى كلّ ما يُحْتَاج إليه في هذا الباب في هاتين الكلمتين .

وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للنّاس ، أو مجانبا لهم ، فإن كان مخالطا لهم فعليه أن يصبر على إيذائهم ... وإن كان مجانبا لهم فعليه أن يهجرهم هجرًا جميلا ... بأن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم في أفعالهم ، مع المداراة والإغضاء . اهـ .

وقال أبو الدرداء : إنا لنبشّ في وجوه أقوام ونضحك إليهم ، وإن قلوبنا لتبغضهم أو لتلعنهم .

والمؤمن محتاج إلى الحكمة وإلى حسن التصرُّف ، وفعل الأمر المناسب في الوقت المناسب .

قال تعالى : يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ . (البقرة : ٢٦٩)

١١ - وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا .

رُوى أن هذه الآية نزلت فى صناديد قريش ، ورؤساء مكة من المستهزئين .

والمعنى :

استرح أنت يا محمد ، واترك هؤلاء المكذبين المترفين بالنعمة ، المُغرمين باللذائذ والشهوات ، وأمهلهم بعض الوقت ، فإنه يوشك أن ينزل بهم عذابى وانتقامى ، والآية واردة مورد الوعيد والتهديد ، فقد كانوا على جانب من الغنى والجاه والنَّعمة ، لكنهم لم يشكروا الله على نعمته ، ولم يُصدِّقوا رسوله ، فاستحقّوا العقاب والهزيمة يوم بدر ، ولهم عقاب آخر فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

قالت عائشة رضى الله عنها : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرا حتى وقعت وقعة بدر .

١٢ ، ١٣ - إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا .

إن عندنا لهؤلاء الكفّار المكذبين بهدى السماء ، قيودًا وأغلالاً ، ونارًا متقدة مؤججة مضطربة . جَحِيمًا . وطعاما ذا شوك يأخذ بالحلق ، فلا يدخل ولا يخرج ، كالضريع والزقوم والغسلين . وألوانا أخرى من العذاب المؤلم ، من بينها الهوان والمذلّة والقتام ، وتوقّع ألوان العذاب .

قال تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ . (القيامة : ٢٤ ، ٢٥) .

١٤ - يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا .

إن ألوان العذاب والجحيم ، وأهوال القيامة وآلامها التى تحيق بالكافرين تكون يوم يمتد الهول إلى الكون كلّه ، فترتجف الأرض وتهتز ، وتميد بأهلها ، وتتزلزل زلزالاً شديدا .

ويحدث مثل ذلك للجبال ، فتتحول إلى رمال مجتمعة ، رخوة لينة متحركة ، لا تثبت عليها الأقدام .

قال تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . (الزلزلة : ١ ، ٢) .

وقال سبحانه : وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبأ : ٢٠) .

وقال تعالى : وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ . (المرسلات : ١٠) .

والمراد : ما أعظم هول هذا اليوم ، وما أشد زلازله .

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

(إبراهيم : ٤٨ – ٥١)

١٥ ، ١٦ – إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا .

من شأن القرآن أن يُلوّن القول ويصرِّفه ، وقد كانت آيات سابقة تتحدث عن ألوان العذاب فى الآخرة ، وعن أهوال القيامة ، وهنا جابه القرآن أهل مكة وكل من كذّب الرُّسل .

والمعنى : لقد أرسلنا إليكم رسولا كريما ، هو خاتم المرسلين ، وإمام المتقين ، وصاحب الخلق العظيم ، وسيشهد عليكم يوم القيامة بأنه بلغكم الرسالة ، وأدى الأمانة ، وقدَّم النصيحة ، وقد قابلتموه بالتكذيب والإيذاء ، مع أنه ولد بينكم ، وعرفتم صدقه وأمانته ، ثم اسكثرتُم عليه الرسالة والنبوة ، لأنه يتيم فقير .

وقد أرسلنا رسولاً سابقا إلى فرعون ملك مصر ، فعصى فرعون الرَّسول ، وكذَّب موسى واستكبر ، فأغرقه الله فى الماء ، وانتقم منه انتقاما مريعا ، وعذبه عذابا ثقيلا غليظًا وَبِيلاً .

وستكون عاقبتكم أشد وأنكى من فرعون . ورسولكم سيشهد عليكم بأفعالكم ، ولو آمنتم لشهد لكم بهذا الإيمان .

١٧ – فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا .

لقد حذرهم القرآن وأنذرهم ، ووضع أمام أبصارهم مشاهد القيامة التى يشيب منها الوليد ، من طول ذلك اليوم وشدة هوله ، فالآلام والأحزان تشيّب الإنسان قبل أوان شيبه .

قال أبو الطيب المتنبي :

والهمّ يخترم الجسيم نحافةً ويشيب ناصية الصبى ويهرم

وفي وصايا قدماء المصريين ، يقول أب لابنه : (يا بنى ، تخيّر امرأة بسيطة ، صغيرة فى آمالها وتطلعاتها ، فالمرأة التى لا تقنع تشيّبك قبل المشيب) .

١٨ - ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً .

إن أهوال ذلك اليوم تصيب البشر ، فيشيب الصبى من هول هذا اليوم ، فكيف بالكافر الفاجر ؟

والسماء القوية المتماسكة تنشقّ على غلظها ، وتنفطر وتتشقق بسبب القيامة .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ۝ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً .

كان وعد الله واقعا لا خلف فيه ، فما شاء الله فعل ، وما أراده كان مفعولا وواقعا لا محالة .

قال المفسرون : أى كان وعد ربك نافذًا ومفعولاً ، لأنه سبحانه لا يخلف موعوده .

«وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول ﷺ والقلة المؤمنة المستضعفة بردًا وسلامًا . إذ يحسّون أن ربهم معهم ، وأن الله لا يدع أولياءه لأعدائه ، ولو أمهل أعداءه إلى حين»[٧٥] .

١٩ - إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً .

إن هذه الآيات التى سبقت ، والمواعظ التى اشتملت عليها ، ومشاهد القيامة فيها تذكرة للناس ، وتنبيه للأفئدة ، وإيقاظ للضمائر ، وتوجيه للقلوب حتى تتجه إلى ربها ، وتتذكر آخرتها ، وتفيق من غفلتها ، فمن شاء الهداية فباب الله مفتوح ، والطريق إليه واسع ، فمن تحرك فى قلبه الإيمان فليطرق باب الله تعالى .

قال تعالى : وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا . (النساء : ١١٠) .

★ ★ ★

## ختام سورة المزمّل

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**أدنى :** أقل .

**والله يقدر الليل والنهار :** يعلم مقادير ساعاتهما .

**أن لن تحصوه :** لا يمكنكم الإحصاء ، وضبط الساعات .

**فتاب عليكم :** بالترخيص فى ترك القيام المقدَّر ، ورفع التبعة عنكم .

**فاقرأوا ما تيسر من القرآن :** فصلُّوا ما تيسر لكم من صلاة الليل .

**يضربون فى الأرض :** يسافرون فيها للتجارة ونحوها .

**وأقرضوا الله :** أنفقوا فى سبيل الخير عن طيب نفس .

**تمهيد:**

بدأت السورة بالأمر بقيام اللّيل ، واستمر هذا الأمر مدة سَنَة ، يقوم فيها النبى ﷺ وأصحابه ، وبعد مرور سنة نزلت الآية الأخيرة من سورة المزمّل ، ترخَّص لهم فى ترك القيام لمدة واجبة كالثلث أو النصف أو ثلثى الليل ، وتترك لهم قيام الليل ندبًا واستحسانا ، أو تلاوة شيء من القرآن ليلا بدل صلاة الليل ، وظلت صلاة الليل فريضة على النبى ﷺ ، فى أرجح الأقوال ، ونُسخت فرضية قيام جزء من الليل على أصحابه ، وأُمرُوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقة .

**التفسير :**

٢٠ - إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ .

تمثّل هذه الآية الحنان واللُّطف والفضل الإلهى ، والرحمة والتربية المثلى ، فقد شاء الله أن يأمر الأمّة بقيام اللّيل فى أول الإسلام ، ليغرس فى قلوبها الإيمان والصفاء والمناجاة والجهاد ، والاستعداد لتحمل تبعات الدعوة .

وبعد عام من قيام ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه ، نسخ اللّه ذلك عنهم والتمس لهم العذر ، لأنهم لا يسهل عليهم إحصاء الثلث أو النصف أو الثلثين ، فربما زادوا وأقاموا الليل كله أو جلّه ، كنوع من الاحتياط ، والله تعالى هو الذى يحصى ساعات الليل والنهار .

وقد علم الله وشاهد ورأى النبى ﷺ وطائفة من أصحابه يقومون جانبا من الليل ، لا يقل عن الثلث وربما زاد إلى النصف ، أو قريبا من الثلثين ، وسجّل الله لهم هذه العبادة ، والامتثال لأمر الله العلى الكريم كما سجل لهم صعوبة إحصاء ساعات الليل ، فقبل عملهم وتاب عليهم ، وأسقط عنهم وجوب قيام جزء من الليل ، وندب لهم قراءة ما تيسر من القرآن ، أو صلاة ما تيسر من الصلاة ، أيا كانت الصلاة ، فيمكن أن تكون صلاتى المغرب والعشاء ، أو صلاة ناشئة الليل بعد صلاة المغرب ، أو صلاة ركعتين فقط ، أى افعلوا أى عبادة متيسرة من الصلاة .

وبيّن حيثيات الحكم فيما يأتى :

(أ) وجود بعض المرضى الذين يشق عليهم قيام الليل .

(ب) وجود بعض التجار الذين يشغلون نهارهم بالبيع والشراء والسفر ، وتحضير ما يلزم للتجارة وشئونها .

(جـ) وجود بعض المجاهدين الذين يقاتلون أعداء الإسلام ، رغبة فى ثواب الله ، ولإزاحة طواغيت الكفر من وجه الإسلام .

من أجل هؤلاء ، الذين يشقّ عليهم قيام الليل ، مع وجود المَرَض أو التجارة أو الجهاد ، يسر الله عليهم بقراءة ما تيسر من القرآن ، وإقام الصلاة المكتوبة فى أوقاتها ، بشروطها وخشوعها ونوافلها ، وأداء الزكاة المفروضة ، وإخراج الصدقة والتطوع بمساعدة الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات ، وكل ما يفعله الإنسان من خير أو معروف ، أو عبادة أو صلح بين اثنين ، أو صلة رحم ، أو أىّ عمل يؤدّى إلى رفع شأن الإسلام ، أو نفع المسلمين ، يلقى ثواب هذا الخير عند الله يوم القيامة ، أعظم أجرًا وأوفى ثوابا ، وعليكم أن تستغفروا الله وتتوبوا إليه ، لتكفير ذنوبكم ، ولرفع درجاتكم ، فإن الله غفور للمُستغفرين ، رحيم بالمؤمنين .

**قال القرطبى :**

غَفُورٌ . لما كان قبل التوبة رَّحِيمٌ . بكم بعدها .

وفى ختام السورة دعوة للمتعبِّدين والمنفقين ومقدمى الخير أن يستغفروا الله ، وأن يطلبوا منه الصفح والعفو ، إذ ربما كانوا لم يخلصُوا النيّة فى الإنفاق ، أو لم يحسنوا العمل فى الإقراض ، وربما تدخلت شهوة خفيّة من حبّ المحمدة ، أو التظاهر بالخير بين الناس ، فالاستغفار لمحو السيئات ولإخلاص النيّات ولذكر الله وتصحيح العبادات .

نسأل الله أن يرزقنا إصلاح النيّة ، وإخلاص العبادة ، وأن يغفر لنا ويرحمنا ، كما قال سبحانه وتعالى : وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَـٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ . (البقرة : ٢٨٦) .

وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم . آمين .

★ ★ ★

تم تفسير سورة (المزمل) بعد منتصف ليلة الجمعة ٥ من المحرم ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٣٠ من مارس ٢٠٠١، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★



# تفسير سورة المدثر

# أهداف سورة المدثر

(سورة المدثر مكية ، وآياتها ٥٦ آية ، نزلت بعد سورة المزمل)

وينطبق على سورة المدثر – من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها – ما ينطبق على سورة المزمل. فهناك روايات بأنها هى أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة ، وإيذاء المشركين للنبى ﷺ .

ويمكن التوفيق بين هذه الروايات ، بأن صدر سورة المدثر أول ما نزل من القرآن بعد سورة العلق ، وهو من أول السورة إلى قوله تعالى : وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ . (المدثر : ٧) .

وأن الآيات التالية قد نزلت بعد الجهر بالدعوة ، وربما كانت تعنى شخصًا معينا هو الوليد بن المغيرة[٧٦] .

وأيا ما كان السبب والمناسبة ، فقد تضمنت السورة فى مطلعها ذلك النداء العلوى ، بانتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل ، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة . (انظر الآيات من ١ – ٧) .

ثم تضمنت بعد هذا تهديدًا ووعيدًا للمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة المزمل سواء بسواء . (انظر الآيات من ٨ – ١٧) .

وتُعيِّن سورة المدثر أحد المكذبين بصفته ، وترسم مشهدًا من مشاهد كيده ، على نحو ما ورد فى سورة القلم ، وربما كان الشخص المعنى هنا وهناك واحدًا ، وقد قيل إنه الوليد بن المغيرة . (انظر الآيات من ١٨ – ٣٠) .

ثم تتحدث السورة عن عالم الغيب ، ووصف سقر ، والملائكة القائمين عليها ، وعددهم وامتحان الله لعباده بذلك العدد ، وذلك فى آية واحدة طويلة هى الآية (٣١) .

ثم تتحدث عن مشاهد الكون ، وأدلتها على وجود الله . (انظر الآيات من ٣٢ – ٣٧) .

كما تعرض مقام المجرمين ، ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافًا طويلاً ، بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد فى يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل فى أمرهم ، الذى لا تنفعهم فيه شفاعة شافع . (انظر الآيات من ٣٨ – ٤٨) .

وفى ظل هذا المشهد المخزى ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكرًا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهدًا ساخرًا يثير الضحك والزراية ، من نفارهم الحيوانى الشموس . (انظر الآيات من ٤٩ – ٥١) .

ويكشف السياق عن حقيقة الغرور الذى يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المُذَكِّر الناصح ، ويبين أنه الحسد للنبى ﷺ ، والرغبة فى أن يؤتى كل منهم الرسالة ، والسبب الآخر هو قلة التقوى . (انظر الآيتين ٥٢ ، ٥٣) .

وفى الختام يجىء التقرير الجازم الذى لا مجاملة فيه ، وردّ الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره . (انظر الآيات من ٥٤ – ٥٦) .

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسى ، الذى كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها فى قلوب قريش ، كما كافح العناد والكيد ، والإعراض الناشئ عن العمد والقصد بشتى الأساليب .. والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة ، واتجاهات سورة المزمل ، وسورة القلم ، مما يدل على أنها جميعًا نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة .

وسورة المدثر قصيرة الآيات ، سريعة الجريان ، منوعة الفواصل ، يتئد إيقاعها أحيانًا ، ويجرى لاهثًا أحيانًا ، وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب ، وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر .. وتصوير مشهد سقر لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر .

## مع آيات السورة

١ – ٧ – بدأت السورة بنداء النبى الكريم ﷺ ليقوم بأمر جليل هو إنذار البشرية ، وتخليصها من الشر فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة .

ثم يوجه الله رسوله ﷺ فى خاصة نفسه ، بأن يكبر ربه وحده ، فهو سبحانه الكبير المتعال ، وهو القوى المتين ، وهو على كل شىء قدير . ويوجهه إلى التطهر بأنواعه ، ويشمل طهارة الثوب ، وطهارة البدن ، وطهارة القلب ، ليكون أهلا للتلقى عن الملأ الأعلى ، ويوجهه إلى هجران الشرك ، وموجبات العذاب ، والتحرز والتطهر من مسّ هذا الدنس .

ويوجهه إلى إنكار ذاته ، وعدم المنّ بما يقدمه من الجهد أو استكثاره أو استعظامه ، فكل ما يقدمه الإنسان من خير هو بتوفيق الله وعونه ، وذلك يستحق الشكر لله لا المنّ والاستكثار .

ويوجهه أخيرًا إلى الصبر على الطاعة ، والصبر على الأذى والتكذيب ، وعدم الجزع من أذى المخالفين .

٨ – ٣٠ – حين ينفخ إسرافيل فى الصور ، يجد الكافرون أمامهم يومًا عسيرًا ، لا يسر فيه ولا هوادة ، بل يجدون الحساب السريع ، والجزاء العادل ، والعقاب الرادع .

وقد روى ابن جرير الطبرى أن الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة ، حين فكر فى تهمة يلصقها بالنبى ﷺ ، ثم ادعى أن النبى ساحر ، وقد كان الوليد يسمى الوحيد لأنه وحيد فى قومه ، فماله كثير ، فيه الزرع والضرع والتجارة ، وله عشرة أبناء يشهدون المحافل والمجامع ، أسلم منهم ثلاثة : خالد وهشام والوليد ، وقد بسط الله له الرزق ، وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة فى قومه ، وكان يسمى ريحانة قريش .

ويتجه السياق إلى تهديد هذا المشرك فيقول : خلّ بينى وبين هذا المشرك ، الذى أخرجته من بطن أمه وحيدًا ، لا مال له ولا ولد ، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض ، فكفر بأنعم الله عليه .

لقد أعطيته المال الكثير ، ورزقته بنين من حوله حاضرين شهودًا ، فهو منهم فى أنس وعزوة ، ومهدت له الحياة ، ويسرتها له تيسيرًا ، ثم هو يطمع فى مزيد من الثراء والجاه .. كلا ، لن نزيده من نعمنا ، بل سنُذهب عنه كل ما أنعمنا به عليه ، لأنه كان معاندًا ومعارضًا لآيات القرآن الكريم ، سأكلفه ما لا يطيق من كربة وضيق ، كأنما يصعد فى السماء ، أو يصعد الجبال الوعرة الشاقة .

إنه فكر وتروى ماذا يقول فى القرآن ، وبماذا يصفه حين سئل عن ذلك ، ثم لعن كيف قدر ، ثم نظر إلى قومه فى جد مصطنع ، وقطب وجهه عابسًا ، وقبض ملامح وجهه باسرًا ليستجمع فكره ، فقال : ما هذا القرآن إلا سحر ينقله محمد عن السحرة ، كمسيلمة وأهل بابل ، وليس هذا من كلام الله ، وإنما هو من كلام البشر .

سأدخله سقر ، وما أعلمك بشأنها ، إنها شىء أعظم وأهول من الإدراك ، فهى : لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . (المدثر : ٢٨). فهى تكنس كنسًا ، وتبلع بلعًا ، وتمحو محوًا ، فلا يقف لها شىء ، ولا يبقى وراءها شىء ، ولا يفضل منها شىء ، وهى : لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . (المدثر : ٢٩) . تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه .

وعلى النار تسعة عشر ، لا ندرى أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد ، أم صفوف ، أم أنواع من الملائكة وصنوف .

٣١ - ولم نجعل المدبرين لأمر النار إلا ملائكة ، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم ؟

وما جعلنا عددهم تسعة عشر إلا امتحانًا للذين كفروا ، وليستيقن الذين أوتوا الكتاب بصحة القرآن ، لأنهم يرون أن ما يجيء فيه موافق لما فى كتبهم ، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ، وذلك بتصديق أهل الكتاب له ، وتستشعر قلوب المؤمنين حكمة الله فى هذا العدد ، وتقديره الدقيق فى الخلق ، وتثبت هذه الحقيقة فى قلوب أهل الكتاب ، وقلوب المؤمنين ، فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله .

وليقول الذين فى قلوبهم مرض النفاق والكافرون : ماذا أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ؟

كذلك يضل الله من يشاء من المنافقين والمشركين ، لسوء استعدادهم ، ويهدى من يشاء من المؤمنين ، لتزكية نفوسهم ، وتوجيه استعدادهم للخير ، وما يعلم جموع خلق الله إلا هو ، وإن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر ، فإن لهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وما هذه السورة إلا تذكرة للبشر .

٣٢ - ٣٧ - كلا وحق القمر ، والليل إذا تولى ، والصبح إذا تجلى ، إن الآخرة وما فيها ، أو سقر والجنود التى عليها ، هى إحدى الأمور الكبيرة العجيبة ، المنذرة للبشر ، بما وراءهم من الخطر ، ولكل نفس أن تختار طريقها ، وأن تتقدم فى سبيل الخير أو تتخلف عنه .

٣٨ - ٤٨ - تعرض الآيات مقام أصحاب اليمين ، فهم فى جنات يسأل بعضهم بعضًا عن المجرمين .

ويقال لهم : أيها المجرمون ما الذى أدخلكم فى جهنم ؟ فيعترفون اعترافًا طويلاً مفصلاً ، يتناول الجرائر الكثيرة التى انتهت بالمجرمين إلى سقر .

قالوا : دخلنا جهنم لأننا لم نك من المؤمنين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض فى الباطل مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الجزاء والحساب ، حتى جاءنا الموت الذى يقطع كل شك ، وينهى كل ريب ، فما تنفعهم بعد ذلك شفاعة الشافعين ، لأنه يكون قد انقضى وقت الإمهال .

٤٩ - ٥٦ - فما لهم عن التذكرة معرضين ، إذا كان الحال فى الآخرة سيكون كما وصفنا فى الآيات السابقة ، فما بالهم معرضين عن القرآن ، كأنهم - فى هربهم من سماع كلام الله ونفورهم منه - حمير نافرة ، فرت من أسد تطلب النجاة من بطشه ، تلك هيئتهم الظاهرة .

ثم يرسم القرآن نفوسهم من الداخل ، وما يعتلج فيها من المشاعر ، فيبين أن الحسد هو الذى منعهم من الإيمان ، بل يرغب كل منهم أن يكون فى منزلة الرسول ، وأن يؤتى صحفًا تنشر على الناس وتعلن ،

وإنما حملهم على ذلك أنهم لا يصدقون بالآخرة ، ولا يخافون أهوالها ، إن هذا القرآن تذكرة تنبه وتذكر ، فمن أراد الانتفاع بالقرآن قرأه وانتفع به .

وما يهتدون إلا بمشيئة الله ، وهو سبحانه أهل بأن يُتقى عذابه ، وتُرجى مغفرته ، وهو سبحانه صاحب المغفرة يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .

## مقاصد السورة إجمالاً

أمر النبى ﷺ بدعوة الخلق إلى الإيمان ، وتقرير صعوبة القيامة على أهل الكفر والعصيان ، وتهديد الوليد بن المغيرة الذى منحه الله مالاً وفيرًا ، وعشرة من البنين ، وبسط له فى العيش لكنه قابل هذه النعم بالجحود والعناد .

وذكر جل شأنه كيف استهزأ الوليد برسول الله ﷺ ، وكيف اتهمه بالسحر ، فأنذره الله تعالى بسقر ، ثم وصفها ووصف زبانية الجحيم ، وعذاب أهل النار ، ثم ذكر تعالى الأبرار ونعيمهم ، والمجرمين وصفاتهم ، وهى البعد عن الصلاة والإيمان ، والبخل بالمال ، والخوض فى إيذاء المؤمنين ، لقد سُلبوا هداية السماء ، ففروا من سماع القرآن فرار حمر الوحش إذا رأت أسدا ، وحرمت قلوبهم بركة التقوى ، والله تعالى هو الجدير بأن يتقيه العباد ، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة .

★ ★ ★

## إرشادات للنبى ﷺ فى بدء الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾

**المفردات :**

**المدثر :** المتلفف بثيابه عند نزول الوحى عليه ، وهو النبى ﷺ .

**قم :** من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم .

**فأنذر :** فحذّر الناس ، وخوفهم من عذاب الله .

**وربك فكبر :** اخصص ربك بالتكبير والتعظيم ، أو بقول : الله أكبر .

**وثيابك فطهر :** طهّر ثيابك من النجاسات ، فإن التطهير واجب فى الصلاة ، أو هو كناية عن تطهير النفس من المذامّ ، والتخلّق بالأخلاق الحسنة .

**والرُّجز فاهجر :** الرُّجز (بضم الراء وكسرها) العذاب ، أى : اهجر المآثم الموجبة للعذاب .

**ولا تمنن تستكثر :** ولا تعط مستكثرًا ، أى : رائيًا ما تعطيه كثيرًا ، أو لا تمنن على الله بعبادتك مستكثرًا إياها .

**ولربك فاصبر :** ولوجه ربك وابتغاء مرضاته ، فتخلق بالصبر .

**فإذا نُقر فى الناقور :** فإذا نُفخ فى الصور للبعث والنشور .

**التفسير :**

١ ، ٢ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ .

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «جاورت بحراء شهرًا ، فلما قضيت جوارى نزلتُ ، فنوديتُ ، فرفعت رأسى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء ، فرجعت فقلت : دثرونى ، فأنزل الله : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ[٧٧].

**والمعنى :**

يا أيها المتلفف بثيابه ، أو المتدثر بالنبوة والكمالات النفسية ، أو المتغشّى بثوبه رُعبا من رؤية الملك ، قُم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم ، وشمِّر عن ساعد الجدّ ، فقد جاء الأمر الإلهى باصطفائك رسولاً ، وجاء الأوان لتباشر مهمتك ، لتدعو الناس إلى توحيد الله والإيمان به ، وتحذرهم من عذاب الآخرة .

قال ابن كثير : قُمْ فَأَنذِرْ . أى : شمِّر عن ساق العزم وأنذر الناس .

٣ - وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ .

اخصص ربك بالتكبير والتعظيم ، فنواصى الخلائق بيده ، ولا يصدّنك شىء عن الإنذار .

وقيل : المعنى : قل الله أكبر فى بداية الصلاة .

٤ - وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ .

طهِّر ثيابك من النجاسات ، واجعلها طاهرة لتصحّ بها الصلاة ، وطهِّر نفسك من المعاصى والذنوب ، يقال : فلان طاهر الإزار ، كناية عن طهارة النفس والبعد عن الفحشاء .

٥ - وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ .

الرِّجز هو العذاب ، والمراد : اهجر المعاصى والذنوب ، وابتعد عن عبادة الأوثان والأصنام التى يعبدها قومك ، واهجرها ولا تقربها ، والمراد : ابتعد عن أسباب العذاب ، وقد يكون الخطاب للنبى ﷺ والمراد كل من يتأتى منه الخطاب .

٦ - وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ .

ولا تعط مستكثرًا ، أى رائيًا ما تعطيه كثيرًا ، أو لا تمنن على أصحابك وغيرهم بتبليغ الوحى ، مستكثرًا ذلك عليهم ، أو إذا أعطيت أحدًا عطية فأعطها لوجه الله ، ولا تمنّ بعطيتك على الناس .

٧ - وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ .

ولربك وحده ، ومن أجل مرضاته سبحانه وتعالى ، فاصبر على تبليغ الدعوة والرسالة ، وتحمّل فى سبيل ذلك ما تتحمله .

قال تعالى : إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ . (الزمر : ١٠) .

وقال الرسول ﷺ : «يقول الله تعالى : إذا وجَّهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا ، أو أنشر له ديوانًا» .

٨ - فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ .

فإذا نفخ إسرافيل فى الصور - الذى هو القرن أو النفير - النفخة الثانية ، قامت الناس من قبورها ، تستعد لأمر الحساب والجزاء ، وتجد الكثير من هول هذا اليوم ، الذى تشيب فيه الولدان ، وتضع فيه كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

٩ ، ١٠ - فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ .

والمراد : اصبر يا محمَّد على أذاهم ، فأمامهم موقف رهيب ، حين ينفخ فى الصُّور ، فيخرج الناس من قبورهم ، وقد شاهدوا يومئذ يومًا عسيرًا شديدًا ، على الكفار غير سهل .

والمراد أن عُسْره كامل ، ليس عسيرًا من وجه ويسيرًا من وجه آخر ، بل هو عسير من جميع الوجوه .

غَيْرُ يَسِيرٍ . أى : غير سهل ولا ميسر على الكفّار ، بل هو يسير على المؤمنين ، حتى يكون كما بين الظهر والعصر ، عسير على الكافرين .

أخرج ابن سعد ، والحاكم ، عن بَهْز بن حكيم قال : أمَّنا زرارة بن أوفى فقرأ المدّثر ، فلما بلغ قوله تعالى : فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ . خرّ ميتًا فكنت فيمن حمله .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ . قال رسول الله ﷺ : «كيف أَنْعَم وصاحب الصُّور قد التقم القَرْن ، وحَنَى جبهته يستمع متى يؤمر» ؟ قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى الله توكلنا» .

★ ★ ★

## عناد الوليد بن المغيرة

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾

**المفردات :**

ذرني ومن خلقت وحيدا : دعني وإياه ، فإني أكفيكه .

ممدودا : كثيرًا .

شهودا : حضورًا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم .

ومهدت له تمهيدا : بسطت له الرياسة والجاه العريض .

سأرهقه : سأكلفه .

صعودا : عقبة شاقة لا تُطاق .

إنه فكر : إنه فكر ماذا يقول في شأن القرآن والرسول من الاختلاق .

وقدر : ورتب وهيّأ في نفسه قولاً كاذبًا في القرآن والنبيّ .

فقتل : لُعن وكُذّب وقُهر وغُلب .

كيف قدر : كيف هيّأ هذا الطعن ، وذلك تعجيب من تقديره ، وإصابته الغرض الذي يرجوه قومه .

عبس : قطّب ما بين عينيه .

بسر : كلح وجهه .

لواحة : من لوّحته الشمس ، إذا سوّدت ظاهره وأطرافه .

البشر : واحدها بشرة ، وهي ظاهر الجلد .

عليها تسعة عشر : يتولى أمر النّار ، ويلى تعذيب أهلها تسعة عشر ملكًا ، أو صفًا ، أو صنفًا .

**تمهيد :**

تفيد كتب الحديث والسيرة أن هذه الآيات نزلت فى شخص مُعيَّن هو الوليد بن المغيرة ، وقد سمع القرآن الكريم فتأثر به ، وذهب إلى قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمُثْمِر ، وإن أسفله لمُغْدِق ، وإنه يعلو وما يُعلَى عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صَبَأَ والله الوليد ، ولتصبونَّ قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينًا ، فقال الوليد : ما لى أراك حزينًا يابن أخى ؟ فقال : وما يمنعنى أن أحزن ، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كِبَر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك تدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنى من أكثرهم مالاً وولدًا ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم أتى مجلس قومه مع أبى جهل فقال لهم : تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط تكهَّن ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا (وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه) ثم قالوا : فما هو ؟ قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر ، وما يقوله سحر يأثره عن مسيْلِمة وأهل بابل ، فارتجّ النادى فرحًا ، وتفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين منه ؛ فنزلت هذه الآيات .

وقد كان الوليد يسمى الوحيد ، لأنه وحيد فى قومه ، فمالُه كثير ، فيه الزرع والضَّرْع والتجارة ، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونَعَم ، وعبيد وجوار ، وله عشرة أبناء يشهدون المحافل والمجامع ، أسلم منهم ثلاثة : خالد ، وهشام ، والوليد ، وقد بسط الله له الرزق ، وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة فى قومه ، وكان يسمى ريحانة قريش .

**التفسير :**

١١ - ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا .

أى : دعنى وحدى ومن خلقته ، فأنا أكفيك أمره ، وأُغنيك فى الانتقام منه عن كل منتقم .

قال ابن عباس وغيره : نزلت هذه الآية وما بعدها فى الوليد بن المغيرة ، بل قيل إن هذا القول متفق عليه .

**قال مقاتل :**

المعنى : خلّ بينى وبينه فأنا أنفرد بهلكته ، وفى هذا وعيد شديد على تمرده ، وعظيم عناده واستكباره ، لما أُوتيه من بسطة المال والجاه ، وكان يقول : أنا الوحيد ابن الوحيد ، ليس لى فى العرب نظير ، ولا لأبى نظير ، وقد تهكم الله به وبلقبه ، وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه ، من مدحه والثناء عليه إلى ذمّه وعيبه ، فجعله وحيدًا فى الشر والخبث .

ولك أن تتصور مخلوقًا ضعيفًا أمام قدرة الخالق المدبّر ، الذى يقول للشىء كن فيكون ، وذكر المفسرون أن هذا الشقى – الوليد بن المغيرة – ما زال بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

**١٢ – وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا .**

بسطت له فى المال والزراعة والنماء والتجارة .

**قال ابن عباس :** كان ماله ممدودًا بين مكة والطائف .

**وقال مقاتل :** كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره صيفًا ولا شتاءً .

**١٣ – وَبَنِينَ شُهُودًا .**

أى : وأولادًا مقيمين معه فى بلده ، يحضرون معه المحافل والمجامع ، لا يحتاجون إلى السفر من أجل التجارة والمال بسبب غنى والدهم ، حيث كان مستأنسًا بهم ، وله بهم عزٌّ ومنعة .

**قال المفسرون :** كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا ، أسلم منهم ثلاثة : خالد ، وهشام ، والوليد .[٧٨]

**١٤ – وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا .**

يسّرت له أسباب الجاه والسلطان ، والعزّ والسيادة ، فكان فى قريش عزيزًا منيعًا ، وسيدًا مطاعًا .

**١٥ – ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ .**

أى : لم يقنع ولم يشبع ، بل كان يتطلع إلى المزيد من حطام الدنيا ، لشدة حرصه وجشعه .

**قال فى ظلال القرآن :** لعله كان يطمع فى أن ينزل عليه الوحى ، وأن يعطى كتابًا . ا هـ .

ولعله كان أحد العظماء الذين عنتهم قريش حين قالت : لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

١٦ - كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا .

كلا : حرف ردع وزجر .

أى : كلا لن أزيده فقد وقف معاندًا ساخرًا من القرآن ومن الرسول ، حيث ادعى أن محمدًا ساحرٌ يفرّق بين المرء وزوجه ، والمرء وعشيرته ، ويعد أن مدح القرآن استفزّه أبو جهل وحرّضه على أن يقول فى النبى محمد ﷺ وفى القرآن كلاما سيئًا ، فكان كما قال القرآن الكريم : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ . (النجم : ٣٣ ، ٣٤) .

ومعنى أكدى : منع ، أى أعطى مدحًا للقرآن قليلاً ، ثم منع ذلك العطاء ونكص على عقبيه .

١٧ - سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا .

سأكلّفه مشقة من العذاب الذى لا راحة له فيه ، ولعل ذلك يشير إلى عذابه النفسى فى الدنيا ، حيث يسير فى طريق وعرٍ شاق ، ويقطع الحياة فى قلق وشدة وكربة وضيق ، فإذا كان يوم القيامة كُلِّف بالصعود إلى أعلى جبل فى جهنم ، ثم يقذف به من شاهق ، ثم يتكرر ذلك العذاب مع التصعيد فى الطريق ، وهو أشقّ السير وأشدّه إرهاقًا ، فإذا كان دفعًا من غير إرادةٍ من الشخص ، كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقًا .

١٨ - إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ .

تأتى هذه الآيات كالتعليل لما سبقها ، أى أنه قد استحق العذاب بسبب مواقفه المعادية للإسلام .

فقد ثبت أنه قد مدح القرآن الكريم حين سمعه من رسول الله ﷺ ، وحين سمعه من أبى بكر الصديق ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، ولئن صبأ الوليد لتصبأن قريش كلّها ، فذهب إليه أبو جهل ، وحرّضه على أن يقف موقفًا معاديًا لمحمد ﷺ وللقرآن الكريم ، فذهب إلى قومه وقال : تزعمون أن محمدًا مجنون أو ساحر أو كذاب أو شاعر ، فهل جربتم عليه الجنون أو السحر أو الكذب أو الشعر ، قالوا : لا ، ثم قال قومه له : فماذا تقول أنت يا أبا الوليد ؟ فأخذ يعمل عقله ، ويعيد التفكير والتقدير مرارًا ، حتى يقول قولاً يخالف ضميره ، ويخالف مدحه السابق للقرآن ، ويتناسب مع إعراضه عن الحق بعد ظهوره له ، واستكباره عن الهدى بعد أن لاحت بوادره ، فاتهم محمدًا بالسِّحر ، وأنه يفرّق بين المرء وقومه ، والمرء وزوجته ، والمرء وأخيه ، واتهم القرآن بأنه كلام البشر ، فاستحق الوليد عذاب الضمير فى الدنيا ، وعذاب جهنم فى الآخرة ..

والمعنى :

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ .

إنه فكر فى أمر القرآن ومحمد ﷺ ، وقدّر وزوّر كلامًا فى نفسه ، قد حضّره ليقوله عن القرآن ، عنادًا ومكابرة .

١٩ - فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ .

أى : لعنه الله وأخزاه ، كيف زوّر هذا الكلام الذى فرحت به قريش ، وعظم ألم النبى ﷺ منه .

٢٠ - ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ .

تكرير للتأكيد ، وتعجُّبٌ من إبداعه فى الشرّ ، أو ثناء عليه تهكمًا ، أو حكاية لما كرروه عند سماع كلامه .

فالعرب تقول : قتله الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره ، يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يُحسد ، ويدعو عليه حاسده بذلك .

والآيات صورة باهرة لهذا الشيطان الذى عرف الحقّ ، ثم نكص عن اتّباعه ، ثم دبر كلامًا معاديًا للقرآن وللرسول الأمين ، يستحق أن يدعى عليه بأن يُقتل ، وأن يتكرر قتله لقاء ما قال من الزور والبهتان ، واتهام القرآن بأنه سحر يؤثر .

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ - ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ .

ثم أعاد النظر والتّروى ، والتأمُّل فى الطعن فى القرآن ، ثم قطّب وجهه لمّا لم يجد مطعنًا يطعن به القرآن ، وكلح وجهه ، وتغيّر واكفهرّ ، وأظهر الكراهة ، ثم أعرض عن الإيمان ، واستكبر عن الانقياد ، والإصغاء للقرآن ، وجاء بقول يخالف ضميره فقال :

إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ .

ما هذا إلا سحر ينقل ويروى ويحكى ، نقله محمد عن غيره ممن قبله ، وحكاه ورواه عنهم ، فليس بكلام الله .

إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ .

اختلقه محمد من عند نفسه ، ونسبه لله زورًا .

وقد رأيتَ أن القرآن الكريم جاء بكلمة ثُمَّ . بعد الآيات (١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) ، ليبين أنه كان يتروَّى ويتأنَّى بعض الوقت فى تفكيره ، لكن الآية (٢٥) جاءت بدون حرف العطف للإفادة بأنه قال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، وأتبع بعده بدون فاصل : إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ .

أى : أسرع فى اتهام القرآن بأنه سحر ، وبأنه قول البشر ، بدون تأنٍّ أو تفكير ، كما يقول الإمام الزمخشرى فى تفسير الكشَّاف .

وبعد أن عرض القرآن تهمه الباطلة ، وتفكيره المستكبر عن الحق ، أتبع ذلك بمآله الذى ينتظره .

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ - سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ .

أى : سأدخله جهنم ، وسأغمره فيها من جميع جهاته .

وسقر من أسماء النَّار ، وإنما سميت جهنم سقر من : سقرته الشمس ، إذا أذابته ولوّحته ، وأحرقت جلد وجهه .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ .

أىُّ شىء أعلمك ما سقر ، والمراد : تعظيم هولها وآلامها ، وما يصيب الكافرين من ألوان عذابها .

لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ .

لا تترك فى الكافرين عظمًا ولا لحمًا ، ولا دمًا ولا شيئًا إلا أهلكته ، فهى تبلع بلعًا ، وتمحو محوًا ، ولا يقف لها شىء ، ولا يبقى وراءها شىء ، ولا يفضل منها شىء ، ثم يعاد أهلها خلقًا جديدًا ، فلا تتركهم بل تعاود إحراقهم بأشد مما كانت .

قال تعالى : كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ... (النساء : ٥٦) .

وتبرز جهنم لأهلها لترهبهم بعذابها ، قال تعالى : وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . (الشعراء : ٩١) .

لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ .

تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وتنزل الآلام بالجلود ، ويبدل الله الجلود ليذوق أهلها العذاب .

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ .

يحرس جهنم زبانية أشداء أقوياء ، عددهم تسعة عشر ملكًا ، أو صفًا أو صنفًا ، والجمهور على أن المراد بهم النقباء ، فمعنى كونهم عليها : أنهم يتولون أمرها وتعذيب أهلها ، وإليهم رئاسة زبانيتها ، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها ، كما قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١).

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها»[٧٩] .

★ ★ ★

## خزنة جهنم

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾

**المفردات :**

أصحاب النار : خزنة جهنم .

ملائكة : أي : ليسوا بشرًا مثلكم يُطاقون .

فتنة : سبب فتنة واختبار وامتحان ، أو ضلال للذين كفروا .

ليستيقن : ليستبين ، أو ليوقن .

أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

مرض : نفاق وشك .

مثلا : حديثًا ، أو ماذا أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل .

كذلك : مثل إضلال المُنْكِر لهذا العدد ، كأبى جهل وأحزابه ، وهداية مُصدِّقه .

جنود ربك : خلقه من الملائكة وغيرهم .

ذكرى : تذكرة وموعظة للناس .

كلا : حقًّا .

أدبر : ولّى وذهب .

أسفر : أضاء وانكشف وأشرق .

إنها لإحدى الكبر : إن سقر لإحدى الدواهى العظيمة .

أن يتقدم : إلى الخير والإيمان والجنّة .

يتأخر : يتخلف عن الإيمان إلى الكفر .

**تمهيد :**

وردت روايات فى كتب التفسير والحديث تفيد أن أبا جهل بن هشام ، لما سمع قوله تعالى : عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ . قال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أيخبركم محمد أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدُّهم (الشجعان) ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، ثم نخرج من جهنم ؟ فقال له أبو الأشدّ بن كلدة الجمحى – وكان شديد البطش – : أنا أكفيكم سبعة عشر ، واكفونى أنتم اثنين ، فنزل قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً . أى : لم نجعلهم رجالاً فيستطيع الكفار مغالبتهم .

**التفسير :**

٣١ – وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

لم نجعل زبانية جهنم أفرادًا من البشر حتى يزعم كفار مكة أنهم يستطيعون التغلّب عليهم ، بل هم ملائكة لا حدود لطاقاتهم ، فقد استطاع جبريل وحده أن يقتلع قرى قوم لوط ، وأن يرفعها إلى السماء ، ثم

يهوى بها حيث جعل الله عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، فالملائكة قوة خارقة للعادة ، ولا تأخذهم الرحمة أو الرأفة بأهل النَّار .

قال تعالى : عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) .

ولأن الملائكة أشد خلق الله بأسًا ، وأقواهم بطشًا ، فلا يقدر أهل النار عليهم ، ولا يستطيعون مغالبتهم .

وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ...

أى : امتحانًا للكفار ، واختبارًا لهم ، حيث استبعدوا أن يكون العدد القليل كافيًا لتعذيب أهل جهنم ، وما علموا أن أحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا ، وليس للعقل فيها مجال ، ولأنهم قالوا : لم هذا العدد بالذَّات ، ولم يكملوا عشرين ؟ وما علموا أن أفعال الله تعالى لا تعلل ، فقد ذكر الله ذلك العدد لحكمة لا يعلمها إلاَّ هو سبحانه وتعالى ، كما أفاد بذلك الفخر الرازى فى تفسيره الكبير .

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ...

ليتيقن الذين أوتوا الكتاب – وهم اليهود والنصارى – بأنَّ محمدًا صادق ، وأن القرآن حقّ ، حيث إن العدد الذى ذكره القرآن الكريم ، هو نفس العدد الذى ذكرته الكتب السماوية التى بين أيديهم .

ويزداد الذين آمنوا إيمانًا بصدق نبيِّهم ، وكتاب ربهم ، حين ينضمَّ إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أُنزل .

قال الآلوسى : أخرج الترمذى ، وابن مردويه ، عن جابر قال : قال ناس من اليهود لأناس من المسلمين : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : «هكذا وهكذا» فى مرة عشرة ، وفى مرة تسعة .

وبذلك ترى أن ازدياد الذين آمنوا إيمانًا ، حيث يزيدون تصديقًا لنبيِّهم ولكتاب ربِّهم ، وحيث يجدون ذلك مؤيدًا بما فى الكتب السابقة .

وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ...

أى : فعلنا ذلك ليكتسب أهل الكتاب اليقين من نبوته ﷺ ، وليزداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم ، ولتزول كل شبهة قد تطرأ على قلوب الذين أوتوا الكتاب ، وعلى قلوب المؤمنين ، وهذا الكلام تأكيد لما قبله ،

من الاستيقان وزيادة الإيمان ، ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة وشكٍّ ، فإذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك ، كان آكد وأبلغ .

وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ ...

أى : ليقول المنافقون والكافرون بمكة ، المصرُّون على التكذيب .

مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً ...

ما الذى أراده الله بهذا العدد (١٩) المستغرب استغراب المثل ؟ وأى حكمة قصدها الله من جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين ؟ ومرادهم إنكار الأمر من أصله ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ، كما يقول الزمخشرى .

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ...

كذلك يضلّ الله من يشاء من الكافرين ، ويهدى من يشاء من المؤمنين ، ولله الحجة البالغة والحكمة العالية .

ولا يُضلّ إلا من آثر الهوى ، وكره الهدى ، وآثر الحياة الدنيا ، فالجحيم هى مأواه ، ولا يهدى إلّا من تأمّل فى دلائل الإيمان ، وآثر الآخرة على الدنيا ، وخاف مقام ربه واستهدى بهدايته .

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ...

أى : لا يعلم عددهم وكثرتهم وقدرتهم وقوّتهم إلا اللّه تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت فى حديث الإسراء الذى أخرجه الشيخان ، فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : «فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم» .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيرًا ، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى»[٨٠] .

أخرجه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن غريب .

وأخرج الحافظ الطبرانى ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «ما فى السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف ، إلاّ وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، إلا أنّا لم نشرك بك شيئًا» .

وقد أورد الحافظ ابن كثير فى تفسيره – وغيره من المفسرين – طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تبين كثرة جنود الله تعالى ، وامتلاء السماء بملائكة ساجدين راكعين .

كما قال تعالى : **وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ** . (الصافات : ١٦٥ ، ١٦٦) .

**وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ** .

ليست سقر التى ذكرنا لكم أن عليها تسعة عشر ملكًا ، إلا تذكرة للبشر ، ليتعظوا ويتجنبوا حرّها ولهيبها ، ويذكروا قدرة الله الواسعة التى لا تحتاج إلى ملك ولا إلى تسعة عشر ، ويعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

**٣٢ – كَلَّا وَٱلْقَمَرِ** .

كَلَّا . حرف ردع وزجر ، لمن أُنذر بسقر ولم يخف ، وأُقسم بالقمر .

**٣٣ – وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ** .

وأُقسم بالليل إذا ولّى وذهب .

**٣٤ – وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ** .

وأُقسم بالصبح إذا أضاء وانكشف فيه ضوء النهار ، حيث يتبدد ظلام الليل ، ويبدأ نور النهار بصورة مبهرة تُظهر للعين آثار القدرة .

**٣٥ – إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ** .

إن سقر لإحدى الكبر العظائم ، والخطوب الجسام ، أى أن سقر التى تهكم بها وبخزنتها الكافرون ، لهى إحدى الأمور العظام ، والدواهى الكبار التى قلّ أن يوجد لها نظير أو مثيل فى عِظمها ، وفى شدة عذاب من يصطلى بنارها .

**٣٦ – نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ** .

لقد ذكرها الله إنذارًا للبشر ، وردعًا لهم عن التمادى فى الكفر والضلال ، فالنُّذُر هنا بمعنى الإنذار .

**قال الحسن** : والله ما أُنذر الخلائق بشىء أدهى من جهنم .

٣٧ – لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ .

لقد ذكرنا ما ذكرنا فى هذه السورة ، أو فى وصف جهنم ، تحذيرًا للبشر من جهنم وأهوالها ، وهذا التحذير لمن شاء أن يتقدم نحو الإيمان والإسلام والهداية والرضوان ، أو يتأخر إلى الكفر والفسوق والعصيان ، فإنه يمهِّد نفسه للنيران .

**قال ابن عباس :** من شاء اتبع طاعة الله ، ومن شاء تأخَّر عنها بمعصيته .

**وقال الحسن :** هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى : فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... (الكهف : ٢٩) .

## فى ظلال القرآن الكريم

الله تعالى إذا كلَّف مَلَكًا بشىء وهبه القدرة التى ينفِّذ بها ما كُلِّف به ، فانشغال الكفار بعدد الملائكة من حُرَّاس جهنم فى غير موضعه ، لأن الأمر متعلق بقدرة الله وإرادته ، وهو إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ، والملائكة : لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) . وإذا كانت الملائكة قد كُلِّفت بالقيام على سَقر ، فهم مزوَّدون من قبله تعالى بالقوَّة المطلوبة لهذه المهمة ، ولا طاقة للبشر فى مغالبة قدرة الله ، وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (يوسف : ٢١) .

والقسم بالقمر يلفت النظر إلى التأمل فى هذا الكوكب ، وتنقُّله من هلال إلى بدر ثم تناقصه ، ثم التملِّى بجلاله وجماله ، كأنه يغسل النفس والقلب .

وقلَّ أن يستيقظ قلبٌ لمشهد الليل عند إدباره ، فى تلك الهدأة التى تسبق الشروق ، وعندما يبدأ هذا الوجود كلُّه يفتح عينيه ويفيق ، ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد ، وتدبُّ فى أعماقه خطراتٌ رفَّافة شفَّافة .

وقلَّ أن يستيقظ قلبٌ لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره ، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح ، وانتقال شعورى من حال إلى حال ، يجعله أشدّ ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذى يشرق فى الضمائر ، مع النور الذى يشرق فى النواظر .

والله تعالى الذى خلق القلب البشرى ، ويعلم ما ينبعث فيه ، من استقبال ما فى القمر ، وما فى الليل ، وما فى الصبح ، من عجائب الدِّقة المبدعة ، والحكمة المدبِّرة ، والتنسيق الإلهى لهذا الكون ، لذلك يلفت القرآن النظر إلى جمال الكون ونظامه ، بتلك الدقة البالغة التى يحيِّر تصورها العقول[٨١] .

وجاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ما يأتى :

أقسم الله تعالى بالقمر والليل والصبح تشريفًا لها ، وتنبيهًا على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها ، والمقسم عليه أنّ سقر (جهنم) إحدى الدواهى ، وأنها نذير للبشر أو ذات إنذار . اهـ .

★ ★ ★

## الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**بما كسبت رهينة :** مرهونة عند الله تعالى بعملها .

**يتساءلون عن المجرمين :** يسأل بعضهم بعضًا عن الكافرين .

**ما سلككم فى سقر :** أىّ شىء أدخلكم النار ؟

**كنا نخوض :** نشرع فى الباطل ولا نبالى به .

**مع الخائضين :** مع الشارعين من أهل الباطل فى باطلهم .

**بيوم الدين :** بيوم البعث والجزاء .

**اليقين :** الموت ومقدماته .

**فما لهم عن التذكرة معرضين :** فما لأهل مكة عن العظة بالقرآن منصرفين .

**حمر مستنفرة :** حمر وحشية ، شديدة النّفار .

**من قسورة :** من أسَدٍ ، أو من الرُّماة القنَّص .

**صحفا منشرة :** قراطيس واضحة مكشوفة .

**كلا إنه تذكرة :** حقًّا إن القرآن عظة .

**أهل التقوى :** الله تعالى حقيق بأن يُتَّقى عذابه ، أو أن يتقيه عباده .

**وأهل المغفرة :** حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

**تمهيد :**

كان أهل مكة فى نفارٍ وإعراض عن القرآن الكريم ، وهو هداية ونور ، لكنّهم أعرضوا عنه ، وأسرعوا فى البعد عنه إسراع الحُمُر الوحشية حين تُحسُّ بالأسد يطاردها ، أو مجموعة من الصيادين المقتنصين ، وقد قال أبو جهل للنبى ﷺ : لن نؤمن لك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه : من رب العالمين إلى فلان ابن فلان ، ونُؤمر فيه باتّباعك . وقد استعرضت الآيات جانبًا من مشاهد الآخرة .

**التفسير :**

٣٨ - كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ .

كل إنسان مرتهن بعمله يوم القيامة ، فمن أطاع الله وأدّى واجبه فى الدنيا فقد أعتق نفسه من نار جهنم ، ومن عصى الله ولم يلتزم بأوامره ، ولم يجتنب نواهيه ، كان مرتهنًا فى جهنم ، ليصطلى بنارها جزاءً وفاقًا لعمله .

وفى الحديث الشريف : «... كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

٣٩ - إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ .

وهم المسلمون المخلصون ، أى : لكن أصحاب اليمين غير مُرْتهنين ، فقد فكوا رقابهم بصالح أعمالهم ، وتفضل الله عليهم فضاعف حسناتهم ، وضاعف ثوابهم .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ - فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ .

يقيم أصحاب اليمين فى جنات عالية ، يتنعمون فيها نعيمًا أبديا سرمديا ، ثم يسأل بعضهم بعضًا عن عصاة أهل النار ، الذين كانوا يجاورونهم فى الدنيا ، أو يتطاولون عليهم ، ويسخرون منهم ، فيقول :

المؤمن للكفار في جهنم : أيُّ شيء أدخلكم جهنم وجعلكم تسلكون عذابها ، وتصْلون لهيبها ، وتذوقون أهوالها ؟

٤٣ ، ٤٤ - قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ .

أجاب الكفار عن سبب دخولهم جهنم ، بأنّهم كانوا لا يؤدون الصلاة ، ولم يخضعوا لربِّهم ، ولم يعبدوه حق عبادته .

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ .

وكنا لا نؤدِّى الزكاة ، ولا نعطف على الفقراء والمساكين ، ولا نتعاون مع الضعفاء والمحتاجين ، أي أنّهم لم يؤدُّوا حقَّ الله وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم يؤدُّوا حق الفقراء والمساكين بإخراج الزكاة ، مع التصدّق والإحسان والعطف على المساكين والمحتاجين .

٤٥ - وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ .

وكنا نلعب مع اللاعبين ، ونستهزئ بالمؤمنين ، ونقول عن محمد : هو شاعر أو كاهن أو كذاب ، أو لا نبالي بالخوض في الباطل ، ولا نتحرز عن مشاركة المكذِّبين بالإسلام والمُتهِمين للقرآن بالزور والبهتان .

٤٦، ٤٧ - وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ .

وكنا ننكر البعث والحساب والجزاء ، والقيامة والجنة والنار ، وقد استمرت حياتهم على ارتكاب هذه الكبائر الأربعة ، وهي :

١ - ترك الصلاة وترك عبادة الله .

٢ - ترك الزكاة وترك العطف على المساكين .

٣ - الخوض مع الخائضين في الباطل والزّور والبهتان .

٤ - التكذيب بيوم القيامة .

ومجموع هذه الأربعة يؤدِّى إلى تصور خاطئ عن الكون والحياة ، والدنيا والآخرة .

وتفيد الآيات أنهم استمروا على كفرهم وسوء أعمالهم ، حتى جاءهم الموت . وهذا عند جمهور المفسرين .

وقال ابن عطية : اليقين عندى : صحة ما كانوا يكذّبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة .

٤٨ – فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ .

هناك شفاعة للمؤمنين من العلماء والملائكة والأنبياء والصالحين ، وهم لا يشفعون إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولاً ، أى أن الشفاعة مِنّةٌ إلهية لمن يستحقها من أهل التوحيد ، أما الكفار فإن لهم جهنم خالدين فيها أبدًا ، وعلى فرض وجود شافعين لهم من الأنبياء والصالحين والعلماء والمرسلين ، فإن ذلك لن ينفعهم ، ولن ينقذهم من عذاب النار ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين .

٤٩ – فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ .

ما الذى حمل كفار مكة على الإعراض والابتعاد عن القرآن ، وعن هدى محمد ﷺ ، والانصراف عن الإسلام ؟

قال مقاتل :

الإعراض عن القرآن من وجهين :

١ – الجحود والإنكار .

٢ – والوجه الآخر ترك العمل به .

ونلاحظ أن القرآن الكريم يسمّى تذكرة ، لاشتماله على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى .

٥٠ ، ٥١ – كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ .

إن القرآن الكريم سبب للهداية واطمئنان النّفس ، والإيمان وسعادة الدارين ، لكن هؤلاء الكفار نفروا من تذكير القرآن لهم نفورًا شديدًا ، أشبه بنفور الحُمُر الوحشية إذا شاهدت أسدًا يحاول اقتناصها ، أو مجموعة مدرَّبة على الاقتناص والصيد من الصيادين المهرة ، وهو تشبيه يزرى بهم ، ويجعلهم يخرجون من دائرة الآدميين الذين يتفاهمون أو يتفهّمون القرآن والتذكرة إلى دائرة الحُمُر التى تركض ركضًا شديدًا عندما تجد ما يدعوها إلى النّفار والفِرار .

وقريب من ذلك قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . (الجمعة : ٥) .

والقسورة : إمّا جماعة الرماة الذين يتصيدون الحمر الوحشية ، أو الأسد ، وسمى قسورة لأنه يقهر السباع ويقسرها ويستولى عليها قسرًا .

**قال ابن عباس :**

الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت ، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمدًا ﷺ هربوا منه ، كما يهرب الحمار الوحشى من الأسد .

**٥٢ - بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً .**

كان الحقد والحسد يحمل كبراء مكة وعظماءها على عدم الإيمان جحودًا وكبرًا ، بل كل واحد من هؤلاء الكبراء كان يطمع أن ينزل عليه وحى السماء ، مكتوبًا فى صحفٍ مفتوحة كما كان يكتب القرآن الكريم ، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، فهو لا يختار الرُّسل لمنزلتهم المادية ، أو عظم موقعهم المالى ، ولكن لاعتبارات يعلمها الله ، منها الخُلق والطهارة والسموّ والأمانة ، ورجاحة العقل والاستعداد للنهوض بأمر الرسالة ، وقد أشار القرآن إلى هذه المعانى .

قال تعالى : ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... (الأنعام : ١٢٤) .

وقال تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ ... (الحج : ٧٥) .

وقال سبحانه : وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

وقد بلغ من حنق أبى جهل وجماعة من قريش على النبى ﷺ أن قالوا : يا محمد ، ائتنا بكُتُبٍ من رب العالمين مكتوب فيها : إنى قد أرسلت لكم محمدًا .

ونظيره ما حكاه القرآن من قولهم : أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً . (الإسراء : ٩٣) .

**وقال مجاهد :**

أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب من السماء ، فيه : من رب العالمين إلى فلان ابن فلان ، إن محمدًا رسول الله فاتبعه .

٥٣ – كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ .

كَلَّا . حرف ردع وزجر.

أى : لا أفعل ما يطلبون ، فإن الله يعطى للناس العقل والإرادة والاختيار والكسب ، ويرسل للناس الرُّسل ، وينزل الكتب السَّماوية ، ويترك للبشر حرية الاختيار ، فمن آثر الهدى والإيمان فله الجنة ، ومن آثر الدنيا وشهواتها فله النار ، وهؤلاء كفَّارُ مكة لا يخافون الآخرة ، ولا يؤمنون بالثواب والعقاب ، بل آثروا الدنيا وباعوا الآخرة ، فلذلك يُعرضون عن التذكرة ، ويقترحون على النبى ﷺ اقتراحات متعددة تتعلق بمتع الدنيا ومظاهرها .

٥٤ ، ٥٥ – كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ .

يرْدعهم القرآن مرة أخرى ، ويخبرهم أن هذا القرآن تذكرة وتنبيه ، حيث يلفت النظر إلى الخلق والكون ، والصباح والمساء ، والزروع الناضرة ، والمطر الهاطل ، والسحاب المُسير ، والأرض والسماء ، والجبال والبحار ، والليل والنهار ، ويبين أن هذا الكون البديع المنظَّم لابد له من خالق رازق ، مبدع قادر ، فعال لما يريد .

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ .

فمن أراد القرآن قرأه واتعظ به ، وتذكر ما فيه ، واهتدى بهدايته ، وجعل له الله حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة ، ومن شاء أعرض عن هذه التذكرة ، وكذَّب بها وكفر ، فاستحق المهانة فى سقر .

٥٦ – وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ .

تُختم سورة المدثر ببيان طلاقة المشيئة الإلهية ، فهو سبحانه خالق الإنسان ، وهو العليم بما توسوس به نفسه ، فمن رأى منه – سبحانه – الاستجابة للحق ، والرغبة فى الهدى ، يسر له اليسرى ، ووفقه وأعانه ، ومنحه الهداية والمعونة ، واللطف والخير ، ومن دسَّى نفسه ، وآثر الهوى والشهوات ، وأعرض عن هدايات السماء ، سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، والاستماع للتذكرة ، والاستفادة بهدى القرآن الكريم .

قال المفسرون :

وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى ، فيتذكروا ويتعظوا ، وفيه تسلية للنبى ﷺ ، وترويح عن قلبه الشريف ، مما كان يخامره من إعراضهم وتكذيبهم له .

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ .

الله عز وجل أهلٌ لأن يُتقى ، وأن يطاع فلا يُعصَى ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، وأن يخاف الإنسانُ مقامَ ربّه ، وينهى النفس عن الهوى ، والله تعالى أهل للمغفرة والرحمة ، لمن اتقاه وأطاعه .

روى الإمام أحمد ، والترمذي وحسَّنه ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ . ثم قال : «قال ربكم : أنا أهل أن أُتقى ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهًا ، فأنا أهل أن أغفر له»[٨٢].

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (المدثر) مساء الثلاثاء ٩ من المحرم ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٣ من أبريل ٢٠٠١م بمدينة المقطم بالقاهرة .

نسأل الله تعالى القبول والتوفيق ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

اللهم اجعلنا جميعًا من أهل التقوى ، ومن أهل المغفرة . اللهم آمين .

★ ★ ★



# تفسير سورة القيامة

# أهداف سورة القيامة

(سورة القيامة مكية ، وآياتها ٤٠ آية ، نزلت بعد سورة القارعة)

وهى سورة تتحدث عن القيامة ، وعن النفس اللوامة ، وتحشد على القلب البشرى من الحقائق والمؤثرات ، والصور والمشاهد ، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلّت منه .

ومن تلك الحقائق الكبيرة التى تحشدها السورة فى مواجهة القلب البشرى، حقيقة الموت القاسية الرهيبة التى تواجه كل حى ، وتتكرر كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفا واحدا ، هو الاستسلام والخضوع لقدرة العلى القدير : إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ . (القيامة : ٣٠) .

ومن تلك الحقائق التى تعرضها السورة ، حقيقة النشأة الأولى ، وأن من خلق الإنسان من نطفة ، قادر على أن يعيده مرة أخرى : أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ . (القيامة : ٣٦ ، ٣٧) .

ومن المشاهد المؤثرة فى السورة ، مشهد القيامة ، وقد وقف الجميع للحساب ، وزاغت الأبصار ، واشتد الهول ، ولقى كل إنسان جزاءه : يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ * فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ . (القيامة : ٦ ، ٧) .

ومن هذه المشاهد ، مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم ، ومشهد الآخرين المقطوعى الصلة بالله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ . (القيامة : ٢٢ – ٢٤).

وهكذا يشعر القلب وهو يواجه هذه السورة ، بأنه محاصر لا يهرب ، مأخوذ بعمله لا يفلت ، لا ملجأ له من الله ولا عاصم ، وهكذا تعالج السورة عناد المشركين وإصرارهم ، وتشعر الإنسان بالجد الصارم الجازم فى شأن القيامة ، وشأن النفس ، وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق .

وقد لونت السورة وزاوجت بين حقائق الآخرة ، وحقائق الخلق والإبداع ، ومشاهد الموت والحساب ، وتكفل الله بشأن القرآن وحفظه ، وتلك خصيصة من خصائص الأسلوب القرآنى ، حيث يخاطب القلب البشرى بشتى الأساليب والمؤثرات والحقائق والمشاهد ، مما يأخذ عليه كل طريق ، ويقوده إلى الإذعان والتسليم .

## مع آيات السورة

١ ، ٢ – يقسم الله تعالى بيوم القيامة وعظم هوله ، وبالنفس التى تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات ، يُقسم أن البعث حق .

٣ ، ٤ – يرد سبحانه على بعض المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ، وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هى صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة فى التراب ، المتفرقة فى الثرى ، وإعادة بعث الإنسان حيا .

والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه فى موضعه كما كان ، وهى كناية عن إعادة التكوين الإنسانى بأدق ما فيه ، حتى يتمثل الإنسان بشرا سويا ، لا ينقصه حتى تسوية أصابعه ، وما حملت من خاصيات مميزة .

٥ ، ٦ – لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظمه ، ولكنه يريد أن يداوم على فجوره فيما يستأنف من الزمان ، ولا يتخلى عنه ، ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث ، ويستبعد مجىء القيامة .

٧ – ٩ – ذكر سبحانه من علامات يوم القيامة أمورا ثلاثة :

(أ) فالبصر يخطف ويتقلب سريعا سريعا ، تقلب البرق وخطفه .

(ب) والقمر يخسف ويُطْمس نوره .

(جـ) والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ، ويختل نظامها الفلكى المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكونى الدقيق .

١٠ –١٢ – يتساءل الإنسان المرعوب : أين المفر من جهنم ؟ وهل من ملجأ منها ؟

ولا ملجأ ولا وقاية ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة إليه والمستقر عنده ، لا مستقر عند غيره .

قال السدّى : كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال الله لهم : لا وزر يعصمكم منى .

١٣ – يُخبَر الإنسان حين العرض والحساب بجميع أعماله : قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها .

وفى الحديث : «سبع يجرى أجرها للعبد بعد موته وهو فى قبره : من علّم علما ، أو أجرى نهرا ، أو حفر بئرا ، أو غرس ظلا ، أو بنى مسجدا ، أو ورّق مصحفا ، أو ترك وليا يستغفر له بعد موته».

١٤ ، ١٥ – بل الإنسان على نفسه بصيرة ، بل الإنسان حجة بينة على نفسه ، وفى ذلك اليوم تنطق جوارحه بما فعل ، فسمعه وبصره ويداه ورجلاه وجميع أعضائه تشهد عليه ، ويتضح الحق ، ولو جاء بكل الأعذار.

١٦ – تكفل الله بشأن القرآن ، وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ، وليس للرسول ﷺ من أمره إلا حمله وتبليغه .

وقد كان الرسول الأمين ﷺ شديد اللهفة والحرص على استيعاب القرآن وحفظه ، مما كان يدعوه إلى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية ، وكلمة كلمة .

فلما نزلت هذه الآية ، كان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق وسكت ، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله .

١٧ – ١٩ – إن علينا جمعه فى صدرك الشريف ، وقراءته على لسانك ، فلن تنساه أبدا ، بل نحن سنجمعه فى صدور المؤمنين ، ونحفظ قراءته ، فإذا تلاه عليك المَلَك فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ، ثم إننا بعد حفظه وتلاوته ، نبينه لك ونلهمك معناه .

٢٠ ، ٢١ – إنكم يا بنى آدم خلقتم من عجل ، وطبعتم عليه ، فتعجلون فى كل شىء ، ومن ثم تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة .

٢٢ ، ٢٣ – فى ذلك اليوم – يوم القيامة – ستكون هناك وجوه حسنة ناعمة ، تنظر إلى جلال الله ، وتتمتع برضوانه ، وهى متعة دونها كل متعة .

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلمحة من جمال الإبداع الإلهى فى الكون أو النفس ، تراها فى الليلة القمراء ، أو الليل الساجى ، أو الفجر الوليد ، أو الظل المديد ، أو البحر العباب ، أو الصحراء المنسابة ، أو الروض البهيج ، أو الطلعة البهية ، أو القلب النبيل ، أو الإيمان الواثق ، أو الصبر الجميل ، إلى آخر مطالع الجمال فى هذا الوجود .. فتغمرها النشوة ، وتفيض بها السعادة ، فكيف بها وهى تنظر إلى جمال ذات الله ؟ وتستمتع بهذه السعادة الغامرة التى لا يحيط بها وصف ، ولا يتصور حقيقتها إدراك ؟

٢٤ ، ٢٥ – ووجوه الفجار تكون يوم القيامة عابسة كالحة ، مستيقنة أنها ستصاب بداهية عظيمة تقصم ظهرها وتهلكها .

٢٦ – ٣٠ – تعرض الآيات مشهد الاحتضار ، حين تبلغ الروح أعالى الصدر ، وتشرف النفس على الموت ، ويقول أهل المحتضر : من يرقيه للشفاء مما نزل به ؟ والتمسوا له الأطباء فلم يُغْنُوا عنه من قضاء الله شيئا ، وأيقن المحتضر أن ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد ، وبطلت كل

حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، والتوت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكهما ، وتبين الطريق الواحد الذى يساق إليه كل حى فى نهاية المطاف : إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق ، وكل آية ترسم حركة ، إنه مشهد الموت الذى ينتهى إليه كل حى ، الموت الذى يصرع الجبابرة ، بنفس السهولة التى يصرع بها الأقزام ، ويقهر المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ، الموت الذى لا حيلة للبشر فيه ، وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التى تجريه .

٣١ – ٣٣ – ورد أن هذه الآيات تعنى شخصا معينا بالذات ، قيل : هو أبو جهل (عمرو بن هشام) ، وكان يجىء أحيانا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن ، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالا بما فعل ، فخورا بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئا يذكر ، وَيَتَمَطَّىٰٓ . أى : يمط فى ظهره ويتعاجب تعاجبا ثقيلا كريها .

وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوة إلى الله ، يسمع ويعرض ، ويتفنن فى الصدِّ عن سبيل الله ، والأذى للدعاة .

٣٤ ، ٣٥ – ويل لك مرة بعد أخرى ، وأهلكك الله هلاكا أقرب لك من كل شر وهلاك ، وهو تعبير اصطلاحى يتضمن التهديد والوعيد ، أو معناها : أجمل بك وأحرى . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ . أى : يتكرر هذا الدعاء عليك مرة أخرى .

روى قتادة أن النبى ﷺ أخذ بيد أبى جهل فقال : «أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى» . فقال عدو الله : أتوعدنى يا محمد ، والله لا تستطيع أنت وربك شيئا ، وإنى لأعز من مشى بين جبليها . فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين .

٣٦ – أيحسب الكافر أن يترك مهملا ، لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُبعث ولا يُجازى ؟ لقد كانت الحياة فى نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية .. أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، فلفتت الآية نظر الإنسان إلى التقدير والتدبير فى حياته ، وأنه لابد من البعث والجزاء ، ليتميز الصالح من الطالح ، والمؤمن من الكافر ، ثم يأتى ما بعدها بالدلائل الواقعية على هذا القول .

٣٧ – ٣٩ – فما هذا الإنسان ؟ مم خلق ؟ وكيف كان ؟

ألم يك نطفة صغيرة من الماء من منى يراق ؟ ألم تتحول هذه النطفة إلى علقة ذات وضع خاص فى الرحم ، تعلق بجدرانه لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فمن ذا الذى ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذى وجهها هذا الاتجاه ؟

ثم من ذا الذى خلقها بعد ذلك جنينا معتدلا منسق الأعضاء ، مؤلفا جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وهو فى الأصل خلية واحدة مع بويضة ؟

ومن ذا الذى قاد هذه الخلية ، وهى خلية صغيرة ضعيفة لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب؟

ثم فى النهاية .. من ذا الذى جعل من الخلية الواحدة .. الذكر والأنثى ؟

إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة ، التى قادت النطفة المراقة فى طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير : فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ .

٤٠ – وفى ختام السورة يجىء هذا الاستفهام القوى الحاسم : أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ ٱلْمَوْتَىٰ . أى : أليس الذى أنشأ هذا الخلق السوىّ من هذه النطفة المراقة ، بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟

أليس الفعال للتدبير والتقدير والنشأة الأولى بقادر على البعث والإحياء مرة أخرى ؟

قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (الروم : ٢٧) .

وإذا سمع المؤمن هذه الآية الأخيرة من سورة القيامة فليقل : بلى قادر .

أخرج الإمام أحمد ، وأبو داود ، والحاكم وصححه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ منكم : وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ . وانتهى إلى آخرها : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ . فليقل : بلى ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . ومن قرأ : لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ . فانتهى إلى آخرها : أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ . فليقل بلى ، ومن قرأ المرسلات فبلغ : فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ . فليقل : آمنا بالله» .

## مقصود السورة

بيان هول القيامة وهيبتها ، وبيان إثبات البعث ، وتأثير القيامة فى أعيان العالم ، حيث يزوغ البصر ويُظلم القمر ، وتنكدر الشمس ، ويفزع الإنسان ويقول : أين المفر ؟

وفى ذلك اليوم سينال كل إنسان جزاء عمله .

وبيّنت السورة آداب سماع الوحى ، والوعد باللقاء والرؤية ، وبيّنت هول الاحتضار ، وقدرة الله على البدء والإعادة ، وبعث الموتى وحسابهم وجزائهم ، فى قوله سبحانه : أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ .

★ ★ ★

## إثبات البعث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**لا أقسم :** أقسم ، و «لا» مزيدة .

**بالنفس اللوامة :** كثيرة اللوم والندم على ما فات .

**أيحسب الإنسان :** أيظن الكافر .

**ألن نجمع عظامه :** أن لن نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة .

**بلى :** نجمعها بعد التفرق والبلى .

**نسوّى بنانه :** البنان : الأصابع أو أطرافها ، فنردّ عِظامها كما كانت على صغرها بقدرتنا ، فكيف بكبارها .

**ليفجر أمامه :** ليدوم على فجوره مدّة عمره .

**برق البصر :** دهش وتحيَّر فزعا مما رأى من أهوال يوم القيامة .

**خسف القمر :** ذهب ضوءُه .

**وجُمع الشمس والقمر :** فى الطلوع من المغرب مُظلمَين .

**أين المفر** : المهرب من العذاب أو الهول .

**لا وزر** : لا ملْجأ ولا مَنْجَى له من الله .

**بصيرة** : حُجة بينة ، أو عين بَصيرةٌ .

**ولو ألقى معاذيره** : ولو جاء بكلّ عُذر لم ينفعه .

**التفسير :**

١ - ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

أقسم بيوم القيامة ، وهو اليوم الذى يقوم النّاس فيه من قبورهم ، حفاة عراة غرلا [٨٣] كما ولدتهم أمهاتهم ، وهو اليوم الذى تبدّل فيه الأرض غير الأرض والسماوات ، وهو اليوم الذى يشيب فيه الوليد ، ويحشر الناس فى أرض المحشر ، ويتم القضاء .

٢ - ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ .

وأقسم بالنفس اللوامة التى تلوم صاحبها على التقصير فى الطاعات ، وتلوم صاحبها على فعل السيئات .

**قال مجاهد** : هى النفس الخيِّرة التى تلوم صاحبها على الشرِّ ، لمَ فعله ؟ وعلى الخير ، لِمَ لم يستكثر منه ؟

٣ - ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ .

جواب القسم فى الآيتين الأولى والثانية محذوف وتقديره : لتبعثنّ ، وسوّغ حذف الجواب دلالة هذه الآية عليه .

سبب النزول :

روى أن عديًّ بن ربيعة قال لرسول ﷺ : يا محمد ، حدثنى عن يوم القيامة ، متى يكون أمره ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ، ولم أومن بك ، أَوَ يجمع الله هذه العظام بعد بِلاها ؟ فنزلت الآية .

وقد عنى القرآن الكريم بتأكيد أمر البعث والجزاء ، وبيان حكمته ، وهى أن يكافأ الطائع ، وأن يعاقب العاصى ، وحتى لا تكون الحياة عبثا .

وقد استبعد الكفار أن تدب الحياة فى العظام البالية ، وقد بيّن القرآن أن إعادة الخلق سهل هين على الله ، قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

ويُروى أن أميَّة بن خلف جاء بعظم قد رمّ وبلى وصار ترابا ، ففرك العظم بين يديه ونفخ فيه ، وقال : يا محمد ، أتزعم أن ربك يبعث هذا بعدما رمّ وبلى وصار ترابا ؟ قال : «نعم ، ويبعثك ويدخلك النار» .

وأنزل الله تعالى الآيات الأخيرة من سورة (يسٓ) للردّ على منكرى البعث .

قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

٤ – بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ .

أى : نجمع عظام الإنسان بعد تفرّقها ، وصيرورتها رميما ورفاتا ، حال كوننا قادرين على تأليف جمعها ، وإعادتها إلى التركيب الأوّل ، وعلى أن نسوّى أصابعه .

أو نسوّى سلامياته على صغرها ، ونضم بعضها إلى بعض ، كما كانت من غير زيادة أو نقصان .

وخصَّ الأصابع بالذات ، لما فيها من دقة التركيب ، وظهور آثار القدرة ، وإبداع الصانع جلَّ جلاله فى خلقها، حتى تؤخذ بصماتُ الإنسان عند الحاجة إلى ذلك ، لأنه يكاد يكون لكل إنسان بصمة خاصة به، وهذا من إعجاز القرآن الكريم حيث لم يكتشف هذا الأمر إلا من وقت قريب .

٥ – بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ .

بل إن الحامل للإنسان على إنكار يوم القيامة شيء آخر ، هو استمرار فجوره واستيفاء لذائذه ، وعدم خضوعه لأوامر الوحى ، وهذا هو الذى جعله ينكر البعث والحشر والحساب ، حتى يدوم على فجوره فى مستقبل أيامه ، فيقدّم الذنب ، ويؤخر التوبة .

قال سعيد بن جبير : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، حتى يأتيه الموت على شر أحواله .

٦ – يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ .

يسأل سؤال استبعاد واستنكار : متى يجىء يوم القيامة ؟

قال تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ . (سبأ : ٢٩ ، ٣٠) .

**قال الآلوسى فى تفسيره :**

وفيه أن من أنكر البعث يرتكب أشد الفجور لا محالة .

٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ – فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ .

إذا فوجئ الإنسان بأهوال القيامة، وقف البصر وانبهر ، وتخشّع وتحارّ من شدة الأهوال ، ومن عظم ما نشاهده يوم القيامة من أمور ، ومنه قول ذى الرّمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه ميٌّ سافرًا كاد يبرق

وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ .

ذهب ضوءُه وانطمس نوره .

وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ .

حيث تطلع الشمس من مغربها ، وكذلك القمر ، ولا ضوء للشمس ولا للقمر فى ذلك الحين .

يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ .

عندما يشاهد الإنسان هذه العلامات الكبرى ، التى تزلزل الوجدان والفؤاد ، يبحث عن مهرب خوفا من الله تعالى ، أو خوفا من جهنم .

١١ – كَلَّا لَا وَزَرَ .

ردع وزجر لكل كافر ، أى لا حماية ولا ملجأ ، ولا وقاية ولا مهرب من عذاب الله .

١٢ – إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ .

إلى الله وحده ، لا إلى غيره ، يكون مستقر العباد وحسابهم وجزاؤهم ، وخلودهم فى الجنة أو فى النار .

١٣ - يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ .

يُخبر الإنسان يوم القيامة بجميع أعماله التى قدّمها ، وآثاره التى أقرّها .

**وعن مجاهد :** بأول عمره وآخره .

١٤ - بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ .

بل الإنسان حجة واضحة على نفسه، وجوارح الإنسان تشهد عليه ، وهو مستبصر بما فعل فى دنياه .

قال تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (النور : ٢٤) .

١٥ - وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ .

أى : الإنسان شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ، فهو حجة بينة على أعماله ، ولو اعتذر أو أنكر لما قُبل منه .

**وقال ابن عباس وغيره :** إن المراد سمعه وبصره ، ويداه ورجلاه وجوارحه ، وكلها تشهد عليه بالحق .

وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ . ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه .

**وقال مجاهد :** معاذيره حجته .

**قال ابن كثير :** والصحيح قول مجاهد وأصحابه .

كقوله تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . (الأنعام : ٢٣) .

وكقوله تعالى : يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ . (المجادلة : ١٨) .

فإذا حاول الإنسان الإنكار شهدت عليه جوارحه ، ويقال له : كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . (الإسراء : ١٤) .

أى : لا مجال للإنكار فى ذلك اليوم ، لأنه اليوم الحق ، وهناك الحفظة والكرام الكاتبون ، لأنه يوم يحق فيه الحق، ويمحق الباطل .

★ ★ ★

## التفرغ التامُّ لسماع الوحى

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**لتعجل به :** لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلّت منك .

**إن علينا جمعه :** إن علينا جمعه فى صدرك لئلا يتفلّت منك .

**وقرآنه :** أى : قراءته ، أى إثباتها فى لسانك

**قرأناه :** قرأهُ جبريل عليك .

**فاتبع قرآنه :** فاستمع قراءته ، وكررها حتى ترسخ فى نفسك .

**بيانه :** تفسير ما فيه من الحلال والحرام ، وبيان ما أشكل من معانيه .

**العاجلة :** دار الدنيا .

**ناضرة :** متهللة بشرًا بما ترى من النعيم .

**ناظرة :** أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب .

**باسرة :** شديدة العبوس ، كالحة متغيرة مسودة .

**تظن :** تستيقن .

**فاقرة :** أى : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

**تمهيد :**

أخرج البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أُنزل الوحى يُحرّك به لسانه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ... [٨٤] .

وتُبيِّن الآيات فضل الله على نبيه ، فقد تكفّل الله تعالى لنبيه ﷺ بثلاثة أمور :

١ – جمع القرآن فى قلبه .

٢ -- قراءة القرآن على لسانه .

٣ – توضيح معانيه وإرشاده إلى بيان القرآن وتفسيره .

ثم تفيد الآيات ما يأتى :

الناس تؤثر العاجلة وتهمل الآخرة .

والناس فى الآخرة فريقان :

مؤمنون ناظرون إلى ربّهم ، وهى السعادة الكبرى ، والمنّة العظمى على المقربين من أهل الجنة .

وكافرون محجوبون عن رؤية الله عز وجل ، وجوههم يعلوها القتام والشحوب والآلام، ونفوسهم تتوقع العظائم والدواهى التى تكسر فقرات الظهر .

اللهم احفظنا ، وقنا عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

## التفسير :

١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ – ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ .

لا تتعجل بقراءة القرآن خلف جبريل ، خشية أن يضيع منك شىء من القرآن ، بل اصمت فترة قراءة جبريل ، وتفرّغ تماماً للاستماع والإنصات ، فقد تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن فى قلبك ، كما تكفّل الله بأن تقرأ القرآن بلسانك مرتّلا ، كما أُنزل عليك .

فتمهّل والزم السماع ، فإذا قرأه جبريل عليك وانتهى من الوحى ، فأتبع ذلك بقراءتك القرآن ، كما سمعته من جبريل عليه السلام .

**وتفيد الآيات ما يأتى :**

النهى عن تحريك الرسول ﷺ لسانه بالقرآن أثناء قراءة جبريل ، وقد تكفّل الله تعالى لرسوله ﷺ بثلاثة أمور :

١ – حفظ القرآن فى قلبه .

٢ – ضمان صيانة لسان الرسول ﷺ من الزلل عند تلاوته للقرآن .

٣ – شرح القرآن وتفسيره للرسول ﷺ .

وبذلك يكون الرسول ﷺ أعلم الناس بالقرآن الكريم : حفظا وتلاوة وتفسيرًا .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ .

أى : تكفلنا ببيان معانى القرآن لك ، وما فيه من الحلال والحرام والآداب والأحكام ، حتى تكون معانى القرآن واضحة فى فؤادك .

قال الزمخشرى :

كأنه كان يعجل فى الحفظ والسؤال عن المعنى جميعا ، كما ترى بعض الحُرَّاص على العلم .

ونحو الآية قوله تعالى : وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا . (طه : ١١٤)

٢٠ ، ٢١ - كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ .

أنتم يا بنى آدم تحبّون الدنيا ، وما فيها من شهوات ولذائذ ، وتتركون الآخرة وما توجب عليكم من صلاة وصيام ، وزكاة وحجّ ، وأكل الحلال ، والبعد عن الحرام والشبهات ، واتباع المأمورات ، واجتناب المنهيات .

٢٢ ، ٢٣ - وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ . أى فى الآخرة والقيامة . نَّاضِرَةٌ . مستبشرة ناعمة ، فرحة راضية .

قال تعالى : تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ . (المطففين : ٢٤ – ٢٦) .

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ .

وهذه الوجوه الناضرة تنال النعيم والقربى ، والسعادة والسرور بنظرها إلى ربّها ، ويكون ذلك أسعد شىء لأهل الجنة .

قال تعالى : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

فالحسنى هى الجنة، والزيادة هى تفضّل الله عليهم بالرِّضا فلا يسخط عليهم أبدا ، وبرؤية ربِّهم سبحانه وتعالى ، رؤيةً منزهة عن الكم والكيف ، والطول والعرض ، فنحن فى الدنيا عيوننا فانية والله باق ، والفانى لايرى الباقى ، فإذا كان يوم القيامة منحنا اللهُ أبصارًا باقية .

وقد طلب موسى رؤية الله فى الدنيا ، فلم يُجب إلى ذلك [٨٥]. أمَّا فى الآخرة فإن الثابت عند أهل السنّة والجماعة أن أهل الدرجات العالية فى الجنة يرون ربهم ، رؤية نؤمن بها ونفوّض حقيقة المراد منها إلى الله تعالى .

وفى منظومة الجوهرة ، وهى منظومة فنية فى علم التوحيد :

ومنه أن يدرك بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار

أى : من عقيدة أهل السنة والجماعة أن السعداء فى الجنّة يرون ربهم ، بدون تحديد بصفة أو جهة أو مسافة ، وهذه الرؤية هى أعلى نعيم ، وأسمى غاية لأهل الفضل والدرجات العُلى فى الجنة .

وقد ثبتت هذه الرؤية فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ، وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث الصحيحة فى تأييد رؤية المؤمنين لربهم فى الدار الآخرة ، نسوق منها ما يأتى :

فى الصحيحين ، عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلي القمر ليلة البدر ، فقال : «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا» [٨٦] .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عزَّ وجلَّ إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» [٨٧].

وفى صحيح مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة – قال – يقول الله تعالى : تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال : فيكشف الحجاب ، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة» ، ثم تلا هذه الآية : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ...﴾ (يونس : ٢٦) . [٨٨] .

ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عزَّ وجل فى العرصات وفى روضات الجنات .

وروى الإمام أحمد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين»[٨٩] .

قال الحسن : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . قال : حسنة . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . قال : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنضر وهى تنظر إلى الخالق[٩٠] .

٢٤ - وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ .

وفريق آخر من الكفار ترى وجوههم يوم القيامة كالحة ، شديدة السَّواد ، يعلوها القتام والذلّة والعبوس .

٢٥ - تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ .

تتوقع أن ينزل بها عذاب أدهى وأعظم مما تلقاه فى جهنم.

فَاقِرَةٌ . أى : داهية تقصم فقار الظهر ، لشدّتها وسوء حالها ووبالها .

وشتان ما بين المرتبتين :

فالمتَّقون فى جنات النعيم ، ورضوان رب العالمين ، ورؤية الله تعالى تكريما لهم .

والكافرون وجوههم كالحة ذليلة ، مسودة يعروها القتام ، وتتوقع أن تنزل بها ألوان العذاب التى تقصم الظهور.

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... (آل عمران : ١٠٦) .

وقوله سبحانه وتعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ - ٤٢) .

★ ★ ★

## تفريط الكافر فى الدنيا ، وإثبات البعث

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**كلا :** ردع عن إيثار العاجلة على الآجلة .

**بلغت التراقى :** وصلت الروح لأعالى الصدر .

**مَنْ راق :** من يداويه أو يرقيه ليشفى مما نزل به .

**وظنّ :** وتيقن المحتضر .

**أنه الفراق :** أن هذا الذى نزل به هو فراق الدّنيا .

**والتفت الساق بالساق :** التصقت ساقه بساقه ، والتوت عليها عند رعدة الموت ، وقيل : الساق كناية عن الشدة ، ومنه : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق .

**المساق :** سَوْق العباد إلى الجزاء .

**يتمطى :** يتبختر فى مشيته اختيالاً .

**أولى لك فأولى :** هلاك لك أيها المكذِّب ، أو قاربك ما يُهلكك .

**سُدى :** مهملاً ، فلا يُكلف بالشرائع ولا يُجازى .

**نطفة من مَنِىّ يمنى :** ماء المنى يصب ويراق من الأصلاب فى الأرحام .

**فسوّى :** فعدَّله وكمَّله ونفخ فيه الروح .

**الزوجين :** النوعين .

**تمهيد :**

تَصِف الآيات حالة الاحتضار ونزول الموت بالإنسان ، وتفلّت الدنيا من بين يديه ، وإقبال الآخرة عليه .

وقيل : نزلت الآيات فى أبى جهل حين مشى إلى أهله مختالاً مفتخرًا ، فقال له النبى ﷺ : «أولى لك، فأولى ، ثم أولى لك فأولى» .

ثم أقامت الآيات الدليل على صحة البعث من وجهين :

١ – أن يثاب الطائع ويعاقب العاصى .

٢ – كما قدر سبحانه على الخلق الأوّل ، وأوجد الإنسان من منى يمنى ، فإنه قادر على الإعادة والبعث .

**التفسير :**

٢٦ – كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ .

كَلَّآ . ردع وزجر عن إيثار العاجلة ، أى : ارتدعوا يا معشر المشركين عن ذلك ، وتنبَّهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر ، فالموت يدرك كل حىّ ، ومن مظاهره بلوغ الروح التراقى ، وهى عظام الصدر ، ويكنى بذلك عن القرب من الموت ، ومنه قول ابن الصمة :

وربِ عظيمة دافعْت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقى

٢٧ – وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ .

أى : قال أهل الميت وأقاربه : من راقٍ يرقيه ، رغبة فى شفائه ، أو طبيب يداويه ، ويطبّ ويشفى هذا المريض .

٢٨ – وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ .

أيقن المحتضر بنهاية الحياة ، وبداية الممات .

قال الإمام الرازى : ولعله إنما سمَّى اليقين هنا بالظنّ ، لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حُبِّه لهذه الحياة العاجلة ، ولا ينقطع رجاؤه عنها ، فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة .

٢٩ ، ٣٠ - وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ .

انتهت الحياة ، والتصقت ساق بساق والتوت عليها عند هلع الموت ، فالساق هنا ساق حقيقية .

ويصح أن يراد بالساق الشدّة ، ومنه : وقفت الحرب على ساق .

**وقال ابن عباس** : التفت شدة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة .

**ونحوه قول عطاء** : اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصّديق ، وشدة القدوم على ربه عز وجل .

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ .

أى : إلى الله عز وجل مساق العباد ، ورجوعهم من الدنيا إلى الآخرة .

قال تعالى : إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ . (العلق : ٨) .

وفى الآخرة يجازى كل إنسان بعمله ، ويدخل الأخيار الجنة ، ويساق الفجار إلى النّار .

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ - فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ .

فلا صدق بالقرآن ، ولا صلّى للرحمن .

أو : لا صدَّق بالله ووحدانيته ، بل اتخذ الشركاء والأنداد ، وجحد كتبه التى أنزلها على أنبيائه .

وَلَا صَلَّىٰ . أى : لم يخضع لله راكعًا وساجدًا ، متبتلا ملتزما بالفرائض والأوامر ، مجتنبا للمحرمات والنواهى .

**قال أبو حيان فى البحر المحيط :**

والجمهور على أن هذه الآيات نزلت فى أبى جهل ، وكادت تُصرِّح به فى قوله : يَتَمَطَّىٰٓ . فإنها كانت مشيته ، ومشية قومه بنى مخزوم ، وكان يكثر منها .

وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

كذب بالقرآن ، وأعرض عن النبى محمد ﷺ ، وكان أبو جهل يأتى إلى النبى ﷺ فيسمع القرآن ، ثم يخرج مُعرضًا فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عنه الناس ويحذرهم منه .

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ .

ثم يذهب أبو جهل إلى قومه مختالا متكبرا ، متباهيًا بما فعل ، فخورًا بما ارتكب من الشرِّ .

والتعبير القرآنى يتهكم به ويسخر منه ، ويصوِّر حركة اختياله بأنه : يَتَمَطَّىٰٓ . يمطّ فى ظهره ، ويتعاجب تعاجبا ثقيلا كريها .

وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوة إلى الله ، يسمع ويُعرض ، ويتفنن فى الصدّ عن سبيل الله ، ويفتخر بما مكر وبما أفسد فى الأرض .

**٣٤ ، ٣٥ – أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ .**

ويلٌ لك أيها الشقىُّ ، ثم ويلٌ لك .

**قال المفسرون :**

هذه العبارة فى لغة العرب ذهبت مذهب المثل فى التخويف والتحذير والتهديد ، وأصلها أنها أفعل تفضيل من : وليه الشىء ، إذا قاربه ودنا منه ، أى : وليك الشرُّ وأوشك أن يصيبك، فاحذر وانتبه لأمرك . اهـ.

ونلحظ أن القرآن الكريم كان يقود معركة ثقافية ضد هؤلاء المكذبين ، فقد عرض القرآن أربعة أعمال لأبى جهل ، هى:

فلا صدق ، ولا صلى ، ولكن كذّب وتولّى ، ثم ردّ عليه بوعيد مكون من أربعة هى :

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ .

وفى الصحيح أن النبى ﷺ حذّر أبا جهل وتوعّده ، فاستكبر أبو جهل ، وأبى وأعرض، فقتله الله يوم بدر .

ثم عرض القرآن أدلة عقلية على وجوب البعث ، وسهولة وقوعه على الله تعالى .

**٣٦ – أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى .**

سُدًى . مهملا فى الدنيا لا يكلَّف بشرعٍ ، مهملاً فى القبر لا يُبعث ولا يُحاسب .

أيظن الإنسان أن يتركه الله فى الدُّنيا مهملاً ، بدون أن يرسل إليه الرسل ، وينزل إليه الكتب ، ويبين له الحلال والحرام ، والتشريع وأخبار الأوّلين ، ومشاهد القيامة والبعث والحشر ، والصراط والميزان .

أو أن يهمله فى قبره فلا يبعثه ليكافئ الصالحين ، ويعاقب الظالمين .

قال تعالى : إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ . (طه : ١٥) .

وقال عز شأنه : أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ .
(صٓ : ٢٨)

إذن لابد من دارٍ للثواب والعقاب ، والبعث والقيامة .

٣٧ – أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ .

استدلَّ القرآن فى هذه الآية وما بعدها على طلاقة القدرة التى قادت خلق هذا الإنسان ، وقد كان نطفة من منى يمنى ، يُقذف المنى من صلب الرجل إلى رحم المرأة، فيتمّ تلقيح البويضة ، وتحمل خصائص الأبوين مخصَّبة ملقحة .

٣٨ ، ٣٩ – ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ .

ثم تحولت النطفة الملقَّحة إلى مراحل معينة يمر بها الجنين ، فى بطن أمِّه ترعاها يد القدرة الإلهية ، من نطفة إلى علقة ، (قطعة دم تعلق بجدار الرَّحم ، وتمسك به تماما ليكون قراراً مكينًا لها) ، ثم تتحول إلى مضغة (قطعة لحم قدر ما يمضغه الإنسان ) ، ثم تتحول إلى عظام ، ثم يُكسى العظام لحما ، ثم يصبح خلقًا آخر متكاملا ، فيه كل وسائل الحياة .

مَنْ الذى خلق هذا الخلق منسقَ الأعضاء ، مؤلفًا جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ؟ من الذى قاد هذه الرحلة المديدة للجنين ، وهو خليقة صغيرة ضعيفة لا عقل له ولا مدارك ولا تجارب ؟ ثم فى النهاية .. من ذا الذى جعل منَ الخلية الواحدة الذكر والأنثى ؟

إنها اليد اللطيفة المدبرة التى قادت النطفة المراقة فى طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير .

فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ .

أى : فجعل من هذا الإنسان صنفين ونوعين : ذكرًا وأنثى ، بقدرته تعالى .

هذا هو أصل الإنسان وتركيبه ، تقوده يد القدرة الإلهية ، من منى يمنى إلى بشر متكامل ، هذا الخالق المدبّر اللطيف الخبير الذى أوجد الإنسان فى بداية حياته ، أليس قادرا على أن يعيده مرة أخرى ، وأن يحييه بعد مماته .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى أوائل سورة المؤمنون :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ١٢ – ١٦) .

٤٠ – أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ ٱلْمَوْتَىٰ .

أليس هذا الإله الخالق المبدع ، المنشئ للإنسان وللكون بقادر على أن يعيد الحياة مرة أخرى ، ويحيى الموتى ، ويبعثهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرّق من أجزائهم الأصلية ؟

بلى ، إنه قادر .

وكان ﷺ إذا وصل إلى قراءة هذه الآية قال : «سبحانك بلى» وأحيانا يقول : «سبحانك اللهم فبلى» .

وفى حديث صححه الحاكم قال ﷺ : «من قرأ : لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ . فانتهى إلى : أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ ٱلْمَوْتَىٰ . فليقل : بلى» : أى : بلى قادر .

★ ★ ★

تم تفسير سورة (القيامة) بحمد الله تعالى عصر يوم السبت ١٣ من المحرم ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١/٤/٧ ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★



# تفسير سورة الإنسان

# أهـــداف ســـورة الإنســـان

(سورة الإنسان مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٣١ آية ، نزلت بعد سورة الرحمن)

وقد اختلف فى مكيتها ومدنيتها ، وفى المصحف المتداول أنها مدنية ، ولكن آيات السورة وسياقها وموضوعاتها تحمل الطابع المكى ، وهى أقرب إلى أن تكون مكية .

والمكى من القرآن هو ما نزل بمكة قبل الهجرة ، والمدنى هو ما نزل بالمدينة بعد الهجرة .

وهناك سور متفق على مكيتها ، وسور متفق على مدنيتها ، وسور مختلف فيها ، من العلماء من يرى أنها مدنية ، ومنهم من يرى أنها مكية ، ومن هذه السور سورة الإنسان .

وقد غلب على السور المكية الحديث عن الألوهية ، والتحذير من عبادة الأصنام ، والتذكير بالبعث والجزاء ، ولفت الأنظار إلى مشاهد الكون ونواميسه ، وآيات الله فى الآفاق ، ودلائل القدرة الإلهية فى الخلق والنفس .

وغلب على السور المدنية وصف غزوات الرسول ﷺ ، وحالات المجتمع المدنى ، والحديث عن المنافقين واليهود ، والعناية بتشريع الأحكام ، ونظام المجتمع ودعائم الحكم السليم .

والقرآن فى مجموعه كتاب هداية ، ودعوة إلى القيم ومكارم الأخلاق ، وحث على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودعوة إلى تهذيب النفس ، وحث على الفضيلة والاستقامة ، وتقوى الله ومراقبته .

وهذه المعانى نجدها فى السور المكية والمدنية ، وفى السور المختلف فى مكيتها ومدنيتها ، كسورة الإنسان .

ولا نملك نحن إلا أن نقول : سورة الإنسان سورة من القرآن الكريم يختلف الترجيح فى مكيتها ومدنيتها ، ونرى أن أسلوبها أقرب إلى أسلوب القرآن المكى ، وبذلك تكون جميع سور جزء (تبارك الذى بيده الملك) مكية .

## تسلسل أفكار السورة

سورة الإنسان نداء رخيٌّ نديٌّ للإنسان أن يتذكر أصله الذى خلق منه ، ويتذكر فضل الله عليه ، حيث خلقه بشرًا سويا ، ويسر له طريق الخير والشر ، ليختار بإرادته وكسبه ، وعقله وطاقاته ومداركه .

وبذلك تذكر السورة أصل الخلق ، والمدارك والطاقات التى منحها الله للإنسان ، وميَّزه بهذا على جميع المخلوقات ، حيث منحه الإرادة والاختيار ، والسمع والبصر ، ليسمع ويرى ويفكر ويتدبر ، ثم يختار بإرادته وكسبه ، وهذه ميزة خاصة بالإنسان وحده فى هذا الكون .

فالملاك مطيع طاعة مطلقة ، والحيوان مزود بالإدراك دون الاختيار ، والكون كله مسخر بمشيئة الله ، وخاضع لنواميسه خضوع القهر والغلبة .

والإنسان زُود بالعقل ليختار الطاعة لله أو المعصية ، وهذا هو أساس الابتلاء والاختبار ، فإن أطاع صار أهلا لرضوان الله وجنته ، وإن عصى صار أهلا لغضبه وناره .

وقد ذكرت السورة عذاب أهل النار فى آية واحدة ، وهى الآية الرابعة ، واسترسلت فى وصف نعيم أهل الجنة وثوابهم فى الآيات من (٥ – ٢٢) ، أى فى جزء كبير من السورة.

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول الأمين ﷺ ، لتثبيته على الدعوة ، وتوجيهه إلى الصبر ، وانتظار حكم الله فى الأمر ، والاتصال بربه ، والاستمداد منه كلما طال الطريق ، وذلك فى الآيات من (٢٣ – ٢٦) .

وفى الجزء الأخير من السورة تذكير للكافرين باليوم الثقيل الذى لا يحسبون حسابه ، والذى يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله الذى خلقهم ، ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ، لولا تفضله عليهم بالبقاء لتمضى مشيئته فى الابتلاء ، ويلوح فى ختام السورة بعاقبة الابتلاء ، وذلك فى الآيات من (٢٧ – ٣١) .

## مع آيات السورة

١ – قد أتى على هذا النوع – نوع الإنسان – زمن لم يكن موجودا ، حتى يعرف ويذكر .

**والحين** : طائفة من الزمان غير محدودة ، وعن ابن عباس وابن مسعود : أن الإنسان ههنا آدم ، والحين محدود ، وذلك أنه مكث أربعين سنة طينا ، إلى أن نفخ فيه الروح فصار شيئا مذكورا بعد كونه كالمنسى [٩١] .

٢ – إنا خلقنا الإنسان من نطفة ، اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة ، مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد ، إذا شبَّ وبلغ الحلم ، فجعلناه سميعا بصيرا ليتمكن من استماع الآيات ، ومشاهدة الدلائل ، والتعقل والتفكر .

ومقصود الآية : نحن نعامل الإنسان معاملة المختبر له ، أيميل إلى أصله الأرضى فيكون حيوانا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهيا معتبرا بالسمع والبصر والفكر ؟

٣ – بيَّن الله للإنسان الطريق السوى ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهو بالخيار ، إما أن يكون شاكرا لنعماء الله ، فيسير فى الطريق الواضح المرسوم ، وإما أن يكون كافرا فيعرض ويكفر ، ويختار الضلال على الهدى .

٤ – إنا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا سلاسل للأقدام ، وأغلالاً تشدّ بها أيديهم إلى أعناقهم ، كما يُفعل بالمجرمين فى الدنيا ، ونارا تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين .

ثم تصف الآيات بعد ذلك نعيم المتقين ، وصفا طويلا لم نجد مثله فى سورة سابقة ، ويستمر هذا الوصف من الآية (٥) إلى الآية (٢٢) ، أى (١٨) آية من مجموع آيات السورة وهى (٣١) آية ، أى أن أكثر من نصف السورة يصف نعيم المتقين وحُليّهم وملابسهم وخدمهم ، وما هم فيه من نعمة ورضوان وملك كبير.

ولنسر مع هذه الآيات التى تصف نعيم المتقين :

٥ ، ٦ – إن شراب الأبرار فى الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه فى كأس تُغترف من عين تُفجَّر لهم تفجيرا فى كثرة ووفرة ، وينتفعون بها كما يشاءون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان ، يحبون وصولها إليه .

**قال مجاهد** : يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيث مالوا [٩٢] .

٧ – كانوا يوفون بالنذر فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات وما التزموا من الواجبات ، أى أنهم يؤدون ما أوجبه الله عليهم بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بالنذر .

وهم يستشعرون الخشية من يوم القيامة ، ذلك يوم شديد عذابه ، عظيم خطره ، كالنار يتطاير شررها فيعم شرُّها .

٨ – وكانوا يطعمون الطعام ، ويقدمون المعونة النافعة لكل مسكين عاجز عن الاكتساب ، ولكل يتيم مات كاسبه ، ولكل أسير لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة .

٩ – وحين يقدمون الطعام والمعونة النافعة لكل مسكين عاجز عن الاكتساب ، ولكل يتيم مات كاسبه لا يترفعون على عباد الله ولا يشعرون بالاستعلاء والعظمة ، إنما يقدمون المعونة فى إخلاص وتجرد لوجه الله ، ولا ينتظرون شكرا ولا إعلانا .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ، ليرغب فى ذلك راغب [٩٣] .

١٠ – لقد أخرجوا الصدقة لوجه الله ، ولسان حالهم يقول : إنا نفعل ذلك ليرحمنا ربنا ، ويتلقانا بلطفه فى يوم عبوس ، تعبس فيه الوجوه ، قمطرير شديد العبوس .

قال النسفى : وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء ، نحو : نهارك صائم ، والقمطرير شديد العبوس ، الذى يجمع ما بين عينيه .[٩٤] .

١١ – فحفظهم الله من شر ذلك اليوم ، وكسا وجوههم نضرة ونضارة ، وتنعما وفرحا وسرورا.

١٢ – وجزاهم بصبرهم على الإيثار والتزامهم بأمر الله جنة يسكنونها ، وحريرا يلبسونه .

ثم تصف الآيات مساكن أهل الجنة ، وشرابهم وأوانيه وسقاته ، وما تفضل به عليهم ربهم ، من فاخر اللباس والحلى ، وأصناف النعيم فتقول :

١٣ – هم فى جلسة مريحة مطمئنة ، الجو حولهم رخاء ناعم ، دافئ فى غير حر ، ندى فى غير برد ، فلا شمس تلهب النسائم ، ولا زمهرير وهو البرد القارس .

١٤ – ظلال الجنة قريبة من الأبرار ، مظللة عليهم ، وقطوفها وثمارها قريبة دانية فى متناول أيديهم ، ينالها القائم والقاعد والمتكئ .

١٥ –١٩ – يُطاف عليهم بآنية من فضة بيضاء ، فى صفاء الزجاج ، فيُرى ما فى باطنها من ظاهرها ، مما لم تعهده الأرض فى آنية الفضة ، وهى بأحجام مقدرة تقديرا ، يحقق المتاع والجمال ، ثم هى تمزج بالزنجبيل كما مُزجت مرة بالكافور ، وهى كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا ، لشدة عذوبتها واستساغتها للشاربين ، وزيادة فى المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الآوانى والأكواب هم غلمان صباح الوجوه ، لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تدركهم السن ، فهم مخلدون فى سن الصباحة والصبا والوضاءة ، وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور .

٢٠ – تجمل هذه الآية خطوط هذا النعيم ، وتلقى عليه نظرة كاملة فاحصة ، تلخص وقعه فى القلب والنظر ، فإذا نظرت فى الجنة رأيت نعيما عظيما ، وملكا كبيرا لا يحيط به الوصف .

٢١ – ثم تخصص هذه الآية مظهرا من مظاهر النعيم والملك الكبير ، فتقول : إن لباس أهل الجنة السندس ، وهو الحرير الرقيق ، والإستبرق وهو الحرير السميك المبطن ، وقد حُلوا أساور من فضة ، وتدرج نعيمهم فى الارتقاء إلى مدارج الكمال ، حتى وصل إلى : وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ . وأضاف السقى إلى ذاته للتشريف والتخصيص . شَرَابًا طَهُورًا . مبالغة فى طهارته ونظافته بخلاف خمر الدنيا ، فهو عطاء كريم من معطٍ كريم، وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم .

٢٢ – ثم ختم وعدهم بالود والتكريم ، فقال : إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا .

أى : يُقال لهؤلاء الأبرار هذا القول ، زيادة فى سرورهم : إن هذا الذى أعطيناكم من الكرامة ، كان ثوابا على أعمالكم الصالحة ، وكان عملكم فى الدنيا مشكورا، حمدكم عليه ربكم ورضيه لكم ، فأثابكم به من الكرامة .

وهذا النطق من الملأ الأعلى يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها ، لأنها جزاء على عمل ، وثواب لإنسان اختار الهدى والطريق المستقيم والعمل الصالح ، فاستحق النعيم والتكريم .

٢٣ – وبعد أن بيّن الله سبحانه ما فى الجنة من نعيم ، ذكّر نبيه ﷺ بنعمة الرسالة تسلية لفؤاده ، وحثا له على الصبر والثبات ، فقال : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً .

إن القرآن من عند الله تعالى ، أنزله منجما مفصلا فى ثلاث وعشرين سنة ، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته ، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التى تَجِدُّ فى الكون ، فتكون تثبيتا لإيمان المؤمنين وزيادة فى تقوى المتقين .

٢٤ – اصبر على أمر الله واثبت على الحق ، ولا تتبع أحدا من الآثمين إذا دعاك إلى الإثم ، ولا من الكافرين إذا دعاك إلى الكفر ، إن الأمور مرهونة بقدر الله ، وهو يمهل الباطل ويُملى للشر ، كل أولئك لحكمة يعلمها يجرى بها قدره ، وينفذ بها حكمه : فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا .

ونهيه ﷺ عن طاعة الآثم والكفور – وهو لا يطيع واحدا منهما – إشارة إلى أن الناس محتاجون إلى مواصلة الإرشاد ، لما رُكّب فى طباعهم من الشهوة الداعية إلى اجتراح السيئات ، وأن أحدا لو استغنى عن توفيق الله وإرشاده لكان أحق الناس بذلك هو الرسول المعصوم ﷺ .

٢٥ ، ٢٦ – ودُم على ذكره فى الصباح والمساء ، والخلوة والجلوة ، وصلِّ بعض الليل كصلاتى المغرب والعشاء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلا ، لأنه مصدر القوة والعناية ، و ينبوع العون والهداية ،

ومن وجد الله وجد كل شئ ، فالصلة به هى السعادة الكبرى ، والعناية العظمى ، والزاد الحقيقى الصالح لهذه الرحلة المضنية فى طريق الحياة .

٢٧ – إن هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا ، وتعجبهم زينتها ، وينهمكون فى لذتها الفانية ، ويتركون اليوم الثقيل الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير ، بعد الحساب العسير .

والآية تثبيت للنبى ﷺ والمؤمنين فى مواجهة المشركين ، إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

٢٨ – يتلو ذلك التهديد التهوين من أمرهم عند الله ، الذى أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم ، فهم لا يعجزون الله بقوتهم ، وهو الذى خلقهم وأعطاهم إياها ، وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم ، فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته ، وهو قضاؤه وحكمته .

٢٩ – إن هذه السورة بما فيها من ترتيب بديع ، ونسق عجيب ، ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب هى تذكرة وتبصرة لكل ذى عقل وبصيرة ، فمن شاء الخير والنجاة لنفسه فى الدنيا والآخرة فليتقرب إلى ربه بالطاعة ، وليصدق بالقرآن والرسول الكريم ﷺ فذلك هو الطريق إلى الله .

٣٠ – ويعقب على ذلك بإطلاق المشيئة ، ورد كل شئ إليها ليكون الاتجاه الأخير إليها ، والاستسلام الأخير لحكمها : وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...

أى : وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ، ولا تقدرون على تحصيلها ، إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لنيلها . ذلك كى تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا . بما يصلح العباد . حَكِيمًا . وضع كل إنسان فى موضعه من الهداية والضلال ، فهو يعين المتقين على القيام بواجبهم ، ويسلب عونه عن المشركين ، فيتيهون فى بيداء الضلال .

٣١ – يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ... فيهديه ويوفقه للطاعة بحسب استعداده . وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا . وقد أملى لهم وأمهلهم ، لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم .

وهذا الختام يلتئم مع المطلع ، ويصور نهاية الابتلاء الذى خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج ، ووهبه السمع والإبصار ، وهداه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار .

## مجمل ما تضمنته السورة

اشتملت سورة الإنسان على خمسة مقاصد :

١ – خلق الإنسان .

٢ – جزاء الشاكرين والجاحدين .

٣ – وصف النار وصفا قصيرا فى آية واحدة ، ووصف الجنة وصفا مسهبا فى قرابة (١٨) آية .

٤ – ذكر المنّة على رسول الله ﷺ ، وأمره بالصبر وقيام الليل .

٥ – المنّة على الخلق بإحكام خلقهم ، وإضافة كلية المشيئة إلى الله تعالى .

أسماء السورة :

لهذه السورة ثلاثة أسماء :

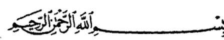
١ – سورة : هَلْ أَتَىٰ . لمفتتحها .

٢ – سورة الإنسان لقوله تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ .

٣ – سورة الدهر لقوله تعالى : حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ .

★ ★ ★

## خلق الإنسان



﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾

**المفردات :**

**هل أتى :** قد أتى .

**الإنسان :** آدم عليه السلام .

**حين :** وقت وزمان ، وقيل : طائفة محدودة من الزمان ، شاملة الكثير والقليل .

**الدهر :** الزمان الممتد غير المحدود ، ويقع على مدة العالم جميعها ، وعلى كل زمان طويل غير معين .

**من نطفة :** من ماء يقطر وهو المنيّ . وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة .

**أمشاج :** أخلاط ، جمع مَشَج (بفتحتين) ، كسبب وأسباب ، يقال : مشجت الشيء ، إذا خلطته ، أى : من اختلاط ماء الرجل وماء المرأة وامتزاجهما .

**نبتليه :** نختبره بالتكليف ، أى : مريدين اختباره عند التكليف والتأهّل .

**فجعلناه :** بسبب ذلك .

**سميعا بصيرا :** ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات .

**هديناه السبيل :** بينّا له طريق الهداية وطريق الضلال ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ومنحه العقل والفكر والإرادة والاختيار .

**تمهيد :**

تفيد التوراة أن الله تعالى ألقى الكرة الملتهبة ، فانفصلت منها السماء والأرض ، ويفيد القرآن الكريم أن الكون ظلّ مدّة طويلة من الزمان غير صالح لحياة الإنسان عليه ، حيث كانت السماء صمًّاء لا تمطر ، والأرض صمّاء لا تنبت ، وذلك بسبب شدة الحرارة فى كل منهما ، ثم هدأت الحرارة فى الأرض والسماء ، وفتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات ، وتكوّن الهواء والفضاء ، والغشاء الحاجز الواقى للأرض ، من مجموعات الشهب والنيازك .

وقد عقد مؤتمر علمى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى أبريل ١٩٩٣ م تقريبا ، للبحث فى عمر الكون، وانتهى المؤتمر إلى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، منها ٦ بلايين سنة كان الكون ملتهبا لا يصلح لحياة الإنسان عليه ، وعمر الإنسان على ظهر الأرض قرابة ٧ بلايين سنة .

وقد أفاد القرآن الكريم أن الله خلق الكون فى ستة أيام ، منها يومان لخلق الأرض ، ويومان لخلق البحار والأنهار والنبات والجبال ووسائل إعمار الأرض ، ومنها يومان لخلق السماء وما فيها من نجوم وأبراج وأفلاك ، وقد استجابت السماء والأرض لأمر الله وأظهرتا الخضوع والانحناء والانقياد لأمر الله ، وقالتا : أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . (فصلت :١١) . فالكون كله خاضع لأمر الله وتقديره وحسن رعايته .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء :٣٠) .

وقال تعالى : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَـٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . (فصلت : ٩ -١٢) .

**التفسير :**

١ - هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا .

قد أتى على الإنسان زمن طويل ، لم يكن موجودًا فى هذا الكون ، فقد كان فى عالم العدم ، ثم خلق الله آدم بعد خلق الكون بستة بلايين سنة ، وكأنّ الحق سبحانه وتعالى خلق الكون فى ستة أيام ، وقضى بأن يترك الكون هذه المدة فى الخلق والوجود ، حتى يكون بعد هذه المدّة صالحا لوجود الإنسان عليه ،

حيث كانت السماءُ رتقاء لا تمطر ، والأرضُ بالتالى لا تنبت ، وعندما وُجد الإنسان على ظهر الأرض ، وُجد الماء ، وجعله الله سبب الحياة ، والنبات والرزق ، واستمرار الأحياء على ظهر الأرض .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

أى أن الله تعالى هيّأ للإنسان البيت الذى سيسكنه وهو الكون ، فجعل السماء الصمَّاء تَتَفتق بالمطر ، وجعل الأرض الصماء تتفتق بالنبات ، وجعل الماء أساس الحياة بقدرة الله .

ثم إن الذى أوجد الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد الموت للبعث والحشر والحساب والجزاء .

قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ... (الروم : ٢٧) .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الإنسان أنَّه أوجده بعد أن لم يكن شيئا يُذكر لحقارته وضعفه . اهـ .

وقال المفسرون : هَلْ أَتَىٰ . بمعنى قد أتى.

والغرض من الآية :

تذكير الإنسان بأصل نشأته ، فقد كان شيئًا منسيًّا ، لا يفطن له ، وكان فى العدم ذرة فى صلب أبيه ، وماءً مهينا ، لا يعلم به إلا الذى يريد أن يخلقه ، ومرّ عليه حينٌ من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه ، ثم خلقه الله وأبدع تكوينه وإنشاءه ، بعد أن كان مغمورًا ومنسيا لا يعلم به أحد .

٢ - إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا.

لقد خلقنا الإنسان من ماء مهين هو المنىّ الذى ينطف من صلب الرجل ، ويختلط بماء المرأة فيتم تلقيح البويضة ، ويتكون منهما هذا المخلوق العجيب وهو الإنسان .

أَمْشَاجٍ . أى : أخلاط ، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، أو يشير إلى اختلاط الصفات الوراثية فى الرجل بالصفات الوراثية فى المرأة ، ومع الصفات المتعددة لكل منهما يخلق الله بشرا سويا يحمل خصائص وراثية ، لها خريطة بديعة ، صنع الله الذى أتقن كل شئ.

وقال ابن عباس : أَمْشَاجٍ . أى : أطوار مختلفة ، فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة ، وهكذا إلى تمام الخلق ونفخ الروح .

نَّبْتَلِيهِ . نجعله صالحا للاختبار والابتلاء والتكليف فيما بعد .

فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا.

أعطيناه السمع ليسمع أدلة الحق والهدى ، والبصر ليُميِّز النور من الظلام ، والنافع من الضارّ، والإيمان من الكفر.

ويُطلقُ السمع والبصر ويراد بهما أدلة التعقُّل والتمييز والاختيار .

وقد يراد بهما الحاسَّتان المعروفتان ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواسّ وأشرفها .

٣ – إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .

بينَّا له الطريق ، ووضَّحنا له الفكرة ، من خلق الإنسان عاقلا سميعا بصيرا ، متمتعا بالعقل والإراده والاختيار ، والفهم والتبصّر ، حتى يختار بنفسه طريق الهدى والإيمان والشكر لله تعالى ، أو يختار طريق الكفر والطغيان وإيثار الهوى على الهدى ، والكفر على الإيمان .

وكأنَّ الآية نداءٌ جهير لهذا الإنسان ، تؤكد أن الله أوضح لك سبل المعرفة ، وأعطاك العقل والإرادة والسمع والبصر ، وأدوات الفكر والتبصّر .

قال تعالى : وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ . (البلد : ١٠) . أى : بينَّا له طريق الخير وطريق الشر ، وهو الذى يؤثر أحدهما على الآخر .

قال تعالى : فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ . (النازعات : ٣٧ – ٤١) .

* * *

## جزاء الكفّار والأبرار يوم القيامة

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

**المفردات :**

**سلاسل :** قيودًا بها يقادون ، وبها فى النار يسحبون .

**أغلالا :** جمع غلّ ، تجمع بها أيديهم إلى أعناقهم ويقيّدون .

**كأس :** خمر ، أو زجاجة فيها خمر .

**مزاجها :** ما تُمزج الكأس به وتُحفظ .

**كافورا :** ماء الكافور فى حسن أوصافه .

**عينا :** ماء عين ، أو خمر عين .

**يشرب بها :** يشرب منها أو يرتوى بها .

**يفجّرونها :** يُجْرُونها حيث شاءُوا من منازلهم .

**يوفون بالنذر :** إذا نذروا طاعة فعلوها .

**شرّه :** عذابه وأهواله .

**مستطيرا :** فاشيا منتشرًا غاية الانتشار .

**يوما عبوسا :** تكلح فيه الوجوه لهوله .

**قمطريرا :** شديدًا صعبًا ، كأنه التفّ شرّه بعضه ببعض .

**تمهيد :**

تحدثت السورة عن جزاء الكافرين وعذابهم فى النّار بالسلاسل والأغلال والقيود والنار المستعرة ، وذلك فى آية واحدة .

ثم تحدثت فى (١٧) آية عن ألوان نعيم المتقين فى الجنة ، لتُبين أن رحمة الله واسعة ، وأن رحمته سبقت غضبه ، فقد تكلّم عن عذاب الكفار فى آية واحدة ، وأعقب ذلك بالحديث عن المتقين ونعيمهم فى الجنة فى (١٧) آية . وهذا أطول حديث عن المتقين ونعيمهم فى الجنة ، لايزيد عليه إلاَّ الحديث عن السابقين وأصحاب اليمين فى سورة الواقعة .

**التفسير :**

٤ - إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَاْ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا .

إنا أعددنا للكافرين بالله سلاسل يقادون بها فى جهنم ، كلُّ سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا ، وأغلالاً وقيودًا تقيِّد بها أيديهم إلى أعناقهم ، لمزيد من الهوان والإذلال .

**قال الحسن** : تُجعل الأغلال فى أعناق أهل النار ، لا لأنهم أعجزوا الله ، ولكن إذلالاً لهم .

كما أعد لهم نارًا تتأجَّج ، وهى النار الموقدة المسعَّرة التى يحرقون بها ويذوقون ما فيها من عذاب وهوان .

ونظير الآية قوله تعالى : إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ . (غافر : ٧١ ، ٧٢)

٥ ، ٦ - إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا .

يبدأ الحديث عن النعيم الذى يلقاه الأبرار فى الجنة :

إنهم يشربون خمرًا حلالاً طيبة ، مزاجها الكافور ، وخمر الجنة كلها لذة ومتعة ، ومع ذلك تمزج بكافور بارد أبيض طيب الرائحة ، ليكمل ريح الخمر وطعمها ويطيب ، ويمزج بماء عين يشرب منها عباد الله الصالحون ، يجرونها إلى حيث يريدون من منازلهم وقصورهم ، وينتفعون بها كما يشاءون ، ويشقّونها شقًّا كما يشق النهر ويتفجر الينبوع ، فهم يشيرون إلى الماء فيسير حيث أرادوا ، ويجرى حيث شاءوا من مجالسهم ومحالّهم .

يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا .

والتفجير : الإنْباع ، فهى تنبع من المكان الذى يرغبون أن تنبع منه ، وتسير حسب رغباتهم ، زيادة فى إكرامهم وإسعادهم .

قال ابن كثير :

يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا .

أى : يتصرفون فيها حيث شاءوا ، وأين شاءوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالّهم .

وقال مجاهد :

يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يقودونها حيث شاءوا ، ويصرّفونها حيث شاءوا .

٧ - يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا .

إذا نذروا نذرًا للّه من صلاة أو صيام ، أو صدقة أو حج أو غيرها ، وفوْا بالنذر ، ومن وفّى بما أوجبه على نفسه ، كان بما أوجبه الله عليه أشد وفاء .

أى : إنهم يؤدُّون الواجبات التى فرضها الله عليهم ، ويؤدون الواجبات التى فرضوها على أنفسهم ، مخافة يوم القيامة الذى تتشقق فيه السماء ، وتتناثر الكواكب ، وتُنْسفُ الجبال ، وتفجَّر البحار ، ويشيب الولدان ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وفيه غير ذلك من الأهوال ، ممتدة منتشرة فاشية .

قال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم ، حتى بلغ السماوات والأرض .

٨ - وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا .

ويُطعمون الطعام للمحتاجين إليه ، ويقدمون الطعام للجياع والفقراء والمحتاجين والأسارى .

قال المفسرون : والمراد من إطعام الطعام : الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأىِّ وجه كان ، وإنما خُصَّ الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان ، فلا جرم أن عُبِّر به عن جميع وجوه المنافع .

والمسكين : هو العاجز عن الاكتساب ، واليتيم : هو الذى مات أبوه وهو صغير ، فعُدِم الناصر والكفيل ، والأسير : هو من أُسر فى الحرب من المشركين .

وقد كان النبى ﷺ يوصى المسلمين بإكرام الأسرى ، فكان المسلمون يكرمونهم ويؤثرونهم على أنفسهم ، وكلمة (الأسير) تشمل من كان من المسلمين ومنْ كان من غير المسلمين .

فمن صنيع هؤلاء الأبرار الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين واليتامى ، وإكرام الأسرى ، وسائر الفئات المحتاجة للعطف والصدقة ، حِسْبةً لوجه الله تعالى ، لا يفعلون ذلك تظاهرًا أو رياءً ، أو رغبةً فى الثناء والحمد .

٩ - إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا .

إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وثوابه ، والدار الآخرة ، لا نطلب منكم على الإحسان شكرا ولا محمدة ولا ثناء ، ولا أن تشكرونا لدى الناس .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ، ليرغب فى ذلك راغب .

١٠ - إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا .

إنما نفعل ذلك الإطعام لوجه الله ولأننا نخاف الآخرة والحساب والجزاء ، ونخشى موقف الخلائق فى يوم يشتد عبوس أهله ، فسُمى اليوم عبوساً لشدة عبوس أهله ، وكلوح وجه من فيه ، وتقطيب وجوههم وجباههم .

قال الطبرى : يقال : يوم قمطرير ، أى : شديد عصيب .

فهم يخافون هول يوم القيامة ، وشدة قسوته وصعوبته وطوله .

١١ - فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا .

حماهم الله وحفظهم من شر ذلك اليوم وشدته وهوله ، وأعطاهم نضرةً فى وجوههم ، وسرورا فى قلوبهم ، لقد عمت السعادة قلوبهم ، وظهر ذلك فى نضرة وجوههم .

قال تعالى : تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ . (المطففين : ٢٤) .

قال ابن كثير :

وهذا كقوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . (عبس : ٣٨ ، ٣٩) .

وذلك أن القلب إذا سُرّ استنار الوجه ، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل : وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر . وقالت عائشة رضى الله عنها : دخل علىّ رسول الله ﷺ مسرورًا تُبْرِقُ أسارير وجهه ... الحديث .

١٢ - وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا .

بسبب صبرهم على الطاعات يفعلونها . كالصلاة والصيام والزكاة ، وبسبب صبرهم عن المعاصى يبعدون عنها ، وبسبب صبرهم على المصائب ، أدخلهم الله الجنّة ، يتمتعون فيها بألوان النعيم ، ويجدون فيها ما لذ وطاب : منزلا رحبا ، وعيشا رغدًا ، ولباسًا حسنًا ، ومن لبس الحرير من الرجال فى الدنيا لا يلبسه فى الآخرة ، نعم .. لقد كافأهم الله بسبب صبرهم بالجنة ونعيمها ، وبالحرير يتمتعون به .

★ ★ ★

## مساكن أهل الجنة وأشربتهم وخدمهم

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسًا وَلَا زَمۡهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكۡوَابٍ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمًا وَمُلۡكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٌ وَإِسۡتَبۡرَقٌۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءً وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

**المفردات :**

**الأرائك :** جمع أريكة ، وهى سرير منجّد مُزَين ، فى بيت يزين بالقباب والأسِرّة والستور .

**زمهريرا :** بردًا شديدًا ، أو قمرًا .

**دانية عليهم ظلالها :** قريبة منهم ظلال أشجارها .

**ذللت قطوفها :** قربت ثمارها لمتناولها .

**آنية :** صحاف أو أوانى الطعام ، جمع إناء .

**أكواب :** جمع كوب ، وهو قدح لا عروة له ولا خرطوم .

**قوارير :** جمع قارورة ، وهى إناء رقيق من الزجاج ، توضع فيه الأشربة .

**قدروها :** جعلوا شرابها على قدر الرِّيّ .

**كأسا :** خمرًا ، أو زجاجة فيها خمر .

**زنجبيلا :** ماء كالزنجبيل فى أحسن أوصافه .

**تسمى سلسبيلا :** سهل الدخول فى الحلق لعذوبته وصفائه .

**يطوف عليهم :** يخدمهم برفق وعناية .

**ولدان :** جمع وليد ، وهو الصبى والعبد .

**مخلدون :** باقُون دائمون لا يهرمون .

**لؤلؤا منثورا :** كاللؤلؤ المفرَّق فى الحسن والصفاء .

**ثَمّ :** هناك فى الجنة .

**ثياب سندس :** ثياب من ديباج رقيق .

**إستبرق :** حرير غليظ .

**تمهيد :**

هذه الآيات استمرار فى وصف نعيم أهل الجنة ، فيها أوصاف مساكنهم ، وكيفية جلوسهم فيها ، وأشربتهم وأوانيهم ، وخدمهم واعتدال هوائهم ، ثم أشارت الآيات إلى تجمّلهم بمحاسن الثياب والحلىّ ، وذكرت فى النهاية أن هذه النعم جزاء عملهم .

**التفسير :**

**١٣ - مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا .**

يصف القرآن نعيم أهل الجنة ، فى جلوسهم هادئين هانئين مستمتعين ، متكئين فيها على الأسِرّة المظللة بالحجال والكِلل (الناموسية) ، داخل بيت يزيّن بالقباب والستور (أشبه بالبيت الذى أعدّه أحد الأغنياء لعروسه عند زفافها) .

وهواء الجنة معتدل ، لا فيه حرارة شديدة ، ولا برودة قويّة .

جاء فى الحديث : «هواء الجنة سَجْسج ، لا حَرّ ولا قرّ» والسجْسج : الظل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

١٤ - وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً .

ظلال الجنة قريبة من أصحابها تدنو لهم وتقترب منهم ، وثمار الجنة وقطوفها فى متناول أيديهم ، إذا كان أحدهم قائمًا تناول الثمر دون كلفة أو مشقة ،وإذا كان قاعدًا أو مضّجعًا فكذلك ، فهذا تذليلها ، لا يردّ اليد عنها بُعد ولا شوك ، ولا يخفى أن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا حرٌ ولا برد ، فيكون معنى دنوّ الظلال وقربها من أهل الجنة ، أن الظلال وضعت بحيث لو كانت هناك شمس لكانت الظلال واقية لهم من حرّها وهجيرها ، أى : النعيم مضاعف فى الجنة ، وكل ما يطلبونه يجدونه تحت أيديهم وتصرفهم .

جاء فى غرائب القرآن :

وَذُلِّلَتْ . أى : لا تمتنع على قُطّافها كيف شاءوا .

١٥ ، ١٦ - وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِئَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا .

هذه ألوان من النعيم ، وألطاف من الرب الكريم ، فيطوف الخدم عليهم بأوانٍ من فضة ، وأكواب لا عُرى لها ولا خراطيم ، ولا مثيل لها فى الدنيا ، لأن الأكواب فى الدنيا إما أن تكون من فضة ، وإما أن تكون من زجاج ، أما الأكواب فى الجنة فمادتها من الفضة ، ومع ذلك فهى فى شفافية (القوارير) أى الزجاج ، بحيث يرى باطنها من ظاهرها ، وظاهرها من باطنها ، وقد قُدّر الشراب والكوب على قدر حاجتهم ، لا يزيد عنها ولا ينقص ، وهذا ألذُّ لهم ، أو قدّر الخدم الطائفون عليهم الأكواب والشراب على قدر حاجة أهل الجنة ، بدون زيادة أو نقصان ، أو قدّر الله تعالى لهم ذلك بتقديره ، فهو الذى يقول للشىء كن فيكون .

قال ابن عباس :

قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا . أتوا بها على قدر الحاجة ، لا يفضلون شيئًا ، ولا يشتهون بعدها شيئًا .

١٧ - وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً .

يسقى أهل الجنة كأسًا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل ، فتارة يمزج الشراب للأبرار بالكافور وهو بارد ، وتارة يمزج بالزنجبيل وهو حار ليعتدل ، أمّا المقرَّبون فإنهم يشربون من كل منهما صرفا .

١٨ - عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً .

ويسقون من عين فى الجنة تُسمى السلسبيل، سُميت بذلك لسلاسة مائها ، وسهولة جريها وانحدارها واستساغتها فى حلوقهم ، والفائدة فى تسمية العين بالسلسبيل بعد أن ذكر أن الخمر تمزج بالزنجبيل ، أن

العرب تستلذ الزنجبيل وتستطيبه لطيب رائحته ، ولأنه يُحدث لذعًا فى اللسان ، ويهضم المأكول ، ولهذا يذكرون الزنجبيل فى وصف رضاب النساء ، فذكر القرآن أن الخمر رغم أنها تمزج بالزنجبيل إلا أنها فى طعم الزنجبيل وليس فيها اللَّذع ، بل فيها السلاسة وسهولة الانحدار فى الحلق ، وسهولة المساغ كالسلسبيل .

١٩ - وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا .

يخدم الأبرارَ فى الجنَّة غلمان وفتيان فى سن البلوغ وحداثة الصبا ، ولعل الحكمة فى ذلك أنهم فى سنِّهم هذه يكونون أخف فى الخدمة ، وأسرع فى الاستجابة لمخدومهم ، وهم مع ذلك باقون على هذه السنّ، لا يشيبون ولا يهرمون ولا يتغيرون ، وهم فى جمالهم ووضاءة وجوههم كاللؤلؤ المنثور المُفرَّق ، لأنهم مُتفرِّقون فى المجالس ، فى جَنَباتها وباحاتها وساحاتها ، والدر المنثور يكون أكثر صفاء منه منظومًا فى سلك .

قال الرازى فى التفسير الكبير :

هذا من التشبيه العجيب ، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن فى المنظر ، لوقوع شعاع بعضه على بعض ، فيكون أروع وأبدع .

٢٠ - وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا .

وإذا نظرت إلى الجنة هناك ، رأيت نعيمًا دائمًا ، وملكًا كبيرًا واسعًا ، ورأيت نعيمًا مقيمًا ، وفضلاً عظيمًا ، لا حدود له ولا غاية ، وأقل أهل الجنة منزلة من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها ، كما ثبت فى الصحيح .

٢١ - عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَـٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا .

ما أجمل نعيم الجنة ، وما أكمل هذا النعيم ، إن الثمار تقترب منهم ، والظلال قريبة منهم ، ويُطاف عليهم بأوانى الفضة وأكواب من فضة فى صفاء الزجاج ، ويسقون الخمر ممزوجة بالزنجبيل فى هناء السلسبيل ، ويطوف عليهم الغلمان الحسان كأنهم اللؤلؤ المنثور ، وأمامهم النعيم الكبير ، وفوق كل ما سبق تعلوهم ثياب من أنواع الحرير الرقيق وهو السندس ، والغليظ وهو الإستبرق ، فى ألوان خضراء متميزة تتناسق مع النعيم والتكريم ، ويلبسون أساور من فضة يتحلَّون بها ، وقد سبق أنهم يتحلَّون بأساور الذهب واللؤلؤ ، أى أنهم يلبسون أساور الفضة حينًا ، والذهب حينًا ، واللؤلؤ حينًا ، على التعاقب ، وأحيانًا يجمعون بينها فى وقت واحد .

وفى سورة الكهف قال تعالى : يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ... (الكهف : ٣١) .

وفى سورة فاطر قال تعالى : يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . (فاطر : ٣٣) .

والمقصود أن الله جمّلهم بأحسن الثياب ، وأنواع الحرير الرقيق والغليظ ، وجمّلهم بأساور متعددة من الفضة والذهب واللؤلؤ ، وهناك تكريم معنوى أسمى وأعلى ، إنه تكريم إلهى ، حيث تأتيهم الأكواب بدون واسطة .

وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . أى : طاهرًا لم تدنّسه الأيدى ، وليس بنجس كخمر الدنيا .

**قال الطبرى :**

سُقى هؤلاء الأبرار شرابًا طهورًا ، ومن طهره أنه لا يصير بولاً نجسًا ، بل رشحًا من أبدانهم كرشح المسك ، رُوى أن الرجل من أهل الجنة يُقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا ، فإذا أكل سُقى شرابًا طهورًا ، فيصير رشحًا يخرج من جلده أطيب ريحًا من المسك الأذخر[٩٥] .

## من تفسير ابن كثير

وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا .

أى : طهَّر بواطنهم من الحسد والحقد ، والغلّ والأذى ، وسائر الأخلاق الرديئة .

رُوى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أنه قال : إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين ، فكأنما أُلهموا ذلك ، فشربوا من إحداهما ، فأذهب الله ما فى بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن[٩٦] .

٢٢ - إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا .

يقال لأهل الجنة تكريمًا لهم ، وتقديرًا لطاعتهم لربِّهم : إن هذا الجزاء الكبير ، والنعيم والرضا والمثوبة ، والفضل الإلهى عليكم ، جزاءٌ عادل لأعمالكم ، وقد كان عملكم وسعيكم فى الدنيا مشكورًا من الله لكم ، فما أعظم الفضل الإلهى الجليل ، إنه يوفِّق للطاعة ، ويهدى المؤمنين إلى طريق الخير ، ثم يعطيهم المنازل العالية فى الجنة ، ثم يتفضل عليهم بالتكريم والرضوان .

كما قال تعالى : كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ . (الحاقة : ٢٤) .

وكما قال تعالى : وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الأعراف : ٤٣) .

**قال فى صفوة التفاسير :**

وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا .

أى : وكان عملكم مقبولاً مرضيًا ، جُوزيتم عليه أحسن الجزاء مع الشكر والثناء .

★ ★ ★

## تنزيل القرآن ، وذكر الله ، والصلاة له

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

**المفردات :**

آثـمـا : هو الفاجر المجاهر بالمعاصى .

الـكـفـور : هو المشرك المجاهر بكفره .

بـكـرة : أول النهار .

أصـيـلا : هو الوقت من العصر إلى المغرب ، أى أول النهار وآخره ، والمراد بذلك جميع الأوقات .

اسـجـد : صلِّ .

سـبـحـه : تهجد .

**وراءهـــــم :** أمامهم .

**شددنا أسرهم :** أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق .

**بدلنا أمثالهم :** أهلكناهم ، وبدلنا أمثالهم فى شدة الخلق .

**تمهيد :**

هذه هى الآيات الأخيرة فى سورة الإنسان ، نزلت ومكة تعرض على الرسول ﷺ المال والثروة ، وعتبة ابن ربيعة يقول للنبى ﷺ : ارجع عن هذا الأمر حتى أزوّجك ابنتى ، فإنى من أجمل قريش بنات .

والقرآن ينزل يثبّت الرسول الكريم ﷺ ، ويوضّح أن القرآن الكريم قد أنزله الله منجمًا لحكمة إلهية عليا ، فعليك أيها الرسول بالصبر وذكر الله والتهجد بالليل ، وهذه كلها زادٌ للدعاة ، حيث يصلون أنفسهم بالخالق عابدين متبتلين ، ثم تتحدث الآيات عن كفار مكة الذين يحبون العاجلة ، أى المال والنساء والخمر والملذات ، وينسون الآخرة ، والله وحده هو الذى خلقهم ، وإذا شاء أتى بخلق جديد أطوع للّه منهم ، ثم تسند المشيئة إليه سبحانه ، فهو سبحانه فعال لما يريد ، وهو على كل شىء قدير .

**التفسير :**

**٢٣ - إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً .**

إنا نحن الإله الحق الذى بيده الخلق والأمر ، قد : نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً . فهذا القرآن من عندنا ومنْ أمرنا : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وهذا القرآن ليس سحرًا ولا شِعْرًا ولا كهانة ، ولا أساطير الأولين كما يدعى الكافرون ، وقد أنزلناه منجمًا مقسطًا فى ثلاثة وعشرين عامًا ، ولم ننزله دفعة واحدة ، بل أنزلناه مفرقًا ليجيب على أسئلة السائلين ، ويثبّت المؤمنين ، ويشرح أحكام الدّين ، ويقدّم الأدلة على الوحدانية ، وصدق رسالة محمد ﷺ ، وأخبار الأمم السابقة ، ومشاهد القيامة والبعث والحشر والجزاء والعقاب .

فالقرآن كتاب ربّنا ، أنزله الله على محمد ﷺ مفرقًا لتثبيت فؤاده ، وللرد على أسئلة المشركين ، وليحمل الدليل على إعجاز القرآن ، فقد تحداهم أن يأتوا بمثله ، ثم تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، ثم تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة ، وقد عجزوا فى كل هذه المراحل مع طول مدة التحدّى ، ومع الحروب المتتابعة التى حَصَدَت رجالهم ، ويتّمت أطفالهم ، ورمّلت نساءهم ، واستمرار التحدّى ، واستمرار الحاجة إلى الردّ على القرآن والرسول ، مع وجود الشعراء والبلغاء والفصحاء ، والخطباء والأدباء ، وأسواق الأدب التى

يتبارون فيها بالقصيدة المتميزة والشعر الجيد ، والخطبة الفصيحة ، والقول المتميز ، ثم لم يجرؤ واحد منهم أن يقدم مثل القرآن ، ولا مثل عشر سور منه ، ولا مثل سورة واحدة ، ولزمهم العجز إلى يوم الدين .

كما قال تعالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

٢٤ - فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا .

اصبر يا محمد لأمر الله وحكمه وقضائه وقدره ، واصبر على تكاليف الوحي والرسالة والدعوة ، ولا تستجب لما يعرضه عليك المشركون من المال أو الزواج من بناتهم ، ولا تتكدر ولا تحزن بوعيدهم وتهديدهم لك ، فتلك سُنّة الدعوات .

أخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدًا يصلّى لأطأنّ عنقه ؛ فأنزل الله : وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا .

ومن أمثلة الآثم : أبو جهل الذى وقف فى سبيل الدعوة ، وآذى رسول الله ﷺ ، ونهاه عن الصلاة عند الكعبة ، ومن أمثلة الكفور : الوليد بن المغيرة الذى سمع القرآن الكريم فتأثّر به ، وقال عنه كلامًا حسنًا ، ومدحه مدحًا جميلاً ، ثم استجاب لاستثارة قومه له ، وعدل عن الإيمان ، وانضم إلى حلف الكفر والطغيان .

٢٥ - وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

البكرة أول النهار ، والأصيل من العصر إلى المغرب ، وذِكْر الله يحتاج إلى استحضار القلب فى مناجاته والتعبد بذكره ، والمؤمن يذكر الله أول النهار متحدثًا بفضله ، طالبًا منه المعونة والبركة والتوفيق ، ويذكر الله فى آخر النهار التماسًا لفضله ومغفرته وبركته وهدايته .

ويراد بالبكرة والأصيل أيضًا طول النهار .

قال المفسرون : صلّ لربك وأكثر من عبادته وطاعته فى أول النهار وآخره ، فى الصباح والمساء .

٢٦ - وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً .

انتهز مجىء الليل لتسجد لله وتصلّى صلاة التهجد ، وتسبّح بحمد الله تعالى .

وقيل : المراد من الذكر بُكْرَةً . صلاة الصبح . وَأَصِيلاً . صلاتا الظهر والعصر . وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ . صلاتا المغرب والعشاء .

وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً .

اغتنم فرصة الليل ، أو الثلث الأخير من الليل للتسبيح والتحميد والاستغفار .

والآيتان تشيران إلى اللجوء إلى الله وعبادته وذكره ، كما تشيران إلى صلاة الليل ، وهى مندوبة للمسلمين ، فريضة على النبى ﷺ .

قال تعالى : وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء : ٧٩) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ * وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (هود : ١١٤ ، ١١٥) .

وقوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ . (الحجر : ٩٧ ، ٩٨)

٢٧ - إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً .

إن هؤلاء أهل مكة ، وبالأخص الأغنياء والسادة والكبراء ، يُحبون أمور الدنيا العاجلة مثل المال والنساء والخمر ومتع الدنيا العاجلة ، ويهملون ما أمامهم من يوم ثقيل شديد ، يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

وقيل : إنها نزلت فى يهود ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى تنطبق على كل من يؤثر شهوات الدنيا ، ويهمل الآخرة والحساب والجزاء ، والعمل الصالح لذلك اليوم .

٢٨ - نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً .

أى : نحن لا غيرنا ، خلقنا الناس جميعًا من العدم ، ومنحناهم الحياة والقوة والسمع والبصر ، وأحكمنا خلقهم .

وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ...

أحكمنا خلقهم وربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، حتى كانوا أقوياء أشداء ، فكم فى خلق الإنسان من عجائب ، أضف إلى ذلك جمال الخلق ، والتركيب والإبداع ، وتيسير الحركة ، واستخدام آلاته ، كاليدين والرجلين والأذنين ، والعينين والفم والأنف ، والأعضاء التناسلية ، وسائر القوى الموجودة بالإنسان فضلاً عن العقل والمخ والأعصاب ، والفهم والذكاء والاستنباط .

قال تعالى : وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . (الذاريات : ٢١) .

وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ . (الانفطار : ٦ – ٨) .

وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلاً .

ولو أردنا لأهلكناهم وأوجدنا بدلهم خلقًا آخر يكون أطوع وأعبد لله منهم ، وقد وردت الآية مورد التهديد والوعيد .

وقريب من ذلك قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر : ١٥ – ١٧) .

٢٩ – إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً .

إن هذه الآيات الكريمة ، والسورة العظيمة ، بما فيها من الترتيب العجيب ، والتَّنسيق البديع ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب – تذكرة للمتأملين ، وعظة للعقلاء والمفكّرين ، فمن أراد الخير لنفسه ، والسعادة والنجاة ، فليتخذ طريقًا إلى طاعة ربّه ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والخضوع لأمره والتقرب إلى الله بما يحبّه ويرضاه .

٣٠ – وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

لا يستطيع أحد أن يهدى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ، ولا يجرّ لنفسه نفعًا ، أو يدفع عنها ضررًا ، إلا بتوفيق الله ومشيئته .

وهذه الآيات فى القرآن الكريم تُفهم من خلال ما ورد من آيات كثيرة حول ذلك الموضوع : ذلك أن الله تعالى خلق الإنسان ، وأعطاه العقل والإرادة والاختيار ، وهداه النجدين ، وبيّن له الطريقين ، طريق الهدى وطريق الضلال ، وأرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، فإذا تدبر الإنسان وتأمل ، وسار خطوات فى استخدام العقل والرأى ، والتدبر والتأمل ، منحه الله الرضا والتوفيق ، ويسَّر له الهدى والرشاد ، وإذا أحجم الإنسان عن استخدام عقله ، وصمم على السير فى طريق الغواية والسير وراء شهواته ونزواته ، وأطاع الشيطان ، وأعرض عن ذكر الرحمن ، سلب الله عنه الهدى والتوفيق .

**قال الإمام محمد عبده :**

للعبد إرادة واختيار ، ولله تعالى إرادة عليا وحكمة وتدبير ، والجمع بين إرادة العبد وإرادة الله تعالى تحتاج إلى شىء من الانحناء والتسليم .

**وقال المراغى فى تفسيره ما يأتى :**

**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...**

أى : وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ، ولا تقدرون على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدّكم لنيلها ، إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا فى الكسب ، أما التأثير والخلق فلمشيئة الله عز وجل ، فمشيئة العبد وحدها لا تأتى بخير ولا تدفع شرا ، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ، ويؤجر على قصد الخير ، كما فى الحديث : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»[٩٧] .

**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .**

أى : إن الله عليم بمَن يستحق الهداية فييسرها له ، ويقيض له أسبابها ، ومن هو أهل للغواية ، فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . ا هـ .

**٣١ - يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا .**

فهو سبحانه حكيم منزه عن الظلم ، فمن رأى فى قلبه الرغبة فى الهدى والإيمان ، والطمع فى المغفرة ، والرجاء فى الرحمة ، يسَّر له ذلك وأعانه عليه ، ومن ظلم نفسه بالمعاصى ، وأعرض عن طاعة الله سلب الله عنه الهدى ، وأعدَّ له عذابًا أليمًا فى الآخرة .

وفى الحديث الشريف أن النبى ﷺ قال لأصحابه ذات يوم : «هؤلاء أسماء أصحاب الجنة ، بأسمائهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم ، لا يزيدون ولا ينقصون ، وهؤلاء أسماء أصحاب النار ، بأسمائهم وأسماء آبائهم

وأمهاتهم ، لا يزيدون ولا ينقصون» . قال الصحابة : أفلا نتكل على ذلك يا رسول الله ؟ قال : «لا ، اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له . إن الله عز وجل يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ[٩٨] . (الليل : ٥ - ١٠) .

قال ابن كثير :

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

أي : عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ، ويُقيّض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، ولهذا قال : إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

ثم قال : يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا .

أي : يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء ، فمن يهده فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له[٩٩] .

★ ★ ★


تفسير سورة المرسلات

# أهـداف سـورة المرسلات

(سورة المرسلات مكية، وآياتها ٥٠ آية، نزلت بعد سورة الهمزة)

سورة المرسلات قصيرة الآيات، عاصفة الملامح، شديدة الإيقاع، كأنها سياط لاذعة تلهب صدور المنكرين، وهى توقف القلب البشرى وقفة المحاكمة الرهيبة، حيث تواجهه بسيل من الاستفهامات والاستذكارات والتهديدات، تنفذ إليه كالسهام المسنونة.

«وتعرض السورة عددا من المشاهد المتنوعة، عن الكون وخلق الإنسان، واليوم الآخر، وعذاب المجرمين ونعيم المتقين، وعقب كل مشهد تلفح القلب المذنب لفحة من التهديد والوعيد، حين تقول: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ. ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات فى السورة، وهو لازمة الإيقاع فيها، وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة، ومشاهدها العنيفة، وإيقاعها الشديد.

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة فى سورة الرحمن، عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد: فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

كما تذكرنا باللازمة المكررة فى سورة القمر، عقب كل حلقة من حلقات العذاب: فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ. وتكرارها هنا على هذا النحو يعطى السورة سمة خاصة، وطعما مميزا حادًّا» [١٠٠].

## تسلسل أفكار السورة

تبدأ السورة بقسم عاصف ثائر، بمشهد الرياح أو الملائكة، يتبعه عشر جولات متتابعة، تثير فى النفس طائفة من التأملات والمشاعر والخواطر، والتأثرات والاستجابات.

١ - فالآيات من (٨ - ١٥) تصف مشاهد القيامة، وتصور الانقلابات الكونية الهائلة فى السماء والأرض، وفى هذا اليوم تنتهى حسابات الرسل مع البشر، ويتبين الصادق من الكاذب.

٢ - والآيات من (١٦ - ١٩) تصف مصارع الغابرين، وتشير إلى سنن الله فى المكذبين، فكما أهلك قوم نوح بالغرق، وأهلك أمم عاد وثمود وفرعون، فهو يفعل ذلك بكل مكذب برسالات السماء، وهدى الأنبياء.

٣ – والآيات من (٢٠ – ٢٤) تصف النشأة الأولى ، وما تشير إليه من تقدير وتدبير .

٤ – والآيات من (٢٥ – ٢٨) تصف الأرض التى تضم أبناءها إليها ، أحياء وأمواتا ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والجبال والمياه .

٥ – والآيات من (٢٩ – ٣٤) تصف حال المكذبين يوم القيامة ، وما يلقونه من تقريع وتأنيب .

٦ – والآيات من (٣٥ – ٣٧) استطراد مع موقف المكذبين ، وبيان ألوان العذاب والهوان الذى يتعرضون له .

٧ – والآيات من (٣٨ – ٤٠) تصف ضعف الإنسان ، وفقدان حيلته أمام الجمع والحشر والحساب والجزاء .

٨ – والآيات من (٤١ – ٤٥) تصف نعيم المتقين ، وطعامهم وشرابهم وتكريمهم .

٩ – والآيتان (٤٦ ، ٤٧ ) خطفة سريعة مع المكذبين فى موقف التأنيب .

١٠ – والآيات من (٤٨ – ٥٠) وصف لحال المكذبين ، وامتناعهم عن الإيمان وعن الاستجابة لآيات القرآن .

وبعض هذه المشاهد قد سبق ذكرها ، وتكرر ورودها فى القرآن الكريم ، وفى السور المكية بوجه خاص ، ولكنها تعرض هنا سريعة أخاذة ، لها رنين وجدة فى مشاهد جهنم ، وفى مواجهة المكذبين بهذه المشاهد ، وفى أسلوب العرض والخطاب كله ، ومن ثَمَّ تبرز شخصية خاصة للسورة : حادة الملامح ، متنوعة فى أساليب الخطاب ، متنقلة من قسم إلى خبر إلى استفهام إلى أمر ، فذلك كلام الله ، ومن أحسن من الله حديثا؟

## مع آيات السورة

١ – ٧ – يقسم الله بطوائف الملائكة ، يرسلها بالمعروف والإحسان ، وأوامره الكريمة ، فتعصف عصف الرياح مسرعة ، وتنشر شرائعه فى الأرض ، فتفرق بها بين الحق والباطل ، ويلقى الملائكة إلى أنبياء الله ذكرا يريد الله تبليغهم إياه ، عذرا للمحقين ، ونذرا للمبطلين ، يقسم الله بهؤلاء الملائكة على أن ما توعدون من مجىء القيامة واقع لا محالة .

وقيل : إن القسم في هذه الآيات بالرياح وآثارها فى الكون ، ونشرها السحاب فى الأفق .

وقيل إن القسم فى الآيات الثلاث الأولى بالرياح متتابعة كعرف الفرس، فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا. الشديدة المهلكة ، وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا . التى تنشر المطر ، فأقسم سبحانه بالرياح النافعة والضارة .

والقسم فى الآيات (٤ - ٦) بالملائكة ، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار .

ولعل من إعجاز القرآن أن الآية تشير إلى معنى وتحتمل معنى ، وتستتبع معنى آخر ، ولعل هذا التجهيل والخلاف فى مفهوم الآية مقصود لله ، ليكون أثرها أقوى فى النفس .

وقد ذكر ابن جرير الطبرى تفسير هذه الآيات ، وعند تفسير : وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا . بيّن أن بعض المفسرين قال : هى الرياح ، وبعضهم قال : هىَ المطر ، وبعضهم قال : هى الملائكة .

ثم عقب الطبرى بقوله : وأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال : إن الله تعالى أقسم بالناشرات نشرا ، ولم يخصص شيئا من ذلك دون شىء ، فالرياح تنشر السحاب ، والمطر ينشر الأرض ، والملائكة تنشر الكتب ، ولا دلالة من وجه يجب التسليم له على أن المراد من ذلك بعض دون بعض ، فدلَّ ذلك على أن المراد بالآية كل ما كان ناشرا .[١٠١]

٨ - ١٥ - يوم تطمس النجوم فيذهب نورها ، وتفرج السماء ، أى تشق ، وتنسف الجبال فهى هباء ، وإلى جانب هذا الهول فى مشاهد الكون ، تعرض السورة أمرا مؤجلا ، هو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة والشهادة على الأمم ، والقضاء والفصل بين كل رسول وقومه : يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ... (المائدة : ١٠٩) . وفى هذا اليوم عذاب وخزى لمن كذب بالله ورسله وكتبه ، وبكل ما ورد على ألسنة أنبيائه وأخبروا به .

١٦ - ١٩ - تجول هذه الآيات فى مصارع الأولين والآخرين ، وفى ضربة واحدة تكشف مصارع الأولين ، من قوم نوح ومن بعدهم ، وتكشف مصارع الآخرين ، ومن لفَّ لفهم ، وعلى مد البصر تتبدى المصارع والأشلاء ، فهى سنة الله التى لا تتبدل ، من سيادة الصالحين ، وهلاك المجرمين ، وفى الآخرة هلاك وعذاب شديد للمكذبين .

٢٠ - ٢٤ - هذه الآيات جولة فى الإنشاء والإحياء ، مع التقدير والتدبير ، فهى تصف خلق الإنسان من نطفة مراقة ، تستقر فى حرز مكين وهو الرحم ، حيث تصير جنينا مكتملا ، فَقَدَرْنَا. وقت ولادته فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ . نحن على التدبير وإحكام الصنعة ، وفى الآخرة عذاب شديد للمكذبين بآيات الله وقدرته وحكمته .

٢٥ – ٢٨ – وهذه الآيات جولة فى خصائص الأرض ، وتقدير الله فيها لحياة البشر ، وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة : أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا . [١٠٢] تحتضن بنيها وتجمعهم . أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَـٰمِخَـٰتٍ ... ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب ، أفيكون هـذا إلا عن قدرة وتقـدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هذا يكذب المكذبون ؟ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ.

٢٩ – ٣٤ – تنتقل الآيات إلى وصف مشهد من مشاهد القيامة ، والكفار ينطلقون بعد طول احتباس إلى العذاب الذى كانوا يكذبون به فى الدنيا .

إنه انطلاق خير منه الارتهان والاحتباس : ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ . وهو دخان جهنم يتشعب لعظمه ثلاث شعب ، وتمتد ألسنته إلى أقسام ثلاثة كلها أشد من بعض ، ولكنه ظل خير منه الوهج : لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ . إنه ظل خانق حار لافح ، وتسميته بالظل من باب التهكم والسخرية ، فهو لا يظل من حر ذلك اليوم ، ولا يقى من لهب جهنم . [١٠٣]

إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ . أى أن هذه النار يتطاير منها شرر متفرق فى جهات كثيرة ، كأنه القصر عظما وارتفاعا ، وكأنه الجمال الصفر لونا وكثرة وتتابعا وسرعة حركة ، وفى اللحظة التى يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجىء التعقيب المعهود : وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

٣٥ – ٣٧ – هذا يوم لا يتكلمون فيه بحجة نافعة تنقذهم مما هم فيه ، ولو كانت لهم حجة لما عُذبوا هذا العذاب ، ولا يؤذن لهم بالاعتذار ولا يقبل منهم ، فالهلاك لمن كذب بعذاب يوم القيامة .

وقد سئل ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآية وعن قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . (الزمر : ٣١) . فقال : فى ذلك اليوم مواقف ، فى بعضها يختصمون ، وفى بعضها لا ينطقون ، أو لا ينطقون بما ينفعهم فجعل نطقهم كلا نطق . [١٠٤] . والعرب تقول لمن ذكر ما لا يفيد : ما قلت شيئا .

٣٨ – ٤٠ – هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار ، وقد جمعناكم والأولين أجمعين، فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كانت لكم حيلة فى دفع العذاب عنكم فاحتالوا لتخليص أنفسكم من العذاب ، وفى هذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا ، وإظهار لعجزهم وقصورهم حينئذ ، فهم فى صمت كظيم ، وتأنيب أليم . والويل الشديد فى ذلك اليوم للمكذبين بالبعث والجزاء .

٤١ – ٤٥ – إن المتقين فى ظلال حقيقية ، هى ظلال الأشجار على شواطئ الأنهار ، فلا يصيبهم حرّ ولا قرّ ، ويتمتعون بما تشتهيه أنفسهم من الفواكه والمآكل الطيبة ، ومع التكريم الحسى يلقون ألوان التكريم المعنوى ، فيقال لهم على مرأى ومسمع من الجموع : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . جزاء بما عملتم فى الدنيا من طاعة ربكم ، واجتهدتم فيما يقربكم من رضوانه ، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان فى الجنة ؟ وبمثل هذا الجزاء نجزى كل الذين يحسنون فى أعمالهم وأقوالهم ، وشأنهم الإحسان ، ويقابل هذا النعيم الويل للمكذبين .

٤٦ – ٤٧ – كلوا وتمتعوا قليلا فى هذه الدار بقية أعماركم ، وهى قليلة المدى بالنسبة للآخرة ، وهناك ستحرمون وتعذبون طويلا : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

٤٨ – ٥٠ – وإذا قيل لهؤلاء المكذبين : اعبدوا الله وأطيعوه ، لا يستجيبون ولا يمتثلون ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . بأوامر الله ونواهيه . ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ . أى إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل على تجليها ووضوحها ، فبأى كلام بعد هذا يصدقون ؟ والذى لا يؤمن بهذا الحديث الذى يهز الرواسى ، وبهذه الهزات التى تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبدا ، إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقى المتعوس .

إن هذه السورة ببنائها التعبيرى ، وإيقاعها الموسيقى ، ومشاهدها العنيفة ، ولذعها الحاد ، حملة لا يثبت لها كيان ، ولا يتماسك أمامها إنسان ، فسبحان الذى نزل القرآن وأودعه ذلك السلطان .

## مقاصد السورة

**من مقاصد سورة المرسلات ما يأتى :**

١ – القسم بالملائكة على أن البعث حق ، وأن القيامة آتية .

٢ – الإخبار عن هلاك القرون الماضية ، ووعيد المكذبين بنفس المصير .

٣ – المنّة على الخلائق بنعمة الخلق والتكوين ، وسائر النعم فى الأنفس والآفاق .

٤ – وصف عذاب المكذبين بما تشيب من هوله الولدان .

٥ – وصف نعيم المتقين وما يلقونه من الكرامة فى جنات النعيم ، وبيان عظمة الخالق وكمال قدرته .

★ ★ ★

## القسم ومشاهد القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾

**المفردات :**

**المرسلات :** الملائكة الذين أرسلهم الله لإيصال النعمة إلى قوم ، والنقمة إلى آخرين ، وقيل : الريح .

**عرفا :** متتابعة بعضها فى إثر بعض كعرف الديك ، وقيل : عُرفا للمعروف والإحسان .

**فالعاصفات :** الريح الشديدة ، أو المبعدات للباطل .

**الناشرات نشرا :** الملائكة الناشرات لأجنحتها ، عند نزولها إلى الأرض .

**فالفارقات فرقا :** الملائكة تفرق بين الحق والباطل .

**فالملقيات ذكرا :** الملائكة تلقى الوحى من عند الله ، وتتنزل به على أنبيائه .

**عذرا أو نذرا :** للإعذار أو الإنذار ، من قولهم : عذره ، إذا أزال الإساءة ، وأنذر إذا خوّف .

**طُمِسَت :** محقت وذهب نورها .

**فُرِجت :** فتحت وشقّت .

**نُسِفت :** اقتلعت من أماكنها بسرعة ، من قولهم : انتسفت الشىء ، إذا اختطفته .

**أُقِّتت :** عيِّن لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممها .

أجلت : أخّرت وأمهلت .

الفصل : القضاء بين الخلائق بأعمالهم : إمّا إلى الجنة ، وإمّا إلى النار .

ويل : عذاب وخزى .

**تمهيد :**

أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة ، منهم المرسلون إلى الأنبياء بالإحسان والمعروف ليبلّغوه للناس ، ومنهم الذين يعصفون ما سوى الحق ويبعدونه ، كما تبعد العواصف التراب وغيره ، ومنهم الذين ينشرون آثار رحمته فى النفوس الحيّة ، ومنهم الذين يفرقون بين الحق والباطل ، ومنهم الملقون العلم والحكمة للإعذار والإنذار من الله ، ومن مشاهد القيامة ذهاب ضوء النجوم ، وانشقاق السماء، واقتلاع الجبال وسيرها ، وشهادة الرسل على أممها فى يوم الفصل والقضاء بين الناس ، وهو يوم عظيم الهول .

**التفسير :**

١ ، ٢ ، ٣ - وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا .

تعددت الآراء فى المراد بالقسم فى صدر سورة المرسلات ، وأهم الآراء أربعة :

**الأول** : الرياح .

**الثاني** : الملائكة .

**الثالث** : طوائف الأنبياء الذين أرسلوا بالوحى المحقق لكل خير .

**الرابع** : أقسم فى الآيات الثلاث الأولى بالرياح ، وفى الآيات التالية بالملائكة .

والمعنى على أن المقصود بالآيات الثلاث الأولى الرياح كالآتى :

أقسم بالرياح المرسلة متتابعة كعرف الفرس ، إذا ذهبت شيئا فشيئا ، وبالرياح التى تُرسل عاصفة لما أُمرت به من نعمة ونقمة .

قال تعالى : وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ... (الأنبياء : ٨١) .

كما ترسل الريح للعذاب ، قال تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... (فصلت : ١٦) .

وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا .

وأقسم بالرياح التى تنشر السحاب ، وتفرِّقه فى آفاق السماء ، كما يشاء الرب عز وجل .

٤ ، ٥ ، ٦ – فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا .

الأظهر أن المراد هنا الملائكة الكرام ، الذين ينزلون بأمر الله على الرُّسل ، بما يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغىّ ، والحلال والحرام ، وهذه الملائكة تُلقى إلى الرسل وحيًا مشتملاً على ذكر الله وتوحيده ، وبيان عظمته وقدرته ، وبدائع خلقه ، ونظام تشريعاته ، ومشاهد القيامة والحساب .

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا .

وهذه الملائكة تُلقى هذا الذكر ليكون إعذارًا إلى الخلق ، وإنذارًا لهم وتخويفا من عقاب الله للمكذبين.

٧ – إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ .

إن ما توعدون به من القيامة والحساب والجزاء ، والجنة والنار – واقع وحاصل ومؤكد ، وكائن لا محالة ، ولا يستبعد بعض المفسرين أن تكون الآيات القرآنية تشير إلى معنى ، وتستتبع معنى ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

فالآيات صالحة لأن تكون قسمًا بالرياح المرسلة ، وأن تكون بالملائكة المرسلة ، وبأن تكون الآياتُ الثلاث الأولى قسمًا بالرياح ، والآيات (٤ – ٦) قسمًا بالملائكة ، أو بها وبغيرها ، مثل الكتب السماوية التى تُفرق بين الحق والباطل، وتشتمل على ذكر الله ، عذرا للمؤمنين ونذرا للكافرين .

كما يمكن أن تكون فيها إشارة إلى رسل الله تعالى ، التى تفرق بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، والحلال والحرام ، وتلقى آيات الله على عباده ذكرا لهم ، وتذكيرًا بربّهم ، حتى يعذر الله إلى عباده ، وينذر الكافرين .

قال تعالى : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥)

٨ ، ٩، ١٠ – فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ .

إذا ذهب ضوء النجوم ، وصارت من النجوم القزمة ، وإذا انشقت السماء على غلظها ، وصارت واهية ضعيفة بعد أن كانت قوية متماسكة لا خلل فيها ولا تشقق ، وإذا قلعت الجبال من أماكنها وذُهب بها ، وطارت فى الجوّ فلا يبقى لها عين ولا أثر ، واستوى مكانها بالأرض .

وبهذا المعنى وردت آيات القرآن الكريم تشير إلى أنه عند نهاية الدنيا يختلّ نظام الكون .

قال تعالى : وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ . (التكوير : ٢) .

وقال سبحانه : وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ . (الانفطار : ٢) .

وقال عز شأنه : وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . (الحاقة : ١٦) .

وقال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

وقال تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا . (طه : ١٠٥) .

١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ – وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ .

وإذا جمع الله الرسل ، وجعل لهم وقتا محدّدا للفصل والقضاء بين كل رسول وقومه ، لتعذيب من كذّب الرسل ، وإثابة من نصرهم وناصرهم .

قال تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ . (المائدة : ١٠٩)

ثم تساءل القرآن : لماذا لم يفصل الله بين الرسل وأقوامهم فى الدنيا ؟ ولأى وقت أُجّل هذا الفصل ؟ والاستفهام هنا للتهويل والتعظيم ليوم القيامة .

لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لأى وقت أُجّل الفصل بين الرسل وأقوامهم ؟

لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ .

أى : أُجلت عقوبة المكذبين بالرسل ، ومثوبة المصدّقين ، ليوم الفصل بين الناس ، وما أعلمك بالهول فى يوم الفصل ؟ فالاستفهام للتهويل والتفخيم .

١٥ – وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

الويل : أكبر وادٍ فى جهنم ، تجتمع فيه عصارة أهل النار من القيح والصديد .

يَوْمَئِذٍ. الويل يوم القيامة والعذاب الشديد للمكذبين ، وللكافرين بالله وباليوم الآخر .

★ ★ ★

## الاعتبار والاتعاظ، والتحذير من الكفر

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

**المفردات:**

**ألم نهلك الأولين:** كقوم نوح وعاد وثمود.

**ثم نتبعهم الآخرين:** نحن نتبعهم نظراءهم، ككفار مكة.

**ماء مهين:** منى ضعيف ذليل، وهو النطفة.

**قرار مكين:** مكان حصين حريز، وهو الرحم.

**إلى قدر معلوم:** إلى وقت الولادة.

**فقدرنا:** قدّرنا ذلك وأحكمناه.

**الأرض كفاتا:** وعاء، تضم الأحياء على ظهرها، والأموات فى بطنها.

**رواسى شامخات:** جبالاً ثوابت مرتفعات.

**ماء فراتا:** حلوًا عذبا.

**التفسير:**

١٦، ١٧، ١٨، ١٩ - أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ.

لقد أهلكنا المكذبين بالرسل من عهد نوح، نزل بهم عذابنا المدمّر، والاستفهام هنا للتقرير والتأكيد، بمعنى: قد أهلكنا هلاكا مروعًا كلَّ من كذب الرسل، مثل عاد وثمود وقارون وفرعون، وسنهلك كفار مكة ومن لَفَّ لِفَّهم وسار على شاكلتهم، وتلك سنتنا نطبِّقها مع كل مجرم ظالم، يتعدى حدود الله، ولا يطيع أوامره، ولا يجتنب المحرمات.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

تتكرر هذه الآية عشر مرات فى هذه السورة ، كالجرس الذى يرنّ فى أعقاب كل فقرة ، أى عذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بالرسل ، المخالفين لأوامر الله وسننه ، ومن سنن الله إهلاك الظالمين .

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ - أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

يخاطب القرآن الخلق ، ويلوّن فى أسلوب الخطاب ، ويدعو الإنسان إلى التفكّر فى أصله فيقول : ألم نخلقكم أيها الخلق من ماء ضعيف ، نطفة مزرة ؟

وكلمة : مَّهِينٍ . بزنة فعيل ، ومادته : مَهَن ، أى ضعف ، والميم فيها أصلية .

وأكثر المفسرين ذهب إلى أن معنى : مَّهِينٍ . وضيع حقير ، أما الطبرى شيخ المفسرين فقال : المهين هو الضعيف . اهـ .

وإذا تأملنا أن الله تعالى كرّم بنى آدم ، رجحنا أن يكون معنى مهين : ضعيف ، أبعد ما يكون عن الحياة والقوّة والحركة ، لولا أن تلقفته يد القدرة الإلهية .

وأتمنى أن نبتعد عن تسمية المنى بأنه مهين بمعنى حقير أو ذليل ، بل معناه اللغوىّ من مادة مَهَن لا هَانَ ، ومَهَن معناه ضعف ، ومهين معناه ضعيف ، وليس المعنى أنه حقير ، وليس معناها هان بمعنى ذلّ والمنىّ مهين بمعنى ضعيف ، أى لولا وضعه فى الرحم فى قرار مكين ، لما كان له وجود ولا حياة ولا شموخ وتعالٍ ، فلماذا تتكبَّر أيها الإنسان على خالقك ، ولولا يد القدرة ما كنت شيئا مذكوراً ؟

قال تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا . (الإنسان :١) .

## عود إلى التفسير

ألم تخلقكم يد القدرة الإلهية من ماء مهين ، هو المنىُّ الذى يخرج من صلب الرجل فيصب فى رحم المرأة ؟

فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ .

فجعلنا هذا الماء المهين فى مكان حريز حصين ، هو رحم المرأة ، المؤهل للمحافظة على هذه النطفة ، حيث تُمسك بجدار الرحم ، وتتعلق به وتتشبث به ، فلا تفلت منه ، ثم تتحول إلى مراحل متعددة .

إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ . زمن مقدَّر ، وهو وقت الولادة .

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ .

فقدرنا على خلقه بشرًا سويًّا فى أحسن تقويم ، معه العقل والإرادة والسمع والبصر ، ومزود بالأجهزة البديعة ، مثل : الجهاز الهضمى، والجهاز العصبى ، والجهاز التناسلى ، والجهاز اللمفاوى .

فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ .

أنعم وأكرم بقدرة الله وحده ، الذى خلق الإنسان من منىٍّ يمنى ، ثم أنشأه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

أى : فى يوم القيامة الويل والعذاب الأليم للمكذبين بقدرة الله ، فهو الذى خلق الإنسان من منى يمنى ، ومَنْ بدأ الخلق قادر على إعادته ، بل الإعادة أهون من البدء ، فمن كذَّب بالبعث والجزاء فله الويل والعذاب يومئذ ، أى يوم القيامة .

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ – أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

كِفَاتًا : وعاءً .

جعلنا الأرض وعاءً لكم منها تأكلون وتشربون ، وعلى طرقها تسيرون ، وتسكنون دورها ومنازلها ، وجعل الأرض جامعة لأمر معاشكم وتجارتكم وتنقلاتكم، فهى ضامة وجامعة للأحياء على ظهرها ، وللأموات فى بطنها ، حيث يدفنون فى بطنها ، وتستر الأموات من رؤوسهم إلى أقدامهم .

قال تعالى : ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ . (عبس : ٢١) .

أى : أسكنه القبر ، وهى نعمة أىّ نعمة .

قال الشعبى : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم .

وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . (طه : ٥٥)

قال المفسرون :

الكفت : الجمع والضمّ ، فالأرض تجمع وتضم إليها جميع البشر ، فهى كالأمِّ لهم ، الأحياء يسكنون فوق ظهرها فى المنازل والدُّور ، والأموات يسكنون فى بطنها فى القبور . اهـ .

وجاء التنكير للتفخيم كأنه قيل : تكفت أحياءً لا يعدّون على ظهرها ، وتكفت أمواتا لا يُحصرون فى بطنها.

وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ...

جعلنا فيها ثوابت مرتفعات ، فالجبال تثبت الأرض ، وتمسكها من الفوران بسبب الزلازل والبراكين والحمم التى بداخلها .

قال تعالى : وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ... (النحل : ١٥) .

وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا .

وأسقيناكم ماءً عذبا سائغا لذيذا ، والقرآن يمتن علينا بالماء والبساتين والزروع والثمار عقب ذكر الجبال .

قال تعالى : وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . (النازعات : ٣٢ ، ٣٣) .

فالجبال تُثبِّت الأرض وتحفظ توازنها ، وإليها يلجأ العُبَّاد والزهاد ، والراغبون فى الخلوة ، والهاربون من الحياة .

وفى قللها ورؤوسها نجد الثلوج والمياه ، مثل جبل الشيخ فى سوريا الذى تعلوه طبقة بيضاء من الثلج ، تذوب فى الصيف وتنزل على الوديان فتسقى الزرع ، وتفيد الإنسان والحيوان .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

فالماء فى البحار وفى الأنهار ، وفى العيون والآبار ، مصدر حياة ونعمة للإنسان والحيوان والزروع وسائر الأحياء .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

هلاك فى يوم القيامة للمكذبين برسل الله ، والكافرين بنعم الله رب العالمين .

★ ★ ★

## ألوان عذاب الكافرين

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**ظل :** هو دخان جهنم .

**ثلاث شعب :** فرق ثلاث كالذوائب .

**لا ظليل :** غير مظل من الحرّ .

**لا يغنى من اللهب :** لا يدفع شيئًا من لهب جهنم .

**ترمى بشرر :** هو ما تطاير من النار متفرقًا .

**كالقصر :** كل شررة كالبناء المشيّد فى العظم والارتفاع .

**كأنه جمالة صفر :** كأن الشرر إبلٌ سود (وتسمّيها العرب صُفرًا) فى الكثرة والتتابع وسرعة الحركة واللّون .

**لكم كيد :** حيلة لاتقاء العذاب .

**التفسير :**

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ - ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ .

أى : سيروا إلى عذاب جهنم التى كنتم تكذّبون بها ، وتستبعدون أن تنالكم ، وتدّعون أنكم قادرون على أن تهزموا حرّاس جهنم التسعة عشر وتخْرجُوا منها ، فأخبركم الله أنهم ملائكة ، وإذا كلفهم الله بأمر أعطاهم القدرة على تنفيذه .

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ .

هناك فى يوم القيامة مواقف متعددة ، ومن هذه المواقف العذاب تحت ظلٍّ فى جهنم ، هذا الظل ليس باردًا مريحًا ، ولا واقيًا من حر الشمس ، وليس له حيطان وستور تحمى من لهب النار .

كما قال تعالى : لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . (الواقعة : ٤٤) .

فتسميته بالظل من باب التهكم أو المقابلة ، حيث يتمتع المؤمنون بظل ظليل .

قال تعالى : وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا ... (الإنسان : ١٤) .

أما الكفار فقال الله عنهم : وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . (الواقعة : ٤٣ ، ٤٤) .

إن الظل ألوان من العذاب ، فأحيانًا يكون الظل تحتهم وفوقهم ، قال تعالى : لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ... (الزُّمر : ١٦) .

والظلّ فى جهنم من كثرته وطوله وقوّته يتشعب إلى ثلاث شعب ، ربما كانت واحدة فوقهم ، وأخرى تحت أرجلهم ، وثالثة عن يسارهم ، كفانا الله شر النار وعذاب النار .

قال تعالى : يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... (العنكبوت : ٥٥) .

لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ .

إنه ظل خانق يأخذ بالأنفاس ، ويتسبب فى شدة العطش ، ولا يحمى من لهب جهنم ، والشمس تلفح الكافرين وتسفعهم ، وتأخذ بأنفاسهم ، أما المؤمنون فيظلّون فى ظل عرش الله يوم لا ظلّ إلا ظله .

وذهب بعض المفسرين إلى أن ظلّ جهنم ينقسم إلى ثلاث شعب : شعبة للمنافقين ، وشعبة للكافرين ، وشعبة لعصاة المؤمنين ، وكل شعبة تناسب أصحابها ، وتناسب حجم العذاب الذى يستحقّونه منها .

**٣٢ - إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ .**

الضمير فى : إِنَّهَا ، لجهنم ، وصح عود الضمير عليها مع عدم ذكرها صراحة لأنها تُفهم من السياق ، فالمكذبون لا ينطلقون إلاّ إلى النار ، أو إلى ألوان من عذابها ، وجهنم ينطلق منها شرر كبير فى حجم القصر ، وهو البناء العالى العظيم ، أو الحصن المنيع .

**٣٣ - كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ .**

شبه الشرر فى كبره وضخامته بالقصر ، وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كلّ بيت من حجر ، وليس من الضرورى أن يكون فى ضخامة ما نعهد الآن من قصور .

وإذا تتابع الشرر أشبه الجمالة الصُفر فى سرعتها وتتابعها وكثرة حركتها .

ومن المفسرين من قال : إن المراد الإبل السود التى تضرب إلى الصفرة .

ورجّح الفخر الرازى أن المراد : الإبل الصفراء ، لأن الشرر إنما يسمى شررًا ما دام يكون نارًا ، ومتى كان نارًا كان أصفر ، وإنما يصير أسود إذا انطفأ ، وعندئذ لا يسمى شررًا ، ولعل هذا الرأى أقرب إلى الصواب .

والجِمالَةُ : جمع جمل ، لحقت بها التاء لتأنيث الجمع .

والمقصود بتشبيه الشرر بالقصر : بيان أن النار عظيمة جدًّا .

والمقصود بالتشبيه الثانى : شدة اشتعالها وسرعة أفعالها .

وقانا الله جميعًا شر النار ، وعذاب النار ، آمين .

**٣٤ - وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .**

عذاب شديد يوم القيامة للمكذبين برسل الله وآياته .

**٣٥ ، ٣٦ - هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .**

فى يوم القيامة ساعات متعددة ، فى ساعات يُسمح لهم بالكلام ، أو الاعتذار عما فعلوه فى الدنيا ، وفى ساعات يعم الصمت الرهيب ولا يُسمح لهم بالكلام ، أو هم من تلقاء أنفسهم قد اشتدت رهبتهم ، وأهوالهم من شدة ما رأوا ، فلاذوا بالصمت .

قال تعالى : وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ . (النمل : ٨٥) .

**قال ابن كثير :**

وعرصات القيامة حالات ، والربُّ تعالى يُخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ، ليدلّ على شدة الأهوال والزلازل يومئذ .

**وقال القاسمى :**

**هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ .**

أى : بحجة ، أو فى وقت من أوقاته ، لأنه يوم طويل ، ذو مواقف ومواقيت ، أو جعل نطقهم كلا نطق ، لأنه لا ينفع لا يسمع . اهـ .

وقال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون ، والعرب تقول : أنت لم تقل شيئًا ، لمن تكلم بكلام غير مفيد .

فلا ينافى ذلك قوله تعالى على لسان المشركين : وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . (الأنعام : ٢٣) .

وقوله تعالى : وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا . (النساء : ٤٢) .

وقوله سبحانه : ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . (الزمر : ٣١) .

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .

لا يُسمح لهم بإبداء العذر عما ارتكبوه فى الدنيا ، لأنها أعذار مرفوضة ، أو هى كاذبة ، أو أعذار غير موضوعية ، بعد أن قامت الحجة عليهم وثبتت عليهم التهمة .

قال تعالى : لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ... (التوبة : ٦٦) .

وقال سبحانه : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (التحريم : ٧) .

والمراد أنهم ليس لهم عذر ولا حجة فيما ارتكبوا من المفاسد والمنكرات ، وأنه لا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم .

٣٧ - وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

عذاب شديد للمكذبين بالوحى والرُّسل والبعث والقيامة .

٣٨ - هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ .

يجمع الله الأولين والآخرين فى عرصات القيامة ، فى وقت واحد ، ومشهد واحد ، جمعهم الحق سبحانه بقدرته .

قال تعالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (الأنعام : ٩٤) .

ويُسمى يوم القيامة يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل .

جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ .

أى : جمعناكم بقدرتنا يا كفار قريش ، وأمثالكم من المتأخرين على مرّ الدهور فى يوم الفصل ، مع الكفار الأولين ، وهم كفار الأمم الماضية ، فى صعيد واحد ، ولجزاء واحد .

٣٩ - فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ .

أى : افعلوا ما بدا لكم ، أو إن استطعتم أن تتخلصوا من قبضتى وتنجوا من حكمى فافعلوا ، أو إنْ قدرتم على المكر والتلبيس والحيل فافعلوا ، وأنّى لكم ذلك وقد انقطعت الحيلُ فى الدنيا ، وأصبحتم أمام أعين الله الباصرة ، وهو سبحانه لا يخفى عليه شىء ، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وفى ذلك تهديد شديد ، ووعيد أكيد .

٤٠ - وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

هلاك شديد فى ذلك اليوم للمكذبين بآيات الله ووعده ووعيده .

**جاء فى مختصر تفسير ابن كثير للصابونى ما يأتى :**

أخرج ابن أبى حاتم ، عن عبادة بن الصامت أنه قال : إذا كان يوم القيامة ، جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعى ، ويقول الله : هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ . اليوم لا ينجو منّى جبار عنيد ولا شيطان مريد .

★ ★ ★

## نعيم المتقين ، وتهديد المجرمين

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**ظلال :** واحدها ظلّ ، وهو أعمّ من الفىء ، فإنه يقال : ظل الليل ، وظل الجنة ، ولكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال فىءٌ إلا لما زالت عنه الشمس ، ويُعبر بالظلّ أيضًا عن الرفاهية ، وعن العزّة .

**عيون :** أنهار .

**مما يشتهون :** مما يتمنون .

**هنيئا :** لا يشوبه سقم ولا تنغيص .

**اركعوا :** صلُّوا .

**حديث :** كلام .

**تمهيد :**

فى ختام السورة التى هددت الكافرين ، وقدمت عدة فقرات تحدثت عن أهوال القيامة وهلاك الظالمين ، وخلق الإنسان ، ومشاهد الكون ، وألوان العذاب فى جهنم للكافرين ، تستعرض هنا نعيم المتقين ، وما يتمتعون به من الظلال والعيون والفواكه ، وألوان التكريم والنعيم .

ثم نعت على الكفار استكبارهم وعنادهم ، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن مع نصوع حجّته ، ووضوح بيانه ، فبأى كلام بعده يصدِّقون ؟

**التفسير :**

٤١ - إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ .

يتمتع المتقون بظلال الأشجار وظلال القصور، فلا يصيبهم حرّ ولا قرّ، ويُمتعون بالعيون والأنهار، ويتنعّمون فى دار الخلد والكرامة ، بعكس الكافرين الذين هم فى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب .

وفى سورة يس يقول الله تعالى : إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ . (يس : ٥٥ - ٥٧).

٤٢ - وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ .

وفواكه كثيرة متنوعة ، مما يستطيبون ويستلذون ..

٤٣ - كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : يقال للمتقين : كلوا أكلا هنيئًا ، واشربوا من هذه العيون كلما شئتم ، شربًا هنيئًا خالص اللذة ، لا يشوبه سقم ولا يكدره تنغيص ، وهو دائم لكم ، لا يزول ولا يورثكم أذًى فى أبدانكم ، وكل ذلك بسبب أعمالكم الصالحة فى الدنيا ، وطاعتكم لله واجتهادكم فى مرضاته .

٤٤ - إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

إنا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى كل من أحسن عمله ، واتقى ربّه .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . (الكهف : ٣٠).

٤٥ - وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

عذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بالقرآن ، وبما وعد الله المتقين من تكريم مادّى ومعنوى .

٤٦ - كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ .

أى : كلوا أيها الكفار ملء بطونكم ، وتمتعوا بشهواتكم فى أيام الدنيا ، وهى قليلة بالنسبة للآخرة .

إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ .

لا تستحقون التكريم فى الآخرة ، فقد بعتم آخرتكم واشتريتم دنياكم وحظوظكم العاجلة ، فكنتم أشبه بالأنعام التى لا يهمها إلا ملء بطونها وإشباع شهواتها .

قال تعالى : إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (الأنفال : ٥٥) .

وقال عز شأنه : قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . (النساء : ٧٧) .

٤٧ – وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

عذاب شديد للمكذبين بأوامر الله ، قال تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

٤٨ – وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ .

وإذا قيل لهؤلاء الكفار : صلُّوا مع المصلين ، واخضعوا لأوامر الله ، وادخلوا فى دين الإسلام ؛ أبوا وامتنعوا .

رُوى أن هذه الآية نزلت فى ثقيف حين أمرهم النبى ﷺ بالصلاة ، فقالوا : لا نحبو (لا نركع) فإنّها سُبة علينا ، فقال ﷺ : «لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود» .

وروى ابن جرير ، عن ابن عباس أنه قال : إنما يقال هذا فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، من جرّاء أنهم لم يكونوا يسجدون فى الدنيا .

٤٩ – وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

أى : بأوامر الله ونواهيه .

٥٠ – فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ .

أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم مع وضوح حجته واكتمال فصاحته وبلاغته ، فبأى كلام يؤمنون ؟

وذلك كقوله تعالى : فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ . (الجاثية : ٦) .

جاء في تفسير ابن كثير :

رُوى عن أبى هريرة : إذا قرأ : وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا . فقرأ : فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ . فليقل : آمنت بالله وبما أُنْزِل . أخرجه ابن أبى حاتم .

## فضل سورة المرسلات

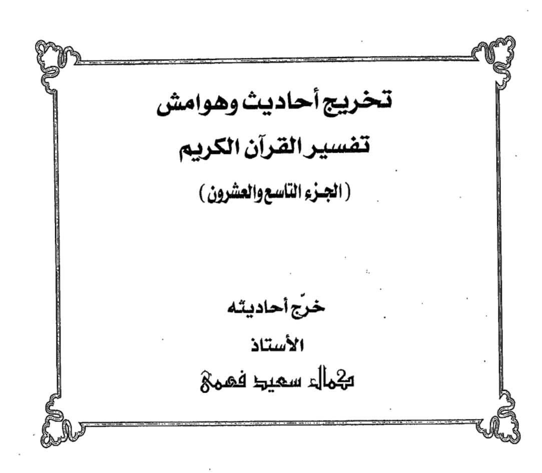
عن ابن عباس أن أمّ الفضل سمعته يقرأ : وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا . فقالت : يا بُنىّ ، ذكرتنى بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها فى المغرب[١٠٥] .

وقد أخرجه الشيخان من طريق مالك عن الزهرى .

★ ★ ★

وكان الفراغ من تفسير الجزء (التاسع والعشرين) من القرآن الكريم عصر يوم الإثنين ٢٩ من المحرم ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٣/٤/٢٠٠١م ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★



# تخريج أحاديث وهوامش
# تفسير القرآن الكريم

( الجزء التاسع والعشرون )

خرّج أحاديثه

الأستاذ

جمال سعيد فهمي

(١) فى ظلال القرآن ٢٩ / ١٨٤ .

(٢) الله والعلم الحديث، للأستاذ عبدالرازق نوفل، ص ٥٧.

(٣) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى ٤٧٣/١.

(٤) رواه أبو داود والترمذى وحسنه وغيرهما، وانظر الترغيب والترهيب.

(٥) إن العبد إذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع:
رواه البخارى فى الجنائز (١٣٣٨ ، ١٣٧٤) ومسلم فى الجنة (٢٨٧٠) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣١) وفى السنة (٤٧٥١) والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٩) وأحمد فى مسنده (١١٨٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ﷺ ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال النبى ﷺ: «فيراهما جميعا، وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين». وأحمد فى مسنده (٨٣٥٨) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا». ورواه أبو داود فى السنة (٤٧٥٣) من حديث البراء.

(٦) والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم:
رواه البخارى فى المغازى (٣٩٧٦) من حديث أبى طلحة أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا»، قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونقيمة وحسرة وندما. ورواه البخارى فى الجنائز (١٣٧٠) وفى المغازى (٤٠٢٦) من حديث ابن عمر قال: اطلع النبى ﷺ على أهل القليب فقال: «وجدتم ما وعد ربكم حقا» ؟ فقيل له: تدعو أمواتا ؟ فقال: «ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون». ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٣) من حديث أنس كنت مع عمر (ح) وحدثنا شيبان بن فروخ واللفظ له حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال وكنت رجلا حديد البصر فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيرى قال: فجعلت أقول لعمر أما تراه، فجعل لا يراه، قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشى ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله»: قال: فقال عمر: فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ قال: فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقا» ؟ قال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها ؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علىّ شيئا». ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٥) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا» ؟ فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا، قال: «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر.

(٧) لن يهلك الناس حتى يعذروا:

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤٧) وأحمد فى مسنده (١٧٨٣٥) من حديث أبى البخترى قال: أخبرنى من سمع النبى ﷺ يقول ـ وقال سليمان: حدثنى رجل من أصحاب النبى ﷺ ـ أن النبى ﷺ قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا أو يعذروا من أنفسهم».

(٨) مختصر تفسير ابن كثير، بتحقيق محمد على الصابونى، المجلد ٣، ص ٥٢٨.

(٩) تتمة الحديث: «سبعة يظلّهم الله تعالى فى ظلّه يوم لا ظل الا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه».

(١٠) مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم:

رواه البخارى فى الأدب (٦٠١١)، ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)، وأحمد (١٧٦٣٢، ١٧٦٤٨) من حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى».

(١١) الحرد: المنع.

(١٢) العين تدخل الرجل القبر:

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن جابر أن النبى ﷺ قال: «العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر».

(١٣) إن العين لتولع بالرجل:

رواه أحمد فى مسنده (٢٠٧٩٥) من حديث أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقا ثم يتردى منه».

(١٤) كان خلقه القرآن:

رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦) عن زرارة أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله، فقدم المدينة فأراد أن يبيع عقارا له بها، فيجعله فى السلاح والكراع، ويجاهد الروم حتى يموت، فلما قدم المدينة لقى أناسا من أهل المدينة فنهوه عن ذلك، وأخبروه أن رهطا ستة أرادوا ذلك فى حياة نبى الله ﷺ، فنهاهم نبى الله ﷺ، وقال «أليس لكم فىَّ أسوة» ؟ فلما حدثوه بذلك راجع امرأته، وقد كان طلقها، وأشهد على رجعتها، فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ ؟ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال: من ؟ قال: عائشة، فأتها فاسألها، ثم ائتنى فأخبرنى بردها عليك، فانطلقت إليها فأتيت على حكيم بن أفلح. فاستلحقته إليها. فقال: ما أنا بقاربها لأنى نهيتها أن تقول فى هاتين الشيعتين شيئا فأبت فيهما إلا مضيا. قال: فأقسمت عليه فجاء، فانطلقنا إلى عائشة فاستأذنا عليها، فأذنت لنا، فدخلنا عليها. فقالت: أحكيم ؟ (فعرفته) فقال: نعم. فقالت: من معك ؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام ؟ قال: ابن عامر. فترحمت عليه. وقالت خيرا. (قال قتادة: وكان أصيب يوم أحد) فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن ؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم... الحديث. وأحمد مختصراً (٢٣٤٦٠، ٢٤١٣٩، ٢٤٦٢٩).

(١٥) خدمت النبى ﷺ عشر سنين:

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٦٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٠٩) والترمذى فى البر والصلة (٢٠١٥) واللفظ له. من حديث أنس قال: خدمت النبى ﷺ عشر سنين، فما قال لى أف قط، وما قال لشىء صنعته: لم صنعته، ولا لشىء تركته: لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. قال الترمذى: وفى الباب عن عائشة والبراء، وهذا حديث حسن صحيح.

(١٦) لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا:

رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٦٠) والترمذى فى المناقب (٣٨٩٦، ٣٨٩٧) وأحمد فى مسنده (٣٧٥٠) من حديث عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وقال الترمذى: حديث غريب.

(١٧) إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير:

رواه البخارى فى الوضوء (٢١٨) وفى الجنائز (١٣٦١، ١٣٧٨) وفى الأدب (٦٠٥٢) ومسلم فى الطهارة (٢٩٢) والنسائى فى الجنائز (٢٠٦٩) وابن ماجة فى الطهارة (٣٤٧) وأحمد فى مسنده (١٩٨١) من حديث ابن عباس قال: مرّ النبى ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين فغرز فى كل قبر واحدة، قالوا: يا رسول الله، لم فعلت هذا ؟ قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». وقال محمد بن المثنى: وحدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش قال: سمعت مجاهدا مثله: يستتر من بوله. ورواه ابن ماجة فى الطهارة (٣٤٩) وأحمد فى مسنده (١٩٨٦٠) من حديث أبى بكرة قال: مرّ النبى ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فيعذب فى البول، وأما الآخر فيعذب فى الغيبة».

(١٨) لا يدخل الجنة قتات:

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٥٦) ومسلم فى الإيمان (١٠٥) من حديث همام قال: كنا مع حذيفة، فقيل له: إن رجلا يرفع الحديث إلى عثمان، فقال له حذيفة: سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

(١٩) ألا أخبركم بخياركم:

رواه أحمد فى مسنده (٢٧٠٥٢) من حديث أسماء بنت يزيد أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم» ؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: «الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى» ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت».

(٢٠) فيها ما لا عين رأت:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٤)، وفى التفسير (٤٧٧٩، ٤٧٨٠)، وفى التوحيد (٧٤٩٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤)، والترمذى فى التفسير (٣١٩٧، ٣٢٩٢)، وابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٨)، وأحمد (٩٣٦٥، ٩٦٨٨، ١٠٠٥١)، والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة.

(٢١) يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩١٩) وفى التوحيد (٧٤٤٠)، ومسلم فى الإيمان (١٨٣) من حديث أبى سعيد رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا».

ورواه الدارمى فى الرقاق (٢٨٠٣) من حديث أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله العباد فى صعيد واحد نادى مناد: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، فيلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ويبقى الناس على حالهم فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم ها هنا ؟ فيقولون: ننتظر إلهنا، فيقول: هل تعرفونه ؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه. فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجودا فذلك قول الله تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد، ثم يقودهم إلى الجنة».

(٢٢) تفسير القرآن لأبى المظفر السمعانى (٤٢٦ ـ ٤٨٩ هـ) المجلد السادس من المُلك الى الناس، ص ٣٠، دار الوطن للنشر، الرياض.

(٢٣) تفسير البغوى «معالم التنزيل» للحسين بن مسعود البغوى المتوفى (٥١٦ هـ) المجلد ٨ ، ص ٢٠١ دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض سنه ١٤١٢ هـ.

(٢٤) تفسير المراغى، الجزء ٢٩ ص (٤٥، ٤٦).

(٢٥) إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته:

رواه البخارى فى التفسير باب: قوله: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (٤٤٠٩) ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجة فى الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». قال: ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾.

(٢٦) العين تدخل الرجل القبر:

تقدم تخريجه، انظر هامش (١٢)

(٢٧) تفسير أبى السعود، لقاضى القضاة الإمام أبى السعود محمد بن محمد العمّادىّ، المتوفى سنة (٩٥١ هـ).

(٢٨) روح المعانى، للعلامة الآلوسى البغدادى، تفسير الجزءين ٢٩ ـ ٣٠، ص ٣٨ .

(٢٩) المرجع السابق، وقد استشهد بهذه الفقرة التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ١٥٤٦.

(٣٠) أ. كريس موريسون، رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك. فى كتابه المترجم بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

(٣١) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، للفيروزبادى، ٤٧٨/١.

(٣٢) نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور:

ه البخارى فى الجمعة (١٠٣٥) وفى بدء الخلق (٣٢٠٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) وفى المغازى (٤١٠٥) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٩٠٠) وأحمد فى مسنده (١٩٥٦) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

(٣٣) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، دار الصابونى القاهرة، ص ٥٤٢ مجلد ٣.

(٣٤) تفسير القاسمى، تحقيق أ. محمد فؤاد عبدالباقى، المجلد ٧ ص ١٧٠ ، دار إحياء التراث العربى، بيروت لبنان.

(٣٥) يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات:

رواه الترمذي فى صفة القيامة (٢٤٢٥) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله». قال الترمذى: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى هريرة، وقد رواه بعضهم عن على الرفاعى عن الحسن عن أبى موسى عن النبى ﷺ.

ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤٢٧٧) وأحمد فى مسنده (١٩٢١٦) من حديث أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله». قال الترمذي: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى موسى.

(٣٦) فى ظلال القرآن الجزء ٢٨ ص ٢٥٤.

(٣٧) فى ظلال القرآن، الجزء ٢٩ ص ٢٥٥، الطبعة السادسة، بدون ذكر اسم المطبعة أو تاريخ الطبع.

(٣٨) أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا:

ذكره القرطبى فى تفسيره فقال: وفى الصحيح عن النبى ﷺ: «أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا، ويصحون فلا يمرضون أبدا، وينعمون فلا يرون بؤسا أبدا، ويشبون فلا يهرمون أبدا».
فنسبه للصحيح ولم أره بهذا اللفظ فى الصحيحين ولا السنن، فليحرر.

(٣٩) إن فى الجنة مائة درجة:

جزء من حديث، رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وفى التوحيد (٧٤٢٣)، وأحمد (٧٨٦٣، ٨٢١٤، ٨٢٦٩)، من حديث أبى هريرة مرفوعاً: «من آمن بالله وبرسوله...» الحديث. ورواه الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٩)، وأحمد (٢١٥٨٢)، من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً: «من صام رمضان وصلى الصلوات...» الحديث. ورواه الترمذى أيضا فى صفة الجنة (٢٥٣٠)، وأحمد (٢٢١٨٧، ٢٢٢٣٢)، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «فى الجنة مائة درجة...» الحديث. وأشار الترمذى إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما.

(٤٠) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٥٤٦.

(٤١) كلمتان خفيفتان على اللسان:

رواه البخارى فى الدعوات (٦٤٠٦) وفى الأيمان والنذور (٦٦٨٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٩٤) والترمذى فى الدعوات (٣٤٦٧) وابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٦) وأحمد فى مسنده (٧١٢٧) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده».

(٤٢) فى ظلال القرآن ٩٦/٢٩، بتصرف.

(٤٣) فى رواية عن ابن عباس أن الذى سأل هو النضر بن الحارث، وفى رواية أخرى عنه قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم.

(٤٤) بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى ٤٨٠/١، بتصريف.

(٤٥) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار:

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٥)، وفى التوحيد (٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم فى المساجد (٦٣٢)، والنسائى فى الصلاة (٤٨٥)، وأحمد (٢٧٣٣٦، ٩٩٣٦)، ومالك فى النداء للصلاة (٤١٣)، من حديث أبى هريرة بلفظ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»، ورواه البخارى فى الأذان (٦٤٩)، وفى تفسير القرآن (٤٧١٧)، ومسلم فى المساجد (٦٤٩)، والترمذى فى التفسير (٣١٣٥)، والنسائى فى الصلاة (٤٨٦)، وابن ماجة فى الصلاة (٦٧٠)، وأحمد (٧١٤٥، ٧٥٥٧، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضاً بلفظ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح». يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ .

(٤٦) أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى.

(٤٧) لا توعى فيوعى الله عليك:

رواه أحمد فى مسنده (٢٤٥٥٨، ٢٤٧٣٩) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال: «لا توعى فيوعى الله عليك». ورواه البخارى فى الزكاة (١٤٣٤) وفى الهبة (٢٥٩٠، ٢٥٩١) ومسلم فى الزكاة (١٠٢٩) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٨٢، ٢٦٣٩٤) حدثنا عبيدالله بن سعيد حدثنا عبدالله بن نمير حدثنا هشام بن عروة عن فاطمة عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال: «أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك، ولا توعى فيوعى الله عليك».

(٤٨) شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع:

رواه أحمد فى مسنده (٧٩٥٠) وأبو داود فى الجهاد (٢٥١١) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع».

(٤٩) عجباً لأمر المؤمن:

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له، وأحمد (١٨٤٥٥، ١٨٤٦٠، ٢٣٤٠٦، ٢٣٤١٢)، والدارمى (٢٧٧٧)، من حديث صهيب ابن سنان، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

(٥٠) أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل:

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٦٤) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

(٥١) اضمنوا لى ستا من أنفسكم:

رواه أحمد (٢٢٢٥١)، من حديث عبادة بن الصامت.

(٥٢) صفوة التفاسير، محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٤٤٦.

(٥٣) ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه:

رواه أحمد فى مسنده (١٧٣٨٧) وابن ماجة فى الوصايا (٢٧٠٧) من حديث بسر بن جحاش القرشى أن النبى ﷺ بصق يوما فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قال الله: ابن آدم، أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة».

(٥٤) فى ظلال القرآن، الجزء ٢٩ ص ٣٠١.

(٥٥) انظر تفسير ابن جرير، وتفسير ابن كثير.

(٥٦) تفسير المراغى، الجزء ٢٩ ص (٨٧، ٨٨).

(٥٧) فى ظلال القرآن ١٥١/٢٩.

(٥٨) إن هذا المال خضرة حلوة:
رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٤٢) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٩٥) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «إنما أخشى عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من بركات الأرض»، ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأخرى، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أو يأتى الخير بالشر ؟ فسكت عنه النبى ﷺ قلنا: يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رءوسهم الطير، ثم إنه مسح عن وجهه الرحضاء فقال : «أين السائل آنفا أو خير هو» ؟ ثلاثا «إن الخير لا يأتى إلا بالخير وإنه كلما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر كلما أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة ونعم صاحب المال لمن أخذه بحقه فجعله فى سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه فهو كالآكل الذى لا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة».

(٥٩) أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا:
رواه مسلم فى الزكاة (١٠٥٢) من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال: «بركات الأرض». قالوا: يا رسول الله وهل يأتى الخير بالشر ؟ قال: «لا يأتى الخير إلا بالخير، لا يأتى الخير إلا بالخير، لا يأتى الخير إلا بالخير، إن كل ما أنبت الربيع يقتل أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها تأكل حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس ثم اجترت وبالت وثلطت ثم عادت فأكلت، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع».

(٦٠) ما الفقر أخشى عليكم:
رواه البخارى (٣١٥٨، ٤٠١٥) ومسلم (٢٩٦١) وأحمد (١٨٤٣٦) والترمذى (٢٤٦٢) من حديث عمرو بن عوف.

(٦١) التفسير المنير، أ. د وهبة الزحيلى، الجزء ٢٩ ص ١٧٥.

(٦٢) أمرت أن أسجد على سبعة أعظم:
رواه البخارى فى الأذان (٨١٢) ومسلم فى الصلاة (٤٩٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة - وأشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نكفت الثياب والشعر».

(٦٣) من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد:
رواه مسلم فى المساجد (٥٦٨) وأبو داود فى الصلاة (٤٧٣) وابن ماجة فى المساجد (٧٦٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا». ورواه النسائى فى المساجد (٧١٧) من حديث جابر قال: جاء رجل ينشد ضالة فى المسجد فقال له رسول الله ﷺ: «لا وجدت».

(٦٤) اعملوا فكل ميسر لما خلق له:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٤٩)، فى التوحيد (٧٥٥١)، ومسلم فى القدر (٢٦٤٧، ٢٦٤٩)، والترمذى فى القدر (٢١٣٦)، وفى التفسير (٣١١١)، وأبو داود فى السنة (٤٧٠٩)، وابن ماجة فى المقدمة (٧٨، ٩١)، وفى التجارات (٢١٤٢)، وأحمد (٢٠، ٦٢٢، ١٣٥٢)، من حديث على، وعمر، وعمران بن الحصين، وأبى حميد، وسراقة، وأبى بكر الصديق.

(٦٥) ما المسئول عنها بأعلم من السائل:

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) وفى التفسير (٤٧٧٧) ومسلم فى الإيمان (٩، ١٠) والنسائى فى الإيمان (٤٩٩١) وابن ماجة فى المقدمة (٦٣) وفى الفتن (٤٠٤٤) من حديث أبى هريرة قال: كان النبى ﷺ بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان ؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث». قال: ما الإسلام ؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: ما الإحسان ؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: متى الساعة ؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبى ﷺ ﴿ إن الله عنده علم الساعة... ﴾ الآية. ثم أدبر فقال: «ردوه»، فلم يروا شيئا فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم». قال أبو عبدالله: جعل ذلك كله من الإيمان. ورواه مسلم فى الإيمان (٨) وأحمد فى مسنده (١٨٥) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وابن ماجة فى المقدمة (٦٣) من حديث عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد، أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا». قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرنى عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرنى عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرنى عن أماراتها قال: «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان»، قال: ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى: «يا عمر، أتدرى من السائل» ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

(٦٦) أنت مع من أحببت:

رواه البخارى فى المناقب (٣٦٨٨) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٩) من حديث أنس رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها» ؟ قال: لا شىء إلا أنى أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «أنت مع من أحببت»، قال أنس: فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

(٦٧) تفسير القرطبى، المجلد الثامن، ص ٧٠٠٨.

(٦٨) تفسير القرطبى، المجلد الثامن، ص (٧٠٠٩ ، ٧٠١٠) دار الغد العربى، العبّاسية القاهرة.

(٦٩) ورد ذلك المعنى فى الصحيحين.

**(٧٠) ليس منا من لم يتغن بالقرآن:**

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٢٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». وزاد غيره: «يجهر به». ورواه أبو داود فى الصلاة (١٤٦٩، ١٤٧١) والدارمى فى الصلاة (١٤٩٠) وفى فضائل القرآن (٣٤٨٨) وأحمد فى مسنده (١٤٧٩) من حديث سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

**(٧١) لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود:**

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٣) والترمذى فى المناقب (٣٨٥٥) من حديث أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود».

**(٧٢) ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد:**

رواه البخارى فى بدء الوحى (٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٣٤) من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول». قالت عائشة رضى الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا.

**(٧٣) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة:**

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥)، وفى الدعوات (٦٣٢١)، وفى التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك فى الموطأ، كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٦٦) وفى الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٣٨، ٧٥٦٧، ٣٧٣٣، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٢، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٢، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم. ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى. ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٣٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على.

**(٧٤) عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم:**

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٤٩) من حديث بلال أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد».

قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه ولا يصح من قبل إسناده، قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد القرشى هو محمد بن سعيد الشامى وهو ابن أبى قيس وهو محمد بن حسان وقد ترك حديثه، وقد روى هذا الحديث معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم». قال أبو عيسى: وهذا أصح من حديث أبى إدريس عن بلال.

**(٧٥) فى ظلال القرآن، بتصرف واختصار.**

**(٧٦) انظر تفسير الخطيب، الجزء الرابع، تفسير سورة المزمل. وفى ظلال القرآن ١٨٠/٢٩.**

(٧٧) جاورت بحراء فلما قضيت جوارى:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٢٢) ومسلم في الإيمان (١٦١) من حديث يحيى بن أبى كثير قال: سألت أبا سلمة ابن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿ يا أيها المدثر ﴾ قلت: يقولون: ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله رضى الله عنه عن ذلك وقلت له مثل الذى قلت ؛ فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ونظرت أمامى فلم أر شيئا ونظرت خلفى فلم أر شيئا فرفعت رأسى فرأيت شيئا، فأتيت خديجة فقلت: دثرونى وصبوا على ماء باردا قال: فدثرونى وصبوا على ماء باردا، قال: فنزلت ﴿ يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر ﴾.

(٧٨) ذكر بعض المفسرين تبعا للزمخشرى أن الذين أسلموا : (خالد، وعمارة، وهشام)، والصحيح أنه الوليد، أما عمارة فإنه مات كافراً. انظر صفوة التفاسير للصابونى نقلاً عن حاشية الشهاب ٢٧٤/٨ .

(٧٩) يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام:

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٤٢) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٧٣) من حديث عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

(٨٠) إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون:

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) وأحمد فى مسنده (٢١٠٠٥) من حديث أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطت وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، والله لوددت أنى كنت شجرة تعضد». وقال الترمذى: حسن غريب.

(٨١) فى ظلال القرآن الجزء ٢٩ ، ص (١٩٢ ، ١٩٣) بتلخيص وتصرف، الطبعة السادسة، بدون ذكر اسم المطبعة. والغالب أنها طبعة مصورة فى بيروت ثم لم تذكر اسمها.

(٨٢) أنا أهل أن أتقى فمن اتقانى:

رواه أحمد فى مسنده (١٢٠٣٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٢٨) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٩٩) والدارمى فى الرقاق (٢٧٢٤) من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال فى هذه الآية ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ قال: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهل أن أغفر له».

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وسهيل ليس بالقوى فى الحديث، وقد تفرد بهذا الحديث عن ثابت.

(٨٣) لم تزل قلفتهم (بدون ختان).

(٨٤) إذا أنزل عليه القرآن يحرك به لسانه:

رواه البخارى فى بدء الوحى (٥) وفى التفسير (٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩) وفى فضائل القرآن (٥٠٤٤) ومسلم فى الصلاة (٤٤٨) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٢٩) من حديث ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه فأنزل الله: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ قال: فكان يحرك به شفتيه، وحرك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٨٥) قال تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى فلمّا تجلّى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّلُ المؤمنين﴾ (الأعراف: ١٤٣).

(٨٦) أخرجاه فى الصحيحين.

(٨٧) رواه البخارى ومسلم.

(٨٨) رواه مسلم.

(٨٩) أخرجه أحمد والترمذى.

(٩٠) مختصر تفسير ابن كثير، بتحقيق محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٥٧٧.

(٩١) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ١٠٩/٢٩.

(٩٢) تفسير المراغى، للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ١٦٤/٢٩، وانظر تفسير النسفى ٢٣٨/٤.

(٩٣) تفسير المراغى ١٦٦/٢٩.

(٩٤) تفسير النسفى ٢٣٨/٤.

(٩٥) تفسير الطبرى ١٣٧/٢٩.

(٩٦) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٥٨٤.

(٩٧) إنما الأعمال بالنيات:

رواه البخارى (١، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣) ومسلم فى كتاب الإمارة (٣٥٣٠)، والترمذى فى كتاب فضائل الجهاد (١٥٧١) والنسائى فى كتاب الطهارة (٧٤) وفى الطلاق (٣٣٨٣) وفى الأيمان والنذور (٣٧٣٤)، وأبو داود فى كتاب الطلاق (١٨٨٢)، وابن ماجة فى كتاب الزهد (٤٢١٧) وأحمد فى مسنده (١٦٣، ٢٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(٩٨) اعملوا فكل ميسر لما خلق له:

تقدم تخريجه، انظر هامش (٦٤)

(٩٩) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٥٨٥.

(١٠٠) فى ظلال القرآن ٢٣١/٢٩، بتصرف.

(١٠١) تفسير الطبرى ١٤٢/٢٩ مطبعة بولاق، الطبعة الأولى، ١٣٢٩هـ.

(١٠٢) الكفات: ما يكفت، أى يضم ويجمع.

(١٠٣) فى الشعر العربى:

والمستجير بعَمْرٍ عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

والرمضاء هى الرمل الساخن من شدة الحر، أى من قصد عَمْرًا وهو فى كربة فلن يجد ما يخفف عنه، بل سيجد ما يزيده ألما، وينقله الى ما هو أشد، كمن ينتقل من حرارة الرمال إلى حرارة النار. وكذلك الكفار ينتقلون من حرارة المحشر إلى ظل خانق لا يحمى من الحرّ ولا يقى من النار، وهو ظل مؤلم لا مريح.

(١٠٤) تفسير النسفى ٢٤٢/٤، ٢٤٣.

(١٠٥) يا بنى والله لقد ذكرتنى بقراءتك هذه السورة:

رواه البخارى فى الأذان (٧٦٣) ومسلم فى الصلاة (٤٦٢) وأبو داود فى الصلاة (٨١٠) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٤٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إن أم الفضل سمعته وهو يقرأ: ﴿ والمرسلات عرفا ﴾ فقالت: يا بنى والله لقد ذكرتنى بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها فى المغرب.

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (التاسع والعشرين)

## محتويات الكتاب

| رقم الآية | أول الآيات | رقم الصفحة |
|---|---|---|
| ١٣ | ﴿ليوم الفصل .﴾ | ٦٢٤٩ |
| ١٤ | ﴿وما أدراك ما يوم الفصل .﴾ | ٦٢٤٩ |
| ١٥ | ﴿ويل يومئذ للمكذبين .﴾ | ٦٢٤٩ |
| ١٦ | ﴿ألم نهلك الأولين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ١٧ | ﴿ثم نتبعهم الآخرين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ١٨ | ﴿كذلك نفعل بالمجرمين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ١٩ | ﴿ويل يومئذ للمكذبين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٠ | ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢١ | ﴿فجعلناه فى قرار مكين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٢ | ﴿إلى قدر معلوم .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٣ | ﴿فقدرنا فنعم القادرون .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٤ | ﴿ويل يومئذ للمكذبين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٥ | ﴿ألم نجعل الأرض كفاتًا .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٦ | ﴿أحياء وأمواتًا .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٧ | ﴿وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتًا .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٨ | ﴿ويل يومئذ للمكذبين .﴾ | ٦٢٥٣ |
| ٢٩ | ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٠ | ﴿انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣١ | ﴿لا ظليل ولا يغنى من اللهب .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٢ | ﴿إنها ترمى بشرر كالقصر .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٣ | ﴿كأنه جمالة صفر .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٤ | ﴿ويل يومئذ للمكذبين .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٥ | ﴿هذا يوم لا ينطقون .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٦ | ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٧ | ﴿ويل يومئذ للمكذبين .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٨ | ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٣٩ | ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون .﴾ | ٦٢٥٧ |
| ٤٠ | ﴿ويل يومئذ للمكذبين .﴾ | ٦٢٥٧ |

**تم بحمد الله تعالى الجزء (التاسع والعشرون)**

**ويليه الجزء (الثلاثون) بإذن الله تعالى**

# تفسير القرآن الكريم

## الجزء الثلاثون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



# جـــزء عـــمّ

تمهيد عام :

هذا هو الجزء الأخير من القرآن الكريم ، ويتميز بقصر الآيات ، وقصر السور ، وروعة الأسلوب ، وجمال القافية ، ليستلفت الأنظار إلى قدره الخالق ، وآثار الله فى الآفاق .

وكأن هذا الجزء دعوة متكررة لقوم نيام ، أو صيحة عارمة لسكارى غارقين فى اللهو ، يفيقون حينا ثم يهيمون فى ضلالهم حينًا آخر ، والسور توالى تنبيههم ، وتناديهم : أن أفيقوا وتنبهوا قبل فوات الأوان .

«وفى الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان ، والأحياء الأخرى فى هذه الأرض من نبات وحيوان ، وعلى مشاهد هذا الكون ، وآيات الله فى كتابه المفتوح ، وعلى مشاهد القيامة العنيفة ، الطامة الصاخة القارعة الغاشية ، ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب ، فى صور تقرع وتذهل وتزلزل ، كمشاهد القيامة الكونية فى ضخامتها وهولها ، واتخاذها جميعًا دلائل على الخلق والتدبير ، والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة ، مع التقريع بها والتخويف والتحذير ، وأحيانًا تصاحبها صور من مصارع الغابرين»[1] .

والأمثلة على هذا هى الجزء كله ، ومنه هذه السورة (سورة النبأ) ، وهى نموذج كامل لهذا التركيز على هذه الحقائق والمشاهد ، ومثلها سورة النازعات ، وسورة الانشقاق التى تعرض مشاهد الانقلاب الكونى ، ومشاهد النعيم والعذاب ، وسورة الطارق ، وسورة الغاشية .

★ ★ ★



# تفسير سورة النبأ

# أهداف سورة النبأ

(سورة النبأ مكية ، وآياتها ٤٠ آية ، نزلت بعد سورة المعارج).

سورة النبأ نموذج لاتجاه هذا الجزء ، بموضوعاته وحقائقه ، وصوره ومشاهده .

وهى تبدأ بسؤال موحٍ مثير للاستهوال والاستعظام ، وتضخيم الحقيقة التى يختلفون عليها ، وهى أمر عظيم لا خفاء فيه ولا شبهة ، ويعقب على ذلك بتهديدهم بيوم يعلمون حقيقته . (الآيات ١ – ٥) .

ثم يلفت السياق الأنظار إلى عدد من المشاهد والحقائق ، تتمثل فى خلق الأرض ، وإرساء الجبال ، وخلق الذكر والأنثى للتناسل والتكاثر وإشباع الرغبة والحاجة فى كل طرف إلى الآخر ، وخلق الليل سكنًا ، والنوم راحة وأمنًا ، والنهار سعيًا ومعاشًا ، وخلق السماء والشمس ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات والبساتين . (الآيات ٦ – ١٦) .

ثم يعود إلى مشهد القيامة والبعث (الآيات ١٧ – ٢٠) ويصف جهنم وأهوالها وعذابها ، وجحود أهلها وتكذيبهم بآيات الله . (الآيات ٢١ – ٣٠) .

ثم يصف نعيم المتقين فى الجنة وصنوف التكريم الحسى والمعنوى . (الآيات ٣١ – ٣٦) .

وتختم السورة بمشهد جليل فى يوم القيامة ، يوم تصف الملائكة صفا ، ويشتد الهول ، ويلقى كل إنسان جزاء عمله . (الآيات ٣٧ – ٤٠) .

## مع آيات السورة

كان المشركون كلما اجتمعوا فى نادٍ من أنديتهم أخذوا يتحدثون ويسأل بعضهم بعضًا ، ويسألون غيرهم فيقولون : أساحر هو أم شاعر ، أم كاهن أم اعتراه بعض آلهتنا بسوء ؟ ويتحدثون فى شأن القرآن : أهو سحر أم شعر أم كهانة ؟ ويقول كل واحد ما شاء له هواه ، والرسول سائر قدمًا فى تبليغ رسالته ، وأمامه مصباحه المنير الذى يضىء للناس سبيل الرشاد وهو الكتاب الكريم ، كما كانوا يتحدثون فى شأن البعث ، ويأخذ الجدل بينهم كل مأخذ ، فمنهم من ينكره البتة ويزعم أنه إذا مات انتهى أمره ، وما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع : وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ... (الجاثية : ٢٤) .

ومنهم من كان يزعم أن البعث للأرواح دون الأجساد ، لأن الأجساد تأكلها الأرض وتعبث بها يد البلى ، وربما لقى أحدهم بعض من آمن بالنبى ﷺ فيسائله عن ذلك استهزاءً وسخريةً .

وفى هؤلاء وأشباههم نزلت هذه السورة ، ردًّا عليهم ، وإقامةً للحجة على أن الله قادر على أن يبعثهم بعد موتهم ، وإن صاروا ترابًا أو أكلتهم السباع أو أحرقتهم النيران ، لأن الله أحصى كل شىء عددًا وأحاط بكل شىء علمًا .

## معنى الآيات

١ – ٣ – عن أى شىء يتساءل مشركو مكة ؟ يتساءلون عن الخبر العظيم الشأن ، وهو البعث أو نزول الوحى على النبى الأمين ﷺ ، الخبر الذى اختلفوا فيه ، فمن قائل إنه مستحيل ، ومن شاك فيه متردد يقول : مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ . (الجاثية : ٣٢) .

٤ ، ٥ – ترد الآيتان على تساؤلهم وشكهم بالتهديد الملفوف ، وهو أوقع من الجواب المباشر وأعمق فى التأثير ، وتقول : فليزدجروا عما هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال ، إذا حل بهم العذاب والنكال ، وأن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا شك فيه ، ولا ريب فى وقوعه .

٦ – ١٦ – تنتقل الآيات من موضوع النبأ العظيم ، لتعرض أمام الأبصار والبصائر مظاهر القدرة الإلهية فى خلق هذا الكون ، فتذكر تسعة مشاهد ، يشاهدونها بأعينهم ، ولا يخفى عليهم شىء منها :

١ – انبساط الأرض وتمهيدها لتحصيل المعاش ، وإثراء الحياة .

٢ – سمو الجبال لتثبيت الأرض وحفظ التوازن .

٣ – خلق الناس ذكورًا وإناثًا ، ليتم الائتناس والتعاون ويعم النفع .

٤ – جعل النوم راحة للأجسام ، وسكنًا للأرواح ، وانقطاعًا عن الإدراك والنشاط .

٥ – جعل الليل لباسًا ساترًا ، يتم فيه السبات والانزواء .

٦ – جعل النهار معاشًا ، تتم فيه الحركة والنشاط .

٧ – ارتفاع السماوات فوقنا ، مع إحكام الوضع ودقة الصنع ، وقوة البناء وشدته وتماسكه .

٨ – وجود الشمس المنيرة المتوهجة ، تسكب الأشعة والضوء والحرارة .

٩ – نزول المطر وما ينشأ عنه من الحَبّ والنبات ، والجنات الألفاف ، الكثيفة ، الكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .

وتوالى هذه الحقائق والمشاهد على هذا النظام البديع ، والتقدير المحكم ، يوحى بأن وراء هذا الكون قوة تدبره ، وحكمة تنظمه ، وتُشعر بالخالق الحكيم القدير ؛ الذى أبدع كل شىء خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

١٧ – ٢٠ – إن الناس لم يُخلقوا عبثًا ، ولن يتركوا سدى ، والذى قدر حياتهم ذلك التقدير المحكم ، الذى يشى به المقطع الماضى فى السياق قد جعل لهم يومًا مؤقتًا للفصل والقضاء بينهم ، فى ذلك اليوم ينفخ إسرافيل فى البوق ، فيأتى الناس جميعًا مسرعين ، جماعات جماعات ، والسماء المبنية المتينة فتحت ، وانشقت وتصدعت على هيئة لا عهد لنا بها ، فكانت طرقًا وأبوابًا ، والجبال الراسية الثابتة تصبح هباء مثارًا فى الهواء ، ومن ثم فلا وجود لها ، كالسراب الذى ليس له حقيقة .

٢١ – ٣٠ – تمضى الآيات خطوة وراء النفخ والحشر ، فتصور مصير الطغاة وتذكر ما يأتى :

إن جهنم خلقت ووجدت مكانًا مترصدًا للطاغين ، ينتظر حضورهم ، ويترقب وصولهم ، إن جهنم مرجع الطغاة ومكان إيابهم وعودتهم .

روى ابن جرير ، عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جوازٌ نَجَا ، وإلا احتبس .

وسيمكث الطغاة فى النار دهورًا متلاحقة ، يتبع بعضها بعضًا ، فكلما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر ، إنهم لن يذوقوا فى جهنم طعامًا إلا الحميم وهو الماء المغلى ، والغساق وهو الصديد الذى يسيل من جراح أهل النار ، جَزَآءً وِفَاقًا . (النبأ : ٢٦) .

**قال مقاتل** : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

إنهم كانوا لا يتوقعون الحساب ، وكذّبوا بجميع البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد ، وبجميع ما جاء فى القرآن ، بينما كان الله يحصى عليهم كل شىء ، إحصاء دقيقًا لا يفلت منه شىء ، وسجل أعمالهم فى اللوح المحفوظ ، أو كتبها فى صحف أعمالهم : أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) ويقال لهم على ألسنة خزنة جهنم من باب التأنيب الميئس من كل رجاء : ذوقوا أشد العذاب بما كسبت أيديكم ، ولن نزيدكم إلا عذابًا من جنسه .

٣١ – ٣٦ – تعرض الآيات المشهد المقابل ، مشهد الأتقياء فى النعيم ، بعد مشهد الطغاة فى الجحيم ، إن الأتقياء يفوزون بالنعيم والثواب ، ومن بعض مظاهره تلك الحدائق الكثيرة والبساتين والأعناب

وَكَوَاعِبَ . وهن الفتيات الناهدات اللواتى استدارت أثداؤهن ، أَتْرَابًا . متوافقات السن والجمال ، وَكَأْسًا دِهَاقًا . مترعة بالشراب ، ولا يجرى بينهم حين يشربون لغو الكلام ، ولا يكذب بعضهم بعضًا ، وهذه النعم جزاء من الله على أعمالهم ، وهى عطاء وتفضل من الله على حسب أعمالهم ، وفى الحديث الشريف : «إنكم تدخلون الجنة بفضل الله ، وتقتسمونها بحسب أعمالكم» .

٣٧ – ٤٠ – هذا الجزاء السابق للطغاة وللتقاة ، من مالك السماوات والأرض ، والمدبر لشئونهما ، والمالك لما بينهما من عوالم ، وهو الرحمن ، ومن رحمته يكون الجزاء العادل المناسب للأشرار وللأخيار ، ومع الرحمة الجلال ، فلا يملك أحد مخاطبته فى ذلك اليوم المهيب .

يوم يقف جبريل والملائكة جميعًا مصطفين لا يتكلمون ، إجلالاً لربهم ، ووقوفًا عند أقدارهم ، إلا إذا أذن لهم ربهم وقالوا قولاً صدقًا وصوابًا .

ذلك اليوم هو الحق الموعود به ، فلا مجال للتساؤل والاختلاف فى شأنه ، والفرصة لا تزال سانحة ، فمن شاء عمل صالحًا يقربه من ربه ، ويدنيه من ثوابه ، إنا نحذركم عذاب يوم القيامة ، وهو قريب ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم ، وتترصد لكم على النحو الذى سمعتم ، والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وكل آتٍ قريب .

وفى ذلك اليوم يجد الإنسان جزاء عمله ، ولقاء ما صنعه فى الدنيا من الأعمال : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) . فى ذلك اليوم يشعر الكافر بالندم والحسرة ، فيقول : يا ليتنى كنت ترابًا أو حجرًا لا يجرى عليه تكليف حتى لا يعاقب هذا العقاب .

## موضوعات السورة

اشتملت سورة النبأ على الموضوعات الآتية :

١ – سؤال المشركين عن البعث ، ورسالة محمد ﷺ .

٢ – تهديد المشركين على إنكارهم إياه .

٣ – إقامة الأدلة على إمكان حصوله .

٤ – أحداث يوم القيامة .

٥ – ما يلاقيه المكذبون من العذاب .

٦ – فوز المتقين بجنات النعيم .

٧ – إن هذا اليوم حق لا ريب فيه .

٨ – ندم الكافر بعد فوات الأوان .

★ ★ ★

## الإخبار عن البعث وأدلة إثباته



﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

**المفردات :**

**عم :** عن أيّ شيء عظيم الشأن .

**عن النبأ العظيم :** عن القرآن أو البعث .

**كلا :** ردع وزجر عن الاختلاف فيه .

**الأرض مهادا :** فراشًا مُوطّأً للاستقرار عليها .

**الجبال أوتادا :** كالأوتاد للأرض لئلا تميد .

**خلقناكم أزواجا :** أصنافًا ، ذكورًا وإناثًا للتّناسل .

**نومكم سباتا :** قطعًا لأعمالكم ، وراحة لأبدانكم .

**الليل لباسا :** ساترًا لكم بظلمته كاللباس .

**النهار معاشا :** تُحصِّلون فيه ما تعيشون به .

**سبعا شدادا :** سبع سماوات قوية الخلق بديعة الصُّنع .

**سراجا وهاجا :** مصباحًا منيرًا وقادًا ، والمراد به : الشمس .

**المعصرات :** السحائب قاربت أن تعصرها الرياح فتمطر .

**ماء ثجاجا :** منصبًّا بكثرة مع التتابع .

**حبا ونباتا :** الحَبُّ ما يقتات به كالقمح والشعير ، والنبات ما يؤكل خَضِرًا مثل الحشيش والبرسيم .

**جنات ألفافا :** بساتين ملتفة الأشجار .

## سبب النزول :

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن البصرى قال : لما بُعث النبى ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم ، فنزلت : عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ .

## التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ - عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ .

عن أىِّ شىء يتساءل هؤلاء الناس ؟ إنهم يتساءلون عن الأمر العظيم الذى جاءهم ، وهو رسالة محمد ﷺ ، فمنهم من يصدِّقه ، ومنهم من يقول : هو شاعر ، ومنهم من يقول : هو كاهن ، ومنهم من يقول : هو مفترٍ مُتَقَوِّل على الله وليس برسول ، أو هم يتساءلون عن القرآن سؤال متعجب من سمو لفظه ، وبراعة تعبيره ، وقوة معانيه ، ومنهم من يصفه بالسِّحر أو الشعر أو الكهانة ، أو هم يتساءلون عن البعث والحشر والحساب والجزاء والقيامة وما يتصل بها ، فمنهم من يظن ظنًّا ، ومنهم من يُنكر ، ومنهم من يستبعد وقوع البعث ، ومنهم من يقول : البعث للأرواح فقط أمَّا الأجساد فتبلى وتصير رمادًا ، ومن العسير بعث الحياة فى الأجساد بعد تفتتها وبلاها .

وتفيد الآيات أن دويًّا عظيمًا ونبأً جسيمًا وفكرًا هامًّا ، قد شغل مكة كلَّها ، فهذا القرآن الكريم ، أو هذا النبى محمد ﷺ ودعوته إلى الإسلام ، أو أمر البعث وما بعده ، إنَّه أمر عظيم شغل هؤلاء الناس ، واختلفوا بشأنه .

ويجوز أن يكون المراد بالنبأ العظيم كلّ ما ذكر ، أى : القرآن ، والإسلام ، ومحمد ﷺ ، والبعث ، فكلُّها مما حملته رسالة محمد ﷺ ، واختلف أهل مكة بشأن هذه الرسالة اختلافاً بيِّنا ، فقد كان منهم من يرفض الإيمان بالبعث ، ويقول : ما هى إلا أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلا الدَّهر .

وقد حكى القرآن قول المكذّبين برسولهم فى قوله تعالى : أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .
(المؤمنون : ٣٥ – ٣٧)

وكان من الكفار من يشك أو يظن صدق البعث بدون تيقن أو تأكد .

قال تعالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ . (الجاثية : ٣٢) .

٤ ، ٥ – كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ .

ليرتدع هؤلاء الكفَّارُ عما هم فيه من إنكار البعث والجزاء ، أو من إنكار القرآن ورسالة الإسلام ، سيعلمون صدق ذلك عند نزول الموت بساحتهم .

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ .

تأكيد لما سبق ، وتهديد ووعيد ، وزيادة معنى ، أى : سيعلمون عند قيام القيامة ، ووجود الجنة والنَّار أنهم كانوا مخطئين فى إنكار البعث ، أو فى التشكك فى القيامة ، وفى وقوع الثواب والعقاب ، ثم أخذ القرآن يقدّم لهم أدلة واقعية يلْمَسونها بأيديهم ، ويشاهدونها بأعينهم ، وتؤكد أن وراء هذا الكون البديع يدًا قادرة خالقة مبدعة ، هى يد الله ، وهو على كل شىء قدير .

٦ – أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا .

ألم نجعل الأرض التى تسكنونها ممهدة كالفراش ، تنامون عليها ، وتسيرون فوق طرقها ، وتنتفعون بنباتها وخيراتها ، وتتأملون البساتين والرياحين والبحار والأنهار فيها .

٧ – وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا .

وجعلنا الجبال بمثابة الأوتاد التى تشد خيمة الشَّعر فتثبتها ، وكذلك الجبال تمتد فى باطن الأرض لحفظ توازنها ، ولئلا تميد تحت الإنسان الساكن عليها ، فالأرض ملتهبة من باطنها ، وتقذف بالحمم عند البراكين والزلازل . وقد جعل الله الجبال لمنافع عدّة ، منها تثبيت الأرض ، ومنها أنّها مأوى للهائمين واللاجئين ، وفوق رؤوس الجبال تتجمع الثلوج صيفا وشتاء ، ثم تذوب الثلوج صيفا فتسقى المياهُ الوديان ، ويستفيد الزرع والإنسان والحيوان ، والجبال بها مغارات للعبَّاد والمتأمّلين ، وقد نزلت رسالات

السماء على عدد من الجبال ، منها جبل الطُّور حيث كلم الله موسى ، ومنها غار حراء فوق جبل النور حيث كلم الله محمدًا ﷺ ، وتمّت الهجرة من غار ثور ، وكانت الجبال ترجّع صوت داود عليه السلام .

قال تعالى : يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ . (سبأ : ١٠) .

٨ - وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا :

من حكمة الله القدير أنَّه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، ليتمَّ إثراء الحياة وإخصابها ، وتكامل سرورها ولذتها وسعادتها ، فالنبات والحيوان والإنسان أزواج .

قال تعالى : وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) .

وقال الله تعالى لنوح عليه السلام : ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ... (هود : ٤٠) .

بل إن التزاوج يمتد إلى غير ذلك ، فالسحاب لا يمطر إلا إذا تم تلقيح سحابة موجبة لسحابة سالبة .

قال تعالى : وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ . (الحجر : ٢٢) .

وقد خلق الله حواء لتكون سكنًا لآدم ، وبث منهما الخلق ، وامتن علينا بنعمة الأُنس والمودة والرحمة بين الزوجين .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... (الروم : ٢١) .

وقال عز شأنه : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ... (النحل : ٧٢) .

٩ ، ١٠ ، ١١ - وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا .

النوم آية من آيات الله تعالى ، حيث ينقطع الإنسان عن العمل والكدح ، ويستغرق فى نوم هادئ ، حيث تهدأ نفسه ويستريح جسمه ، ويتكامل هدوءه ، ويتجدد بعد النوم نشاطه ، فالنوم نعمة إلهية ، وهو آية ، وفى غزوتى بدر وأحد غشىَ النومُ المجاهدين فآنسهم وجدد نشاطهم وأراح أعصابهم .

قال تعالى : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ... (الأنفال : ١١) .

وقال سبحانه وتعالى : ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ... (آل عمران : ١٥٤) .

وأحيانًا ينام الإنسان المجهد دقائق معدودة ، أو يغفى إغفاءة بسيطة ، ثم يستيقظ وقد استراحت أعصابه وتجدد نشاطه ، ذلك أن الله العلى القدير هو الخالق للإنسان ، وخالق الآلة أدرى بما تحتاج إليه ، ولو استمر الإنسان مستيقظًا بدون نوم لخارت قواه وضعفت .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ... (الروم : ٢٣) .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا .

الليل يقطع العمل المسترسل ، وفيه الظلام الممتد الذى يغمر الكون ، ويغشاه ويستره كما يستر الثوب صاحبه حين يلبسه ، والليل فرصة للهارب ، وفيه يختفى الكامن للوثوب على عدوّه ، للتخلّص منه والنجاة من شرّه ، ويتّقى به كل من أراد ألا يطلّع الناس على كثير من أموره .

وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا .

جعلنا النهار فرصة للسعى على المعاش والكدّ والعمل ، حيث جعله الله مشرقًا منيرًا ، ليتمكن الناس من السعى فيه ، والعمل والتكسب والتجارة وغير ذلك .

١٢ – وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا .

خلقنا فوقكم سبع سماوات متينة البناء ، شديدة الصنع ، لا يصيبها تشقق ولا تصدع ، وقد مرّت عليها بلايين السنين ، وهى سليمة قوية مبهرة : صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ... (النمل : ٨٨) .

١٣ – وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا .

جعلنا الشمس متوهِّجة بالضوء ، والسِّراج ما كان ضوءه من ذاته كالشمس ، والشمس ترسل أشعتها على المحيطات فيتصاعد البخر إلى السماء ، وتتكاثف السحب من هذا البخر ، ثم يرسل الله الرياح فتسوق السحاب وينزل المطر .

١٤ – وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا .

أنزلنا من السحائب التى أوشكت أن تعصرها الرياح مطرًا متتابعًا ، تكون به حياة الزرع والضرع ، مما يوحى بأن التكامل مقصود فى هذا الكون ، حيث أبدع الله خلق الكون ، وسخر الليل والنهار ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، وأنزل المطر وأبدع الخلق ليعيش الناس فى كنف هذه القدرة العليا ، وينبغى أن يشكروا ربهم شكرًا عمليًّا باستخدام النعمة فيما خلقت له .

١٥ - لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا .

لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والنباتات ، فالحبوب يقتات بها الناس كالقمح والشعير والذرة ، والنبات تقتات به الدوابّ ، وقدم الحبَّ لأنّه غذاء الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات لأنه غذاء الحيوان .

١٦ - وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا .

ونخرج بالماء بساتين خضراء ، تقاربت أشجارها ، والتفَّت أغصانها وأوراقها ، إن هذه النعم المتعددة فى الكون والنفس ، والخَلْق والإبداع ، والنوم واليقظة ، والليل والنهار ، والأرض والسماء - دليل على قدرة الله الواحد ، وهو سبحانه على كل شيء قدير ، فمن أوجد هذا قادر على البعث والحساب والجزاء .

قال تعالى : لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر : ٥٧) .

★ ★ ★

## البعث والجزاء

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

**المفردات :**

**يوم الفصل :** هو يوم القيامة ، لأن الله يفصل فيه بين خلقه .

**فتأتون أفواجا :** أمما أو جماعات مختلفة الأحوال .

**فكانت أبوابا :** صارت ذات أبواب وطرق ، ومن قبل كانت مُحكمة .

**فكانت سرابا :** مثل سراب ، وهو ما تراه نصف النهار كأنه ماء ، فإذا جئته لم تجده شيئا .

**كانت مرصادا :** موضع ترصد وترقب للكافرين .

**للطاغين مآبا :** مرجعًا ومأوى لهم .

**أحقابا :** دهورًا متتابعة لا نهاية لها .

**بردا :** نومًا أو رَوْحًا من حرّ النار .

**حميما :** ماءً بالغًا نهاية الحرارة .

**غساقا :** صديدًا يسيل من أهل النار باردًا منتنا .

**جزاء وفاقا :** جزيناهم جزاءً موافقًا لأعمالهم .

**كذابا :** تكذيبًا شديدًا .

**أحصيناه كتابا :** حفظناه وضَبَطْناه مكْتُوبًا .

**تمهيد :**

تتحدث الآيات عن أهوال يوم القيامة ، من النفخ فى الصور والحشر وانشقاق السماء ، وتسيير الجبال ، ثم وصف جهنم وأهوالها .

**التفسير :**

**١٧ – إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا .**

فى يوم الفصل ، حيث يفصل الله بين الخلائق ، وهو يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون لميقات يوم معلوم ، حيث ينفذهم البصر ويسمعهم الداعى .

قال تعالى : **وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ** . (هود : ١٠٤) .

**١٨ – يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا .**

فى هذا اليوم ينفخ إسرافيل فى الصور نفخة أولى ، فيصعق الخلائق ويموتون ، ثم ينفخ النفخة الثانية ، فيقوم الناس من قبورهم ويأتون إلى المحشر جماعات جماعات .

قال تعالى : **يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ** ... (الإسراء : ٧١) .

والمراد بالنفخ فى الصور هنا : النفخة الثانية ، حيث يحشر الناس فورًا بدون مهلة ، حال كونهم زمرًا وجماعات مختلفة الأحوال ، متباينة الأوصاف ، حسب اختلاف أعمالهم فى الدنيا .

١٩ – وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا .

تشققت السماء على غلظها ، وتعلقت الملائكة بأطرافها ، وبعد أن كانت محكمة لا تشقق فيها ولا اضطراب ولا خلل ، تغيَّر ذلك فى يوم القيامة عند نهاية الكون .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً . (الفرقان : ٢٥) .

وقال عز شأنه : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ . (الانشقاق : ١) .

وقال عز شأنه : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ . (الانفطار : ١) .

وكل هذا يدل على تبدّل حال الكون عند انتهاء الحياة فى هذه الدنيا .

قال تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

٢٠ – وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا .

الجبال الراسية تندكُّ دكًا ، وتقلع قلعًا ، وتمور مورًا ، وتمرّ بمراحل فى طريقها إلى التلاشى .

قال تعالى : وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً . (الحاقة : ١٤) .

فتصبح الأرض مستوية ، وتتحول الجبال إلى هلام كالصوف المنفوش ، وهو رخو ليّن ، بعكس صلابة الجبال فى الدنيا .

قال تعالى : وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ . (القارعة : ٥) .

ثم ذكر القرآن أن الجبال تصير هباء ، كما قال تعالى : وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا .
(الواقعة : ٥ ، ٦)

ثم ذكر هنا أن الجبال تنسف وتخلع من أماكنها ، حتى يخيل للرائى أنها شيء وليست بشيء ، كالسراب يظنه الرائى ماءً وهو فى الحقيقة هباء .

**قال الطبرى** : صارت الجبال بعد نسفها هباء منبثًا لعين الناظر ، كالسراب يظنه من يراه ماءً وهو فى الحقيقة هباء .

قال عز شأنه : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٥ - ١٠٨) .

إنه الانقلاب الكونى ، ونهاية الكون ، وتبدُّل الأرض غير الأرض ، وتسوية الجبال بالأرض ، حتى تصبح أرضًا مستوية مكشوفة مشاهدة للجميع ، هذه هى أرض المحشر ، مع الخشوع التامّ ، والصمت الرهيب : يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . (المطففين : ٦) .

٢١ - إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا .

إن جهنم تترصد الكافرين وتترقبهم ، وقد وُجدت لانتظارهم ، كأنّما كانوا فى الدنيا فى رحلة عابرة ثم آبوا إلى مكان مثواهم وإقامتهم ، حيث يجدون زبانية جهنم فى انتظارهم ، ويجدون جهنم تتلمظ غيظًا وغضبًا على من كفر بالله ، كما قال سبحانه : تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ... (الملك : ٨) .

وقد ورد فى الأثر أن جهنم يخرج منها عُنق يبحث عن الكافرين الطاغين ، فيلتقطهم من أرض المحشر إلى مكان إقامتهم فى جهنم[٢] .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا . (الكهف : ٥٣) .

٢٢ - لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا .

للطغاة الذين طغوا وبغوا وتجاوزوا الحدّ ، وكفروا بالله وكذّبوا رسله ، وخالفوا أوامره ، وارتكبوا ما نهى عنه ، هى لهؤلاء الطغاة ، مَـَٔابًا . مرجعًا وإقامة مستمرة دائمة .

٢٣ - لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا .

ماكثين فيها دُهورًا متتابعة ، كلما مضى منها حقب - أى آلاف السنين - تبعه حقب آخر إلى ما لا نهاية ، فلا يخرجون منها أبدًا .

**قال الحسن** : الحقب : زمان غير محدود .

قال تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر : ٣٦) .

٢٤ ، ٢٥ - لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا .

لا يذوقون فى جهنم بردًا ينفعهم من حرّها ، ولا شرابًا ينفعهم من عطشها .

إلا حَمِيمًا . وهو ماء حار شديد الغليان يشوى الوجوه .

وَغَسَّاقًا . والغساق صديد أهل النار .

إنَّ النار تتلظى ، لا يصطلى بنارها إلا الأشقى ، ولا يجدون فيها ما يريحهم ، أو يخفف من الآلام الحسية أو المعنوية .

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى : لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ...

أى : لا يذوقون فيها نومًا ، باعتبار أن النوم يبرّد العطش ويهدِّئه ، واستشهدوا بكلام العرب الذى يفيد أن البَرْد يطلق على النوم .

وعند التَّأمل نجد أن القرآن ينبغى أن يُفهم على الشائع المطرد ، المعروف من كلام العرب ، لا على المعنى الغريب أو المهجور .

قال الطبرى :

لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا .

لا يطعمون فيها بردًا يُبرِّد حرّ السعير عنهم إلا الغسّاق ، ولا شرابًا يرويهم من شدّة العطش الذى بهم إلا الحميم ، وقد زعم بعض أهل العلم بكلام العرب أن البَرْد فى هذا الموضع النَّوم ، وأنَّ معنى الكلام : لا يذوقون فيها نومًا ولا شرابًا ، واستشهد لقيله ذلك بقول الكندى :

بَردَتْ مَراشِفُها علىَّ فَصَدَّنى ... عنها وعنْ قُبلاتها البرْدُ

يعنى بالبرد : النّعاس ، والنوم يبرد غليل العطش ، فقيل له من أجل ذلك البرد ، فليس هو باسمه المعروف ، وتأويل كتاب الله على الأغلب من معروف كلام العرب دون غيره[٣] .

٢٦ - جَزَآءً وِفَاقًا .

جزاءً موافقًا لأعمالهم ، لقد كان الجزاء المؤلم على قدر الكفر والشرك والطغيان ، كما قال سبحانه : وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... (الشورى : ٤٠) .

**قال مقاتل** : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

**وقال الحسن وعكرمة** : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله ما يسوءهم ، ثم فَصَّل القرآن أنواع الجرائم التى ارتكبوها ، فقال :

**٢٧ - إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا .**

إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ، ولا يتوقَّعون القيامة والحساب والجزاء ، ولذلك أهملوا العمل للآخرة .

**٢٨ - وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا .**

وكذَّبوا برسالات السماء وبالبعث والقيامة والحساب ، تكذيبًا شديدًا منكرًا ، تضمَّن سلوكهم المعيب مع الرُّسل ، وتكذيبهم بالقرآن وبالنبى محمد ﷺ .

**٢٩ - وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا .**

كل شيء فى الكون أحصيناه وأحطنا به إحاطة دقيقة ، وسجلناه وكتبناه ، ومن ذلك أعمالهم وكفرهم .

قال تعالى : **أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ** ... (المجادلة : ٦) .

وقال سبحانه وتعالى : **وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** . (الكهف : ٤٩) .

أو أثبتنا كل شيء فى اللوح المحفوظ ، كما قال سبحانه : **وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا** . (الجن : ٢٨)

**٣٠ - فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا .**

فذوقوا آلام العذاب وتجرَّعوا غصَّته ، مع اليأس من الرحمة ، وفقدان الأمل فى تخفيف العذاب عنكم :

**فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا .**

أى : لن نزيدكم على استغاثتكم من العذاب إلا عذابًا جديدًا ، كما قال سبحانه : **وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ** . (ص : ٥٨)

قال المفسرون : ليس فى القرآن على أهل النار آية هى أشد من هذه الآية ، كلما استغاثوا من نوع من العذاب ، أغيثوا بأشدّ منه .

قال تعالى : وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

وقال تعالى : وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ . (الزخرف : ٧٧) .

★ ★ ★

## نعيم الجنة

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**مفازا :** فوزًا بالنعيم والثواب .

**حدائق :** بساتين فيها أنواع الثمر والشجر .

**أعنابا :** جمع عنب .

**كواعب :** جمع كاعب ، وهى التى نهد ثدياها وتكعّبا .

**أترابا :** متساويات فى العمر .

**الكأس :** إناء من بلّور للشراب .

**دهاقا :** ممتلئة ، قال خداش بن زهير :

أتانا عامرٌ يبغى قِرانا فأترعْنا له كأسًا دهاقا

**اللغو :** الباطل من الكلام .

**الكذاب :** التكذيب .

**عطاء :** تفضلاً منه وإحسانًا .

**حسابا :** كافيًا لهم .

**التفسير :**

**٣١ - إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا .**

إن الله تعالى أعد للمتقين أسباب الفوز من النار والنجاة من جهنم ، والفوز بالجنة والتمتع بنعيمها ، ورضوان الله عليهم .

**٣٢ - حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا .**

من ألوان فوزهم التمتع بالبساتين الناضرة ، الممتدة الظلال ، المشرفة على الأنهار ، والتمتع بكروم العنب ، والجمع أعناب ، وخصَّه بالذكر لأهميته والعناية به .

**٣٣ - وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا .**

فتيات قد استدارت أثداؤهن ، مع ارتفاع يسير .

**أَتْرَابًا** . متساويات فى العمر ، مع التماثل فى صفات الجمال .

**والخلاصة** : أنه تمتع فائق اللذة والسعادة ، على وفق ما يناسب العالم الأخروى .

حيث قال سبحانه : **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** . (الزخرف : ٧١) .

**٣٤ - وَكَأْسًا دِهَاقًا .**

وكأسًا من الخمر مترعة ملأى ، صافية متتابعة ، قد عُصرت وصفيّت .

**٣٥ - لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا .**

لا يسمعون فى الجنة لغوا ولا باطلاً من الكلام ، ولا فاحشًا من القول .

**وَلا كِذَّابًا** . ولا يسمعون الكذب من القول ، فقد صان الله أسماعهم عن اللغو والباطل والكذب ، وصفّى أسماعهم ونقّاها لتسمع الحق والصدق ، والنقى البهىّ من الكلام ، وإنها لنعمة عظيمة .

**٣٦ - جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا .**

جزاهم الله هذا الجزاء العظيم ، تفضلا منه وإحسانًا كافيًا على حسب أعمالهم .

★ ★ ★

## من مشاهد القيامة

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

**المفردات :**

**الخطاب :** المخاطبة والمكالمة ، أى : لا يقدر أحد أن يخاطبه سبحانه فى رفع بلاء أو دفع عذاب .

**الروح :** جبريل عليه السلام .

**مآبا :** مرجعًا .

**الإنذار :** الإخبار بالمكروه قبل وقوعه .

**المرء :** الإنسان ، ذكرًا كان أو أنثى .

**ما قدمت يداه :** ما صنعه فى حياته الأولى .

**يا ليتنى كنت ترابا :** أى لم أُصب حظًّا من الحياة .

**التفسير :**

٣٧ - رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا .

هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذى وسعت رحمته كل شىء ، وفى يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يخاطبه فى رفع عذاب ، أو دفع بلاء ، هيبة وإجلالاً له سبحانه وتعالى .

٣٨ - يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا .

فى ذلك اليوم يقوم الروح جبريل والملائكة مصطفين صامتين .

قال تعالى : وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . (الفجر : ٢٢) .

حيث تصطف ملائكة السماء الأولى حول الخلائق ، وحولهم ملائكة السماء الثانية ، وحول ملائكة السماء الثانية ملائكة السماء الثالثة ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ولا يستطيع أحد أن يتكلم أو يتشفّع إلا

من أذن له الله فى الكلام ، وقال قولاً صوابًا حقًّا ، من الشفاعة لمن ارتضى الله سبحانه وتعالى عنه ، والمراد عظمة الحق سبحانه وجلاله ، وقيام جبريل والملائكة مصطفين صامتين ، والكلام تكرمة لمن يتكلم ، لكنه لا يتكلم إلا بالحق والعدل ، ومع أنّ الملائكة مقربون إلى الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، إلا أنهم يحشرون مصطفين صامتين ، قد حشرهم هول الموقف ، وإذا كان هذا حال الملائكة فما هو حال بقية البشر .

اللهم نجنا من هول يوم القيامة ، واحشرنا آمنين مطمئنين ، واجعلنا ممن قلت فيهم : لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . (الأنبياء : ١٠٣) .

**٣٩ - ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا .**

أى : ذلك اليوم الذى تقف فيه الملائكة صفًا خاشعين صامتين ، هو اليوم الحقّ ، الكائن لا محالة ، الذى يُحق الله فيه الحقّ ، وينال فيه كل إنسان جزاءه العادل .

**فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا .**

فمن أراد النجاة فى ذلك اليوم فليعمل عملاً صالحًا فى مرضاة ربه ، ليجد مرجعًا كريمًا عند الله .

**٤٠ - إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا .**

الخطاب لكفار مكة ولمنكرى البعث ، ولكل من يتأتى منه الخطاب ، أى : خوَّفناكم عذاب يوم القيامة ، وهو واقع لا محالة ، وكل آتٍ قريب ، وفى ذلك اليوم يجد الإنسان أعماله حاضرة أمامه ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

قال تعالى : وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وفى ذلك اليوم يتمنى الكافر أنه لم يُخلق ولم يُبعث ولم يُحاسب ،ويتمنّى أن لو كان ترابًا أو حجرًا ، لما يرى من أهوال القيامة ، وشدة عقوبة الكافرين فى جهنم .

**قال المفسرون :** وذلك حين يحشر الله الحيوانات يوم القيامة ، فيقتص للجماء من القرناء ، وبعد ذلك يصيّرها ترابًا ، فيتمنى الكافر أن لو كان ترابًا حتى لا يعذّب .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (النبأ) ، مساء يوم السبت ٤ من صفر ١٤٢٢ ، الموافق ٢٨/٤/٢٠٠١ .

★ ★ ★



# تفسير سورة النازعات

# أهـداف سـورة النـازعات

(سورة النازعات مكية ، وآياتها ٤٦ آية ، نزلت بعد سورة النبأ)

وهى نموذج من نمـاذج هـذا الجـزء ، لإشعـار القلب البشرى حقيقـة الآخرة بهولها وضخامتها ، وفى الطـريق إلى ذلك يمهـد السـياق بمطـلع غامض مثير ، يسـوقه فى إيقـاع موسـيقى راجـف لاهـث . (الآيات ١ – ٥) .

وعقب هـذا المطلـع الغامض الراجـف الواجـف ، يجىء المشـهد الأول من مشـاهد ذلك اليوم . (الآيات ٦ –١٤) .

ثم يأخذ السياق فى عرض حلقة من قصة موسى مع فرعون ، فيهدأ الإيقاع ويسترخى شيئا ما ، ليناسب جو الحكاية والعرض . ( الآيات ١٥ – ٢٦) .

ثم ينتقل السياق من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح ، ومشاهد الكون الهائلة ، الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون ، المهيمنة على مصائره فى الدنيا والآخرة ، فى تعبيرات قوية الأثر تأخذ بالألباب . (الآيات ٢٧ – ٣٣) .

ثم يجىء مشهد الطامة الكبرى ، وما يصاحبها من جزاء على ما كان فى الحياة الدنيا. ( الآيات ٣٤ – ٤١).

ثم يرتد السياق إلى المكذبين بهذه الساعة، الذين يسألون الرسول ﷺ عن موعدها ، يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها وضخامتها . (الآيات ٤٢ – ٤٦) .

## مع آيات السورة

١ – ٥ – أقسم الله تعالى بالملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار إغراقا، أى مبالغة فى النزع ، وبالملائكة الذين يخرجون أرواح المؤمنين برفق ، فيسبحون فى إخراجها سبح الغواص الذى يخرج الشىء من أعماق البحر ، فيسبقون بأرواح الكفار إلى النار ، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة ، أو يسبقون للإيمان أو للطاعة لأمر الله ، فيدبرون ما يوكل إليهم من الأمور .

وقيل : أقسم الله تعالى بالنجوم ، تنزع فى مداراتها وتتحرك ، وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل ، وتسبح سبحا فى فضاء الله وهى معلقة به ، وتسبق سبقا فى جريانها ودورانها ، وتدبر من النتائج والظواهر ما وكله الله إليها ، مما يؤثر فى حياة الأرض ومن عليها .

وقيل : النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هى النجوم ، والمدبرات هى الملائكة ، وجملة القول : فهذه أوصاف لموصوفات أقسم الله بها لعظم شأنها ، وكل ما يصدق عليه الوصف يصح أن يكون تفسيرًا للآيات ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

٦ – ٩ – اذكر يا محمد يوم تضطرب الأرض ويرتجف كل من عليها ، وتنشق السماء ، ويصعق كل من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وهذه هى الراجفة أو النفخة الأولى فى الصور ، يتبع ذلك النفخة الثانية ، التى يصحون عليها ويحشرون ، وهذه هى الرادفة [٤] .

قلوب الكافرين تكون يوم القيامة شديدة الاضطراب ، بادية الذل ، يجتمع عليها الخوف والانكسار والرجفة والانهيار .

١٠ – ١٤ – يقول الكافرون المنكرون للبعث : أصحيح أننا إذا متنا راجعون إلى الأرض أحياء كما كنا ؟ أنعود للحياة بعد تحلل أجسادنا فى التراب ؟ إن صح هذا فهو الخسران الخالص والرجعة الخاسرة التى لم نحسب حسابها .

لا تستبعدوا ذلك أيها الكافرون ، فإنما هى صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل فى الصور ، فإذا الناس جميعا أحياء على سطح أرض القيامة .

١٥ – ٢٦ – تحكى الآيات قصة موسى عليه السلام ، وهى قصة تكررت فى القرآن ، لما لقيه موسى من شدة المعاناة مع قومه ، فأصبح نموذجا للصبر والثبات ، وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «يرحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» . [٥] .

**تقول الآيات :**

وهل جاءك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة ؟ حيث تفضل الله عليه فناداه ، وكلمه من وراء حجاب بالوادى المبارك من طور سيناء (طوى) [٦] ، فقال له : اذهب إلى فرعون فإنه طغى وتجاوز الحد ، فتلطف معه فى القول وقل له : هل ترغب فى أن تطهر نفسك من الآثام التى انغمست فيها ؟ وهل لك فى الإيمان بالله ، واستشعار الجلالة والجبروت وخشية عقاب الله وحسابه ؟

بيد أن هذا القول لم يفلح فى هداية قلب الطاغية الجبار ، فأظهر له موسى المعجزة الكبرى ، وهى انقلاب العصا حيــة وإخراج يده بيضاء بياضًا ساطعًا يغلب ضوء الشمس ؛ فأنكر فرعــون رسالة موسى ، وعصى أمر ربّه ، ثم أعرض عن موسى ، وسعى فى إيذائه ، وحث الناس على مقــاومة دعــوته ، ثم جمــع السحرة الذين هم تحت إمرته وسلطانه ، فقام فيهم يقول : أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ. الذى لا يدانيه أحد فى القوة والعظمة ، وما زال فى عتوه وتطاوله حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند خروجهم من مصر ، فأغرق فيه هو وجنوده ، تنكيلا به على ما صنع ، وله فى الآخرة عذاب السعير ، وسيكون مثلا للأولين والآخرين . وفى قصة فرعون عبرة لمن له عقل يتدبر به فى عواقب الأمور ، فيثوب إلى رشده ويتقى ربه .

٢٧ – ٣٣ – يخاطب الله منكرى البعث ويرشدهم إلى أن بعثهم هين على الله ، بدليل ما يشاهدون من آثار قدرته فى هذا الكون ، فيقول لهم : هل أنتم أشد خلقا أم خلق السماء أصعب وأشق ؟ إنكم لا تنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها ، فما الذى تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ والذى بنى السماء وأبدعها قادر على إعادتكم .

قال تعالى : لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر : ٥٧) .

لقد رفع الله سمك السماء ، أى : بناءها ، وسمك كل شىء قامته وارتفاعه ، والسماء مرفوعة فى تناسق كامل ، وتنسيق بين حركاتها وآثارها وتأثراتها ، وقد جعل ليلها مظلما بمغيب كوكبها ، وأنار نهارها بظهور الضحى .

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ . ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة تصلح للإنبات .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا . أى : فجر منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات ، وثبت الجبال فى أماكنها وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ . أى : إنما جعلنا ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام ، وليتنبه الإنسان إلى عظمة التدبير والتقدير ، فإن بناء السماء على هذا النحو ، وإظلام الليل ، وإضاءة النهار ، وتمهيد الأرض ، وإخراج النبات والماء ، وإرساء الجبال ، لم يكن كل ذلك سدى ، وإنما كان متاعا لكم ولأنعامكم .

وهذا المدبر الحكيم وفّر لكم هذا الخير الكثير لتتمتعوا به ، ومن الحكمة والتدبير أن يكون هناك بعث وجزاء ، لإثابة الطائع ومعاقبة الطغاة والعصاة .

٣٤ - ٤١ - فإذا جاءت الداهية العظمى التى تعلو على سائر الدواهى ، وتشغل الإنسان عن ولده ونفسه ، غطت على كل شىء ، وطمت على كل شىء ، عندئذ يتذكر الإنسان سعيه ويستحضره أمامه ، حين يرى أعماله مدونة فى كتابه ، وظهرت النار فى مكان بارز ، حتى يراها كل ذى نظر ، عندئذ تختلف المصائر والعواقب ، فأما من تكبر وعصى ربه وتجاوز حده ، وآثر شهوات الحياة الدنيا على ثواب الآخرة ، فالنار مثواه ومستقره .

وأما من استحضر فى قلبه دائما عظمة الله تعالى ، ونهى النفس عما تهواه وتميل إليه بحسب طبيعتها ، فإن الجنة ستكون له مستقرا ومقاما .

٤٢ - ٤٦ - يسألك كفار قريش والمتعنتون من المشركين عن القيامة : أَيَّانَ مُرْسَاهَا . متى قيامها وظهورها ؟ وأين موعدها ؟

فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَآ . إنها لأعظم من أن تَسأل أو تُسأل عن موعدها ، فأمرها إلى ربك وهى من خاصة شأنه وليست من شأنك ، إلى ربك ينتهى علم الساعة ، فلا يعلم وقت قيامها غيره ، ولم يعط علمها لملك مكرم ، ولا لنبى مرسل ، إنما أنت رسول مبعوث لتنذر من ينفعه الإنذار ، وهو الذى يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ، ويعمل لها ويتوقعها .

وإذا جاءت الساعة ، ورأوا أهوالها وحسابها وجزاءها ، استهانوا بالدنيا ومتاعها وأعمارها ، ورأوا الدنيا بالنسبة للآخرة قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تافهة ، وتنطوى الدنيا فى نفوس أصحابها ، فإذا هى عندهم عشية أو ضحاها ، فكأنما الدنيا ساعة من نهار ، أفمن أجل ساعة من نهار يُضيع الإنسان الجنة والخلود فى رضوانها ؟

قال تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ... (الروم : ٥٥) .

أى أن الدنيا أو الحياة الفانية ليست إلا وقتا قصيرا بالنسبة للآخرة .

قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

## موضوعات سورة النازعات

١ – إثبات البعث .

٢ – مقالة المشركين فى إنكاره والرد عليهم .

٣ – قصة موسى مع فرعون ، وفيها عاقبة الطغاة .

٤ – آيات الله فى الآفاق .

٥ – أهوال يوم القيامة .

٦ – الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء .

٧ – تساؤل المشركين عن الساعة وميقاتها .

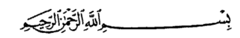
٨ – نهى الرسول ﷺ عن البحث عنها .

٩ – ذهول المشركين من شدة الهول ، والاستهانة بالدنيا حين يرون الآخرة .



★ ★ ★

## الحلف على وقوع البعث



﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤ ﴾

**المفردات :**

**والنازعات :** أقسم الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم .

**غرقا :** نزعا شديدًا مؤلما بالغ الغاية .

**والناشطات نشطا :** الملائكة تَسُلُّ أرواح المؤمنين برفق .

**والسابحات سبحا :** الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به .

**فالسابقات سبقا :** الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها ، النار أو الجنة .

**فالمدبرات أمرا :** الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به ، وجواب القسم محذوف دلّ عليه ما بعده ، وتقديره : لتبعثن .

**يوم ترجف الراجفة :** يوم تضطرب الأجرام بالصيحة الهائلة ، وهى النفخة الأولى التى تصعق الخلائق عندها وتموت .

**تتبعها الرادفة :** نفخة البعث التى يقوم فيها الناس للحساب والجزاء ، وهى تردف الأولى وتأتى بعدها .

**واجفة :** شديدة الاضطراب من الخوف والفزع .

**أبصارها خاشعة :** ذليلة منكسرة من الفزع .

**فى الحافرة :** إلى الحالة الأولى (الحياة) .

**نخرة :** بالية مفتتة ، من نخر العظم ، إذا بلى وتفتت .

**خاسرة :** رجعة غابنة غير رابحة .

**فإذا هم بالساهرة :** فإذا هم أحياء على وجه الأرض .

**التفسير :**

١ - وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا.

أقسم الله تعالى بطوائف الملائكة التى تنزع أرواح الكفار بقسوة وشدة من أقاصى أجسامهم ، نزعاً بالغ الصعوبة والعُسر ، حيث تنزع روح الكافر من أقاصى جسده ، من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافر وأصول القدمين .

وفى الحديث الشريف ما يفيد أن روح الكافر تنزع بشدة ، حيث يكابد الكافر أشد الآلام فى خروج روحه ، وأن روح المؤمن تنزع برفق ويسر ، وتخرج بسهولة ولطف ، كما تنزل القطرة من فم السِّقاء .

٢ - وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا .

أقسم الله بملائكة الرحمة ، تنشط فى أخذ أرواح المؤمنين بسهولة ويسر ، كما ينشط العقال من يد البعير .

٣ - وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا .

الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين إلى الملأ الأعلى ، أو تسبح بالوحى وتنزل به على الرسل كالذى يسبح ، حال كون الملائكة مسرعة منفذة للأوامر .

٤ - فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا .

الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، أو الملائكة تسبق إلى الإيمان والتصديق ، أو الملائكة تسبق لتبليغ وحى السماء .

٥ - فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا .

الملائكة تدبّر أمر الكون من السماء إلى الأرض بأمره تعالى ، من الرياح والأمطار والأرزاق والأعمار ، وغير ذلك من شئون الدنيا .

وتنكير «أَمْرًا» للتفخيم والتهويل .

وفى الحديث الشريف : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمّه أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين يوما علقة ، ثم أربعين يوما مضغة ، ثم يأمر الله الملك ، فيقولُ : اكتب ، فيقول : يارب ، وما أكتب ؟ فيقول : اكتب أجله وعمره ورزقه ، وشقى أو سعيد » (٧) .

وقيل : إن تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وإسرافيل .

فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأمّا ميكائيل فموكل بالقطر والنبت ، وأمّا عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأمّا إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

**وقال الحسن البصرى :**

المراد بالآيات الخمس : النجوم والكواكب فى جريها وتنقلها بين الأبراج ، وسيرها فى أفلاكها هادئة أو مسرعة ، أو مدبِّرة أمرًا بأمر الله تعالى ، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة ، وظهور مواقيت العبادات والمعاملات .

«فالقمر له أثر فى حساب الشهور ، وله من الأثر فى السحاب والمطر ، وفى البحر من المدّ والجزر ، وللشمس دورة سنوية ، نعرف بها حساب السنين من جهة ، وفصول السنة من جهة أخرى ، وللفصول الأربعة أثرها فى أسباب حياة النبات والحيوان ، ونسبة التدبير إليها لأنها أسباب ما نستفيده منها ، والمدبّر الحكيم هو الله جل شأنه» (٨) .

٦ ، ٧ - يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ .

جواب القسم محذوف دلّت عليه هاتان الآيتان ، والتقدير : لتبعثن يوم القيامة .

و ٱلرَّاجِفَةُ . هى النفخة الأولى ، حين ينفخ إسرافيل فى الصور ، فيصعق من فى السماوات والأرض ، حيث تضطرب الجبال ، وتقلع من أماكنها ، وتسيَّر وتصير هباءً منبثا ، ويضطرب نظام الكون ، ويهتزّ اهتزازاً شديداً ، ويرتجف عند النفخة الأولى وهى الراجفة ، حيث تموت الخلائق ، ويصعق من فى السماوات والأرض صعقاً شديداً ، ويستمرون أربعين سنة ، ويتبع ذلك ، ٱلرَّادِفَةُ . التى تردف الراجفة ، وتأتى بعدها ، وهى نفخة البعث والقيام للحساب .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

٨ ، ٩ - قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ .

قلوب الكفّار فى ذلك اليوم واجفة راجفة مضطربة من هول الموقف والقيام للحساب .

أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ . أبصارها ذليلة منكسرة حيث يغشاهم الذل والقتام بسبب سوء أعمالهم ، وفى صدر سورة الغاشية تأكيد خشوعهم وذلّهم وعذابهم .

قال تعالى : هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ . (الغاشية :١ -٥) .

١٠ - يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ .

يقول هؤلاء الكفار استبعادًا للحياة بعد الموت : أنرجع مرة أخرى أحياء بعد موتنا ؟

يقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع فى حافرته ، أى فى طريقه التى جاء منها فحفرها ، بمعنى أثّر فيها بمشيه .

١١ - أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً .

أئذا بليت أجسامنا ، وأكلنا التراب ، وتهشمت عظامنا ، وصارت : نَّخِرَةً . بالية شديدة البلى .

والاستفهام للاستبعاد والاستنكار .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَ ٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ . (ق : ٣ ، ٤) .

١٢ - قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ .

أى : إذا كان البعث حقًا ، وعُدْنا إلى الحياة بعد الموت ، فتلك رجعة خاسرة لأننا سنكون من أهل النّار ، ولم نعمل عملاً لذلك اليوم .

**قال المفسرون** : وهذا منهم استهزاء وتهكم ، اعتقادًا منهم أن ذلك لن يكون .

١٣ ، ١٤ - فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَ ٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ .

فإنما هى صيحة واحدة ، هى نفخة إسرافيل فى الصُّور النفخة الثانية ، فتقوم الخلائق لربِّ العالمين .

فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ .

فإذا هم جميعا فى أرض المحشر ، وهى أرض بيضاء مكشوفة ، وإنما قيل لها (ساهرة) لأنهم لا ينامون عليها حينئذ .

أى : لا تستبعدوا البعث ، فإنما هو نفخ إسرافيل فى الصُّور النفخة الثانية ، فإذا الخلائق جميعا على سطح الأرض أحياء، بعد أن كانوا فى بطنها أمواتًا .

ونحو الآية قوله تعالى : وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ . (صٓ : ١٥) .

★ ★ ★

## التهديد بما أصاب فرعون

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**المقدس :** المبارك المطهّر ، والوادى المقدّس : هو وادٍ بأسفل جبل طور سيناء ، من برية الشام .

**طوى :** اسم الوادى المقدّس .

**طغى :** تجاوز الحدّ ، فعَتا وتجبّر وكفر بالله تعالى .

**هل لك إلى كذا :** هل ترغب فيه ؟

**تزكّى :** تتزكى وتتطهر من الكفر والطغيان .

**وأهديك :** أدلّك .

**فتخشى :** فتخاف وتخشع .

**الآية الكبرى :** العلامة الدالة على صدقه فى دعواه النبوة ، وهى اليد والعصا .

**أدبر :** ترك موسى .

يسعى : فى مكايدته ، ويجدّ فى الإفساد والمعارضة .

فحشر : جمع السحرة الذين فى بلاده .

النكال : العذاب .

الآخرة : يوم القيامة .

الأولى : الدنيا .

**التفسير :**

١٥ – هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ .

استفهام يقصد به التشويق إلى معرفة قصةٍ تهوّن عليه ما يلاقيه من قومه المكذبين ، وكأنه قيل : هل أتاك خبر موسى ؟ إن لم يكن قد جاءك فأنا أخبرك به .

١٦ – إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى .

حين نادى الله تعالى موسى فى ظلام الليل ، فى ليلة مباركة ، باركها نداء الحق سبحانه ، وتفضله وتلطفه بنداء موسى بالوادى المبارك المطهَّر ، وهو وادٍ فى أسفل جبل طور سيناء من برية الشام ، المسمى طُوًى .

١٧ – ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ .

اذهب إلى فرعون رسولا من عند الله ، مبلِّغا له رسالات السماء ، فقد طغى فرعون وتجاوز الحدّ فى استعباد بنى إسرائيل ، وتقتيل أبنائهم الذكور ، واستحياء الإناث ، وادعاء الألوهية ، وقوله : أنا ربكم الأعلى ، وقوله : ما علمت لكم من إله غيرى .

١٨ – فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ .

إرشاد وتوجيه إلى حسن القول واللين فى المخاطبة ، والمعنى : هل لك يا فرعون فى تطهير نفسك وتزكية روحك .

١٩ – وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ .

وأرشدك إلى الإيمان بالله تعالى ، وهو ربّك وخالقك ، وصاحب كل فضل ونعمة ، وهذا الإيمان بالله والمعرفة به تجعلك فى خشية له ، وتوقير وتعظيم .

قال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ... (فاطر : ٢٨) .

فمن عرف الله أطاع أوامره ، واجتنب نواهيه ، والتزم بهدى السماء ، وابتعد عن الكفر والطغيان .

روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل» [٩].

وعن بعض الحكماء : اعرف الله ، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفة عين .

٢٠ – فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ .

فقدم موسى لفرعون دليلا عمليا ناصعا ، هو العصا تنقلب حيّة ، فتبتلع كل ما أمامها ، واليد يُدخلها فى جيبه ، فتخرج بيضاء بياضا شديدًا ، يغلب نورها ضوء الشمس ، أى قدّم موسى معجزات واضحات كدليل على أنه رسول من عند الله ، فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد مدعى الرسالة ، تصديقا له فى دعواه ، فهى بمثابة قول الحق سبحانه : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنّى .

٢١– فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ .

أى : كذّب فرعون موسى عليه السلام ولم يصدّقه ، وعصى ربه سبحانه ، أو عصى داعية الإيمان ، وفكرة التصديق .

٢٢ – ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ .

ولّى دُبره لدعوة موسى معرضًا عنه ، ساعيا فى جمع السحرة ، أو جنوده وأعوانه .

٢٣ – فَحَشَرَ فَنَادَىٰ .

أرسل فرعون لدعوة السحرة من الصعيد الأعلى ، أو دعا جنوده ، أو جميع الناس فى مملكته ، فوقف فيهم خطيبا .

٢٤ – فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ .

أى : لا ربّ فوقى ، وكانت لهم أصنام يعبدونها .

٢٥ – فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ .

فأهلكه الله بالغرق فى الدنيا ، وبالحرق بالنار فى الآخرة ، ونكّل به تنكيلاً شديدًا ، حيث لم يقبل منه الإيمان . وترك جثته تطفو على الساحل ليكون عظة وعبرة لكل ظالم .

٢٦ - إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ .

فيما ذكر من قصة فرعون ، وعدوانه وظلمه ، ثم هلاكه وغرقه ، لعبرة وموعظة لمن شأنه أن يخشى عاقبة الأمور ، ويعتبر بأخبار السابقين ، فيبتعد عن الظلم والعدوان ، ويخشى عاقبة الكفر والطغيان .

★ ★ ★

## دلائل القدرة

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

**المفردات :**

**رفع سمكها :** جعل ثخنها مرتفعا نحو العُلوّ .

**فسواها :** فجعلها مستوية الخلق بلا عيب .

**أغطش ليلها :** أظلمه .

**أخرج ضحاها :** أبْرزَ نهارها المضىء بالشمس .

**دحاها :** بسطها وأوسعها لسكنى أهلها .

**مرعاها :** أقوات الناس والدّواب .

**الجبال أرساها :** أثبتها فى الأرض كالأوتاد.

**التفسير :**

٢٧ ، ٢٨ - ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا .

كانوا يستكثرون البعث بعد الموت والبلى ، وهنا يواجه القرآن الخلق أجمعين بأدلة القدرة والإحكام ، فالله تعالى خلق هذا الكون منذ بلايين السنين ، وتركه فترة مناسبة ليكون صالحا لحياة الإنسان عليه .

وهنا يوجّه هذا السؤال ، والمقصود به التحدّى : هل خَلْق الإنسان البسيط أكبر وأعقد أم خلق السماء العالية التى أوجدها الله القادر مرفوعة البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء ؟

فَسَوَّىٰهَا . بوضع كل جرم فى موضعه حسبما اقتضته الحكمة ، وجعل السماء ملساء مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

٢٩ - وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا .

أظلم الله الليل ، وزيّنه بالنجوم ، وجعل الظلام حالكا لينام الناس ، ويهدأ المتعب ، ويهرب راغب الهرب .

كما أظهر الضُّحى بالشمس الساطعة المنيرة ليعمل النّاس ، ويكسبوا ويسافروا ، وينتقلوا وينتفعوا، ويطلق الضحى على النهار كله ، وإضافة الضحى إلى السماء لأنه يحدث بسبب طلوع الشمس .

٣٠ - وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ .

خلق الله الأرض فى يومين ، وخلق الجبال والبحار والأنهار فى يومين ، ثم خلق السماء فى يومين ، واستمر التحسين والإبداع والتكامل فى خلق الكون ، فمرّ الخلق بعدة مراحل :

- منها مرحلة الإيجاد .

- ثم مرحلة تكامل الخلق وصلاحيته للوجود ، فالسماء شمّاء عالية ، ملساء مستوية ، بها النجوم والشموس والأقمار والملائكة والإبداع ، والأرض بها البحار والأنهار والنبات ، والجبال والإنسان والحيوان ، والحشرات والهوام ، ومن إبداع الخلق دحو الأرض ، وجعلها مستديرة منبعجة عند خط الاستواء ، مفرطحة عند القطبين .

وقد استجاب الكون لقدرة القدير ، فخلق الله السماء والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، والكون كله دائر بين الخلق والجعل .

قال تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ... (الأنعام : ١) .

قال تعالى : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . (فصلت : ٩ - ١٢) .

٣١ - أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا .

أخرج من الأرض الماء بتفجير الينابيع والعيون ، وعملية التبخر التى يتم فيها إرسال الشمس أشعتها على البحار الواسعة ، فيتصاعد البخر إلى السماء ، ويسخر الله الرياح فتسوق السحاب ، ثم ينزل المطر لينتفع الإنسان والحيوان والنبات ، ولتتكون العيون ، وليحفظ جانب من الماء تحت الأرض ، فيستخرجه الإنسان وينتفع به ، فالماء فعلا من الأرض ، والمطر أساسه بخر مرتفع من المحيطات الكائنة بالأرض .

وبالمطر تنبت المرعى وتخضَرُّ الأرض وتهتزّ ، وتبتهج الحياة ، ويستفيد الإنسان والحيوان ، والحشرات والهوام .

٣٢ - وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا .

وأرسى الله الجبال ، وجعلها راسية تُمسك بتوازن الأرض ، ليتمّ إعمار الأرض ، ولتكون مأدبة الله فى الأرض .

٣٣ - مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ .

أى : جعل الله كلَّ ذلك ليتمتع به الناس والأنعام .

قال تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ . (عبس : ٢٤ - ٣٢) .

والمعنى : أفلا يكون خالقكم ، وخالق السماء ، وخالق الأرض ، وخالق الفضاء والهواء والكون قادرا على بعثكم ؟

★ ★ ★

## جزاء السعداء والأشقياء عند قيام الساعة

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**الطامة الكبرى :** الدَّاهية العظمى ، لأنها تطمّ وتغْلب وتفوق ما عرفوه من دواهى الدنيا .

**بُرِّزت الجحيم :** أُظهرت إظهارًا بيِّنا .

**فأما من طغى :** جاوز الحدّ فى العصيان والكفر .

**هى المأوى :** هى المرجع والمقام له ، لا غيرها .

**أيان مرساها :** متى يقيمها الله ويثبتها .

**فيم أنت من ذكراها :** ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق .

**التفسير :**

٣٤ - فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ .

إذا ظهرت القيامة التى تغطِّى أحداثها على كل شىء سواها ، وسُمِّيت طامة لأنها تطمّ على أمر مفظع ، من طمّ الشىء يطُمّه طمًّا ، إذا غمره ، وكل ما كثر وعلا حتى غلب فقد طمَّ ، وسميت بالكبرى لأنها أعظم الدواهى مطلقا .

٣٥ - يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ .

فى ذلك اليوم يتذكر الإنسان ما عمله من خير أو شرّ ، بأن يشاهده مدونا فى صحيفة أعماله .

قال تعالى : أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

٣٦ - وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ .

ظهرت جهنم تتلظى ، وتتلمظ غيظا على من عصى الله تعالى ، فيراها المؤمن فيحمد الله على نجاته منها ، ويراها الكافر غمًّا إلى غمّه ، وحسرة إلى حسرته .

٣٧ ، ٣٨ - فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا .

فأما من تجاوز الحدّ فى الطغيان والخروج على أوامر الله ، وإيثار اللذائذ والشهوات ، ولم يستعدّ للآخرة بأعمالها .

٣٩ - فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ.

فإن مأواه ومآله هو نار الجحيم ، يصطلى بنارها، ويذوق حميمها وغسلينها ، ويُسام الذل والهوان فيها .

قال تعالى : كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ... (النساء : ٥٦) .

٤٠ ، ٤١ - وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ .

من راقب الله ، واتَّبع أوامره ، واجتنب نواهيه، وتذكَّر الوقوف أمامه للحساب والجزاء ، فآثر الآخرة على الدنيا ، ونهى نفسه عن هواها ، ومشتهياتها من الزنا أو السرقة أو الخمر أو أىّ معصية ، فإن مآله الجنة ، هى مأواه ومستقره ، يقيم فيها خالدًا مخلدًا أبدًا، يتمتع فيها بالنعيم المقيم ، ورضوان الله رب العالمين .

٤٢ ، ٤٣، ٤٤ - يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ.

كان الكفار يُكثرون السؤال عن الساعة ، بعد أن تحدّث القرآن الكريم عن القيامة، والحاقّة ، والطامة الكبرى ، والصاخّة ، والواقعة ، فكانوا يتساءلون : متى تأتى ؟ ومتى يكون وقتها ؟

وكانوا يسألون عنها سؤال المنكر لمجيئها ، المستهزئ بوقوعها ، المتشكك فى حصولها أو حصول أهوالها ، فكانوا يقولون للنبى ﷺ : متى تكون الساعة ؟[١٠]

وعلم الساعة غيب لا يعلمه إلاَّ الله .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ . (لقمان : ٣٤) .

وفى صحيح البخارى أن جبريل جاء للنبى ﷺ فى صورة أعرابى ، فسأله عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم عن الساعة ، فقال ﷺ : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» .[١١]

فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ .

لقد أرسلناك لتدعو الناس إلى العمل للآخرة ، وأنت بشر لا علم لك بأمور الغيب ، ولا تستطيع أن تذكر لهم موعد الساعة ، ولا وقت مجيئها .

قال تعالى : ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (الأعراف : ١٨٧ ، ١٨٨) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ . (طه : ١٥) .

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ .

إلى الله تعالى وحده منتهى علم الساعة ، ومعرفة وقتها ، وليس ذلك لأحد من البشر كائنًا من كان.

٤٥ – إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا .

إنما أرسلك الله لتخوِّف الناس من عذاب يوم القيامة ، ولترشدهم للعمل والاستعداد لذلك اليوم .

قال ﷺ : «بُعثت أنا والساعة كهاتين» . وقرن بين أصبعيه الوسطى والسبابة .[١٢]

وقد سُئل النبى ﷺ عن الساعة ، فقال للسائل : «وماذا أعددت لها» ؟ فقال الرجل : ما أعددت لها كثير صلاة ، ولا كثير صيام ، ولكنِّى أُحبُّ الله ورسوله ، فقال ﷺ : «يُحشر المرء يوم القيامة مع من أحبّ» [١٣] .

٤٦ – كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا .

أى : إن الساعة قادمة ، وقدومها مؤكد ، وكل آتٍ قريب ، وحين يشاهدونها ويرون أهوالها ، يتيقنون أنَّ المدة التى مكثوها فى قبورهم لم تكن إلا عشية يوم أو ضحاه .

والعشية : من الزوال إلى الغروب .

والضحى : من طلوع الشمس إلى الزوال .

والمراد أنهم يستقصرون مدة المكث فى الدنيا ، حتى كأنّها كانت عشية من يوم أو ضحاه .

قال تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ... (الأحقاف :٣٥) .

وتنتهى الحياة الدنيا قصيرة جداً ، حتى كأنها عشية يوم أو ضحاه ، أَفَمِنْ أجل وقت قصير يُضحّى الناس بالقيامة ، أى بالآخرة وما فيها من نعيم أبدى فى الجنة ، أو جحيم أبدى فى النار؟

★ ★ ★


تفسير سورة عبس

# أهـداف سـورة عبـس

(سورة عبس مكية ، وآياتها ٤٢ آية ، نزلت بعد سورة النجم)

وهى سورة تصحح القيم الإنسانية ، وتضع الأسس الإسلامية لأقدار الناس وأوزانهم ، وتؤكد أن قيمة الإنسان بعمله وسلوكه ، ومقدار اتباعه لهدى السماء ، قال تعالى : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...
(الحجرات : ١٣)

وقد نزلت سورة عبس فى عبد الله بن أم مكتوم، وأم مكتوم أم أبيه ، وأبوه شريح بن مالك بن ربيعة الزهرى .

«وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال : يا رسول الله ، أقرئنى وعلمنى مما علمك الله، وكرر ذلك وهو لا يعلم شغله بالقوم ، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ، ويقول إذا رآه : «مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى» ، ويقول له : «هل لك من حاجة» ؟ واستخلفه على المدينة مرتين .[١٤] .

## فقرات السورة

تعاتب الآيات الأولى النبى ﷺ على إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم ، وقد جاء يطلب الهدى ، ويُلحف فى طلب العلم . (الآيات ١ – ١٦) .

ويعالج المقطع الثانى جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده وأصل نشأته ، وتيسير حياته وتولى ربه له فى موته ونشره ، ثم تقصير الإنسان بعد ذلك فى أمر ربه . (الآيات ١٧ – ٢٣) .

والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشرى إلى أمسّ الأشياء به ، وهو طعامه وطعام حيوانه ، وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له . (الآيات ٢٤ – ٣٢) .

والمقطع الأخير يعرض الصاخة التى يشتد هولها ، ويذهل الإنسان بها عما عداها ، وتنقسم الوجوه إلى ضاحكة مستبشرة ، وعابسة مغبرة . (الآيات ٣٣ – ٤٢) .

وتسكب السورة الإحساس بقدرة هذا الكتاب الخارقة على تغيير موازين الجاهلية ، وتصحيح القيم ، وتغيير المثل الأعلى ، فبعد أن كان احترام الإنسان لجاهه وماله ، أو منصبه ومركزه ، أو مظاهر سطوته وجبروته وقوته ، أصبح المثل الأعلى فى الإسلام هو طلب الحق والهدى ، والتزام هدى السماء ، ومراقبة الله والتزام أوامره ، والعمل بأحكامه ، وصدق الله العظيم : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... (الحجرات : ١٣) .

وتبين آية أخرى أن الله يأمرنا بمكارم الأخلاق وينهانا عن المنكرات ، فيقول سبحانه : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (النحل : ٩٠)

## مع آيات السورة

١ ، ٢ – قطَّب الرسول ﷺ وجهه وأعرض ، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه . وفى العدول عن الخطاب للغيبة إلفات بلاغى ، سره عدم توجيه اللوم والعتاب إلى الرسول ﷺ ، ثم التفت إلى الخطاب بعد هاتين الآيتين ، عندما هدأت ثورة العتاب وبدأ التلطف .

٣ ، ٤ – وما يعلمك أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير ، وأن يتحقق منه خير كبير ، وأن يشرق قلبه بنور الإيمان ، فتنفعه الموعظة : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ . (الزمر : ٢٢) .

٥ – ٧ – أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك ، وعما عندك من الخير والإيمان ، أما هذا فأنت تتصدى له ، وتحفل بأمره ، وأنت مبلِّغ عن الله ، عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولا يضيرك إعراضهم .

٨ – ١٠ – وأما عبد الله بن أم مكتوم الذى جاءك طائعاً مختارًا ساعيًا يخشى ويتوقى، فأنت تتشاغل عنه بهؤلاء الأشراف من قريش ، ثم تتصاعد نبرة العتاب لتبلغ حد الردع والزجر .

١١ – ١٦ – كَلَّآ . لا يحدث ذلك أبدا ، إن هداية القرآن غالية عالية ، فمن شاء اهتدى بها وتذكر أحكامها ، واتعظ بها وعمل بموجبها ، وهذا الوحى كريم على الله ، كريم فى كل اعتبار ، منزه عن النقص والضلالة ، قد دون فى صحف مكرمة ذات شرف ورفعة ، مطهرة من النقائص والضلالات ، تنزل بواسطة الملائكة على الأنبياء ، وهم يبلغونها للناس .

والملك سفير لتبليغ وحى السماء ، والرسول سفير لتبليغ الدعوة إلى الناس ، وهم كرام أبرار أطهار ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد بلغ النبى الكريم وحى السماء ، وغيّر كثيرًا من المفاهيم السائدة ، ومن اعتزاز الناس بمقاييس الجاهلية ، وجعل أسامة بن زيد أميرا على جيش به أجلاء الصحابة ، ووضع فى نفوس أصحابه تقدير الناس بأعمالهم فقط لا بأحسابهم وأنسابهم ، يقول عمر بن الخطاب : لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته . ويقول عمر أيضا : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . أى : إن أبا بكر أعتق بلالا مؤذن الرسول ﷺ .

١٧ - ٢٣ - قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ . دعاء على الكافر ، فإنّه ليستحق القتل على شدة كفره وجحوده ، ونكرانه لنعم الله عليه ، لماذا يتكبر وهو مخلوق من أصل متواضع زهيد ، يستمد كل قيمة من فضل الله ونعمته ، ومن تقديره وتدبيره ؟ لقد خلقه الله من نطفة فمرت النطفة بأطوار كثيرة فى بطن الأم ، ومرّ هو بأطوار عدة خارج بطنها ، رضيعا فطفلا فشابا فكهلاً فشيخا ، ثم يسر الله له سبيل الهداية ، ومنحه العقل والإرادة ، ومكنه من القدرة على الاختيار ، وعرّفه عاقبة كل عمل ونتيجته .

قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

أى : بينَّا له الطريق ومنحناه القدرة على الاختيار ، وبينَّا له سبيل الهدى والضلال ، فإما أن يشكر ربه ويمتثل لأمره ، وإما أن يكفر بنعمه ويخالف أمره ، حتى إذا انتهت حياة الإنسان سلب الله روحه ، ومنَّ عليه بالموت وهو نعمة كبرى ، ولولا الموت لأكل الناس بعضهم بعضا ، ولضاقت الأرض بمن عليها ، ومن نعم الله أن شرع دفن الميت ، وحفظه فى باطن الأرض ، حتى لا يترك على ظهرها للجوارح والكواسر .

ومن نعم الله أيضا أن يبعث الموتى ، وينشرهم ويخرجهم من قبورهم ، لمكافأة الطائع ومعاقبة العاصى .

عجبا للإنسان الجاحد فإنه بالرغم من النعم الظاهرة والباطنة التى أحاطه الله تعالى بها لم يمتثل ما أمره الله به .

٢٤ - ٣٢ - فليتأمل الإنسان تدبير الله ، لإمداده بأسباب الحياة والنمو ، ولينظر إلى ألصق شىء إليه ، وألزم شىء له وهو الطعام ، كيف يسر الله الحصول عليه ، فقد أنزل الله سبحانه المطر من السماء ، فانتفعت به الأرض ، وانشقت عنه ثمانية أنواع من النبات ، هى :

١ – الحَب ، كالحنطة والشعير والأرز .

٢ – العنب والفاكهة .

٣ – القضب ، وهو ما يؤكل من النبات رطباً وغضًا طريا .

٤ ، ٥ – الزيتون والنخل ، وفيهما من القيمة الغذائية الشىء الكثير ، والبلح طعام الفقير وحلوى الغنى ، وزاد المسافر والمقيم .

٦ – بساتين ذات أشجار ضخمة مثمرة ، وذات حوائط تحيط بها ، غُلْبًا . جمع غلباء ، أى ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار .

٧ – وفاكهة يتمتع الإنسان بأكلها ، كالتين والتفاح والخوخ وغيرها .

٨ – والأبّ ، أى مرعى الحيوان خاصة .

تلك قصة الطعام الذى أنبتته يد القدرة ، ويسرت لذلك المطر والرياح والشمس والهواء ، وعديدا من العوامل والأسرار الخفية ، فيتمتع بأكله الإنسان والحيوان .

٣٣ – ٤٢ – فإذا جاءت القيامة التى تصخّ الآذان بسماع أهوالها ، فى ذلك اليوم يشتد الهول ، وينشغل الإنسان بنفسه عن أقرب الناس إليه ، ويفر من أخيه ، وأمه وأبيه ، وزوجته وبنيه ، لقد اشتد الفزع النفسى ، ففرّ الإنسان ممن يفديهم بنفسه فى الدار الدنيا ، وقد شغله خوف الحساب ، ومشاهد القيامة ، ومظهر البعث والحشر والجزاء عن كل شىء .

فى ذلك اليوم ترى وُجوهًا مستنيرة مشرقة ترجو ثواب ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . وترى وجوهًا أخرى تغشاها غبرة الحزن والحسرة ، ويعلوها سواد الذلّ والانقباض ، هؤلاء هم الذين جحدوا آيات ربهم ، ولم يؤمنوا بالله ورسله ، وانتهكوا الحرمات وتعدوا حدود الله ، فاستحقوا كلمة العذاب .

## مقاصد السورة

١ – عتاب الرسول ﷺ على ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمى .

٢ – ذكر شرف القرآن ، وبيان أنه موعظة لمن عقل وتدبر .

٣ – إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق الإنسان والنظر فى طعامه وشرابه .

٤ – أهوال يوم القيامة .

٥ – انقسام الناس فى الآخرة إلى سعداء وأشقياء .

★ ★ ★

## المساواة فى الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**عبس :** قطّب وجهه الشريف ﷺ .

**تولى :** أعرض بوجهه الشريف ﷺ .

**لعله يزكى :** يتطهر بتعليمك من دنس الجهل .

**أو يذكر :** يتعظ بنصائحك .

**تصدى :** تتعرض له بالإقبال عليه .

**جاءك يسعى :** وصل إليك مسرعًا يبتغى ما عندك من العلم .

**تلهى :** تُعرض وتتشاغل .

**كلا :** حقًا ، أو إرشاد بليغ لترك المعاودة .

**إنها تذكرة :** إنّ آيات القرآن موعظةٌ وتذكيرٌ .

**فى صحف :** منتسخة من اللوح المحفوظ .

**مكرمة :** شريفة عند الله .

**مرفوعة :** رفيعة القدر والمنزلة عنده تعالى .

مـطـهـرة : منزهة عن أيدى الشياطين ، وعن النقص .

بأيدى سفرة : كتبة من الملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ .

كـــرام : أعزّاء على الله تعالى .

بــررة : أتقياء مطيعين لله تعالى ، وهم الملائكة .

**تمهيد :**

تشتمل السورة على أدب السماء ، وتوجيه الله تعالى عباده إلى طريقة التعامل ، واحترام قيمة الإنسان ، فالإنسان إنسان بفضله وعقله وأدبه وزكاء نفسه ، لا بماله وحشمه وخدمه ، والخلق كلهم عيال الله ، يتفاضلون عِنْده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

قال تعالى : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (الحجرات : ١٣) .

**سبب النزول :**

أخرج الترمذى ، والحاكم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : أُنزل : عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . فى ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله ، أرشدنى . وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ، ويُقبل على الآخر ، فيقول له : أترى بما أقول بأسًا ؟ فيقول : «لا» ، فنزلت : عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ[١٥] .

وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس .

**التفسير :**

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ – عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ .

يجىء رجل فقير ضرير ، هو عبد الله بن أم مكتوم ، وأم مكتوم كنية أمّه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وقد أسلم بمكة قديمًا ، وكان أعمى ، وقد عمى بعد إبصار ، وقيل : ولد أعمى .

أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش وأشرافها ، والرسول ﷺ يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم خلق كثير ، فقال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، أقرئنى وعلّمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم انشغاله ﷺ بالقوم ، فَكَرِهَ ﷺ قطعه لكلامه ، وظهرت الكراهية فى وجهه ، فعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات عتابًا لرسول الله ﷺ .

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ .

بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ، وفى هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحبّ سبحانه أن يواجه به نبيّه وحبيبه ، عطفًا عليه ورحمة به ، وإكرامًا له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه .

والمعنى :

قطّب النبى ﷺ وجهه وأعرض لأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى جاء إليه ساعيًا ، طالبًا من الرسول ﷺ أن يعلّمه ، والأعمى لم يكن مشاهدًا للأشخاص الذين انشغل النبى ﷺ بمحاورتهم ومحاولة إقناعهم بالإسلام والقرآن والإيمان .

وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ .

وما يُعلمك يا محمد ، لعل هذا الأعمى الفقير يصير زاكيًا متطهرًا من الذنوب بسبب ما يتعلمه منك ، أو يتذكر فيتعظ بما تعلّمه من المواعظ فتنفعه الموعظة .

وكان هذا التّصرف من رسول الله ﷺ بمثابة ترك الاحتياط وترك الأفضل ، وأراد الحق سبحانه أن يوجّه الأمة كلّها فى شخص رسولها ﷺ ، أن تكون العناية بالمخبر لا بالمظهر ، فهذا الأعمى الفقير له رغبة فى معرفة الحق وتعلّم أمور الدين ، فالاتجاه إليه وتعليمه أولى من الانشغال بالأغنياء الأقوياء ، المعرضين عن الحق وعن الإسلام .

**قال الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عمّ ما يأتى :**

فكأنه يقول : يا أيها النبىّ ، إن أقبلت فأقبل على العقل الذكىّ ، والقلب النقىّ ، وإياك أن تنصرف عنه إلى ذى الجاه القوى ، والمكان العلىّ ، فذلك إنسان بنفسه ، حىّ بطبعه ، وهذا غائب عن حسّه ، معدوم بذاته ، موجود بجمعه ، وفى ذلك من تأديب الله لأمة محمد ﷺ ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم – هداهم الله .

وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ .

يتجه التعبير إلى الخطاب ، فيقول للرسول ﷺ : وما يُعلمك يا محمد ، لعل هذا الأعمى الفقير – إذا علّمته – أن يتطهر ، وأن تشرق نفسه ، وأن يسمو قلبه ، أو أن تتسلل الذكرى إلى نفسه ، والموعظة إلى فؤاده ، فتنفعه هذه الذكرى ، وتوجهه إلى الخير والنفع ..

٥ ، ٦ ، ٧ – أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ .

أما من استغنى عنك ، بثروته وماله وجاهه ، وأعرض عن الإسلام والقرآن وداعية الإيمان ، فأنت تتعرض له ، متشاغلاً بالتصدّى له ودعوته للإسلام ، وليس عليك هدايته ، ولا يضيرك عدم إيمانه ، ولا شيء عليك فى ألا يتطهر من الكفر ، لأنك رسول مبلّغ عن الله ، ليس عليك هداهم ، إن عليك إلا البلاغ .

ويقول الآلوسى فى تفسيره : والممنوع عنه فى الحقيقة الإعراض عمن أسلم ، لا الإقبال على غيره ، والاهتمام بأمره حرصًا على إسلامه .

٨ ، ٩ ، ١٠ – وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ .

وأمّا من أتى إليك مسرعًا فى طلب الهداية، راغبًا فى الإرشاد والتوجيه والعظة بمواعظ الله ، وهو يخاف الله تعالى ، فأنت تتشاغل وتعرض عنه ، وتتلهى عنه بالآخرين ، لذا أمره الله تعالى ألاّ يخصّ بالإنذار أحدًا ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والغنىّ والفقير ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم يهدى الله تعالى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال تعالى : وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ... (الأنعام : ٥٢) .

وقال تعالى : وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا . (الكهف : ٢٨) .

١١ ، ١٢ – كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ .

كَلَّآ . أى : لا تفعل مثل هذا مرة أخرى ، إن هذه الصحف السماوية – ومنها القرآن الكريم – تذكرة للإنسان بربّه ، وهذه التذكرة مودعة فى الفطرة ، وتُرك للإنسان العقل والإرادة والاختيار ليتذكر ربّه .

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ .

من شاء ذكر ربّه وآمن به ، أو من شاء ذكر القرآن واتعظ به ، أو من شاء ذكر الرسالة السماوية ، وآمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً .

١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ - فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ .

إن آيات القرآن مثبتة فى صحف منتسخة من اللوح المحفوظ ، مكرّمة عند الله جل وعلا ، لما فيها من العلم والحكمة ، ولنزولها من اللوح المحفوظ .

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . رفيعة القدر عند الله لاشتمالها على أصول العقائد والآداب والأخلاق ، مُّطَهَّرَةٍ . منزهة عن النقص والضلالة ، محفوظة من عبث الشياطين والكفار لا ينالونها .

بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . محمولة بأيدى سفرة ، أى : وسائط من الملائكة يسفرون بين الله ورسله ، لتبليغ الوحى الإلهى للرسل الكرام .

قال تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ ... (الحج : ٧٥) .

وقال تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

كِرَامٍ بَرَرَةٍ .

مكرمين عند ربهم ، مطيعين له ، كرام على الله ، فيهم برٌّ بالمؤمنين وعطف عليهم ، حيث إنهم يدعون الله أن يغفر للتائبين ، وأن يحفظهم من السيئات ، وأن يشملهم برحمته .

قال تعالى : بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . (الأنبياء : ٢٦) .

وقال سبحانه : لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) .

وقال عز شأنه : ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . (غافر : ٧ - ٩) .

وتطلق السفرة على الملائكة لأنها تسفر بين الله وبين الرسل ، وكذلك تطلق على الرسل لأنها تحمل رسالة الله إلى الناس ، كلاهما يطلق عليه سفرة .

وقال ابن جرير الطبرى :

والصحيح أن السفرة : الملائكة ، وهم السفرة بين الله تعالى وبين خلقه ، ومنه يقال : السفير ، أى : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير .

أخرج الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) أن رسول الله ﷺ قال : «الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاقٌ ، له أجران»[١٦] .

## فى ظلال القرآن

علّق صاحب الظلال بضع صفحات على صدر سورة عبس ، ذكر فيها أن الحق جل جلاله جعل هداية السماء عالية سامقة ، لا ينالها إلا من رغب فيها ، وقد استجابت نفس الرسول ﷺ وانفعلت بهذا التوجيه ، واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة فى حياته كلها ، وفى حياة الجماعة المسلمة ، لقد كان الإسلام ميلادًا جديدًا للبشرية ، كميلاد الإنسان الأوّل .

وقد كان رسول الله ﷺ بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه ، ويقول له كلما لقيه : «أهلا بمن عاتبنى فيه ربّى» ، وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة .

وقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وجعل عمه حمزة ، ومولاه زيد بن حارثة أخوين ، وقد جعل زيدًا أميرًا فى غزوة مؤتة ، وكان آخر أعمال رسول الله ﷺ أن أمّر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم ، يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر وزيراه وصاحباه ، وقال ﷺ : «سلمان منّا أهل البيت»[١٧] .

وأخرج الشيخان ، والترمذى ، عن أبى موسى قوله : قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا ، وما نرى عبد الله بن مسعود وأمّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ ، من كثرة دخولهما على رسول الله ﷺ ، ولزومهما له[١٨] .

واستمر الخلفاء على هذا الهدى ، فمشى أبو بكر الصدّيق – وهو خليفة – يودّع بنفسه أسامة بن زيد ، ويقول : وما علىّ أن اغبّر قدمى فى سبيل الله ساعة . ثم يقول لأسامة : إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل .

ثم تمضى عجلة الزمن ، فنرى عمر بن الخطاب يولّى عمار بن ياسر على الكوفة .

ويقول عمر : أبو بكر سيدُنا وأعتق سيدَنا . يعنى بلالاً ، الذى كان مملوكًا لأمية بن خلف ، واشتراه أبو بكر وأعتقه .

وقد كان عبد الله بن عباس يُذكر ويُذكر معه مولاه عكرمة ، وكان عبد الله بن عمر يُذكر ويُذكر معه مولاه نافع .

وتمتّع كثير من الموالى بتولى الفتيا مثل : الحسن البصرى بالبصرة ، ومجاهد بن جبر ، وعطاء بن رباح وغيرهم .

وظل ميزان السماء يرجح بأهل التقوى ولو تجردوا من قيم الأرض كلها ، فى اعتبار أنفسهم ، وفى اعتبار الناس من حولهم .

★ ★ ★

## نعم الله على الإنسان

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) ﴾

**المفردات :**

**قتل الإنسان :** لُعن الكافر أو عُذِّب .

**ما أكفره :** ما أشد كفره ، وهو تعجيب من إفراطه فى الكفران .

**فقدره :** أطوارًا ، أو هيأه لما يصلح له .

**ثم السبيل يسره :** سهل له طريق الخير وطريق الشر ، وأقدره على اختيار أيهما .

**فأقبره :** أمر بدفنه تكرمة له .

**أنشره :** أحياه بعد موته للحساب والجزاء .

**كلا :** زجر للإنسان عن ترفعه وتكبره .

**لما يقض ما أمره :** لم يفعل ما أمره الله به ، بل قصَّر .

**التفسير :**

١٧ - قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ .

دعاء على الإنسان الكافر بالموت ، فما أشد كفره ، حيث يرى نعم الله عليه فى نفسه وفى خلقه ، ثم يكفر بالله ولا يؤمن برسله .

١٨ ، ١٩ ، ٢٠ - مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ .

من أى شىء حقير مهين خلقه ، من نطفةٍ خلقه الله ، فَقَدَّرَهُۥ . لما يصلح له فى الحياة ، فوهب له أطوارًا فى بطن أمه ، وأطوارًا فى حياته ، من مراحل الضعف إلى القوة ثم إلى الضعف والشيبة مرة أخرى ، تمهيدًا للموت وهو نعمة أىّ نعمة ، وأمدَّ الله الإنسان بالأطراف والأجزاء ، والأعضاء والأجهزة التى تساعده فى أداء رسالته فى الحياة .

ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ .

ألهمه الخروج من بطن أمّه بأن فتح له رحمها ، وألهمه أن ينتكس فتكون رأسه إلى أسفل ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية ، أو يسر له سبيل الخير والشرّ ، وأعطاه العقل والإرادة والاختيار .

قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ - ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ .

حين انتهت حياة الإنسان أمر الله أن يدفن فى الأرض تكرمة له ، ولم يتركه جزرًا للسباع .

قال تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . (طه : ٥٥) .

فالأرض أُمُّنا نأكل من خيراتها ، ونعيش على ظهرها ، وبعد الموت ندفن فى باطنها .

قال تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا . (المرسلات : ٢٥ ، ٢٦) .

ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ .

إذا أراد الله وقدَّر البعث والنشور ، أمر إسرافيل فينفخ فى الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس لرب العالمين ، حيث يتم الحساب والجزاء ، فيساق المتّقون إلى الجنة ، ويساق المجرمون إلى النار .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ .

كَلَّا . حرف ردع وزجر لهذا الإنسان الكافر ، أو المقصّر فى القيام بحق الله عليه ، أى رغم هذه النعم فى الخلق والتكوين والنشأة ، وإمداد الإنسان بما يعاونه فى حياته مثل الأيدى والأرجل ، والسمع والبصر

والعقل ، لكن الإنسان لم يشكر الله حق شكره ، فمن الناس من كفر بالله وبالكتب والرسل ، ومنهم من صدَّق وقصَّر فى أداء الفرائض .

رُوى عن مجاهد وقتادة أن المراد أنه لم يقض جميع ما أمره الله به ، من أول زمان تكليفه إلى زمان إماتته وإقباره .

★ ★ ★

## تيسير الطعام والفاكهة

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

**المفردات :**

**صببنا الماء صبا :** أنزلناه من السماء إنزالاً عجيبًا ، كأنه مراق من إناء .

**شققنا الأرض :** بالنبات ، أو بالحرث .

**قضبا :** علفًا رطبًا للدواب كالبرسيم ، وسُمِّى قضبًا لأنه يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى .

**غلبا :** واحدها غلباء ، أى ضخمة عظيمة .

**الأبّ :** المرعى ، لأنه يؤبّ ، أى يؤمّ وينتجع .

**متاعا لكم ولأنعامكم :** أنبتناه لكم لتتمتعوا به ، وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

**تمهيد :**

بعد أن ذكر الدلائل على قدرته تعالى ، وهى كامنة فى نفس الإنسان ، أردف ذلك بذكر الآيات المنبثّة فى الآفاق ، الناطقة ببديع صنعه تعالى وباهر حكمته .

**التفسير :**

**٢٤ ، ٢٥ - فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا .**

ليتأمل الإنسان فى عجائب القدرة الإلهية التى خلقته ، ويسرت له طريقه إلى الحياة ، ثم يسَّرت له الطعام ليأكل ، والماء ليشرب ، والنَّبات والحَبَّ والبساتين ليتمتع هو وأنعامه .

وخلاصة معنى الآيتين :

تأمَّل أيها الإنسان فى طعامك ورزقك وأسبابه ، إن الله تعالى أنزل المطر من السماء متتابعًا .

٢٦ – ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا .

أى : يسرنا للإنسان حرث الأرض وتقليبها ، ليتسرب إليها الضوء والهواء ، أو شققنا الأرض بصنوف النباتات والحبوب التى يلقيها الإنسان فى الأرض ، فتشق طريقها إلى أعلى .

٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ – فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ .

هذه ألوان النِّعم التى أنبتها الله من الأرض :

الحب : كالشعير والقمح والذرة ، والفول والترمس .

العنب : وهو معروف .

القضب : وهو الزرع الذى يقضب مرة بعد مرة ، وهو رطب مثل : البرسيم ، والجتّ وهو القَتّ .

الزيتون : منه الأخضر والأسود ، ويعصر منه الزيت فيكون طعامًا وشِفاءً .

النخل : يستفيد الإنسان بالشجرة وبالرُّطب والبلح ، والسعف والخُوص ، وكل شيء فى النخلة نافع .

حدائق غُلْبٌ : بساتين ذات أشجار ضخمة ، ومتكاثفة كثيرة .

الفاكهة : وهى كل ما يتفكّه به من الثِّمار ، أى يستمتع به ، كالتفاح والكمثرى والموزْ والخوخ والتين ونحوها .

الأَبّ : والأبُّ كل ما أنبتت الأرض ، مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه ، من الكلأ وسائر أنواع المرعَى للحيوان ، مثل العشب والحشيش الذى ترعاه الدواب .

مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ .

جُعلنا ذلك متعة وتمتيعا لكم ولأنعامكم ، فاشكروه على آلائه وجزيل عطائه ، فقد ضمن لكم ولأنعامكم الحياة والمتاع ، فسبحانه سخَّر الأرض وهيأها لاستقبال الإنسان ، وخلق الإنسان فى بطن أمه وجعله يمر بمراحل متعددة إلى الولادة ، ويمرّ فى حياته بمراحل أخرى ، من الطفولة والمراهقة والشباب ،

والرجولة والكهولة والشيخوخة ، ويسَّر له المطر والنبات والطعام ، والفاكهة والمتاع له ولأنعامه ، فسبحان من كرَّم الإنسان ، وسخر له الكون ، وأرسل له الرسل ، وأنزل الكتب ، فسبحانه ، سبحان الله العلى العظيم .

★ ★ ★

## أهوال القيامة

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾

**المفردات :**

**جاءت الصاخة :** الصيحة تصمّ الآذان لشدَّتها ، والصخّ الضرب بالحديد على الحديد ، فيُسمع إذ ذاك صوت شديد يحدث من تخريب الكون ، ووقوع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثمَّ سُمِّيت صاخّة ، وقارعة .

**شأن :** شغل .

**يغنيه :** يصرفه ويصدُّه عن مساعدة ذوى قرابته .

**مسفرة :** مضيئة مشرقة ، يقال : أسفر الصبح ، إذا أضاء .

**مستبشرة :** فرحة بما نالت .

**غبرة :** غبار وكدورة تغشى وجوه الكافرين .

**قترة :** سواد كالدُّخان .

**الفجرة :** واحدهم فاجر ، وهو الخارج عن حدود الله ، المنتهك لحرماته .

**التفسير :**

**٣٣ - فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ .**

من أسماء القيامة : القارعة . لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

و ٱلصَّآخَّةُ . لأنها تصخ الأسماع لشدة وقعها ، وقد وصفت بها النفخة الثانية ، لأن الناس يصيخون لها ، أى يستمعون ، تدفعهم شدّتها إلى أن يسرعوا قيامًا ينظرون .

٣٤، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ – يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

أى : إذا جاءت الصاخّة وهى القيامة ، فى ذلك اليوم يفرّ المرء من أقرب الناس إليه ، بداية من الأخ ومرورًا بالأم والأبّ ، ووصولاً إلى الزوجة والأبناء ، مع أنه كان فى الدنيا يفتديهم ويدفع عنهم السوء ، ويحاول أن يحلّ مشاكلهم ، ويشارك فى سرّائهم وضرّائهم .

**قال فى التسهيل :** ذكر تعالى فِرار الإنسان من أحبابه ، ورتّبهم على مراتبهم فى الحنوّ والشفقة ، فبدأ بالأقلّ ، وختم بالأكبر ، وذلك بذكر الأخ والأبوين لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين لأنهما أحب .

**وجاء فى غرائب القرآن :** إن الفرار المعنىّ هو قلة الاهتمام بشأن هؤلاء ، بدليل قوله تعالى : لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . أى : يصرفه ويصدّه عن قرابته .

وروى ابن أبى حاتم ، والنسائى ، والترمذى ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «تُحشرون حفاة عراة مشاة غُرْلا» أى : غير مختونين . فقالت امرأة : أينظر بعضنا بعضا ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ فقال ﷺ : «يا فلانة ، لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .»[١٩] (قال الترمذى : حديث حسن صحيح) .

وفى الحديث الصحيح : «إن الناس فى هول القيامة يلهمون أن الشفاعة للأنبياء ، فيذهبون إلى آدم ، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ، ثم إلى موسى ، ثم إلى عيسى ، فيقول كل نبىّ : نفسى نفسى ، إن الجبار غضب اليوم غضبًا شديدًا لم يغضب قبله مثله ، فيذهبون إلى النبى ﷺ فيقول : «أنا لها ، أنا لها» ، ثم يؤتيه الله الشفاعة .[٢٠]

فى ذلك اليوم ينقسم الناس إلى فريقين : أهل الإيمان والتقوى ، ويقابلهم أهل الكفر والعصيان .

٣٨ ، ٣٩ – وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ .

هؤلاء السعداء الذين أخلصوا لله فى الدنيا ، وقاموا بالليل ، وطهّروا أطرافهم بالوضوء ، وقلوبهم بحُبّ الله وطاعته والتبتل إليه ، ترى وجوههم ، مُّسْفِرَةٌ . مضيئة متهللة من البهجة والسرور .

ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . بما تشاهد من نعيمها فى الجنة ، ورضوان الله وفضله ، ونعيمه ورؤيته ، هذه السعادة فى قلوبهم ينعكس أثرها على وجوههم ، فترى الضحك والسعادة والاستبشار بما سينالونه من النعيم .

قال تعالى : رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ . (البينة : ٨) .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ – وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ .

هؤلاء هم الذين آثروا حظوظهم العاجلة ، وأُترفوا بالشهوات ، وآثروا الحياة الدنيا ، واتّسموا بالطغيان والكفران .

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ .

يعلوها الغبار والسواد ، والمذلة والهوان من هول ما شاهدوا .

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ .

يعلوها سواد وظلمة على الحقيقة ، أو غمّ وحزن على المجاز .

وقيل : لا ترى أقبح من اجتماع الغبار والسواد فى الوجه ، بمعنى أن على وجوههم غبارًا وكدورة ، فوق غبار وكدورة .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ .

هؤلاء هم الذين كفروا بالله ، وجمعوا بين الكفر والفجور ، وهو ارتكاب المعاصى واقتراف الموبقات ، فاستحقوا أن يتجللوا بالسواد والقتام ، وأن يغشاهم الذل والمهانة ، نظرا لكفرهم وسوء أعمالهم وفجورهم .

اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار ، اللهم آمين .

★ ★ ★

تم بفضل الله تفسير سورة (عبس) عشية يوم الجمعة ١٠ من صفر ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٤ من مايو ٢٠٠١ ، والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★



# تفسير سورة التكوير

# أهداف سورة التكوير

(سورة التكوير مكية ، وآياتها ٢٩ آية ، نزلت بعد سورة المسد)

وتشتمل سورة التكوير على ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة في هذا الكون ، حين تنتهى الحياة ، ويختل نظامها ، وينفرط عقد الكون وتتناثر أجزاؤه ، ويذهب عنه التماسك الموزون والحركة المضبوطة ، والصنعة المتينة .

والسورة تشتمل على مقطعين اثنين ، تعالج فى كلٍّ مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :

**الأولى** : حقيقة القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بنى الإنسان .

**والثانية** : حقيقة الوحى ، وما يتعلق بها من صفة المَلَك الذى يحمله ، وصفة النبى الذى يتلقاه ، ثم شأن المخاطبين بهذا الوحى معه ، ومع المشيئة الكبرى التى فطرتهم وأنزلت لهم الوحى .

## مع آيات السورة

بدأ سبحانه هذه السورة الكريمة بذكر يوم القيامة ، وما يكون فيه من أحداث هائلة ، وحين تقع هذه الأحداث تعلم كل نفس ما قدمت من عمل خيرًا كان أو شرًّا .

١ – إذا كورت الشمس وسقطت وتدهورت ، وانطفأت شعلتها ، وانكمشت ألسنتها الملهبة ، وذهب ضوءُها ، واختل نظام الكون .

٢ – وإذا تناثرت النجوم ، وأظلم نورها ، وذهب لألاؤها .

٣ – وإذا انفصلت الجبال عن الأرض ، وسارت فى الجو كما يسير السحاب ، وتبع ذلك نسفها وبسها وتذريتها فى الهواء ، كما جاء فى سورة طه : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ . (طه : ١٠٥) .

٤ – وإذا تُركت العشار وأهملت ، و ٱلْعِشَارُ : هى النوق الحبالى فى شهرها العاشر ، وهى أجود وأثمن ما يملكه العربى ، فإذا انشغل الناس عنها بأهوال القيامة عُطلت وأُهملت .

٥ – وإذا اجتمعت الوحوش الكاسرة ذليلة هادئة قد نسيت غريزتها ، مضت هائمة على وجوهها لا تأوى إلى جحورها ، ولا تنطلق وراء فرائسها ، وقد حشرها هول الموقف ذاهلة متغيرة الطباع ، فكيف بالناس فى ذلك اليوم العصيب ؟

٦ – وإذا التهبت البحار وامتلأت نارا ، أو فجرت الزلازل ما بينها حتى اختلطت وعادت بحرا واحدًا .

٧ – وإذا اقترنت الأرواح بأبدانها ، أو إذا قرن كل شبيه بشبيهه ، وضمت كل جماعة من الأرواح المتجانسة فى مجموعة .

٨ ، ٩ – وإذا سئلت الموءودة بين يدى قاتلها عن السبب الذى لأجله قتلت ، ليكون جوابها أشد وقعا على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته .

وقد افتنّ العرب فى الوأد ، وكان الوأد يتم فى صورة قاسية ، إذ كانت تدفن البنت حية ، أو تجلس المرأة عند المخاض فوق بئر محفورة ، فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها وردمتها ، وإن كان ذكرا قامت به معها ، وبعضهم كان إذا عزم على استبقاء بنته فإنه يمسكها إلى أن تقدر على الرعى ، ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر ، ويرسلها إلى البادية ترعى له إبله ، فلما جاء الإسلام سما بالمرأة وكرمها ، وليدة وناشئة وزوجة وأمًا ، وحرّم وأد البنات وشفع ذلك بالتشنيع على من يفعله .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ . (النحل : ٥٨ ، ٥٩) .

١٠ – وإذا نشرت صحف الأعمال ، وكشفت وعرفت فلم تعد مستورة بل صارت منشورة مشهورة .

١١ – وإذا السماء كشطت وأزيلت ، فلم يبق غطاء ولا سماء .

١٢ ، ١٣ – وإذا أوقدت النار واشتد لهيبها ووهجها وحرارتها ، وإذا أدنيت الجنة من المتقين تكريما وإيناسا لهم .

١٤ – عندما تقع هذه الأحداث الهائلة فى كيان الكون ، وفى أحوال الأحياء والأشياء ، علمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب ، وهى لا تستطيع أن تغير فيه ولا أن تبدل ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

وهنا ينتهى المقطع الأول من السورة ، وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذى يتم فيه هذا الانقلاب .

## المقطع الثانى

بعد أن ذكرت السورة من أحوال القيامة وأهوالها ما ذكرت ، أتبعت ذلك ببيان أن ما يحدثهم به الرسول ﷺ هو القرآن الكريم الذى أُنزل عليه ، وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما رميتموه به من المعايب كقولكم : إنه ساحر أو مجنون أو كذاب أو شاعر ، ما هو إلا محض افتراء .

١٥ ، ١٦ – يقسم الله تعالى قسما مؤكدا بالكواكب الْخُنَّس : التى تخنس ، أى ترجع فى دورتها الفلكية ، ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ : التى تجرى وتعود إلى أماكنها .

١٧ – والليل إذا أدبر وولى وزالت ظلمته ، أو إذا أقبل ظلامه .

١٨ – والصبح إذا أسفر وظهر نوره ، وفى ذلك بُشرى للأنفس بحياة جديدة فى نهار جديد ، ومن الجمال فى هذا التعبير إضفاء الحياة على النهار الوليد ، فإذا الصبح حى يتنفس .

«وأكاد أجزم أن اللغة العربية لا تحتوى نظيرا لهذا التعبير عن الصبح ، رؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ، ثم يجىء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التى يشعر بها» [٢١] .

١٩ – ٢٢ – وجواب القسم : إن هذا القرآن ، وهذا الوصف لليوم الآخر لقول رسول كريم، وهو جبريل الذى حمل هذا القول وأبلغه، فصار قوله باعتبار تبليغه .

ويذكر صفة هذا الرسول الذى اختير لحمل هذا القول وإبلاغه ، فينعته بخمسة أوصاف ، هى :

١ – (كريم) أى : عزيز على ربه .

٢ – (ذى قوة) فى الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ .

٣ – (عند ذى العرش مكين) أى : ذى جاه ومنزلة عند ربه .

٤ – (مطاع ثم) أى : هناك فى الملأ الأعلى عند الله فى ملائكته المقربين ، فهم يصدرون عن أمره ويرجعون إليه.

٥ – (أمين) على وحى ربه ورسالاته ، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به ، وجنبه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .

هذه صفة الرسول المبلغ وهو جبريل عليه السلام ، أما الرسول الذى حمله إليكم وخاطبكم بالقرآن فهو صاحبكم الذى عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا ، وعرفتم عنه الصدق والأمانة ، وليس مجنونا كما تدعون .

٢٣ – ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام ، وهو بالأفق الأعلى عند سدرة المنتهى بالأفق المبين ، أى رآه رؤية واضحة عند الأفق الواضح .

٢٤ – وليس محمد ﷺ بالمتهم على القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام ، بل هو ثقة أمين لا يأتى به من عند نفسه ، ولا يبدل منه حرفا بحرف ، ولا معنى بمعنى ، إذْ لم يُعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل وسماع الشرائع منه .

٢٥ – وليس القرآن قول شيطان ألقاه على لسان محمد حين خالط عقله كما تزعمون ، فالشياطين لا توحى بهذا النهج القويم .

٢٦ – ثم يسألهم مستنكرا : فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . أى : فأى سبيل تسلكونها وقد سُدت عليكم السبل ، وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ، وبطلت مفترياتكم ، فلم تبق لكم سبيل تستطيعون الهرب منها .

٢٧ – ثم بين حقيقة القرآن فقال : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ . أى : ليس القرآن إلا عظة للخلق كافة ، يتذكرون بها ما غرز فى طباعهم من حب الخير ، وهو ذكر يذكرهم بحقيقة نشأتهم، وحقيقة وجودهم ، وحقيقة الكون من حولهم ، وهو أعظم عظة للعالمين جميعا .

٢٨ ، ٢٩ – وإن على مشيئة المكلف تتوقف الهداية ، فمن أراد الحق واتجه بقلبه إلى الطريق القويم ، هداه الله إليه ، وبسر له أمره ، وأمده بالعون والتوفيق ، وبذلك يستقر فى قلب كل إنسان أن مشيئته طرف وخيط راجع فى أصله إلى مشيئة الله الكبرى وإرادته المطلقة ، فليلجأ كل إنسان إلى ساحة مولاه ، وإلى عناية خالقه ، فعنده سبحانه العون والتوفيق ، والهدى والسداد : وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

★ ★ ★

## موضوعات السورة

١ – وصف أهوال القيامة .

٢ – القسم بالنجوم وبالليل وبالصبح على أن القرآن منزل من عند الله بواسطة ملائكته .

٣ – إثبات نبوة محمد ﷺ .

٤ – بيان أن القرآن عظة وذكر لمن أراد الهداية .

٥ – مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب ، وليس لها استقلال بالعمل .

★ ★ ★

## أحوال القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

**المفردات :**

**الشمس كورت :** أزيل ضياؤها ، أو لُفّت وطويت .

**انكدرت :** تساقطت وتهاوت وتناثرت .

**الجبال سيّرت :** أزيلت من أماكنها .

**العشار عطلت :** النوق الحوامل أهملت بلا راع لانشغال الناس بأنفسهم ، وكانت موضع اهتمامهم لأنها أنفس أموالهم .

**الوحوش حشرت :** جمعت من كل صوب .

**النفوس زوّجت :** قرنت كل نفس بشَكْلها .

**الموءودة :** البنت التى تدفن حية .

**كشطت :** نزعت وقلعت .

**سُعّرت :** أوقدت إيقادًا شديدًا .

**أزلفت :** قربت وأدنيت من المتقين .

**التفسير :**

١ - إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ .

هذه الآية وما بعدها من علامات اضمحلال هذا الكون ونهايته ، حيث تتغير المعالم ، وتبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، ويختل نظام الكون ، وقد تكرر لفظ : إِذَا . فى الآيات الأولى من سورة التكوير اثنتى عشرة مرة ، وجواب الشرط قوله تعالى : عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ .

وتكرير لفظ : إِذَا . اثنتى عشرة مرة من مقاصده التشويق للجواب ، لأن السامع عندما يجد هذا الظرف قد تكرر ، يكون فى ترقب وشوق لمعرفة الجواب .

**والمعنى :**

إذا شاخت الشمس ، وانطفأ نورها ، وأصبحت من النجوم القزمة التى أدّت دورها ، ووجب أن تلفّ وتطوى ، فتكوّر تمهيدًا لذلك .

٢ - وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ .

ذهب نورها ، وانطفأ لألاؤها ، وتساقطت من أماكنها ، كقوله تعالى : وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ .
(الانفطار: ٢)

٣ - وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ .

تمرّ الجبال بمراحل يوم القيامة ، فهى أوتاد تمسك بالأرض وتحفظ توازنها ، فإذا انتهت الحياة الدنيا اقتلعت الجبال من أماكنها ، وتفتتت وصارت هُلامًا أشبه بالصوف المنفوش ، ثم سُيِّرت من أماكنها ، ومرّت مرّ السحاب ، ثم صارت سرابا ، وهو ما يراه الظمآن وقت الظهيرة كأنه ماء ، فإذا جاء إليه لم يجده شيئًا .

قال تعالى : وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا . (النبأ : ٢٠) .

٤ - وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ .

وهى النِّياق التى مرّ على حملها عشرة أشهر ، وهى أجود الأموال عند العرب ، حيث يهتم بها صاحبها قبيل ولادتها ، فإذا قامت القيامة أهملها صاحبها لانشغاله بأمور نفسه .

وقال القرطبى :

إن تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب ، وإلا فلا عشار ولا تعطيل ، كأنه قال بعد ذكر ما سبق من تكوير الشمس ، وانكدار النجوم ، وتسيير الجبال : وكان من هول هذه الحوادث ، ما يصرف حاضرها عن أكرم الأشياء عليه ، حتى لو كان عنده عشار لعطّلها وأهملها .

٥ - وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ .

تُحشر الوحوش ذليلة كسيرة ، لا لجرم ارتكبت ، ولكن حشرها هول الموقف ، لقد فقدت خاصيَّتها وهى الافتراس أو الفرار من البشر ، لكنها حُشرت من هول الموقف ، ومن تصدّع الكون ، ومن الانفجار العظيم الذى تتزلزل معه الأرض ، وتنشق السماوات ، وتُسيَّر الجبال ، وتكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، ويبرز الجميع لله الواحد القهار ، تحشر الحيوانات حتى يُقَادَ للشاة الجماء من الشاة القرناء ، كما ورد فى صحيح مسلم .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد اشتداد الهول ، وأنه لا حشر ولا حساب إلا للثقلين الإنس والجن، حيث أودع الله فيهما العقول والإرادة والاختيار والتكليف .

قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . (الذاريات : ٥٦) .

ويقول حجة الإسلام وجماعة : الحديث المروى عن مسلم والترمذى ، وإن كان صحيحا ، إلا أنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام .

ويقول فريق آخر من المفسرين : نؤمن بالآية وبالقرآن كما ورد ، ونصدّق أن الوحوش ستُحشر كما ذكر القرآن صراحة ، ولا نوافق على التأويل .

٦ - وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ .

سجر التنور : أوقده نارًا .

وقد ورد فى مسند الإمام أحمد أن النبى ﷺ قال : «إن تحت البحر نارًا ، وتحت النار ماءً» .

فإذا اختل نظام الكون وتقطعت أوصاله ، وسُيِّرت الجبال ، حدثت الزلازل التى تجعل النيران تغْلبُ على البحار .

وقد قال القرآن الكريم فى موضع آخر : وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ . (الانفطار : ٣) .

قال صاحب الظلال :

فتفجير عناصر المياه ، وانفصال الهيدروجين عن الأكسجين فيها ، أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة ، وهو أشدّ هولاً ، أو على أيّ نحو آخر ، وحين يقع هذا فإن نيرانًا هائلة لا يُتصوّر مداها تنطلق من البحار ، فإنّ تفجير قدر محدود من الذرّات فى القنبلة الذريّة أو الهيدروجينية ، يُحدث هذا الهول الذى عرفته الدنيا ، فإذا تفجّرت ذرّات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فإن الإدراك البشريّ يعجز عن تصوُّر هذا الهول ، وتصوّر جهنم الهائلة التى تنطلق من هذه البحار الواسعة .[٢٢].

ومن المفسرين من ذهب إلى أن تسجير البحار ، هو أن تقطّع الزلازل والبراكين ما بينها من حواجز ، حتى تصبح بحرا واحدًا يختلط فيه الماء العذب بالماء الملح ، ورجح الشيخ محمد عبده هذا الرأى[٢٣] ، كما رجحه الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن ، ولم يقبل الرأى الأول ، وهو تحوّل الماء إلى نار .

أما الأستاذ الدكتور زغلول النجار[٢٤] فقد رجّح أن تسجير البحار هو تحوّلها إلى نار بسبب انفصال الأكسجين عن الهيدروجين .

واعتبر ذلك من إعجاز القرآن الكريم ، حيث أشار إلى معانٍ علمية أكّدها العلم بعد زمن طويل من نزول القرآن الكريم ، وقد نزلت على نبيٍّ أمِّى ، لا علم له بذلك إلا عن طريق الوحى .

وقد أيَّد العلم وجود طبقات من النار تحت البحار ، ويؤيد ذلك ما نراه فى الزلازل والبراكين التى تقذف بالحمم والنيران الملتهبة ، والصخور المذابة التى تتحول إلى صهارة سائلة من أثر البراكين .

قال الشيخ محمد عبده :

وقد يكون تسجير البحار إضرامها نارًا ، فإن ما فى باطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزّق طبقاتها العليا ، أما الماء فيذهب عند ذلك بخارًا ، ولا يبقى فى البحار إلا النار ، أما كون باطن الأرض يحتوى على نار فقد ورد به بعض الأخبار ، حيث ورد أن البحر غطاء جهنم ، وإن لم يعرف فى صحيحها ، ولكن البحث العلمى أثبت ذلك .[٢٥].

وفى ختام هذه الآية أذكّر القارئ بأن التفسير العلمى للقرآن الكريم له ثلاثة اتجاهات :

١ – الاتجاه الأول : رفض التفسير العلمى للقرآن جملة وتفصيلا ، ومن روّاد هذا الاتجاه الإمام الشاطبى فى كتابه (الموافقات) ، الذى ذهب إلى أن القرآن الكريم ينبغى أن يُفهم كما فهمه العربى أوّل مرّة ، ورفض الإمام الشاطبى التأويل العلمى للقرآن ، وحذا حذوه جانبٌ من العلماء .

٢ – الاتجاه الثانى : يرى أن القرآن الكريم كتاب علم ، وقد اشتمل على ألوان من الإعجاز ، منها : الإعجاز الغيبى ، والإعجاز العلمى ، والإعجاز اللفظى ، والإعجاز البيانى ، وفى العصور القديمة ساد التحدّى بالإعجاز اللفظى والأسلوبى والبلاغى ، أما فى العصور اللاحقة فقد ساد التحدى بالإعجاز العلمى ، ومن أساطين المفسرين فى ذلك الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير ، والشيخ طنطاوى جوهرى فى العصر الحديث .

٣ – الاتجاه الثالث : وهو اتجاه وسط بين الاتجاهين ، يرى أن القرآن الكريم كتاب هداية بالدرجة الأولى ، وأن الله أنزل القرآن هدًى ونورًا ليتدبر الناس آياته ، ويتفهَّموا معانيه ، ويعملوا بأوامره ، ويتجنبوا نواهيه ، والأساس عندهم أن ينكبَّ الناس على فهم روح القرآن ومقاصده ، وأهدافه العليا ، وآفاقه السامقة كما هو ، وإذا حدث أن تأكد لدينا دليل علمى فلا بأس من ذكره بجوار تفسير القرآن ، للاستئناس به وبيان صدق القرآن الكريم الذى تأكد بالعلم ، وتأيد بالدليل والبرهان، ومن أئمة الاتجاه الثالث الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، فهو يقول :

لاينبغى أن نجرّ الآية إلى العلم عند تفسيرها ، ولا أن نجر العلم إلى الآية ، ولكن إن كانت هناك حقيقة علمية مقررة فلا بأس من ذكرها عند تفسير الآية .

وهذا الاتجاه اتجاه وسط ، ينصب ويتجه إلى القرآن بالدرجة الأولى، ويستشهد من حقائق العلم بنصيبٍ ما ، بحيث لا يُهيَّأ للمشاهد أن القرآن الكريم كتاب طبيعة أو كيمياء أو جغرافيا أو طبوغرافيا أو فلك أو طبقات الأرض ، أو غير ذلك من العلوم المدنية أو العسكرية أو غيرها .

فنحن أمام كتاب معجز بذاته ، وهدايته وصدقه ، وأخباره وأسلوبه ، وفصاحته وبلاغته ، ومع ذلك فإن العلوم والفنون لم تصطدم بأى حقيقة علمية قررها القرآن ، بل إن العلم ينزع إلى تأكيد صدقه .

كما قال سبحانه : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت : ٥٣) .

والخلاصة : القرآن غالب غير مغلوب ، فاطمئنوا على حفظه وإعجازه ، وسيروا فى بيان إعجازه العلمى على مهلٍ وهدوء ويسر ، وركّزوا على بيان هدايته حين أُنزل ، وحين بَعث أمّة كانت خير أمة أخرجت للناس ، ولا مانع من بيان الإعجاز العلمى بالقدر المناسب الميسّر ، والله ولى التوفيق .

٧ - وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ .

أى : اختلطت الأرواح بالأجساد بعد إعادة نشأتها .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وقيل : المعنى : اقتران الأخيار بالأخيار ، والفجار بالفجار .

وقيل : اقتران السابقين الممتازين بالسابقين الممتازين ، والمتوسطين أصحاب اليمين بالمتوسطين أصحاب اليمين ، والكفار الفجار بالكفار الفجّار .

كما قال تعالى فى سورة الواقعة : وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً . (الواقعة : ٧) .

أى : كنتم أصنافا ثلاثة ، هم : السابقون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال .

وقيل : تقترن كل نفس بكتابها وعملها ، وقيل : يُقرن الأزواج بزوجاتهم .

قال تعالى : إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ . (يس : ٥٥ ، ٥٦)

٨ ، ٩ - وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ .

الموءودة : هى المقتولة ظلما ، وقد كان العرب يئدون البنات مخافة الفقر أو العار ، حتى لا تُسبى فى الحرب .

وكان منهم من إذا أراد قتل ابنته ، تركها حتى تكمل ست سنوات ، ثم يقول لأمّها : زيِّنيها وطيِّبيها حتى تلحق بأحمائها (أقاربها) ، ثم يأخذها إلى الصحراء ، وقد حفر لها بئرا ، فيقول لها : انظرى فى هذه البئر ، ثم يدفعها من خلفها ، ثم يسوى عليها تراب البئر .

ومنهم من كان يمسك البنت إلى أن تكبر ، ثم يلبسها جبّة من صوف ، ويتركها ترعى الإبل ويمسكها على الذلّ ، وقد شنّع القرآن على هذه العادات ، ونهى عن فعلها ، وكان النبى ﷺ قدوة حسنة فى إكرام البنات وتعليمهنّ وإحسان معاملتهن.

وأكْرَم الإسلام المرأة وليدة وناشئة وزوجة وأمًّا ، وشنَّع القرآن على إهانة البنت أو قتلها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ . (النحل : ٥٨ ، ٥٩) .

وفي هذه الآية الكريمة : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ . نجد القرآن الكريم يصوّر مشهدًا مؤثّرا ، مشهد القاتل الذي أزهق روح المقتولة بلا ذنب ولا جريرة ، يؤتى به موثقا ثم توقف المقْتولة فتسأل : ما هو الذنب الذي ارتكبتِه حتى قُتلتِ ؟ وتجيب الموءودة : لم أرتكب ذنبا ، وإنما ظُلمتُ ظُلمًا ، وعندئذٍ يحسّ الظالم بما فعل ، حتى يوشك ألاّ يستطيع النطق من هول ما فعل ، وسؤال الموءودة فيه إهمال للوائد ، كأنه فقد الإنسانية حتى قتل ابنته ، وهي تستغيث به فلا يغيثها ، فليس أهلاً للسؤال .

**قال في البحر المحيط :**

وهذا السؤال للموءودة توبيخ للفاعلين للوأد ، لأن سؤالها يؤول إلى سؤال الفاعلين .

**قال المفسرون : ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ .**

وسؤال الموءودة عن سبب القتل هو سؤال تلطّف ، لتقول : قُتلت بلا ذَنْب ، أو لتدلّ على قاتلها ، أو لتوبيخ ذلك القاتل ، بصرف الخطاب عنه تهديدًا له ، فإذا سُئل المظلوم فما بال الظالم ؟

**قال الشيخ محمد عبده في تفسير الآية :**

فانظر إلى هذه القسوة ، وغلظ القلب ، وقتل البنات البريئات بغير ذنب ، سوى خوف الفقر أو العار – كيف استُبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب ، فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها ، بمحوه هذه العادة القبيحة.[٢٦] .

**١٠ – ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ .**

هي كتب الأعمال التي عملها الإنسان في الدُّنيا ، وسُجّلت في صحيفته ، تُنشر الصحف يوم القيامة ، ويأخذ المؤمن كتابه بيمينه ، فإذا قرأه ابيضّ وجهه . ويأخذ الكافر كتابه بشماله ، فإذا قرأه اسودّ وجهه من الغمّ والذلّ ، حيث يجد كلّ ما عمل من الكفر والظلم مسجّلاً .

قال تعالى : ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ . (الكهف : ٤٩) .

١١ – وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ .

تشققت وأزيلت ، ونُزعت وقُلعت ، فلم يبق لها وجود .

قال تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (ابراهيم : ٤٨) .

وكشط السماء : إزالتها ، كما يكشط الجلد عن الذبيحة ، والغطاء عن الشيء المستور به ، ولن يبقى في ذلك اليوم غطاء ولا سماء .

١٢ – وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ .

أُوقدت جهنم ، واستعدت لعذاب الكافرين وإيلامهم.

**قال قتادة** : سعَّرها غضب الله ، وخطايا بنى آدم ، وقد ورد أن جهنم تتلمظ غيظا وغضبا على من عصى الله .

قال تعالى : تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ... (الملك : ٨) .

وقال سبحانه : وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . (الشعراء : ٩١) .

١٣ – وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ .

وإذا الجنة قُرِّبت من أهلها ، وفتحت لهم أبوابها ، وتزيَّنت لاستقبالهم ، فرحة بهم ، مسرورة بإسعادهم .

قال تعالى : وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . (ق : ٣١) .

وقال عز شأنه : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ . (الزمر : ٧٣) .

١٤ – عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ .

وهذه الجملة جواب لكل ما تقدم من أول السورة ، أي : إذا انتهى ضوء الشمس والنجوم ، وسُيرت الجبال من أماكنها ، وعُطلت العشار ، وحشرت الوحوش ، وصارت البحار نار الله الكبرى ، واقترن الأخيار بالأخيار والفجار بالفجار ، وسُئلت المقتولة ظلمًا بأى ذنب قُتلت، وإذا تطايرت صحف الأعمال ، وإذا أزيل الغطاء الذى فوقنا فلم تبق فوقنا سماء ، بل لم يبق فوق ولا تحت ، وإذا توقَّدت النار واشتد لهيبها ، وإذا

قُرِّبت الجنة من أهلها ، عند حدوث هذه الأشياء السابقة ستجد كلُّ نفس عملها حاضرًا مشاهدًا ، وستجد الثواب والعقاب موضحًا لهذا العمل .

والمراد : اعْملوا وأَخْلصوا فى دنياكم ، فستجدون ذلك أمامكم يوم القيامة .

قال تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ . (آل عمران : ٣٠) .

★ ★ ★

## القرآن وحى الله نزل به جبريل الأمين

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

**المفردات :**

**فلا أقسم :** أقسم، و (لا) مزيدة .

**بالخُنَّس :** بالكواكب السيارة تخنس نهارًا وتختفى عن البصر ، وهى فوق الأفق .

**الجوارى الكنّس :** الكواكب السيارة التى تجرى مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تختفى مع ضوء الشمس .

**الكُنَّس :** التى تكنس فى أبراجها ، أى تستتر ، فهى تختفى تحت ضوء الشمس ، من كنس الظبى أو الوحش : إذا دخل كِنَاسَه ، وهو بيته المُتَّخذ من أغصان الشجر .

**عسعس :** أقبل ظلامه أو أدبر ، فهو من ألفاظ الأضداد .

**تنفّس :** أضاء وظهر نوره .

**إنه لقولُ رسول :** جبريل عن الله ، وهو جواب القسم .

مــكــيــن : ذى مكانة رفيعة وشرف .

مــطــاع : تطيعه ملائكة السماء .

ثَــمّ : هنالك .

أمــيــن : على الوحى والرسالة .

رآه : رأى الرسول محمد ﷺ جبريلَ بصورته الحقيقية .

الــغــيــب : الوحى وخبر السماء

بضــنــيــن : لا يبخل بالوحى ، ولا يقصر فى التبليغ .

**تمهيد :**

يقسم سبحانه وتعالى على صدق القرآن ، وأن جبريل تلقاه عن الله ، وبلّغه للرسول الأمين ﷺ ، وأن جبريل ليس بمتّهم ولا مقصِّر فى تبليغ الرسالة ، فأين تسيرون ؟ القرآن ذِكْر للعالمين ، لمن رغب منكم فى الهداية .

**التفسير :**

**١٥ ، ١٦ - فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ .**

أى : أقسم بالنجوم التى تخنس بالنهار ، أى ترجع ويختفى ضوءُها عن الأبصار ، مع طلوعها وكونها فوق الأفق . وتكنس بعد ظهورها فى الليل ، أى تستتر فى مغيبها وتختفى فيه ، فتكون تحت الأفق بعد أن كانت فوقه ، كما تستتر الظباء فى كُنسها .

**قال القرطبى :**

النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل ، وتكنس وقت غروبها أى تستتر .

**جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :**

والخنّس الجوار الكنّس : هى الكواكب التى تخنس ، أى ترجع فى دورتها الفلكية ، وتجرى وتختفى ، والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء ، وهى تجرى وتختبئ فى كناسها ، وترجع من ناحية أخرى فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرَّشيق الأنيق عن هذه الكواكب ، وهناك إيحاء شعورى بالجمال فى حركتها ، فى اختفائها وفى ظهورها ، فى تواريها وفى سفورها ، فى جريها وفى عودتها ، يقابله إيحاء بالجمال فى شكل اللفظ وجرسه .

وجاء في التفسير القرآني للقرآن ما يأتي :

والخنس : هي الكواكب إذا طلع عليها النهار وخَنَسَتْ ، أي غابت واختفت معالمها عن الأنظار .

والجوار الكنَّس : هي هذه الكواكب في حال ظهورها بالليل ، ثم تغيُّبها في الأفق الغربي بفعل حركة الأرض ودورانها اليومي من الغرب إلى الشرق ، والكناس مأوى الظباء ، وبيتها الذي تسكن فيه ، والخُنَّس جمع خنساء ، وهي الظبية تدخل في كناسها ، ومن هذا سمى العرب به بعض بناتهم ، ومنهن الخنساء الشاعرة المعروفة ، تشبيها بالظبية في جمالها وتحركها الرتيب الهادئ على مسرح مرعاها ، حتى إذا غربت الشمس عادت إلى كِناسها واختفت فيه .[٢٧]

وقال ابن كثير :

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ .

هي النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل ، وتجرى من مكان إلى آخر بقدرته تعالى ، ثم تكنس أي تستتر وقت غروبها ، كما تتوارى الظباء في كنسها .

١٧ - وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ .

عسعس : من ألفاظ الأضداد .

فيكون المعنى : والليل إذا أقبل وستر الكون بظلامه .

كما قال تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ . (الليل : ١ ، ٢) .

واختار ابن كثير هذا المعنى فقال :

وعندي أن المراد بقوله : إِذَا عَسْعَسَ . إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضا ، لكن الإقبال هنا أنسب ، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أَشْرَق .

ومن المفسرين من اختار أن المراد من هذه الآية ومن التي تليها وهي :

١٨ - وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ .

أن الحق سبحانه وتعالى يقسم بالليل إذا تبدد ظلامه وضعف ، وبالنهار إذا بدأ يتنفس بعد الفجر ، كأنه حيٌّ يتمطَّى ، ويزيح الظلام ، ويتنفس بالحياة والحركة ، فكلما تنفس الصباح هرب الليل وأدبر بين يديه[٢٨] .

وفى ذلك المعنى يقول الله تعالى : كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ . (المدثر : ٣٢ - ٣٤) .

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ - إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ .

إن القرآن الكريم كلام الله ، نقله جبريل عليه السلام ، وبلّغه إلى محمد ﷺ ، فنُسب القول إلى جبريل باعتبار البلاغ الذى قام به ، أى بلاغ رسول كريم هو جبريل عليه السلام ، أرسله الله بالوحى ليبلغه إلى محمد ﷺ .

كَرِيمٍ . فى ذاته ، كريم على ربّه سبحانه وتعالى .

ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ .

جبريل صاحب قوّة على حمل هذه الأمانة وحمل الوحى ، أو إذا كُلّف بشىء قام به ، فقد حمل قرى قوم لوط إلى أعلى ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها .

ومكانة جبريل عند ذى العرش سبحانه وتعالى ، أى عند العظيم القدير .

مَكِينٍ . هو صاحب مكانة ومنزلة سامية عند الله سبحانه وتعالى .

مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . مطاع فى ملائكة السماء ، يصدرون عنه ، وهو أمين على الوحى حتّى يبلغه .

ومن هذه الصفات السامية التى اختص الله بها جبريل أمين الوحى ، تتّضح أهمية هذا الوحى ، وأيضا مكانة الإنسان عند الله ، حيث أرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، واختار جبريل عليه السلام وسيطا بين الحق سبحانه ورسوله محمد ﷺ ، ليبلغ الوحى إلى عباد الله ، وذلك من كرامة العبد على ربه .

وصدق الله العظيم : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ... (الإسراء : ٧٠) .

٢٢ - وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ .

محمد ﷺ نشأ بينهم صغيرا ، وشهدوا له بالصدق والأمانة ، وشاهدوا رجاحة عقله ، وكمال فهمه ، وصائب رأيه ، فلمّا نزل عليه الوحى ، قالوا : إنّ محمدًا مجنون ، لأن هذا الوحى الرفيع المستوى لا يقوله عاقل ، وهو فوق طاقة البشر ، ولو أنصفوا لقالوا إنه كلام الله .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . (الأعراف :١٨٤) .

وقال تعالى : أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ .

(الدخان : ١٣، ١٤)

٢٣ – وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ .

رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الحقيقية بين السماء والأرض ، بالأفق الأعلى الواضح المُظهِر لما يرى فيه من جهة المشرق ، وهى الرؤية الأولى بمكة ، الواقعة عند غار حراء .

ثم رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى عند سدرة المنتهى ، وذُكر ذلك فى صدر سورة النجم .

قال تعالى : وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ . (النجم : ١ – ١٤) .

٢٤ – وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ .

ليس محمدٌ ﷺ بمتهم حين يخبر أنه يرى جبريل على صورته الحقيقية ، وأنه يتلقى عنه الوحى ، وأنتم عرفتموه وخبرتموه شابا وناشئا صادقا أمينا ، ومحمد ﷺ كان لا يضنّ بالوحى ، ولا يحتفظ به لنفسه ، بل يبلغه فور وصوله إليه .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . (المائدة : ٦٧) .

٢٥ – وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ .

احتارت قريش فى هذا الوحى ولم يثبتوا على قول ، فقالوا : إن الذى يتكلم به محمد قول ألقاه الشيطان على لسانه حين خالط عقله ، فنفى الله تعالى عنه الجنون ، ونفى أن يكون القرآن من كلام الشياطين ، فالشيطان يأمر بالفحشاء والبخل ، والقرآن يأمر بالإحسان وإيتاء الزكاة وإخراج الصدقات .

وقد حكى القرآن أن الأمم جميعا رموا أنبياءهم بالجنون .

قال تعالى : كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . (الذاريات : ٥٢) .

٢٦ – فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ .

أىّ طريق تسيرون فيه ، وقد قامت عليكم الحجة ، وسُدَّت عليكم المنافذ ، ودخل القرآن عليكم من كل باب ، وعرض عليكم أدلته واضحة ناصعة ، فأىُّ طريق تسيرون فيه ، أما يكفى أنكم تركتم النور والهداية ، والإسلام والإيمان ، وأبيتم إلاّ السير فى طريق الكفر والغواية ، والهوى والظلام ، فأين تذهبون فى هذا الظلام الدامس ؟ إنه لا يوصل إلا إلى المهالك ، فأقصروا عن طريقكم ، وتبصَّرُوا عاقبة كفركم وظُلْمكم .

٢٧ – إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ .

القرآن وحى الله لرسوله ﷺ ، يبلِّغه إليكم ، وهو ذكر وتذكرة للناس أجمعين ، ليذكروا ربهم وخالقهم ، ويعرفوا طريق الحق والهدى والإيمان ، ويتركوا طريق الكفر والغواية وطاعة الشيطان.

٢٨ – لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ .

لمن أراد منكم أن يستقيم على الجادة والصواب ، فقد حمل القرآن مفاتيح الهداية ، ولفت الأنظار إلى دلائل الإيمان ، ودخل على الناس من كل باب ، وسدَّ عليهم كلَّ منفذ للشرك أو الكفر ، أو اتباع الهوى والشيطان .

فمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، وعلى جادة الصواب ، فالقرآن فيه الذكر والتذكرة لمن أراد أن يدخل الإسلام من بابه ، وأن يستقيم على منهج الله ، وعلى الصراط المستقيم .

٢٩ – وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

إن الهدى بيد الله ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو سبحانه صاحب الخَلْق والأَمْر ، فالعبد له إرادة وكسب واختيار ، والله تعالى مسبب الأسباب ، والمشيئة بيده ، والجمع بين إرادة العبد وإرادة الله تعالى تحتاج إلى شىء من الانحناء والتسليم .

**والخلاصة** : من أراد الاستقامة فالقرآن أمامه ، وباب الله مفتوح للجميع ، لكن الأمر يحتاج إلى اجتهاد العبد ورغبته فى الخير والاستقامة ، ويحتاج إلى هداية الله وتوفيقه ، فعلينا جميعا أن نلجأ إليه سبحانه ، داعين مستغفرين ، تائبين طالبين منه سبحانه المعونة والتوفيق .

قال تعالى : وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود : ٨٨) .

★ ★ ★



# تفسير سورة الانفطار

# أهـداف سـورة الانفطـار

(سورة الانفطار مكية ، وآياتها ١٩ آية ، نزلت بعد سورة النازعات)

وقد بدأت سورة الانفطار مثل سورة التكوير بالحديث عن أهوال القيامة ، لكنها تحدثت عنها فى أسلوب مختصر ، وإيقاع هادئ عميق ، ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاث فقرات :

**الفقرة الأولى :** من بداية السورة إلى الآية الخامسة ، وتتحدث عن انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت فى ذلك اليوم الخطير .

**الفقرة الثانية :** من الآية (٦) إلى الآية (٨) ، وتبدأ بلمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذى يتلقى من ربه فيوض النعمة فى ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة .

**الفقرة الثالثة :** من الآية (٩) إلى الآية (١٩) ، تقرر علة هذا الجحود والنكران ، فهى التكذيب بالدين – أى بالحساب – وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود ، ومن ثم تؤكد هذا الحساب توكيدا ، وتؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم ، وتصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل .

## مع آيات السورة

تبدأ السورة بتصوير نهاية العالم واختلال نظامه ، وانفراط عقده ، ويتمثل ذلك فى أمرين علويين وأمرين سفليين : أما الأمران العلويان فهما انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأما الأمران السفليان فهما تفجير البحار وبعثرة القبور .

١ – إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، وهذا عند خراب العالم بأسره .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥، ٢٦) .

٢ – وفى هذا اليوم تتساقط الكواكب وتتفرق : وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ . أى : تساقطت متفرقة ، والكواكب تجرى الآن فى أفلاكها بسرعات هائلة ، وهى ممسكة فى داخل مداراتها لا تتعداها ، فإذا انشقت السماء تبع ذلك سقوط الكواكب وانتثارها ، وذهابها فى الفضاء بددًا ، كما تذهب الذرة التى تنفلت من عقالها .

٣ – وفى هذا اليوم تزول الحواجز بين البحار ، فيختلط العذب بالملح ، وتغمر البحار اليابسة ، وتطغى على الأنهار ، كما يحتمل أن يكون تفجيرها هو تحويل مائها إلى عنصريه : الأكسجين والهيدروجين .

٤ – وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . أى : أثيرت وقلب أعلاها أسفلها ، وباطنها ظاهرها ، ليخرج من فيها من الموتى أحياء للحساب والجزاء .

٥ – عند حدوث كل هذه الظواهر تعلم كل نفس ما قدمت من الطاعات وما أخرت من الميراث .

٦ –٨ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ . أى شىء خدعك حتى ضيعت ما أوجب عليك ربك ، وصرت تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ، وهو ربك الكريم الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبرّه ، فخلقك سويا ، معتدل القامة ، متناسب الخلق ، من غير تفاوت فيه «فلم يجعل إحدى اليدين أطول ، ولا إحدى العينين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود» [٢٩] .

فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ . أى : ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأتقنها وأحكمها ، وقد كان قادرا أن يركبك فى أية صورة أخرى يشاؤها ، فاختار لك هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة.

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله ، وإن الجمال والاعتدال ليظهر فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء .

وهناك مؤلفات كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسانى العضوى ، ودقته وإحكامه ، وتؤكد جلال القدرة المبدعة التى أبدعت خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ويسرت خلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، ثم سوته خلقا كاملا ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ . (المؤمنون : ١٤) .

«وهذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدى : الجهاز العظمى ، والجهاز العضلى ، والجهاز الجلدى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز الدموى ، والجهاز التنفسى ، والجهاز التناسلى ، والجهاز الليمفاوى ،

والجهاز العصبى ، والجهاز البولى ، وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر ، كلٌ منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التى يقف الإنسان مدهوشا أمامها، وينسى عجائب ذاته ، وهى أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس» .[٣٠]

وتقول مجلة العلوم الإنجليزية : إن يد الإنسان فى مقدمة العجائب الفذة ، وإنه من الصعب جدا – بل من المستحيل – أن يبتكر آلة تضارع اليد البشرية ، من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكييف ، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته فى الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هى التى تصحح وضعه تلقائيا ، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة ، وتضغط عليها بالدرجة التى تقلبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل كافة الآلات التى تلزم الإنسان من ملعقة إلى سكين ، إلى آلة الكتابة ، وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان ، واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة ، وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما»[٣١] .

«وإن جزءا من أذن الإنسان (الأذن الوسطى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ فى الحجم والشكل ، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية ، ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة ، من قصف الرعد إلى حفيف الشجر ، فضلا عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية فى الأوركسترا ووحدتها المنسجمة» [٣٢] .

«ومركز حاسة الإبصار فى العين ، التى تحتوى على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء ، وهى أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذى يقيها ليلا ونهارا ، والذى تعتبر حركته لا إرادية ليمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقى الأهداب على العين من ظلال ، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذى يعرف باسم الدموع ، فهو أقوى مطهر» [٣٣] .

«وجهاز الذوق فى الإنسان هو اللسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة فى حلمات غشائه المخاطى ...» .

«ويتكون الجهاز العصبى – الذى يسيطر على الجسم سيطرة تامة – من شعيرات دقيقة ، تمر فى جميع أنحاء الجسم ، وتتصل بغيرها أكبر منها ، وهذه بالجهاز المركزى العصبى ، فإذا ما تأثر أى جزء فى الجسم ، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المخ ، حيث يمكنه أن يتصرف» .

«ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية فى معمل كيماوى ، وإلى الطعام الذى نأكله على أنه موا غفل ، فإننا ندرك توًا أنه عملية عجيبة ، إذ نهضم تقريبا كل شىء يؤكل ما عدا المعدة نفسها» [٣٤] .

وكل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يقال فيه الشيء الكثير، فالإدراك العقلي، واختزان المعلومات، والإدراك الروحي لجلال الله، كلها تدل على سعة عطاء الله وحكمته، وكرمه وفضله على الإنسان.

٩ -١٢ - كَلَّا . ارتدعوا عن الاغترار بكرم ربكم لكم، بل تكذبون بالحساب والمؤاخذة والجزاء، وهذه هي علة الغرور وعلة التقصير، وإنه لموكل بكم ملائكة يحفظونكم ويسجلون أقوالكم وأعمالكم، ويُحصونها عليكم، وهؤلاء الملائكة كرام، فلا تؤذوهم بما ينفرهم من المعاصي، وإن الإنسان ليحتشم ويستحيي وهو بمحضر الكرام، من أن يسف أو يتبذل في لفظ أو كلمة أو حركة أو تصرف، فكيف به حين يشعر أنه في كل لحظاته في حضرة حفظة من الملائكة كِرَامٍ، لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال أو الفعال؟

وهؤلاء الملائكة يكتبون كل شيء، ولا تخفى عليهم خافية من أعمالكم، فإنهم يعلمون ما تفعلون سرا أو علنا، والملائكة قوى من قوى الخير، منهم الحفظة والكتبة، ومنهم من ينزل بالوحي على الرسل، وقد أمدهم الله بقوة خاصة يستطيعون بها إنجاز ما يوكل إليهم من مهام.

وليس علينا أن نبحث عن كُنه هؤلاء الحفظة، ولا عن كيفية كتابتهم لأعمالنا، ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سُدى، وأن عليه حفظة كِرَامًا كَٰتِبِينَ. يعلمون ما يفعله، ليرتعش ويستيقظ ويتأدب، وهذا هو المقصود.

١٣ - إن الأبرار صدقوا في إيمانهم بأداء ما فرض عليهم، واجتناب ما نهوا عنه، وسيكونون ممتعين في نعيم الجنة.

وليس البر مقصورًا على الصلاة والصيام، ولكن البر عقيدة صادقة، وسلوك مستقيم، ويتمثل ذلك في القيام بالواجب، ومعاونة المحتاج، والاهتمام بأمر المسلمين، والحرص على نفع العباد، وكفّ الأذى وصلة الرحم، وزيارة المريض، ومواساة البائس، وتعزية المحزون، والتخلق بآداب الدين.

قال تعالى: لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ. (آل عمران: ٩٢).

١٤ - ١٦ - إن الفجرة العصاة لفي نيران متأججة، يدخلونها يوم القيامة، بعد أن يحاسبوا على كل صغيرة وكبيرة، وما هم عن جهنم بغائبين قط لخلودهم فيها.

١٧ - ١٩ - ولما كان يوم الدين هو موضوع التكذيب، فإن السياق يعود لتعظيمه وتضخيمه فيقول: وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ. فهو فوق كل تصور، وفوق كل توقع، وفوق كل مألوف، وتكرار السؤال يزيد في

وصف الهول : ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ . أى : ثم عجيب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم وهوله الشديد ، وهو يوم لا تستطيع فيه نفس أن تنفع نفسا أخرى ، فكل نفس مشغولة بهمها وحملها عن كل من تعرف من النفوس ، والأمر كله فى ذلك اليوم لله وحده ، فهو القاضى المتصرف فيه دون غيره .

## مقاصد السورة

١ – وصف أهوال يوم القيامة .

٢ – تقصير الإنسان فى مقابلة الإحسان بالشكران .

٣ – بيان أن أعمال الإنسان موكل بها كرام كاتبون .

٤ – بيان أن الناس فى هذا اليوم : إما بررة منعمون ، وإما فجرة معذبون .

★ ★ ★

## مشاهد القيامة، ونعم الله على الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾

**المفردات :**

**إذا السماء انفطرت :** تشققت وتصدَّعت .

**انتثرت :** تساقطت متفرّقة .

**وإذا البحار فجرت :** تشققت جوانبها فصارت بحرًا وحدًا .

**وإذا القبور بعثرت :** قلب ترابها ، وأخرج موتاها .

**ما قدمت وأخرت :** ما قدمت من الأعمال ، وما أخرت منها بسبب الكسل .

**ما غرك بربك :** ما خدعك وجرّأك على عصيانه .

**فسواك :** جعل أعضاءك سوية سليمة .

**فعدلك :** جعلك معتدلا ، متناسب الخَلْق والأعضاء ، فليست يد أو رجل أطول من الأخرى .

**فى أى صورة ما شاء ركبك :** ركبك وكوّنك فى أيّ صورة ، أى : هى من أعجب الصُّور وأحكمها .

**التفسير :**

١ - إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ .

تشققت وتصدعت وتهدم بناؤها ، وذهب تماسكها ، وصارت هلاما غير متماسك ، كدِرْدِيِّ الزيت.

قال تعالى : فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ . (الرحمن : ٣٧) .

وقال عز شأنه : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

وهذا المعنى ورد فى السورة السابقة – سورة التكوير – وفى سور أخرى ، وتفيد مشاهد القيامة فى القرآن أنه عند نهاية عمر الدنيا ينفرط عقد الكون ، ويختل توازنه ، ويذهب تماسكه وتكامله .

وقد ذُكر هنا أمْران علويان ، هما : انفطار السماء ، وتناثر الكواكب ، وأمران فى الأرض ، هما : انفجار البحار ، وتبعثر القبور .

**والمقصود** : العظة والاعتبار واستيلاء الهول على قلب الإنسان حتى يعمل الصالحات ، ويتجنّب الموبقات .

**٢ – ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ .**

تناثرت وتساقطت ، وانقطعت الجاذبية بينها ، فانفرط عقدها ، كعقد الجوهر حين يقطع الحبل الذى يربط بين حبّاته فتراه متناثرا .

وقد أقسم الله بمواقع النجوم ، وبين أنه قسم عظيم ، لأن مواقع النجوم فى السماء ، وسيرها وظهورها بالليل ، واختفاءها بالنهار ، هذه الحركة البديعة الرشيقة ، المتماسكة المنتظمة ، تراها عند نهاية الدنيا وقد انفرط عقد النجوم ، وتناثرت وفقدت ما بينها من ترابط .

**٣ – ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ .**

وإذا تشققت البحار ، وفُتحت جوانبها ، وزال ما بينها من الحواجز ، واختلط ماؤها العذب بالماء المالح ، حتى صارت بحرًا واحدًا ، ويحتمل السياق تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسجين والهيدروجين ، كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين ، كما يقع فى تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم ، أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر ، على كل حال .. إنما هو الهول الذى لم تعهده أعصاب البشر فى حال من الأحوال .

**٤ – ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .**

أى : انقلب وضعها ، وصار أعلاها أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وألقت الأرض أثقالها ، وخرج الناس من القبور مسرعين للحساب والجزاء .

٥ - عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ .

هذه الآية جواب القسم من أول السورة ، أى : إذا انشقت السماء ، وتناثرت الكواكب ، واشتعلت البحار نارًا ، وبعث الأموات من القبور .

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ .

أى : علمت كل نفس ما قدمت فى الدنيا من الأعمال ، وما أخَّرت من المال للورثة .

أو ما استمتعت به فى الدنيا وحدها ، وما ادَّخرته للآخرة بعدها .

**والمقصود** : سيرى الإنسان عمله كاملا وما فعله طول حياته ، وسيرى عاقبة الإخلاص أو الرياء ، والآية تعرض فى مشهد حىّ مشاهد كأنها تقول للإنسان : سترى عملك فى يوم القيامة ، فحاول أن يكون عملك مفيدًا لك ، يوم يقومُ الناس لرب العالمين .

٦ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ .

ينادى الإنسان ويذكِّره بتكريم الله تعالى له ، فقد خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وكرَّم الإنسان ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وفتح أمامه أبواب السموّ الروحى والعقلى ، وسخَّر الله له الكون ، وأمدّه بسائر النعم .

قال تعالى : وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .
(إبراهيم : ٣٤)

ومن كرم الله أنه لا يعجل بالعقوبة على العصاة ، بل يؤجل عقوبتهم ، ويقبل توبة التائبين ، ويغفر للمستغفرين ، ويتوب على العصاة والمذنبين إذا أنابوا إليه ، ورجعوا إلى حماه .

ومع هذا الكرم العظيم نجد الإنسان يستمتع بنعم الله ، ولا يؤدى حق الله ، وأحيانا يبارز مولاه ، كما قال القائل :

وَلِمَ لا أنوح على المعاصى      وقد بارزت جبّار السماء

رُوى أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ .

فقال : «غرَّه الجهل» .

وقال مثل ذلك عمر رضى الله عنه ، وقرأ : إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً . (الأحزاب : ٧٢) .

وقيل : غرّه عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أوَّل مرة ، وقيل : غرّه عدوّه المسلّط عليه ، وهو الشيطان.

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، عن عكرمة فى قوله تعالى :يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ . قال : نزلت فى أُبىّ بن خلف ، وقيل : نزلت فى أُبىّ الأشدّ بن كَلَدة الجُمَحِىّ ، وقال ابن عباس : الإنسان هنا هو الوليد ابن المغيرة .

والأصح أن الآية تتناول جميع العصاة ، لأن خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى نزلت الآية من أجله .

٧ - ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ .

الله الذى خلقك من نطفة مهينة ، فيسّر لها التلقيح ، وأن تصير علقة ثم مضغة ، إلى أن صارت بشرًا سويًّا ، وتدرج بك من الطفولة إلى اليفاعة إلى الشباب إلى الرجولة إلى الشيخوخة .

وجعلك قائما غير منتصب ، مستوى الجوارح ، فلم يجعل يدًا أطول من يد، ولا رجلا أطول من رجل ، ولم يجعل بعضك أبيض وبعضك أسود ، بل خلقك فى أحسن تقويم .

٨ - فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ .

اختار الله لك الصورة التى شاءها ، فجعلك ذكرا أو أنثى ، طويلا أو قصيرا ، وغير ذلك من الصفات التى يتفاوت فيها النّاس حسب حكمة الحكيم العليم ، وإن اختلاف الناس فى الحسن مما يدل على كمال اقتدار الله تعالى ، وعظيم إبداعه .

قال تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . (التين : ٤ ) .

★ ★ ★

## الكرام الكاتبون

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

**المفردات :**

**كلا :** ردع وزجر .

**تكذبون بالدين :** بالبعث أو بالجزاء أو بالإسلام .

**وإن عليكم لحافظين :** وإن عليكم من الملائكة لمحصين ، رقباء لأعمالكم ، لا يفوتهم منها شئ .

**كراما :** ذوى أفعال طاهرة محمودة ، ومحاسن كبيرة .

**الأبرار :** الذين برُّوا وصدقوا فى إيمانهم .

**لفى نعيم :** لفى نعمة كبيرة ، والمراد بها الجنّة .

**الفجار :** جمع فاجر ، وهو مَنْ شَقّ ستر الدين وجاهر بالعصيان . من الفجر وهو شق الشيء شقًّا واسعًا .

**لفى جحيم :** لفى النار فى الآخرة .

**يصلونها :** يدخلونها أو يقاسون حرّها .

**التفسير :**

٩ - كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ .

ارتدعوا وانزجروا عن الغرور ، وعن الكفر بنعمة المنعم سبحانه وتعالى .

إن علّة غروركم وإهمالكم أمر الإيمان بالله تعالى ، وانصرافكم إلى الشهوات ، وفَراركم من دعوة الرسول ﷺ ، أنكم تكذبون بيوم الدين ، وهو يوم الحساب والجزاء وأنتم صائرون إليه ، وحين يكذّب الإنسان بيوم الدين لا تنْبعث فيه همةٌ للعمل الصالح ، بل يرى الدنيا كل همُّه ، فيؤثر شهواتها ولذّاتها .

أمّا حين يؤمن المؤمن بربِّه ، ولقائه وحسابه وجزائه ، فعندئذٍ تنبعث الهمة من قلبه لأداء الفرائض، والبعد عن المحرَّمات، وقد يزداد حبّ المؤمن لربِّه ، فيحب كلّ ما يرضيه ، فتراه غارقًا فى مرضاة الله ، بعيدا عن معصية الله .

روى البخارى أن الرسول ﷺ قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبّه إلا لله ، وأن يكْره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » [٣٥] .

١٠ - وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ .

للّه حفظة من الملائكة ، يحفظون العبد بحفظ الله ، ويسجِّلون عليه الأعمال التى يعملها ، وكل ما يصدر عنه .

قال صاحب الجوهرة :

بكلّ عبد حافظون وكِّلوا وكاتبون خيرة لن يهملوا
من أمره شيئا فعل ولو ذُهل حتى الأنين فى المرض كما نُقل

١١ - كِرَامًا كَـٰتِبِينَ .

هم كرامٌ على الله ، أصحاب منزلة رفيعة ، ومكانة عظيمة ، ومحاسن جمَّة ، وهم يكتبون كل ما يصدر عنكم ، ويسجِّلونه فى صحائف أعمالكم .

والإنسان يستحيى من الرجل الكريم ، أن يعمل أمامه عملاً شائنا ، فما بالك بمَلَك كريم ، يسجّل عليك ما تفعل ، ويكتب حسناتك وسيئاتك ، ومَلَكُ الحسنات على العاتق الأيمن ، ومَلَك السيئات على العاتق الأيسر، والأول أمين على الثانى ، فلا يمكّنه من كتابة السيئة إلا بعد مضى ست ساعات من غير مكفّر لها.

ويكتبان كل شئ ، حتى الاعتقاد والعزم ، وحتى الأنين فى المرض ، ويفارقان المكلّف عند الجماع ، وعند الاغتسال ، وعند دخول الخلاء .

أخرج البزار ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ينهاكم عن التعرِّى ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل» .

١٢ - يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

يعلمون أعمالكم ، ويسجّلونها عليكم ، للجزاء العادل يوم القيامة ، فاستحيوا من الله حق الحياء ، واحفظوا أنفسكم عن معصية الله .

ولله در القائل :

لِـمَ لا أنـوح وأنـدب		وجـمـيـع جسـمـى مـذنبُ
نفسـى لـقُـبْـح فـعـالـهـا		بـيـن الـورى تـتـأدبُ
مَـلَـكُ الـيـمـيـن أرحـتُـه		لـم يـلـق شـيـئـا يـكـتبُ
مَـلَـكُ الشـمـال بـعـكسـه		لـيـلا نـهـارًا يـتـعبُ

وقد ورد فى الأثر : أن كل فرد له عشرة من الملائكة ، منهم الحفظة .

قال تعالى : لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ... (الرعد : ١١) .

ومن الملائكة : الكتبة الذين يسجّلون على العبد أعماله ، بدون زيادة أو نقصان ، وقد سمّاهم الله : كِرَامًا كَـٰتِبِينَ . فهم عدول أمناء ، يفرحون بالعبد الطائع ، ويتألمون لمعصية العاصى ، لكنهم أمناء فى كتابتهم وشهادتهم .

قال تعالى : هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٩) .

وفى صحيح البخارى يقول النبى ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنّهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وفى صلاة الفجر ، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. (الإسراء : ٧٨) . فيصعدُ الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربَّنا تركناهم وهم يصلُّون ، وأتيناهم وهم يصلّون ، فاغفر لهم يوم الدّين» [٣٦] .

والإيمان بالملائكة عقيدة من عقائد المسلم ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم قوى روحية ، منهم من ينزل بالوحى كجبريل عليه السلام ، ومنهم حملة العرش ، وهم الكروبيون الذين يدعون الله أن يرفع الكرب عن أمة محمد ﷺ ، ومنهم المكلّف بالرياح والأمطار والخصب والنماء ، ومنهم المكلّف بالخسف والزلازل ، ومنهم من ينفخ فى الصور وهو إسرافيل عليه السلام .

وللملائكة قوّة فوق قوة البشر ، وقدرة على تنفيذ ما وُكّلوا به من الأعمال ، فمنهم المبشّرون بالجنة الذين يحملون السلام والبشرى للمؤمن عند خروج روحه ، وعند دخوله الجنة .

ومنهم ملائكة العذاب الذين يتكفّلون بالعصاة ، وبحراسة جهنم ، وقد أفاد القرآن أن خزنة جهنم تسعة عشر ملكا ، فادّعى أهل مكة أنهم قادرون على الإحاطة بهم ، فأفاد القرآن أن قدرتهم فوق طاقة البشر ، وربما كانوا تسعة عشر رئيسا أو فريقا أو صنفا ، وقد جعل الله عددهم اختبارًا لإيمان المؤمن ، وإعلاما لأهل الكتاب بصدق القرآن وصدق محمد ﷺ .

قال تعالى : سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ... (المدثر : ٢٦ – ٣١) .

١٣ – إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ .

إن الأبرار الذين توسّعوا فى عمل البرّ ، فأطاعوا ربّهم ، وبرُّوا والديهم ، ونفّذوا أحكام الإسلام ، وعطفوا على الفقراء والمساكين ، على نحو ما ورد فى سورة البقرة ، فى قوله تعالى :

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ . (البقرة : ١٧٧) .

وقد ورد أن البرّ شيء هين ، وجه طليق وكلام لين ، وقيل : البرُّ هو الذى لا يؤذى الذرَّ ، أى : لا يؤذى عباد الله مطلقا .

هؤلاء الأبرار الطائعون المتقون الأخيار ، يشملهم الله برحمته ويدخلهم جنته ، وفيها صنوف النعيم والتكريم .

١٤ – وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ .

وإن الفجرة الذين شقُّوا وهتكوا ستر الدّين ، وجاهروا بالمعاصى ، ولم يستجيبوا لأمر الله سبحانه وتعالى ، هؤلاء يدخلون الجحيم ، وهى النار المستعرة التى اشتدّ لهيبها وعظم تأججها .

اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار .

١٥ – يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ .

يصطلون بنار الجحيم يوم القيامة ، يوم يدين الناس لرب العالمين ، فهو الملك وحده ، ولا يدَّعى المُلك يومئذ مَلِكٌ ولا جبار ، بل ينطق الكون كله حين يتجه إليه السؤال : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦)

١٦ – وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ .

لن يفلتوا من عذاب جهنم ، ولن يغيبوا عنها ، ولن ينقطع عنهم العذاب ، لأنّه عذاب أبدى سرمدى ، كقوله تعالى : وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ... (المائدة : ٣٧) .

أو أن المعنى : إن العذاب مستمر عليهم ، فى القبر ، وفى عرصات القيامة ، كما قال ﷺ : «القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار» .

١٧ – وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ .

وهو استفهام للتهويل والتفخيم .

أى : ما أعلمك ما خطر هذا اليوم ، وما عظيم أمره ؟

١٨ – ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ .

والتكرار لزيادة التفخيم والتعظيم ، مثل قوله تعالى : ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ . (الحاقة : ١ –٣)

١٩ – يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ .

فى الآيتين السابقتين ورد استفهام عن يوم الدين ، ثم كُرر الاستفهام لتفخيم أمر هذا اليوم ، فهو يوم الجزاء ، والعدالة المطلقة ، وانتقام الله من الظالمين الجبارين ، ومكافأة الطائعين .

وفى ختام السورة بيان واضح بأن يوم القيامة لا يُغنى فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئًا ، مثل ما كان فى الدنيا ، حيث إذا غَضِبَ المَلِك من شخص فربما توسط له الشفعاء والوزراء أو أشباههم ، فتحوّل الغضب إلى رضا .

أما فى الآخرة فلا شفاعة ولا بيع ولا شراء ولا وساطة ، بل كل إنسان مسئولٌ عن عمله ، ولا ينفعه أقرب الناس إليه ، حيث يفرّ المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

فى ذلك اليوم لا يملك أحد لأحد شيئًا ، فالمُلك كله والأمر كله للّه ، وهو كذلك فى الدنيا ، هو المسبب الحقيقى ، والناس سبب ظاهرى ، وقد يظن بعض الناس فى الدنيا أنه يملك شيئًا ، لكن فى الآخرة يظهر الأمر بوضوح تام .

**قال ابن كثير :**

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا . أى : لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خَلاصه مما هو فيه ، إلاَّ أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، وفى الحديث قال ﷺ : «يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من اللّه شيئًا» [٣٧].

ولهذا قال : وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ . كقوله تعالى : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

**قال قتادة:**

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ .

والأمر – والله – اليوم للّه ، لكنّه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

## سيد الاستغفار

«اللهم أنت ربّى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» [٣٨] .

★ ★ ★



# تفسير سورة المطففين

# أهــداف ســورة المطـفـفــيـــن

(سورة المطففين مكية ، وآياتها ٣٦ آية ، وهى آخر سورة نزلت بمكة)

وهى سورة تعالج طغيان الغنى ، واستغلال الفقراء ، وتحارب تطفيف الكيل والميزان ، وتبين أن صحف أعمال الفجار فى أسفل سافلين ، وأن كتاب أعمال الأبرار فى أعلى عليين ، كما وصفت السورة النعيم المقيم الذى يتمتع به الأبرار فى الجنة ، وبينت أن المجرمين كانوا يسخرون من المؤمنين فى الدنيا ، وفي يوم القيامة يتغير الحال ، فيسخر المؤمن من الكافر ، ويتمتع المؤمن بألوان النعيم .

## مقاطع السورة

**تتألف سورة المطففين من أربعة مقاطع :**

**المقطع الأول** : يبدأ بإعلان الحرب على المطففين ، وتهديدهم بالجزاء العادل عند البعث والحساب . (الآيات ١ – ٦) .

**المقطع الثانى** : يتحدث عن الفجار فى شدة وردع وزجر ، وتهديد بالويل والهلاك ، ودمغ بالإثم والاعتداء ، وبيان لسبب هذا العمى ، وعلة هذا الانطماس ، وتصوير لجزائهم يوم القيامة ، وعذابهم بالحجاب عن ربهم ، كما حجبت الآثام فى الأرض قلوبهم . (الآيات ٧ – ١٧) .

**المقطع الثالث** : يعرض الصفحة المقابلة ، صفحة الأبرار ، ورفعة مقامهم ، والنعيم المقرر لهم ونضرته التى تفيض على وجوههم ، والرحيق الذى يشربونه وهم على الأرائك ينظرون ، وهى صفحة ناعمة وضيئة . (الآيات ١٨ – ٢٨) .

**المقطع الرابع** : يصف ما كان الأبرار يلقونه من استهزاء الفجار وسخريتهم وسوء أدبهم فى دار الغرور ، ثم يقابل ذلك بما لقيه المؤمنون من التكريم ، وما لقيه المجرمون من عذاب الجحيم فى يوم الدين . (الآيات ٢٩ – ٣٦) .

## من أسباب نزول السورة

كان تطفيف الكيل منتشرًا فى مكة والمدينة ، وهو يعبر عن جشع التجار وطمعهم، ورغبتهم فى بخس حق المشترى .

روى أنه كان بالمدينة رجل يقال له (أبو جهينة) ، له كيلان أحدهما كبير والآخر صغير ، فكان إذا أراد أن يشترى من أصحاب الزروع والحبوب والثمار اشترى بالكيل الكبير ، وإذا باع للناس كال للمشترى بالكيل الصغير . هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع ، واستولى عليهم الجشع والنهم ، هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد ، وهم الذين توعدهم النبى ﷺ وتهددهم بقوله : «خمس بخمس» ، قيل : يا رسول الله ، وما خمس بخمس ؟ قال : «ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة فى قوم يُتعامل بها علانية إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فيمن قبلهم ، ولا طفف قوم المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور الحكام ، وما منع قوة الزكاة إلا حُبس عنهم المطر» .

## مع آيات السورة

١ – هلاك وعذاب عظيم لهؤلاء الذين يبخسون الكيل والميزان .

والتطفيف لغة : التقليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن ، وإنما قيل له مطفف لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان إلا الشىء اليسير الطفيف .

٢ – إذا كان لهم عند الناس حق فى شىء يُكال أو يوزن ، وأرادوا أخذه منهم لا يأخذونه إلا تامًا كاملاً .

٣ – وإذا كان للناس حق عندهم فى مكيل أو موزون أعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسارة .

ويلحق بالمطففين كل عامل لا يؤدى عمله ، وإنما يحرص على الأجر كاملاً ، ويلحق بهم من يستلم العمل كاملاً ويبخس حق العامل أو ينقص أجره ، وكذلك كل من يقصر فى أداء واجبه .

**وعن ابن عباس :** الكيل أمانة ، والوزن أمانة ، والصلاة أمانة ، والزكاة أمانة ، فمن وَفَّى وُفِّى له ، ومن طفف فقد علمتم ما قاله الله فى المطففين .

٤ – ٦ – ألا يخطر ببال هؤلاء أن هناك يومًا للبعث ، تظهر فيه هذه الأعمال التى يخفونها على الناس ، وأنهم سيبعثون فى هذا اليوم الشديد الأهوال ، الذى يقوم فيه الناس من قبورهم للعرض على رب العالمين الذى خلقهم ويعلم سرهم وعلانيتهم .

٧ – ٩ – إن للشر سجلاً دونت فيه أعمال الفجار ، وهو كتاب مسطور بيّن الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ، كما تقول : إن كتاب حساب قرية كذا فى السجل الفلانى المشتمل على حسابها وحساب غيرها من القرى .

والفجار هم المتجاوزون للحد فى المعصية والإثم ، ولكل فاجر من هؤلاء الفجار صحيفة ، وهذه الصحائف فى السجل العظيم المسمى سجين ، وهو عظيم الشأن له أهمية كبرى ، وهو كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ . أى : قد أثبتت فيه العلامات الدالة على الأعمال .

١٠ – ١٣ – هلاك وعذاب عظيم لهؤلاء المكذبين الذين يكذبون الرسول ﷺ ، ولا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء ، الذى أخبرهم به عن رب العالمين .

وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى على الحق ، وعمى عن الإنصاف ، واعتاد ارتكاب الآثام ، والإعراض عن الحق والهدى ، ولذلك إذا تليت عليه آيات القرآن ، أو أخبار البعث والجزاء أنكرها ، وقال : هذه أباطيل السابقين .

١٤ – كَلَّا . ليس كما يقولون ، بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . أى : غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية ، والقلب الذى يتعود على المعصية ينطمس ويظلم ، ويرين عليه غطاء كثيف ، يفقده الحساسية شيئًا فشيئًا حتى يتبلد ويموت .

روى الترمذى[٣٩] والنسائى وابن ماجة : إن العبد إذا أذنب ذنبًا نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو ، فهو الران الذى قال الله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب يعمى القلب فيموت .

ثم يذكر شيئًا عن مصيرهم يوم القيامة ، فيقول :

١٥ – ١٧ – كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ .

فهم فى يوم القيامة مطرودون من رحمة الله ، محرومون من رؤيته فى الآخرة ، ثم إنهم يصلون عذاب جهنم ، مع التأنيب والتقريع على تكذيبهم الحق ، وإنكارهم البعث والجزاء ، فيقال لهم : هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ .

١٨ – ٢١ – إن كتاب الأبرار محفوظ فى سجل ممتاز فى أعلى مكان فى الجنة ، وما أعلمك ما هذا المكان ، فهو أمر فوق العلم والإدراك ، كتاب مسطورة فيه أعمالهم ، وهو موضع مشاهدة المقربين من الملائكة ، ومتعتهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات .

٢٢ – ٢٨ – إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . إن الأبرار المتقين الذين يؤمنون بالله ، ويعملون أنواع البر من القربات والطاعات ، هؤلاء ينعمون بنعيم الجنة ، وهم على الأسِرَّة فى الحجال ينظرون إلى ما أُعد لهم من النعيم ، وأقرب ما يمثل الأرائك عندنا ما نسميه «الناموسية أو الكلة» .

وترى على وجوههم آثار النعمة وبهجتها ، يسقون خمرًا مختومة بالمسك ، وفى ذلك النعيم فليتسابق المتسابقون ، وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم ، باتباع أوامره واجتناب نواهيه . وهذا الشراب المعد لهم ممزوج بشراب آخر ينصب عليهم من عين عالية ، يشرب منها المقربون إلى رضوان ربهم . وقد سئل ابن عباس عن هذا فقال : هذا مما قال الله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

«وقصارى ما سلف : أنه سبحانه وصف النعيم الذى أعده للأبرار فى دار كرامته بما تتطلع إليه النفوس ، وبما يشوقها إليه ، ليكون حضًّا للذين يعملون الصالحات على الاستزادة من العمل والاستدامة عليه ، وحثا لهمم المقصرين ، واستنهاضا لعزائمهم أن يحرصوا على التزود من العمل الصالح ، ليكون لهم مثل ما لأولئك»[٤٠] .

٢٩ – ٣٣ – إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ . كانوا يضحكون منهم استهزاء بهم وسخرية منهم ، إمَّا لفقرهم ورثاثة حالهم ، وإما لضعفهم عن رد الأذى ، وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء ، فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا ، وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة .

وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . يغمز بعضهم لبعض بعينه ، أو يشير بيده ، أو يأتى بحركة متعارف عليها بينهم للسخرية من المؤمنين ، وإذا انقلب هؤلاء الضالون إلى أهلهم ، ورجعوا إلى بيوتهم ، رجعوا إليها فكهين ملتذين بحكاية ما يعيبون به أهل الإيمان ، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل .

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ . أى : وإذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال ، لأنهم نبذوا العقائد الفاسدة ، وتركوا عبادة الأصنام . ولم يرسل الله الكفار رقباء على المؤمنين ، ولا كلفهم بمحاسبتهم على أفعالهم ، فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير .

رُوى أن علياً بن أبى طالب رضى الله عنه جاء فى نفر من المسلمين ، فرآه بعض هؤلاء الكفار ، فسخروا منه وممن معه ، وضحكوا منهم ، وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه .

والآيات ترسم مشهدًا لسخرية المجرمين من المؤمنين ، وقد يكون لنزولها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ففى الآيات تعبير واقعى عن سخرية القوى الفاجر من المؤمن الصابر ، مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة فى موقفها من الأبرار فى جميع البيئات والعصور .

**يقول الإمام محمد عبده** : ومن شأن القوى المستعزّ بكثرة أتباعه وقدرته ، أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ، ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عددًا ، كذلك كان شأن جماعة من قريش – كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل وأتباعهم – وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع ، وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجُهل معنى الدين ، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر لا تطابقها البواطن[٤١] .

٣٤ – ٣٦ – فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . أى : فى يوم القيامة – والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب – يضحك المؤمنون ، ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فَسُرَّ به ، وينكشف للمؤمنين ما كانوا يرجون من إكرام الله لهم ، وخذلان أعدائهم ، عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ . وهم على سررهم فى الجنة ينظرون إلى صنع الله بأعدائهم ، وإذلاله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاء وفاقًا .

هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . أى أنهم ينظرون ليتحققوا : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلون بهم فى الدنيا ، وإنَّما سُمى الجزاء على العمل ثوابًا لأنه يرجع إلى صاحبه نظير ما عمل من خير أو شر .

و ثُوِّبَ . مثل أثاب ، بمعنى جازى ، يقع فى الخير وفى الشر ، وإن كان قد غلب على الثواب فى الخير . أى : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلون ؟

★ ★ ★

## مقاصد السورة

١ – وعيد المطففين .

٢ – بيان أن صحائف أعمال الفجار فى أسفل سافلين .

٣ – بيان أن صحائف أعمال الأبرار فى أعلى عليين .

٤ – وصف نعيم الأبرار فى مآكلهم ومشاربهم ومساكنهم .

٥ – استهزاء المجرمين بالمؤمنين فى الدنيا .

٦ – تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة .

٧ – نظر المؤمنين إلى المجرمين وهم يلقون جزاءهم ، وما أُعدَّ لهم من النكال .

★ ★ ★

## وعيد المطففين



﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

**المفردات :**

**ويل :** هلاك وبوار وعذاب ، أو مقر فى جهنم .

**للمطففين :** المنقصين فى الكيل أو الوزن ، وأصله من الطفيف ، وهو الشىء اليسير ، لأنه لا يكاد يأخذ إلا الشىء اليسير .

**اكتالوا :** اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن .

**يستوفون :** يأخذون الكيل وافيًا كاملاً ، والوزن وسائر الحقوق كذلك .

**كالوهم :** أعطوا غيرهم بالكيل . .

**وزنوهم :** أعطوا غيرهم بالوزن .

**يُخسرون :** يُنقصون الكيل والوزن ، ويظلمون غيرهم .

**ألا يظن :** يتيقن ، وهو استفهام توبيخ وإنكار وتعجُّب من حالهم ، وعبّر بالظن لأن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح ، فكيف بمن تيقنه .

**يوم يقوم الناس :** من قبورهم .

**لرب العالمين :** لأمره وحكمه وحسابه وجزائه ، والتعبير برب العالمين وقيام الناس للحساب ، مبالغات فى المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه .

**سبب النزول :**

أخرج النسائى ، وابن ماجة ، بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : لمّا قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أبخس النّاس كيلا ؛ فأنزل الله : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

**التفسير :**

١ - وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ .

الويل وادٍ فى جهنم ، بعيد قراره ، شديد عذابه ، ويطلق الويل على الهلاك والعذاب ، أى عذاب شديد للمطففين الذين يظلمون الناس فى المعاملة ، حيث يستوفون حقهم كاملاً وربما زائدًا ، ولا يوفُّون حقوق الناس بل يظلمونهم .

والسورة مكية ، وقيل مدنية ، وربما كانت من أواخر ما نزل بمكة ، أو أرسلها النبى ﷺ من مكة إلى المدينة ليرتدع الناس عن تطفيف الكيل والميزان .

## التطفيف فى مكة

كانت فى مكة طائفة من الأغنياء الأقوياء يحتكرون التجارة . ويستوفون حقّهم كاملاً ، ويبيعون للناس كيلاً ناقصًا أو وزنًا ناقصًا ، وقد جاء الإسلام عقيدة وشريعة ، أى ينظم علاقة الناس بالله ، وينظم علاقة النّاس بالناس ، فحارب تطفيف الكيل والميزان ، وتوعّد هؤلاء القساة الظالمين بعذاب شديد .

## التطفيف فى المدينة

كان التطفيف موجودًا فى المدينة ، فلما أنزل الله سورة المطففين ارتدع أهل المدينة ، وتركوا التطفيف .

وروح القرآن توضح أن التطفيف محرَّم ، وكذلك كلُّ ظلم وغبن محرّم ، فمن يأخذ حقّه كاملاً ولا يؤدى عمله سليمًا منضبطًا فهو مطفف ، ومن يؤجِّر عاملاً فيستوفى عمله ، ولا يعطيه أجره كاملاً فهو مطفف ، وكذلك الصلاة أمانة ، والصوم أمانة ، والزكاة أمانة ، والكيل أمانة ، والوزن أمانة ، فمن وفّى وُفّى له ، ومن طفف فقد رأينا ما قاله الله فى المطففين .

٢ ، ٣ - ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ .

أى : إذا أخذوا الكيل من النّاس أخذوه كاملاً لأنفسهم ، وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، يُنقصون الكيل والوزن .

قال المفسرون :

نزلت في رجل يُعرف بـ (أبي جهينة) كان له صاعان ، يشترى بأحدهما ، ويبيع بالآخر .

وقد حارب القرآن هذا النموذج الأناني الذي يهتم بنفسه ولا يهتم بالآخرين ، كما شنع القرآن على قوم شعيب ، وقد أهلكهم الله لكفرهم ، ولتطفيف المكيال والميزان ، وقد نصحهم نبي الله شعيب وكرر لهم النصح ، وعلى لسان شعيب قال القرآن الكريم : وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . (هود : ٨٥) .

وتكررت قصة شعيب في سورة الشعراء وغيرها من السُّوَر ، حيث يقول شعيب لقومه : أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ . (الشعراء : ١٨١ – ١٨٤) .

وقد تكررت وصايا القرآن بضبط الميزان ، وعدم تطفيف الكيل والميزان .

قال تعالى : وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . (الإسراء : ٣٥) .

وقال سبحانه : وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... (الأنعام : ١٥٢) .

وقال عز وجل : وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ . (الرحمن : ٩) .

ثم توعَّد الله المطفِّفين بقوله :

٤ ، ٥ ، ٦ – أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

هؤلاء المعتدون ألا يخطر ببالهم أنَّهم مبعوثون ، ومسئولون عما يفعلون ، في يوم عظيم أمره ، شديد خطره ، حين يقوم الناس من قبورهم للحشر والحساب والجزاء ، وتنفيذ أمر الله ، فمن وفَّى وُفِّي له ، ومن طفف وظلم أُدخل نارًا حامية ، أمَا يخاف هؤلاء يوم القيامة ، حيث يقف الجميع على أرض بيضاء عفراء ، وتقترب الشمس من الرؤوس ، ويشتد العرق حتى يصل إلى رقاب الناس ، أو يفغر أفواههم ، أمَا يخافون هول هذا اليوم ، وما فيه من حساب وجزاء .

قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

إن مجرد الظن بالقيامة والبعث والحساب والجزاء ، جديرٌ بأن يردع الإنسان عن تطفيف الكيل والميزان ، وظلم الآخرين والإساءة إليهم ، فما بالك إذا كان ذلك عين اليقين .

وقيل : الظن هنا بمعنى اليقين ، أى : ألا يوقن أولئك بالبعث فى ذلك اليوم العظيم ، ولو أيقنوا ما نقصوا فى الكيل والميزان ، وهذا دليل على أن التطفيف من الكبائر .

**قال الإمام فخر الدين الرازى :**

جمع الله سبحانه فى هذه الآيات أنواعًا من التهديد :

فقال أولاً : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ . وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء .

ثم قال ثانيًا : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ . وهو استفهام بمعنى الإنكار .

ثم قال ثالثًا : ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . والشىء الذى يستعظمه الله لا شك أنه فى غاية العظمة .

ثم قال رابعًا : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . وفيه نوعان من التهديد :

أحدهما : كونهم قائمين مع غاية الخشوع ، ونهاية الذلّ والانكسار .

والثانى : أنه وصف نفسه بكونه ربًّا للعالمين .

فائدة : بمناسبة تفسير قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

تكلم المفسرون عن قيام الناس بعضهم لبعض ، وفيه خلاف ، فمنهم من أجازه ، ومنهم من منعه .

وقد رُوى أن النبى ﷺ قام إلى جعفر بن أبى طالب ، واعتنقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تاب الله عليه ، وقال النبى ﷺ للأنصار : «قوموا إلى سيدكم»[٤٢] . إشارة إلى سعد بن معاذ .

وقال أيضًا ﷺ : «من سره أن يمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»[٤٣] .

وقد روى القرطبى هذه الآثار ، ثم قال : وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيّته ، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفسه فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشة والصلة فإنه جائز وبخاصة عند الأسباب ، كالقدوم من السفر ونحوه .

★ ★ ★

## ديوان الشرّ

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

**المفردات :**

**كـــلا :** ردع وزجر وانتهار لهم .

**كتاب الفجار :** ما يكتب من أعمالهم .

**لفى سجين :** لمثبت فى ديوان الشرّ .

**كتاب مرقوم :** بيّن الكتابة أو معلّم بعلامة .

**معتد :** فاجر ، متجاوز نهج الحقّ .

**أثيم :** كثير الإثم ، منهمك فى الشهوات .

**أساطير الأولين :** أكاذيب وأباطيل الأوائل ، سطّروها وزخرفوها فى كتبهم .

**كـــلا :** ردع وزجر عن قولهم الباطل .

**ران على قلوبهم :** غلّب وغطى قلوبهم ما اقترفوه من الذنوب ، فلم يهتدوا إلى الحق .

**لمحجوبون :** لممنوعون عن رؤية الله فى الآخرة .

**لصالو الجحيم :** لداخلوها أو لمقاسو حرّها .

**التفسير :**

٧ - كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ .

كَلَّآ . ردع وزجر لهم عن تطفيف الكيل والميزان ، أو عن التكذيب بالآخرة ، إن كتاب أعمال الفجار الذين شقّوا عصا الطاعة واقترفوا الموبقات ، لفى مكان ضيق فى أسفل سافلين .

٨ - وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ .

استفهام للتهويل والتعظيم ، أى : هل تعلم ما هو سجين ؟ إن البشر لا علم لهم بذلك ، وإنما يعلمه الخالق سبحانه .

٩ - كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ .

هو كتاب مكتوب كالرقم فى الثوب ، لا يُنسى ولا يمحى ، أُثبتت فيه أعمالهم الشريرة .

**قال المراغى فى تفسيره :**

وقصارى القول : إن للشرّ سجلاً دونت فيه أعمال الفجار ، وهو كتاب مسطور بيّنُ الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ، كما تقول : إن كتاب حساب قرية كذا ، فى السِّجل الفلانى المشتمل على حسابها وحساب غيرها من القرى ، فلكل فاجر من الفجّار صحيفة ، وهذه الصحائف فى السِّجل العظيم المسمى بسجين [٤٤] .

١٠ - وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ .

هلاك شديد وبوار لهؤلاء المكذبين الجاحدين .

١١ - ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ .

الذين يجحدون القيامة والبعث والجزاء والحساب ، فى ذلك اليوم : يَوْمِ ٱلدِّينِ. الذى تدين فيه الناس لرب العالمين .

١٢ - وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ .

وما ينكر مجىء هذا اليوم إلا كل متجاوز الحدّ فى الكفر والضلال ، مبالغ فى العصيان والطغيان ، كثير الآثام .

١٣ - إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

إذا قرئت عليه آيات القرآن الكريم المشتمل على الدعوة للإيمان ، والتأمل فى صفحات الكون ، والتذكير باليوم الآخر ، وذكر قصص السابقين ، والأنبياء والمرسلين ، وعقاب المكذبين ، يقول عن هذا النور المبين : إن هذه أساطير وخرافات الأوائل ، سطروها وزخرفوها فى كتبهم ، ثم نقلها محمد ﷺ عنهم ، ونسبها زورًا وبهتانًا إلى الله تعالى فهى ليست منزَّلة من عند الله .

١٤ - كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ .

أى : ليرتدع هؤلاء الحمقى الذين لم يتذوقوا كتاب الله ، ولم يعرفوا فضله ، فقالوا عنه : أساطير الأولين ، وليس العيب فى القرآن الكريم ، إنما العيب فى قلوبهم التى اقترفت المعاصى ، وتشبَّعت بالآثام ، ولما كثر اقترافهم للذنوب ترك كل ذنب نكتة سوداء فى قلوبهم ، ولما تكاثرت الذنوب غطى سواد المعاصى قلوبهم ، فلم يفقهوا القرآن ، ولم يتسرب نوره إليهم .

١٥ - كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ .

ليرتدع هؤلاء الفجار ، المطففون للكيل والميزان ، المكذِّبون بالقيامة ، إنهم سيصلون العذاب ، وسيُحْجَبون عن رؤية الله عز وجل .

وفى هذه الآية دليل على أن المؤمنين الصالحين يرون ربهم يوم القيامة ، تكريمًا لهم ، ورفعًا لمنزلتهم .

قال تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . (القيامة : ٢٢ ، ٢٣) .

**وقال مالك** : لما حجب أعداءه فلم يروه ، تجلّى لأوليائه حتى رأوه[٥٥] .

---

١٦ - ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ .

ثم إنهم مع الحرمان من رؤية ربِّهم ، فإنهم سيصطلون بنار جهنم ، ويحترقون بالعذاب فى نار الجحيم .

١٧ - ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ .

أى : سيحرمون من رؤية الله تعالى ، وسيدخلون جهنم يصطلون ويحرقون بنارها ، ثم تقول لهم خزنة جهنم : هذا هو العذاب الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا ، وتقولون : لا بعث ولا حشر ولا حساب ، وإنما نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، فتقول لهم الملائكة ، أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . (الطور: ١٥) .

أى : هل جهنم هذه سحر كما ادعيتم أن القرآن سحر ، أم أنتم لا تشاهدونها بأعينكم ، ولا ترونها رأى العين ؟ لقد كان محمد ﷺ يحذّركم من هذا العذاب وينذركم به ، فكنتم تستكبرون وتستهزئون وتكذّبون ، وها هو ذا قد لحقكم ، فلا تستطيعون له دفعًا ، ولا منه فكاكًا .

★ ★ ★

## كتاب الأبرار فى أعلى الجنة

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**كتاب الأبرار :** ما يكتب من أعمالهم .

**لفى عليين :** لمثبت فى ديوان الخير أو مكان عال فى الجنّة .

**مرقوم :** رقّم وكتب فيه بالنجاة من الحساب يوم القيامة .

**يشهده المقربون :** يحضُره ويحفظه المقربون من الملائكة .

**نعيم :** نعم كثيرة .

**الأرائك :** الأسرّة فى الحجال ، والحجال واحدها : حَجَلَة (محركة) ، وهى بيت يُزيّن بالقباب والأسرَّة والستور .

**نضرة النعيم :** بهجته ورونقه وبهاؤه .

**رحيق :** أجود الخمر وأصفاه .

**مختوم :** ختمت أوانيه وسدّت حتى يفكها الأبرار .

**ختامه مسك :** ختام إنائه المسك بدل الطين .

**فليتنافس :** فليستبق المتسابقون ، وليجاهدوا النفوس ليلحقوا بالعاملين .

**مزاجه :** ما يمزج به ويخلط ، والمزج خلط أحد الشيئين بالآخر .

**التسنيم :** عين من ماء تجرى من أعلى إلى أسفل ، وهو أشرف شراب فى الجنة ، ويكون صِرْفًا للمقربين ، ممزوجًا لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة .

**يشرب بها :** يشرب منها .

**المقربون :** الأبرار السابق ذكرهم .

**التفسير :**

**١٨ - كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ .**

كَلَّآ . ردع وزجر للمطففين والمكذبين بيوم الدين .

إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ . أى : صحيفة عمل المتقين فى مكان مرتفع فى الجنة ، تكريمًا لهذا الكتاب وتعظيمًا لأهله ، فى مقابل وضع كتاب الفجار فى مكان مظلم ضيق كأنه سجن أو سجين ، إهانة لأهله وتذكيرًا بعقابهم .

**١٩ - وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ .**

وما أعلمك يا محمد أىّ شيء عليون ؟ إنه من أمر الغيب ، وهو فى الدرجة الرفيعة ، والمنزلة السامية .

**٢٠ - كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ .**

كتاب قد رُقّم فيه وسطر ما أُعد لهم من الثواب ، مما يوجب سرورهم وبهجتهم .

**٢١ - يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ .**

تشهده الملائكة الكرام المقربون ، وترى هذا الكتاب ، وما أُعدّ فيه من الأعمال الصالحة والجزاء الحسن ، أو يشهدون بما فيه لصاحبه يوم القيامة ، أو يشهدون نقل كتاب كل فرد فى الكتاب العامّ الذى يجمع مآثر الأبرار ، وإنه لفضل عظيم أن تحظى الملائكة الكرام بمشاهدة أعمال الأبرار ، أو تسجيلها فى سجل عام .

وقد وُضع كتاب الفجار فى سجين ، فى قاع مظلم ضيق فى جهنم ، تحقيرًا للظالمين والمطففين ، وكذلك وضع كتاب الأبرار فى عليين ، أى فى مكان عال مرتفع ، فسيح منير فى أعلى الجنة ، تكريمًا للأبرار وتعظيمًا لشأنهم .

**٢٢ - إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ .**

لمَّا عظَّم الله كتاب الأبرار فى الآيات المتقدمة ، عظَّم هنا منزلتهم ومثوبتهم ، فذكر أنهم فى نعيم الجنة يتمتعون بما أعد الله لهم فيها من النعيم المادى والمعنوى .

٢٣ - عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ .

على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور ، ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامة والإحسان ، والإكرام وألوان النعيم .

٢٤ - تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ .

تشاهد فى وجوههم الفرح والسرور ، والرضا والنعمة والبهجة ، وسائر ألوان الخير والبر والنعيم .

ويذكر الفخر الرازى أن نضرة النعيم بسبب رؤية الله تعالى ، فيظهر أثر النور والفضل على وجوههم .

كما قال تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . (القيامة : ٢٢ ، ٢٣) .

فتنتقل البهجة والسرور والاستبشار إلى نفوسهم ووجوههم .

قال تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . (عبس : ٣٨ ، ٣٩) .

٢٥ - يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ .

والرحيق : الشراب الخالص المُصفّى ، الذى لا غش فيه ولا كدرة ، ووصفه بأنه مختوم يفيد أنه معدٌّ فى أوانيه ، وأن هذه الأوانى مقفلة مختومة ، تفضّ عند الشراب ، وهذا يلقى ظل الصيانة والعناية .

ويطلق الرحيق على الخمر المعتقة ، وكونها مختومة يفيد أنها أشرف قدرًا ، وأعلى منزلة من الأنهار الجارية التى تجرى فى الجنة ، وقد ورد أن فى الجنة أنهارًا من خمر لذة للشاربين ، كما فى الآية الخامسة عشرة من سورة محمد ﷺ .

٢٦ - خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ .

قد ختم على زجاجة الخمر بالمسك ، أى أن الذى يُختم به ويُسد به رأس قواريره وأوانيه هو المسك ، أو أن المراد : أنَّ الشارب إذا رفع فمه من آخر شرابه ، وجد ريحه كريح المسك ، لذاذة وذكاء رائحةٍ مع طيب الطعم ، ومنه : الأعمال بخواتيمها ، وختمت القرآن الكريم .

وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ .

وفى ذلك النعيم ، وتلك السعادة ، وهذا الخير المتميز ، والثواب الجزيل ، والرضوان الإلهى ، فليتسابق المتسابقون وليشمر العاملون ، فالباب مفتوح لكل من أراد الولوج بشرط أن يدفع الثمن ، وليس الثمن إلا الأعمال الصالحة ، والتسابق فى الخيرات مرضاة لله ، وإخلاصًا فى طاعته .

٢٧ - وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ .

ويمزج هذا الشراب المختوم بشراب ينصبّ وينهل عليهم من علوّ .

والتسنيم : المكان المرتفع ، ومنه : سنام الجمل ، أعلى شىء فيه ، وسنام القبر أعلاه .

٢٨ - عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ .

هذا التسنيم أعلى شراب فى الجنة ، وهو فى عين يشرب منها أهل جنة عدن ، وهم أفاضل أهل الجنة ، يشربون منها صرفًا خالصًا لا يخالطها شىء ، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب .

ومما سبق يتبين أن المراد بالأبرار هنا هم أصحاب اليمين ، أما المقربون فإنهم يشربون من التسنيم صرفًا خالصًا .

**وفى سورة الواقعة قسم الله أهل القيامة إلى ثلاثة أقسام :**

١ - السابقون .

٢ - أصحاب اليمين .

٣ - أصحاب الشمال .

فما أعظم هذا النعيم ، إنه نعيم يستحق أن نتسابق إليه ، وأن نعمل من أجله ، بعكس المطففين الذين يتسابقون إلى الظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، فما أحقر متاع الدنيا ، وما أنضر نعيم الآخرة .

★ ★ ★

## سوء معاملة الكفار للمؤمنين فى الدنيا ، وعاقبة ذلك فى الآخرة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**إن الذين أجرموا :** هم رؤساء قريش : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وأمثالهما .

**يضحكون :** استهزاءً من عمار وبلال وصهيب ، وغيرهم من فقراء المسلمين .

**يتغامزون :** الغمز : الإشارة بالجفن والحاجب ، استهزاءً وسخريةً ، وقد يراد به العيب ، فيقال : غمز فلان فلانًا ، إذا عابه وذكره بسوء ، ويقال : فلان لا مغمز فيه ، أى : ليس فيه ما يُعاب .

**فكهين :** معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان .

**حافظين :** رقباء ، يتفقّدونهم ويهيمنُون على أعمالهم .

**هل ثوب :** التثويب والإثابة : المجازاة ، يقال : ثوّبه وأثابه ، إذا جازاه ، أى : هل جُوزى الكفار وأثيبوا على فعلهم ؟

**تمهيد :**

كان كفار مكة يسخرون من الفقراء الضعفاء ، كعمَّار وبلال وصهيب ، ويفتخرون بالعدوان عليهم ، وربما تطاول المشركون على رسول الله ﷺ وأصحابه ، يستهزئون بهم ، ويحرّضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم ، وهم الذين قال الله فيهم : إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ . (الحجر : ٩٥) .

ورُوى أن على بن أبى طالب جاء فى نَفَرٍ من المسلمين ، فرآه بعض هؤلاء الكفّار فسخروا منه وممن معه ، وضحكوا منهم ، وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك فحدَّثوهم بما صنعوا وقالوا : رأينا اليوم الأصلع ، فضحكوا منه ، فنزلت هذه الآيات قبل أن يصل علىٌّ إلى رسول الله ﷺ .

والآيات تحكى بعض قبائح المجرمين ، وتروى نموذجًا متكررًا فى الحياة الدنيا ، حيث يسخر الفجّار من الأخيار ، ولا يردُّ الأخيار فى الدنيا ، لكن هناك فى الآخرة نجد المؤمنين فى منازل رفيعة ، يضحكون من الكافرين جزاء ما فعلوا بهم فى الدنيا ، والمقصود من الآيات : تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم .

**التفسير :**

**٢٩ - إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ .**

إنّ كفار قريش ومن وافقهم على الكفر كانوا فى الدنيا يستهزئون من المؤمنين المصلّين ، أو الفقراء المتأدبين بآداب الإسلام والقرآن ، ويسخرون من انقطاعهم للصلاة والصيام ، وإخلاصهم فى العبادة والتمسك بآداب الإسلام .

**قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى :**

**إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ...**

هم : الوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبى معيط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص ابن هشام ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأولئك الذين آمنوا من أصحاب محمد ﷺ ، مثل : عمار ، وخبّاب وصهيب ، وبلال .

**٣٠ - وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ .**

أى : إذا مرّ بهم هؤلاء الذين آمنوا يشيرون إليهم بحواجبهم وأيديهم ، هامزين لامزين مستهزئين ، مُمْعنين فى السخرية والتهكّم بهم ، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء يُتْعبون أنفسهم ، ويحرمونها لذّاتها ، ويخاطرون بأنفسهم فى طلب ثواب لا يتيقنونه .

**٣١ - وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ .**

أى : إذا رجع هؤلاء الكفار أو المستهزئون إلى بيوتهم وأهلهم رجعوا مسرورين بما فعلوه بالمؤمنين من سخرية واستهزاء ، متعجبين من اختيار هؤلاء المؤمنين للإسلام ، وتركهم عبادة الأصنام .

**٣٢ - وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ .**

والعجب هنا هو أنَّ أهل الضلال والكفر ، وعبادة الأوثان ، وشرب الخمر ، والتعامل بالربا ، واقتراف الزنا ، هم الذين يتهمون المؤمنين الصابرين المتبتلين بعبادة الله ، المبتعدين عن المعاصى - يتهمونهم بالضلال ، وفى أمثال العرب : (رمتنى بدائها وانسلّت) يضرب لمن يكون فيه داء فيتّهم غيره به ، فهؤلاء الكفار يتهمون المؤمنين بالضلال لعدم استمتاعهم بالشهوات العاجلة ، ولتعذيب أنفسهم بالصلاة والصيام ، طمعًا فى نعيم آجل غير مضمون ، أى أن حكمهم على المؤمنين بالضلال يدلّ على نهاية الغرور والجهل .

٣٣ - وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ .

أى : إن الكفار لم يكلّفوا بمراقبة المؤمنين ، أو الوصاية عليهم ، أو تسجيل أعمالهم ، وهؤلاء الكفار بدل أن يراقبوا أنفسهم ، ويتفقدوا عيوب أنفسهم ، تركوا عيوب أنفسهم وانشغلوا بالبحث عن عيوب غيرهم .

٣٤ - فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ .

أى : اليوم يوم القيامة ، والكفار محجوبون عن ربِّهم ، وهم يقاسون ألوان العذاب فى جهنم ، فإن المؤمنين يضحكون منهم ، ومن ألوان العذاب الذى ينالهم ، جزاءً عادلاً على سخرية الكفار بالمؤمنين فى الدنيا .

٣٥ - عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ .

بينما المؤمنون يتمتعون بنعيم الجنة ، جالسين على الأرائك فى نعيم مقيم ، يُفتح لهم باب فيرون أهل جهنم فى بلاء شديد ، فيشكرون الله على ما أولاهم به من النعيم .

قال الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عمّ :

فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ .

لا ضحك الجاهل المغرور ، بل ضحك الموقن بالسرور ... ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسُرَّ به ، انكشف لهم بالعيان ما كانوا يرجونه من إكرام الله لهم ، وخذلانه لأعدائهم ، فسُرُّوا بذلك وفرحوا ، وضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجلّت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم وفساد أقوالهم ، فنكّست أعناقهم لِخزْيهم وذلّهم ، فما أعظم مجد المؤمنين فى ذلك اليوم .

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ .

إلى صنع الله بأعدائهم ، وإذلاله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم ، جزاءً وفاقًا[٤٦].

٣٦ - هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ .

هل جُوزى الكفّار على ما كانوا يفعلونه بالمؤمنين فى الدنيا ؟ والجواب : نعم ، لقد جُوزى الكفار بالجزاء المناسب ، لتهكّمهم بالمؤمنين فى الدنيا ، فقد نزل بهم ما يستحقونه من عقاب أليم ، جزاءً وفاقا .

ويظل هذا الاستفهام التقريرى هو آخر ما يرنُّ فى الأذن ، كأنه يقول : إن عدالة الله تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة .

و ثُوِّبَ مثل أثاب – بمعنى جازى – يقع فى الخير وفى الشر ، وإن كان قد غلب عليه الثواب فى الخير ، لكنه ورد هنا من باب التهكم بالمعتدين ، مثل قوله تعالى : فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (التوبة : ٣٤) .

**قال ابن كثير :**

وقوله تعالى : هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ .

أى : هل جُوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والسخرية أم لا ؟

يعنى : قد جُوزوا أوفر الجزاء وأتمّه وأكمله [٤٧] .

وفى معنى الآيات ورد قوله تعالى : إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ . (المؤمنون : ١٠٩ – ١١١) .

★ ★ ★



# تفسير سورة الانشقاق

# أهــداف ســورة الانشقـــاق

(سورة الانشقاق مكية ، وآياتها ٢٥ آية ، نزلت بعد سورة الانفطار)

وهى سورة هادئة الإيقاع ، يغلب عليها هذا الطابع ، حتى فى وصف مشاهد القيامة ، تلك المشاهد التى عرضتها سورة التكوير فى جو عاصف .

«وتطوف سورة الانشقاق بالقلب البشرى فى مجالات كونية وإنسانية شتى ، متعاقبة تعاقبًا مقصودًا ، فمن مشهد الاستسلام الكونى ، إلى لمسةٍ لقلب الإنسان ، إلى مشهد الحساب والجزاء ، إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية ، إلى لمسةٍ أخرى للقلب البشرى ، إلى التعجب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله ، إلى التهديد بالعذاب الأليم ، واستثناء المؤمنين من العذاب»[٤٨] .

## مقاطع السورة

**يمكن أن تقسم سورة الانشقاق إلى أربعة مقاطع :**

**المقطع الأول :** وفيه مطلع السورة ، ذلك المطلع الخاشع الجليل ، الذى يفيد نهاية الكون واستجابة السماء والأرض لأمر الله فى خشوع وطواعية . (الآيات ١ – ٥) .

**المقطع الثانى :** يبين أن الإنسان محاسب على عمله ، وسيجازى عليه ، فالمؤمن يأخذ كتابه باليمين ، ويلقى السرور وحسن الجزاء ، والكافر يأخذ كتابه من وراء ظهره ، ويلقى الهلاك والسعير . (الآيات ٦ – ١٥) .

**المقطع الثالث :** يعرض مشاهد الكون ، فى صورة تأخذ بالألباب . (الآيات ١٦ – ١٩) .

**المقطع الرابع :** يتعجب من حال هؤلاء الذين يعرضون عن الإيمان ، ويهددهم بالجزاء العادل . (الآيات ٢٠ – ٢٥) .

وهذه اللمسات المتعددة تطوف بالقلب البشرى ، وتنتقل بالنفس خلال مشاهد الآخرة والدنيا ، والحساب والجزاء ، فى آيات قصيرة وحيز محدود ، مما لا يمكن لبشر أن يفعله ، ولكنه القرآن الذى يسره الله للذكر ، وأنزله لهداية العالمين .

## مع آيات السورة

١ – ٥ – يصف الله سبحانه وتعالى ما يحدث من الأهوال يوم القيامة عند خراب الدنيا ، فيذكر أن السماء تنشق وتصبح ذات فروج وفتحات ، وتنقاد هذه السماوات لأمر ربها ، وتخضع لتأثير قدرته ، حين يريد انشقاقها ، فهى أشبه بالمطيع الذى يذعن لأمر سيده ، والأرض تسوى وتبسط باندكاك جباله ، وتخرج ما فيها من الموتى حتى لا يبقى بداخلها شىء ، وتنقاد كذلك لأمر ربها ، وتخضع لتأثير قدرته ، ووجب عليها أن تنقاد لأنها فى قبضة القدرة الإلهية ، تصرفها فى الفناء ، كما صرفتها فى الابتداء .

وجواب إِذَا . التى صدرت بها السورة محذوف ، وتقدير الكلام : إذا السماء انشقت ... ترون جزاء ما عملتم من خير أو شر .

وقصارى ذلك : وصف أحوال يوم القيامة ، وفيه تبدل الأرض غير الأرض ، والسماوات غير السماوات ، ويبرز الناس للحساب على ما قدموا فى حياتهم من عمل ، وعلينا أن نؤمن بذلك كله ، ونكل علم حقيقته ومعرفة كنهه إلى الله تعالى .

٦ – ١٥ – يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحًا ، تحمل عبأك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك لتصل فى النهاية إلى ربك ، فإليه المرجع وإليه المآب ، بعد الكد والكدح والجهاد ، وفى يوم البعث ينكشف الالتباس ، ويعرف كل عامل ما جرَّ إليه عمله ، والناس حينئذ صنفان :

**الأول** : الذى يعرض عليه سجل أعماله ، ويتناول كتابه بيمينه ، فإنه يحاسب أيسر الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فَيُعَرَّف بطاعته وبمعاصيه ، ثم يُثاب على ما كان من طاعة ، ويُتجاوز له عما كان من معصية .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : «اللهم حاسبنى حسابًا يسيرًا» ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، وما الحساب اليسير ؟ قال : «أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»[٤٩] .

فهذا هو الحساب اليسير الذى يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه ، ثم ينجو ، وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا . وأهله هم الناجون الذين سبقوه إلى الجنة .

**الثانى** : وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ . والذى ألفناه فى تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال ، فهذه صورة جديدة : صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر ، وليس يمتنع أن يكون

الذى يعطى كتابه بشماله ، يعطاه كذلك من وراء ظهره ، فهى هيئة الكاره المكره ، الخزيان من المواجهة .

والذى نخلص إليه ، أن إيتاء الكتاب باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر ، تصوير لحال المطلع على أعماله فى ذلك اليوم ، فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر ، وتناول كتابه بيمينه ، ومنهم من إذا انكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر ، وأعرض عنها وأدبر ، وتمنى لو لم تُكشف له ، وتناولها بالشمال أو من وراء الظهر ، وحينئذ يدعو : واثبوراه ، أى : يا هلاكى أقبل ، فإنى لا أريد أن أبقى حيًا . ولا يفعل الإنسان ذلك إلا إذا كان فى شدة التعاسة والشقاء .

وتناول الكافر كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، علامة على سخط الله عليه ، وهو يدعو على نفسه بالهلاك والويل ، ويدخل نار جهنم التى سعرت وأوقدت ليحترق بنارها ، لأنه كان فى الدنيا بين عشيرته من الكافرين لاهيا فى شهواته ، منقادا لأهوائه ، لا يخطر الموت على باله ، ولا البعث : إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ . إلى ربه ، ولن يرجع إلى بارئه ، ولو ظن الرجعة فى نهاية المطاف لقدم بعض العمل ، وادخر شيئا للحساب .

بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا . أى : بلى ليحورن وليرجعن إلى ربه ، وليحاسبنه على عمله ، فهو سبحانه كان مطلعًا على أمره ، محيطًا بحقيقته ، عالمًا بحركاته وخطواته .

وتصور الآيات هذا التعيس ، وهو مسرور بين أهله فى الحياة الدنيا القصيرة ، ولكنه فى الآخرة حزين يتمنى الموت والهلاك ، تقابلها صورة ذلك السعيد المؤمن ، وهو ينقلب إلى أهله مسرورًا ، فى الحياة الآخرة المديدة ، لقاء ما قدم من سعى حميد وعمل صالح .

وتعود الآيات إلى لمحات من الكون ، تجمع بين الخشوع الساكن والجلال المرهوب :

١٦ - ١٩ - فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ . والشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب ، وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة ، ويحس القلب بمعنى الوداع ، وما فيه من أسى صامت ، وشجى عميق ، كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف ، ويلفه فى النهاية خشوع وخوف خفى وسكون .

وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . هو الليل وما جمع ، وما حمل من الظلام والنجوم ، أو ما عمل فيه من التهجد ، أو ما جمع من مخلوقات كانت منتشرة بالنهار ، فإذا جنها الليل أوت إلى مأواها .

وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ . أى اكتمل واستدار وصار بدرًا ، وهو مشهد رائع للقمر فى ليالى اكتماله ، يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع ، الموحى بالصمت الجليل .

يقسم القرآن بهذه الأشياء ، التى إذا تدبر الإنسان أمرها استدل بجلالها وعظمة شأنها على قدرة مبدعها .

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ . أى : لتلاقن أيها الناس أمورًا بعد أمور ، وأحوالاً بعد أحوال ، من الموت والبعث والحشر ، إلى أن تصيروا إلى ربكم ، وهناك تلقون جزاء أعمالكم .

٢٠ – ٢٥ – فلماذا لا يؤمنون بالبعث والنشور ، وهم يرون آثار قدرة الله وبدائع صنعه ، وما لهم لا يخضعون لآيات القرآن ، وفيها من اللمسات والموحيات ما يصل القلب البشرى بالوجود الجميل ، وببارئ الوجود الجليل ، وإذا قرأ المؤمن هذه الآية سجد لله سجود التلاوة ، عند قوله : فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ .

ولكن الكافرين قوم معاندون ، فالتكذيب طابعهم ، والله أعلم بما يكنُّون فى صدورهم ، ويضمَّون عليه جوانحهم ، من بغى وحسد ، وإشراك بالله ، وحقد على الرسول ﷺ ، ولذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يبشرهم جميعًا بالعذاب المؤلم الموجع يوم القيامة .. ويالها من بشرى لا تَسُرّ .

أما الذين آمنو بالله ورسوله ، وامتثلوا أوامر الله فعملوا الأعمال الصالحة ، فلهم الأجر الحسن والثواب الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول .

## مقاصد السورة

١ – وصف مشاهد القيامة .

٢ – الإنسان كادح عامل فى الدنيا ، وسيلقى الجزاء فى الآخرة .

٣ – المؤمن يأخذ كتابه باليمين ، فيجد السعادة والسرور .

٤ – الكافر يأخذ كتابه من وراء ظهره ، فيجد الشقاء والسعير .

٥ – القسم بالشفق والليل والقمر ، تنبيهًا لجلالها وبديع صنعها .

٦ – الناس ينتقلون من الحياة إلى الموت ، ثم إلى البعث والحساب والجزاء ، فهم ينتقلون فى أحوالهم طبقة بعد طبقة ليستقروا فى نعيم مقيم أو فى عذاب أليم .

★ ★ ★

## مظاهر القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**السماء انشقت :** انصدعت عند قيام الساعة .

**أذنت لربها :** استمعت وانقادت له .

**حُقت :** حق عليها الاستماع والانقياد .

**الأرض مدت :** بُسطت وسُوِّيت كمدّ الأديم .

**ألقت ما فيها :** لفظت ما فى جوفها من الموتى ، من عهد آدم إلى قيام الساعة .

**تخلت :** خلت عنه غاية الخلوّ .

**كادح :** جاهد فى عملك إلى لقاء ربك ، والكدح : جهد النفس فى العمل والكدّ فيه .

**فملاقيه :** فملاقٍ جزاء عملك لا محالة .

**وراء ظهره :** بشماله من وراء ظهره ، وهو الكافر .

**يدعو ثبورا :** ينادى ويقول : يا ثبوراه ، والثبور : الهلاك .

يصلى سعيرا : يدخلها ويقاسى حرّها .

لن يحور : لن يرجع إلى ربه تكذيبًا بالبعث ، يقال : لا يحور ولا يحول ، أى : لا يرجع ولا يتغير .

وعن ابن عباس : ما كنت أدرى معنى : يَحُورَ . حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حورى ، أى ارجعى .

**التفسير :**

١ ، ٢ – إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ .

إذا تشققت السماء وتصدعت وانفرط عقدها ، وتناثرت كواكبها ، ولم تعد متماسكة لا فطور فيها ، وهذا معنى إذا السماء انفطرت ، ومعنى قوله تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

٣ ، ٤ – وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ .

وإذا الأرض بُسطت وسُوّيت ، فلا جبال ولا بحار فوقها ، ولا موتى ولا كنوز فى أحشائها ، وصارت الأرض مستوية متّسعة لأرض المحشر ، لا يحجب العين فيها شىء ، بل يكشف الناظر أهل المحشر ، ويُسمعهم الداعى ، وألقت الأرض ما فى أحشائها من الموتى ، من عهد آدم إلى قيام الساعة ، ولفَظَتْ ما فيها من الكنوز .

وَتَخَلَّتْ . خلت خلوًّا تامًّا مما فى أحشائها ، وتخلّت إلى الله وتبرأت من كل من فيها ومن أعمالهم .

قال تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا . (طه : ١٠٥ – ١٠٧)

٥ – وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ .

استمعت لأمر ربها وأطاعت ، وحُقّ لها أن تستمع وأن تطيع .

كما ورد فى قوله سبحانه : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . (فصلت : ١١) .

فالسماء مطيعة وحُق لها أن تطيع ، والأرض مطيعة وحُق لها أن تطيع ، فالكل فى قبضة القدرة الإلهية .

قال صاحب الظلال :

وَحُقَّتْ . أى : وقع عليها الحقّ ، واعترفت بأنها محقوقة لربّها ، وهو مظهر من مظاهر الخضوع ، لأن هذا حق عليها ، مسلّم به منها .

وعلماء الكون يذكرون أن الكون فى اتّساع مستمر ، ويستأنسون بقوله تعالى : وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ . أى اتسعت ، حيث يقف على أرض المحشر جميع البشر من عهد آدم إلى قيام الساعة ، على أرض مستوية مكشوفة ، ينفذهم البصر ، ويُسمعهم الداعى .

وجواب إِذَا . محذوف دلّ عليه ما بعده ، وهو قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ .

أى : إذا انشقت السماء واستجابت لأمر الله ، وإذا مُدّت الأرض وتخلّت عما فى أحشائها ، واستجابت لأمر ربها ، رأيتم جزاء أعمالكم ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ .

٦ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ .

يا أيها الإنسان ، أى الإنسان مؤمنًا كان أم كافرًا ، إنك كَادِحٌ . أى : عاملٌ فى الحياة ، ومجاهد ومجدٌ فى عملك ، وستلقى جزاء عملك عند لقاء ربك ، والآية إيجاز مبهر لمسيرة الإنسان فى هذه الحياة ، فأنت مستخلف عن الله فى الأرض ، وأمامك فرصة لن تُعوَّض من أجل كدح وعمل ، ستلقى جزاءه عند لقاء ربك ، أو عند ميزان عملك .

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

لقد أوجدك الله فى الدنيا ، وأعطاك العقل والإرادة والاختيار ، ومعك الشهوة والرغبة ، والقدرة على الطاعة أو المعصية، وأن تكون شاكرًا أو كفورًا ، وستلقى جزاء ما قدمت يداك .

والكدح : جهد النفس فى العمل حتى تتأثر .

روى أبو داود الطيالسى أن رسول الله ﷺ قال : «قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميّت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه» .

قال المفسرون :

فَمُلَـٰقِيهِ . يعود الضمير إلى العمل من خير أو شرّ ، وقيل : يعود الضمير إلى قوله : رَبِّكَ . أى : فملاقٍ ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ، ويكافئك على سعيك .

وقيل : المراد بهذه الآية أُبىُّ بن خلف ، كان يكدح فى طلب الدنيا وإيذاء الرسول ﷺ ، والإصرار على الكفر .

وعلماء القرآن يقولون : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والآية عامة تشمل كلّ إنسان ، وسيلقى كل عامل جزاء عمله ، فاليوم عمل ولا حساب ، وغدًا حساب ولا عمل .

٧ ، ٨ – فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا .

ينقسم الناس يوم القيامة إلى قسمين : المؤمنون الطائعون ، والمكذّبون الكافرون .

فالمؤمنون الطائعون يأخذون كتبهم باليمين ، ويُعرضون على ربهم فينظر فى كتاب أعمالهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم .

أخرج الشيخان ، والترمذى ، وأبو داود ، عن عائشة أن النبى ﷺ قال : «ليس أحد يُحاسب إلا هلك» ، قلت : يا رسول الله ، جعلنى الله فداءك ، أليس الله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . قال : «ذلك العرض ، يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك»[٥٠] .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : «اللهم حاسبنى حسابًا يسيرًا» ، فلما انصرف ﷺ قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : «أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه»[٥١] .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يدنى العبد يوم القيامة ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول له : فعلت كذا وكذا ، ويعدد عليه ذنوبه ، ثم يقول له : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم»[٥٢] .

فهذا هو المراد من الحساب اليسير .

٩ – وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا .

ويرجع إلى عشيرته المؤمنين فرحًا مبتهجًا بالنجاة فى هذا اليوم ، وقيل : يرجع إلى فريق المؤمنين مطلقًا وإن لم يكونوا عشيرته ، إذ كل المؤمنين أهل للمؤمن من جهة الاشتراك فى الإيمان .

وفى معنى هذه الآيات قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ . (الحاقة : ١٩ – ٢٤) .

١٠ ، ١١ ، ١٢ – وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا .

أما الكافر المكذب وهو من أخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، حيث تغلّ يمينه إلى عنقه ، وهو موقف الهالكين .

فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا .

والثبور : الهلاك ، فيقول : يا ثبوراه ، أى : يا هلاك أقبل ، ويا موت احضر ، لتنقذنى مما أنا فيه ، لذلك قيل : أصعب من الموت تمنّى الموت .

فليسوا ميتين فيستريحوا وكلّهم بحرّ النار صال

قال تعالى : وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ . (الزخرف : ٧٧) .

فهذا الشقى الذى أطاع هواه ، وآثر الشهوات ، وسار وراء الملذات ، ولم يستمع لداعى العقل ، ولم يقدّم شيئًا لآخرته ، حين يرى موقف الحساب والجزاء ، وأعماله القبيحة قد أحصيت ، يتمنى الموت والفرار من مواقف العذاب ، ولن يجاب إلى طلبه .

**قال أبو الطيب المتنبى :**

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وإنما هو الشَّقاء الذى ليس بعده شقاء ، والتعاسة التى ليست بعدها تعاسة .

وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا .

ويدخل جهنم يصطلى بنارها ، ويقاسى حرّها وسعيرها ، ويتعذب بعذابها أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وما كان أيسر عليه ألا يطيع هواه ، وأن يؤمن بالله ، ولا يشرك به أحدًا .

وفى ذلك يقول الله تعالى : وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ . (الحاقة : ٢٥ – ٣١).

١٣ – إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا .

إنه كان فى الدنيا لا يفكّر فى العواقب ، ولا يتورَّع عن المنكرات ، وإنما يهجم على المعاصى فَرِحًا بطرًا أشِرًا ، والإسلام لا يحارب السرور ، بل يدعو إلى الرضا والفرح بالنعمة ، بشرط ألا يصبح الفرح اختيالاً وتعاليًا .

قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ... ﴾ (يونس : ٥٨) .

جاء فى تفسير القرطبى :

قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء فى الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور فى الآخرة ، ووصف أهل النار بالسرور فى الدنيا والضحك فيها ، فأعقبهم به الحزن الطويل .

١٤ - ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ .

يحور معناها يرجع ، أى : إن هذا الكافر تيقّن أنه لن يرجع إلى ربّه للحساب ، فآثر الدنيا وأهمل الآخرة ، وعمل طالحًا ولم يعمل صالحًا .

١٥ - ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ .

إنه ظن أن لن يحور ، ولكن الحقيقة أن ربّه كان مطلعًا على أمره ، محيطا بحقيقته ، عالمًا بحركاته وخطواته ، عارفًا أنه سائر إليه ، وأنه يجازيه بما كان منه .

قال الشيخ محمد عبده :

﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ .

أى : رجح فى حكمه أنه لن يرجع إلى ربّه ، فيحاسبه على ما يقترف من ذنبه ، أو يثيبه على الأفضل من كسبه .

﴿ بَلَىٰٓ ﴾ .

إيجاب لما بعد النفى فى : ﴿ لَّن يَحُورَ ﴾ .

أى : بلى ليحورنّ وليرجعن إلى ربّه ، وليُحاسبن على عمله فيجزى عليه : الخير بالخير ، والشر بالشر .

﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ .

بل تقضى حكمتنا فى هذا الخلق العظيم ، أن نجعل له حياة بعد هذه الحياة ، يستثمر فيها أعماله ، ويوافى فيها كماله .

★ ★ ★

## تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**فلا أقسم :** أقسم ، و (لا) مزيدة .

**الشفق :** الحمرة في الأفق بعد الغروب .

**وما وسق :** وما جمعه الليل وستره إليه من الدّواب ، وجميع ما انتشر بالنهار .

**اتسق :** اجتمع وتكامل وتمّ نوره .

**لتركبن :** لتلاقنّ أيها الناس (جواب القسم) .

**طبقا عن طبق :** أحوالاً بعد أحوال ، متطابقة في الشدة .

**يوعون :** يضمرونه أو يجمعونه من السيئات .

**غير ممنون :** غير مقطوع عنهم ولا منقوص .

**تمهيد :**

أقسم سبحانه وتعالى بآيات له في الكائنات ظاهرات باهرات ، أن البعث كائن لا محالة ، وأنهم يلقون الأهوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ما أعدّ له من جنة أو نار .

**التفسير :**

١٦ - فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ .

والشفق : هو الحمرة التي تظهر في الأفق الغربيّ بعد غروب الشمس ، وهو ضياءٌ من شعاعها ، وسُمي شفقًا لرقته ، ومنه : الشفقة ، لرقة القلب .

و(لا) هنا زائدة ، والمعنى : أقسم بالشفق ، ويمتد الشفق من المغرب إلى العشاء .

وقد أخرج الإمام مسلم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «وقت المغرب ما لم يغب الشفق» .

ولكن صحّ عن مجاهد أنه قال في هذه الآية : فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ . هو النهار كله ، وإنما حمله على ذلك قرنه بقوله تعالى : وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . أي : جَمَع ، كأنه أقسم بالضياء والظلام .

قال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبرًا وبالليل مقبلاً[٥٢] .

١٧ - وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ .

والليل وما ضمّ وجمع ، ففي الليل يهدأ النّاس ، ويستريح الأنام ، بل إن يديك تعملان بالنهار ، وتضمهما إلى جناحك بالليل ، والأمّ تضم أولادها ، والحيوانات تعود إلى منازلها ، والبشر يأوون إلى بيوتهم ، والعُبَّاد يتهجدون ويعبدون ، والنجوم تظهر ، والعيون تنام ، والليل يجمع كل شاردة ، ويضمُّ كل هائمة ، ولا يخفى عليك أن ما انتشر بالنهار يجتمع بالليل ، فكل ما نشره النهار بالحركة ، يضمه الليل ويجمعه بالسكون .

قال تعالى : وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ... (الأنعام : ٩٦) .

١٨ - وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ .

والقمر إذا اكتمل نوره واستدارته في الليالي البيض : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، وفيها يأنس الإنسان بالقمر المكتمل ، ويتأمّل جماله ، ويناجي ذلك الكوكب الهادئ الساكن ، المنير المضيء النافع .

أقسم الله بالشفق ، وبالليل وما حوى وضَمَّ ، وبالقمر إذا صار بدرًا مكتملاً ، على أن الحياة الآخرة حاصلة واقعة .

١٩ - لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ .

لتنزلنّ من القيامة حالاً بعد حال ، منها : الموت والقبر ، والحشر والسؤال ، والميزان والصراط والجنة والنار ، ولتردنّ أحوال الآخرة ومنازلها بعد أحوال الدنيا .

وقيل : معنى : لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ .

لتنزلن حالة بعد حالة ، وكل حالة تسلم للأخرى ، مثل مراحل الطفولة والشباب والرجولة ، والكهولة والموت والحياة الآخرة ، وفى الدنيا تعانُون اليسر والعسر ، والسلام والحرب ، وكلها أمور متعاورة ، فمع العسر يسر ، وَمع الشدة فرج ، ومع الدنيا ومنازلها نجد الآخرة ومنازلها ، فلابد من الآخرة بعد الدنيا .

وقال الحسن البصرى :

طَبَقًا عَن طَبَقٍ .

يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرًا بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقمًا بعد صحة .

ورجّح ابن جرير الطبرى أن المراد : لتركبن من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً .

٢٠ – فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

فأى شيء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله ، واعتناق الإسلام ، وهو دين الفطرة .

٢١ – وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ .

وإذا قرئ عليهم القرآن لا يخضعون لأوامره ، ولا يستجيبون لتوجيهاته ، وفيه ما يأخذ بالألباب ، وما يقنع العقل والنفس ، وما يذكّر الناس بربّهم وبالكون من حولهم ، وبالقيامة وبالآخرة التى تنتظرهم ، إن هذا الكون جميل ، وقد عرض القرآن جوانب منه ، وإن هذا القرآن رائع يأخذ بالألباب ، ويرشد إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وعند هذه الآية سجد النبى ﷺ وسجد المؤمنون ، فهى آية سجدة .

وفى القرآن أربع عشرة آية نسْجُد عندها امتثالاً لأمر الله تعالى ، وعند سجدة التلاوة نسبِّح الله كما نسبحه فى السجود ، سبحان ربّى الأعلى ثلاث مرات أو خمس مرات ، ثم نقول : سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره ، وشقّ سمعه وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم اكتب لى بها أجرًا ، وامح بها عنّى وزرًا ، وادخرها لى عندك ذخرًا ، وتقبلها منّى كما تقبلتها من عبدك داود .

٢٢ – بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ .

بل طبيعة هؤلاء الكفّار التكذيب والعناد والجحود ، ولذلك لا يخضعون للقرآن عند تلاوته .

٢٣ - وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ .

والله أعلم بما تكنّ صدورهم ، وما تضمّ جوانحهم ، فبعضهم كان يعلم صدق القرآن وصدق محمد ﷺ ، ويُعرض عن الإسلام حسدًا وحقدًا .

قال تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

٢٤ - فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

بشّر يا محمد هؤلاء الكافرين بعذاب أليم موجع ينتظرهم ، جزاء تكذيبهم بالقرآن وبرسالتك .

والبشرى تكون بالخبر السّار ، لكنه استعمل البشرى هنا تهكّما بهؤلاء الكافرين .

٢٥ - إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

أي : لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم ثواب دائم غير منقوص ، في دار البقاء والخلود .

قال تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

**قال صاحب الظلال :**

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير تنتهي السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد في مجالات الكون والضمير .

★ ★ ★


تفسير سورة البروج

# أهـــداف ســـورة البروج

(سورة البروج مكية ، وآياتها ٢٢ آية ، نزلت بعد سورة الشمس)

هذه السورة القصيرة تعرض حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيمانى ، وتمجد الثبات على الحق ، وتبشر المؤمنين بنصر الدنيا ونعيم الآخرة ، وتهدد الجبارين المعتدين بنقمة الله ولعنته فى الدنيا والآخرة .

## أصحاب الأخدود

**الأخدود** : الشق فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه أخاديد ، وأصحاب الأخدود قوم كافرون ذوو بأس وقوة ، رأوا قوما من المؤمنين فغاظهم إيمانهم ، فحملوهم على الكفر فأبوا ، فشقوا لهم شقًا فى الأرض وحشوه بالنار ، وألقوهم فيه ، وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد على جوانب الشق يشهدون الإحراق .

## فقرات السورة

١ – تبدأ الفقرة الأولى بالقسم ، وتربط بين السماء ويوم القيامة وبين حادث الأخدود ، ونقمة الله على أصحابه . (الآيات ١–٤) .

٢ – ثم تعرض الفقرة الثانية المشهد المفجع فى لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث ، بدون تفصيل ولا تطويل ، مع التلميح إلى عظمة العقيدة التى تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها . (الآيات ٥ – ١٠) .

٣ – ثم يجىء التعقيب بعد ذلك بفوز المؤمنين ، وبشدة بطش الله بالمجرمين ، وبقدرته وهيمنته على الكون ، ثم إشارة سريعة إلى سوابق ممن أخذ من الطغاة كفرعون وثمود . (الآيات ١١ – ٢٢) .

## مع آيات السورة

١ –٣ – يقسم الله سبحانه بالسماء ذات الكواكب ، والنجوم الكثيرة التى تنتشر فى أرجائها ، ويقسم بيوم القيامة ، ويقسم بالشاهد والمشهود ، والشاهد هم الملائكة تشهد على الناس يوم القيامة ، والمشهود عليه هم الخلائق ، أو الأنبياء تشهد على أممهم يوم القيامة ، أو بجميع ما خلق الله فى هذا الكون مما يشهده الناس ، ويرونه رأى العين .

وقصارى ذلك أنه سبحانه أقسم بالعوالم كلها ، ليلفت الناظرين إلى ما فيها من العظم والفخامة .

٤ - قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ . أى : أُخِذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة .

و قصة ذلك أنه قد وقع إلى نجران من أرض اليمن ، رجل ممن كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فدعا أهلها إلى دينه ، وكانوا على اليهودية ، وأعلمهم أن الله بعث عيسى بشريعة ناسخة لشريعتهم ، فآمن به قوم منهم ، وبلغ ذلك ذا نواس ملكهم ، وكان يتمسك باليهودية ، فسار إليهم بجنود من حمير ، فلما أخذهم خَيَّرهم بين اليهودية والإحراق بالنار ، وحفر لهم حفيرة ثم أضرم فيها النار ، وصار يؤتى بالرجل منهم فيخيره فمن جزع من النار ، وخاف العذاب، ورجع عن دينه ، ورضى اليهودية تركه ، ومن استمسك بدينه ولم يبال بالعذاب الدنيوى لثقته بأن الله يجزيه أحسن الجزاء ، ألقاه فى النار .

ثم بين من هم أصحاب الأخدود ، فقال :

٥ - ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ . أى أن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار ، التى لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها ، فلا جرم يكون حريقها عظيما ، ولهيبها متطايرا .

٦ - إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . أى : قُتلوا ولُعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار ، وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم ، وهم يُعذِّبون ويُحْرِقون فيها .

٧ - وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وهو تعبير يصور قسوة قلوبهم ، وتمكُّن الكفر منهم ، فإنّ التعذيب كان يتم بأمرهم ، وكانوا يقعدون على مقربة من النار ، ويشاهدون أطوار التعذيب وفعل النار فى الأجسام فى لذة وسعار ، كأنما يثبتون فى حسهم هذا المشهد البشع الشنيع .

٨ ، ٩ - وما أنكر أصحاب الأخدود على هؤلاء الذين أحرقوهم بالنار إلا أنهم آمنوا بربهم ، الموصوف بالغلبة والقهر ، والمحمود على نعمه وأفضاله ، الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وهو رقيب على الجميع شاهد على أعمالهم وأحوالهم .

١٠ - إن هناك جزاءً عادلاً فى الآخرة ، وهؤلاء الذين عذبوا المؤمنين وحرقوهم فى الدنيا ، ولم يندموا على ما فعلوا ، سيلقون عقابهم فى جهنم ، وفى حريق شديد ، لقد أحرقوا المؤمنين بنار الدنيا ، وهى جزء يسير من نار الآخرة ، إذ نارها شديدة ومعها غضب الله على العصاة .

١١ - وهؤلاء المؤمنون الصادقون يلقون جزاءهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، مع رضوان الله ، وذلك هو الفوز الكبير .

ويهذا يتم الأمر ، وينال كل طرف جزاءه العادل ، فالظالمون الطغاة يلقون عذاب الحريق ، والمؤمنون الصادقون يلقون الجنة ورضوانًا من الله أكبر ، ذلك هو الفوز الكبير .

١٢ – ١٦ – إن انتقام الله من الظالمين لشديد ، فهو يمهلهم حتى إذا أخذهم لم يُفلتهم ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده يوم القيامة .

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال ، فقال :

١ – وَهُوَ ٱلْغَفُورُ . لمن يرجع إليه بالتوبة .

٢ – ٱلْوَدُودُ . كثير الود والعطاء والمحبة لمن أخلصوا له .

٣ – ذُو ٱلْعَرْشِ . ذو السلطان الكبير والقدرة الكاملة .

٤ – ٱلْمَجِيدُ . العظيم الكرم والفضل .

٥ – فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ . سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويختار .

وهو صاحب الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ، ووراء الحياة ووراء كل شىء فى الوجود .

١٧ ، ١٨ – هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ . الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق تارة أخرى على الأعوان ، والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم ، هل أتاك حديثهم؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد ؟

فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ . لقد أهلك الله فرعون وجنده ، ونجّى موسى ومن آمن معه ، وقصة ثمود مع صالح معروفة ، فقد عقرت ثمود الناقة التى جعلها الله لهم آية ، وقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم ، ونجّى صالحا ومن معه من المؤمنين .

**وخلاصة ذلك** : أن الكفار فى كل عصر متشابهون ، وأن حالهم مع أنبيائهم لا تتغير ولا تتبدل ، فهم فى عنادهم سواء ، ولكن العاقبة دائما للمتقين ، وبطش الله شديد بالطغاة الظالمين .

١٩ – ٢٢ – وفى الختام تقرر السورة أن الكفار فى كل عصر يكذبون الرسالات ، وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وقدرته ، وهو سبحانه محيط بهم وعالم بجميع أحوالهم ، وسوف يؤاخذهم على عملهم ، وهذا الذى كذب به قومك كتاب شريف ، متفرد فى النظم والمعنى ، محفوظ من التحريف ، مصون من التغيير والتبديل .

## مقاصد السورة

١ – إظهار عظمة الله وجليل صفاته .

٢ – قصة أصحاب الأخدود .

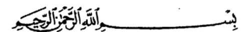
٣ – عاقبة المتقين الجنة والرضوان ، ونهاية المعتدين الهلاك والحريق .

٤ – يبيد الله الأمم الطاغية فى كل حين ، ولاسيما الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات .

٥ – القرآن مجيد شريف ، وكفى شرفا أنه كلام الله .

★ ★ ★

## القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود



﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾

**المفردات :**

**والسماء :** أقسم الله بها وبما بعدها .

**ذات البروج :** ذات المنازل المعروفة للكواكب .

**اليوم الموعود :** يوم القيامة.

**شاهد :** من يشهد على غيره .

**مشهود :** من يشهد عليه غيره .

**قُتل :** لُعن أشد اللعن (جواب القسم) .

**الأخدود :** الشقّ المستطيل فى الأرض ، ويجمع على أخاديد .

**إذ هم عليها قعود :** إذ هم على حافة النار وحولها قعود .

**وما نقموا منهم :** وما عابوا عليهم ، وما أنكروا منهم ، وما كرهوا منهم .

**فــتــنــوا :** ابتلوا وامتحنوا .

**عـذاب الحريق :** هو عذاب جهنم ، ذُكر تفسيرًا وبيانًا له .

**الفوز الكبير :** أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من رغائب لا تفنى .

**التفسير :**

١ - وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ .

أى : أُقسم بالسماء البديعة ذات البروج .

والبروج جمع برج ، وهو القصر العظيم ، أو الحصن .

قال تعالى : أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... (النساء : ٧٨) .

وتطلق البروج على النجوم والشمس والقمر ، فهى مخلوقات ضخمة ، وكأنها بروج السماء الضخمة ، أى قصورها المبنية ، كما قال سبحانه : وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . (الذاريات : ٤٧) .

وإما أن تكون البروج هى المنازل التى تنتقل فيها تلك الأجرام فى أثناء دورانها ، وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء .

قال القرطبى :

قوله : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ .

قسم أقسم الله عز وجل به ، وفى البروج أربعة أقوال :

أحدها : ذاتُ النجوم ، الثانى : ذات القصور ، الثالث : ذات الخَلْق الحسن ، الرابع : ذات المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ومداراتها الفلكية الهائلة ، وهى اثنا عشر منزلاً :

الحمل ، الثَّور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدى ، الدلو ، الحوت . اهـ .

وخلاصة المعنى :

أُقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة التى تنزلها الكواكب أثناء سيرها.

قال المفسرون : سُميت هذه المنازل بروجًا لظهورها ، وشُبِّهت بالقصور لعلوِّها وارتفاعها ، لأنها منازل الكواكب السيارة .

٢ - وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ .

وأُقسم باليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، الذى وعد الله أن يجمع فيه الخلائق للحساب والجزاء .

قال تعالى : ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... (النساء : ٨٧) .

٣ - وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ .

والشاهد هم الملائكة الحفظة والكتبة ، الذين يشهدون على الإنسان ، والمشهود عليه هو الإنسان ، وقيل : الشاهد محمد ﷺ وأمَّته ، والمشهود عليه سائر الأمم .

وقيل : الشاهد كل رسول يشهد على أمّته أنه بلّغها رسالة السماء ، ومحمد ﷺ يشهد أنه بلغ أمَّته ، والمشهود عليه هم أمم الرسل .

قال تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا . (النساء : ٤١) .

ورُوى عن الحسن فى تفسير قوله تعالى : وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . أنه قال : ما من يوم إلا وينادى : أنا يوم جديد ، وإنّى على ما يُعمل فىَّ شهيد ، فاغتنمنى فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم الوعيد .

وقيل : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة .

وقيل : الشاهد هو جوارح الإنسان ، والمشهود عليه هو ابن آدم .

وقيل : الشاهد هو الإنسان المشاهد ليوم القيامة وأهواله وعجائبه . والمشهود هو أحوال القيامة التى يشيب لها الولدان .

**قال الصاوى فى حاشيته على الجلالين :**

والأحسن أن يراد ما هو أعمّ ، ولذلك نكّرهما ليعمّ كلّ شاهد ومشهود .

٤ - قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ .

أى : لُعن أصحاب الأخدود ، وأصابهم القتل جزاء ما فَعلُوا بالمؤمنين من تقتيل وتعذيب .

٥ - ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ .

تشرح هذه الآية أفعالهم ، حين شَقُّوا أخدودًا فى الأرض ، وأضرموا فيه النَّار مشتعلة مرتفعة .

٦ - إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ .

لقد أضرموا النار ، وجلسوا حولها ينظرون إلى القتلى والمعذّبين .

٧ - وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ .

جلسوا يشاهدون ألوان العذاب بالمؤمنين : صِياح القتلى ، وآلام الحريق بالمؤمنين ، بدون أن ترقّ قلوبهم ، بل كانوا يتلذذون بآلامهم .

وقيل : كان يشهد كل فريق على صاحبه أمام الملك أنهم لم يقصروا فى تحريق المؤمنين .

٨ - وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ .

ما كان لهؤلاء المؤمنين ذنب أو عيب ، أو جريمة تستحق العقاب ، سوى إيمانهم بالله القوى الغالب ، المحمود على جميع أفعَاله .

فالمؤاخذة أو العقاب سببه الإيمان بالله الذى يستحق الإيمان والحمد ، وهذا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذمّ ، مثل قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم  بهنّ فلول من قراع الكتائب

وتنتهى قصة أصحاب الأخدود عند هذا الحدّ من الآيات ، لكن المعانى التى ترشد إليها لا تنتهى إلى قيام الساعة ، ذلك أنها تفيد أن هناك صراعا بين الباطل والحق ، فالباطل هنا يملك القوة والأخدود والنار والمشاهدة والاستعلاء والجبروت . أما المؤمنون فكانوا يملكون الثبات واليقين ورجاء ما عند الله ، وقد صمدُوا وصبروا وقُتلوا ، وثبتوا على إيمانهم .

لكنّ الدنيا لها نهاية ، والآخرة دار الجزاء العادل ، وسيلقى أهل الباطل والكفر جزاءهم ، وسيلقى أهل الإيمان والثبات على الحق جزاءهم ، والأعمال بالخواتيم .

قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (الأعلى : ١٦، ١٧ ) .

٩ - ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

إن إيمان هؤلاء المؤمنين كان لله المتَّصف بالعزة والحمد ، وهذا الإله له ملك السماوات والأرض ، خلقًا ورعايةً وحفظًا ، وهو سبحانه بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شىء قدير ، وهو سبحانه مطلع وشاهد على ما فعله أصحاب الأخدود بالمؤمنين من القتل والتحريق، وهو أيضا الحكم العدل الذى يمهل ولا يهمل .

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . أى : والله تعالى على كل شىء مطلع وشاهد ، وهذه أكبر شهادة .

قال تعالى : قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ... (الأنعام : ١٩) .

١٠ - إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ .

الفتنة والفَتن : الاختبار والامتحان ، تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرتُه لأعلم جيده من رديئه .

والمراد هنا : عذبوا المؤمنين والمؤمنات بألوان العذاب ، والآية تشمل أصحاب الأخدود شمولاً أوليًا ، وتشمل أهل مكة الذين فتنوا المؤمنين بمكة ، وتشمل كلّ من فتن مؤمنا وعذّبه ولم يتب إلى الله تعالى إلى يوم القيامة . وأنا أكتب هذه السطور تطالعنا الصحف بأن أحد جنرالات فرنسا كتب فى مذكّراته عن حرب الجزائر أنه تلقى تعليمات بتعذيب فدائيين جزائريين فى زنزانات منفردة حتى يعترفوا على زملائهم ، وأن أبطال الجزائر كانوا يموتون تحت العذاب دون أن يعترفوا على زملائهم ، ونُشرت هذه الاعترافات فى فرنسا وفيها أن آلافا من المحاربين الجزائريين ماتوا فى الزنزانات تحت العذاب .

**وخلاصة معنى الآية :**

إن الذين عذّبوا المؤمنين والمؤمنات وفتنوهم فى دينهم ، طالبين رجوعهم عن الحق إلى الكفر ، ثم لم يتوبوا إلى الله بالندم والإقلاع والرجوع إلى الله ، فلهم عذاب جهنّم وما فيه من حميم وغسّاق، ونار مستعرة أوقدها الجبار سبحانه ، ونار الدنيا جزء من سبعين جزءًا من نار الآخرة .

ولما كان أصحاب الأخدود قد أحرقوا المؤمنين فى نار الأخدود ، نصّ على أن هؤلاء القساة الغلاظ المعتدين ينتظرهم عذاب جهنم .

وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ . أى : كما حرّقوا المؤمنين بنار الدنيا ، فسيحترقون هم بنار الآخرة ، لكن شتان بين النّارين ، نار الدنيا أوقدها العبيد ، ونار الآخرة أوقدها الخالق المجيد ، فالجزاء من جنس العمل .

**قال الحسن البصرى :**

انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

وهذا يدل على أن الآية توجيه لأهل مكة ، ولكل كافر ظالم أن أقلعوا عن كفركم وظلمكم، وتوبوا إلى ربكم قبل فوات الأوان .

١١ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ .

هذا هو التعقيب على عذاب المؤمنين ، أى : بينما الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم يصطلون بعذاب جهنم وعذاب الحريق ، نجد الذين آمنوا بالله ربًّا ، وعملوا أعمالا صالحة ، وامتثلوا أوامر ربّهم ، وهدى نبيهم ، ونفَّذوا أحكام دينهم ، يتمتعون بجناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، فيها ألوان النعيم ورضوان من الله أكبر .

ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ . ذلك هو الفوز الأكبر ، والنجاح الأعظم ، والخاتمة الناجحة للمؤمنين .

لقد كانت هناك معركة بين الكُفّار المعتدين والمؤمنين الذين آمنوا بالله الذى له ملك السماوات والأرض ، وقد حرّق المؤمنون فى الأُخدود أمام أعين الظالمين ، لكن المعركة لم تنته بعد ، لقد أُدخل الكفار عذاب جهنم وعذاب الحريق ، وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ .

**قال صاحب الظلال :**

والفوز : النجاة والنجاح ، والنجاة من عذاب الآخرة فوز ، فكيف بالجنّات تجرى من تحتها الأنهار ، بهذه الخاتمة يستقرُّ الأمر فى نصابه ، وهى الخاتمة الحقيقية للموقف ، فلم يكن ما وقع فى الأرض إلا طرفًا من أطرافه ، لا يتم به تمامه ... وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب الأوّل على الحادث ، لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة ، تتعرض للفتنة على مدار القرون .[٥٥].

★ ★ ★

## بطش الله شديد

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

**المفردات :**

**بطش ربك :** أخذه الجبابرة والظلمة بالعذاب .

**هو يبدئ :** يخلق ابتداء بقدرته .

**يعيد :** يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته .

**الودود :** المتودد إلى أوليائه بالكرامة .

**ذو العرش :** صاحب العرش وخالقه ومالكه .

**المجيد :** العظيم الجليل المتعالى .

**محيط :** عالم بأحوالهم ، وقادر عليهم ، وهم لا يعجزونه .

**تمهيد :**

فى أعقاب قصة أصحاب الأخدود ، ونهاية الظالمين إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق ، وفوز المؤمنين بالجنة ورضوان الله ، تأتى هذه الآيات تبيّن قدرة الله على الظالمين ، فكما أهلك الأوّلين فهو قادر على إهلاك كفار مكة ، وكل ظالم يأتى إلى يوم الدين .

وفى الآيات تهديد للظالمين ، وتثبيت للمؤمنين ، فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

**التفسير :**

١٢ - **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .**

والخطاب لرسول الله ﷺ ، وفيه إيناس له ﷺ وبيان لعظيم قدرة الله .

والبطش هو الأخذ بقوة وعنف ، فإذا أضيف إلى الشدة كما هنا ، كان المعنى : إن أخذ ربك للظالمين الكافرين أخذ بالغ فى الشدّة وفى العنف ، لأنه بطش القادر على كل شيء .

١٣ - **إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ .**

فهو سبحانه الذى بدأ الخلق ، وهو الذى يعيد البعث والحشر والنشر .

قال تعالى : **كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ** ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وفى كل لحظة من لحظات هذه الحياة الدنيا نجد البدء والإعادة ، والخلق والأمر ، والفقر والغنى ، والارتفاع والانحدار ، والعز والذلّ ، والكون كله والخلق كله بين أصبعين من أصابع الرحمن ، يقلب ذلك كيف يشاء .

قال تعالى : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . (الرحمن : ٢٩) .

وهى شئون يبديها ولا يبتديها ، يشفى مريضا ويمرض سليما ، يعافى مبتلى ويبتلى معافى ، يغنى فقيرًا ويفقر غنيا ، يرفع وضيعا ويضع رفيعا .

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

١٤ – وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ .

وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب ، هو خالق الخلق وهو أعلم بهم ، لذلك فتح باب التوبة للتائبين ، وغفر للمستغفرين ، ورحم المسترحمين ، ولم يغلق بابه فى وجه قاصد ، ومهما عظم الذنب وكبرت الخطيئة ، إذا صحّ الندم ، وعظم الألم ، وصدقت نية العبد فى التوبة ، فإن الله لايردّ منْ قصد بابه .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَ‌ٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... (النساء : ١١٦) .

وقال عز شأنه : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ... (الزمر : ٥٣ ، ٥٤) .

لقد سبقت رحمة الله غضبه ، قال تعالى : وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ... (الأعرف : ١٥٦) .

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

وفى السُّنة الصحيحة أن رجلا قتل مائة نفس ، ثم ندم ورغب فى التوبة ، فتطهر وانتقل من أرض المعصية إلى أرض فيها عُبَّاد لله ، ليعبد الله معهم ، وفى الطريق أدركته منيته فمات ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إليهم : انظروا هذا الذى مات ، إن كان قريبًا من أرض الطاعة فلتقبض روحه ملائكة الرحمة ، وإن كان قريبا من أرض المعصية فلتقبض روحه ملائكة العذاب ، فوجدوه قريبًا من أرض الطاعة شبرا أو ذراعًا ، فقبضته ملائكة الطاعة .

**قال علماء الحديث :**

فلو أن الرجل طاف الأرض كلَّها دون ندم أو توبة أو رغبة صادقة فى التوبة ما نفعه ذلك ، لكن لما صدقت النية والرغبة فى التوبة والنّدم قبله الله ، ويسر له باب التوبة وحسن الخاتمة .

واسم الله ٱلْوَدُودُ . يفتح أبوابا من هذه الرحمة والمودة والرضا والمحبة ، ٱلْوَدُودُ . الذى يبشّ للطائعين ، ويهشّ للمتبتلين ، ويرحم عباده ، ويكرم أولياءه ، ويرضى عن المؤمنين .

قال ابن عباس : ٱلْوَدُودُ . يودُّ أولياءه كما يودّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة .

فيا للفضل الإلهى ، ويا للجلال والكمال والرضا والمودة من الله العلى القدير للعَبْد المخلوق الفانى ، إذا صحّت نيّته، وصدقت عقيدته ، وعظُمت رغبته فيما عند الله ، حيث يجد مودة الله .

قال تعالى : يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ... (المائدة : ٥٤) .

وقال سبحانه : رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... (البينة : ٨) .

وقال عز شأنه : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا . (مريم : ٩٦) .

وفى سورة الكهف نجد عناية الله تمْتدُّ لأصحاب الكهف ، ونجد فى قصة موسى والخضر جانبا من هذه المودة ، حين رأينا الخضر يخرق السفينة ، ويقتل الغلام ، ويبنى الجدار تحقيقا لجانب من رحمة الله ومودته بالصالحين، وامتداد المودة إلى ذرية الصالحين ، حيث يقول الخضر – كما حكى القرآن الكريم :

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... (الكهف : ٨٢) .

١٥ – ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ .

ذُو ٱلْعَرْشِ . ذو الملك والسلطان .

ٱلْمَجِيدُ . العظيم فى ذاته وصفاته ، تام القدرة ، كامل الحكمة .

وفى الحديث الصحيح : «العرش لا يقدر قدره إلا الله» .

قال ابن كثير :

ذُو ٱلْعَرْشِ . أى : صاحب العرش ، العظيم العالى على جميع الخلائق .

ٱلْمَجِيدُ . المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها . اهـ .

وقال ابن القيم : المجْدُ فى لغة العرب : كثرة أوصاف الكمال ، وكثرة أفعال الخير ، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد .

كما قالت الملائكة : رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ . (هود : ٧٣) .

وكما شرع لنا فى آخر الصلاة أن نثنى على الله تعالى بأنه حميد مجيد ، وشرع لنا فى آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول : «ربنا ولك الحمد ، أهل الثناء والمجد» .

فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد ، المستحق لجميع صفات الكمال . ٱلْمَجِيدُ . العظيم الواسع ، القادر الغنىّ ، ذو الجلال والإكرام .

١٦ – فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

كثير الفعل لما يريده ، لا رادَّ لمشيئته ، ولا معقّب لأمره ، إذا أراد شيئا فعله ، لا يُعجزه شىء ، ولا يُسأل عمّا يفعل لعظمته وقهره وحكمته .

كما رُوى عن أبى بكر الصدّيق أنه قيل له ، وهو فى مرض الموت : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم ، قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

يريد أن الطبيب فى الحقيقة هو الله ، وهو سبحانه فعال لما يريد ، إذا أراد أمرًا فعله طبق إرادته .

قال الإمام الطحاوى :

وكل شىء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تُنفَّذ لا مشيئة العباد .

وقال ابن القيّم :

اشتملت هذه السورة على اختصارها ، من التوحيد على وصفه سبحانه بصفات الكمال والجلال ، فهو ٱلْوَدُودُ . لكونه حبيبا إلى عباده ومحبًّا لهم .

وكونُه فعالاً لما يريد ، المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ، ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله . اهـ .

فهذه السورة كتاب مستقل فى أصول الدين ، والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا .

١٧ – هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ .

المراد بالجنود : القوم والجماعات الذين تجنَّدوا على أنبياء الله ، واجتمعوا على أذاهم .

والمعنى :

هل بلغك يا محمد ، خبرُ الأمم والجماعات التى كذَّبت رُسُلها ، واستحقت عقاب السماء ، وفى هذا الاستفهام تسليةٌ لرسول الله ﷺ ، وتهديد للكفَّار والمتجبِّرين فى كل مكان وزمان .

عن عمر بن ميمون قال : مرَّ النبى ﷺ على امرأة تقرأ : هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ . فقال : «نعم قد جاءنى» .

١٨ – فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ .

وخصَّ فرعون وثمود من بين المكذِّبين لوضوح الطغيان والظلم فيهما .

وقصة فرعون مع موسى مشهورة معلومة ، وكان أهل مكة على علم بها ، وقد أغرق الله فرعون ، ونجَّى بنى إسرائيل من قبضته ، لحكمة إلهية تنْفُذُ فيها مشيئته .

وثمود هم قوم صالح الذين عقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربِّهم ، واستحقوا ما نزل بهم من هلاك .

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا . (الشمس : ١١ – ١٥) .

١٩ – بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ .

لقد كان أولى بقومك أن يتعظوا بما أصاب الجنود ، مثل فرعون وجنده الذى أُغرقوا فى مياه البحر، ومثل ثمود قوم صالح الذين حاق بهم سوء أعمالهم ، لكن قومك بدل أن يفكِّروا فى دعوتك وشريعتك ، ويتأمَّلوا فى القرآن وأحكامه وهدايته ، استغرقهم التكذيب بالإسلام ورسالته ، وأصبحوا وأمسوا ولا همَّ لهم إلاَّ تكذيب الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ .

٢٠ – وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ .

والله تعالى عالم بهم ، مطَّلع على أفعالهم ، لا يفوتونه ولا يعجزونه ، وبأس الله لا يردُّ عن القوم الظالمين .

٢١ - بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ .

هذا القرآن مجيد شريف ، عالى القدر ، رفيع المنزلة ، مصدِّق للكتب السماوية السابقة عليه ، ومهيمن عليها ، فيه قصص الأنبياء والمرسلين ، وأخبار السابقين ، وفيه حكم وتشريع ، وبيان وآداب ، ومواعظ وهداية ، وفيه أخبار القيامة ، وأنباء اليوم الآخر ، وفيه صفات الله وكمالاته ، فهو سبحانه متصف بكل كمال ومنزّه عن كل نقص ، وهذا القرآن ليس شعرا ولا كهانة ولا أساطير الأوّلين ، ولكنه تنزيل من رب العالمين .

٢٢ - فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ .

هو فى اللوح المحفوظ الذى فى السماء ، محفوظ من الزيادة والنقصان ، والتحريف والتبديل ، ونحن نؤمن بأن القرآن كلام الله ، أودعه الله فى اللوح المحفوظ .

وقد حفظ الله كتابه على مرّ القرون ، وتكفّل الله بحفظه ، وبأن يظل دائما أصل أصول الدين ، وأساس الإسلام وكلّى الشريعة .

«فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الجدُ ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله ، لم تسمعه الجن حتى قالت : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحدا» .

**وقال الحسن البصرى :**

إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، يُنزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

آمنا بالله وحده لا شريك له ، وبأن محمدا ﷺ عبده ورسوله ، وبأن القرآن كلام الله تعالى ، منزه عن النظير والمثيل ، محفوظ من التغيير والتبديل .

كما قال سبحانه وتعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

★ ★ ★

## ملحق بتفسير سورة البروج

## من كتاب التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى

### فضل سورة البروج

أخرج الإمام أحمد ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بـ : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ، وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ . (٥٦).

وأخرج أحمد ، عن أبى هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ أمر أن يُقرأ بالسماوات فى العشاء .(٥٧).

**سبب نزولها والحكمة منها :**

المقصود من هذه السورة تسلية النبى ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار ، ببيان أن سائر الأمم السابقة كانوا كأهل مكة ، مثل أصحاب الأخدود فى نجران اليمن ، ومثل فرعون وثمود .

وكان كل الكفار سواء فى التكذيب ، فانتقم الله منهم ، لأنهم جميعًا فى قبضة القدرة الإلهية : وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ . وهذا شيء مثبت فى اللوح المحفوظ ممتنع التغيير ، لقوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ .

وسبب نزول هذه السورة التى تدور على قصة أصحاب الأخدود ما رواه مسلم فى صحيحه ، وأحمد ، والنسائى ، وموجزها : أن أحد ملوك الكفر وهو ذو نُواس اليهودى واسمه زُرْعة بن تُبَّان أسعد الحميرى ، بلغه أن بعض رعيته آمن بدين النصرانية (٥٨) ، فسار إليهم بجنود من حِمْيَر ، فلما أخذوهم خيَّروهم بين اليهودية والإحراق بالنار ، فاختاروا القتل ، فشقوا لهم الأخدود ، وأضرموا فيه النار ، ثم قالوا للمؤمنين : من رجع منكم عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه فى النار ، فصبروا ، فألقوهم فى النار ، فاحترقوا ، والملك وأصحابه ينظرون .

قيل : قَتَل منهم عشرين ألفًا ، وقيل : اثنى عشر ألفًا .

وقال الكلبى : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفًا .

والخلاصة : أن ذا نواس آخر ملوك حمير – وكان مشركًا – قتل أصحاب الأخدود الذين كانوا نصارى ، وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا (٥٩) .

**تفصيل القصة – قصة الساحر والراهب والغلام :**

المعتمد من قصص أصحاب الأخدود ما جاء فى الصحاح عن النبى ﷺ : «أنه كان لبعض الملوك ساحر ، فلما كبر ضمَّ إليه غلامًا ليعلِّمَه السِّحر ، وكان فى طريق الغلام راهب يتكلَّم بالمواعظ لأجل الناس ، فمال قلب الغلام إلى حديثه ، فرأى فى طريقه ذات يوم دابة أو حية قد حَبَسَت الناس ، فأخذ حجرًا فقال : اللهم إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر فاقتلها بهذا الحجر ، فقتلها .

وكان ذلك الغلام بعدئذ يتعلَّم من الراهب إلى أن صار بحيث يبرئ الأكمه والأبرص ، ويَشْفى من الداء .

وعمى جليس للملك فأبرأه ، فأبصره الملك فسأله : من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربى ، فغضب ، فعذّبه ، فدّل على الغلام ، فعذّب الغلام حتى دلّ على الراهب ، فلم يرجع الراهب عن دينه ، فقُدَّ بالمِنْشار ، وأتى الغلام، فذُهب به إلى جبل ليُطرح من ذِرْوته ، فدعا فرَجف بالقوم فطاحوا ونجا ، فذهبوا به إلى قرقور (سفينة صغيرة) ، فلجَجُوا به ليُغْرقُوه ، فدعا ، فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا ونجا ، وقال للملك : لستَ بقاتلى حتى تجمع الناس فى صعيد ، وتصلبنى على جذْع ، وتأخذ سهمًا من كِنانتى وتقول : بسم الله رب الغلام ، ثم ترمينى به .

فرماه فوقع فى صُدْغه ، فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فقيل للملك : نزل بك ما كنت تحذَر ، فأُمر بأخاديد فى أفواه السِّكك وأوقدت فيها النيران ، فمن لم يرجع منها طرحه فيها ، حتى جاءت امرأة معها صبى ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال الصبى : يا أمّاه ، اصبرى فإنك على الحق ، وما هى إلا غُمَيْضَةٌ ، فصبرت واقتحمت» (٦٠) .

★ ★ ★


تفسير سورة الطارق

# أهـداف سـورة الطـارق

(سورة الطارق مكية ، وآياتها ١٧ آية ، نزلت بعد سورة البلد)

وهى سورة تشترك فى خصائص سور هذا الجزء ، التى تمثل طرقات متوالية على الحس ، طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بقوم غارقين فى النوم .. تتوالى على حسهم تلك الطرقات تناديهم : تيقظوا ، تنبهوا ، انظروا ، تفكروا ، تدبروا ، إنّ هناك إلهًا ، وحسابًا وجزاء ، وعذابًا شديدًا ، ونعيمًا كبيرًا .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية فى السورة تناسق مطلق ، دقيق ملحوظ ، يتضح من استعراض السورة فى سياقها القرآنى الجميل .

## مع آيات السورة

١ – ٤ – وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

أى : والسماء ونجومها الثاقبة للظلام ، النافذة من هذا الحجاب الذى يستر الأشياء .

وقد كثر فى القرآن الحلف بالسماء وبالشمس ، وبالقمر وبالليل ، لأن فى أحوالها وأشكالها ومسيرها ومطالعها ومغاربها ، سمات القدرة وآيات الإبداع والحكمة .

وَٱلطَّارِقِ . الذى يطرق ليلاً ، و ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ . هو النجم المضىء الذى يثقب الظلام ، ونهتدى به فى ظلمات البر والبحر ، وهو الثريا عند جمهرة العلماء ، أو جنس الشهب التى يرجم بها الشياطين ، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب ، لأن له ضوءًا ثاقبًا لا محالة .

يُقسم الله تعالى بالسماء ونجمها الثاقب ، إن كل نفس عليها من أمر الله رقيب : إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ . وفى هذا التعبير بهذه الصيغة معنى التوكيد ، ما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله . وقد خصَّ النفس هنا لأنها مستودع الأسرار والأفكار ، وهى التى يناط بها العمل والجزاء .

٥ – ٧ – فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ .

فلينظر الإنسان من أى شىء خُلق ، وإلى أى شىء صار ، إنه خُلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، خُلق من هذا الماء الذى يجتمع من صلب الرجل ، وهو عظام ظهره الفقارية ، ومن ترائب المرأة وهى عظام صدرها العلوية .. ولقد كان هذا سرًّا مكنونًا فى علم الله لا يعلمه البشر ، حتى جاء القرن العشرون ، حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ، وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفى عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة ، حيث يلتقيان فى قرار ، فينشأ منهما الإنسان .

«وقد ثبت فى علم الأجنة أن البويضة ذات الخلية الواحدة تصير علقة ذات خلايا عدة ، ثم تصير العلقة مضغة ذات خلايا أكثر عددًا ، ثم تصير المضغة جنينًا صغيرًا وزعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة فى أول الأمر ، فإذا تم نموها كوَّنت جسم الإنسان»[٦١] .

«وما وراء هذه اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق ، حشود لا تحصى من العجائب والغرائب ، فى خصائص الأجهزة والأعضاء ، تشهد كلها بالتقدير والتدبير ، وتشى باليد الحافظة الهادية المعينة ، وتؤكد الحقيقة الأولى التى أقسم عليها بالسماء والطارق ، كما تمهد للحقيقة التالية – حقيقة النشأة الآخرة – التى لا يصدقها المشركون المخاطبون أول مرة بهذه السورة»[٦٢] .

٨ – ١٠ – إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ . إن الذى قدر على خلق الإنسان وأنشأه ورعاه ، لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى ، فالنشأة الأولى تشهد بقدرته وحكمته ، هذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثًا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر ، وتجزى جزاءها العادل .

يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ . تبلى أى تختبر وتمتحن ، والمراد تظهر . ٱلسَّرَآئِرُ . ما يسرّ فى القلوب من العقائد والنيّات ، وما خفى من الأعمال ، واحدها سريرة .

قال الأحوص :

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا سريرةُ ودّ يوم تبلى السرائر

إن الله قادر على إعادة الإنسان للحياة يوم تتكشف السرائر ، وتظهر الخفايا ، ويتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل عون .

فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ . فلا تكون للإنسان قوة ذاتية أو منعة من نفسه يمتنع بها ، وما له من ناصر خارج ذاته ينصره ويحميه مما حتم أن يقع عليه .

والخلاصة : إن القوة التى بها يدافع الإنسان عن نفسه ، إما من ذاته وقد نفاها بقوله : فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ . وإما من غيره وقد نفاها بقوله : وَلَا نَاصِرٍ . وبذلك يُحشر الإنسان منفردًا ، مكشوف السرائر ، متجردًا من القوة والنصير .

١١ - ١٤ - يُقسم الله سبحانه وتعالى بالسماء ذات المطر الذى ينزل منها ، وقد كان أصله ماء الأرض فتبخر وصعد إلى السماء ، ثم رجع منها مطرًا إلى الأرض ، ليحييها بعد موتها ، ويُقسم بالأرض التى تتشقق عن النبات والعيون ، يُقسم بذلك على أن القرآن تنزيل من رب العالمين ، وهو القول الفاصل بين الحق والباطل ، وليس بالهزل ولا باللهو واللعب .

أخرج الترمذى ، والدارمى ، عن علىٍّ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنها ستكون فتن» قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ . قال : «كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يَخْلَق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجنّ لمّا سمعته أن قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ... (الجن : ١ ، ٢) . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم»[٦٣] .

١٥ - ١٧ - إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا .

إنهم هؤلاء الذين خُلقوا من ماء دافق ، يمكرون مكرًا شديدًا ، ويتآمرون على إطفاء نور القرآن ، والله سبحانه يقابل كيدهم وتآمرهم بما يحبطه ويبطله ، وشتان بين عمل الإنسان وعمل الواحد الديان ، فالمعركة ذات طرف واحد ، وإن صورت ذات طرفين لمجرد المشاكلة ، إنهم يكيدون .. وأنا الله أكيد كيدًا . أنا المنشئ المبدئ الهادى ، الحافظ المعيد ، المبتلى القادر القاهر ، خالق السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، أنا الله أكيد كيدًا ، وفى هذا تهديد ووعيد للكافرين ، وبشارة للمؤمنين بأن الله معهم يدبر أمرهم ، ومن وجد الله وجد كل شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء ،وإذا كان الله معنا فمن علينا ؟

فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا . لا تستعجل نزول العذاب بهم ، ولا تستبطئ نهايتهم ، بل أمهلهم قليلاً ، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال .

وفى الآيات إيناس للنبى ﷺ وللمؤمنين ، وبعث للطمأنينة فى قلوبهم ، وتأكيد لهم بأن عناية الله ترعاهم ، وأن كيد الكافرين ضعيف ، وأن العاقبة للمتقين .

قال تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

## مقاصد السورة

١ – إثبات حفظ الله للإنسان ورعايته له .

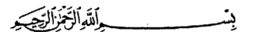
٢ – إقامة الأدلة على أن الله قادر على بعث الخلق مرة أخرى .

٣ – إن القرآن منزل من عند الله ، وإن محمدًا ﷺ رسول الله .

٤ – تهديد الكافرين بالعذاب والنكال .

★ ★ ★

## القسم على أن لكل نفس حافظا من الملائكة يراقبها



﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**الطارق :** كل آتٍ ليلاً ، ومنه النجوم لطلوعها ليلاً ، والطارق فى الأصل : اسم فاعل من الطرق ، بمعنى الضرب بوقع وشدة يُسمع لها صوت .

**النجم الثاقب :** المضىء المتوهج ، أو المرتفع العالى ، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، والمراد به كل نجم ، أو الثريا .

**إن كل نفس :** ما كل نفس ، وهذه الجملة جواب القسم .

**لمّا عليها :** إلاّ عليها .

**حافظ :** رقيب ، وهو الله أو الملائكة تحفظ عملها من خير وشرّ .

**دافق :** مدفوق ومصبوب بدفع وسرعة .

**يخرج من بين الصلب :** الظهر ، أو فقرات الظهر (النخاع الشوكى فى ظهر الرجل ثم ينصبّ إلى عروق فى البيضتين) .

**والترائب :** عظام صدر المرأة .

**رجعه :** إعادة خلقه بعد فنائه وموته .

**تبلى :** تختبر وتكشف ، والمراد : تظهر المكنونات .

السـرائـر : ضمائر القلوب ، وما يستر فيها من العقائد والنيّات ، جمع سريرة .

فـمـالـه : ما لمنكر البعث وهو الإنسان الكافر .

مـن قـوة : يمتنع بها من العذاب .

ولا نـاصـر : ينصره ويدفع عنه السوء .

**التفسير :**

١ – وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ .

أُقسم بالسماء وأُقسم بالطارق الذى يطرق ليلاً ، وهو النجوم والكواكب تظهر بالليل وتختفى بالنهار ، وقد أقسم الله بالشمس والقمر والفجر ، والليل والضحى ، والنجوم والرياح ، وكلها مظاهر تدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

٢ – وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ .

ما أعلمك وما أخبرك ما الطارق ؟ وهو استفهام يراد به التفخيم والتعظيم ، والإشارة إلى أنّ رفعة قدره ، وعلو منزلته ، لا تصل إلى معرفتها عقول الخلق ، فلابد من تلقّيها من العليم الخبير .

٣ – ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ .

النجم الذى يثقب الظلام بضوئه ، ونهتدى به فى ظلمات البرّ والبحر ، وتُعرف به أوقات الأمطار ، وهو الثريا عند الجمهور ، والظاهر أن المراد به جنس النجم الذى يُهتدى به فى ظلمات البرّ والبحر .

ويؤيِّد ذلك ما جاء فى صحيح البخارى : نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله طروقًا[٦٤] . أى : أن يأتيهم ليلاً فجأة يتخوَّنهم ، أى يكتشف خيانتهم أو استقامتهم .

وفى حديث آخر مشتمل على الدعاء : «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار ، إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»[٦٥] .

٤ – إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أى مهيمن ورقيب وهو الله تعالى ، كما فى قوله سبحانه : وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا . (الأحزاب : ٥٢) .

وقيل : معنى حَافِظٌ . الملائكة الكرام الذين يحفظون الإنسان من النوائب والمصائب ، ويسجلون عليه أعماله ، خيرها وشرّها .

كما فى قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ . (الانفطار : ١٠ ، ١١) .

قال ابن كثير :

أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات . اهـ .

قال تعالى : لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ... (الرعد : ١١) .

٥ ، ٦ - فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ .

فليتأمَّل الإنسان الكامل العقل ، الذى خلقه الله بشرًا سويًّا ، له للنظر عينان ، وللبطش يدان ، وللمشى رجلان ، وله لسان وشفتان ، وله عقل وفهم وفكر ، وإرادة واختيار ، من أى شىء خُلق هذا الإنسان ؟

خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ .

خُلق من منى الرجل والمرأة ، من ماء متدفق بشدّة وشهوة ، ينتقل من الرجل إلى المرأة ، فيتم تلقيح البويضة ، وتتحول النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة ثم إلى عظام ثم تكسى العظام لحمًا ثم ينشئه الله خلقًا آخر ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ . (المؤمنون : ١٤) .

٧ - يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ .

يخرج المنىّ من ظهر الرجل فى النخاع الشوكى الآتى من الدماغ ، ومن بين ترائب المرأة ، أى عظام صدرها ، أو موضع القلادة من الصدر ، والولد يتكون من اجتماع ماء الرجل وماء المرأة ، ثم يستقر الماء المختلط فى الرَّحم ، فيتكون الجنين بإرادة الله تعالى .

قال تعالى : وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ... (الحج : ٥) .

٨ - إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ .

إن الله الخالق الذى خلق الإنسان من ماء مهين ضعيف ، فجعل من الماء بشرًا وصهرًا ، وسوَّاه إنسانًا كاملاً ، هو سبحانه قادرٌ على إعادته للحياة بعد الموت ، والإعادة أهون من البدء .

٩ - يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ .

ٱلسَّرَآئِرُ . جمع سريرة ، وفى يوم القيامة يصير المختبئ ظاهرًا ، والنيَّات والخفايا ظاهرات مكشوفة ، ويُحشر الناس حفاةً عراةً غُرْلاً ، كما ولدتهم أمَّهاتهم ، ويجتمع الأولون والآخرون .

كما قال سبحانه وتعالى : وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . (الكهف : ٤٧) .

وقد جاء كل إنسان مجردًا من حشمه وخدمه وحاشيته .

قال تعالى : إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا . (مريم : ٩٣ - ٩٥) .

**قال الرازى فى تفسيره الكبير :**

وكيفية دلالة المبدأ على المَعَاد : أنَّ حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة فى بدن الوالدين ، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنسانًا سويًّا ، فإنه بعد موته وتفرّق أجزائه لابدّ وأن يقدر على جمع تلك الأجزاء ، وجعلها خلقًا سويًّا .

١٠ - فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ .

فما للإنسان حين بعثه للحساب والجزاء من قوة ذاتية فى نفسه يمتنع بها من عذاب الله ، ولا ناصر ينصره فينقذه مما نزل به ، ولا ينقذه حينئذ إلا عمله الصالح الذى عمله فى الدنيا .

وتظهر فى السورة يد العليم الخبير ، تحرِّك الإنسان من نطفة إلى مخلوق سوىّ . وتذكره بالمرجع والمآب يوم القيامة ، وأنه لا مخرج له ولا مهرب ، ولا قوة عنده ولا ناصر ينصره ، فالملك يومئذ لله الواحد القهار .

* * *

## القسم على صدق القرآن ورسالة الإسلام

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾

### المفردات :

**ذات الرجع :** المطر لرجوعه إلى الأرض .

**ذات الصدع :** النبات الذى تنشق عنه الأرض .

**لقول فصل :** فاصل بين الحق والباطل .

**أكيد كيدا :** أجازيهم على فعلهم بالاستدراج .

**فمهّل الكافرين :** فلا تستعجل بالانتقام منهم .

**أمهلهم رويدا :** إمهالاً قريبًا أو قليلاً حتى يأتيهم العذاب .

### تمهيد :

فيما سبق لفت القرآن نظر الإنسان إلى خلقه وإعادته ، وهنا أعاد القسم بالسماء التى تحمل السحاب ، وينزل منها المطر الذى ينزل إلى الأرض ذات النبات ، الذى يصدع الأرض ويشقّها ، إن القرآن جدّ لا هزل فيه ، إنه يحمل دعوة ومنهجًا وسلوكًا ، وتكوين أمّة ، وإحياء دين ، ثم توعّد الكافرين بأنهم فى قبضة القدرة الإلهية ، وسيلقون الجزاء العادل من الله فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معًا .

### التفسير :

١١ - وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ .

الرَّجْعِ . المطر ، فالشمس ترسل أشعتها على المحيطات والبحار ، فيصعد البخر إلى السماء ، ويتكون السحاب الذى يتساقط مطرًا ، ويرجع إلى الأرض بين الفينة والفينة ، ولولا المطر لهلك الجميع .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

١٢ - وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ .

وأُقسم بالأرض ذات الصدع ، وهو الانشقاق عن النبات الذى يخرج منها ، والقرآن يلفت النظر إلى آثار القدرة الإلهية فى تيسير المطر ، وتيسير النبات لاستمرار الحياة .

وقبل قليل لفتت الآيات نظرنا إلى خلق الإنسان من الماء الدَّافق ، وقدرة الله على إحيائه فى الدنيا ، وبعثه يوم القيامة ، ونجد هناك تقابلا وتلاقيا بين حياة الإنسان من مَنِىٍّ يُمنى وإعادته يوم القيامة ، وبين إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض بالنبات .

١٣ - إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ .

إن القرآن الذى أُنزل على محمد ﷺ لقول فصل ، فصل بين الحق والباطل ، وهو فرقان يفرق بين الكفر والإيمان ، والضلال والهدى ، وظلام الجاهلية ونور الإسلام .

١٤ - وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ .

ليس فى القرآن شائبة لعب ولا باطل ، إنه كتاب أُحكمت آياته ، إنه دستور الحياة ، إنه منهج عادل ، إنه طريق واضح ، ودليل كاشف للإيمان والهداية ، وبيان إلهى لنا عن الكون والحياة ، والمبدأ والمَعَاد ، ونور الإسلام وطريق الهدى ، وتشريعات الله وآدابه لعباده ، وما تشتمل عليه الدنيا والآخرة ، وقصص السابقين ، والحكم بين الحاضرين ، والحساب يوم الدين ، وهو حكم عربى ، وبيان إلهى ، كله صدق وجدّ ، ليس هزلاً أو عبثًا .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ . (الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

١٥ - إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا .

إنّ أعداء هذا الدين يتربَّصون به ، ويبيتون المكر والكيد له ولرسوله ، وهذا جهد الإنسان الضعيف .

١٦ - وَأَكِيدُ كَيْدًا .

وأنا أدبر أمرًا لحفظ هذا الدين وحفظ هذا القرآن ، وشتَّان بين تدبير المخلوق الضعيف ، المحدود النظر ، وبين تدبير الخالق الرازق القادر ، الفعَّال لما يريد ، وفعله تعالى حكيم ، لكنَّه سمَّاهُ كيدًا من باب المقابلة لأمرهم وكيدهم .

كما قال تعالى : وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... (الشورى : ٤٠) .

ومثل قوله تعالى : وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

أى : هم يدبِّرون أمرًا لصدّ الناس عن دين الله ، وأنا أدبِّر أمرًا لإزاحتهم ودحض كيدهم ، إمّا بعقوبتهم وقتلهم يوم بدر ، واستمرار هزائمهم حتى فُتحتْ مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وإما بعقوبتهم فى الآخرة ، ودخولهم نار جهنم خالدين فيها أبدًا .

١٧ - فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا .

فاتركهم قليلاً أو كثيرًا ولا تهتم بهم ، وانصرف لدعوتك ورسالتك ، فهم فى قبضتنا وتحت تصرفنا ، لكنّ الحكمة الإلهية تمهل ولا تهمل .

وتلمح فى الآية إيناس الرسول ﷺ وتطمينه ، وفيها تهديد ووعيد بأن افعلوا ما بدا لكم ، فأنتم تحت بصر الله وسمعه ، فلكم عقوبة حاسمة فى الدنيا أو فى الآخرة ، وكل آتٍ قريب .

كما قال تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

وقد صدق الله وعده فنصر رسوله ﷺ ، وتوعّد بنصر الحق إلى يوم الدين .

قال تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ . (غافر : ٥١) .

★ ★ ★

## دعاء النصر

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم احفظ علينا سمعنا وبصرنا وسائر جوارحنا ، واجعله الوارث منّا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا ، يا جار المستجيرين ، يا أمان الخائفين ، يا ملاذ المضطرين ، اللهم رب الأرباب ، مسبب الأسباب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا رب العالمين ، اللهم ارفع راية الإسلام ، اللهم انصر المسلمين فى كل مكان ، اللهم انصر إخواننا فى فلسطين ، اللهم ارفع رايتهم ، اللهم ثبّت أقدامهم ، اللهم أصلح ذات بينهم ، اللهم ألِّف بين قلوبهم ، اللهم أنزل عليهم نصرك الغالب ، وتوفيقك العظيم ، اللهم ردَّ المسلمين إليك ردًّا جميلاً ، اللهم اجعلنا أهلاً لنصرك ومعونتك ، اللهم انصرنا على من ظلمنا ، اللهم اجعلنا من جنود الإسلام ، ومن خُدَّام القرآن ، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

وكان الفراغ منه صباح يوم الجمعة ٢٤ من صفر ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١/٥/١٨ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

★ ★ ★


تفسير سورة الأعلى

# أهـــداف ســـورة الأعلى

(سورة الأعلى مكية، وآياتها ١٩ آية ، نزلت بعد سورة التكوير)

وهى أنشودة سماوية فيها تسبيح بحمد الله ، وبيان دلائل قدرته ، وإثبات الوحى الإلهى، وتقرير الجزاء فى الآخرة . وبيان الوحدة بين الرسالات السماوية ، واشتمال الرسالة المحمدية على اليسر والسماحة ، وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ووراءها مجالات بعيدة المدى .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما[٦٦] .

وفى رواية للإمام أحمد، عن الإمام على رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يحب هذه السورة : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى[٦٧] .

## مع آيات السورة

١ – ٥ – سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ .

التسبيح هو التمجيد والتنزيه ، واستحضار معانى الصفات الحسنى لله ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها ، وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور .

**يقول الإمام محمد عبده :** واسم الله هو ما يمكن لأذهاننا أن تتوجه إليه به ، والله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم ، أى تنزيهه عن أن يكون فيه ما لا يليق به من شَبَهِ المخلوقات أو ظهوره فى واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكًا أو ولدًا أو ما ينحو هذا النحو ، فلا نوجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق كل شىء ، المحيط علمه بدقائق الموجودات[٦٨] .

والخطاب فى السورة موجه إلى رسول الله ﷺ ، وفيه من التلطف والإيناس ما يجلُّ عن التعبير ، وقد كان ﷺ ينفذ هذا الأمر فور صدوره .

وحينما نزل قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . (الواقعة : ٧٤) . قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» ، أي قولوا في الركوع : سبحان ربي العظيم ، ولمَّا نزل قوله تعالى : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . قال النبي ﷺ : «اجعلوها في سجودكم»[٦٩] ، أي قولوا في السجود: سبحان ربي الأعلى .

ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ . الذي خلق كل شيء فسواه وأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه بلا تفاوت ولا اضطراب ، كما تراه يظهر لك في خلق السماوات والأرض .

وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ . أي: قدر لكل حي ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع بما فيه منفعة له ، ووجه الهرب مما يخشى غائلته .

«وكل شيء في الوجود سَوِيٌّ في صنعته ، كامل في خلقته ، معد لأداء وظيفته ، مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق ، وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التنسيق ، ميسرة لكي تؤدي في تجمعها دورها الجماعي ، مثلما هي ميسرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي»[٧٠] .

جاء في كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) ما يأتي :

إن الطيور لها غريزة العودة إلى الوطن ، فعصفور الهزار الذي عشش ببابك يهاجر جنوبًا في الخريف ، ولكنه يعود إلى عشه في الربيع التالي ، وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم الطيور إلى الجنوب ، وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار ، ولكنها لاتضل طريقها ، والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يُرى ، وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل ، وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح ، والبومة تستطيع أن ترى الفأر الدافئ اللطيف وهو يجري على العشب البارد مهما كانت ظلمة الليل ، ونحن نقلب الليل نهارًا بإحداث إشعاع في تلك المجموعة التي نسميها الضوء .

«والكلب بما أوتي من أنف فضولي ، يستطيع أن يحس الحيوان الذي مر»[٧١] .

وسمك (السلمون) يمضي سنوات في البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به ، والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهير الذي ولد فيه .. فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ؟!

إنه الله: ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ .

وقد سجل البشر كثيرًا من إبداع الخلقة ، فى عوالم النبات والحشرات والطيور والحيوان ، فى هذا الوجود المشهود الذى لا نعرف عنه إلا أقل القليل ، ووراءه عالم الغيب بما فيه من كمال وجلال ، فسبحان الله الخلاق العظيم .

وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ . والمرعى كل نبات ، وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله ، فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا ، فالله خلق هذه الأرض ، وقدَّر فيها أقواتها لكل حىٍّ يدب فوق ظهرها أو يختبئ فى جوفها ، أو يطير فى جوها ، والنبات يتحايل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده، دون رغبة من جانبهم ، كالحشرات التى تحمل اللقح من زهرة إلى أخرى ، والرياح ، وكل شىء يطير أو يمشى ، ليوزع بدوره .

فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ . والغثاء: الهشيم ، أو الهالك البالى ، والأحوى : الذى يميل لونه إلى السواد ، فهو سبحانه قد أحكم كل شىء خلقه ، ما يبقى وما يفنى .

«فنحن مأمورون أن نعرف الله جل شأنه ، بأنه القادر العالم الحكيم ، الذى شهدت بصفاته هذه آثاره فى خلقه ، التى ذكرها فى وصف نفسه فى قوله : ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ... إلخ . وألا ندخل فى هذه الصفات معنى مما لا يليق به، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء أو عرَّفوه بما يشبه خلقه ، وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات ، ليرشدنا إلى أن مبلغ جهدنا ، ومنتهى ما تصل إليه عقولنا ، أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن تتوجه عقولنا إليها إلا بما نلحظ من هذه الصفات التى تقوم عليها الدلائل ، وترشد إليها الآيات ، لهذا أمرنا بتسبيح اسمه تكليفًا لنا بما يسعه طوقنا، والله أعلم»[٧٢] .

٦ ، ٧ – سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ...

سننزل عليك كتابًا تقرؤه ، ولا تنسى منه شيئًا بعد نزوله عليك .

وهى بشرى للنبى ﷺ ، تريحه وتطمئنه علىَ هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه ، الذى كان يندفع بعاطفة الحب له ، وبشعور الحرص عليه ، وبإحساس التبعة العظمى فيه ، إلى ترديده آيةً آيةً وراء جبريل ، وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفًا منه ، حتى جاءته هذه البشائر المطمئنة بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه .

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ... أن تنساه بنسخ تلاوته وحكمه ، أما ما لا ينسخ فإنه محفوظ فى قلبك .

إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ . وكأن هذا تعليل لما مرَّ فى هذا المقطع من الإقرار والحفظ والاستثناء ، فكلها ترجع إلى حكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ، ويطلع على الأمر من جوانبه جميعًا ، فيقرر فيه ما تقتضيه حكمته المستندة على علمه بأطراف الأمر جميعًا .

٨ - وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ . أى نوفقك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها .

## يُسر الشريعة الإسلامية

يَسَّر الله القرآن للقراءة وللعمل بأحكامه ، وَيسَّر الشريعة ، وَيسَّر الأحكام وجعلها فى طاقة الناس ، ولا حرج فيها ولا عنت ، قال تعالى : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . (القمر : ٢٢) .

وقال سبحانه : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... (الحج : ٧٨) .

وقال تعالى : مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ... (المائدة : ٦) .

وقال تعالى : لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... (البقرة : ٢٨٦) .

وكان النبى ﷺ سهلاً سمحًا مؤلَّفًا محببًا ، وما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا فكان أبعد الناس عنه ، وكان سلوك النبى ﷺ وهديه يعبر عن اختيار اليسر ، وقلة التكلف فى اللباس والطعام والفراش وكل أمور الحياة ، فكان يلبس لكل موطن ما يناسبه ، فلبس العمامة والقلنسوة فى السلم، ولبس المغفر وغطى رأسه ووجهه بحلقات الحديد فى الحرب .

جاء فى (زاد المعاد) لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن قيم الجوزية عن هديه ﷺ فى ملابسه والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ، التى سنَّها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها ، وهى أن هديه فى اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس من الصوف تارة ، والقطن تارة ، والكتان تارة ، ولبس البرود اليمانية والبرد الأخضر ، ولبس الجبة والقباء ، والقميص والسراويل ، والإزار والرداء ، والخف والنعل ، وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة ...

وقال عن هديه فى نومه وانتباهه : كان ينام على فراشه تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود .

وقال فى هديه فى الطعام: وكذلك كان هديه ﷺ وسيرته فى الطعام ، لا يردّ موجودًا ، ولا يتكلف مفقودًا ، فما قرب إليه شىء من الطيبات إلا أكله ، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

فقد أكل الحلوى والعسل – وكان يحبهما – وأكل الرطب والتمر ، وأكل الثريد بالسمن، وأكل الجبن ، وأكل الخبز بالزيت ، وأكل البطيخ بالرطب ، وأكل التمر بالزبد – وكان يحبه – ولم يكن يرد طيبًا ولا يتكلفه ، بل كان هديه أكل ما تيسر ، فإن أعوزه صبر ...

والأحاديث النبوية التى تحض على اليسر والسماحة ، والرفق فى تناول الأمور كثيرة جدًا يصعب تقصيها ، منها قوله ﷺ : «إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[٧٣] . أخرجه البخارى .

«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم»[٧٤] . أخرجه أبو داود.

«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت[٧٥] لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»[٧٦] . أخرجه البخارى.

وفى التعامل يقول ﷺ : «رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع ، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[٧٧] . أخرجه البخارى.

«المؤمن يألف ويؤلف»[٧٨] . أخرجه الدارقطنى .

«إن أبغض الرجال إلى الله الألد[٧٩] الخصم»[٨٠] . أخرجه الشيخان .

وسيرة الرسول ﷺ كلها صفحات من السماحة واليسر ، والهوادة واللين ، والتوفيق إلى اليسر فى تناول الأمور جميعًا .

اختلف معه أعرابى ، فأخذ النبى ﷺ الأعرابى إلى بيته وزاده فى العطاء حتى رضى ، وأعلن عن رضاه أمام الصحابة أجمعين .

ولقد كان النبى ﷺ كريم النفس ، ميسرًا لحمل الرسالة فى أمانة ويسر ، ومودة ورحمة ، وعطف على الناس وحكمة .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

وقال سبحانه : لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (التوبة : ١٢٨)

وكان ﷺ رحمة مهداة ، فقد حارب لصد العدوان ، وتبليغ الدعوة ، ومنع الاضطهاد والفتنة عن الضعفاء والمستضعفين ، ومع ذلك كان آية فى الإنسانية فكان ينهى عن قتل النساء والأطفال ، وينهى عن

الغدر والخيانة ، ويحث على الوفاء بالعهد فى السلم والحرب ، ولا عجب فقد جمع المكارم والمحامد ، وصدق الله العظيم : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . (القلم : ٤) .

٩ – فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ . لقد يسره الله لليسرى، لينهض بالأمانة الكبرى ، وليذكر الناس، فلهذا أُعد ، ولهذا بُشر ، فذَكِّر حيثما وجدت فرصة للتذكير ، ومنفذًا للقلوب، ووسيلة للبلاغ .

**قال النيسابورى فى تفسير الآية :**

إن تذكير العالم واجب فى أول الأمر ، وأما التكرير فالضابط فيه هو العرف ، فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود ، فلهذا أردفه بالشرط حيث قال : فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ .[٨١] .

**وقال الإمام محمد عبده :** وليس الشرط قيدًا فى الأمر ، فقد أجمع أهل الدين – سلفهم وخلفهم – على أن الأمر بالتذكير عام ، نفعت الذكرى أم لم تنفع ، وعمله ﷺ شاهد على ذلك[٨٢] .

١٠ – سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ . ذلك الذى يستشعر قلبه التقوى فيخشى غضب الله وعذابه ، فإذا ذُكِّر ذَكَر ، وإذا بُصِّر أبصر ، وإذا وُعِظ اعتبر .

١١ – ١٣ – وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ .

أى : ويبتعد عن هذه التذكرة المعاند المُصرّ على الجحود عنادًا واستكبارًا ، حتى مات قلبه وشقيت روحه ، فسيلقى النار الكبرى ، وهى نار جهنم ، وهى كبرى بالنسبة إلى نار الدنيا ، أى هى كبرى لشدتها ومدتها وضخامتها ، حيث يمتد بقاؤه فيها ، فلا هو ميت يجد طعم الراحة ، ولا هو حى فيحيا حياة السعادة ، تقول العرب لمن ابتلى بمرض أقعده : (لا هو حى فيُرجى ، ولا ميت فيُنعى) .

١٤ ، ١٥ – قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . قد أدرك الفَلَاح من تطهر من كل رجس ودنس ، وأيقن بالحق وسعد بالإيمان ، فهو فى فلاح وسعادة بذكره اسم الله ، وبصلاته وخشوعه لله ، واعتماده عليه ، فهو فى فلاح فى الدنيا لأنه عاش موصولاً بالله ، مؤديًا للصلاة ، مراقبًا مولاه ، وهو فى فلاح فى الآخرة بنجاته من النار الكبرى ، وفوزه بالنعيم والرضا .

١٦ ، ١٧ – بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . بل أنتم – لقصر أنظاركم – تؤثرون الفانية على الباقية ، والحال أن الآخرة أفضل من الدنيا فى نوعها ، وأبقى فى أمدها ، ولو كانت الدنيا من ذهب

يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لوجب إيثار ما يبقى على ما يفنى ، فكيف الحال والدنيا من خزف يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى ؟!

١٨ ، ١٩ - إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ . أصول هذه الشريعة العادلة ، وقواعد المؤاخذة والحساب ، وما ورد فى هذه السورة من أصول العقيدة الكبرى ، هو الذى فى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ، فدين الله واحد ، وإنما تتعدد صوره ومظاهره .

وقصارى ذلك أن الرسول ﷺ ما جاء إلا مذكرًا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين ، وداعيًا إلى وجهها الصحيح ، الذى أفسده كر الغداة ومر العشى ، كما طمس معالمه اتباع الأهواء ، واقتفاء سنن الآباء والأجداد .

## مقاصد سورة الأعلى

١ - تسبيح الله وتنزيهه وبيان قدرته .

٢ - وعد الرسول ﷺ بحفظ القرآن وعدم نسيانه .

٣ - وعده ﷺ بالتوفيق إلى الطريقة السهلة الميسرة فى الدعوة .

٤ - تكليفه ﷺ أن يذكر الناس .

٥ - الناس صنفان أمام الدعوة :

(أ) مستجيب ناج (ب) مُعرض هالك

٦ - قواعد العدل وأصول الشريعة متشابهة فى القرآن وفى الكتب السماوية السابقة .

★ ★ ★

## تنزيه الله تعالى وقدرته وفضله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**سبح اسم ربك :** نزّهه ومجِّده تعالى عما لا يليق به .

**خلق :** أوجد كل شيء بقدرته .

**فسوى :** بين خلقه فى الإحكام والإتقان .

**قدر :** جعل الأشياء على مقادير مخصوصة .

**فهدى :** فوجّه كل واحد منها إلى ما ينبغى له .

**أخرج المرعى :** أنبت العشب رطبًا غضًّا .

**فجعله غثاء :** يابسًا هشيمًا من بعدُ كالغثاء ، والغُثاء ما يحمله السيل من البالى من ورق الشجر مخالطًا زَبَدَه .

**سنقرئك :** ما نوحى إليك بواسطة جبريل عليه السلام .

**فلا تنسى :** أبدًا من قوة الحفظ والإتقان .

**نيسّرك لليسرى :** نوفقك للطريقة اليسرى فى كل أمر .

**التفسير :**

**١ – سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى .**

نزِّه ربك الأعلى عما لا يليق به من الأوصاف ، فى ذاته وأفعاله وأسمائه ، فالله تعالى متَّصف بكل كمال ، منزَّه عن كل نقص ، منزه عن الشريك والمثيل والنظير : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

هو سبحانه أولٌ بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، وظاهر فى آثار قدرته ، وخلْق الكون ، وتسخير الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهو باطنٌ فلا تدركه العيون ، ولا تحويه الظنون .

قال تعالى : لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . (الأنعام : ١٠٣) .

إنها نعمة كبرى أن يسمح الإله الأعلى للعبد الفانى بالصلاة وبذكر الله ، حيث يذكرُ اللهُ مَن ذَكَره ، ويتفضل الله على العابدين والذاكرين والمتبتلين ، بفضله وحنانه وبرّه وإنعامه ومودته : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا . (مريم : ٩٦) .

**٢ – ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ .**

الذى أحسن خلق الخلائق على غير مثال سابق ، وجعلها متساوية فى الإحكام والإتقان ، حسبما اقتضته حكمته ، ومنح كل مخلوق ما يناسب طبيعته ووظيفته ، صنعة العليم الخبير : ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ . (السجدة : ٧) .

وقال تعالى : وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا . (الفرقان : ٢) . ونظّم وأبدع وأكمل .

وقال تعالى : مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ... (الملك : ٣) .

**٣ – وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ .**

جعل الأشياء مقدرة على مقادير مخصوصة ، فى أجناسها وأفرادها وأفعالها وآجالها ، وهَدَى كلاًّ منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغى له طبعًا أو اختيارًا ، ولو تأملت فى خلق الإنسان وتدرّجه فى بطن أمّه ، وتدرُّجه فى حياته من الطفولة إلى الشيخوخة ، وسلوكه وعقله وجهده وعمله ، لأدركت معنى : قَدَّرَ فَهَدَىٰ ، وكذلك النبات ونموّه وجذب الحشرات إليه ، لتكون من عوامل التلقيح من غير قصد منها ، وتطوّر النبات

والحيوان والطيور، والشموس والأقمار والكواكب، وقد يسَّر لكل مخلوق وظيفته، وأودع فيه بالإلهام حركته، وصدق الله العظيم: قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ. (طه: ٤٩، ٥٠).

فهو الخالق، وهو الملهم، وهو الميسِّر لكل مخلوق أداء وظيفته ورسالته فى هذه الحياة.

٤، ٥ – وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ.

وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ.

هو الذى أخرج النبات والبرسيم، والحب والزيتون والنخل، وكل هذه مرعى للحيوان أو الإنسان أو الطيور أو الزواحف أو غير ذلك، فالذُّرة إذا كانت صغيرةً فهى مرعى للحيوان، وإذا كانت حبًّا فهى مرعى للإنسان، وقد أودع الله فى الأرض أرزاقها ليتمّ إعمار هذا الكون ورعايته وحفظه.

فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ.

فجعله يابسًا جافًا، و أَحْوَىٰ. أسود يضرب إلى الخضرة.

إنّ حركة النبات عند بروزه صغيرًا كأنه أطفال صغار، ثم نموّه واخضراره وازدهاره، ثم اصفراره ونهايته، كل هذا يذكّر الإنسان بحياته التى تمرّ بالطفولة إلى الشباب، ثم إلى الكهولة والموت، فلكلّ بداية نهاية، وكذلك الدنيا.

قال تعالى: وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا. (الكهف: ٤٥).

والمقصود من الآيات بيان دلائل القدرة، وأنواع النّعم التى يغمرنا الله بها، وتستحق النظر والتأمّل وتسبيح العلى القدير.

قال ابن كثير:

وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ. أى: من جميع صنوف النباتات والزروع.

فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ. قال ابن عبّاس: هشيما متغيّرا. ا هـ.

٦ ، ٧ - سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ .

سنجعلك قارئًا للقرآن الكريم خلف جبريل فلا تنساه أبدًا ، وهذه هدايةٌ خاصة بالنبىّ ﷺ ، وإحدى معجزاته ﷺ أن يكون أميًا ، لم يقرأ كتابًا ، ولم يكتب كتابًا ، ثم يحفظ القرآن الكريم بعد تبليغ جبريل ، ويظلّ القرآن فى قلبه ولسانه كما أُنزل ، هذه معجزة إلهية للنبى ﷺ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ . (القيامة : ١٦ - ١٩) .

لقد تكفل الله بجمع القرآن الكريم فى قلب النبى ﷺ ، كما تكفّل بقراءة القرآن سليمًا تام الضبط على لسانه ليكون قدوة عملية للصحابة وللمسلمين جيلاً بعد جيل ، كما تكفّل الله ببيان المعنى للرسول ﷺ ، فيلهمه إلهامًا بالمراد من الآيات حتى يقوم النبى ﷺ بنقل ذلك للأمة .

قال تعالى : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (النحل : ٤٤) .

**وخلاصة المعنى :**

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ . سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم ، فتحفظه فى صدرك ولا تنساه ، إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ... لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه .

**وقال الإمام الشوكانى :**

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ .

سنجعلك قارئًا ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته ﷺ الخاصة ، بعد بيان الهداية العامة ، وهى هدايته ﷺ لحفظ القرآن .

وقوله تعالى : إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ... استثناء مفرّغ من أعم المفاعيل ، أى : لا تنسى مما تقرؤه شيئًا من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه ، وهو لم يشأ سبحانه أن يُنسى النبى ﷺ شيئًا .

إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ .

هو سبحانه عليم بما يجهر به العباد ويعلنونه ، وهو عليم بما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شىء .

٨ - وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ .

نسهل عليك أفعال الخير، ونُشرع لك شرعًا سهلاً سمحًا، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر.

قال تعالى: يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ... (البقرة: ١٨٥).

وقال سبحانه وتعالى: مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ... (المائدة: ٦).

وقد كان ﷺ نموذجًا للتيسير، قال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[٨٣].

ونلمح أن فى الآيات تلطفًا وتكريمًا وإيناسًا للرسول ﷺ، حيث بشَّره ببشارتين:

الأولى: أن يكون حافظًا للقرآن الكريم فلا ينساه.

الثانية: توفيقه ﷺ إلى الشريعة اليسرى، وإلى الأخلاق الكريمة، وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر فى كل أحواله.

★ ★ ★

## التذكير وتزكية النفس والعمل للآخرة

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

**المفردات:**

**التذكير:** أن يُنبَّه الإنسان إلى شيء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه.

**من يخشى:** من يخشى الله، وهم صنفان: مذعن معترف بالله وببعثه للعباد للثواب والعقاب، ومتردد فى ذلك.

**الأشقى:** المعاند المصرّ على الجحود والإنكار، الذى تمكّن الكفر من نفسه.

**يصلى النار الكبرى :** يدخل جهنم ، أو يقاسى حرّها ، والنار الكبرى هى نار الآخرة ، لأن نار الدنيا جزء من سبعين جزءًا من نار الآخرة ، وقيل : المراد بالنار الكبرى : أسفل دركات الجحيم .

**لا يمـــوت :** أى فيستريح .

**ولا يحـــيـــا :** أى حياة طيبة . قال الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياةً لها طعْمُ

**أفـــلـــح :** فاز ونجا .

**تـــزكـــى :** تطهر من الكفر والمعاصى

**ذكــر اســم ربــه :** ذكر فى قلبه صفات ربّه من الكبرياء والجلال .

**فصـــلـــى :** فخشع ، وخضعت نفسه لأوامر بارئه .

**إن هـــــذا :** المذكور فى الآيات الأربع السابقة .

**التفسير :**

٩ – فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ .

ذكّر من تنفع الذكرى معه ، وأدِّ رسالتك حيث وجدت أرضًا طيبة تصلح للغراس ، وسِرْ فى دعوتك ورسالتك ، اقرأ القرآن وبلّغ عن الرحمن ، ولن يخلوَ جيل ولن تخلو أرض ممن يستمع وينتفع .

لقد أرسله الله رحمة للعالمين وختم به الرسالات ، وجعله صاحب الشريعة الخاتمة ، وأنزل عليه القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فإذا أدّى واجبه فى الدعوة فقد بلغ الرسالة وأدّى الأمانة .

وليس عليه أن يحزن على أهل مكة ، ولا أن يبخعه الهمّ والحزن بسبب المكذبين ، أى فاتركهم وشأنهم وانشغل بمن ينتفع بهذا الكتاب ، ويكون التذكير وسيلة لإيمانه وهدايته .

قال تعالى : فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ . (ق: ٤٥) .

أما من طُبع على قلبه فلم تنفذ إليه الهداية فاتركه وشأنه .

قال تعالى : فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ . (النجم ٢٩، ٣٠) .

وقيل : إنّ المعنى : ذكّر إن نفعت الذكرى أو إن لم تنفع .

والمقصود استبعاد النفع بالنسبة لهؤلاء المذكورين ، رؤوس الكفر والضلال بمكة .

والمطلوب تذكير الجميع سواء انتفعوا بالذكرى أو لم ينتفعوا ، كأنه قيل : افعل ما أمرت به لتؤجر وإن لم ينتفعوا به ، وفيه تسلية له ﷺ .

ومنه قوله تعالى : وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ... (النور : ٣٣) .

أى : لا تكرهوا فتياتكم على البغاء مطلقا ، وإن أردن تحصنا من باب أولى ، حيث إن الآية نزلت فى عبد الله بن أبىّ بن سلول كبير المنافقين ، وكان يُكْره جواريه على البغاء ليستفيد من أموالهنّ ، وكنّ كارهات لذلك راغبات فى التّطهر .

وعند التأمل نجد أن الأصل تبليغ الدعوة لأوّل مرّة ، أما تكرير الدعوة فيترك ذلك لفقه الداعية وتوقعه للقبول .

**قال ابن كثير :**

ومن هنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله .

أخرج مسلم ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أنت بمحدّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة»[٨٤] .

وروى الديلمى فى مسند الفردوس ، عن على ، كما روى البخارى موقوفًا : «حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله» [٨٥] .

وقال عيسى عليه السلام : لا تضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، وكن كالطبيب يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع .

١٠ - سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ .

أى : إنما ينتفع بتذكيرك من يخشى الله ويخاف عقابه ، لأنه هو الذى يتأمّل فى كل ما تذكره له ، فيتبيّن له وجه الصواب ، ويظهر له سبيل الحقّ الذى يجب التعويل عليه .

**قال الإمام فخر الدين الرازى :**

إن الناس فى أمر المَعَاد ثلاثة أقسام : القاطع بصحّته ، والمتردد فيه ، والجاحد له .

والفريقان الأوّلان ينتفعان بالتذكير والتخويف ، وكثير من المعاندين إنما يجحدون باللسان فقط ، فتبيّن أن أكثر الخلق ينتفعون بالوعظ ، والمعْرِض نادر ، وترك الخير الكثير لأجل الشرّ القليل شر كثير ، فلهذا وجب تعميم التذكير ، وإن كان لاينتفع بالتذكير إلا البعض الذين علم الله انتفاعهم به ، ونحن لا نعلمهم ، فبعد أن أمر الله نبيّه ﷺ بالتذكير ، بيّن فى قوله : سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ . الذى تنفعه الذكرى من هو . اهـ .

١١ ، ١٢ – وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ .

يبتعد عن الذكرى فلا يرقّ لها ولا يستفيد بها ، ٱلْأَشْقَى . أى : الأشقى مطلقا ، الذى غلبت عليه الشقوة ، فلا يتفتح قلبه لخير ، ولا يرغب فى معرفة الهدى أو الطريق السليم .

فهو ٱلْأَشْقَى . فى الدنيا ، حيث يعيش قلقا متكالبا على ما فى الأرض ، وهو ٱلْأَشْقَى . فى الآخرة لدخوله جهنم .

ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ .

الذى يصطلى بنار جهنم ، وفيها ألوان العذاب ، وألوان المهانة ، وألوان الآلام ، وهم خالدون فيها خلودًا أبديا سرمديا ، لا يخفف عنهم العذاب ، وليس لهم شفيع ولا نصير .

١٣ – ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ .

فهو لا يموت فيجد طعم الراحة ، ولا يحيا حياة كريمة ، ولا يخفف عنه العذاب ، ولا يُجاب رجاؤه ، ونحو الآية قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر: ٣٦) .

والعرب تقول لمن أصيب بمرض أقعده : (لا هو حى فيُرجى ، ولا ميت فيُنعى) .

١٤ – قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ .

قد فاز من طهّر نفسه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن .

١٥ – وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ .

أى : كبّر تكبيرة الإحرام ، وأدى الصلوات الخمس ، وحافظ على الفرائض ، وحفّها بالنوافل .

وعن على رضى الله عنه :

تَزَكَّىٰ . تصدّق صدقة الفطر . (أى : أخرج زكاة الفطر فى آخر رمضان) .

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . كبَّر يوم العيد ، فصلّى العيد . اهـ .

وتظل الآيات عامة ، تشهد بالفلاح لكل من طهّر نفسه من عوامل السوء ، مثل الأثرة والحقد ، والحسد والأنانية ، وسما بنفسه إلى طاعة الله وذكره . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . أى : أدى الصلاة المكتوبة مع النوافل وقيام الليل ، وحرص على ذكر الله والدعاء والتبتل ، وحسن الصلة بالله ، فهذا قلبه حى مُسْتنير .

قال تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ... ( الزمر : ٢٢)

وقال ﷺ : «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح» ، قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة قال : «نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت ، ثم تلا قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ[٨٦] ...

١٦ ، ١٧ - بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ .

بل أنتم معشر البشر تؤثرون الدنيا العاجلة ، حيث شاهدتم أموالها ونساءها ، وقصورها ودورها ، وسائر أمورها ، وهى دنيا محدودة الأجل ، فهى دنيا وليست عليا .

وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ .

والآخرة خيرٌ ثوابًا وخيرٌ مردًا ، وهى دار الجزاء العادل ، فى جناتها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فالآخرة أفضل من الدنيا ، لأن نعيمها دائم باقٍ لا يفنى ، ولأنّ جزاء الآخرة عطاء من الله ، وعطاء الله أفضل وأكثر .

روى الإمام أحمد ، عن أبى موسى الأشعرى ، أن رسول الله ﷺ قال : «من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته ، ومن أحب آخرته أضرَّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[٨٧] .

١٨ ، ١٩ - إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ .

إن ما ورد فى هذه السورة من أصول العقيدة ، والدعوة إلى الخير ، والحق الأصيل العريق ، هو الذى ورد مثله فى الصحف الأولى التى أنزلها الله على الأنبياء والمرسلين ، وكانت صحف إبراهيم عشرًا ،

وصحف موسى عشرًا ، أنزلت عليه قبل التوراة . وكانت صحف موسى عبرًا كلّها ، وصحفُ إبراهيم أمثالاً كلّها .

وبذلك تلتقى الرسالات والنبوات على الحق الأصيل ، وهو توحيد الله تعالى ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والبر والخير والتقوى ، والطهر والعفاف والاستقامة ، والبعد عن الشرّ والآثام والموبقات ، مثل : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، والتولى يوم الزحف ، والربا والزنا واليمين الغموس ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين ، وأشباه ذلك .

اللهم تقبل منا ، واهدنا وأرضنا ، واختم لنا بالإيمان والإسلام ، آمين .

## حديث شريف

عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن صحف موسى ما كانت ؟ قال : «كانت عبرًا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل» .

تمّ بحمد الله تعالى تفسير سورة الأعلى .

★ ★ ★



# تفسير سورة الغاشية

# أهداف سورة الغاشية

(سورة الغاشية مكية ، وآياتها ٢٦ آية ، نزلت بعد سورة الذاريات)

وهى سورة قصيرة الآيات ، متناسقة الفواصل ، تطوّف بالقلب البشرى أمام الآخرة وأحوالها ، فأصحاب الجحيم يلقون أشد ألوان الألم والعذاب ، وأهل الجنة يتمتعون بألوان النعيم وصنوف التكريم ، ثم تعرض أمام الناظرين مشاهد الكون ، وآيات الله المبثوثة فى خلائقه ، المعروضة للجميع .

ثم تذكّر الناس بحساب الآخرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه فى نهاية المطاف ، كل ذلك فى أسلوب عميق الإيقاع ، هادئ ولكنه نافذ ، رصين ولكنه رهيب .

## مع آيات السورة

١ - الغاشية هى الداهية التى تغشى الناس بشدائدها ، وتغمرهم بأهوالها ، والمراد بها هنا يوم القيامة ، وقد سبق فى هذا الجزء وصف القيامة بالطامة والصاخة ، وسيأتى وصفها بالقارعة ، بما يناسب طبيعة التذكير والتهديد للمعاندين . والاستفهام هنا لتعظيم الأمر وتقريره ، أى : هل سمعت قصة يوم القيامة وما يقع فيه ؟

وعن عمر بن ميمون ، قال : مرَّ النبى ﷺ على امرأة تقرأ : هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ . فقام يستمع ويقول : «نعم قد جاءنى» .

والخطاب مع ذلك عام لكل من يسمع القرآن .

٢ - ٧ - إن وجوه الكفار فى هذا اليوم تكون ذليلة ، لما يظهر عليها من الحزن والكآبة ، وسوف يلقون تعبا وإرهاقا فى النار بسبب أعمالهم السيئة ، وسيدخلون النار المتأججة التى تلتهمهم ، وإذا عطشوا من شدة حرها ، وطلبوا ما يطفئ ظمأهم ، سقوا ، مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ أى : من ينبوع شديد الحرارة ، وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) . وليس لهم طعام فى النار إلا من ضريع ، والضريع : شجر ذو شوك لائط بالأرض ، فإذا كان رطبا سُمى بالشبرق ، وإذا جنى صار اسمه

الضريع ، ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام، والأكل منه لون من ألوان العذاب الشديد ، يضاف إلى ذلك الغسلين والغساق وباقى الألوان التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

٨-١١ - وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً .

هنا وجوه يبدو عليها النعيم ، ويفيض منها الرضا ، وجوه تنعم بما تجد ، وتشعر بالرضا عن عملها حين ترى رضا الله عنها ، وهذا النعيم فى جنة عالية المقام ، مرتفعة على غيرها من الأماكن ، لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض .

لا يسمع أهل الجنة لغوا ولا باطلا ، وإنما يعيشون فى جو من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان ، والودّ والرضا ، والنجاء والسمر بين الأحباء والأوداء ، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لا خير فيها ولا عافية ، وهذه وحدها نعيم وسعادة، وتوحى الجملة بأن المؤمنين فى الأرض حين ينأون عن اللغو والباطل إنما ينعمون بطرف من حياة الجنة ، ويتشبهون بأهلها .

١٢ - فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ . والعين الجارية : الينبوع المتدفق ، والمياه الجارية متعة للنفس وللنظر ، وقد افتخر بمثلها فرعون فقال : أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . (الزخرف : ٥١) .

١٣ - فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ . وفيها سرر عالية المكان والمقدار ، ليرى المؤمن وهو عليها ما خوله الله من النعم .

١٤ - وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ . مصفوفة مهيأة للشرب ، لا تحتاج إلى طلب و لا إعداد .

١٥ - وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . والنمارق الوسائد والحشايا ، قد صفت بعضها إلى بعض للاتكاء فى ارتياح.

١٦ - وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . والزرابى هى البسط (أى : السجاجيد) . مَبْثُوثَةٌ . أى : مبسوطة أو مفرقة هنا وهناك ، كما تراه فى بيوت أهل النعمة . كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهية واللذة ، وتقريبها لتصور الناس فى الدنيا ، وإلا فنعيم تلك الدار نعيم لا يشبهه فى هذه الدار نعيم ، فمتاع الدنيا قليل ، ومتاع الآخرة لا شبيه له ولا مثيل ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

فيها النعيم والرضا ، فيها السرور بالنجاة ، والأنس برضوان الله ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

• ١٧ – أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ .

يلفت القرآن الأنظار إلى دلائل قدرة الله ، وبديع صنعته ، فلينظر الإنسان إلى الجمال كيف خلقت؟ وليتدبر كيف وجدت على هذا النحو المناسب لوظيفتها ، المحقق لغاية خلقها ، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا ، إن الناس لم يخلقوها ، وهى لم تخلق نفسها ، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المتفرد بصنعته ، التى تدل عليه وتقطع بوجوده ، كما تشى بتدبيره وتقديره .

١٨ – وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . أفلا ينظرون إليها كيف رفعت؟ ومن ذا رفعها بلا عمد ؟ ونثر فيها النجوم بلا عدد ؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال .

١٩ – وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . والجبل ملجأ وملاذ ، وأنيس وصاحب ، ومشهد يوحى إلى النفس الإنسانية جلالا واستهوالا ، حيث يتضاءل الإنسان إلى جواره ويستكين ، ويخشع للجلال السامق الرزين ، «ونَصْبُ الجبال إقامتها علمًا للسائر ، وملجأ من الجائر ، وهى فى الأغلب نزهة للناظر» (٨٨) ، وأمان وحفظ لتوازن الأرض .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ... (الأنبياء : ٣١) .

وقال سبحانه : وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا . (النبأ :٧) أى : وسيلة لحفظ نظام الأرض من الزلازل والبراكين وغيرها .

٢٠ – وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . والأرض مسطوحة أمام النظر ، ممهدة للحياة والسير والعمل ، والناس لم يسطحوها كذلك ، فقد سطحت قبل أن يكونوا هم ، أفلا ينظرون إليها ، ويتدبرون ما وراءها ، ويسألون من سطحها ومهدها هكذا للحياة تمهيدا ؟

«وقد أيقظ القرآن الحس ، ولفت النظر إلى مشهد كلى يضم منظر السماء المرفوعة ، والأرض المبسوطة وفى هذا المدى المتطاول تبرز الجبال منصوبة السنان ، لا رأسية ولا ملقاة ، وتبرز الجمال منصوبة السنام خطان أفقيان ، وخطان رأسيان ، فى المشهد الهائل ، فى المساحة الشاسعة ، وهى لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات ، على طريقة القرآن فى عرض المشاهد ، وفى التعبير بالتصوير على وجه الإجمال» (٨٩) .

والآن بعد الجولة الأولى فى عالم الآخرة ، والجولة الثانية فى مشاهد الكون المعروضة ، يخاطب النبى الكريم فيقول :

٢١ - ٢٤ - فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ .

فعظهم يا محمد بآيات القرآن ، وذكرهم بالدعوة إلى الإله الواحد القهار ، فالإنسان بفطرته ميسر للإذعان بقدرة الله وبديع صنعته ، وإنما قد تتحكم الغفلات ، فتحتاج النفوس إلى مذكر يردها إلى الحق والصواب .

إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ. أى : إنما بعثت للتذكير فحسب ، وليس عليك هداهم ، إن عليك إلا البلاغ ، وتبليغ الدعوة وترك الناس أحرارا فى اعتقادهم ، فلا إكراه فى الدين .

لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . والمصيطر : المتسلط ، فأنت لا تجبرهم على الإيمان .

قال تعالى : وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ . (ق: ٤٥) .

فمن تولى عن الحق ، وكفر بآيات الله ، وأنكر الدعوة ، فإن حسابه إلى الله المطلع على القلوب ، وصاحب السلطان على السرائر ، وسوف يعذبه الله العذاب الأكبر فى الآخرة ، وقد يضم إلى عذاب الآخرة عذاب الدنيا .

٢٥ ، ٢٦ - إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم . وتختم السورة بهذا الإيقاع المناسب ، لتؤكد دور الرسول فى البلاغ ، أما الجزاء والحساب فسيكون فى يوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، إن إلينا إيابهم ورجوعهم ، ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم .

قال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

## مقاصد السورة

١ - وصف أهل النار وأهل الجنة .

٢ - وصف مشاهد الكون وبدائع الصنعة الإلهية .

٣ - تحديد مهمة الرسول ﷺ بالبلاغ والدعوة إلى الهداية .

★ ★ ★

## هول القيامة ، وأحوال أهل النار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**الغاشية :** القيامة تغشى الناس بأهوالها .

**خاشعة :** ذليلة خاضعة من الخزى .

**عاملة :** تجرّ السلاسل والأغلال فى النّار .

**ناصبة :** تعبة مما تلاقيه فيها من العذاب .

**تصلى نارا حامية :** تدخل أو تقاسى نارًا تناهى حرّها .

**عين آنية :** بلغت أناها (غايتها) فى الحرارة .

**ضريع :** شىء فى النار ، كالشوك مُرّ منتن .

**لا يغنى من جوع :** لا يدفع عنهم جوعًا .

**ناعمة :** ذات بهجة وحسن ونضارة .

**لاغية :** لغوًا وباطلاً .

**سرر مرفوعة :** مرتفعة السَّمك أو رفيعة القَدْر .

**أكواب موضوعة :** أقداح بين أيديهم للشرب منها .

**نمارق مصفوفة :** وسائد ومرافق يُتكأ عليها ، موضوع بعضها إلى جنب بَعْض .

**زرابى مبثوثة :** بسط فاخرة مفرقة فى المجالس .

**التفسير :**

**١ - هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ .**

هلْ بلغك يا محمد خبر الغاشية التى تغشى الناس بأهوالها ؟ إذا لم يكن بلغك فأنا أُحدّثك عنه .

**٢، ٣ - وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ .**

وجوه الكفار فى ذلك اليوم العظيم خاشعة ذليلة مهينة ، وليس هذا خشوع العبادة والتبتل والتفرغ التام لمناجاة الله ، بل خشوع المهانة والمذلَّة والحزن والألم .

قال تعالى : وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ... (الشورى : ٤٥) .

عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ .

مستمرة فى العمل والنَّصَب ، وهو التَّعب الأليم ، حيث يجرُون السلاسل ، ويرسفون فى الأغلال والقيود ، ويذوقون الآلام والعذاب والمهانة ، بلا فتور ولا استراحة بل يضاعف لهم العذاب : يَوْمَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... (العنكبوت : ٥٥) .

وقيل : عملت فى الدنيا أعمال السوء وَالْتذَّتْ بها وتنعمتْ ، فهى فى نصب منها فى الآخرة ، وقيل : عملت فى الدنيا على غير هُدًى ، أو على غير إخلاص ، فلا ثمرة لها إلا النَّصب ، وخاتمتها النَّار .

**٤ ، ٥ - تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ .**

تصطلى وتحرق بنار قد أُحميت لمدة طويلة ، حتى تضاعف حرُّها ولهيبها ، وإذا اشتاقت إلى التبريد وشرب الماء ليلطِّف الحرارة ، فإنها تشرب من عين قد اشتد حرّها .

قال تعالى : وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

٦ ، ٧ - لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ .

يُسلط على أهل النار الجوع ، فيحتاجون إلى الطعام فيقدم لهم الضريع ، وهو طعام خبيث به شوك ، ويجبرون على أكل الطعام حتى تمتلئ بطونهم به ، ومع هذا الألم فإن الطعام لا يقدم لهم الفائدة المرجوة ، فلا يقدم لهم الشحم أو اللحم الذى يسمّن جسومهم ، ولا الغذاء الذى يسدّ جوعهم ، وقد تعددت آراء المفسرين وأهل اللغة فى بيان الضريع .

« والرأى - والله أعلم - أنه من طعام أهل النار ، لا يعرف له شبيه فى الحياة الدنيا ، ولهذا وصفه الله سبحانه بأنّه : لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ . أى : إنه لا تتقبله الأجسام ، ولا تتفاعل معه ، كما أنّه لا يشبع جوع الجياع ...»[٩٠] .

وقد ذكر فى القرآن الكريم ألوان العذاب ، وألوان الطعام ، وذكر فى سورة الحاقة قوله تعالى :

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . (الحاقة : ٣٦) .

وهذا يفيد أن المعذَّبين من الكفار طبقات ، فمنهم من طعامه فى النار الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الزقوم .

قال تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ . (الدخان : ٤٣ - ٤٦) .

وهى ألوان من العذاب فى الطعام وفى الشراب وفى سمة الوجوه ، وفى ألوان العذاب للأبدان ، وفى ألوان الهوان للنفوس ، وكأنّ الحق سبحانه يقول :

أيها الناس ، أنقذوا أنفسكم من هذا العذاب ، والوسيلة يسيرة ، وهى أن تؤمنوا بالله تعالى وحده ، وألا تشركوا به شيئا ، وأن تؤمنوا بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمنوا بالقضاء والقدر خيره وشرّه ، حلوه ومرّه .

٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ - وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً .

بعد أن ذكر حال أهل النار وما هم فيه من شقاء ، ثنّى بذكر أهل الجنة وما هم فيه من نعيم .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ .

فى يوم القيامة نجد أهل الجنة ووجوههم يعلوها البشر والسرور ، والنعيم والفرح والحبور.

قال تعالى : تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ . (المطففين : ٢٤) .

وقال عز شأنه : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . (عبس : ٣٨ ، ٣٩) .

لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ .

أي : لجزاء سعيها وعملها في الدنيا راضية مرضية ، قد رضيت عن ربّها ، ورضى ربّها عنها .

قال تعالى : رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... (البينة : ٨) .

فهى فى نعيم الجنة ، وفى زيادة على ذلك من رضوان الله تعالى.

حيث قال سبحانه : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ .

فى بساتين مرتفعة حسًّيا ومعنويا ، والبساتين العالية تتعرض لضوء الشمس ، ويتميز نباتها بالخضرة الداكنة ، وأى علو أفضل من علو الجنة ؟

إنهم يتمتعون بالثمار والأنهار والأشجار ، والحور العين ، وضيافة الجبّار .

لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً .

لا تسمع فى الجنة لغوًا : وهو الباطل أو كل قبيح من الكلام ، أو ما لا يعتدّ به من الأقوال والأفعال ، فإن كلام أهل الجنة ذِكر الله وتسبيحه ، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم .

قال تعالى : وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . (فاطر : ٣٤، ٣٥) .

وفى الآية توجيهٌ لأهل النعمة والغنى ، أن يكون حديثهم ونعيمهم ، نعيم أهل الفضل والجدّ ، لا نعيم أهل الجهل والحمق .

١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ - فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ .

والعين هنا اسم جنس ، يراد بها عيون كثيرة متدفقة ، جارية بالماء العذب الزلال الذى يُقرّ العين ، ويبهج النفس .

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ .

أَسِرَّة مرتفعة عن الأرض ، عالية المكان والمكانة ، فإذا رغب المؤمن فى الجلوس عليها ، انخفضت من أجله .

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ .

أوانى الشرب معدة مرصودة لمن أرادها.

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ .

والنمارق جمع نمرقة ، بضمّ النون وكسرها ، وهى الوسائد جمع وسادة ، (المسمّاة فى عرف العامة: مسند أو مخدّة) . وسواء كانت هذه النمارق مصفوفة فوق الأسرة ، أو فى جوانب المساكن .

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ .

**الزرابيُّ** : البسط ، وقيل : البسط التى فيها خمل رقيق ، أى : هدب ، والزرابى جمع زربية ، مثلثة الزاى .

**قال المفسرون** : هى بُسط عِراض فاخرة ، مبسوطة هنا وهناك لمن أراد الجلوس عليها . مَبْثُوثَةٌ . أى : مفرقة فى المجالس .

★ ★ ★

## مظاهر الكون، وختام السورة

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

**المفردات :**

**ينظرون** : يتأملون فيدركون .

**الإبـــل** : الجمال ، والإبل اسم جمع لا واحد له من لفظه ، يصدق على القليل والكثير .

**سطحت** : بُسطت ومُهِّدت للإقامة عليها .

**بمصيطر** : بمتسلط عليهم ، قاهر لهم .

**إيابهم** : رجوعهم بعد الموت بالبعث .

**التفسير :**

يستعرض القرآن أدلة القدرة ، ويلفت النظر إلى مشاهد موحية للإنسان ، بأن هذا الجمال فى هذا الكون دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى :

١٧ - أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ .

أفلا يتأمَّلون فى هذا الحيوان العجيب ، طويل القامة ، طويل الرقبة ، إنه ذو قدرة على حمل الأثقال ، يجلس فيحمل الأحمال الثقيلة ، ثم يقوم بنفسه ، وله صبر على عدم شرب الماء يصل إلى سبعة أو ثمانية أيام ، ويخضع للطفل الصغير .

قال العباس بن مرداس :

ترى الرجل النحيف فتزدريه　　وتحت ثيابه أسد مزير

ويعجبك الطرير فتبتليه　　فيخلف ظنَّك الرجل الطرير

فما عظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غيرٌ لديه ولا نكير

ويكتفى الجمل فى المرعى بما تيسر له من الشوك والشجر، وترى الجمل أعجب ما عند العرب، فهو عدّتهم فى السفر والحضر، حتى سُمى الجمل سفينة الصحراء، كما أنهم ينتفعون بلحوم الجمال وألبانها وأوبارها.

والعربى يقع نظره على البعير، ثم ينظر إلى السماء فوقه، وإلى الأرض تحته، وإلى الجبال بجواره، فكانت المراعاة فى جمع هذه الأشياء للدلالة على قدرة الله المبدعة التى أبدعت نظام هذا الكون.

١٨ - وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ .

هذه السماء العالية، مَنْ رفعها بلا عمد؟ من أظلم ليلها؟ من أضاء نهارها؟ من زينها بالنجوم؟ من سخر لها الشمس والقمر والليل والنهار؟

١٩ - وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ .

والتأمّل فى الجبال يُظهر عظمتها ورسوخها وشموخها، ثم إن الجبال تمتد فى الأرض بحجم أكبر من الحجم البارز منها، بحيث تصبح ممسكة بالأرض حتى لا تميد ولا تضطرب، وفى أعلى الجبال تتكون الثلوج وتنزل المياه لتروى السفوح والوديان، ولأمرٍ ما كانت رسالات السماء تنزل على الرسل وهم عند الجبال، حيث الصفاء والنقاء، فقد كلّم الله موسى من جانب جبل الطور، ونزل الوحى على محمد ﷺ وكان فى غار حراء فوق جبل مرتفع، وكانت الجبال تردّد أناشيد داود.

قال تعالى: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ... (سبأ: ١٠).

٢٠ - وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ .

أفلا ينظر الإنسان إلى الأرض كيف سطحت؟ فنحن فى نظر العين أو فى مساحة كبيرة أمامنا نجد الأرض ممتدة، لتصلح للزراعة والصناعة واتخاذ الطرق، والاستفادة منها.

قال الآلوسى : ولا ينافى هذا القول بأنّها كرة أو قريبة من الكرة .

وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هو بالنسبة لعظمها ، أو بالنسبة للناظرين إليها .

**٢١ - فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ .**

ذَكِّرهم بالآخرة يا محمد ، ذَكِّرهم بالكون حولهم ، ذَكِّرهم بالخلق والنّشأة ، ذَكِّرهم بالجحيم والنعيم ، ذَكِّرهم بالفطرة التى ترشد وتلهم أن الكون البديع المنظّم ، بما فيه من سماء وأرض وجبال وبحار ، وهواء وفضاء ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، لابدَّ له من إله خالق قادر ، فعال لما يريد وهو سبحانه على كل شىء قدير .

إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ . أرسلناك رسولا لتذكير الناس وإرشادهم ، وإحياء فطرتهم ، ولفت أنظارهم إلى آثار الله فى النفس والآفاق .

**٢٢ - لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ .**

أنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئا حتى تقهرها وتقسرها على الهداية ، لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

قال تعالى : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ... (الشورى : ٤٨) .

وقال تعالى : أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

**٢٣ ، ٢٤ - إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ .**

لكن من تولّى عن دعوة الله ورسوله ، وكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فله عذاب أكبر فى جهنم ، أو لَهُ فى الدنيا عذاب مثل قتل الكفّار يوم بدر ، وهزيمتهم فى عدد من الغزوات ، حتى فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وللكافرين عذاب أكبر وأعظم فى الآخرة لأنه عذاب أبدى سرمدى لا يخفف عنهم ، بل يضاعف لهم العذاب ، ثم أكّد القرآن وقوع البعث والمَعَاد والحساب ، فقال :

٢٥ ، ٢٦ - إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم .

أى : إلينا وحدنا عودة الناس جميعا ، عند البعث والحشر والحساب ، ثم إن علينا وحدنا حسابهم ومُجازاتهم على الإحسان إحسانا ، وعلى السوء سوءا ، فليتوقع ذلك الكافر وليعمل حسابه ، فقد أعطيت كل إنسان العقل والإرادة والاختيار ، والحرية الكاملة فى اختيار الطريق الذى يسلكه ، والخطة التى يرتضيها ، والدنيا عمل ولا حساب والآخرة حساب ولا عمل ، والملك يوم القيامة لله الواحد القهار .

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة الغاشية .

★ ★ ★


تفسير سورة الفجر

# أهداف سورة الفجر

(سورة الفجر مكية، وآياتها ٣٠ آية، نزلت بعد سورة الليل)

وتبدأ السورة بالقسم فتقسم بالفجر، وبالليالى العشر، وبالشفع والوتر، على أن الإسلام حق، وأن البعث والحساب حق، وقد ضربت أمثلة بمن أهلكه الله من المعاندين كعاد وثمود، وذكرت تصورات الإنسان غير الإيمانية، وسوء فهمه لاختبار الله له بهذه النعم، ثم ردت على هذه التصورات ببيان الحقيقة التى تنبع منها هذه التصورات الخاطئة، وهى الجحود والأثرة وحب المال والمتعة.

ثم وصفت مشهدًا عنيفا مخيفا من مشاهد الآخرة، وفيه يظهر جلال الله، وتظهر الملائكة للحساب، وتظهر جهنم أمام العصاة، وفى الختام نداء ندى رخى للنفس المطمئنة بأن تعود إلى رضوان الله وجنته.

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة فى مشاهد السورة، كما يبدو تعدد نظام الفواصل، وتغير حروف القوافى، بحسب تنوع المعانى والمشاهد:

فالآيات من (١ – ٥) تنتهى بحرف الراء مثل: وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ .

والآيات من (٦ – ١٤) تنتهى بحرف الدال مثل: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ .

والآيتان (١٥، ١٦) تنتهيان بحرف النون، والآيات الباقية متنوعة فيها الميم والتاء والهاء.

ومجموع فواصل آياتها (هاروت ندم).

والقسم الأول من السورة فيه نداوة الفجر وجماله، وفضل الليالى العشر، وثواب الشفع والوتر من الصلاة.

والقسم الثانى ينتهى بالدال، وفيه بيان القوة فى الانتقام من الظالمين.

**وقد ذكر الفيروزبادى أن معظم مقصود السورة ما يأتى:**

تشريف العيد وعرفة، وعشر المحرم، والإشارة إلى هلاك عاد وثمود وأضرابهما، وتفاوت حال الإنسان فى النعمة، وحرصه على جمع الدنيا والمال الكثير، وبيان حال الأرض فى القيامة، ومجىء الملائكة، وتأسف الإنسان يومئذ على التقصير والعصيان، وأن مرجع العبد المؤمن عند الموت إلى الرحمن والرضوان ونعيم الجنان.

## مع آيات السورة

١ – أقسم الله سبحانه وتعالى بالفجر، وهو الوقت الذى يدبر فيه الليل، ويتنفس الصباح فى يسر وفرح وابتسام، وإيناس وَدود ٍ ندىّ، ويستيقظ الوجود رويدا رويدا.

٢ – وَلَيَالٍ عَشْرٍ . قيل: هى العشر الأوائل من المحرم، وقيل: العشر الأواخر من رمضان وفيها ليلة القدر، وقيل: هى العشر الأوائل من ذى الحجة وفيها يوم عرفة وعيد الأضحى.

٣ – وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . أى: الزوج والفرد من الأعداد، والشفع والوتر من الصلاة، أو أيام التشريق وفيها رمى الجمار بمنى، فمن شاء رمى فى يومين ومن شاء مكث ثلاثة أيام.

واليومان شفع، والثلاثة وتر، قال تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ... (البقرة: ٢٠٣).

٤ – وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . أى: يسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، أى ينام فيه، وقيل: معنى وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . أى: ينصرم وينقضى مسافرا بعيدا، ويسرى راحلا، وأصله: يسرى، فحذفت الياء لدلالة الكسرة عليها فى الوصل، وحذفت الياء مع الكسرة فى الوقف.

٥ – هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ . أى: هل فيما أقسمت به من جمال الفجر، وجلال الأيام العشر، وثواب الشفع والوتر، ولطف الليل إذا يسر، مقنع لذى لب وعقل، وسمى العقل حجرا لأنه يمنع صاحبه عن الشر، ويحجره عما لا يليق.

٦ – ٨ – ألم تعلم يا محمد، أو ألم تعلم أيها المخاطب، كيف فعل ربك بعاد، وهم الذين أرسل إليهم هود عليه السلام فكذبوه، ومن قبيلة عاد (إرم) وكانوا طوال الأجسام، أقوياء الشكيمة، يقطنون ما بين عمان وحضرموت واليمن، وكانوا بدوا ذوى خيام تقوم على عماد، وقد وُصفوا فى القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هى أقوى قبيلة فى وقتها وأميزها: الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَـٰدِ . فى ذلك الأوان.

٩ – وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وكانت ثمود تسكن بالحجر، فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام، وقد قطعت الصخر وشيدته قصورا، كما نحتت فى الجبال ملاجئ ومغارات.

١٠ – وَفِرْعَوْنَ . وهو حاكم مصر فى عهد موسى عليه السلام، وهو صاحب المبانى العظيمة والهياكل الضخمة، التى تعطى شكل الأوتاد المقلوبة. وقيل: الأوتاد تعنى القوة والملك الثابت، لأن الوتد هو ما تشد إليه الخيام لتثبيتها، واستعمل هنا مجازا إشارة إلى بطشه وحكمه الوطيد الأركان.

وقد جمع الله فى هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ.

١١ - ١٤ - الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . أى: هؤلاء الذين سلف ذكرهم، من عاد وثمود وفرعون وجنده، جميعا تجاوزوا الحد وكفروا بنعمة الله عليهم، وأكثروا فى البلاد الفساد وارتكاب المعاصى، فكفروا وقتلوا وظلموا، فأنزل الله عليهم العذاب بشدة مع توالى ضرباته.

وقد شبه الله تعالى ما يصبه عليهم من ضروب العذاب بالسوط، من قِبَل أن السوط يضرب به فى العقوبات، وما وقع بهم من ألوان العذاب كان عقوبة لأنواع الظلم والفساد . إن الله سبحانه وتعالى يرى ويحسب ويحاسب، ويجازى وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم، وقد سجل الله عليهم أعمالهم كما يسجل الراصد الذى يرقب فلا يفوته شىء.

١٥ ، ١٦ - إن الإنسان إذا اختبره الله سبحانه وتعالى فوسّع عليه فى الرزق، وبسط له فى النعمة، ظنّ غرورا أن الله راض عنه، وتخيل أنه لن يحاسبه على ظلمه وأفعاله.

وإذا امتحنه بالفقر فضيّق عليه رزقه وقتّره، فلم يوسع عليه، فيقول: إن ربى أذلنى بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهبه له من سلامة الجوارح، وما رزقه من الصحة والعافية.

**قال الإمام محمد عبده:**

وأنت ترى أن أحوال الناس إلى اليوم لا تزال كما ذكر الله فى هذه الآية الكريمة، فإن أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم فى أمن من عقاب الله، ولا يعرفون شيئا من شرعه يمنعهم من عمل ما تسوق إليه شهواتهم، وإنما يذكرون الله بألسنتهم، ولا تتأثر قلوبهم بهذا الذكر.

وقريب من هذه المعانى قوله تعالى: إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ . (المعارج: ١٩ - ٢٢)

«تعلم أن المخاطبين بهذه الآيات كانوا يزعمون أنهم على شىء من دين إبراهيم، أو أنهم كانوا يدّعون أن لهم دينا يأمرهم وينهاهم، ويقربهم إلى الله زلفى، فإذا سمعوا هذا التهديد وذلك الوعيد، وَسْوَست لهم نفوسهم بأن هذا الكلام إنما ينطبق على أناس ممن سواهم، أما هم فلم يزالوا من الشاكرين الذاكرين غير الغافلين»[٩١]، فالله يرد عليهم زعمهم ويقيم لهم دليلاً واضحًا على كذب ما تحدثهم به نفوسهم، ويقول:

١٧ - كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . أى: لو كان غنيكم لم يُعْمه الطغيان، وفقيركم لم يطمس بصيرته الهوان، لأحسستم باليتيم الذى فقد أباه، فواسيتموه وعطفتم عليه حتى ينشأ كريم النفس.

١٨ - وَلَا تَحَٰضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ . وقد كان مجتمع مكة مجتمع التكالب على جمع المال بجميع الطرق، فورثت القلوب القسوة والبخل، وانصرفت عن رحمة اليتيم، وعن التعاون على رحمة المسكين.

١٩ - وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . والتراث هو الميراث الذى يتركه من يتوفى، أى أنكم تشتدون فى أكل الميراث حتى تحرموا صاحب الحق من حقه.

٢٠ - وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . وتميلون إلى جمع المال ميلا شديدا، يصل إلى حد الشراهة.

وخلاصة ذلك:

أنتم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، إذ لو كنتم ممن غلب عليهم حب الآخرة لانصرفتم عما يترك الموتى تراثا لأيتامهم، ولكنكم تشاركونهم فيه، وتأخذون شيئا لا كسب لكم فيه، ولا مدخل لكم فى تحصيله وجمعه، ولو كنتم ممن أرادوا الآخرة لما ضربتم نفوسكم على المال، تأخذونه من حيث وجدتموه من حلال أو من حرام، فهذه أدلة ترشد إلى أنكم لستم على ما ادعيتم من صلاح وإصلاح، وأنكم على ملة إبراهيم خليل الرحمن (٩٢).

٢١ - ٢٤- كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . ودكُّ الأرض تحطيم معالمها وتسويتها، وهو أحد الانقلابات الكونية التى تقع فى يوم القيامة.

يَرْدَعُهم الله سبحانه وتعالى عن مقالتهم وفعلهم، وينذرهم أهوال القيامة إذا دُكت الأرض وأصبحت هباء منبثا، وزلزلت زلزالا شديدا، وتجلت عظمة الله سبحانه، ونزلت ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف، بحسب منازلهم ومراتبهم، وكشفت جهنم للناظرين، بعد أن كانت غائبة عنهم.

قال تعالى: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ . (النازعات: ٣٦).

حينئذ تذهب الغفلة، ويندم الإنسان على ما فرط فى حياته الدنيا، ويتذكر معاصيه، ويتمنى أن يكون قد عمل صالحا فى دنياه لينفعه فى حياته الآخرة التى هى الحياة الحقيقية.

«وترى من خلال هذه الآيات مشهدا ترتجف له القلوب وتخشع له الأبصار، والأرض تدك دكا، والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل، وتقف الملائكة صفا صفا، ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هى الأخرى» (٩٣).

وتتبع الحسرة والذكرى الأليمة من فرّط فى حقوق الله، فيتذكر بعد فوات الأوان، ويتمنى أن يكون قد عمل الصالحات.

٢٥ ، ٢٦ – فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ. الوثاق: الشد بالأغلال.

فى هذا اليوم العصيب نرى لونا متفردا من ألوان العذاب، لقد كان الجبارون يملكون أن يعذبوا من خالفهم فى الدنيا، لكن العذاب اليوم فى الآخرة لا يملكه إلا الله، وهو سبحانه القهار الجبار الذى يعذب يومئذ عذابه الفذ الذى لا يملك مثله أحد، والذى يوثق وثاقه الفذ، ويشد المجرمين بالأغلال شدا لا يملك مثله أحد.

وعذاب الله ووثاقه يُفَصِّلهما القرآن فى مواضع أخرى، وفى مشاهد كثيرة، ولكنه يجملهما هنا، حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب الخلق جميعا ووثاقهم، وكأن الآية تشير إلى ظلم عاد وثمود وفرعون ذى الأوتاد، وتنبه إلى أن عذاب الطغاة ووثاقهم للناس مهما اشتد فى الدنيا، فسوف يعذب الطغاة ويوثقون عذابا ووثاقا وراء التصورات والظنون.

وفى وسط هذا الهول المروّع، وهذا العذاب والوثاق الذى يتجاوز كل تصوّر، تُنادَى النفس المؤمنة من الملأ الأعلى:

٢٧ – ٣٠– يَـٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَـٰدِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي.
ينادى الله سبحانه النفس الثابتة على الحق، أن تعود إلى جوار الله، راضية عن سعيها، مرضيا عنها، فتدخل مع العباد الصالحين، ومع الرفقة المؤمنين، حيث يدخلون جميعًا جنة الله فى تكريم ورضوان.

وفى هذا النداء الرضى ما يمسح آلام هذه النفس، وما يشعرها بالغبطة مع عباد الله، وجنة الله ورضوانه، فنعم الجزاء، ونعم الثواب وحسنت مرتفقا.

## خلاصة أهداف السورة

تشتمل سورة الفجر على الأهداف والمقاصد الآتية:

١ – القسم على أن عذاب الكافرين واقع لا محالة.

٢ – ضرب المثل بالأمم البائدة كعاد وثمود.

٣ – كثرة النعم على إنسان ليست دليلاً على إكرام الله له، والبلاء ليس دليلاً على إهانته وخذلانه.

٤ – وصف يوم القيامة وما فيه من أهوال.

٥ – تمنى الأشقياء العودة إلى الدنيا.

٦ – كرامة النفوس الراضية المرضية وما تلقاه من النعيم بجوار ربها.

★ ★ ★

## التذكير بهلاك الظالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾

**المفردات:**

**والفجر:** أقسم الله تعالى بوقت الفجر أو بصلاة الفجر.

**وليال عشر:** العشر الأوائل من ذى الحجة.

**والشفع والوتر:** الزوج والفرد من كل شىء، أو يوم النحر ويوم عرفة.

**الليل إذا يسر:** إذا يمضى ويذهب، أو يُسار فيه.

**هل فى ذلك:** المذكور الذى أقسمنا به.

**قسم لذى حجر:** مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء.

**بعاد:** قوم هود، سمّوا باسم أبيهم.

**إرم:** هو اسم جدّهم، وبه سميت القبيلة.

**ذات العماد:** الشدّة، أوالأبنية الرفيعة المحكمة بالعُمُد.

**جابوا الصخر:** قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم.

**ذى الأوتاد:** الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه.

**ســـوط عـــذاب:** عذابا شديدًا مؤلما دائما.

**إن ربك لبالمرصاد:** يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها.

**تمهيد:**

أقسم الله تعالى هنا بالفجر الذى يشرق فيذهب الظلام ويأتى النور، وأقسم بالليالى العشر الأوائل من ذى الحجة، وأقسم بكل شفع ووتر، كما أقسم بالليل الذى يتحرك ويتحرك معه الظلام، ثم قال: هل فى ذلك الذى أقسمنا به ما هو حقيق بالتّعظيم لدى العقلاء ؟

**التفسير:**

١، ٢، ٣، ٤، ٥ – وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ .

أقسم الله تعالى بالفجر ، وهو ذلك الوقت النّدِىّ الذى تنتهى عنده شدة الظلام، ويظهر الفجر الصادق، وهو النور المعترض فى الأفق.

قال تعالى: وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ . (المدثر: ٣٣ - ٣٥)

وقيل: أقسم الله بصلاة الفجر، وفيها تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار.

قال ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الفجر وفى صلاة العصر، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا .[٩٤] (الإسراء: ٧٨).

وَلَيَالٍ عَشْرٍ .

اختار الشيخ محمد عبده أنَّ المراد بها الليالى العشر الأوائل من كل شهر، حيث يظهر القمر صغيرا ثم يكبر رويدًا رويدًا حتى يغالب الظلام فيغلبه.

وذكر المفسرون أن المراد بها ما يأتى:

العشر الأوائل من ذى الحجة، وفيها يوم عرفة وفضله عظيم، وفيها العيد الأكبر.

أخرج البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهنّ أحبّ إلى الله تعالى من أيام عشر ذى الحجة»، قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشىء»[٩٥].

وقيل: المراد بالليالى العشر: العشر الأوائل من المحرّم وفيها يوم عاشوراء، وقيل: المراد بها العشر الأواخر من رمضان وفيها ليلة القدر.

واختار ابن كثير أن أرجح الآراء هو أن المراد بالليالى العشر: العشر الأوائل من ذى الحجة.

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ .

أى: سائر المخلوقات شفع، والله تعالى وتر يحبّ الوتر.

فالسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبحر والنّهر، والنور والظلام، والذكر والأنثى.

قال تعالى: وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات: ٤٩).

وقيل: الشفع والوتر، أى: صلاة الشفع وصلاة الوتر.

وقيل: الشفع: الصلاة الرباعية مثل الظهر، والعصر، والعشاء، والثنائية مثل الصبح.

والوتر: الصلاة الفردية مثل المغرب وهو وتر النهار، وصلاة الوتر وهى ختام صلاة الليل.

وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ .

أقسم الله بالليل إذا تحرّك من أوله إلى وسطه إلى آخره، أى أجزاء الليل المتتابعة، حيث نشاهد النجوم وأماكنها وحركتها.

وفى أشعار العرب نجد أن المحبين منهم يسهرون الليل، ويستبطئون تحركه، كأن النجوم حيوانات مصابة بداء الحفاء فى أرجلها، فتمشى بطيئة، وكأنّ الظلام يصدُّها عن التحرك، ومن طول الليل يهيّأ للعاشق أن الجزء الذى يمضى من الليل يرجع مرة أخرى.

يقول اليشكُرىّ:

يسحب الليل نجوما ظُلَّعًا ... فتواليها بطيئات التَّبع

ويزجّيها على إبطائها مغرب اللّـ ... ـون إذا اللون انقشع

وإذا ما قلت ليلٌ قد مضى ... عطف الأوّل منه فرجع

وكان ﷺ إذا أراد النوم قال: «اللهم غارت النجوم، ونامت العيون، وبقيت أنت يا حى يا قيوم، اهْدِ ليلى وأنِمْ عينى» (٩٦).

هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ .

والحجر: هو العقل، لأنه يحجر صاحبه ويمنعه من التصرف المشين، وعما لا يليق به من الأقوال والأفعال، أى: هل فى ذلك القسم بأوقات العبادة والطاعة، أو بنفس العبادات والطاعات مقنع لمن له إدراك وفكر.

وجواب القسم محذوف دلّ عليه ما بعده، وتقديره: إن ناصية المكذبين لبيدى، ولئن أمهلتهم فلن أهملهم ولآخذنّهم كما أخذت الأمم قبلهم.

٦، ٧، ٨ – أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَٰدِ .

ألم تشاهد بعقلك – مشاهدة كأنها رؤية العين – ما فعله الله بقبيلة عاد، وهم عاد الأولى، وتسمى عاد إرم.

وإرم جدّ القبيلة، وقد اشتهرت قبيلة عاد بالبأس والقوّة، وطول القامة التى تشبه عماد الخيمة.

وقال المفسرون:

كانوا بدوًا يسكنون الخيام، وتعتمد الخيامُ على أعمدة، فقال القرآن : إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ .

وكانوا أقوياء أشداء فأخذهم الغرور.

قال تعالى: فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ . (فصلت: ١٥، ١٦).

وكانت عاد تقطن جنوب الجزيرة العربية، فى منطقة تسمى الأحقاف بين عمان وحضرموت واليمن.

الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَٰدِ .

تلك القبيلة التى لم يخلق الله مثلهم فى قوتهم وشدتهم وضخامة أجسامهم، وقرب عام ١٩٩٥ م ظهرت كشوف أثرية فى سلطنة عمان قرب مدينة صلالة، عبارة عن قرية مطمورة بها أبنية لم يكن لها نظير أو مثيل، ويظنّ أنها مدينة عاد.

وكان قوم عاد يسكنون بالأحقاف، والأحقاف جمع حقف، وهو الرمل المعوج.

قال تعالى: وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ ... (الأحقاف: ٢١)

ونبيُّ عاد هو هود عليه السلام، وقد ذكرت قصتهم فى سورة هود وعدد من السور، وكثيرا ما تذكر قصة عاد ثم يأتى بعدها قصة ثمود.

٩ - وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ .

وقبيلة ثمود قبيلة عربية من العرب العارية، وهم من أبناء عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانوا يسكنون بالحِجْر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام، وهم أول من نحت الجبال والصخور والرُّخام، واتخذوا أبنيتهم وحصونهم فى قلب الجبال.

قال تعالى: وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ . (الشعراء: ١٤٩).

وأرسل الله إليهم رسوله صالحًا عليه السلام، فدعاهم إلى توحيد الله، وكانت معجزته ظاهرة ملموسة، هى ناقة تخرج من بين جبلين، وتشرب ماء النُّهير فى يوم، وتحلب لهم لبنًا يكفيهم من أوّلهم إلى آخرهم، لكنّهم عقروا الناقة، ونقضوا العهد، فأهلكهم الله جزاء عدوانهم، وذُكرت قصتهم فى كثير من سور القرآن الكريم .

قال تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (فصلت: ١٧)

أى: أرسلنا إليهم رسولاً بأسباب الهداية، فاختاروا الضلالة وتركوا الهداية؛ فاستحقوا العذاب.

١٠ - وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ .

وفرعون ذى الجنود الكثيرة، والجيوش القوية التى كانت تثبّت ملكه كما تثبت الأوتاد الخيمة، وقيل: إنه كان يدق للمعذَّب أربعة أوتاد، ويشده بالحبال من يديه ومن رجليه، ويعذبه بألوان العذاب.

١١، ١٢ - الَّذِينَ طَغَوْاْ فِى الْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ .

هؤلاء الثلاثة: عاد، وثمود، وفرعون، نماذج للطغيان، وقد اشتدّ طغيانهم وعدوانهم على عباد الله، وظلموا العباد، وتجاوزوا الحدّ فى الظلم والطغيان.

وعندما يوجد الظلم من الطغاة، يوجد القهر والنّفاق، وطمس معالم الحق، وهضم كرامة الإنسان، الفساد يجرّ إلى الفساد، حيث يكثر الكفر بالله، واقتراف سائر المعاصى.

١٣ - فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ .

أنزل الله عليهم ألوان العذاب الذى يُصبّ عليهم صبا، كضرب السياط اللاذعة.

وتفيد الآية أنه كان عذابا قاصمًا، فقد أهلك الله عادًا، بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا... (الحاقة: ٦، ٧).

وأهلك الله ثمود بالصاعقة التى أهلكتهم، وأهلك فرعون بالغرق.

**والخلاصة:**

إن الله تعالى أهلكهم بألوان العذاب المهلكة المدمّرة، فصاروا أثرًا بعد عين، والقصة موجهة إلى أهل مكة، وإلى كل ظالم عاتٍ باغٍ «إن الله يُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» (٩٧).

قال تعالى: وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ * فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت: ٣٩، ٤٠).

١٤- إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ .

إن الله تعالى يرصد أعمال الظالمين ويسجّلها عليهم، ويحصى أعمالهم إحصاءً دقيقا، ثم يُنزل بهم العقاب الذى يستحقونه.

«إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» (٩٨).

إن عدالة الله لا تغيب، وهو سبحانه مطلع ورقيب، فليثق المؤمن بذلك، أما الظالم فإن الله له بالمرصاد، يرى ويحسب ويحاسب، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم، ولا يأخذ بظواهر الأمور، لكن بحقائق الأشياء.

**قال فى التسهيل لعلوم التنزيل :**

المرصاد: المكان الذى يرتقب فيه الرصد.

والمراد: أنه تعالى رقيب على كل إنسان، وأنه لا يفوته أحد من الجبابرة والكفار، وفى ذلك تهديد لكفار قريش.

★ ★ ★

## امتحان الله للإنسان

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

**المفردات:**

**ابتلاه ربه:** امتحنه واختبره بالنعم أو النِّقم.

**فقدر عليه رزقه:** ضيقه عليه.

**كلا:** ردع للإنسان عما قاله فى الحالين، فليس الغنى إكرامًا من الله للغنى، وليس الفقر إهانة للفقير، فالله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ويفقر من يحب ومن لا يحبّ، ولكن الغنى ليشكر الغنىّ، والفقر ليصبر ويحتسب الفقير.

**لا تحاضُّون:** لا يحث بعضكم بعضا.

**التراث:** ميراث النساء والصغار.

**أكلاً لمًّا:** جمعا بين الحلال والحرام.

**حبا جما:** كثيرا مع حرص وشدة.

**التفسير:**

١٥ - ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ .

ذكر القرآن فيما سبق أن الله تعالى رقيب على العباد، شهيد على أعمالهم.

وهنا يقول: إنَّ الإنسان - أى الكافر والعاصى - إذا اختبره الله بالنِّعمة والمال، أى عامله معاملة المختبر، بأن أغدق عليه النعم، ويسّر له وسائل الكرامة، وصنوف النِّعم والمال، فيظنُّ أن ذلك لأنه صاحب حظوة عند ربّه، وصاحب كرامة ومنزلة فيقول: ربِّى أكرمنى، أى: أكرمنى بذلك لمزيد استحقاق.

كما قال تعالى: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ .
(المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦)

١٦ - وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ .

أى: إذا اختبر الله الإنسان، فضيق عليه فى الرزق، وجعله فقيرا قليل المال، فيقول: إنَّ الله أهاننى بالفقر، فليست لى كرامة عنده، لذلك أصابنى بالفقر والهوان.

وما علم هذا الإنسان أن الله يعطى الدنيا لمن يحبّ ولمن لا يحب، فيغنى الكافر والعاصى والمؤمن، امتحانًا لهم بهذا الخير، أى يعاملهم معاملة المختبر، هل يشكر الله فى الغنى، ويطيعه فيما فرضه عليه، ويؤدى حق المال كما طلب الله، أم لا يفعل ذلك ؟

والله تعالى يختبر بالفقر الكافر والمؤمن، لا لهوانهما عليه ولكن لهوان الدنيا، ويعامل الفقير معاملة المختبر الممتحن، هل يشكر الله على ما أعطاه من نعم أخرى مثل العقل وسلامة الجوارح، والإيمان وطاعة الرحمن ؟ وهل يصبر على الفقر أو المرض أو الكوارث، أم يجزع ؟

قال تعالى: وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء: ٣٥)

فلله تعالى حكمة خفية فى اختبار بعض الناس بالنعمة، والمال والغنى، والصحة والعافية، والأولاد والأحفاد، وصنوف النعم.

وله سبحانه حكمة خفيّة فى اختبار بعض الناس بالفقر أو الكوارث، أو نقص الأموال والأولاد، أو غير ذلك، وهذا امتحان، فقد ينجح الإنسان فى الفقر، فيصبر ويحتسب، ويصاول الأعداء فى الجهاد والكفاح، ثم يفشل فى الاختبار بالغنى والمال والجاه والسلطان، والمؤمن الصادق يشكر على النعماء، ويصبر على البأساء، ويرضى بأسباب القضاء.

١٧ - كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .

ردع وزجر عن ظن صاحب النعمة أن ذلك لكرامته عند ربه، وردع وزجر لمن اختُبر بالفقر أو الكوارث أن ذلك لمهانته، بل ذلك لمحض القضاء والقدر، ولحكمة إلهية عليا.

ومعنى كَلاَّ : ارتدعوا عن هذا الفهم، فلله حكمة عليا فوق فهمكم.

قال الشاعر:

ومن الدليل على القضاء وحكمه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .

بل أنتم لسوء تصرفكم تنهبون مال اليتيم، وتذلُّونه وهو جدير بالبر والإحسان، لأنه فقد الأب الذى يرعاه ويكرمه، فصار الوصىّ مطالبًا بإكرامه.

روى البخارى، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين»، وقرن بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام (٩٩).

وروى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال: «خير بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشرّ بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه» (١٠٠).

١٨ - وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ .

والتحاض: تفاعل من الحضّ، وهو الحث والترغيب، كأننا مطالبون بإكرام الفقراء واليتامى والمساكين، ومطالبون أيضا بأن يحضّ بعضنا بعضا على التكافل والتراحم، حتى يُحس الفقير والمسكين أنه غير ضائع ولا جائع، وأن المجتمع يكفله ويرعاه، وأن هناك آصرة الأخوّة الإنسانية والدِّينية بين أعضاء المجتمع، ولذلك أكثر القرآن من الحث على رعاية اليتيم، والمحافظة على ماله، وأمر القرآن بإكرام الأرامل والفقراء والجيران والمساكين، وبأن تكون الأموال وسيلة إلى الاستثمار، وإخراج الزكاة، ورعاية الضعفاء والمحتاجين، وتلك وسيلة الإسلام إلى ترابط المجتمع وتآزره وتعاونه.

قال تعالى: وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... (المائدة: ٢)

ومن وسائل هذا التعاون الحث على تنظيم الإحسان، وحضّ الأغنياء على رعاية الفقراء بوسيلة من الوسائل المناسبة.

قال تعالى: وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ . (الذاريات: ١٩)

١٩ - وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا .

أى: وتأكلون الميراث، أى ميراث اليتامى والنساء، وكانت العرب لا تعطى من الميراث إلا من يركب الفرس ويدافع عن القبيلة، فيحرمون الأنثى والصِّغار، ويأكلون ميراث اليتيم عند الوصاية عليه.

ومعنى أَكْلاً لَّمًّا . أى: شديدًا.

والقرآن يحذّرهم من ذلك، ويدعوهم إلى عدم الشراهة فى حب المال، بل يكتفون بالمال الحلال، ويبتعدون عن المال الحرام، وعمًّا لا حق لهم فيه.

٢٠ - وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا .

تحبُّون المال حبًّا كثيرا، زاد بعضهم فاحشا، أى: إنكم تحبُّون جمع المال مع الحرص والشَّره فى جمعه، والمال ينبغى أن يؤخذ من حقه، وأن يصرف فى حقه، وبذلك يصبح نعم المعونة، وفى الأثر: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

أما إذا جُمع المال من حرام أو أُنفق فى حرام، أو دخلت فيه الشبهات، أو لم تخرج منه الزكاة والصدقة، أو لم يستغل فى التكافل والتراحم والتعاون، فإنه يصبح دُولة بين الأغنياء، ويكون وسيلة إلى الأثرة والأنانية، والمساءلة بين يدى الله عز وجل يوم القيامة.

★ ★ ★

## مشاهد القيامة

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

**المفردات:**

**دكت الأرض:** دقّت وكُسِّرت بالزلازل.

**دكا دكا:** دكًّا متتابعًا، حتى صارت هباءً منثورًا، فلا جبال ولا مرتفعات، بل تصبح أرضا مستوية لا ترى فيها ارتفاعا ولا انخفاضا.

**وجاء ربك:** أمره وقضاؤه.

**والملك:** ملائكة كل سماء.

**وأنّى له الذكرى:** من أين له منفعتها؟ هيهات فقد جاءت بعد فوات الأوان.

**تمهيد:**

يستعرض الحق سبحانه وتعالى مشاهد الآخرة، وقد ذكرت فى سور سابقة بتفصيل مناسب، وذكرت هنا بإجمال مناسب، والحق سبحانه يعطينا هنا العبرة لكل ظالم باغ أَنْ تذكَّرْ ما أصاب الظالمين، أمثال عاد وثمود وفرعون، ولكل راغب فى المال الحرام، أو ممتنع عن إخراج حقوق اليتامى والمساكين، أن تذكَّرْ مشاهد القيامة وأهوالها وحسابها.

**التفسير:**

٢١ - كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا .

كَلَّآ : ردع وزجر لهم عن الأعمال القبيحة، وقد يكون معناها: حقًا.

إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا .

عند نهاية الحياة الدنيا يضطرب الكون، وتنشق السماء، وتدك الأرض دكا متتابعا، مرة إثر أخرى، وعندئذ لا يوجد فوقها جبال، ولا فى أسفلها وديان، بل تتحول إلى أرض مستوية تماما، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، بل تتحول إلى أرض بيضاء مستوية، يقف الخلائق جميعا من عهد آدم إلى قيام الساعة فى مكان مكشوف مستو، تراهم العين وتسمعهم الأذن.

٢٢ - وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا .

جاء عدل ربك، وجاء جلال ربك، جاء الملك القهار، فى ذلك اليوم ينادى: لمن الملك اليوم ؟ والجواب: لله الواحد القهار.

جاء ربُّك وكفى به حكما وعدلا، وجاءت ملائكة السماء الأولى فأحاطت بالخلائق، وجاءت ملائكة السماء الثانية فأحاطت بملائكة السماء الأولى، وهكذا كوَّنت الملائكة سبع طبقات أو سبعة صفوف.

وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييف ولا تمثيل، أى أنه مجيء نؤمن به ونفوّض حقيقة المراد منه إلى الله تعالى.

**قال ابن كثير:**

قام الخلائق من قبورهم لربِّهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا.

كما قال تعالى: هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ. (البقرة: ٢١٠)

٢٣ - وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ .

تأتى جهنم تتلمظ غيظا على من عصى الله تعالى، ويراها الناس رأى العين.

قال تعالى: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (النازعات: ٣٦).

لقد كُشِفَتْ جهنم للنَّاظرين بعد أن كانت غائبة عنهم، فكأنها كانت بعيدة وجاءت إليهم، عندئذ تذهب الغفلة وتجىء الفطنة، ويتذكر الإنسان الغافل أيام غفلته، ولكن بعد فوات الأوان.

إنه الآن يتعظ ويرق قلبه ووجدانه، ويتحسر على الحياة التى أضاعها بغفلته، ولكن لا تفيده هذه الذكرى، فالدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.

٢٤ - يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى .

يقول هذا الإنسان الغافل: يا ليتنى قدَّمت فى حياتى عملاً صالحا، والتزمت بفرائض الله، وسرت على الصراط المستقيم، وأطعت الله وأطعت الرسول ﷺ.

٢٥، ٢٦ - فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ .

ليس أحد أشد عذابا من تعذيب الله من عصاه.

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ .

وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل، وهذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين.

٢٧، ٢٨ - يَـٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً .

عند سكرات الموت يرسلُ الله الملائكة تُطمئن المؤمنين وتبشِّرهم بالجنة.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . (فصلت: ٣٠)

وقيل: إن النداء على النفس المطمئنة عند تمام الحساب، وقيل: عند البعث، وقيل: عند دخول الجنة، وعموما فإنّ مراحل الآخرة تبدأ من سكرات الموت، والنفس المطمئنة هى التى رضيت بالقضاء والقدر، وشكرت الله على النعماء، وصبرت على البأساء، واطمأنت لعدالة أحكام الله، واطمأنت إلى ربّها ودينها، وأطاعت ربها فى رضا وإيمان، ويقين وسعادة، فينادى عليها عند خروج الرُّوح، وفى مراحل الآخرة التالية:

يَٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ .

والاطمئنان فى الدنيا سعادة ما بعدها سعادة، فهى موقنة بقضاء الله وقدره، وقد وقفت عند حدود الشرع، فتجىء يوم القيامة مطمئنة بذكر الله، ثابتة لا تتزعزع، آمنة مؤمنة غير خائفة، حيث يُنادى عليها:

ارْجِعِيَ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً .

عودى عند البعث أو عند الموت إلى ثواب ربك، راضية عن العطاء الإلهى، مرضيا عنك كل الرضا.

قال تعالى: رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... (البينة: ٨)

٢٩، ٣٠ - فَادْخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي .

فادخلى فى عبادى الصالحين، وكونى فى جملتهم، وما أُعدَّ لهم من الكرامة والرِّضوان، وادخلى معهم الجنة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفى ختام السورة نلمح أن الكافر يتعظ ويتوب عن كفره، وعن حرصه على الدنيا دون الآخرة، ولكن لا ينفعه ذلك، فليت راغب التوبة يعجّل بها، الآن الآن، قبل فوات الأوان.

* * *

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (**الفجر**)، مساء الأربعاء ٢٩ من صفر ١٤٢٢ هـ، الموافق ٢٣ / ٥ / ٢٠٠١ م.

* * *



# تفسير سورة البلد

# أهداف سورة البلد

(سورة البلد مكية، وآياتها ٢٠ آية، نزلت بعد سورة ق)

وقد اشتملت السورة على تعظيم البلد الحرام، والرسول الأمين ﷺ، وتكريم آدم وذريته، وبيان أن الإنسان خُلق فى معاناة ومشقة، فى حمله وولادته ورسالته فى الحياة وحسابه فى الآخرة.

وجابهت السورة أحد المشركين، وكشفت سوء أفعاله، ورسمت الطريق الأمثل للوصول إلى رضوان الله.

## مع آيات السورة

١ - لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ . أقسم الله عز وجل بمكة، وفيها البيت الحرام والكعبة، وعندها قبلة المسلمين، وفيها زمزم والمقام، والأمن والأمان.

قال تعالى: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ . . . (المائدة: ٩٧). ومعنى قياما : قواما، أى يقوم عندها أمر الدين، حيث يَقْدُم الحجيج فيطوفون ويسعون، ويؤدون المناسك، ويشاهدون مهبط الوحى، ويصير الرجل آمنا بدخوله الحرم، قال تعالى: وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا . . . (آل عمران: ٩٧).

وقد ذكر القرآن تكريم مكة فى آيات كثيرة، فقد ولد بها النبى ﷺ، وبدأ بها نزول الوحى، ومنها انبثق فجر الإسلام، وإليها يحج الناس.

قال تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ . (الشورى: ٧).

٢ - وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ . وأنت مقيم بهذا البلد، يكرم الله نبيه محمدا ﷺ، الذى جعله خاتم المرسلين، وأرسله هداية للعالمين، وجعل مولده بمكة، وهذا الميلاد يزيد مكة شرفا وتعظيما حيث إن أفضل خلق الله يقيم بها ويحل بين شعابها، ويتنقل بين أماكنها داعيا إلى دين الله، حاملا وحى السماء، وهداية الناس.

٣ - وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . أقسم الله بآدم وذريته لكرامتهم عليه سبحانه، قال تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ . . . (الإسراء: ٧٠). وقيل: كل والد ومولود، «والأكثرون على أن الوالد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والولد محمد ﷺ، كأنه أقسم ببلده ثم بوالده ثم به»[١٠١].

٤ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَـٰنَ فِي كَبَدٍ . الكبد: المشقة والتعب، أي: أوجدت الإنسان فى تعب ومعاناة فى هذه الحياة، فهو فى مشقة متتابعة «من وقت احتباسه فى الرحم إلى انفصاله، ثم إلى زمان رضاعه ثم إلى بلوغه، ثم ورود طوارق السراء، وبوارق الضراء، وعلائق التكاليف، وعوائق التمدن والتعيش عليه إلى الموت ثم إلى البعث، من المساءلة وظلمة القبر ووحشته، ثم إلى الاستقرار فى الجنة أو النار، من الحساب والعتاب والحيرة والحسرة»[١٠٢].

ونظير الآية قوله تعالى: يَـٰٓأَيُّهَا الْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ . (الانشقاق: ٦).

وقوله سبحانه: الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . (الملك: ٢).

٥ - ١٠ - أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَـٰهُ النَّجْدَيْنِ . لبدا: كثيرا، النجدين: الطريقين، وهما طريقا الخير والشر.

روى أن هذه الآيات نزلت فى بعض صناديد قريش، الذين كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد، وهو أبو الأشد أسيد بن كلدة الجمحى، وكان مغترا بقوته البدنية، وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة[١٠٣]، وسواء أكانت هذه الآيات نزلت فى أحدهما أم فى غيرهما فإن معناها عام.

**والمعنى:**

أيظن ذلك الصنديد فى قومه، المفتون بما أنعمنا عليه، أن لن يقدر أحد على الانتقام منه، وأن لن يكون هناك حساب وجزاء، فتراه يجحد القيامة، ويتصرف تصرف القوى القادر، فيطغى ويبغى، ويبطش ويظلم، ويفسق ويفجر، دون أن يتحرج، وهذه هى صفات الإنسان الذى يتعرى قلبه من الإيمان.

ثم إنه إذا دُعى للخير والبذل يقول: أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا . وأنفقت شيئا كثيرا، فحسبى ما أنفقت وما بذلت، أيحسب أن عين الله لا تراه، وتعلم أن ما أعطاه الله له أكثر مما أنفقه، وتعلم أنه إنما أنفق رياء وسمعة، وطلبا للمحمدة بين الناس ؟

ثم بين الله جلائل نعمه على هذا الإنسان، وعلى كل إنسان فقال: أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ . يبصر بهما المرئيات، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . ليعبر عما فى نفسه، وليتمكن من الأكل والشراب، والنفخ والنطق، وَهَدَيْنَـٰهُ النَّجْدَيْنِ . ليختار أيهما شاء، ففى طبيعته الاستعداد لسلوك طريق الخير أو طريق الشر، لأن الله منحه العقل والتفكير،

والإرادة والاختيار، وميزه على جميع المخلوقات، فالكون كله خاضع لله خضوع القهر والغلبة، والإنسان هو المتميز بالاختيار والحرية، ليكون سلوكه متسما بالمسئولية.

١١ - ١٣ - فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ . بعد أن بين الله جليل نعمه على الإنسان، وبخاصة الأغنياء، أخذ يحث أغنياء مكة على صلة الرحم، والعطف على المساكين، والمشاركة فى عتق الرقاب، والتخفيف عن العبيد والإماء.

وقد بدأت الآيات بالحث والتحريض على اقتحام العقبة، ثم استفهم عنها فى أسلوب يراد به التفخيم والتهويل، ثم أجاب بأنها فك رقبة، وهى عتق العبد أو الإعانة على عتقه، والمشاركة فى نقله من عالم الأرقاء إلى عالم الأحرار.

١٤- أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . أو إطعام جائع فى أيام عوز ومجاعة.

١٥- يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . إطعام يتيم فى يوم المجاعة وبخاصة إذا كان قريبا.

١٦ - أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . أو إطعام مسكين عاجز عن الكسب، لصقت بطنه بالتراب من شدة فقره.

١٧ - ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ . أى: جمع إلى الصفات المتقدمة الإيمان الصادق والصبر الجميل، وحث الناس عليه والوصية به، والتواصى بالرحمة والعطف.

ونلحظ أن التواصى بالصبر أمر زائد على الصبر، ومعناه إشاعة الثبات واليقين والطمأنينة بين المؤمنين. وكذلك التواصى بالمرحمة، فهو أمر زائد على المرحمة، ويتمثل فى إشاعة الشعور بواجب التراحم فى صفوف الجماعة، عن طريق التواصى به، والتحاض عليه، واتخاذه واجبا جماعيا فرديا فى الوقت ذاته، يتعارف عليه الجميع، ويتعاون عليه الجميع. فمعنى الجماعة قائم فى هذا التوجيه، لأن الإسلام دين جماعة، ومنهج أمة، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردى فيه وضوحا كاملا.

١٨ - أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْمَيْمَنَةِ . أولئك الذين يقتحمون العقبة، كما وصفها القرآن وحددها، هم أصحاب الميمنة، وأهل الحظ والسعادة، وهم أصحاب اليمين الفائزون.

١٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا . وجحدوا دلائل قدرتنا، وأنكروا آيات الله العظام، من بعث وحساب، ونشور وجزاء، وكذبوا بآيات القرآن. هُمْ أَصْحَـٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ . هم أصحاب الشمال، أو هم أصحاب الشؤم والنحس والخسران.

٢٠ - عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ . يصلون نارا مطبقة عليهم، ومغلقة أبوابها لا يستطيعون الفرار منها، وسيخلدون فيها.

هذه هى الحقائق الأساسية فى حياة الكائن الإنسانى، وفى التصور الإيمانى، تعرض فى هذه السورة القصيرة، بهذه القوة وبهذا الوضوح، وهذه هى خاصية التعبير القرآنى الفريد.

★ ★ ★

## مقاصد السورة

١ -القسم بمكة وبالنبى الكريم ﷺ بيانًا لفضله.

٢ - بيان ما ابتلى به الإنسان فى الدنيا من النصب والتعب.

٣ - اغترار الإنسان بقوته.

٤ - تعداد أنعم الله على الإنسان، كالعين واللسان والعقل والفكر.

٥ - بيان سبيل النجاة الموصلة إلى السعادة.

٦ - الكفران بالآيات سبيل الشقاء.

★ ★ ★

## ابتلاء الإنسان بالتعب، واغتراره بقوته وماله



﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾

**المفردات:**

**لا أقسم:** أقسم، و (لا) مزيدة.

**بهذا البلد:** بمكة المكرمة.

**حل بهذا البلد:** حلال لك ما تصنع به يومئذ.

**والد وما ولد:** آدم وجميع ذريته، أو الصالحين منهم، أو إبراهيم وإسماعيل الوالد، والولد محمد ﷺ.

**لقد خلقنا الإنسان فى كبد:** جواب القسم. والكبد: النصب والمشقة ومكابدة الشدائد.

**أهلكت مالا لبدا:** كثيرا فى المكرمات مباهاةً وتعاظما.

**النجدين:** طريقى الخير والشر.

**التفسير:**

١ - لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ.

لَآ مزيدة، والمعنى: أقسم بهذا البلد، وهى مكة أم القرى، وبها البيت الحرام والكعبة المُشرَّفة، وهى قبلة المسلمين.

قال تعالى: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ... (البقرة: ١٥٠)

وقد أمر الله بالحج والطواف بالبيت العتيق، وهو أوّل بيت وضع للناس، بناه إبراهيم وساعده إسماعيل، ودعا إبراهيم ربّه أن يبعث فيهم رسولا منهم.

قال تعالى: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. (البقرة: ١٢٩).

٢ - وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ .

وأنت يا محمد يا خاتم الرسل، مقيم بهذا البلد، مما يزيد من قيمته وأهميته، فهو من أحب البلاد إلى الله، وبه الكعبة والقبلة، وبه أيضا محمد ﷺ، صاحب الرسالة الأخيرة للبشرية.

وقيل: المعنى: وأنت حلال بهذا البلد الأمين الذى جعل الله فيه البيت الحرام، مثابة للناس وأمنا، ومن دخله كان آمنا، وحرّم الله فيه صيد البرّ، وحرّم فيه العدوان على شجر الحرم، وجعله منطقة سلام وأمان، ومع هذا فإن أهل مكة يستحلون العدوان عليك، ويتهمونك بالسحر والكذب والجنون، ويؤذونك أنت وأصحابك، حتى يضطروهم للهجرة إلى الحبشة مرتين، وإلى المدينة المنورة بعد ذلك.

وقيل: المعنى: إن الله سيفتح لك مكة ويجعلك حرًّا فى التصرف فى أهلها، ويحلّ لك اقتحامها ساعة من نهار، ويحلّ لك التصرف فى أهلها بعد الفتح.

٣ - وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ .

أقسم بكل والد وبما ولده، حيث يتم توالد الحياة وإبداعها بين الأصول والفروع، من الشجر والحيوان والإنسان.

وقيل: القسم بآدم وذريته.

وقيل: القسم بإبراهيم وإسماعيل وهما الجدّان البعيدان لمحمد ﷺ، وبالولد وهو محمد ﷺ، حيث تولد رسالته التى هى خاتمة الرسالات، وفيها خلاص البشرية.

٤ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ .

وهذا هو جواب القسم .

أى: لقد خلقنا الإنسان فى مشقة ومعاناة طويلة، حيث يمر بمراحل فى بطن أمّه، وبمراحل متعددة فى انتقاله من الطفولة إلى الفتوّة، إلى الشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة، ثم المرض والموت وحياة القبر والبعث والحساب، والميزان والصراط، والجنة أو النار .

والكبد: المشقة والجهد والمعاناة التى يمر بها الإنسان فى حياة الدنيا، وحياة الآخرة.

وإذا سأل سائل وقال: لماذا أقسم الله بمكة وبحياة النبى ﷺ بها، وبكل والد وما ولد، على أنه خلق الإنسان فى كبد ومشقة ومعاناة ؟

كان الجواب: نزلت هذه الآيات والمؤمنون بمكة يتعرضون للأذى والاضطهاد، ويقاسون صنوف التعذيب والآلام، فكأن القرآن يقول:

تلك ضريبة الحياة، وهى الكبد والمشقة، ولأن تكون المشقة فى أمر عظيم، هو نشر رسالة وإحياء دعوة أفضل من أن تكون فى سبيل عرض من أعراض الدنيا.

وطعم الموت فى شىء حقير كطعم الموت فى شىء عظيم

٥ - أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

كثيرًا ما يأخذ الإنسان الغرور بقوته أو ماله، أو حسبه أو نسبه، مع أن الإنسان خلق ضعيفا، وإن بعوضة تلسعه فربما أصيب بالحمى، وإن جرثومة تتدسس إلى كيانه لتهدّ بنيانه وتقوض أركانه، لقد أراح الله الحيوانات من الفكر وحساب المستقبل، أما الإنسان فإنه يعيش فى المستقبل أكثر مما يعيش فى الواقع، وهو فى مسيرته بين الضعف والقوة.

قال تعالى: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ... (الروم: ٥٤)

وقال تعالى: وَخُلِقَ الْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا . (النساء: ٢٨)

وقد ذُكر فى أسباب النزول أن الآية نزلت فى أحد كفار قريش الأشدّاء، فقد افتخر بقوته وادعى أنه قادر على الانتصار على عدد من زبانية جهنم. والآية مع ذلك عامة فى كل مغرور بعافيته أو ماله أو جاهه، حين يظن أن الله تعالى لن يقدر عليه.

٦ - يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا .

لقد أنفق أموالا كثيرة فى نزواته وشهواته وملذاته، فإذا دُعى إلى خير أو مساعدة فى معروف، يقول: لقد أنفقت أموالاً كثيرة.

٧ - أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ .

أيظن أن عين الله لا تراه، وتعلم سِرَّه ونجواه، وتطلع على السرّ وما هو أخفى من السِّرّ، فالله خبير بالإنسان وما فى داخله، وهو عليم بما توسوس به نفسه، وهو خبير بالبواعث التى حملته على إنفاق هذا المال، وهو سبحانه سيحاسبه يوم القيامة على الرياء والنفاق، وعدم إخلاص النية للخالق الرقيب الحسيب.

**وهناك آراء للمفسرين فى تفسير الآيتين السابقتين من بينها ما يأتى:**

١ - يقول هذا المغرور بقوته، وهو أبو الأشد أسيد بن كلدة الجُمحى، أو الوليد بن المغيرة، أو أضرابهما: لقد أنفقت مالا كثيرا فى عداوة محمد وفى إيذاء أتباعه، وفى غير ذلك من الوجوه التى كان أهل الجاهلية يظنونها خيرا، وما هى إلا شر محض.

**والمال اللُّبَد:** هو المال الكثير الذى تلبّد، والتصق بعضه ببعض لكثرته، وهو جمع لُبْدة، وهى ما تلبّد أى تجمع والتصق بعضه ببعض.

أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ .

أى: أيظن هذا الجاهل المغرور حين أنفق المال الكثير فى المعاصى والسيئات، أن الله تعالى لم يطلع عليه، إنه سبحانه مطلع على كل شىء، وسيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا.

٢ - وقيل: المراد بالآيتين الأغنياء البُخلاء المراءون الذين يكنزون أموالهم ولا ينفقونها إلا على شهواتهم، وفى توفير لذّاتهم، وإذا حُملوا على عمل من أعمال الخير قالوا: إننا ننفق أموالا كثيرة فى أعمال أخرى. أفيحسب هؤلاء أن عين الله لا تراهم، وأن سرائرهم وضمائرهم ليست مكشوفة أمام الله سبحانه وتعالى (١٠٤).

ثم ذكر الله تعالى أنواع نعمه على الإنسان ليتعظ ويعتبر، فقال:

٨ - أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ .

ألم يتأمل فى خلق الله له حيث جعل له عينين يقرأ بهما، ويرى بهما، ويتأمل بهما فى ملكوت السماوات والأرض، ويرى بهما النور والظلام، وبياض النهار وظلام الليل، وحركة الشمس والقمر، وألوان الخلائق وأوصافها، وأحاط العينين بغطاء به رموش تقفل عند النوم، وعند الرغبة فى غض البصر.

٩ - وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ .

أى: جعل الله للإنسان لسانا يتكلم به، ويقرأ القرآن، ويعبّر عن نفسه، ويقدم النصيحة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وجعل اللسان داخل شفتين لضبط الكلام وللنطق بما هو نافع، وحَبْس اللسان عن اللهو والباطل.

١٠ - وَهَدَيْنَـٰهُ النَّجْدَيْنِ .

بينا له طريق الخير والشر، والهدى والضلال، ليختار الخير والهدى، ويتجنب الشرَّ والضلال.

والنَّجْدُ: الطريق المرتفع، فكلاهما طريق وعر صعب، الخير والشر، يحتاج الإنسان إلى همة وعزيمة وإرادة ليختار الطريق ويثابر عليه.

«وليس سلوك طريق الشرّ بأهون من سلوك طريق الخير، بل الغالب أن يكون طريق الشرّ أشق وأصعب وأحوج إلى الجهد» (١٠٥).

فطريق الخير متفق مع الفطرة، مع الهداية، مع طاعة الرحمن، مع الانسجام مع هذا الكون الذى خضع لله وسجد له وسبّح بحمده، وكذلك المؤمن يسبِّح بحمد الله، وهناك العصاة والمردة والخارجون على طاعة الله، حيث يستحقون غضب الله فى الدنيا، ويستحقون العقاب فى الآخرة.

قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ .

(الحج: ١٨)

تلك مِنَنُ الله علينا، ومن هذه المنن أن جعل الهداية والإيمان، والاستقامة والعفة والنزاهة، وفعل المأمورات واجتناب المنهيات، عن إرادة الإنسان واختياره، وربط الثواب والعقاب بالطاعة أو المعصية، فكل عامل يجزى ثمرة ما زرع فى دنياه، ومن جدّ وجد، ومن زرع حصد.

★ ★ ★

# جهات الخير والبر

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

**المفردات:**

**اقتحم الشىء:** دخل فيه بشدّة.

**العقبة:** الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها، والمراد بها مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، ومن يسوّل له فعل الشرّ من شياطين الإنس والجن.

**فك رقبة:** عتقها، أو المعاونة عليه، أو عمل الخير ليُعتق رقبته من النار.

**مسغبة:** مجاعة.

**مقربة:** قرابة فى النسب، تقول: فلان من ذوى قرابتى، ومن أهل مقربتى، إذا كان قريبك نسبا.

**المتربة:** الفقر، تقول: ترب الرجل، إذا افتقر، وأترب، إذا كثر ماله حتى صار كالتراب.

**تواصوا بالصبر:** نصح بعضهم بعضا به.

**الميمنة:** طريق النجاة والسعادة

**المشأمة:** طريق الشقاء

**مؤصدة:** مغلقة ومطبقة.

**التفسير:**

١١ - فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ .

هلّا عمل الإنسان - الذى أنعم الله عليه بالنظر والسمع واللسان والعقل - على اقتحام عقبة الآخرة، والانتقال إلى دائرة الناجين الداخلين الجنة.

١٢ - وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ .

وما أخبرك ما شأنها وعظيم أمرها، والمراد أنها شىء عظيم يستحق أن يسعى الإنسان إلى فعله، والمشاركة فى أعمال الخير وهى تفسير لاقتحام العقبة.

١٣ - فَكُّ رَقَبَةٍ .

أى: إن العقبة التى يجتازها الإنسان لينتقل من أهل النار إلى أهل الجنة، تتمثل فى فعل الأمور الآتية: فك رقبة، أى إعتاق الرقيق، أو المساعدة فى تحريره لينتقل من العبودية إلى الحرِّية، وقد حثَّ القرآن على تحرير الأرقاء، وكذلك السُّنَّة المطهرة، كما حثَّ الإسلام على الإحسان إلى الأرقاء، وإكرامهم وحسن معاملتهم، فهم مِثْلُنَا من بنى آدم.

قال ﷺ: «إخوانكم خولكم (خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يضرب الوجه ولا يُقبِّح»(١٠٦).

١٤ - أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ .

أو تقديم الطعام للجائع المكروب المجهد، وفى الحديث الشريف يقول ﷺ: «من أطعم جائعا أطعمه الله من ثمار الجنة». ويقول ﷺ: «من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان» أى: الجائع المُجْهد. رواه الحاكم وصححه.

والمراد تقديم الطعام والمعونة للفقراء والمحتاجين عند المجاعة والبؤس والحاجة.

١٥ - يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ .

أى: أطعم فى أيام جوع وقحط يتيما فقد أباه، وله صلة قرابة، فإطعامه له ثوابان أو أجران: أجر الإطعام، وأجر صلة الرحم وإكرام اليتيم.

وقد وصَّى القرآن الكريم باليتيم، وأمر بالمحافظة على ماله، وأمر برعايته وتثمير أمواله، ومخالطته بالمعروف، وحذَّر القرآن من أكل مال اليتيم.

كما جاء فى السنة المطهرة الحثّ على إكرام اليتيم والعطف عليه، حتى ينشأ كريما عالى الهمة، نافعا لأسرته ولأمَّته.

١٦ - أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ .

أو أطعم بماله ومعونته مسكينا التصقت بطنه بالتراب من شدة حاجته، فعاونه وساعده، ويسر له أسباب المعونة والمساعدة، حتى يقف على قدميه ويتكسّب بيديه، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.

والخلاصة:

إن الله أنعم على الإنسان بالنعم، فهلاً شكر الله، واقتحم عقبة الآخرة وأهوالها بالمساهمة فى عتق الرقيق، أو إطعام اليتيم القريب، أو إطعام المسكين المجهد، إن هذه الأعمال ثوابها جليل فى الآخرة، تُبعد صاحبها من النار، وتيسّر له دخول الجنة.

١٧ - ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ .

إن الأعمال السابقة لابد لقبولها من أن يكون فاعلها من المؤمنين بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، ومن الذين تواصوا بالصبر، وحث بعضهم بعضا على الصبر، وتواصوا بالرحمة والعطف، ومدّ يد المساعدة للمحتاجين، ونلمح أن المؤمن مطالب بالصبر، ومطالب بالحثّ عليه، وتوصية الآخرين به.

قال تعالى: وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ . (العصر: ١-٣)

إن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

ومن سمة الأمة المؤمنة: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن المعروف: التواصى بالصبر، وطول النَّفَس فى الجهاد والكفاح، والصبر على الحلال، والبعد عن الحرام، ومن التواصى بالمرحمة إنشاء الجمعيات الخيرية لإعانة المحتاجين، وكفالة اليتامى وتشغيلهم وتعليمهم، وحث الناس على التراحم.

قال ﷺ: «ترى المسلمين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» [١٠٧].

وقال ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن أطعم جائعا أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن كسا عريانا كساه الله من السندس الأخضر يوم القيامة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» [١٠٨].

١٨ - أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْمَيْمَنَةِ .

أولئك الذين آمنوا وأعتقوا الرقاب، أو أطعموا اليتامى الأقارب لهم، أو أطعموا المساكين المحتاجين، هؤلاء أصحاب الميمنة، أى أصحاب اليمين فى الجنة، كما مرَّ فى سورة الواقعة أن الناس يوم القيامة ثلاثة فرق:

١ - السابقون.

٢ - أصحاب اليمين.

٣ - أصحاب الشمال.

قال تعالى: وَأَصْحَـٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ الْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَـٰبِ الْيَمِينِ . (الواقعة: ٢٧-٣٨).

١٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ .

الذين كفروا بآيات الله الكونية، فى خلق الكون والسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وكفروا بآيات الله التشريعية التى أنزلها على رسله، لدعوة الناس إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر، هؤلاء هم أصحاب الشمال الذين يدخلون جهنم، ويعذَّبون فيها بأشد ألوان العذاب.

قال تعالى: وَأَصْحَـٰبُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ الشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ . (الواقعة: ٤١-٥٠).

٢٠ - عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ .

أى: عليهم نار مغلقة، لا يستطيعون الفكاك عنها، ولا الخروج منها، وهم خالدون فى النار خلودًا أبديًّا سرمديًّا.

وجاء فى تفسير ابن كثير:

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ .

أى: مطبقة عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا مخرج لهم منها.

قال ابن عباس: مُؤْصَدَةٌ . مغلقة الأبواب.

وقال مجاهد: أوصد الباب: أغلقه.

وقال الضحاك: مُؤْصَدَةٌ . حيط لا باب له.

وقال قتادة: مُؤْصَدَةٌ . مطبقة، فلا ضوء فيها ولا فُرج، ولا خروج منها آخر الأبد.

اللهم أجرنا من النار ومن عذاب النار، آمين.

★ ★ ★



# تفسير سورة الشمس

# أهـــداف ســـورة الشمـــــس

(سورة الشمس مكية ، وآياتها ١٥ آية ، نزلت بعد سورة القدر)

وهى سورة قصيرة ذات قافية واحدة ، وإيقاع موسيقى واحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التى تبدأ بها السورة ، والتى تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التى تتضمنها السورة ، حقيقة النفس الإنسانية واستعدادها الفطرى ، ودور الإنسان فى شأن نفسه ، وتبعته فى مصيرها .. هذه الحقيقة التى يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

«كذلك تتضمن قصة ثمود وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها ، وهى نموذج من الخيبة التى تصيب من لا يزكى نفسه ، فيدعها للفجور»[١٠٩] ، ولا يلزمها تقواها ، كما جاء فى الفقرة الأولى من السورة : قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا . (الشمس : ٩ ، ١٠) .

## مع آيات السورة

لله تعالى كتابان : كتاب مقروء وهو القرآن الكريم ، وكتاب مفتوح وهذا هو الكون العظيم ، ومشاهد الكون تأسر القلب ، وتبهج النفس ، وتوقظ الحس ، وتنبّه المشاعر .

«ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب فى شتى المواضع ، تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية ، كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطارًا لما يليها من الحقائق»[١١٠] .

١ – أقسم الله بالشمس ، وبنورها الساطع فى وقت الضحى ، وهو الوقت الذى يظهر فيه ضوء النهار ، ويتجلى نور الشمس ، ويعم الدفء فى الشتاء ، والضياء فى الصيف ، قبل حر الظهيرة وقيظها .

٢ – وأقسم الله بالقمر إذا جاء بعد الشمس ، بنوره اللطيف الهادئ الذى يغمر الكون بالضياء والأنس والجمال .

٣ – وأقسم بالنهار إذا أظهر الشمس وأتم وضوحها ، وللنهار فى حياة الإنسان آثار جليلة ، ففيه السعى والحركة والنشاط .

٤ – وأقسم الله بالليل إذا غشى الكون ، فغطى ظلامه الكائنات ، وحجب نور الشمس وأخفاه .

٥ – وأقسم الله بالسماء ومن قدَّر خلقها ، وأحكم صنعها على النحو الذى نشاهده .

٦ – وأقسم الله بالأرض ، والذى بسطها ومهدها للسكنى .

لقد جمع القسم بين ضياء الشمس ونور القمر ، وضوء النهار وظلام الليل ، وارتفاع السماء وبسط الأرض ، ونلحظ فى هذا القسم المقابلة بين النور والظلام ، وبين السماء والأرض ، مما يلفت النظر إلى بديع صنع الله ، وجليل وحيه وإعجاز كتابه .

٧ – ١٠ – وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا .

خلق الله الإنسان مزودا باستعدادات متساوية للخير والشر والهدى والضلال ، فهو قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر .

لقد خلق الله الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وزوده بالعقل والإرادة ، والحرية والاختيار . وقد بين الله للإنسان طريق الهدى وطريق الضلال ، وأودع فى النفس البشرية أصول المعرفة ، والتمييز بين الحق والباطل ، فمن حمل نفسه على الاستقامة وصانها عن الشر فقد رُزق الفلاح والسداد ، ومن أهمل نفسه واتبع شهواته ، وأرخى العنان لنزواته فقد خاب ، لأنه هوى بنفسه من سمو الطاعة إلى حضيض المعصية .

١١ – ١٥ – كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا .

ذُكرت قصة ثمود فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وقد ذكر هنا طغيانها وعتوها على أمر الله ، وقد أعطى الله نبيهم صالحًا الناقة آية مبصرة ، فكانت تشرب وحدها من الماء فى يوم ، وتحلب لهم لبنًا يكفيهم جميعًا فى ذلك اليوم ، ثم يشربون من الماء فى اليوم التالى ، وقد حذرهم رسول الله صالح من الإساءة إلى الناقة ، ولكنهم خالفوا أمره ، وذهب شقى منهم فعقر الناقة ، ولما سكتوا عنه صاروا كأنهم قد اشتركوا معه ، لأنهم أهملوا التناصح ، ولم يأخذوا على يد الظالم : فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا . فأطبق عليهم العذاب ، وسوَّى الله القبيلة بالأرض ، أى دمر مساكنها على ساكنيها .

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . أى أن الله أهلك القبيلة دون أن يخشى عاقبة ما فعل ، لأنه عادل لا يخاف عاقبة ما يفعل ، قوىٌّ لا يخاف أن يناله مكروه من أحد ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

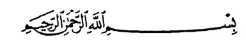
## مقاصد السورة

١ – القسم بالشمس والقمر ، والنهار والليل ، والسماء والأرض والنفس ، على أن من طهَّر نفسه بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز ، ومن سلك طريق الهوى والغواية فقد خاب وشقى .

٢ – ذكر ثمود مثلاً لمن دسى نفسه فاستحق عقاب الله .

★ ★ ★

## جزاء إصلاح النفس وإهمالها



﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾

**المفردات :**

**ضحاها :** ضحى الشمس ضوءُها .

**تلاها :** جاء بعدها .

**جلاها :** أظهرها .

**يغشاها :** يغطيها ويحجب نورها .

**طحاها :** وطّأها وجعلها فراشا .

**دساها :** التدسية : النقص والإخفاء .

**التفسير :**

١ - وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا .

أُقسم بالشمس التى تملأ الكون بالنور والضياء والدفء ، وتمدّ الكون بأشعتها ، وتساعد فى نمو الإنسان والحيوان والنبات والمخلوقات ، وأُقسم بالضحى حيث تكون الشمس مشرقة دافئة فى الشتاء ، متوسطة الحرارة فى الصيف ، فهما قَسَمَان :

**الأول :** قَسَمٌ بالشمس .

الثانى : قَسَمٌ بالضحى .

وقد شُرعت صلاة الضحى كشكر لله على نعمه ، فى إمداد الكون بالنور والضوء ليعمل الناس ويبحثوا عن أسباب الرزق .

٢ – وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا .

وأُقسم بالقمر إذا جاء بعد الشمس ، خصوصًا عندما يكون بدرًا كاملاً ، فى الليالى البيض التى يشتد نور القمر فيها ، حتى يصبح الليل نورًا أبيض ، وهى ليالى الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر من الشهر العربى ، ومن السُّنَّة صيام الأيام البيض كشكر لله على هذه النعمة ، نعمة اكتمال القمر ، واتساع نوره ، وقوّة ضيائه ، وجمال لونه ، وقوة إضاءته ، وعظيم مناجاته ، كأنما القمر دليلٌ لعشاق الكون وعشاق الطبيعة ، حيث يتأمَّلون فى هذا الجمال الذى لا نهاية له ، فسبحان الخلاق العظيم .

قال تعالى : وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ . (الانشقاق : ١٧ ، ١٨) .

أى : وأُقسم بالقمر إذا تكامل نوره وصار بدرًا كاملاً .

٣ – وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّـٰهَا .

وأُقسم بالنهار إذا طلع ، وملأ النّورُ الكون ، وجلَّى الشمس وأظهرها كالعروس فى السماء ، حيث تُظهر الشمسُ ما فى هذا الكون من نبات وحيوان وإنسان ، وبحر ونهر وظل ، لتكون عونًا للإنسان فى التعرُّف على ما فى هذا الكون العظيم .

٤ – وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَـٰهَا .

وأُقسم بالليل الذى يُغطِّى الكون ، ويغشى ظلامه الكائنات فيسترها ويغطيها ، ويغشاها فيمتد الظلام ، ويهجع الناس ، وتسكن الجوارح ، وتنام العيون ، ويكون الليل فرصة للهدوء والسكن ، والنوم وراحة الأعصاب ، ولو استمر النهار لتعب الناس وكلَّت الجوارح ، وصعب النوم المريح المستقر ، ولو استمر الليل لتعطلت المصالح وملّ الناس من الظلام .

قال تعالى : وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (القصص : ٧٣) .

ومن رحمة الله أنه لم يجعل الليل دائمًا ، ولم يجعل النهار دائمًا ، بل جعل الليل ليسكن فيه الناس ، وجعل النهار ليعمل الناس ويبحثوا عن أسباب الرزق ، ولعلَّ الناس أن تدرك فضل الله عليها فى تعاقب الليل

والنهار ، والشمس والقمر ، والظلام والنور ، فيشكروا الله على تسخير هذا الكون بهذا الجمال وذلك الإبداع .

٥ – وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا .

أى : وأُقسم بالسماء وبالله الذى رفعها وأحكم بناءها ، وجعلها سقفًا محفوظًا ، مرتفعًا ممتدًا ، ليس به خلل ولا اضطراب ، بل به الإحكام وقوة البناء والتماسك ، فى نظام الشمس والقمر والكواكب والبروج ، وحركة النجوم ومواقعها ، بحيث لا يحدث اضطراب أو خلل ، بل كلٌّ فى فلك يسبحون ، كل ذرة ومجرة ، كل موجود قد أخذ طريقه ، فالشمس والقمر والفضاء والهواء ، والملائكة والنجوم والكواكب والمجرات والبروج ، وكل كائن قد عرف طريقه ، وأحكم الله خلقه ، وقدَّره تقديرًا وأبدعه إبداعًا ، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ... (الملك : ٣) .

٦ – وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا .

وأُقسم بالأرض وبالله الذى طحاها ، أى بسطها وذلَّلها ،ويسَّر فيها أرزاقها ، سواء كان ذلك بالزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السياحة ، وغير ذلك مما فيه استغلال ظاهر الأرض ، أو باستخراج المياه الجوفية والبترول والكنوز والحديد ، وسائر ما يستفاد به من باطن الأرض ، فالله يُقسم بالأرض ، وبالله الذى خلقها وذللها ، وقدّر فيها أقواتها وأرزاقها ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

٧ – وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا .

وأُقسم بالنفس البشرية ، وهى نفس آدم عليه السلام ، وبالله تعالى الذى خلقه وسواه ، أو أُقسم بكل نفس مخلوقة ، وبالله الخالق الذى أبدع النفس البشرية على غير مثال سابق ، فزوَّد الإنسان بالعقل والإرادة والاختيار ، والقدرة على اختيار طريق الخير أو طريق الشر .

كما قال سبحانه : وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ . (البلد : ١٠) .

وقال عز شأنه : إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

٨ - فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا .

فأودع فيها أسباب الفجور وأسباب التقوى ، بأن خلق الإنسان مزوَّدًا بالقوة والطاقة ، والقدرة على اختيار الفجور ، أو اختيار التقوى ومراقبة الله ، وطاعة أمره واجتناب نواهيه .

٩ ، ١٠ - قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا .

**هناك رأيان فى تفسير هذه الآية :**

**الرأى الأول :** إنها جواب القسم ، أى : أُقسم بالشمس والقمر ، والنهار والليل ، والسماء والأرض والنفس ، لقد أفلح من زكّى نفسه وطهَّرها ، وسما بها إلى الخير ، وحبسها عن الشرّ ، فأطاع الله والتزم بالصيام والصلاة وسائر الطاعات ، وابتعد عن الخمر والربا والزنا وسائر المحرمات ، ولقد خاب من غمس نفسه فى الشهوات والملذات وسائر المعاصى ، فهبط بنفسه إلى الحضيض .

ومعنى : دَسَّىٰهَا . نقصها وغمسها وأخفاها بالفجور ، لقد أذل نفسه وغمسها بالفجور ، وسترها بالمعاصى ، فعجزت عن التّطلع إلى الملأ الأعلى ، وارتكست فى أنواع الشهوة والشرور ، أى أن بيد الإنسان أن يسمو بنفسه إلى الخير ، وأن يهبط بها فى مستنقع الرذيلة ، والله تعالى يُقْسِمُ بمخلوقاته ويمن خلقها وهو الله عز وجل ، على أن الفلاح لمن زكّى نفسه وطهرها ، وأن الخيبة لمن دسَّى نفسه ، وحجبها عن الطهر والنور والتعلّق بجلال الله العلى الكبير .

**الرأى الثانى :** هذه الآية ليست جواب القسم ، وإنما ذكرت استطرادًا للقسم بالنفس ويمن سوَّاها ، وجواب القسم محذوف ، دل عليه ما بعده وهو : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ . إلى آخر السورة .

وتقدير الجواب : لتبعثنّ ، أو لتكافؤنّ على الإحسان إحسانًا ، وعلى السوء سوءًا ، أو ليُدمْدمَنّ الله على الظالمين فى الدنيا ، وليعاقبنّهم يوم القيامة ، كما فعل بثمود حين عقرت الناقة وعتت عن أمر ربِّها .

**قال المفسرون :**

وفى القسم بهذه الكائنات حثٌ للإنسان على التأمل فى هذا الكون ، والتطلع إلى بديع صنع الله فى خلق الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض والنّفس .

★ ★ ★

## قصة ثمود

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**ثمود :** قوم من العرب البائدة ، بعث الله إليهم نبيه صالحًا عليه السلام .

**بطغواها :** بطغيانها .

**انبعث :** قام بعقر الناقة .

**أشقاها :** أشقى رجل فى قوم ثمود ، وهو قدار بن سالف .

**سقياها :** شرابها الذى اختصها به فى يومها .

**فعقروها :** فذبحوها ، والعاقر واحد ونُسب إليهم جميعهم لرضاهم به .

**دمدم عليهم :** أطبق عليهم بالعذاب .

**سواها :** فسوى القبيلة فى العقوبة ، فلم يفلت منها أحد .

**عقباها :** عاقبة الدمدمة وتبعتها .

**تمهيد :**

ثمود هم قوم نبيّ الله صالح عليه السلام ، من العرب البائدة ، أعطاهم الله الناقة آية مبصرة ، تشرب فى يوم وحدها ، فترويهم جميعًا باللبن ، ويشربون هم ماء النهير فى يوم آخر ، وقد حذّرهم نبى الله صالح من العدوان على الناقة ، أو على الماء الذى خُصِّصَ لها فى يومٍ معين ، وحذّرهم أن العذاب سينزل بهم إذا خالفوا أمر الله .

**التفسير :**

**١١ - كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ .**

هذا ملخص لقصة ثمود ، ذكرها القرآن بمناسبة أنّ الله ألهم كل نفس فجورها وتقواها ، وأن ثمود قد اختارت الفجور فأهلكها الله ، وفى هذا تحذير لأهل مكة ولكل باغٍ إلى يوم الدّين .

ومعنى الآية :

كذبت ثمود نبيَّها ، وعصت ربَّها بسبب طغيانها وعتوِّها ، وأنهم تجاوزوا الحدّ فى الطغيان والكفر، فطُغْيانهم حملهم على تكذيب رسولهم ، وتفضيل الكفر على الإيمان ، والضلال على الهداية ، وقد يسَّر الله لهم أسباب الهداية على لسان نبيهم ، وأكّد ذلك بمعجزة الناقة ، حيث تحلب لبنًا سائغًا للشاربين ، يكفى قبيلة ثمود من أولها إلى آخرها ، لكنهم بدل أن يشكروا هذه النعمة ، حملهم الطغيان على الكفر وقتل الناقة .

١٢ – إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا .

سار رجل من ثمود ، عزيز فيهم منيع ، متفوق فى منزلته الاجتماعية ، وفى قدرته على الشرّ والإثم ، فحرَّضوه على الشرّ .

قال تعالى : فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ . (القمر : ٢٩) .

١٣ – فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا .

أى : قال لهم رسول الله صالح : هذه ناقة الله ، أى معجزة من الله لكم ، فحافظوا عليها وعلى نصيبها من الماء ، فلها يوم تشرب فيه وحدها ماء النهير ، ولكم يوم ثانٍ تشربون فيه ماء النهير وحدكم ، واليوم الذى تشرب فيه الناقة تعطيكم جميعًا لبنا يكفيكم من أوّلكم إلى آخركم ، ونصحهم النبى صالح بالمحافظة على الناقة ، وعلى حقها فى شرب ماء النهير فى يوم ، ونصحهم بألا يتعرضوا للناقة بأىّ أذى حتى لا يصيبهم العذاب الأليم .

قال تعالى : وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . (هود : ٦٤) .

وقال عز شأنه : قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء : ١٥٥ ، ١٥٦) .

١٤ - فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا .

لقد كذَّبوا نبيهم ، وعقروا الناقة بدون أن يحسُّوا بأىّ ندم أو تأنيب ضمير ، فعاقبهم الله وسوَّى عليهم الأرض ، وكلمة دَمْدَم كلمة معبرة حيث سوّى الله بهم الأرض ، ورفع عليهم الهدم والتراب ، حين صاح بهم المَلَك صيحة أهلكتهم ، فماتوا تحت التراب والهدم ، وسُوِّيت بهم الأرض .

١٥ - وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا .

إنَّه إله قادر عادل ، قوى متين ، فعَّال لما يريد ، فحين يعاقب ظالمًا ويسوّى به الأرض ، ويجعله هالكًا تحت التراب ، فإن الله تعالى لا يخاف عاقبة ذلك .

أولاً : لأنه عادل غير ظالم ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦) .

ثانيًا : لأنه قوى غالب لا يغلبه غالب ، وهو عزيز ذو انتقام .

قال تعالى : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . (البروج : ١٢) .

★ ★ ★



# تفسير سورة الليل

# أهداف سورة الليل

(سورة الليل مكية ، وآياتها ٢١ آية ، نزلت بعد سورة الأعلى)

وتصف السورة مشاهد الكون ، ومظاهر القدرة ، وتقرر حقيقة العمل والجزاء ، وتبيّن أن الجزاء الحق من جنس العمل .

ونلاحظ في السورة التقابل بين الليل والنهار ، والذكر والأنثىٰ ، ومن أعطى واتقى ومن بخل واستغنى ، وبين الأشقى الذى كذب وتولى والأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وهذا من بدائع التناسق فى التعبير القرآنى .

## مع آيات السورة

١ - ٤ - وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ .

يقسم الله سبحانه وتعالى بالليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها ، وبالنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر فى تجليه كل شىء ويسفر .

ويقسم بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى ، وميز بين الجنسين مع أن المادة التى تكوّنا منها واحدة ، والمحل الذى تكونا فيه واحد .

يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة فى الكون وفى الناس ، على أن سعى الناس مختلف ، وعملهم متباعد ومتفرق ، فمنه السيئ ومنه الحسن ، ومنه التقوى ومنه الفجور ، ومنه ما يجازى عليه بالنعيم المقيم ، ومنه ما يعاقب عليه بالعذاب الأليم .

- ١١ - فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ .

فأما من أعطى الفقراء ، وأنفق المال فى وجوه الخير ، وراقب الله وابتعد عن المحرمات ، وأيقن أن الله سيُخلف عليه ما أنفق ، مصدقًا بالفضيلة ، ومميزًا بينها وبين الرذيلة ، وابتعد عن طريق

الغواية ، فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ . فسنجعل اليسر يفيض من نفسه على كل ما حوله ، وعلى كل من حوله ، اليسر فى خطوه ، واليسر فى طريقه ، واليسر فى تناوله للأمور كلها ، والتوفيق الهادئ المطمئن فى كلياتها وجزئياتها .

وأما من بخل بماله ، واستغنى عن ربه وهداه ، وكذّب بالدين الحق ، ولم يصدق بأن الله سيُخلف على المنفقين ، وسيجزى المحسنين ، فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ . فيسلب الله منه الهدى واليسر ، ويحرمه كل تيسير ، ويجعل فى كل خطوة من خطاه مشقة وحرجًا ، ينحرف به عن طريق الرشاد ، فإذا تردّى وسقط فى نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذى بخل به ، والذى استغنى به كذلك عن الهدى والسداد .

١٢ – إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . أى : إنا خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ثم أرسلنا له الرسل ، وأنزلنا له الكتب لترشده إلى الهداية والإيمان .

١٣ – وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ . وإنا المالكون لكل ما فى الآخرة ولكل ما فى الأولى ، فأين يذهب من يريد أن يذهب بعيدًا عن الله ؟

١٤ ، ١٥ – فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى . وإن من هداية الله للبشر ، أن خوفنا رسوله الكريم محمد ﷺ نارًا تلظى : تتسعر وتشتد ألسنة لهبها ، هذه النار لا يقاسى حرها إلا أشد الناس شقاوة ، وهو الكافر .

١٦ – ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . الذى كذب بالدعوة ، وكذّب الرسول ﷺ فيما جاء به عن ربه من الآيات ، وأعرض أيضًا عن اتباع شرائعه ، وانصرف عن الحق دون دليل يستند إليه ، حتى صار التكذيب والإعراض أبرز أوصافه .

١٧ – ٢١ – وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ... وسيبعد عن النار من اتقى الله ، وابتعد عن الموبقات ، والذى ينفق أمواله فى وجوه البر ، طالبًا بذلك طهارة نفسه وقربها من ربه ، ولا يريد بذلك رياء على معروف ، وإنما يقدم الخير ابتغاء مرضاة الله ، وحبًّا فى ذاته سبحانه ، ولسوف يرضى من فعل ذلك بأحسن ثواب ، فى أفضل مكان وفى أحسن جوار .

رُوى أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد كان من أمره أن بلال بن رباح – وكان مولى لعبد الله بن جدعان – دخل فى الإسلام ، فكان سيده يعذبه ، ويخرجه إلى الرمضاء

فى حر الظهيرة ، ويضع الحجر على بطنه ، ويقول له : لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فلا يزيد بلال على أن يقول : أحد أحد ، وكان رسول الله ﷺ يمرّ به وهو يُعذب فيقول له : «ينجيك أحد أحد» ، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه بما يلقى بلال فى الله ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه ، فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزل قوله تعالى : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ ... إلى آخر السورة .

## مقاصد السورة

١ – بيان أن الناس فى الدنيا فريقان :

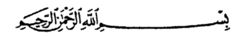
( أ ) فريق يهيئه الله للخصلة اليسرى ، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها ، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على من أنفق .

(ب) وفريق يهيئه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، وهم الذين بخلوا بالأموال ، واستغنوا بالشهوات ، وأنكروا ما وعد الله به من ثواب الجنة .

٢ – الجزاء فى الآخرة من جنس العمل ، فالأشقى له النار ، والأتقى له الجنة والرضوان .

★ ★ ★

## اختلاف مسعى الناس



﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾

**المفردات :**

**يغشى :** يغطى كل شيء فيواريه بظلامه .

**تجلى :** ظهر وانكشف بظهوره كل شيء .

**وما خلق :** والذى خلق .

**شتى :** واحدها شتيت ، وهو المتباعد بعضه عن بعض .

**أعطى :** بذل ماله .

**اتقى :** خاف عذاب الرحمن واجتنب المحارم .

**الحسنى :** بالكلمة الحسنى ، وهى مؤنث الأحسن .

**فسنيسره :** فسنهيئه .

**لليسرى :** لليسر والسهولة .

**للعسرى :** للعسر والعنت والمشقة .

**تردى :** هلك ، وهو تفعل من الرَّدَى .

**التفسير :**

١ ، ٢ ، ٣ – وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ .

أُقسم بالليل حين يغطى بظلامه كلّ ما كان مضيئًا ، حيث يأوى كل حيوان إلى مأواه ، ويسكن الخلق عن الاضطراب والضرب فى الأرض ، ويغشاهم النوم الذى جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم .

وأُقسم بالنهار إذا تجلَّى وظهر وانكشف ووضح لزوال ظلمة الليل ، وجاء الوقت الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وتتحرك الطير من أوكارها ، والهوام من مكامنها .

وأُقسم بالله الذى خلق الذكر والأنثى من كل نوع وجنس ، وجعل استمرار الحياة متوقفًا على ذلك ، فالإنسان والحيوان والنبات والسحاب وغير ذلك ، يتوقف استمرار الحياة فى جنسه على التلقيح بين الذكر والأنثى .

قال تعالى : وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا . (النبأ : ٨) .

وهدى الله الرجل والمرأة للتلاقى والتواصل والإنجاب فسبحان الذى ، أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . (طه : ٥٠) . ومثل ذلك بين الحيوان ، وفى النبات نجد الرياح والحشرات يتم عن طريقها التلقيح بين الذكر والأنثى ، وكذلك السحاب تقوم الرياح بتلقيح السحابة السالبة بسحابة موجبة ، فيتم الإخصاب وينزل المطر .

قال تعالى : وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ . (الحجر : ٢٢) .

٤ – إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ .

هذا هو جواب القسم ، أى : إن أعمال العباد مختلفة متباعدة ، فمن فاعلٍ خيرًا ، ومن فاعلٍ شرًا ، وبعض الأعمال ضلال ، وبعضها هدى ، وبعضها يوجب الجنّة ، وبعضها يوجب النار ، كما أن أعمال الناس مختلفة ومتعددة فى الدنيا ، فمنهم الصانع ومنهم الزارع ، ومنهم الطبيب المداوى ، والمعلم والمهندس ، والباحث والمحارب ، والعاملون فى شئون الحياة المختلفة ، حتى يشعروا جميعًا أن كل واحد منهم فى حاجة إلى الآخر ، ليتم التعاون ، ويتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا .

**قال القرطبى :**

السعى : العمل ، فساعٍ فى فكاك نفسه ، وساعٍ فى عطبها ، يدل عليه قوله ﷺ : «الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها»[١١١] .

ونحو الآية قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . (الجاثية : ٢١) .

وقوله تعالى : لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ . (الحشر : ٢٠) .

ثم وضح الله تعالى عاقبة المتقين وعاقبة الكافرين ، فقال :

٥ - فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ .

أى : أعطى ماله فى جهة الخير والبر والزكاة والصدقة ، واتقى الله فابتعد عن المحرمات والشبهات ، وفَعَل المأمورات .

قال ابن كثير : أعطى ما أُمر بإخراجه ، واتقى الله فى أموره .

٦ - وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ .

وصدق بالجنة التى أعدّها الله للأبرار ، وأيقن بكلمة التوحيد وهى : (لا إله إلا الله) أو بملة الإسلام ، أو صدق بالجزاء الأوفى من الله على كل خير ، وكلمة الحسنى تتسع لتشمل كل خصلة حسنة ، إذ كلها ترجع إلى ثواب الله الذى هو الجنة .

٧ - فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ .

فسنوفقه للأمور الميسَّرة ، ونهيِّئه لعمل الخير ، وفعل الطاعات وترك المحرمات .

والخلاصة : أن من التزم بأوامر الله وطاعته ، فإن الله ييسر له الخير والفلاح ، ويمنحه الرضا والتوفيق ، فتراه يسير فى طريق العمل الصالح ، بعيدًا عن المعاصى ، ميسرًا لطريق الجنة .

قال تعالى : رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ . (البينة : ٨) .

٨ - وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ .

وأما من بخل بإنفاق المال ، واستغنى عن عبادة ذى الجلال .

**قال الأستاذ أحمد المراغي في تفسيره :**

وأمّا من أمسك ماله ، أو أنفقه في شهواته ، ولم ينفقه فيما يقرب من ربّه ، وخدعته ثروته وجاهه ، فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد . اهـ .

٩ - وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ .

وكذّب بالدين الحق ، وبأنّ الله يُخلف على المنفقين ، ويعاقب الأشحّاء الباخلين .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[١١٢] .

١٠ - فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ .

أي : نمنعه من التوفيق والهدى والرغبة في الخير ، فتكون الطاعات أعسر شيء عليه ، ويكون طريق الشرّ ميسورًا بين يديه .

كما قال تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (الأنعام : ١١٠) .

**قال ابن كثير :**

والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجلّ يُجازي من قصد الخير بالتوفيق ، ومن قصد الشرّ بالخذلان ، وكلّ ذلك بقدر مقدّر .

والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة ، منها ما رواه البخاري ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة ، فقال : «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار» ، فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتّكل ؟ فقال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ، ثم قرأ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ[١١٣] .

١١ - وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ .

ماذا ينفعه المال إذا وقع في الهلاك والرّدى ، وعوقب على بخله وكفره بالنار ، سيترك المال لورثته ، وينتهي بالموت بخيلاً كافرًا إلى النار وبئس المصير .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ... (الأنعام : ٩٤).

لقد خلق الله الإنسان ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وأرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، فمن صدَّق بالآخرة وعمل لها ، يسر الله له طريق الخير ، ومن كذَّب بالآخرة ولم يعمل لها ، واستغنى عن الإيمان وكفر بالله ، يسر له طريق الشرّ ، ولن ينجيه المال الذى تركه فى الدنيا إذا سقط فى جهنم .

قال تعالى : ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ . (مريم : ٨٠) .

إنما الذى ينفع الإنسان هو ما يقدمه فى الدنيا من الإيمان وإخراج الزكاة والصدقة ، وفعل الطاعات وترك المحرمات .

قال ﷺ : «أيّكم مال وارثه أحب إليه من ماله»؟ قلنا : يا رسول الله ، كل واحد منّا ماله أحب إليه من مال وارثه . فقال ﷺ : «فإن مالك ما قدّمت ، ومال وارثك ما أخّرت»[١١٤] .

★ ★ ★

## الأشقى والأتقى

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

**المفردات :**

**تلظى :** أصله تتلظى ، أى : تتوقد وتلتهب .

**لا يصلاها :** لا يحترق بها .

**الأشقى :** من هو أشد شقاء من غيره .

**كذّب :** كذّب الرسولَ فيما جاء به عن ربه .

**تولى :** أعرض عن طاعة ربه .

**يتزكى :** يتطهر .

تـــجـــزى : تجازى وتكافأ .

**التفسير :**

١٢ – إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ .

إن علينا –.بمقتضى حكمتنا ورحمتنا بعبادنا – أن نبين لهم طريق الحقّ وطريق الباطل ، بواسطة رسلنا وكتبنا ، وما أودعناه فى فطرة كل إنسان من أسباب الهداية .

قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

وقال تعالى : وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... (الكهف : ٢٩) .

فمن أراد الهدى وسلك سبيل الرّشد ، أعانه الله بتوفيقه وسداده وأمدّه بمعونته ، ومن أراد الضلال والشهوات والمحرّمات ، سلب الله عنه الهدى وتركه ضالاً .

**ويكون معنى الآية :**

إن من مقتضى حكمتنا أن نيسّر أسباب الهدى للبشر ، فمن اختار طريق الهدى أعنّاه عليه ، ويسرنا له اليسرى ، ومن آثَرَ الضلالة سلبنا عنه أسباب الهدى ، ويسّرناه للعسرى ، أى للنار وبئس المصير .

وهذا معنى الحديث : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، إن الله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ .

١٣ – وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ .

أى : لنا ما فى الدنيا والآخرة ، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ، حقًّا .. مسكين من ضل طريقه وعَصَى ربّه ، وأطاع هواه واتبع شيطانه ، وهو نَفْسه ملك لربّه ، إذ الخلق والأمر بيده ، والعطاء والمنع لا يملكه أحد سواه ، وهذا الكون كله تحت تصرفه وقدرته .

وفى يوم القيامة ينادى المنادى : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ؟ فيكون الجواب : لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

قال تعالى : مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . (الفاتحة : ٤) .

١٤ – فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ .

فحذرتكم نار الآخرة التى تتوهج وتتوقد ، ويأكل بعضها بعضا ، وهى تتلمظ شوقًا إلى العصاة الكافرين .

١٥ – لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى .

لا يُعذَّب بين طبقاتها إلا الكافر الذى باع الهدى ، واشترى الضلال والإعراض عن طريق الله .

١٦ – ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

الذى كذّب رسالة الأنبياء ، وكفر بالله ، وأعرض وأدبر عن طاعة الله وتجنبها ، هؤلاء الكفار يصطلون بنار جهنم ، ويعذبون بين طبقاتها ، وتغشاهم النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

قال تعالى : لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ... (الزمر : ١٦) .

أما المؤمنون العصاة فلا يُعذَّبون بين طبقات جهنم ، بل يُعذبون على وجهها فى الطبقة الأولى عذابًا دون عذاب الأشقياء من الكافرين .

١٧ – وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى .

وسيبتعد الأتقياء عن جهنم ، فيمرُّون عليها ولا يدخلون فيها ، بل يشاهدونها فقط ، ليزدادوا شكرًا لله على نجاتهم .

كما قال تعالى : فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥) .

وقال تعالى : وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا . (مريم : ٧١ ، ٧٢) .

١٨ – ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ .

الذى يعطى ماله للفقراء والمساكين ، ويصرفه فى جهات الخير والبرّ ، وعتق الرقاب ومساعدة المحتاجين ، رغبةً فى التطهر من الذنوب والتقرب إلى علاّم الغيوب ، فهو يعمل القربات مع الإخلاص والبعد عن الرياء والنفاق .

١٩ - وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ .

ليس لأحد عنده من يدٍ أو معروف فيجازيه عليه ، بل عمل وجوه الخيرات تقربًا إلى الله تعالى .

قال المفسرون :

نزلت الآيات فى حق أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، حين اشترى بلالاً وأعتقه فى سبيل الله ، فقال المشركون : إنما فعل ذلك ليدٍ كانت لبلالٍ عنده ، فنزلت .

٢٠ - إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ .

أى : إنه فعل ما فعل من القربات ابتغاء مرضاة الله تعالى والدار الآخرة .

وفى معنى الآية قوله تعالى : إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا . (الإنسان : ٩) .

٢١ - وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ .

ولسوف يرضى عنه الله جزاء إخلاصه وتطوعه بعمل الخير من أجل مرضاة الله ، فقد وعده الله بأن يرضى عنه .

وقيل : إن المعنى : ولسوف يعطيه الله فى الآخرة ما يرضيه ، وهو وعد كريم من رب رحيم ، والمؤمن الصادق راضٍ عن الله تعالى ، والله تعالى راضٍ عنه .

قال تعالى : رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... (البينة : ٨) .

وقال عزّ شأنه : يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى . (الفجر : ٢٧ - ٣٠) .

(تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الليل) .

★ ★ ★



# تفسير سورة الضحى

# أهـــداف ســـورة الضحى

(سورة الضحى مكية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة الفجر)

وسورة الضحى بموضوعها وتعبيرها ومشاهدها ، لمسة من حنان ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتسكب الرضا والأمل ، إنها كلها خالصة للنبي ﷺ ، كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين .

ورد في روايات كثيرة أن الوحي فَتَرَ عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه جبريل عليه السلام ، فقال المشركون : إن إله محمد ودَّعه وقلاه . عندئذ نزلت هذه السورة ، نزل هذا الفيض من الود والحب ، والرحمة والإيناس والقربى ، والطمأنينة واليقين .

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ . أي : وحقّ الضحى ، وهو وقت ارتفاع الشمس ، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ . أي : سكن ، والمراد سكون الناس والأصوات فيه . أقسم الله بالضحى الرائق الذي ينتشر فيه الضوء والنور وتخف فيه حدة الشمس ، وأقسم بالليل الساكن الهادئ ليربط بين القسم وجوابه وهو: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ . ما تركك ربك ولا جفاك كما زعم المشركون ، وهو ربك وراعيك وكافلك . وللدار الآخرة خير لك من هذه الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك من الكمالات ، وظهور الأمر ، وبقاء الذكر ، ما يجعلك ترضى .

| | |
|---|---|
| وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه | إذا قال في الخمس المؤذن أشهد |
| وشق له من اسمه ليُجِلّه | فذو العرش محمود وهذا محمد |

ويمضي سياق السورة يُذكّر الرسول ﷺ بنعم الله عليه : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ . أي : فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب ، وهو على غير دينك .

ولقد كنت ضالا غير عالم بمعالم النبوة وأحكام الشريعة ، متحيرًا لا تجد طريقًا واضحًا مطمئنًا ، لا فيما عند أهل الجاهلية ، ولا فيما عند أتباع الأنبياء حيث إن هؤلاء الأتباع حرفوا وبدلوا ، ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك ، وعلمك أحكام الشريعة والرسالة ، ولقد كنت فقيرًا فأغناك الله بكسبك ، وبمال خديجة ، وبما أفاء عليك من الربح في التجارة .

وبمناسبة ما ذكره الله من النعم ، يوجه الرسول ﷺ ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعم الله التى لا تحصى ، ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ . أى : فلا تغلبه على ماله لضعفه فتسلبه إياه ، وأما السائل فلا تزجره . ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ . وحدّث الناس بما عندك من علم ، بسبب إنعام الله عليك بالنبوة ، وكن هاديًا دائمًا إلى طريق الفوز والفلاح .

والتحدث بالنعمة صورة من صور الشكر للمنعم ، يكملها البر بالعباد ، وهو المظهر العملى للشكر ، ولذلك يقول أبو حامد الغزالى : شكر النعمة هو استغلالها فيما خُلقت له .

فشكر نعمة البصر : التأمل فى ملكوت السماوات والأرض ، وغض البصر عن المحرمات .

وشكر نعمة السمع : سماع الحق والعلم والقرآن ، والامتناع عن سماع الزور والإثم .

وشكر نعمة اليد : أن تكتب بها العلم والحق ، وأن تساعد بها ، وأن تضرب بها فى سبيل الله ، وأن تجاهد أعداء الدين ، وألا تؤذى بها أحدًا من المستضعفين .

ونلاحظ أن البيئة العربية فى الجاهلية كانت تجحد حقّ الضعيف ، وتهمل اليتيم والمسكين ، وترى أن السيف هو القوة القادرة ، وهو الحكومة المنفذة ، حتى جاء الإسلام بأحكامه العادلة ، وشريعته السمحة ، فدعا إلى الحق والعدل ، والتحرّج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله الذى يحرس حدوده ويغار عليها ، ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفًا يذودون به عن هذه الحقوق .

## مقاصد سورة الضحى

١ – القسم بالضحى والليل على أن الله ما قلى رسوله وما تركه .

٢ – وعد الرسول ﷺ بأنه سيكون فى مستقبل أمره خيرًا من ماضيه .

٣ – تذكيره ﷺ بنعمة الله عليه فيما مضى ، وأنه سبحانه سيواليها عليه .

٤ – طلب الشكر منه على هذه النعم .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾

**المفردات :**

**والضحى :** أُقسم بوقت ارتفاع الشمس .

**سجى :** سكن أو اشتد ظلامه .

**ما ودعك ربك :** ما تركك منذ اختارك ، وهذه الجملة جواب القسم .

**وما قلى :** وما أبغضك منذُ أحبك .

**ألم يجدك :** ألم يَعْلَمك ربك ، أى قد عَلِمَك .

**يتيما :** طفلاً مات أبوك وأنت جنين .

**فآوى :** فضمَك إلى من يكفلك ويرعاك .

**ضالا :** غافلاً عن أحكام الشرائع ، أو متحيرًا فيما تراه من أحوال قومك .

**فهدى :** فهداك إلى أسباب الهداية بما أوحى إليك .

**عائلا :** فقيرًا عديمًا .

**فأغنى :** فرضَّاك بما أعطاك ومنحك .

**فلا تقهر :** فلا تغلبه على ماله ولا تستذلَه .

**فلا تنهر :** فلا تزجره ، وترفق به .

**التفسير :**

١ ، ٢ - وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ .

أُقسم بالضُّحى ، وهو وقت ارتفاع الشمس وانتشار الضوء ، وخروج الناس إلى أعمالهم ، وامتلاء الكون بنور الشمس قبل أن يشتدّ حرُّها ، وقد شُرعت صلاة الضحى شكرًا لله على هذه النعمة .

وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ .

وأُقسم بالليل إذا سكن ، أو غطّى بظلمته النهار ، وستر كل شيء تحت ظلامه ، مثلما يُسجِّى الرجل بالثوب ، ويُغطّى ويُسجى الميّت بالكفن .

٣ - مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ .

لم يتركك ربّك ، ولم يقطعك قطع المودِّع ، ولم يقطع عنك الوحى ، وما أبغضك وما كرهك وما قلاك كما يزعم بعضهم ، وقد ادَّعت أم جميل زوجة أبى لهب أن شيطان محمد قد تأخرّ عنه ، وأن إله محمد قد أبغضه وتركه ، وقد روى البخارى ومسلم أن هذا كان سبب نزول سورة الضحى .

والسورة كلها حنان وعطف وتقدير لرسول الله ﷺ ، وردٌّ على مزاعم الكافرين حين تأخر الوحى عن رسول الله ﷺ ، فقد سأله أهل مكة ثلاثة أسئلة :

**الأوّل** : عن الروح .

**الثانى** : عن أصحاب الكهف .

**الثالث** : عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وهو (ذو القرنين) .

فقال ﷺ : «غدًا أجيبكم» ، ونسى أن يقول : إن شاء الله ، فتأخر الوحى خمسة عشر يومًا ، فلما نزل جبريل قال النبى ﷺ : «يا جبريل ، ما جئتَ حتّى اشتقتُ إليك» ، فقال جبريل : لأنا أشد شوقًا إليك منك إلىَّ ، فقال ﷺ : «وما يمنعك أن تنزل ، وأن تجىء أكثر مما تجىء» ؟ فقرأ جبريل الآية : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . (مريم : ٦٤) .

وكانت هذه الفترة للوحى لإلهاب شوق النبى ﷺ إلى الوحى ، وإنها لنعمة كبرى أن يختار الله محمدًا رسولاً ، ويرسل إليه جبريل عليه السلام يحمل وحى السماء ، ليكون رسالة الله للبشر أجمعين .

٤ - وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ .

في هذه الآية تفسيران :

التفسير الأول : أعطاك الله الرضا والمحبّة ، وسيتوالى فضل الله عليك فى الدنيا ، فتزداد كل يوم عزًّا ونصرًا ، حتى تفتح مكة ويدخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وقد صدق الله وعده ، فنصر رسوله فى غزوة بدر ، واستمرّ نصر الله له حتى خضعت أم القرى ، وعمَّ الإسلامُ بلاد العرب ، وانتقل الإسلام فى حياة الخلفاء إلى بلاد الفرس والروم ومصر وشمال أفريقيا ، وغير ذلك .

وخلاصة معنى الآية : الفترة الآخرة من حياتك ستكون خيرًا لك من الفترة الأولى .

التفسير الثانى : ستكون منزلتك فى الحياة الآخرة خيرًا وأفضل من الحياة الأولى ، حيث يعطيك الله الشفاعة والمنزلة السامية ، ويكرمك فى أُمَّتك .

والخلاصة : منزلتك يوم القيامة وعطاء الله لك فى الآخرة خير لك من الحياة الدنيا .

٥ - وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ .

سيستمر عطاء الله لك ، وهو ربّك وحبيبك ، فأعطاه الله الوحى ، وأراه مكان أُمّته ، وأن مُلك أُمّته سيبلغ ما بلغ النهار ، فاستبشر ورضى ، وأعطاه الله فى الآخرة الحوض والشفاعة والمنزلة الرفيعة ، وألاّ يسوءه فى أُمّته ، وغير ذلك مما يرضيه ﷺ .

٦ - أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ .

توفى والده ﷺ وهو جنين فى بطن أمّه ، فكفله جدّه عبد المطلب ، وماتت أمّه وعمره ست سنوات ، ثم مات جدّه عبد المطلب وله من العمر ثمانى سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، وكان به حفيًا ، وكان يحوطه ويرعاه وينصره بعد نزول الرسالة عليه - وهو على رأس الأربعين - وكان أبو طالب على دين قومه لكنّه نصر محمدًا حتى مات ، وعمر الرسول ﷺ يقارب سبعًا وأربعين سنة ، وقد قيّض الله له من يكرمه ويأويه ، فنشأ كريمًا عزيزًا بفضل الله تعالى .

وقيل : معنى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ .

ألم أجدك يتيمًا لم ترغب فيك المراضع ، فآويتك إلى مرضعة تحنو عليك ، ورزقتها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبَّتك وتكفلتك .

٧ - وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَىٰ .

ووجدك غافلاً عن الشرائع ، فأنزل عليك الوحى والتشريع .

قال تعالى : وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ... (العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩) .

**وقيل** : المعنى : وجدك فى حيرة مما عليه قومك ، فاليهودية قد عبث بها الرؤساء ورجال الدين ، والمسيحية كذلك ، عبث بها القساوسة والشمامسة والبطارقة ، وكان العرب يدَّعون أنهم على دين إبراهيم ، ومع ذلك كانوا يئدون البنات ، ويشربون الخمر ، ويرتكبون الزنا ، ويعبدون الأوثان ، ويبطش القوى بالضعيف ، ويستمسك الأغنياء والأقوياء بمالهم وجاههم ، فلا ينفقون منه على الفقراء والمحتاجين ، وكان الله قد منح محمدًا ﷺ فطرة سليمة ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب الخمر ، ولم يرتكب الفواحش ، وكان يخلو بنفسه فى غار حراء ، عابدًا لله متأملاً فى هذا الكون ، متحيرًا مما عليه الناس ، حتى اجتباه الله وأنزل عليه الوحى ، وهداه إلى طريق الرسالة وإحياء دين الإسلام .

وجمهور العلماء على أنه ﷺ قد فُطر على الإيمان بالله ، وما كان ﷺ على دين قومه لحظة واحدة ، بدليل قوله تعالى : مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . (النجم : ٢) .

وقد كان هناك متحنثون من العرب ، زهدوا فيما عليه القوم ، وانصرفوا إلى التحنث وتوحيد الله ، أى ترك الحنث والإثم ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى السموّ الروحى ، وكان قس بن ساعدة الإيادى يخطب فى الناس ، ويقول : البعرة تدلّ على البعير ، وخط السير يدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج ، وأرض ذات فجاج ، ألا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير ، يقسم قسٌّ بالله قسَمًا لا إثم فيه ، إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا .

وكان النبى ﷺ قد استمع إليه ، ثم قال ﷺ لمن حوله : «أيكم يحفظ شعره» ؟ فقال أبو بكر الصدّيق : أنا أحفظ شعره ، وهو :

| | |
|---|---|
| فى الذاهبين الأوّلين | من القرون بصائر |
| لما رأيت مواردا للموت | ليس لها مصادر |
| ورأيت قومى نحوها | تمضى الأكابر والأصاغر |
| أيقنت أنّى لا محالة | حيث صار القوم صائر |

وقد ذكر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس فى كتابه (دراسات فى السيرة النبوية) أن محمدًا ﷺ كان قبل أن يدخل فى مراحل النبوة قد اتجه بقلبه ونفسه إلى البحث عن الحقّ ، أنفة من الأوثان ، وبصيرة منه بأنها عبث لا طائل وراءها ، أى أنّه سار فى طريق من عرفنا من الحنيفيَّة ، دون أن يكون فى جملتهم ، إنما هو كان يبحث وحده عن ملة إبراهيم عليه السلام ، وهذا بدوره مرتبط أشد الارتباط بما كان محمد ﷺ عليه طوال ما مضى من حياته كلها ، فقد وجهه الله سبحانه فى طريق الفضائل والكمالات ، لما سبق فى تقديره سبحانه من أنه مصطفيه للرسالة الكبرى ، فكان مثالاً فى الفضل والخير والعصمة من الزلل ، حتى تستقيم معه الرسالة .

وقد كانت فى بلاد العرب يهودية لكنّها كانت سلبية لا تدعو الناس إليها ، وكانت تؤمن بالله ، وكانت فى بلاد العرب مسيحية لكنها كانت محدودة جدًا فى بعض الصوامع أو الأديرة ، وكانت تؤمن بالله .

وفكرة الله خالق الكون ظلت فى أذهان العرب ، لكنهم أشركوا معه معبوداتهم الوثنية ، وقالوا إنهم يتقربون بعبادتها إلى الله زلفى .

قال تعالى على لسانهم : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... (الزمر : ٣) .

وكان من الحنيفيين ورقة بن نوفل ، وهو عم خديجة بنت خويلد[١١٥] . اهـ .

كان ﷺ فى حيرة من أمر نفسه ، ومن أمر قومه ، فهداه الله بالرسالة الخاتمة ، وجعله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا .

**وقيل** : إن معنى الآية : أن النبى ضلَّ عن جدّه فى شعاب مكة ، فرآه أبوجهل منصرفًا عن أغنامه ، فرده إلى جدّه وهو متعلق بأستار الكعبة ، يضرع إلى الله تعالى ويقول :

يــا ربّ ردَّ ولــدى مـحـمـــدا ... اردده ربّى واصطنع عندى يَدَا

٨ - وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ .

وجدك فقيرًا فأغناك من ربح التجارة فى مال خديجة ، وبما وهبته له ﷺ ، أو أغناك بالقناعة ، فجعلك راضيًا مؤمنًا ، راغبًا فى الآخرة ، عازفًا عن زينة الدنيا ، أو أغناك باستقبال الأنصار لك فى المدينة ، وما أفاء الله عليك من الغنائم والفىء فى الفتوح والغزوات والسرايا .

٩ - فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ .

تأتى هذه الآيات تعليمًا للرسول ﷺ ولأمّته بإكرام اليتيم ، وعدم التطاول إلى أخذ ماله أو قهره أو إذلاله ، وقد حثّ القرآن على إكرام اليتيم فى السور المكية والمدنية ، وفى صدر سورة النساء وصايا متعددة باليتامى ، حيث أمرت بإعطاء اليتامى أموالهم ، وعدم تبديدها وحسن استثمارها ، وتهديد من يأكل مال اليتيم بالنار وعذابها ، وتذكير الأوصياء بأنهم معرّضون لأن يموتوا ويتركوا ورثة ضعفاء ، فهل يرضيهم أن يأكل الناس أموالهم ؟ إذن فليتقوا الله وليستوصوا باليتامى خيرًا .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا . (النساء : ١٠) .

وقد كان النبى ﷺ يتيمًا ، فأكرمه الله وآواه ، لذلك أمره الله بإكرام اليتيم ، وقد كان ﷺ قدوة عملية فى ذلك ، فرعى أبناء الشهداء والمجاهدين ، وضمَّهم إلى كفالته ورعايته ، وحين تزوج السيدة أمّ سلمة - وكان زوجها قد مات شهيدًا فى الحرب - قالت : إنى ذات عيال ، فقال لها : «العيال على الله ورسوله» .

وفى الصحيح : «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين»[١١٦] . وأشار بالسبابة والوسطى .

١٠ - وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ .

ينبغي أن تردَّ السائل بعطاء ولو كان قليلاً ، أو تردّه بكلمة طيبة دون أن تنهره أو تزجره ، وإذا جاء أحدٌ يستفهم عن أمور الدين ، أو يستفهم منك فى أىّ أمْر من الأمور فلا تردّه بالغلظة والجفوة ، وأجبه بالرفق واللين ، فإن إجابة السائل فرض على العالم على الكفاية .

وروى مالك ، وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، عن أبى هارون العبدى قال : كنّا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ قال : «إن الناس لكم تبع ، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا»[١١٧] .

١١ - وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

اشكر نعمة الإيمان والإحسان ، والوحى والعلم والفرقان ، وذلك بالتحدث بها إبلاغًا وتعليمًا وتربية وهداية ، ومن التحدث بالنعمة إظهار فضل الله على الإنسان ، وإعطاء المحتاجين ، وشكر من أسدى إلينا جميلا .

أخرج أبو داود ، والترمذى وصححه ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[١١٨] .

قال العلماء المحققون : التحدث بنعم الله تعالى جائز مطلقا ، بل مندوب إليه إذا كان الغرض أن يقتدى به غيره ، أو أن يشكر ربه بلسانه ، وإذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب فالستر أفضل .

## فائدة

رُوى عن الشافعى أنه رأى أن التكبير سنة فى خاتمة سورة الضحى إلى آخر القرآن ، لأنه حين انقطع الوحى ثم نزلت سورة الضحى قال رسول الله ﷺ : «الله أكبر» ، تصديقًا لما أتى به القرآن .

وفى القرى المصرية يتوارث القرّاء أن يقولوا عقب سورة الضحى وما بعدها : (الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد ) وهى سنة عملية من فعلها فحسن ، ومن ترك فلا حرج ، والله أعلم .

**قال المفسرون :**

ولفظ التكبير إما بأن يقول : (الله أكبر) .

أو يقول : (لا إله إلا الله والله أكبر) .

★ ★ ★

وقد كان الفراغ من تفسير سورة (الضحى) ظهر يوم الخميس ٨ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١/٥/٣١ بمسجد حراء بمنطقة المقطم ، بالقاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★



# تفسير سورة الشرح

## أهــداف ســورة الشــرح

(سورة الشرح مكية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة الضحى)

### مجمل ما تضمنته السورة

١ – هيأ الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ لتلقى الرسالة الكريمة ، وأفاض عليه من نعمه الجزيلة ، فشرح صدره بما أودع فيه من العلوم والحكم ، حتى حمل أعباء النبوة ، وجعل أمر التبليغ عليه سهلا هينا.

٢ – قرن الله اسم النبى ﷺ باسم الله العظيم فى الشهادة والأذان والإقامة والتشهد .

٣ – بيّن الله أن ما يصيب النبى ﷺ من شدة ، سيعقبها اليسر والفرج .

٤ – طلب الله تعالى من نبيه الأمين ﷺ إذا ما انتهى من تعليم الناس وإرشادهم ، أن يشغل نفسه بعبادة الله .

٥ – أمره ألا يسأل أحدا غيره ، لأنه سبحانه وتعالى هو السيد القادر وحده على إجابة دعوة العبد السائل(١١٩) .

### مع السورة

نزلت سورة الشرح بعد سورة الضحى ، وكأنها تكملة لها ، فيها مظاهر الرعاية والعناية الإلهية ، وفيها البشرى باليسر والفرج : ألم نفسح صدرك لهذه الدعوة ونيسر لك أمرها ؟

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . أى : ووضعنا عنك عبأك الذى أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله ، وضعناه عنك بشرح صدرك له فخفّ وهان ، وبتيسيرك وتوفيقك للدعوة ومداخل القلوب .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . رفعناه فى الملأ الأعلى ، ورفعناه فى الأرض ، ورفعناه فى هذا الوجود جميعا ، ورفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله ، كلما تحركت به الشفاه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

قال مجاهد فى معناه : أى لا أُذكر إلا ذُكرت معى .

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . ومع الشدة فرجا ، ومع قلة ذات اليد السهولة والغنى ، فخذ فى أسباب اليسر والتيسير، فإذا فرغت من مهمة تبليغ الرسالة فانصب واتعب فى القيام بواجبات العبادة لنا . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب . واجعل رغبتك إليه ، ولا تسأل إلا فضله متوكلا عليه . وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . (التغابن : ١٣) .

«وتنتهى سورة الشرح كما انتهت سورة الضحى ، وقد تركت فى النفس شعورين ممتزجين :

الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذى ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحيم ، والشعور بالعطف على شخصه ﷺ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم ، فى هذه الآونة التى اقتضت ذلك الود الجميل .

إنها الدعوة ، هذه الأمانة الثقيلة ، وهذا العبء الذى ينقض الظهر ، وهى مع هذا وهذا مشرق النور الإلهى ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود» . [١٢٠]

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨ ﴾

**المفردات :**

**ألم نشرح :** ألم نُفسح بالحكمة والنبوة ، والاستفهام للتقرير ، كأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك .

**وضعنا عنك :** خَفَّفنا عنك ، وسهلنا عليك .

**وزرك :** حملك الثقيل ، وهو أعباء الرسالة والنبوة .

**الذى أنقض ظهرك :** أثقله حتى سُمع له نقيض (صوت) والكلام على التمثيل ، لأن النبى ﷺ كان يحمل همًّا معنويًّا ، فشبه ذلك بمن يحمل حملا ثقيلا فوق ظهره ، ثم خفف الله عليه أعباء النبوة والرسالة التى تثقل الظهر ، من القيام بأمرها ، وأداء واجباتها ، وحطَّ الله عنه ثقلها بأن صارت يسيرة له .

**ورفعنا لك ذكرك :** بالنبوة والرسالة ، كأن جعلتك تُذْكر مع ذكرى فى الأذان والإقامة والتشهد والخطبة وغيرها .

**فإذا فرغت :** من عبادة أدَّيتها .

**فانصب :** فاجتهد وأتعبها بعبادة أخرى ، أو بعمل آخر .

**فارغب :** فاجعل رغبتك فى جميع شئونك .

**التفسير :**

١ - أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ .

الاستفهام هنا للتقرير ، فقد عدَّد الله تعالى عليه بعض النعم فى سورة الضحى ، ثم أتمَّ تعديد النعم فى سورة الشرح .

**والمعنى :**

قد شرحنا صدرك ، أى وسَّعناه ونورناه بالإيمان والرضا والسرور ، وإذهاب الضيق والآلام .

قال تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ... (الزمر : ٢٢) .

وقد كان ﷺ فى ألم وحزن من تكذيب قومه لرسالته ، وإعراضهم عن دعوته .

قال تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ .

(الحجر : ٩٧ ، ٩٨)

كانوا يقولون : ساحر وكاذب ومجنون ، وكانت يد الله تمسح على صدره ، فتُهوِّن عليه ما يلقاه فى سبيل الدعوة ، وتدعوه أن يذكر اسم الله فى الشدّة ، وأن يلجأ إليه داعيا متبتلا .

قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

وقال تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وقيل : المراد بالشرح هنا : توسيع الصدر حسيًّا حين كان يرضع من حليمة السعدية ، فأخذه مَلَكان فأضجعاه وشقا صدره ، وأخرجا منه حظ الشيطان وملآه بالإيمان .

وقد ورد ذلك فى صحيح مسلم ، وفى كتب السنة أن ذلك الشرح الحسِّى تكرر وعمر النبى ﷺ عشرون سنة وأشهر ، كما وقع ذلك ليلة الإسراء والمعراج ، والجمهور على أن شرح الصدر هو تنويره بالحكمة ، وتوسيعه لتلقى ما يوحى إليه .

وليس هناك ما يمنع من أن يُراد من شرح الصدر الشرح الحسِّى ، ويكون وسيلة لتطهير قلبه وتخليصه من أى أثر للشيطان ، ويكون هذا الشرح الحسِّى وسيلة أيضا للشرح المعنوىّ ، وهو تحمّل أعباء الرسالة ،

والصبر على الأداء ، واحتمال تكذيب القوم ، مع الصبر وانتظار الفرج ، وقد أشار إلى شيء من ذلك الإمام ابن كثير حيث قال :

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . يعني : شرحنا لك صدرك ، أي نوَّرناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا .

وقيل : المراد بقوله : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . شرح صدره ليلة الإسراء ، وهذا وإن كان واقعا ، لكن لامنافاة ، فإن من جملة شرح صدره ﷺ ، الذى فُعل بصدره ليلة الإسراء ، ما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضا . ا هـ .

**والخلاصة :**

إن الله جمع له بين الشرح الحسِّى من جهة ، ثم أودع فى صدره من الهدى والإيمان والفضائل والحكمة ما لم يُعطه لأحد سواه .

٢ ، ٣ - وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ .

قيل : إن معنى الآية : غفرنا لك ذنبك الذى أثقل ظهرك ، أى آلمك وجعلك تنوء بحمله ، وتؤنّب نفسك على ارتكابه ، وليس المراد بالذنب الكبائر ، فقد عصم الله الأنبياء من ارتكاب شيءٍ منهيٍّ عنه ، ولكن المراد منه ارتكاب خلاف الأولى ، مثل أن عَبَس فى وجه عبد الله بن أم مكتوم ، حين جاء يلحّ فى السؤال وطلب العلم ، وكان ﷺ مشتغلا بعَرْض الإسلام على مجموعة أو أفراد من كبار المشركين ، طامعا فى إسلامهم .

ومثل أنه أذن لبعض المنافقين بالتخلّف عن الجهاد فى غزوة تبوك حين استأذنوه فى التخلف .

ومثل أنه قَبِلَ الفداء من كفّار مكة فى أسرى بدر ، وقد كان عن اجتهاد منه ﷺ ، ولكن الوحى نزل يبين أن ذلك خطأ أو مرجوح لا راجح ، وأن الأولى به ﷺ أن يختار الوجهة الأخرى التى شرحها القرآن.

والنبى ﷺ من حقّه أن يجتهد ، لأن الله تعالى أعطانا جميعا العقل ، وكلفنا بالاجتهاد ، لكن النبى ﷺ لا يُقَرُّ على خطأ ، أو لا يُقَرُّ على خلاف الأولى ، وقد ذكر القرآن أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال تعالى : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا . (الفتح : ١ - ٣) .

قال فى التسهيل لعلوم التنزيل : وإنما وُصفت ذنوب الأنبياء بالثّقل ، وهى صغائر مغفُورة لهم ، لهمّهم بها ، وتحسّرهم عليها ، فهى ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله ، وهذا كما ورد فى الأثر : «إنّ المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه ، والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه » [١٢١] .

وذهب كثير من المفسرين[١٢٢] إلى أن معنى قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . أى: يسرنا عليك أعباء النبوة والرسالة ، وبَيَّنّا لك طريق تبليغ الدعوة ، ويسَّرنا عليك تحمل الأعباء فى دعوة قوم يصرُّون على عبادة الأوثان والأصنام ، ويتهمونك بأنك شاعر أو كاهن أو مجنون ، ذلك أنّ المقام مقام تعديد النّعم التى أنعم الله تعالى بها على رسوله ﷺ .

وكان ﷺ قد مكث فى مكة فترة مؤلمة فى بداية الدعوة ، تعرَّض فيها هو وأصحابه للأذى الحسِّى والمعنوى ، ووقفت قريش حجر عثرة فى طريق الدعوة ، بيد أن الله أمدَّ رسوله بالعزيمة والهمّة والقوة والصبر ، فكان آية فى هذا المجال .

وحين عرض عليه أهل مكة عروضا منها المال أو الجاه أو الرئاسة أو العلاج من أثر الجن ، ووسَّطوا عمّه أبا طالب ليعرض عليه ذلك ، قال ﷺ : «والله ياعمّ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو تنفرد منى هذه السالفة» .

قال الأستاذ أحمد المراغى فى تفسيره :

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ .

أى : حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلِّغها ، فجعلنا التبليغ عليك سهلاً ، ونفسك به مطمئنة راضية ، ولو قوبلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم. [١٢٣] .

٤ - وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ .

رفع الله له ذكره ، فختم به النبيين ، وجعل شريعته خاتمة الشرائع ، وجعلها باقية إلى يوم القيامة ، وأنزل عليه القرآن الكريم .

وملايين المآذن تردد الأذان ، وفيه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ويتكرر ذلك فى التّشهد ، وفى خطبة الجمعة ، وفى كثير من الأمور .

وقد جعل الله على يدى رسوله محمد ﷺ إنقاذ أعداد غفيرة من النّاس من رق الأوهام ، وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة ، وحررهم من عبادة الأوثان والأصنام والشموس والأقمار .

**قال حسان بن ثابت :**

وضم الإله اسم النبىّ إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه ليُجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

**وقال قتادة :** رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة . ا هـ .

أى : جعل شريعته ورسالته خاتمة الشرائع ، ورفع ذكره فى الآخرة حيث أعطاه الله الشفاعة العظمى التى اختصه الله تعالى بها .

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ، ونوّه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به .

**٥ ، ٦ - فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا .**

إن مع الشدة فرجا ، ومع الصبر والكفاح نجاحًا وفلاحًا ، وقد حدثت للدعوة الإسلامية وللمسلمين فى فجر الإسلام مضايقات من كفّار مكة ، فنزلت هذه الآيات تؤكد لهم أن مع العسر والضيق وتكالب كفار مكة على الإسلام ، سيأتى يسر وفرج ، فقد تمت الهجرة وتم نصر المسلمين فى بدر ، وتوالى نصر الله لرسوله ﷺ ، حتى فُتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

والآية السادسة تكرير وتأكيد للآية الخامسة ، ويحتمل أن يكون لها معنى جديد ، وهو قدوم اليسر والنصر العظيم ، والغنى والفرج والمغانم .

حيث كان كفار مكة يعيِّرون رسول الله ﷺ والمسلمين بالفقر ، فنزلت الآيات تبشِّره بأن الشدة ستزول ، وأن اليسر سيأتى بعد العسر ، وبالفعل أكرم الله رسوله ﷺ وأمّته ، ففتح الله له البلاد ، ودان له العباد ، ودخل الناس فى الإسلام أفواجا وجماعات ، وبلادًا وأمما .

**قال الشاعر :**

ولرُبّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

**٧ ، ٨ - فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب .**

إذا فرغت من شئون الدنيا وأمرها فأتبع ذلك بالنَّصب والتَّعب فى شئون الآخرة ، وارغب إلى الله فى عبادتك وصلاتك ومناجاتك وتبتّلك ، وقُمْ إلى العبادة نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة .

وقيل : إذا فرغت من الصلاة المفروضة فانصب فى صلاة النافلة ، أو فى الدعاء والاستغفار .

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب . اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل .

وقد سار النبى ﷺ على هذا الهدى الكريم ، فكان نموذجا يُحتذى فى عمله ، وقيام الليل ، وتدريب المسلمين وقيادة الجيوش، وتربية الصحابة والصحابيات ، وقد اقتدى به أصحابه من بعده ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى لأكره لأحدكم أن يكون خاليا ، لا فى عمل دنيا ولا دين .

وقال عمر أيضًا : إنى لأنظر إلى الرجل فيعجبنى ، فإذا قيل إنه لا عمل له سقط من عينى .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (الشرح) ، ونسأله سبحانه وتعالى العون والتوفيق والفتوح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

★ ★ ★



# تفسير سورة التين

# أهـــداف ســـورة التين

(سورة التين مكية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة البروج)

والحقيقة الرئيسية التى تعرضها سورة التين هى حقيقة الفطرة القويمة التى فطر الله الإنسان عليها .

يُقسم الله سبحانه على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين .

وقد كثرت أقوال المفسرين فى التين والزيتون ، فقيل : هما جبلان بالشام ، وقيل : هما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتهما ، وقد أقسم الله بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة .

وَطُورِ سِينِينَ . هو الطور الذى نُودى موسى عليه السلام من جانبه ، وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ . هو مكة بيت الله الحرام .

لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تعديل، بانتصاب قامته وحسن صورته ، واستجماعه لخواص الكائنات فى تركيبه .

ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ .

أى : ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة الله عليه أن رددناه أسفل سافلين ، حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ، لاستقامتها على فطرتها ، وإلهامها تسبيح ربها ، وأداء وظيفتها على هدى ، بينما هو المخلوق فى أحسن تقويم يجحد ربه ويرتكس مع هواه .

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . فطرة واستعدادا . ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ . حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذى هداه الله إليه وبينه له .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... فلهم أجر دائم غير مقطوع ولا منقوص ولا ممنون .

فما يكذبك بالدين بعد ظهور هذه الحقيقة ، وبعد إدراك قيمة الإيمان فى حياة البشرية ؟

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ . أليس الله بأعدل العادلين ، حين يحكم فى أمر الخلق على هذا النحو ؟ أو أليست حكمة الله بالغة ؟

والعدل واضح والحكمة بارزة ، ومن ثم ورد فى الحديث المرفوع : «إذا قرأ أحدكم : وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ . فأتى آخرها : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ . فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين» .

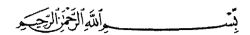
## مجمل ما تضمنته السورة

أقسم الله تعالى بأنه أحسن خلق الإنسان ، فجعله منتصب القامة ، متسق الأعضاء والخواص ، وقد يرده إلى أرذل العمر فيصير ضعيفا هرما .

أو أنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفسا وبدنا وعقلا ، إلا أنه تمشيا مع رغباته الأثيمة ، ونزواته الشريرة ، انحطت منزلة بعض أفراده ، فصيره الله إلى منازل الخزى والهوان ، واستثنى الله تعالى من هذا المصير ، أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير مقطوع ، وأشارت السورة أيضا إلى أن الله تعالى هو أعدل الحاكمين ، وأعلى المدبرين حكما .

★ ★ ★

## حالة النوع الإنسانى خلقا وعملا



﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**والتين والزيتون :** قسمٌ بهما ، وقيل : قسمٌ بمنبتهما من الأرض المباركة .

**وطور سينين :** جبل المناجاة للكليم موسى عليه السلام ، وسينين وسيناء علمان على الموضع الذى فيه جبل الطور .

**البلد الأمين :** مكة المكرمة .

**لقد خلقنا :** جواب القسم .

**أحسن تقويم :** أكمل تعديل ، وأحسن صورة

**رددناه :** رددنا الكافر ، أو جنس الإنسان

**أسفل سافلين :** إلى النار ، أو الهَرم وأرذل العمر .

**غير ممنون :** غير مقطوع عنهم

**بالدين :** بالجزاء بعد البعث والحساب

**التفسير :**

١ - وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ .

الله تعالى يُقسم ببعض مخلوقاته ليلفت النظر إلى فضلها ، أو يشير إلى منابتها وأماكن وجودها ، وقد تعددت آراء العلماء فى المراد بالتين والزيتون .

وأقوى الآراء هنا رأيان :

الرأى الأول :

المراد بهما : التين الذى نأكله ، والزيتون الذى نأكله ، وإنما أقسم بالتين لأنه غذاء وفاكهة ودواء ، فهو غذاء لأنه طعام لطيف ، سريع الهضم لا يمكث فى المعدة ، يُلين الطبع ، ويقلل البلغم ، ويطهِّر الكليتين ، ويزيل ما فى المثانة من الرَّمْل ، ويسمِّن البدن ، ويفتح مسام الكبد والطِّحال ، وهو خير الفواكه وأحمدها ، وفى الأثر : (إنه يقطع البواسير ، وينفع من النقرس) .

وكذلك أقسم الله بالزيتون لأنه فاكهة وإدام ودواء ، يعصر منه الزيت الذى هو إدام غالب لأهل بعض البلاد ودهنهم ، ويدخل فى كثير من الأدوية .

قال تعالى : وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ . (المؤمنون : ٢٠) .

وقال تعالى : وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . (عبس : ٢٩) .

الرأى الثانى :

أنهما كناية عن البلاد المقدّسة التى اشتهرت بالتين والزيتون ، ويكثر ذلك فى بيت المقدس ، وجبل بيت المقدس الذى بُعث منه عيسى عليه السلام .

وبذلك يكون القسم فى السورة بالأماكن المقدّسة التى أُرسل منها الرسل الكرام : موسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ، وقد جاء فى آخر التوراة ذِكْر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء (يعنى المكان الذى كلّم الله عليه موسى) ، وأشرق من ساعير (يعنى جبل بيت المقدس الذى بُعث منه عيسى) ، واستعلن من جبال فاران (يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمدًا ﷺ) .

٢ - وَطُورِ سِينِينَ .

هو الجبل الذى كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، ويقال له : طور سَيناء بفتح السين وكسرها ، وقُرئ سَينين بفتح السين وسِينين بكسر السِّين ، قيل : هو اسم للبقعة التى بجوار الجبل .

**وقال الأخفش** : سينين جمع بمعنى شجر ، واحدته سينه أى شجرة ، والقسم به لرفع ذكره ، والتذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى وقومه ، وما كان بعد ذلك من سنّ الشريعة الموسوية وإنزال التوراة .

**٣ - وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ .**

وهو مكة المكرمة ، وأمين بمعنى آمن ، حيث يأمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه ، فقد حُرِّم فيه العدوان ، حتى لو وجد الإنسان قاتل أبيه فى مكة فلا يحل له أن يقتله .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... (العنكبوت : ٦٧) .

وقد سمّى الله مكة بكّة ، وسمّاها أم القرى ، وسمّاها حرمًا آمنا ، وجعلها قبلة المسلمين إلى يوم الدين ، وبها المسجد الحرام ، والكعبة المشرفة ، وبها وُلد محمد ﷺ ، ثم هاجر منها ، وعاد إليها فاتحًا منتصرا ، ثم أنزل الله عليه : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... (المائدة : ٣) .

**والمعنى** : وأُقسم بهذا البلد الذى جعله الله مثابةً للناس وأمنا ، والذى وُلد فيه محمد ﷺ ، ونزل الوحى عليه ﷺ فى هذا البلد أول مرّة بغار حراء ، ثم تتابع الوحى وكملت شريعة الإسلام .

كما قال تعالى : لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ . (البلد : ١، ٢) .

**٤ - لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .**

**هذا هو جواب القسم .**

أى : أُقسم بالتين والزيتون ، وبجبل طور سينين ، وبمكة البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن ما يكون من التعديل والتقويم ، صورةً ومعنى .

فقد خلق الله الإنسان معتدل القامة ، جميل الصورة ، وفى وجهه للنظر عينان ، وللسمع أذنان ، ولسان وشفتان ، ومنحه الله يَدَيْن يبطش بهما ، ورجلين يمشى عليهما ، وعقلاً يفكّر به ، ونفخ الله فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وكرَّمه الله تكريما عظيما ، وفضَّله على كثير من مخلوقاته ، فَصَدْر الإنسان آية ، وبطنه آية ، وفرجه آية ، إلى جوار الأجهزة المتعددة الموجودة فى الإنسان كالجهاز الهضمى ، والجهاز العصبى ، والجهاز التناسلى ، ثم ميّزه الله بالإرادة والاختيار ، والعقل والفكر ، وأرسل الله له الرسل ، وأنزل له الكتب .

قال القرطبي : ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر ، إذ كل ما في المخلوقات جُمع فيه . اهـ .

قال الشاعر :

وتزعم أنك جرم صغير		وفيك انطوى العالم الأكبر

وقال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . (الإسراء : ٧٠) .

٥ - ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ .

أي . لقد خلقنا الإنسان في أفضل خلقة ، حسيًا ومعنويًا ، لكنه لم يشكر هذه النعمة ، ولم يفطن لهذا الفضل ، فرأيناه يكفر بفضل الله عليه ، فيسجد للأصنام ، ويؤثر هواه ، ويسير وراء نزواته ، ويفضّل اللهو والخمر والكفر ، ومعاداة الرُسل ، فيستحق أن يكون من أهل النار ، وأن يكونْ في أقبح خلقة ، وأسفل درجة ، بكفره وعناده ، ثمّ بدخوله جهنم وبئس المصير .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى كالآتي :

خلقنا الإنسان في أفضل خلقة ، وينتقل من الضعف إلى القوة والرشد وبلوغ الأشدّ ، ثم يعود إلى أسفل سافلين ببلوغه مرحلة الكبر والضعف ، فيعود ضعيف القوة ، ضعيف الذاكرة ، وربما وصل إلى مرحلة ضياع الذاكرة وخرف العقل ، أو تغضّن الوجه واهتزاز اليد وقلة الحيلة .

وكان ﷺ يستعيذ بالله من أن يردّ إلى أرذل العُمر ، واختار جمع من المفسرين الرأي الأول ، لأنه يرتبط بما قبله وبما بعده .

أي أن الله خلق الإنسان في أكمل صورة ؛ لكنّ الكافر هوى بنفسه إلى مرحلة البهائم ، أو أضل سبيلا ، باختيار الكفر على الإيمان ، والضلال على الهدى .

قال ابن كثير :

ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ .

أي إلى النار ، قال ذلك مجاهد والحسن وأبو العالية وابن زيد ، أي : بعد هذا الحُسن والنضارة مصيره إلى النار ، إن لم يُطع الله ويتبع الرُسل ، ولهذا قال بعد ذلك : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...

وقال بعضهم :

ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ .

أى : إلى أرذل العمر[١٢٤] . واختيار ذلك ابن جرير الطبرى .

ولو كان هذا هو المراد لما حَسُن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله تعالى : وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ[١٢٥] وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ . (العصر : ١ - ٣) .

٦ - إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

أى أن الكافر والعاصى يُرَدُّ إلى أسفل سافلين فى جهنم ، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم فى الآخرة ثواب أعمالهم غير منقوص ، لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) . حيث تزداد وجوههم حسنًا ونضارة ، وإشراقا ونورًا ، بسبب النَّعيم الذى يتمتعون به ، وبسبب رضوان الله عليهم ، وبسبب الشباب والقوة والنعمة التى يمنحها الله لأهل الجنة ، فلهم أن يشبّوا فلا يهرموا أبدا ، ولهم أن ينعموا فلا يصيبهم البؤس : وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . (فاطر : ٣٤) .

أو المعنى :

لكن الذين كانوا مؤمنين صالحين من الزَّمنى والهَرْمَى فلهم ثواب متصل دائم لا ينقص بالهرم وقلة العمل ، «جزاء امتثالهم ، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم ، ومقاساة المشاق ، والقيام بالعبادة مع ضعفهم ووهنهم .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس أنه قال فى الآية : إذا كبر العبد وضعف عن العمل كُتب له ما كان يعمل فى شبيبته»[١٢٦] .

٧ - فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ .

ما الذى يجعلك أيها الإنسان الكافر الجاحد مكذبا بيوم الدين والقيامة والبعث والجزاء ، بعد أن قدمتُ لك هذه الأدلة على قدرتى ، أليس الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم بقادر على إعادته عند البعث والجزاء ؟

فالمقصود بقوله تعالى : يُكَذِّبُكَ : يجعلك مكذبا ، أى لا عذر لك فى التكذيب بالحق ، وقيل : الخطاب للرسول محمد ﷺ ، والمعنى : من الذى يُكذبك أيها الرسول الكريم ، ويُكذب بيوم الدين والجزاء بعد أن ظهرت الدلائل على صدقك؟

إن كل عاقل ينبغى أن يصدقك ولا يكذبك ، ويتَّبعُكَ ولا يُعرض عَنك .

٨ - أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ .

أليس الذى خلق فسوَّى ، وقدَّر فهدى ، وخلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأبدع الكون ، وخلق كلَّ شىء فقدَّره تقديرا ، أليس هذا الإله بأعدل العادلين ، حكمًا وقضاء ، وفصلا بين العباد ؟

قال ابن كثير :

أما هو أحكم الحاكمين الذى لا يجور ولا يظلم أحدًا ، ومن عدله أن يقيم القيامة ، فينتصف للمظلوم فى الدنيا ممن ظلمه .

وقد روى الإمام الترمذى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ منكم : وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ . ثم انتهى إلى قوله تعالى : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ . فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين» .

★ ★ ★

(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة التين) .

★ ★ ★



# تفسير سورة العلق

# أهـــداف ســـورة العـلـــق

(سورة العلق مكية ، وهى أول ما نزل من القرآن الكريم ، وعدد آياتها ١٩ آية)

## مع آيات السورة

١ –٥ – ورد فى كتب الصحاح أن النبى ﷺ كان يتعبد فى غار حراء ، فجاءه الملَك فضمه ضما شديدا حتى بلغ منه الجهد ثلاث مرات ، ثم قال :

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

اقرأ باسم الله وقدرته ، الذى أحكم الخلق ، وهو بديع السماوات والأرض ، خلق الإنسان من دم متجمد ، يعلق بجدار الرحم ، فسواه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، فكسا العظام لحما ثم أنشأه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

اقرأ وربك الأكرم الذى له الكمال فى زيادة كرمه على كل كريم ، يُنعم على عباده بالنعم ، ويحلم عليهم فلا يعاجلهم بالعقوبة .

ومن الله يستمد الإنسان كل ما علم وكل ما يعلم ، والله هو الذى خلق وهو الذى علَّم فمنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة .

وقد كان ﷺ أكمل الخلق ذكرا للّه ، وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائما وقاعدا وعلى جنبه ، وفى مشيه وركوبه ، وسيره ونزوله ، وسفره وإقامته ، ولقد كان واجب كل إنسان أن يعرف ربه ويشكره ، ولكن الذى حدث غير هذا .

٦ – ٨ – كلا إن الإنسان ليتجاوز الحد فى التعدى ، أن رأى نفسه مستغنيا ، إن إلى ربك الرجوع والحساب ، فليس هناك مرجع سواه ، إليه يرجع الغنى والفقير ، والصالح والشرير ، ومنه النشأة وإليه المصير .

وكان أبو جهل يقول : لو رأيت محمدا ساجدا لوطئت عنقه ، فأنزل الله عز وجل :

٩ – ١٤ – ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ . أى : أرأيت أبا جهل ينهى محمدا عن الصلاة ؟ أرأيت إن كان هذا الذى يصلى على الهدى أو أمر بالتقوى ، ثم ينهاه مَنْ ينهاه مع أنه على الهدى وآمر بالتقوى؟

أرأيت إن كان ذلك الناهى مكذبا بالحق متوليا عنه : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ . ويطلع على أحواله ، ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى ، وسيؤاخذه على ذلك ، وقد وردت روايات صحيحة تفيد أن أبا جهل نهى النبى ﷺ عن الصلاة ، فأغلظ له الرسول القول ، فقال أبو جهل : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ، أى مجلسا يجتمع فيه القوم والأعوان .

١٥ – ١٩ – وأمام مشهد الطغيان يجىء التهديد الحاسم الرادع الأخير : كلا لئن لم يرجع عما هو فيه ، لنقبضن على ناصيته ، ولنجذبنها جذبا شديدا عنيفا ، فهى ناصية كذَّبت الحق وأخطأت الطريق ، فليدع أهل ناديه لينتصروا له وليمنعوه منا ، سندع الزبانية الشداد الغلاظ ، كلا لا تطع هذا الطاغى ، واسجد لربك واقترب منه بالطاعة والعبادة ، فهو الحصن والملجأ ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

## مقاصد سورة العلق

تشتمل سورة العلق على المقاصد الآتية :

١ – حكمة الله فى خلق الإنسان من قطعة لحم علقت بجدار الرحم ، ثم تكوينه خلقا كاملا ، يبسط سلطانه على كثير من الكائنات .

٢ – من كرم الله وإنعامه أن علَّم الإنسان البيان ، وأفاض عليه الكثير من النعم ، مما جعل له القدرة على غيره مما فى الأرض .

٣ – لقد غفل الإنسان عن هذه النعم ، فإذا رأى نفسه غنيا صلف وتجبر واستكبر .

★ ★ ★

## تمهيد من السنّة المطهّرة

عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالى ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى فجأه الوحى وهو فى غار حراء فجاءه الملك فيه ، فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : «فقلت : ما أنا بقارئ – قال – فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطّنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطّنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق – حتى بلغ – ما لم يعلم» .

قال : فرجع بها ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة فقال : «زمّلونى زمّلونى» ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال : «يا خديجة ، ما لى» ؟! وأخبرها الخبر ، وقال : «قد خشيت على نفسى» . فقالت له : كلاَّ ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى ، فقالت خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخى ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ؛ فقال ورقة : هذا الناموس الذى أُنزل على موسى ، ليتنى فيه جذعًا ، ليتنى أكون حيًّا حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : «أو مخرجىّ هم» ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عُودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى(١٢٧) .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩) ﴾

**المفردات :**

**اقـــرأ :** أى ما يُوحى إليك ويُتلى .

**بـاسم ربك :** مبتدئا ومستعينا باسمه تعالى .

**علق :** واحده علقة ، وهى قطعة من الدم جامدة هى أصل البويضة ، وفى القاموس : علقت المرأة : حبلت .

**الأكـرم :** له كمال الكرم .

**علم بالقلم :** جعل الكتابة وسيلة العلم .

**علم الإنسان ما لم يعلم :** أوجد فيه قوة إدراك المعلومات وطاقات تحصيلها ، ويسر له الدرس .

**كـلا :** للزجر والردع .

**ليطغى :** يتجاوز حدود ما شُرع فيكفر ويظلم .

**أن رآه استغنى :** أى بسبب غناه أبطرته النعم .

**الرجعى :** الرجوع والمصير إلى الله .

**الذى ينهى :** إشارة إلى أبى جهل .

**عبدا إذا صلى :** يريد النبى ﷺ .

**أرأيت :** استخبارية بمعنى أخبرنى .

**لنسفعن :** لنأخذنه بعنف .

**الناصية :** مقدم شعر الرأس .

**ناديه :** مجتمع القوم ، والمراد : مَنْ به .

**الزبانية :** ملائكة العذاب .

**واقترب :** تقرَّب إلينا بالطاعة .

**التفسير :**

١ ، ٢ – ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ .

هذه الآيات هى أوّل آيات نزلت من الوحى على رسول الله ﷺ فى غار حراء ، إنها أول آيات من وحى السماء ، إنها تمثّل نقلة كبيرة فى حياة الإنسان ، حيث يتفضل الإله العلى الكبير ، القادر الفعّال لما يريد ، فيُنزل وحى السماء ، ويربط الإنسان المخلوق بوحى الله الخالق ، وينزل الوحى يحمل الهدى والتشريع ، والقصص وأخبار القيامة ، ويلفت النظر إلى الكون وما فيه ، ويرشد الإنسان إلى صفات الله وكمالاته ، ويرشده إلى المأمورات والمنهيات والأخلاقيات ، والرسالات والنبوات والغيبيات ، إنه كلام الله العلى القدير ، ورسالات السماء ، وفضائل الله على عباده ، حيث يختار رسولاً من البشر فيوحى إلى عباده ما يشاء ، ويرسل جبريل إلى محمد ﷺ فينقل إليه القرآن الكريم خلال ثلاثة وعشرين عامًا ، كان الصحابة سعداء أن الوحى ينزل على نبيِّهم صباح مساء، يعلِّمهم ويرشدهم ، ويهذبهم ويشرّع لهم ، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والرشاد ، لقد كان القرآن روحًا وحياة ، وبعثًا ورحمة وهداية .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (الشورى : ٥٢) .

إن هذا الوحى هو الذى طهَّر هذه الأمّة ، وألهمها رشدها ، وأخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

## عود إلى التفسير

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ .

كن قارئًا للوحى يا محمد ، لا بحَوْلك ولا بقوَّتك ولكن بقدرة الله الخالق ، فابدأ القراءة ، بِٱسْمِ رَبِّكَ . أى باسم الله الرحمن الرحيم ، فهى بداية مباركة لأجلِّ كلام ، للوحى الإلهى .

ٱلَّذِى خَلَقَ .

فهو سبحانه الخالق الذى خلق فسوَّى ، هو الخالق الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، هو الخالق الذى خلق كلَّ شىء ، ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ . (السجدة : ٧) .

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ .

خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وخلق حواء من ضِلعه ليسكن إليها ، وزوَّجه الله من حوَّاء ، وأسكنه فسيح الجنة ، ونهاه عن الأكل من شجرة معينة ، فَعصَى آدم ربَّه وأكل من الشجرة ، ثم تاب الله عليه وهداه ، وأنزله إلى الدنيا ليعمر الكون ، وليكدح ويستعمر الأرض هو وذريته ، وجعل خلق ذريته من منىٍّ يُمنى ، ثم ينتقل المنى من الذكر إلى الأنثى ، ثم يتم الحمل ويتحول المنىّ إلى علقة ، وهى قطعة لحم تعلق بجدار الرَّحم وتتشبث به ، وتمسك بقرار مكين فى رحم الأمّ ، فما أبدع الخالق الذى خلق الكون للإنسان ، وما أكرم الخالق الذى خلق الإنسان من علق ، أى جعل بداية خلق الإنسان من نطفة ، ثم تطورت إلى علقة ، ومرت بمراحل فى بطن الأمّ إلى أن اكتملت حياة الجنين ، وقد أنشأه الله خلقًا آخر ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ . (المؤمنون : ١٤) .

٣ ، ٤ ، ٥ - ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

اقرأ الوحى ، وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ . كثير الكرم والفضل ، حين أفاء عليك بالنبوَّة ، وأنزل عليك الوحى ، وأعطاك الشريعة السَّمحة التى ختم الله بها الشرائع ويسرها للناس ، وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ . (الأعلى : ٨) .

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ .

وبواسطة القلم كُتبتْ الشرائع والعلوم والفنون ، والآثار والأخبار ، والتوراة والإنجيل ، والزبور والفرقان ، والحكمة والسُّنَّة ، لذلك أقسم الله بالقلم والدواة .

قال تعالى : نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . (القلم : ١) .

وأُنزل القرآن ليُتلى ويُقرأ ، ثم يُكتب ويُسطَّر ، واختار النبىَّ أميًا ليكون معجزة بارزة ، فهذا الأمىّ لم يقرأ كتابًا ، ولم يخط بيمينه كتابًا ، ومع هذا يقرأ هذا الوحى المبين الحكيم المعجز ، ويتحدّى به الناس أجمعين ، مما يدلّ على أنه ليس من صنع بشر ، بل تنزيل من رب العالمين .

عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

أفاض الله الوحى والتشريع ، والهدى والقصص ، وأخبار الأولين والآخرين ، ومشاهد القيامة ، وأدب الدنيا والدين فى هذا الوحى ، ليعلِّم به الإنسان كلّ ما لم يعلمه ، فسبحان المعلّم الذى اختار رسولاً وأنزل عليه وحيًا ، ليُعلِّم الإنسان ما لم يعلمه إلا بطريق الوحى .

قال تعالى : إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (البقرة : ٣٠) .

وفى الأثر : (من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يكن يعلم) .

**يقول أحمد شوقى :**

سبحانك اللهم خير معلم ... علَّمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرسلاً ... وابن البتول فعلَّم الإنجيلا
وفَجَرْتَ ينبوع البيان محمدًا ... فسقى الحديث وعلم التأويلا
الجهل لا تحيا عليه جماعة ... كيف الحياة على يدى عزريلا
ناشدتكم تلك الدماء زكية ... لا تبعثوا للبرلمان جهولا
فترى الذين بنى المسلّة جدّهم ... لا يُحسنون لإبرةٍ تشكيلا

**جاء فى تفسير القرطبى ما يأتى :**

نبّه تعالى على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إنسان ، وما دُوِّنت العلوم ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين . ا هـ .

وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآيات :

أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات المباركات ، وهنّ أوّل رحمة رحم الله بها العباد ، وأوّل نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أنْ علّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرَّفه الله وكرَّمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به آدم على الملائكة . ا هـ .

٦ ، ٧ ، ٨ - كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ .

حقًّا إن الإنسان ليتعاظم ويتكبَّر ، ويأخُذُهُ الغرور والفخر إذا أحسَّ بالاستغناء ، أى بالوفرة فى صحته وماله وتراثه ، ويوشك أن يكرر ما قاله قارون : إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ... (القصص : ٧٨) .

أيها الإنسان الذى خلقه الله من نطفة ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم ، وأسدى إليه الفضل وسائر النعم ، إنك راجع إلى الله فيجازيك بعملك ، وستجد عملك شاخصًا بين يديك ، وكتابك لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وفى الآيات تهديد ووعيد لكل عاتٍ متجبِّر ، مغرور بالغنى والجاه ، وهى فى نفس الوقت خطاب لكل إنسان بأنه راجع إلى ربه ، وسيعرض عليه بلا حاجز ولا ترجمان ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فليقدم خيرًا لذلك اليوم .

وقد ذكر المفسرون أنه ورد فى الحديث الصحيح أنَّ أبا جهل حلف باللات والعزَّى لئن أتى محمدٌ ﷺ يصلِّى ليطأنَّ على رقبته وليعفِّرنّ وجهه ، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّى ليفعل ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، فقيل له : ما لك ؟ فقال : إنَّ بينى وبينه خندقًا من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا» .

والآية بعد ذلك عامة لكل من تنطبق عليه ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ - أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ .

هذه الآيات تعجيب من حال طاغية باغٍ ، يتطاول على إنسان مؤمن ، مستقيم عابد مصلٍّ ، ثم يتوجه القرآن بهذا التَّساؤل فيقول : أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ . أى : أرأيت يا كلَّ من يتأتَّى منه الرؤية إن كان هذا المصلّى المطيع لله المتفرغ لعبادته ، على هداية من ربّه ، قد ألهمه الله الهدى ، أو كان هذا المصلى آمرًا بالتقوى والإيمان والطاعة لله وعبادته ، كيف يُزجر ويُنهى عن الخير ؟!

وقد ورد فى سبب النزول أن الآيات نزلت فى أبى جهل، كان ينهى النبى ﷺ عن الصلاة عند الكعبة، ويتوعده.

**قال ابن عطية فى تفسيره:**

ولا خلاف بين المفسرين فى أن المصلّى هو رسول الله ﷺ، والنّاهى هو أبو جهل، حيث قال: لئن رأيت محمدًا يصلّى لأطأن عنقه، والإتيان بلفظ (العبد) منكرًا لتفخيمه ﷺ، واستعظام النهى، وتأكيد التعجيب منه.

**١٣ - أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ .**

أرأيت يا كل من تتأتى منه الرؤية إن كذّب هذا المتكبر (أبو جهل)، وتولّى وأعرض عن الحق والإيمان، وهو تعجيب من حال هذا الإنسان الطاغى الشقىّ الذى أصرّ على كفره، وآثر الغىّ على الرشد، والشرك على الإيمان.

**١٤ - أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ .**

ألا يخاف الله، ألا يتحرك قلبه وضميره، ألا يستعمل عقله وفكره فى أنه لا يجوز منع إنسان من الصلاة، وتظل هذه الجملة أو هذه الآية، تُهدد كل جبار عنيد إلى يوم الدين، فكفى برؤية الله للظالمين، وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[١٢٨].

**١٥، ١٦ - كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ .**

السّفع: الجذب بشدة على سبيل الإذلال والإهانة، والناصية: الشّعر الذى يكون فى مقدمة الرأس.

أى: كلا ليس الأمر كما يتصوّر هذا المغرور الطاغى، ولئن لم يُقلع عما هو فيه لنقهرنه ولنذلّنه، ولنعذّبنه عذابًا شديدًا فى الدنيا والآخرة، وقد كان المعروف عند العرب أنّهم إذا أرادوا إذلال إنسان وعقابه، سحبوه من شعر رأسه، وقد قُتل أبو جهل فى غزوة بدر وسُحب من ناصيته، وصعد عبد الله بن مسعود فوق صدره وجزّ رقبته، وأذلّه الله أىّ إذلال فى الدنيا، وينتظره عذاب الآخرة.

**نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ .**

صاحب هذه الناصية كاذب خاطئ، فنسب الكذب والخطيئة إلى الناصية مبالغة فى تعمد هذا الإنسان ارتكاب المنكر، على حد قولهم: نهاره صائم، أى صائم صاحبه، ولأن الناصية هى مظهر الغرور والكبرياء.

١٧ - فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ .

فليدع أهل ناديه ، والمراد أنصاره وأعوانه وعشيرته ، والخطاب هنا للتهديد والوعيد ، فقد صحّ أن أبا جهل عندما نهى النبى ﷺ عن الصلاة عند الكعبة ، نهره النبى ﷺ وزجره وأغلظ له القول . فقال أبو جهل : أتهددنى يا محمد وأنا أكثر هذا الوادى ناديا ؟ أى : أهلاً وعشيرة وأنصارًا ؛ فأنزل الله تعالى : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ .

١٨ - سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ .

وتطلق الزبانية فى كلام العرب على رجال الشرطة الذين يزْبِنون الناس ، أى يدفعونهم إلى ما يريدون دفعهم إليه بقوة وشدّة وغلظة ، ومنه قولهم : حرب زَبون ، إذا اشتد الدفع والقتال فيها . وناقة زبون ، إذا كانت تركل كل من يحلبها .

**والمراد بالآية :** سندعو له زبانية جهنم ، أى ملائكة العذاب ، لأخذه هو وأعوانه .

**وجاء فى تفسير القرطبى عن ابن عباس :** لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته .

١٩ - كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب .

كَلَّا . ردع آخر لهذا الكافر عن الغرور والطغيان ، أى أن هذا الكافر وأهل ناديه وغيرهم أعجز من أن يمنعوك يا محمد عن الصلاة عند الكعبة ، فلا تطعه ، ولا تكترث لمنعه لك عن الصلاة ، واسجد لربّك ، واقترب منه مناجيًا وداعيًا ومتبتلاً ، فإنه يسمع ويرى .

روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[١٢٩] .

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين ، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم ارزقنا علمًا نافعًا وقلبًا خاشعًا ورزقًا واسعًا ، اللهم ارزقنا الخشوع فى الصلاة ، ومُنَّ علينا بالاقتراب منك ، وحضور القلب بين يديك ، واجعلنا متبتّلين لك ، راغبين فيما عندك ، اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى ومعونته وتوفيقه تفسير سورة (العلق) مساء يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٤ / ٦ / ٢٠٠١ م .

★ ★ ★



# تفسير سورة القدر

# أهـــداف ســـورة القـــدر

(سورة القدر مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد سورة عبس)

والحديث فى هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة ، التى سجلها الوجود كله ، فى فرح وغبطة وابتهال ، ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى ، ليلة بدء نزول القرآن على قلب محمد ﷺ . ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد الأرض مثله فى عظمته وفى دلالته ، وفى آثاره فى حياة البشرية جميعًا ، العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى .

وهى ليلة نزل فيها قرآن ذو قدر ، على نبى ذى قدر ، لأمة ذات قدر .

هى ليلة من ليالى شهر رمضان المبارك ، قال تعالى : شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ... (البقرة : ١٨٥) .

وقد وردت فى تعيين هذه الليلة آثار كثيرة ، منها ما ورد فى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «إنى رأيت ليلة القدر ثم نُسِّيتها أو أنسيتها ، فالتمسوها فى العشر الأواخر من رمضان»[١٣٠] .

ويتوقع طلبها فى أوتار الليالى العشر الأواخر ، أى : ٢١ ، ٢٣، ٢٥، ٢٧ ، ٢٩ ، وفى كثير من الروايات أنها ليلة ٢٧ من رمضان .

وعظمة هذه الليلة مستمدة من نزول القرآن الكريم فيها ، ذلك الكتاب الخالد الذى وصل الأرض بالسماء ، وكان هداية رب العباد للعباد ، وكان النور والهدى ، والسلامة والسلام للخلق أجمعين .

## مع آيات السورة

١ - إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل منجمًا على ثلاث وعشرين سنة ، وبدأ الإنزال فى ليلة مقدرة لها شرفها عند الله ، وزادها شرفًا بدء نزول القرآن فيها .

٢ – وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ . إن شأنها لعظيم عظمة لا تقدر ، ففيها فاض النور على الوجود كله ، وأسبغ الله فيها السلام والبشرى على البشرية بما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور ، وشريعة وآداب ، تشيع السلام فى الأرض والضمير .

٣ – لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . أى هى – بما نزل فيها من ذكر وقرآن وهداية – أفضل من ألف شهر من شهور الجاهلية ، أو العبادة والعمل الصالح فيها أفضل من العبادة فى ألف شهر .

روى عن مجاهد أن النبى ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فتعجب المسلمون من ذلك ، فأنزل الله عز وجل : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ .

٤ – تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ . تنزل الملائكة وجبريل الأمين فى هذه الليلة بالسلام والأمان والرحمة لعباد الله ، وتنزل بأمر الله وتقديره ، من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى عام قابل .

٥ – سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ . هى سلام وأمان ، وثواب موصول ، وعبادة مضاعفة الثواب إلى طلوع الفجر .

وفى الصحيحين : «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه» .

فهى ليلة التجرد والإخلاص لله ، ليلة نزول القرآن ، وعبادة الرحمن ، ليلة تغمر الملائكة الأرض بالسلام والأمان من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**ليلة القدر :** القدر : الشرف والقيمة والمقام .

**وما أدراك :** المراد بالاستفهام تقرير عظيم شأنها .

**خير من ألف شهر :** ثواب العبادة فيها خير من ألف شهر ، والعدد لا يفيد التحديد وإنما يفيد التكثير فهى خير من آلاف الشهور فى حياة البشر .

**الروح :** جبريل عليه السلام .

**سلام هى :** خير كُلّها .

**حتى مطلع الفجر :** لا تزال الملائكة متنزلة بالرحمة والمغفرة حتى مطلع الفجر .

**التفسير :**

١ - إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ .

أنزل الله تعالى هذا القرآن الكريم من علياء السماء فى ليلة مباركة ، هى ليلة القدر .

قال تعالى : إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . (الدخان : ٣) .

وقد أضاف الحق سبحانه وتعالى إنزال القرآن الكريم إليه سبحانه تشريفًا لهذا الكتاب ، وتأكيدًا لصدق محمد ﷺ حين يبلّغ عن ربه ، وأنه حقًا من عند الله .

قال تعالى : وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ... (الإسراء : ١٠٥) .

وسميت بليلة القدر لأن القدر يطلق على الشَّرف والرفعة ، تقول : فلان ذو قدر ، أى : ذو منزلة عالية وقدر عظيم ، وأيضًا لأنه نزل فيها قرآن ذو قدر ، على نبىّ ذى قدر ، لأمةٍ ذات قدر .

**وللقرآن الكريم ثلاثة تنزّلات :**

**التنزل الأول** : من عند الله تعالى إلى اللوح المحفوظ فى السماء السابعة .

قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ . (البروج : ٢١ ، ٢٢) .

**التنزل الثانى** : من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، جملة واحدة فى ليلة القدر .

قال تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ .

**التنزل الثالث** : من بيت العزة فى السماء الدنيا إلى النبى ﷺ منجّمًا حسب الوقائع والحوادث فى خلال ثلاثة وعشرين عامًا .

قال تعالى : وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً . (الإسراء : ١٠٦) .

وقال تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . (الفرقان : ٣٢ ، ٣٣) .

والسرّ فى تكرار نزول القرآن الكريم هو تكريم هذا الكتاب ، باعتباره آخر الكتب السماوية ، فنزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، جملة واحدة فى ليلة القدر ، إحدى ليالى شهر رمضان .

ثم نزل منجمًا أى سورة أو بعض سورة ، أو آية أو آيات ، حتى كمل نزوله فى ثلاثة وعشرين عامًا هى مدة رسالته ﷺ ، منها ثلاثة عشر عامًا فى مكة وعشرة أعوام فى المدينة المنورة ، ثم لقى ﷺ ربّه فى المدينة وعمره ثلاثة وستون عامًا .

**٢ - وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ .**

أى : ما أعلمك ما شأنها ؟ وما قدرها ؟ وما هو الفضل العظيم لهذه الليلة ، والثواب الجزيل الذى يوزّعه الله على العاملين والعابدين فيها ؟

٣ - لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ .

لقد جعل الله ثواب العبادة والعمل الصالح فى هذه الليلة أكثر من ثواب العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وتلك مِنن من الله لابد أن نحرص على اقتناصها .

وفى الحديث الشريف : «فى رمضان ليلة خير من ألف شهر ، من حُرم ثوابها فقد حُرم» .

فهى منحة ربَّانية ، وعطاء إلهى للعاملين والراغبين ، حيث يعطى العطاء الجزيل على العمل القليل .

وقد ورد فى الصحيح أنها فى العشر الأواخر من رمضان ، روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «إنى أُريت ليلة القدر ثم نُسِّيتها أو أُنسيتها فالتمسوها فى العشر الأواخر من رمضان» [١٣١] .

وقد ورد فى الأثر أنها فى أوتار العشر الأواخر ، أى فى إحدى ليالى ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، والسِّر فى إخفائها أن يجدّ المؤمن ويحتفى بشهر رمضان لاحتمال أن يصادفها ، فقد كثرت الآراء فى تحديدها حتى قيل : إنها فى أول ليلة من ليالى شهر رمضان ، وقيل : ليلة ١٧ من رمضان ، والأكثرون على أنها ليلة ٢٧ من رمضان .

٤ - تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ .

أى : تنزل الملائكة وجبريل عليه السلام أمين الوحى من السماء ، حيث يستأذنون من ربّهم فى النزول إلى الأرض إكرامًا للمؤمنين ، فيأذن لهم ، ومعهم كل قضاء وأمر قضَى الله أن يتم ظهوره وتحققه فى هذه السَّنة ، من ليلة القدر إلى ليلة القدر القادمة ، وهى أمور غيبية نستفيد منها أن الملائكة تنزل من السماء إلى الأرض ، وتنتشر فى الأرض ، وقيل : تنزل الملائكة ومعها أربعة ألوية ، فتضع لواء عند الكعبة ، ولواء عند بيت المقدس ، ولواء عند مسجد النبى ﷺ ، ولواء عند طور سيناء ، حيث كلم الله موسى عليه السلام ، وتنتشر الملائكة بنوازع الخير والبر ، والبركة والرحمة ، والهداية والسلام والأمان لكل مؤمن ومؤمنة ، فالموفَّقون من تطهَّروا وقاموا بإحياء الليل ، وتلاوة القرآن ، وإخراج الصدقة ، والجهاد فى سبيل الله ، والعمل على إعزاز دين الله ، وجمع كلمة المسلمين .

٥ - سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ .

هى سلام وأمان ، وبركة وثواب وخير ، من أذان المغرب إلى طلوع الفجر .

قال الضحاك فى معنى ذلك :

إنه لا يقدِّر الله فى تلك الليلة إلا السلامة ، وفى سائر الليالى يقضى بالبلايا والسلامة .

وروى عن الشعبى : تستمر فيها السلامة ، وتُسَلِّم الملائكة على المؤمنين القائمين فيها إلى غايةٍ هى وقت طلوع الفجر ، أى هى ليلة كلُّها سلام وأمن وخير وبركة ، من مبدئها إلى نهايتها ، أو أن تنزل الملائكة فوجًا بعد فوج متتابعين إلى طلوع الفجر ، والله أعلم .

ملاحظة :

أورد الحافظ ابن كثير فى تفسيره ثلاثة فصول فى أعقاب تفسير سورة القدر ، من بينها ما يأتى :

اختلف العلماء فى تحديد ليلة القدر ، والأحوط ما أخرجه أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «هى فى كلِّ رمضان» .

١ – وقال أبو حنيفة : ترتجى فى كل شهر رمضان ، وهو وجه حكاه أبو حامد الغزالى أيضًا .

٢ – قيل : إنها تكون فى أوّل ليلة ، وقيل : ليلة السابع عشر ، وفى صبيحتها ليلة بدر ، وقيل : هى فى العشر الأواخر ، خصوصًا أوتارها ، وخصوصًا ليلة السابع والعشرين ، وليلة التاسع والعشرين وختام رمضان .

٣ – قيل : إنها تنتقل فى ليالى رمضان ، وقيل : هى فى ليلة معينة ، وكان ﷺ يجتهد فى العشر الأواخر من رمضان أكثر من غيرها ، وكان يعتكف فى المسجد كما ورد فى الصحيحين عن عائشة .

وعنها رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا ليله وأيقظ أهله ، وشدَّ المئزر[١٣٢] .

ومعنى شدّ المئزر : استعدَّ للقيام والعبادة والطاعة .

وعن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، إن وافقتُ ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : «قولى : اللهم إنك عفوٌّ تحبُّ العفو فاعف عنى»[١٣٣] .

أخرجه أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ، المجلد الثالث (ص ٦٦٢) ، فقد توسَّع فى الحديث عن موضوعات تتصل بليلة القدر ، والله أعلم .

**(تم بفضل الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة القدر) .**

★ ★ ★



# تفسير سورة البينة

# أهداف سورة البيّنة

(سورة البينة مدنية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة الطلاق)

وتعرض السورة أربع حقائق تاريخية وإيمانية :

**الحقيقة الأولى :** هى أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة .

قال تعالى : لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . (البينة : ١ – ٣) .

**الحقيقة الثانية :** إن أهل الكتاب لم يختلفوا فى دينهم عن جهل ، ولا عن غموض فيه ، وإنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ، وجاءتهم البينة : وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ . (البينة : ٤) .

**الحقيقة الثالثة :** إن الدِّين فى أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف فى ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ . (البينة : ٥) .

**الحقيقة الرابعة :** إن الذين كفروا من بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية ، وإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية ، ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافًا بينًا .

## مع آيات السورة

١ – لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ .

كانت الأرض فى حاجة ماسة إلى رسالة جديدة ، كان الفساد قد عمَّ أرجاءها كلها ، بحيث لا يُرْتجَى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة ، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد

أهلها جميعًا ، سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرّفوها ، أو المشركون فى الجزيرة العربية وفى خارجها .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذى صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة ، فارقة فاصلة .

٢ – رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . أى : محمد ﷺ – وهو بدل من البينة – يقرأ عليهم من صفحات كتابه المطهرة ، وآياته المقدسة ، ما يشتمل على المضمون الصحيح لكتبهم المنزلة على أنبيائهم ، موسى وعيسى وغيرهما ، عليهم جميعًا الصلاة والسلام .

٣ – فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . يطلق الكتاب على الموضوع ، كما تقول : كتاب الطهارة ، كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ... أى : يشتمل القرآن على موضوعات وحقائق قيمة ، تحتاج إليها البشرية ، ولا تصلح إلا بها .

لقد كان الفساد قد استشرى فى الأرض قبل رسالة محمد ﷺ ، وطمست معالم الحق ، وبهتت حقائق الأديان ، وانسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، واستبد الحكام والملوك ، وعظمت نكايات اليهود بالنصارى ، واشتد تدبير الكيد من النصارى لليهود ، واختلف النصارى حول طبيعة المسيح ، وعذّب الحكام طوائف المخالفين .

٤ – وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ . فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ، وإنما كان يجرفهم الهوى والانحراف .

٥ – وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ .

وهذه هى قاعدة دين الله على الإطلاق : عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ . وهذا هو الدين الذى جاء فى الكتب القيمة ، «وقصارى ما سلف ، أن أهل الكتاب افترقوا فى أصول الدين وفروعه ، مع أنهم ما أمروا إلا أن يعبدوا الله ، ويخلصوا له فى عقائدهم وأعمالهم ، وألا يقلدوا فيها أبًا ولا رئيسًا ، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل ما يعرض لهم من خلاف»[١٣٤] .

٦ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ .

لقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض ، لتردّ الناس إلى الإصلاح ، فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة ، الشاملة الكاملة ، فقد تحدد الموقف أمام الجميع بصفة قاطعة . فمن كفر بهذه الرسالة أو أشرك بالله فهو فى نار جهنم يصلى نارها ، وهو من شرار الخلق ، جزاء إعراضه عن دعوة الحق ، وعن رسالة الله .

٧ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ . أما من اهتدى قلبه للإيمان ، وكان إيمانه عن يقين وصدق ، فأتبع الإيمان بالأعمال الصالحات ، من عبادة وخلق ، وعمل وتعامل ، والتزام بشريعة الله والحفاظ عليها ، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ . وهم صفوة الله من خلقه ، حيث منحهم الهدى ، ويسر لهم العمل بأحكام هذا الدين .

قال تعالى : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ...﴾ (الأنعام : ٩٠) .

٨ - ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ . لقد أحسن الله جزاءهم فى جنات إقامة دائمة ، تجرى من تحتها الأنهار ، فى جمال ونعمة ولذة دائمة ، وأسمى من ذلك سعادتهم برضا الله عنهم ، ومحبته لهم ، ثم اطمئنانهم ورضاهم العميق عن ربهم ، وثوابه ونعيمه . وذلك كله متوقف على خشية الله ، والخوف منه والالتزام بأمره .

## ملخص السورة

لما بعث الله محمدا ﷺ ، تغير حال اليهود والنصارى والمشركين ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من تردد فى صحة الدين ، ومنهم من عاند وتكبر ، مع أن الله تعالى ما أمرهم إلا ليعبدوه مخلصين له الدين ، ولكن الفساد كان قد استشرى بين أرباب الديانات السابقة ، وكانت البينة الواضحة والنور الهادى هو بعثة محمد ﷺ . وقد أوضح الله تعالى أن من كفر به سيصلى نار جهنم ، وأن من آمن به سيتمتع برضوان الله فى جنات النعيم .

## من فضائل السورة

أخرج أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأُبىَّ بن كعب : «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾» قال : وسمّانى لك يا رسول الله ؟ قال : «نعم» . قال : فبكى أُبَىّ[١٣٥] .

★ ★ ★

## أحوال الناس قبل بعثة محمد ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**من أهل الكتاب :** اليهود والنصارى .

**المشركين :** عبدة الأصنام .

**منفكين :** منتهين عما هم عليه .

**البينة :** الحجة الواضحة ، أو محمد الموعود به فى كتبهم .

**رسول :** بدل من البينة ، وعبر عنه بالبينة للإشارة إلى ظهور أمره ووضوح دينه .

**صحفا مطهرة :** مبرأة من الزور والضلال ، والمراد بها القرآن .

**فيها :** فى صحف القرآن .

**كتب قيمة :** مضمون الكتب السماوية الأخرى ، وهى بلا شك لها قيمتها .

**وما تفرق :** اختلفوا إلى طوائف فى الدين .

**ما جاءتهم البينة :** يتحقق الموعود برسالة محمد ﷺ .

**ومــا أمــروا :** أى فى كتبهم .

**مـخـلـصـيـن :** جاعلين الدين خالصًا لله .

**حـنـفـاء :** مائلين عن زائف العقائد إلى الإسلام دين الحق .

**تمهيد :**

أرسل الله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل فى وقت اشتد فيه الظلام ، واحتاجت الدنيا إلى رسالة واضحة تبين الحق ، وتفضح الباطل .

كانت الفرس تعبد النار وتسجد لها ، وكانت الروم فى خلاف شديد حول طبيعة المسيح عليه السلام ، وكان الحكّام يعذبون المعارضين لدينهم ، وفى أوسع مكان بالقارة الهندية كان الكاهن يختص نفسه بكل عروس فى أيامها الأولى ، زاعمًا أنه يبث فى الزواج البركة والنماء ، وليس الأمر إلا الدَّنس والفحشاء ، واشتد القتال بين اليهود والنصارى ، وفى بلاد العرب كانت هناك فضائل لكنها اختلطت بالرذائل ، ومن بين رذائلهم : وأْد البنات ، وشيوع الزنا والربا وشرب الخمر ، وقيام الحروب لأتفه الأسباب ، وكأنّ البشرية استغاثت بالله أن يرسل لها من يهديها من الظلمات إلى النور ، فأرسل الله تعالى محمدًا ﷺ .

**التفسير :**

١ - لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ .

أى : كان الفساد قد عمَّ أرجاء الأرض ، وأُقْصِى الدين عن الدُّنيا ، وانكمش رجال الدين فى الصوامع والمعابد ، وكان الكفر قد تطرق إلى العقائد ، بسبب تحريف الكتب السماوية ، وحذف أجزاء منها أو إضافة أشياء إليها ليستْ منها ، وما كان أهل الكتاب والمشركون لينفكُّوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذى صاروا إليه ، إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بيِّنة واضحة فارقة فاصلة .

٢ - رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً .

وهذه البينة الواضحة وضوح الشمس هى النور المبين ، هى السراج الوهَّاج ، هى محمد ﷺ ، دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمّه حين حملت به أن نورًا خرج منها أضاء مشارق الأرض ومغاربها ، هذا النبىّ هو رسول من الله إلى عباده ، ختم الله به الرسالات ، وجعل شريعته خاتمة الشرائع .

رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً .

نعم هو رسول الله ، أنزل الله عليه وحى السماء ، فهو يقرأ ما تتضمنه صحف القرآن المطهّرة من الخلط والكذب ، والشبهات والكفر والتحريف واللبس ، بلْ فيها الحق الصريح ، فيها التشريع والإرشاد والهدى والحكمة .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا .
(الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦)

٣ – فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ .

الكتاب يطلق على الموضوع ، كما يقال : كتاب الطهارة ، كتاب الصلاة ، كتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة – وهى القرآن الكريم – مشتملة على كتب قيمة ، أى موضوعات مهمّة ، منها : توحيد الله ، بدء الخليقة ، خلق الكون ، أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، أحكام البيع والرهن والمعاملات ، آداب السلوك مثل غض البصر ، تحريم الزنا والربا وعقوق الوالدين ، الأمر ببر الوالدين ، صلة الرحم ، إكرام الضيف ، رعاية اليتامى والفقراء والضعفاء ، وغير ذلك من معالم الدين وآدابه ، وشرائعه وأحكامه وهداياته ، وقصصه وأخباره .

٤ – وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ .

كان اليهود والنصارى يقرأون فى كتبهم أن نبيًا أظلّ زمانه ، بشَّرت بذلك التوراة والإنجيل ، كما قال تعالى : ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... (الأعراف : ١٥٧) .

وكما قال تعالى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ... (الصف : ٦) .

وفى الحديث الشريف يقول النبى ﷺ : «لو كان موسى بن عمران حيًا ما وسعه إلا اتباعى»[١٣٦] .

لقد كانوا قبل البعثة المحمدية متفقين على انتظار نبىّ آخر الزمان ، وأنه النبى الخاتم ، وكان اليهود يقولون لإخوانهم من العرب من الأوس والخزرج : لقد أظلَّ زمان نبىٌّ نعرف صفاته ، فسنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ... (البقرة : ٨٩) .

لقد آمن بعض أهل الكتاب ودخلوا فى الإسلام ، مثل عبد الله بن سلام من اليهود ، وكفر آخرون زاعمين أن محمدًا ليس هو النبىّ الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، وأن هذا النبى سيأتى فيما بعد ، لكن القرآن قد صدق فى أن محمدًا ﷺ كان ، رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ ... (الأحزاب : ٤٠) . ولن يأتى رسول بعد محمد ، فإن من أسمائه العاقب ، أى الذى يأتى فى آخر الرسل .

قال ﷺ : «أنا العاقب فلا نبىّ بعدى»[١٣٧]

والخلاصة : أن محمدًا ﷺ لما جاءهم بالرسالة الواضحة البيّنة ، والكتاب الواضح المبين ، اختلفوا : فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر ، مع وجود البينة أى الحجة الواضحة أمامه ، وهى محمد ﷺ وكتابه المبين .

٥ – وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ .

أى : إنهم تفرقوا بشأن محمد ﷺ ودينه ورسالته ، مع أنهم لم يؤمروا فى التوراة والإنجيل والقرآن الذى جاءهم من عند الله ، إلا بعبادة الله وحده ، وتكون عبادتهم خالصة لا يشركون بالله شيئًا ، حُنَفَآءَ . مائلين عن كل ألوان الشرك ، أو مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، عند ظهور نبىّ آخر الزمان ، مع إقامة الصلاة فى أوقاتها ، وتمام شروطها وأركانها وخشوعها ، وإخلاص القلب لله فيها ، وإيتاء الزكاة التى أوجبها الله لمستحقيها من الفقراء والمساكين .

وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ .

وهذا هو دين الملة المستقيمة ، الموصلة للعبد إلى رضا الله وجنات الخلد .

★ ★ ★

## وعيد الكفّار، ووعد الأبرار

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**البرية :** الخليقة .

**جنات عدن :** بساتين خُلد ومقام أبدى .

**الأنهار :** أى الأنهار الموعود بها من لبن وعسل وخمر .

**خشى ربه :** خافه فى الدنيا فأطاعه ، ونجا فى الآخرة من عذابه .

**التفسير :**

٦ - إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ .

إنهم يعرفون أن محمدًا آخر الرسل ، وأن كتابه آخر الكتب ، وأنه آخر الأنبياء ، وقد بشَّرت به التوراة والإنجيل ، فالذين كفروا بمحمد ورسالته من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وكذلك من مشركى العرب عُباد الأصنام والأوثان وكل مشرك بالله ، هؤلاء فى نار جهنم ، خَٰلِدِينَ فِيهَآ . خلودًا أبديًّا سرمديًّا ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ . هؤلاء هم شر الخليقة ، والبرية هى الخليقة ، إذ هى من برأ ، أى خلق ، والبارئ الخالق سبحانه وتعالى .

٧ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ .

إن الذين آمنوا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً ، وقرنُوا الإيمان بالعمل الصالح ، أى بكلّ متطلبات الإيمان .

قال ﷺ : «ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل»[١٢٨] .

أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ . هؤلاء هم خير خلق الله ، هؤلاء هم الصفوة المختارة ، هم خير أمة أُخرجت للناس ، واستجابت لدعوة الله ، وحققت رسالة الإسلام ووحى السماء ، من فكرة نظرية إلى أمة تستمع للوحى وتستجيب للأمر والنهى .

٨ - جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ .

هذا هو الوسام الأخير على صدر المؤمنين ، إن الجزاء عند الله الغنى القوى الكريم ، هذا الجزاء فى الدار الآخرة هو جنات إقامة دائمة فى بساتين نَضِرة ، تجرى من تحتها الأنهار ، لسعادتهم وأُنسهم مع الخلود الأبدىّ السرمدى مع رضوان الله عنهم ، ورضاهم عن ربهم ، ويا له من ثواب عظيم .

إن الله العلى الكبير يتفضل بالرضا عن إنسان ، ثم يسمح لهذا الإنسان بالرضا عن ربه سبحانه وتعالى ، هذا الفضل لمن خشى ربّه ، وخاف مقامه ، وعلم ما يجب لله من كمالات .

قال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... (فاطر : ٢٨) .

اللهم اجعلنا مع المؤمنين الصادقين ، اللهم اجعلنا ممن رضيت عنهم ورضوا عنك ، اللهم ارزقنا خشيتك وحبَّك والصدق فى الإيمان بك ، اللهم ارزقنا الإخلاص والقبول ، اللهم آمين .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

تم بفضل الله تعالى ومعونته وتوفيقه تفسير سورة (البيِّنة) عصر يوم الأربعاء ١٤ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٦ / ٦ / ٢٠٠١ ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★



# تفسير سورة الزلزلة

# أهداف سورة الزلزلة

(سورة الزلزلة مدنية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة النساء)

وهى سورة تهز القلب هزًا عنيفًا ، يشترك فى هذه الهزة الموضوع والمشهد ، والإيقاع اللفظى ، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء فى بضع فقرات قصار ، وهذا هو طابع الجزء كله يتمثل فى هذه السورة تمثلاً قويًا .

## مع آيات السورة

١ – ٥ – إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .

تصف الآيات مشهد القيامة حين تضطرب اضطرابًا شديدًا ، وترتجف الأرض الثابتة ارتجافًا ، وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما فى جوفها نفضًا ، وتُخرج ما يثقلها من الكنوز والدفائن والأموات ، وهو مشهد يخلع القلوب ، ويهز كل ثابت ، ويخيل للسامعين أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور . ومثال هذا ما نراه فى حياتنا من جبال النار الثائرة (البراكين) ، كما حدث فى إيطاليا سنة ١٩٠٩ م من ثوران بركان فيزوف ، وابتلاعه مدينة مسينا ، ولم يبق من أهلها أحد .

فإذا شاهد الإنسان القيامة بأهوالها ، والأرض تتحرك فى زلزال عنيف ، وتُخرج ما فيها ، فإنه يتساءل من شدة هول ما يرى : وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا . وهو سؤال المتحير الذى يرى ما لم يعهد ، وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ، ويحاول أن يُمسك بأى شىء يشده ويثبته ، وكل ما حوله يمور مورًا شديدًا .

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . فى ذلك اليوم تنطق الأرض بلسان الحال ، أى أن حالها وما يقع فيها من الاضطراب والانقلاب ، وما لم يُعهد له نظير من الخراب ، يُعلم السائل ويُفهمه الخبر : بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ

لَهَا . وأمرها أن تمور مورًا ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تُخرج أثقالها ، وأن تحدث أخبارها ، فهذا الحال حديث واضح عما وراءه ، من أمر الله ووحيه إليها .

٦ – يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ . فى ذلك اليوم الذى تحدث فيه الزلزلة والهول ، يقوم الناس من القبور أشتاتًا متفرقين ، فالمحسنون فريق ، والمسيئون فريق آخر ، ويرى كل إنسان جزاء عمله .

٧ ، ٨ – فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يجد جزاءه ، ومن يعمل من الشر ولو شيئًا قليلاً فإنه يجد جزاءه .

## مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على ثلاثة مقاصد :

١ – اضطراب الأرض يوم القيامة ، ودهشة الناس حينئذ .

٢ – ذهاب الناس لموقف العرض والحساب أشتاتًا متفرقين ليروا أعمالهم .

٣ – يُكافأ الإنسان على عمله من خير وإن كان مثقال ذرة ، ويُجازى على ما عمل من شر مهما كان صغيرًا .

★ ★ ★

## فضل سورة الزلزلة

أخرج الترمذى – وقال : هذا حديث حسن – عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : «هل تزوجت يا فلان» ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، ولا عندى ما أتزوج !! قال : «أليس معك : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ .» ؟ قال : بلى ، قال : «ثلث القرآن» ، قال : «أليس معك : إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ .» ؟ قال : بلى ، قال : «ربع القرآن» ، قال : «أليس معك : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ .» ؟ قال : بلى ، قال : «ربع القرآن» ، قال : «أليس معك : إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .» ؟ قال : بلى ، قال : «ربع القرآن ، تزوّج»[١٣٩] . [مختصر تفسير ابن كثير بتحقيق الصابونى] .

★ ★ ★

## أمارة القيامة، والجزء على الخير والشرّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾

**المفردات :**

**زلزلت الأرض :** اهتزت واضطربت بعنف وشدة .

**زلزالها :** المقدر لها ، وذلك عند النفخة الثانية .

**أثقالها :** ما فى باطنها من الموتى .

**الإنسان :** الكافر أو كل إنسان .

**ما لها :** ماذا أصابها من شدة ما يرى .

**تحدث أخبارها :** ما كان فيها من أعمال العباد من خير أو شر .

**بأن ربك أوحى لها :** تحدث بالأخبار بوحى من الله بما تقول .

**يصدر الناس :** يرجعون إلى ربهم .

**أشتاتا :** جمع شتيت ، أى : متفرقين .

**مثقال :** المثقال ما يوزن به ، ومثقال الشىء ميزانه من مثله .

ذرة : مثل فى تناهى الصغر .

يـــــــــــره : المراد يجازى به .

**التفسير :**

١ - إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .

إذا كان يوم القيامة ينفخ إسرافيل فى الصُّور النفخة الأولى ، فيصعق الناس جميعًا ، وتموت الخلائق ، ويمكثون أربعين سنة ، ثم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، فتهتز الأرض اهتزازًا شديدًا ، ولا يبقى فوقها جبل ولا مرتفع ، بل تدكّ الجبال دكًّا ، وتضطرب الأرض وتفقد تماسكها .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج : ١ ، ٢) .

وقال تعالى : إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا . (الواقعة : ٤) .

وشبيه بذلك ما شاهدته البشرية من وقوع الزلازل والبراكين التى تبتلع قرى بأكملها ، وينقلب أعلاها أسفلها ، وأسفلها أعلاها .

٢ - وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا .

لفظت الأرض ما فى أحشائها من الأموات والدَّفائن ، كما قال تعالى : وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ . (الانشقاق : ٣ ، ٤) .

فتخرج الأرض كنوزها يوم القيامة ليراها أهل الموقف ، فيتحسَّر العصاة إذا نظروا إليها ، حيث عصوا الله بهذه الكنوز ، ثم تركوها لا تغنى عنهم شيئًا ، فلا ينظر إنسان إلى الذهب وبريقه ولمعانه ، بل ولا ينقله من مكانه ، لأنه لا يفيده شيئًا فى ذلك الوقت .

أخرج مسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «تقىءُ الأرض أفلاذ كبدها ، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قَتلْتُ ، ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قُطعت يدى ، ثمّ يَدَعُونَه فلا يأخذون منه شيئًا»[١٤٠] .

٣ – وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا .

تعجّب الإنسانُ من أمْر الأرض وما عليها ، حيث سُيرت الجبال وصيرت هباءً ، واهتزت الأرض وتمددت ، وألقت ما فى بطنها وتخلّت عنه ، وشاهد الإنسان أهوالاً واضطرابًا ، وتبدّلت الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات ، فتعجّب الناس كلّ الناس ، وذهب فريق من المفسرين إلى أن التعجُّب والدهشة تكون من شأن الكافر الذى كان ينكر البعث والحشر والقيامة ، أما المؤمن فيقول : هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ . (يس : ٥٢) .

٤ ، ٥ – يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .

يومئذ تشهد أحوال الأرض وهيئاتها بأنّ الله أمرها أن تفعل ذلك ، وهو أمر تكوينى .

قال تعالى : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

فالحديث الذى تحدّثه الأرض وتشهد به يتمّ بلسان الحال لا بلسان المقال ، كما يقول إنسان : هذه الدار تخبرنى أنها قريبة العهد بسكنى أهلها فيها ، لما يُشاهد من آثار ذلك .

وقيل : إن الأرض تشهد بلسان أو بكلام أو دلالة تفيد ما وقع عليها ، فتشهد الأرض على القاتل والزانى ، كما تشهد الأماكن والمساكن للعابد والمتصدّق والمعلّم ، والآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، أى كما تشهد الجوارح على الإنسان ، تشهد الأرض بما فعله الإنسان عليها .

أخرج الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى – واللفظ له – عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . ثم قال : «أتدرون ما أخبارها» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها»[١٤١].
قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وقال الطبرى : إن هذا تمثيل ، والمراد أنها تنطق بلسان الحال لا بلسان المقال .

٦ – يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ .

فى ذلك اليوم – يوم الزلزلة الشديدة ، والهول العظيم – يتقدم الناسُ حال كونهم فرقًا شتّى : فريق مؤمن ، النور يسعى بين يديه ومن خلفه ، وفريق كافر ، وفريق فاجر أو عاص ، هؤلاء العصاة يؤخذون

ليشاهدوا أعمالهم ، ويا لها من لحظة حرجة ، لحظة الندم والحسرة والألم على فعل هذه الأمور المخزية ، فى وقت يجتمع فيه الأولون والآخرون .

قال تعالى : وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

٧ ، ٨ – فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ .

فمن يعمل أى خير مهما كان صغيرًا فإنه سيلقى الجزاء الحسن من جنس العمل ، ومن يعمل أى شر مهما كان صغيرًا ، فإنه سيلقى الجزاء المؤلم من جنس العمل .

وهاتان الآيتان جامعتان للإفادة بالجزاء العادل من الله عن كل صغيرة وكبيرة ، وأن الناس ستجازى بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الكافر يُكافأ على الأعمال الصالحة بجزاء دنيوى ، ثم يُعاقب على كفره بجهنم ، وذهب فريق من العلماء كالإمام محمد عبده والقاسمى فى تفسيره والقاشانى وغيرهم إلى أن هاتين الآيتين تفيدان أن كل عامل خير سيلقى جزاء خيره ، وأن كل عامل شر سيلقى جزاء شرّه بدون استثناء بين كافر ومؤمن .

**وجاء فى تفسير المراغى ما يأتى :**

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ .

أى : فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يجد جزاءه ، ومن يعمل الشر ولو قليلاً يجد جزاءه ، لا فرق بين المؤمن والكافر .

وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون فى الشقاء ، وما نطق من الآيات بحبوط أعمال الكافرين وأنها لا تنفعهم ، فالمراد به أنها لا تنجيهم من عذاب الكفر وإن خففت عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم من السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شىء ، يرشد إلى ذلك.

قوله تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

فقوله : فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ... صريح فى أن المؤمن والكافر فى ذلك سواء ، وأن كلاً يوفَّى يوم القيامة جزاءه ، وقد ورد أن حاتمًا يُخفف عنه لكرمه ، وأن أبا لهب يُخفف عنه لسروره بولادة النبى ﷺ ، هذا تلخيص ما قاله الأستاذ الإمام فى تفسير الآية[١٤٢] .

## من تفسير ابن كثير

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ...

أى : يرجعون عن موقف الحساب أَشْتَاتًا . أى : أنواعًا وأصنافًا ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار .

وقوله تعالى : لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ . أى : ليجازوا بما عملوه فى الدنيا من خير وشرّ ، ولهذا قال : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ✽ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ .

روى البخارى ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر» الحديث . فسُئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر ؟ فقال : «ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ✽ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ .»[١٤٣] .

وروى الإمام أحمد ، عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبى ﷺ فقرأ عليه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ✽ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . قال : حسبى أن لا أسمع غيرها[١٤٤] .

وفى صحيح البخارى ، عن عدى مرفوعًا : «اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ولو بكلمة طيبة» .

وله أيضًا فى الصحيح : «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»[١٤٥] .

وفى الصحيح أيضًا : «يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرنَّ جارةً لجارتها ولو فرسن شاة»[١٤٦] . يعنى ظلفها ، وفى الحديث الآخر : «ردوا السائل ولو بظلف محرق» .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «يا عائشة ، استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»[١٤٧] .

وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت : كم فيها من مثقال ذرة .

وروى ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. وأبو بكر الصديق رضى الله عنه قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر»؟ قال: يبكينى هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم»[١٤٨].

وروى ابن أبى حاتم، عن سعيد بن جبير فى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. (الإنسان: ٨). كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشىء القليل إذا أعطوه، فيجىء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه، ويقولون: ما هذا بشىء إنما نؤجر على ما نعطى ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يُلامون على الذنب اليسير: الكذبة، والنظرة، والغيبة، وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغّبهم فى القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.[١٤٩] يعنى: وزن أصغر النمل. ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾. يعنى: فى كتابه ويسره ذلك، قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضًا بكل واحدة عشرًا، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة.

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وإن رسول الله ﷺ ضرب لذلك مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها[١٥٠].

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم[١٥١]

★ ★ ★

(تم بحمد الله وفضله تفسير سورة الزلزلة).

★ ★ ★



# تفسير سورة العاديات

# أهداف سورة العاديات

(سورة العاديات مكية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة العصر)

تصف سورة العاديات الحرب بين كفار مكة والمسلمين ، وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة فى وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير فى صفوفه الذعر والفرار . يليه مشهد ما فى النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد ، ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور ، وتحصيل ما فى الصدور ، وفى الختام ينتهى النقع المثار ، وينتهى الكنود والشح ، وتنتهى البعثرة والجمع إلى نهايتها جميعًا .. إلى الله ، فتستقر هناك : إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ . (العاديات : ١١) .

## مع آيات السورة

١ - ٥ - وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا .

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة ، منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجرى ، قارعة للصخر بحوافرها ، حتى تورى الشرر منها ، مغيرة فى الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار ، وهى تتوسط صفوف الأعداء على غرة ، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب .

٦ - ٨ - إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ .

يقسم سبحانه على أن الإنسان كنود جحود ، كفور بنعمة الله ، يعد المصائب وينسى النعم .

«وروى عن النبى ﷺ : «الكنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده» . كأنه لا يعطى مما أنعم الله به عليه ، ولا يرأف بعباد الله كما رأف الله به ، فهو كافر بنعمة ربه . غير أن الآية عامة ،

والمراد منها ذكر حالة من حالات الإنسان التى تلازمه فى أغلب أفراده»[١٥٢] ، إلا من عصمهم الله ، وهم الذين رَوَّضوا أنفسهم على فعل الفضائل وترك الرذائل .

وسر هذه الجملة أن الإنسان يحصر همه فيما حضره ، وينسى ماضيه وما عسى أن يستقبله ، فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرَّته فَضَلَّتْهُ ، ومنعه البخل والحرص من عمل الخير .

وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ . وإن أعماله كلها لتشهد بذلك ، وإنه ليعترف بذلك بينه وبين نفسه ، أو إن الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد .

وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ . وإن الإنسان بسبب حبه للمال وتعلقه بجمعه وادخاره لبخيل شديد فى بخله ، ممسك مبالغ فى إمساكه ، متشدد فيه .

ومن ثم تجىء اللفتة الأخيرة فى السورة لعلاج الكنود والشح والأثرة ، مع عرض مشهد من مشاهد الآخرة .

٩ – ١١ – أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ .

وهو مشهد عنيف مثير : بعثرة لما فى القبور ، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير ، وتحصيل لأسرار الصدور التى ضنت بها وخبأتها بعيدًا عن العيون ، تحصيل بهذا اللفظ القاسى ، ومفعول الفعل : يَعْلَمُ . محذوف لتذهب النفس فى تخيله كل مذهب .

أى : أفلا يعلم الكنود الحريص ما يكون حاله فى الآخرة يوم تكشف السرائر ؟ أفلا يعلم ظهور ما كان يُخفى من قسوة وتحيل ؟ أفلا يعلم أنه سيحاسب عليه ؟ أفلا يعلم أنه سيوفى جزاء ما كفر بنعمة ربه ؟

وتختم السورة بعدل الجزاء ، وشهادة الخبير ، فتقول : إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ .

فالمرجع إلى ربهم ، وإنه لخبير بهم يَوْمَئِذٍ . وبأحوالهم وبأسرارهم ، والله خبير بهم فى كل وقت وفى كل حال ، وإنما خص هذا اليوم بذلك لأن هذه الخبرة يعقبها الحساب والجزاء .

كما قال تعالى : سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ... (آل عمران : ١٨١) . مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلاً ، والمراد سنجازيهم بما قالوا جزاء يستحقونه .

إن السورة قطعة رائعة لعرض سلوك الإنسان ، والوصول به إلى مرحلة الجزاء ، فى أسلوب قوى آسر معنى ولفظًا ، على طريقة القرآن المبين .

## المعنى الإجمالى للسورة

١ – القسم بخيل الغزاة والمجاهدين .

٢ – بيان حال الإنسان إذا خلا قلبه من الإيمان .

٣ – ذم الشح والبخل وجحود النعمة .

٤ – عرض صورة من مشاهد البعث والحساب والجزاء .

★ ★ ★

## القسم بالخيل على جحود الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١ ﴾

**المفردات :**

**العاديات :** الخيل التى تعدو مسرعة .

**الضبح :** صوت أنفاس الخيل حين الجرى .

**الموريات قدحا :** هى الخيل تضرب بحوافرها الأرض فتقدح نارًا ، يقال : أورى الزناد ، إذا أخرج النار على هيئة شرار .

**المغيرات صبحا :** خيل الغزاة تُغير صباحًا .

**الإثارة :** التهييج وتحريك الغبار .

**النقع :** الغبار .

**فوسطن به جمعا :** توسطن جمعا من الكفار ففرقنه وهزمنه .

**الكنود :** جحود النعم .

**لشهيد :** يشهد على جُحُودِه لسان حاله بأقواله وأفعاله .

**الخير :** المال .

**لشديد :** الحرص عليه .

**بعثر ما فى القبور :** أُخرج ما فيها من الموتى .

**حصل ما فى الصدور :** أُبرز المكنون فى الصدور ، وظهرت الأسرار .

**لخبير :** بالغ علمه بكل شىء .

**التفسير :**

**١ - وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا .**

أقسم الله تعالى بالخيل التى تخرج للجهاد فى سبيل الله ، ولها صوت صياح وحمحمة ، وهو الضبح .

**قال ابن عباس :** الخيل إذا عدت قالت : أُحْ أُحْ ، فذلك ضبحها .

**وقال أبو السعود :** أقسم سبحانه بخيل الغُزاة التى تعدو نحو العدوّ ، وتضبح ضبحًا ، وهو صوت أنفاسها عند عَدْوها .

**٢ - فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا .**

هى نفس الخيل تعدو نحو العدوّ ولها حمحمة ، ومن شدة وثبها تقدح الشرر بحوافرها من صدم حوافرها للحجارة ، واندفاعها فى سيرها عند الجرى .

**٣ - فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا .**

أى : فالخيل تُغير على العدوّ فى الصباح المبكر قبل شروق الشمس ؛ لأخذه بغتة على غير أهبة واستعداد .

**جاء فى روح المعانى للآلوسى :**

هذا هو المعتاد فى الغارات ، كانوا يستعدّون ليلاً لئلا يشعر بهم العدوّ ، ويهجمون صباحًا ليروا ما يأتون وما يذرون .

**٤ - فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا .**

فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العَدْو فى الموضع الذى أغرن به .

قال بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

والمعنى :

أثارت خيلنا غبارًا كثيفًا فوق رؤوسنا كالليل المظلم ، وتحرّكت سيوفنا لقتال الأعداء وسط هذا الظلام ، فكان بريق السيوف يشبه تساقط الكواكب فى ظلام الليل .

٥ – فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا .

فتوسطن جموع الأعداء ، ففرّقن صفوفهم ، وشتتن شملهم .

قال الآلوسى : والفاءات للدلالة على ترتيب ما بعد كل منها على ما قبله ، فتوسط الجمع مترتب على الإثارة ، المترتبة على العدو السريع .

إن نظرة إلى جمال التعبير ، وإقسام القرآن الكريم بالخيل المغيرة التى تصهل ، وبالشرر الذى يتطاير من حوافرها ، وبالإغارة فى وقت الصباح الباكر ، وبالغبار المتطاير من سرعة الجرى ، وبالوصول إلى وسط الجموع لتبديدها وتفريقها – كل ذلك ليلفت نظر المسلمين إلى أهمية الجهاد والغزو والكفاح ، والإعجاب بحركة الخيل وعَدْوها ، واقتحامها المعارك لتشتيت العدوّ وإصابته فى الصميم .

وقد ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة الحث على الجهاد وإعداد العدّة .

قال تعالى : وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... (الأنفال : ٦٠) .

وذلك يوجب علينا العناية بالخيل وبسائر الأسلحة اللازمة للحرب ، فلا شىء يمنع الحرب أكثر من الاستعداد لها .

٦ – إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ .

أى : وحق الخيل التى يعتلى صهوتها المجاهدون فى سبيل الله ، والتى تجرى بهم فى ساحات القتال فيُسمع صوت أنفاسها ، والتى تظهر شرر النار من أثر صكّ حوافرها بالحجارة ، والتى تُغير على العدو وقت الصباح ، فتثير الغبار وتمزق جموع الأعداء . إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ . أى : من طبيعة الإنسان جحود النعمة والأثرة بها ، فهو يعد المصائب وينسى نعم الله عليه .

وقد ورد فى السُّنة أن الكنود هو : «الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رِفْده» . فهو أنانى ليس لديه إيثار أو معونة للآخرين ، وهى مُسيء العشرة يؤذى الخادم والأجير ، وهو بخيل شحيح لا يجود بالخير على المحتاجين إلى معروفه .

٧ - وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ .

أى : إنه إذا خُلِّى بينه وبين نفسه رجع إلى الحق ، واعترف أنه لم يشكر ربّه حقّ الشكر ، ولم يستخدم نعمة الله فيما خُلقت له ، وأنه ضَنّ بمعروفه على المحتاجين إليه ، فهى شهادة بلسان الحال ، وهى أفصح من لسان المقال .

٨ - وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ .

وإنه لشديد المحبة للمال ، وهو لذلك شديد الحرص عليه ، لا يسهل عليه أن ينفقه فى وجوه الخير .

٩ - أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ .

من شأن القرآن أن ينقل الإنسان مباشرة إلى بعض المشاهد لتحريك قلبه ، لتنبيه ضميره ، لتطهير فؤاده ، لإيقاظ العظة والاعتبار فى وجدانه ، فهذا الإنسان الكنود الجَحُود ، الشديد الحبّ للمال ، الضنين به على مستحقّيه ، ماذا يكون حاله إذا بعثرت القبور ، وبُعثت الأموات ، وخرج الموتى سراعًا للحساب والجزاء ؟

١٠ - وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ .

ظهر وانكشف كل ما ستره الإنسان فى الدنيا ، وأصبح واضحًا مكشوفًا أمام العيان ، لا يستطيع إنسان أن يحجب سرائره وخباياه ، يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ . (الطارق : ٩) . وتظهر الخفايا ، ويُعرض الجميع على اللَّه ، حفاة عراة غُرْلا ، لقد بان المستور ، وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ . أى جُمع ما فى القلوب من خير اكتسبوه أو شر اقترفوه .

ومفعول الفعل : يَعْلَمُ . محذوف؛ لتذهب النفس فى تصوّره كل مذهب ، مثل : إن الجزاء سيكون من جنس العمل .

أو أفلا يعلم أنه سيحاسب على ما فعل؟

أو أفلا يعلم أنه سيوفّى جزاء ما كفر من نعمة ربه ؟

١١ - إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ .

إنه سبحانه عليم بالسِّر ، وما هو أخفى من السرِّ ، وقد قَدِمُوا على العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو خبير فى كل يوم ، لكنَّه عبَّر بقوله : إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ . ليبيِّن أنه هو المحاسب وهو المجازى ، وهو المعطى وهو المانع فى ذلك اليوم .

قال تعالى : ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٨) .

فهو ربهم ولن يظلمهم ، وهو الحكم العادل ، والمُلك له وحده فى ذلك اليوم ، وهو خبير بمعنى عليم بكلّ ما فعلوا ، وسيجازيهم جزاء عادلاً .

قال تعالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى وفضله وتوفيقه تفسير سورة (العاديات) عِشاء يوم الجمعة ١٦ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٨ / ٦ / ٢٠٠١ م .

★ ★ ★



# تفسير سورة القارعة

# أهـــداف ســـورة القـــارعة

(سورة القارعة مكية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة قريش)

والقارعة اسم من أسماء القيامة ، كالحاقة والصاخة والطامة والغاشية ، وسُميت قارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها . والسورة كلها عن هذه القارعة : حقيقتها ، وما يقع فيها ، وما تنتهى إليه ، فهى تعرض مشهدا من مشاهد القيامة . والمشهد المعروض هنا مشهد هول ، تتناول آثاره الناس والجبال ، فيبدو الناس فى ظله صغارا ضئالا على كثرتهم ، فهم كالفراش المبثوث ، مستطارون مستخفون فى حيرة الفراش الذى يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفا . وتبدو الجبال التى كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش ، تتقاذفه الرياح ، وتعبث به حتى الأنسام .

عندئذ يرجح وزن المؤمن وتثقل درجته ، فيعيش عيشة راضية ، ويخفُّ ميزان الكافر وتهوى منزلته ، فيصطلى بنار حامية .

## مع آيات السورة

١ – ٣ – ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ .

ٱلْقَارِعَةُ . أى : القيامة ، بدأ بها قرعا للأذهان بهولها .

مَا ٱلْقَارِعَةُ . استفهام عن حقيقتها ، قصد به تهويل أمرها ، كأنها لشدة ما يكون فيها ، مما تفزع له النفوس وتدهش له العقول ، يصعب تصورها .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ . : أى شئ يعرفك بها ؟ زيادة فى تعظيم تلك الحادثة العظيمة ، كأن لا شيء يحيط بها ويفيدك برسمها ، ثم أخذ يعرفها بزمانها وما يكون للناس فيها .

٤ – يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ . أى : يكون الناس من حيرتهم وذهولهم كالفراش الهائم على وجهه ، المنتشر فى الفضاء لا يدرى ماذا يصنع ، قال تعالى فى آية أخرى : كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . (القمر : ٧) .

٥ – وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ . أى : تصبح فى صورة الصوف المنفوش ، فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ، وفى سورة (عم يتساءلون) قال تعالى : وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبأ : ٢٠) .

٦ ، ٧ – فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ .

أى : من ثقلت موازينه برجحان كفة حسناته على سيئاته ، فهو فى الجنة . ويقال : ثقل ميزان فلان ، إذا كان له قدر ومنزلة رفيعة ، كأنه إذا وُضع فى ميزان كان له به رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة ، والفضائل الراجحة ، فهؤلاء يُجزون النعيم الدائم والعيشة الراضية .

٨ ، ٩ – وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ . يقال : خفَّ ميزان فلان ، أى سقطت قيمته فكأنه ليس بشىء ، حتى لو وضع فى كفة ميزان لَم يرجح بها على أختها ، ومن كان فى الدنيا كثير الشر قليل فعل الخير ، يجترئ على المعاصى ، ويُفسد فى الأرض ، فإنه لا يكون شيئا فى الآخرة، ولا ترجح به كفة ميزان لو وُضع فيها .

ويرى بعض المفسرين أن الذى يوزن هو الصحف التى تكتب فيها الحسنات والسيئات ، وأن الحسنات تمثل وتقابل بالنور والخير ، وأن السيئات تمثل وتقابل بالظلام والشر ، وأن من كثر خيره كان ناجيا ، ومن كثر شره كان هالكا .

وهذا الميزان نؤمن به ونفوِّض حقيقة المراد به إلى الله تعالى ، فلا نسأل كيف يزن ؟ ولا كيف يقدر ؟ فهو أعلم بغيبه ونحن لا نعلم .

قال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ .(الأنبياء : ٤٧).

فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ . مرجعه الذى يأوى إليه كما يأوى الولد إلى أمه ، أى : فمسكنه ومأواه النار .

١٠ – وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ . أى : ما الذى يخبرك بما هى تلك الهاوية ، وأى شىء تكون ؟

١١ – نَارٌ حَامِيَةٌۢ . هى نار ملتهبة بلغت النهاية فى الحرارة ، يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدّم من عمل .

★ ★ ★

## مقاصد السورة

١ – وصف أهوال يوم القيامة ومشاهده .

٢ – وزن الأعمال ورجحان كفة المؤمن ، وخفة كفة الفاجر .

٣ – السعداء يدخلون الجنة ، والأشقياء يذهبون إلى النار .

★ ★ ★

## مشاهد القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾

**المفردات :**

**القارعة :** يوم القيامة .

**وما أدراك ما القارعة :** استفهام عن حقيقتها ، قُصد به تهويل أمرها .

**الفراش :** الحشرات الصغيرة التى تندفع على غير هدى نحو الضوء .

**المبثوث :** المنتشر المتفرق ، وهو مثل فى الحيرة والجهل بالعاقبة .

**العهن :** الصوف .

**المنفوش :** الذى نفشته بيدك أو بآلة أخرى ، ففرقت شعراته بعضها عن بعض .

**ثقلت موازينه :** بكثرة الحسنات .

**خفت موازينه :** بقلة الحسنات وكثرة السيئات .

**فأمه هاوية :** مرجعه الذى يأوى إليه هاوية ، أى : مهواة سحيقة يهوى فيها .

**التفسير :**

١ ، ٢ ، ٣ - ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ .

ٱلْقَارِعَةُ. هى القيامة ، وسُمّيت القارعة لأنها تقرع الناس بأهوالها وشدّتها ، وتسمّى الحاقة ، والصاخة ، والطامة الكبرى ، والواقعة ، والقيامة ، وتبدأ بالنفخة الأولى من إسرافيل فى الصُّور ، وتنتهى بفصل القضاء بين الخلائق ، فمنهم شقى وسعيد .

مَا ٱلْقَارِعَةُ .

تهويل لشأنها ، أى : أىّ شىء هى ؟ وما أعلمك ما شأن القارعة ؟

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ .

تأكيد لشدة هولها على النفوس ، كأنّه لا شىء يحيط بها ، مهما تخيلت أمرها فهى أعظم من تقديرك وتوقّعاتك ، ثم فسّر ذلك ، وأبان زمانها وأماراتها ، فقال :

٤ - يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ .

هذا وصف يبيّن الفزع والجزع ، والقلب المستطار ، والفؤاد المشتت ، والهيام على غير هدى ، وقد شُبِّه الناس فى ذلك اليوم بالحشرة الصغيرة ، التى تراها تترامى على ضوء السراج ليلا ، وبها يضرب المثل فى الجهل بالعاقبة ، أو كجميع الحشرات الطائرة ، كالباعوض والجراد ، فالناس فى انتشارهم وتفرّقهم ، وذهابهم ومجيئهم ، بسبب حيرتهم مما هم فيه ، كأنّهم فراش مبثوث ، أى متفرق منتشر .

كما قال تعالى : كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . (القمر : ٧) .

أى : كجراد يهيم على غير هدًى ، وعلى غير اتجاه موحّد .

**قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :**

شبههم بالفراش فى الكثرة والانتشار ، والضعف والذلّة ، والتطاير إلى الدّاعى من كل جانب ، كما يتطاير الفراش إلى النار .

٥ - وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ .

الجبال تصبح رخوة مفتتة متهايلة ، كَٱلْعِهْنِ . وهو الصوف ٱلْمَنفُوشِ . الذى نفش بالندف وأصبح خفيفا ، تحركه الرِّياح والأنفاس .

وإذا كانت الجبال فى الدنيا يُضرب بها المثل فى الرسوخ والتماسك ، فقد صارت فى الآخرة هلامًا رخوا ، متطايرا غير متماسك ، كما قال تعالى : وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ . (التكوير :٣) .

وكما قال تعالى : وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا . (المزمل : ١٤) .

أى : رمالا متحركة غير متماسكة .

وقال تعالى : وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبأ : ٢٠) .

فالجبال يوم القيامة تقتلع من أماكنها ، ويتحوَّل تماسكها إلى رمال متحركة متناثرة ، ثم تُذرَّى فى الهواء ، فتتطاير كالصوف المنفوش ، ثم تصبح سرابا لا حقيقة لها ، حيث تسوَّى الأرض ، وتبدّل بأرض بيضاء مستوية : لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا . ( طه : ١٠٧) . أى : لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

إذا كان هذا حال الجبال ، فما بالك بالإنسان الذى خلقه الله ضعيفا ، إنه يُصاب يوم القيامة بالهلع والمفاجأة وشدة الصدمة .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج : ١ ، ٢) .

وقيل : إن ذلك الهول يصيب الكفّار والعصاة من المؤمنين ، أمَّا الصالحون المهتدُون فتنزل عليهم الملائكة تطمئنهم وتبشرهم بالجنة ونعيمها .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت : ٣٠ - ٣٢) .

٦، ٧ - فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ .

أى : من ثقلت موازين حسناته ، ورجحت على سيئاته ، فهو ناج ذاهب إلى الجنة ، فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . هنيئة راضٍ صاحبها ، موصوف بالرضا والاطمئنان ، والسرور والسعادة ، ومن شدة رضا المؤمن وُصِفت عيشته بأنها راضية .

قال تعالى : رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ . (البينة : ٨) .

٨ ، ٩ - وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ .

من خفت موازين حسناته أو لم تكن له حسنات أصلا ، فمآله ونهايته إلى هاوية ، وهى الهالكة حيث يهوى فيها مع عمق قعرها ، ولأنها نار عتيقة ، حرارتها سبعون ضعفا بالنسبة لنار الدنيا ، وسُميت جهنم أُمَّهُ ، لأنه يأوى إليها كما يأوى الطفل إلى أمه .

**والمعنى :**

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ . فمآله ومأواه هاوية فى جهنم .

**قال ابن كثير :**

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ . أى : رجحت سيئاته على حسناته .

فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ . قيل : معناه : فهو ساقط هاوٍ بأمّ رأسه فى نار جهنم ، وعبَّر عنه بأمّه ، يعنى : دماغه .

**قال قتادة :** يهوى فى النار على رأسه .

وقيل : معناه : فأمّه التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها ، هَاوِيَةٌ . وهى اسم من أسماء النار[١٥٣] .

١٠ - وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ .

ما أعلمك ما الهاوية ، وأىّ شىء تكون ؟

١١ - نَارٌ حَامِيَةٌۢ .

هى نار شديدة الحرارة ، شديدة الإحراق ، شديدة اللهيب والتعذيب والإيلام لأهلها ، وهذا دليل على قوّتها التى تفوق جميع النيران .

## نُقُولٌ من مختصر تفسير ابن كثير

روى ابن جرير ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذُهب بروحه إلى أرواح المؤمنين ، فيقولون : روِّحوا أخاكم فإنه كان فى غمٍّ الدنيا ، قال : ويسألونه : ما فعل فلان ؟ فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذُهب به إلى أمه الهاوية [١٥٤].

وقوله تعالى : نَارٌ حَامِيَةٌ . أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهب والسعير . عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «نار بنى آدم التى توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم» ، قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ فقال : «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا » [١٥٥]. وفى رواية : «كلهن مثل حرها» .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد» [١٥٦].

وروى الترمذى ، وابن ماجة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة» [١٥٧].

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «اشتكت النار إلى ربها فقالت : يارب ، أكل بعضى بعضًا ، فأَذِن لها بنفسين : نفس فى الشتاء، ونفس فى الصيف ، فأشد ما تجدون فى الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون فى الصيف من حرها» [١٥٨].

وفى الصحيحين : «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » [١٥٩].

★ ★ ★


تفسير سورة التكاثر

# أهـــداف ســـورة التكـــاثر

(سورة التكاثر مكية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة الكوثر)

## من أسباب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم ، عن أبى بريدة قال : نزلت : ﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ . فى قبيلتين من الأنصار ، وهما : بنو حارثة ، وبنو الحرث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك ؛ فأنزل الله هذه السورة .

هذه السورة صيحة بالقلب البشرى الغارق فى التفاخر والتكاثر بالدنيا ومظاهرها ، وتنبيه له إلى أن ما تفاخر به إلى زوال ، وأن الدنيا قصيرة ، وأن الغاية إلى حفرة ضيقة ، وهناك ترى الحقيقة الباقية ، واليقين المؤكد ، وتسأل عن هذه الألوان المتنوعة من الملذات ، وعن سائر ألوان النعيم ، عن الشباب والمال والجاه والصحة والعافية ، ماذا عملت بها ؟

«وروى : يُسأل عن التنعم الذى شغله الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه ، وعن الحسن : يُسأل عما زاد عن كِنٍّ يؤويه ، وثوب يواريه ، وكسرةٍ تقوِّيه» [١٦٠] .

## مع آيات السورة

١ ، ٢ – ﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ . أيها السادرون الغافلون ، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة ، وأنتم مفارقون ، أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون به وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر ، استيقظوا وانظروا .. فقد شغلكم حب الكثرة والفخر حتى هلكتم ، وصرتم من الموتى ، ورأيتم الحساب والجزاء .

وفى صحيح مسلم ، عن مطرف ، عن أبيه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ : ﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ . قال : «يقول ابن آدم : مالى ، ومالك ، يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فذاسب وتاركه للناس» [١٦١] .

٣ ، ٤ – كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : ازدجروا عن مثل هذا التكاثر والتفاخر ، والجأوا إلى التناصر على الحق ، والتكاتف على أعمال البر ، والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات ، من تقويم الأخلاق ، والتعاون على الخير والمعروف ، وإنكم سوف تعلمون سوء مغبة ما أنتم عليه .

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وهو تكرير للوعيد لتأكيد الزجر والتوبيخ ، كما يقول الإنسان لآخر : أقول لك لا تفعل ، ثم أقول لك لا تفعل .

٥ – كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ . أى : ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم ، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثر ، وصرفكم إلى صالح الأعمال ، وأن ما تدَّعونه علمًا ليس فى الحقيقة بعلم ، وإنما هو وهم وظن ، لا يلبث أن يتغير لأنه لا يطابق الواقع ، والجدير أن يسمى علمًا هو علم اليقين المطابق للواقع ، بناء على العيان والحس ، أو الدليل الصحيح الذى يؤيده العقل ، أو النقل الصحيح عن المعصوم ﷺ .

٦ – لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ . ولا شك فى رؤيتها ، والمراد برؤية الجحيم : ذوق عذابها ، ثم أكد هذا المضمون بقوله :

٧ – ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ . أى : لترونها رؤية هى اليقين بنفسه ، مهما كانت نسبتكم أو مجدكم ، فلن ينجيكم منها سوى أعمالكم .

٨ – ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ . لتسألن عنه : من أين نلتموه ؟ وفيم أنفقتموه ؟ أمن طاعة وفى طاعة ؟ أم من معصية وفى معصية ؟ أمن حلال وفى حلال ؟ أم من حرام وفى حرام ؟ هل شكرتم ؟ هل أديتم حق النعيم ؟ هل شاركتم الفقير والمسكين ؟ هل استأثرتم وبخلتم ومنعتم صاحب الحق حقه ؟

لتسألن عما تتكاثرون به وتتفاخرون .. فهو عبء تستخفونه فى غمرتكم ولهوكم ، ولكن وراءه ما وراءه من هَمٍّ ثقيل .

رُوى أن رسول الله ﷺ قال : «من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» . [١٦٢]

★ ★ ★

## مقاصد سورة التكاثر

١ – ذم الانشغال بمظاهر الحياة .

٢ – التذكير بالموت والقبر والحساب .

٣ – زجر الغافلين والعابثين ، وتذكيرهم بيوم الدين .

٤ – لن ينقذهم من النار جاه ولا سلطان ، ولن ينفعهم سوى العمل الصالح .

٥ – الحساب على النعيم حق ، فيجب أن يكون النعيم حلالا طيبًا .

★ ★ ★

## ذمّ التفاخر بالدنيا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

**المفردات :**

**ألهاكم :** شغلكم .

**التكاثر :** التباهى والتفاخر بالكثرة فى الأموال والأولاد والأهل والعشيرة .

**زرتم المقابر :** صرتم إليها ودفنتم فيها .

**كلا :** كلمة يُراد بها الزجر والردع .

**سوف تعلمون :** خطأ ما أنتم فيه من التكاثر والتباهى ، وكرر الجملة للتأكيد .

**لو تعلمون علم اليقين :** المراد : ما ألهاكم ذلك عن الآخرة والعمل لها .

**لترون الجحيم :** تفسير للوعيد السابق المكرر .

**عين اليقين :** عين هى اليقين نفسه .

**التفسير :**

١ ، ٢ - أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ .

شغلكم طلب الكثير من المال والجاه والسلطان ، رغبةً فى كثرة ما تملكون ، لتكونوا أكثر مالا أو متاعًا من أندادكم ونظرائكم ، ولم تلتفتوا إلى عين الحقيقة ، وهى أن المال الحقيقى هو الذى ينفقه الإنسان

فى سبيل الله ، وأن الفضل الحقيقى هو عمل الخير والمعروف ابتغاء وجه الله ، لأن ذلك هو الذى ينفعك فى قبرك ، ويعلى درجتك فى الآخرة .

حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ .

حتى ذهبتم إلى المقابر ودُفنتم فيها ، ولم تجدوا أثرًا لتكاثر الدنيا ، والتشبّع بأموالها .

وفى قوله : حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ . إشارة لطيفة إلى أن بيت الإقامة الدائمة هو الجنة أو النار ، أمَّا الزائر فإنه ينتقل عن بيت الزيارة ، فالقبر مدفن مؤقّت ، والدار الآخرة هى الحياة الدائمة .

وقيل : إن الآية تحتمل معنى آخر ، هو : شَغَلَكم التفاخر والتكاثر بالأحياء حتى زرتم المقابر لتفتخروا بمن مات منكم من عظماء الدنيا على القبائل الأخرى .

أو المعنى : بنيتم مقابر مشيّدة تفاخرًا بها ، كما قال الشاعر :

أرى أهل القصور إذا أُميتوا بَنَوْا فوق المقابر بالصخور
أَبَوْا إلا مباهاة وفخرًا على الفقراء حتى فى القبور

٣، ٤ – كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .

كَلَّا : ارتدعوا عن التنافس والتسابق فى شئون الدنيا .

سَوْفَ تَعْلَمُونَ . سوف تعلمون عاقبة جهلكم ، وانشغالكم بما لا يفيد ، إذا دُفنتم فى قبوركم.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .

تأكيد للأوّل، وزيادة فى الزجر والتهديد .

قال ابن عباس :

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ : ما ينزل بكم من العذاب فى القبر .

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . أى : فى الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب . اهـ .

٥ - كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ .

تكررت كَلَّا . ثلاث مرات ، وهى حرف ردع وزجر ، أى : انصرفوا عن الهوى والتفاخر والتكاثر بمال زائل ، لأنّ الفخر الحقيقى بالمال الذى تنفقونه فى سبيل الله فينفعكم .

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ . جواب لَوْ. هنا محذوف ، تقديره : لو تعلمون العلم اليقينىّ النافع لازدجرتم واستعددتم للآخرة .

وإنما حُذف الجواب لقصد التهويل ، ولتذهب النفس فى تصوّره كل مذهب .

كقوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ... (الأنعام : ٢٧) .

قال المفسرون :

وجواب لَوْ . محذوف لقصد التهويل ، أى : لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله ، ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها .

كما قال ﷺ : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» . [١٦٣] .

٦ - لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ .

لتشاهدنّ جهنم مشاهدة حقيقية ، وهذه الآية جواب قسم مضمر ، أى : أُقسم وأؤكد أنكم ستشاهدون الجحيم عيانا ويقينا .

قال ابن كثير :

توعدهم الله بهذا الحال وهو رؤية أهل النار ، التى إذا زفرت زفرة واحدة خرّ كل ملَك مقرب ونبى مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال ، على ما جاء به الأثر المروى فى ذلك .

٧ - ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ .

أى : ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية ، أى أن ذلك أمر مؤكد ، أن تشاهدوا جهنم مشاهدة حقيقية ، بحيث لا يلتبس عليكم أمرها .

**جاء فى التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى ما يأتى :**

وقد قالوا إن مراتب العلم ثلاثة :

**علم اليقين :** وهو ما كان ناتجا عن الأدلة والبراهين .

**وعين اليقين :** وهو ما كان عن مشاهدة وانكشاف .

**وحقّ اليقين :** وهو ما كان عن ملابسة ومخاطبة .

ومثال ذلك : أن تعلم بالأدلة أن الكعبة موجودة فذلك علم اليقين ، فإذا رأيتها بعينيك فذلك عين اليقين ، فإذا ما دخلت فى جوفها فذلك حقّ اليقين .[١٦٤]

٨ - ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ .

أى : ثم لتسألنّ يومئذٍ عن شكر نعمة الله عليكم ، من العافية والرزق والحياة والعقل وسائر النّعم ، حتى الشربة الباردة فى اليوم الحار .

ومعروف أن شكر النعمة هو استخدامها فيما خلقها الله له ، فشكر المال صلة الرّحم وعمل الخير ، وشكر نعمة النظر غض البصر عن المحارم ، والتأمل فى كتاب الله وفى خلق الكون .

**قال الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عمَّ ما يأتى :**

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ .

أى : إن هذا النعيم الذى تتفاخرون به ، وتعدّونه مما يباهى به بعضكم بعضًا ، هو مما لابدّ أن تُسألوا عنه : ماذا صنعتم به ؟ هل أديتم حق الله فيه ، وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به ؟ فإن لم تكن الحقوق أُدِّيت ، ولم تكن الأحكام روعيت ، كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء .

نسأل الله أن يوفقنا لرعاية أحكامه فيما أنعم به علينا . ا هـ .

## من هُدَى السُّنة

روى البخارى فى صحيحه ، والترمذي فى سننه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» [١٦٥] .

ومعنى هذا أنهم مُقَصِّرون فى شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون .

وقال ابن عباس :

ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ .

قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيم استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى :

إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا .[٦٦٦] (الإسراء : ٣٦) .

★ ★ ★


تفسير سورة العصر

# أهداف سورة العصر

(سورة العصر مكية ، وآياتها ٣ آيات ، نزلت بعد سورة الشرح)

«وفى هذه السورة الصغيرة يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الله ، وتبرز معالم التصور الإيمانى بحقيقته الكبيرة الشاملة فى أوضح وأدق صورة .

إنها تضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار ، وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها فى آية واحدة ، هى الآية الثالثة من السورة .. وهذا هو الإعجاز الذى لا يقدر عليه إلا الله .

والحقيقة الضخمة التى تقررها هذه السورة بمجموعها هى : أنه على امتداد الزمان فى جميع العصور ، وامتداد الإنسان فى جميع الدهور ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح ، وطريق واحد ناج هو ذلك المنهج الذى ترسم السورة حدوده وتوضح معالمه»(١٦٧) .

إن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، وبذلك يصبح الإيمان قوة دافعة ، وحركة وعملا ، وبناء وتعميرا يتجه إلى الله .

أما التواصى بالحق والصبر فيُبرز صورة الأمة المسلمة متضامنة متضامَّة ، خيِّرة واعية ، قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر فى مودة وتعاون وتآخٍ .

## مع آيات السورة

١ ، ٢ – وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ . أقسم الله بالزمن وهو ماضٍ لا يقف ، متغير لا يقرّ ، على أن الإنسان الذى يهمل إيمانه ومرضاة ربه خاسر مهما كان رابحًا من مظاهر الحياة ، لأنه قد خسر الجنة وخسر الكمال المقدر له فيها ، وخسر مرضاة الله وطاعته .

٣ - إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ .

المؤمن يدرك أنه جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل ، وذو عواطف وجوارح ، وسعادته فى نمو هذه القوى نموًّا متناسقًا ، وفى دور الخلافة الرشيدة للمسلمين تعاونت قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المالية ، فى تنشئة الإنسان الكامل وفى ظهور المدينة الصالحة .

وكانت حكومة المسلمين من أكبر حكومات العالم قوة وسياسة وسيادة ، تزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقى الروحى التقدم المادى والحضارى .

وخلاصة السورة أن الناس جميعًا فى خسران إلا من اتصفواْ بأربعة أشياء :

الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

«وهذه السورة حاسمة فى تحديد الطريق .. إنه الخسر ، إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ .

طريق واحد لا يتعدد ، طريق الإيمان والعمل الصالح ، وقيام الجماعة المسلمة التى تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر ، وتقوم متضامنة على حراسة الحق ، مزودة بزاد الصبر .

إنه طريق واحد ، ومن ثَمَّ كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة (والعصر) ثم يسلم أحدهما على الآخر [١٦٨] .

لقد كانا يتعاهدان على الإيمان والعمل الصالح ، والتناصح بالحق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر والتحمل فى سبيل الدعوة إلى الهدى والرشاد .

## مقاصد السورة

١ - جنس الإنسان فى خُسر وضياع .

٢ - النجاة لمن آمن وعمل صالحًا ، وحثَّ على الفضيلة والحق ، وتحلى بالثبات والصبر .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

**المفردات :**

**العصر :** اسم للدهر ، أى : الزمن الذى يحياه الإنسان ، وقيل : أقسم الله بصلاة العصر لفضلها ، أو أقسم بالعشى كما أقسم بالضحى .

**خسر :** هلاك ، لسوء تصرفه وكثرة آثامه .

**تواصوا :** تناصحوا وتعاهدوا .

**بالحق :** الواجب من فعل الطاعات وترك المحرمات .

**التفسير :**

١ ، ٢ - وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ .

أقسم الله تعالى بالعصر ، وهو الزمان والدهر ، وفيه الأيام والليالى والصباح والمساء ، والليل والنهار ، وفى الزمان نجد يد الله تقلّب الأمور ، فهو سبحانه يُعزّ ويُذل ، ويرفع ويضع ، ويُعلى ويخفض ، وفى الزمان تبدُّل الأحداث والدُّول ، والأحوال والمصالح .

وقيل : أقسم الله بصلاة العصر تنبيهًا لأهميتها وفضلها ، حيث تكون فى أواخر النهار .

وقيل : يطلق العصر على وقت العشىّ ، وفيه الغروب والشفق ، كما أقسم سبحانه بالضحى .

ورجّح الطبرى الرأى الأول ، فالحق سبحانه يريد أن ينبّه الإنسان إلى أهمية الزمان ، والصباح والمساء ، وكان أهل الجاهلية ينسبون الأحداث إلى الدّهر ، فيقولون : زمان جائر أو دهر ظالم ، مع أن الذى يرفع ويضع ، ويعطى ويمنع ، هو الله تعالى وليس الدهر .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله ﷺ قال : «لا تسبُّوا الدهر ، فإن الله هو الدهر»[١٦٦] .
أى أن الله هو الذى يقلّب الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وهو الذى يُعزّ ويُذل .

قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ .

أى : جنس الإنسان خاسر خسرانًا مبينًا ، عندما يشترى الدنيا ويبيع الآخرة ، عندما يفقد صلته بربّه وإيمانه ، واعتماده على تلك القوى الكبيرة، عندما يأخذه الغرور ويصير من الملحدين ، أو من عبيد العلم ، أو عبيد المادة الذين هجروا الإيمان بالله واليوم الآخر .

قال تعالى : وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ . (الروم : ٦ ، ٧) .

وقيل : إن المراد بالإنسان إنسان معين من رؤوس الكفر .

قال ابن عباس :

أراد بالإنسان جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب .

والأصح أن المراد بالإنسان هنا أنه اسم جنس ، يشمل جميع الناس ، أى أن من طبيعة الإنسان أن يكون فى خسران ، لإقباله على الدنيا ، وإعراضه عن الإيمان والعمل للآخرة ، لأنه يرى الدنيا وبَهْرجها فيدخل فى دوّامتها وينسى الآخرة ودوام ما فيها .

كما قال سبحانه وتعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

٣ - إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ .

أى : إن الإنسان لفى خسارة ونقصان وهلاك ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنّهم فى نجاح وفلاح ، ونصر مبين فى الدنيا ، وسعادة فى الآخرة .

لقد حكم الله بأنّ جنس الإنسان فى خسران إلا من أتى بأربعة أشياء :

١ – الإيمان .

٢ – العمل الصالح .

٣ – التواصى بالحق .

٤ – التواصى بالصبر .

**( أ ) وعناصر الإيمان ستة :**

الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر خيره وشرّه ، حلوه ومرّه .

**(ب) وعناصر العمل الصالح ثلاثة :**

أداء الفرائض ، واجتناب النواهى ، وفعل الخير .

**(جـ) والتواصى بالحق :**

هو التواصى بالثبات على أمور الدين ، وشرائع الإسلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والعمل بالقرآن والسنّة ، والبعد عن الزور والبدعة .

**( د ) والتواصى بالصبر :**

هو أن يوصى الناس بعضهم بعضا بالثبات على الطاعات ، والبعد عن المعاصى ، والرضا بالقضاء والقدر فى المصائب والمحن .

**قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره :**

دلّت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المِحَن تُلازمه ، فلذلك قُرن به التواصى .

## فضيلة سورة العصر

**١ – قال الشافعى :**

لو فكر الناس كلّهم فى هذه السورة لكفتهم . اهـ .

ذلك أن الكمال فى معرفة الحق والدعوة إليه ، وفى التواصى بالصبر والثبات عليه ، وذلك بعد الإيمان والعمل الصالح .

قال تعالى : ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ . (لقمان : ١٧) .

**وقال عمر** : رحم الله من أهدى إلىَّ عيوبى .

**٢ - قال الشيخ محمد عبده :**

إنما قال : ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ . ولم يقل : وأوصوا ، ليبيّن أن النجاة من الخسران إنما تُناط بحرص كلٍّ من أفراد الأمة على الحق ، وتقبُّل الحق عند الوصية به ، فكأن فى هذه العبارة الجزلة قد نص على تواصيهم بالحق ، وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

★ ★ ★

**(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة العصر) .**

★ ★ ★


تفسير سورة الهمزة

# أهـداف ســورة الـهـمـزة

(سورة الهمزة مكية ، وآياتها ٩ آيات ، نزلت بعد سورة القيامة )

## فكرة السورة

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية فى حياة الدعوة فى عهدها الأول ، وهى فى الوقت ذاته نموذج يتكرر فى كل بيئة ، صورة اللئيم الصغير النفس ، الذى يؤتى المال فتستطير نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه ، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا فى الحياة ، القيمة التى تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار : أقدار الناس ، وأقدار المعانى ، وأقدار الحقائق . كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شىء ، لا يعجز عن دفع شىء ، حتى دفع الموت وتخليد الحياة .

ومن ثم ينطلق فى هوس بهذا المال ، يعده ويَستلذ تعداده ، وتنطلق فى كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس ، وهمزهم ولمزهم ، وانتقاص قدرهم ، وتحقير شأنهم . وهى صورة لئيمة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة ، وقد نهى القرآن عن السخرية واللمز فى مواضع شتى ، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع ، يوحى بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين ، فجاء الرد عليها فى صورة الردع والتهديد والوعيد .

## أسباب النزول

**قال عطاء والكلبى :** نزلت هذه السورة فى الأخنس بن شريق ، كان يلمز الناس ويغتابهم ، وبخاصة رسول الله ﷺ .

**وقال مقاتل :** نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبى ﷺ من ورائه ، ويطعن فيه فى وجهه .

**وقال محمد بن إسحاق صاحب السيرة :** ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت فى أمية بن خلف .

## مع آيات السورة

١ – وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . ويلٌ وعذاب شديد لكل سبَّاب عيَّاب ، ينتقص الناس بالإشارة والحركة ، والقول والفعل .

وبناء الصفة على فُعَلَة يفيد كثرة وقوع الفعل ، وجريانه مجرى العادة .

وعن مجاهد وعطاء : الهُمَزَة الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل ، واللمزة الذى يغتاب من خلفه إذا غاب .

٢ – ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ . إن الذى دعا هذا وأمثاله إلى الحط من أقدار الناس ، ظنه الخاطئ بأن جمع المال ، والمبالغة فى عدّه والمحافظة عليه ، مما يرفع قدره ، ويضمن له منزلة رفيعة ، يستطيع بها أن يُطلق لسانه فى أعراض الناس ، وأن يؤذيهم بالقول والفعل .

٣ – يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ . إن حبه للمال أنساه الموت والمآل فهو يأنس بماله ، ويظن أن هذا المال الذى أجهد نفسه فى جمعه ، وبخل به حتى على نفسه ، يحميه من الموت ويورثه الخلود .

٤ – كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ . لقد قابل القرآن بين كبريائه وتعاليه على الناس ، وبين جزائه فى الحطمة التى تحطم كل ما يلقى إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه .

٥ – وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ . سؤال للتهويل والتعظيم ، أى : أىّ شىء أعلمك بها ؟ فإن هذه الحطمة مما لا يحيط بها عقلك ، ولا يقف على كنهها علمك ، ولا يعرف حقيقتها إلا خالقها سبحانه وتعالى .

٦ – نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ . إنها النار التى تنسب إلى الله الذى خلقها ، وهى موقدة لا تخمد أبدا ، ثم وصف هذه النار بعدة صفات فيها تناسق تصويرى يتفق مع أفعال (الهمزة اللمزة) .

٧ – ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ . إنها تصل إلى الفؤاد الذى ينبعث منه الهمز واللمز ، وهى تتغلب على الأفئدة وتقهرها ، فتدخل فى الأجواف حتى تصل إلى الصدور فتأكل الأفئدة ، والقلب أشد أجزاء الجسم تألمًا ، فإذا استولت عليه النار فأحرقته فقد بلغ العذاب بالإنسان غايته .

والنار لا تصل إلى الفؤاد إلا بعد أن تأكل الجلود واللحوم والعظام ، ثم تصل إلى القلوب ، والأفئدة موطن الإحساس والاعتقاد ، ومن كلمات عمر بن الخطاب للكفار : (حرق الله قلوبكم) . أى : أصابكم بأشد ألوان المحن والألم .

٨ – إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . إنها مطبقة عليهم لا يخرجون منها ، ولا يستطيعون الفرار أو الهرب .

قال تعالى : كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ... (الحج : ٢٢) .

٩ – فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ . العمد جمع عمود وهو معروف ، والممددة : المطولة ، أى أنه أطبقها عليهم وأغلقها فى عمد طويلة ، تمد على أبوابها بعد أن تؤصد ، وهو تصوير لشدة الإطباق وإحكامه ، وتأكيد لليأس من الخلاص .

**قال مقاتل :** إن الأبواب أطبقت عليهم ، ثم شُدت بأوتاد من حديد ، فلا يُفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح .

اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

## مقاصد السورة

١ – من الناس من يرى مثله الأعلى جمع المال والتعالى على العباد ، وهو نموذج سيئ .

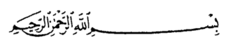
٢ – الويل والعذاب ينتظران كل عيَّاب وسبَّاب .

٣ – المال نعمة من الله ، ولكن العمل الصالح هو الوسيلة النافعة .

٤ – البخيل بالمال المتعالى على العباد له نار متقدة تحرق جسمه وتصل إلى فؤاده .

٥ – هذه النار مغلقة عليه يظل حبيسًا فيها أبد الآبدين .

★ ★ ★



﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾

**المفردات :**

**ويل :** خزى وهلاك وعذاب ، وهو لفظ لا يُستعمل إلا فى الذم والقبح .

**همزة :** من ينتقص الناس بالقول .

**لمزة :** من يؤذى الناس بالفعل ، فكلاهما طعَّان عيَّاب .

**الذى جمع مالا وعدده :** شُغف بجمع المال وعده والتكاثر فيه ، لا ينفقه ولا ينتفع به .

**يحسب :** يظن .

**أخلده :** ضمن له الخلود فى الدنيا .

**لينبذن :** ليطرحن .

**الحطمة :** من أسماء النار لتحطيم المعذبين فيها .

**الموقدة :** المستعرة .

**تطلع على الأفئدة :** القلوب التى استقرت فيها العقائد الفاسدة .

**مؤصدة :** مغلقة مطبقة .

**فى عمد ممددة :** قيل : هى القيود والأثقال ، وقيل : العمد التى تتخذ لإيصاد أبواب جهنم على من فيها .

**تمهيد :**

ترسم سورة الهمزة صورة زرية لرجل عيَّاب ينتقص الناس ، ويعيبهم بالقول والإشارة .

**التفسير :**

**١ - وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ .**

عذاب شديد لكل همَّاز يعيب الناس ، ويغضّ من أقدارهم ، وينتقص من هممهم فى حضورهم أو فى غيبتهم ، يفعل ذلك بالقول أو بالإشارة .

**قال ابن عباس : هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ .** طعَّان عيَّاب .

**وقال الربيع بن أنس : الهمزة :** يهمزه فى وجهه . **واللمزة :** من خلفه .

وسئل ابن عباس مرة أخرى عن (الهمزة اللمزة) فقال : هو المشَّاء بالنميمة ، المفرّق بين الجمع ، المغرى بين الإخوان .

وقيل : نزلت هذه السورة فى الأخنس بن شُرَيْق ، كان يلمز الناس ويغتابهم .

وقيل : نزلت فى أمية بن خلف ، كان يهمز النبى ﷺ ويعيبه .

وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبى ﷺ ويغضّ من قدره الشريف .

ولا يستبعد أن تكون قد نزلت فى مجموعة ، منها هؤلاء الثلاثة الذين دأبوا على السخرية والاستهزاء بالفضلاء ، مع اليقين بأن اللفظ عام ، يشمل كل من تنطبق عليه هذه الصفات ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

**٢ - ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ .**

إنه حريص على جمع المال ، وعلى عدِّه مرة بعد أخرى ، حبًّا له وشغفًا به ، وتهالكًا عليه ، وقيل : جعله أصنافًا وأنواعًا ، كعقار ونقود وماشية ، أو جعله عُدَّة لمصائب الأيام وكوارث الدهر .

**٣ - يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ .**

يظن الجاهل أن ماله سيدوم له أبد الدهر ، فنسى الموت والآخرة ، والثواب والعقاب ، ولم يؤدّ زكاة هذا المال ، ولم يتبيَّن الحقيقة ، وهى أن مَالَكَ ما أنفقته فى وجوه الخير والنفع ، ورعاية الفقراء

والمحتاجين ، فهذا هو المال النافع ، ونعم المال الصالح للرجل الصالح ، أما ما تتركه فى الدنيا ، ولم تكن أديت حق الله فيه فهو مال وارثك .

فهناك من يملك المال ، وهناك من يملكه المال ، أما من يملك المال فهو من يتقى الله فى ماله بالزكاة وصلة الرحم ، والعطف على الفقراء ومساعدة المحتاجين ، أما من يملكه المال فهو النموذج المذكور فى هذه السورة ، الذى يجعل المال كلّ عدّته ، وينسى الموت والحساب ، ويظن أن ما عنده من المال قد حفظ له حياته التى هو فيها ، وأوْصدها عليه فهو لا يفارقها إلى حياة أخرى يُعاقب فيها على ما كسب من سيئ الأعمال .

٤ – كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ .

أى : ليرتدع هذا الهمزة اللمزة ، كانز المال المعجب به ، المنشغل بتعديده ، فهو ليس مالكًا للمال ، بل هو عابد للمال ، أو مملوك للمال ، إن هذا النموذج الردىء سيُرمى ويُنبذ نبذ النواة فى جهنم ، التى تحطم كل ما يلقى فيها وتلتهمه ، لذلك سمّيت بالحطمة .

٥ – وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ .

تفخيم لشأنها ، وتعظيم لأهوالها ، أى : ما أعلمك بها ؟ إنها لا يحيط بها إلا الذى خلقها ، إنها الحطمة التى تحطم العظام ، وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب .

٦ – نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ .

هى نار الله ، المسعَّرة بأمره وإرادته ، ليست كسائر النيران ، فإنها لا تخمد أبدًا ، إنها تتلمظ غيظًا وغضبًا على من عصى الله .

قال تعالى : وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفًا . (الكهف : ٥٣) .

وروى الترمذى ، عن أبى هريرة مرفوعًا ، والأصح أنه موقوف : أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة[١٧٠] .

٧ – ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ .

أى : التى يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها .

**قال الشيخ محمد عبده :**

وقد قيل : إن معنى الاطلاع ههنا المعرفة والعلم ، أى أن هذه النار تعرف ما فى الأفئدة ، فتأخذ من تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجْدان الخبيث ، والنار التى تعرف من يستحق العذاب بها لا تكون من النيران المعروفة لنا فى الدنيا بالضرورة[١٧١] .

**وقال محمد بن كعب** : تأكل كلّ شىء من جسده ، حتى إذا بلغت فؤاده ، حذو حلقة ، ترجع على جسده[١٧٢] .

**٨ - إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ .**

إنها مغلقة على الكفار ، ومطبقة عليهم ، لا يستطيعون الخروج منها لو أرادوا ذلك .

قال تعالى : **كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا** ... (السجدة : ٢٠) .

**٩ - فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ .**

أى : هم موثوقون فى سلاسل وأغلال ، تُشدّ بها أيديهم وأرجلهم بعد إطباق أبواب جهنم عليهم ، ثم إن إطباق الأبواب عليهم وإغلاقها يعقبه وضع أعمدة طويلة ممتدة على أبوابها ، وهو تصوير لشدة الإطباق وإحكامه ، وتأكيد لليأس من الخلاص .

اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، ومن كل عمل يقربنا إلى النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

★ ★ ★

تم تفسير سورة (الهمزة) منتصف ليلة الإثنين ١٩ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١١ / ٦ / ٢٠٠١م .

والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه ، كما يرضى ربنا ويحب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★



# تفسير سورة الفيل

# أهـــداف ســـورة الفيـــل

(سورة الفيل مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد سورة الكافرون)

وهى سورة تشير إلى قدرة الله الغالبة ، وحمايته للبيت الحرام ، وقد ولد النبى ﷺ عام الفيل ، وكان حادث الفيل إرهاصا بميلاده ، وبيانا لعناية الله بهذا البيت .

## قصة أصحاب الفيل

حادث الفيل معروف لدى العرب ، حتى أنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : وُلد عام الفيل ، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك .

وجملة ما تشير إليه الروايات المتعددة أن الحاكم الحبشى لليمن – فى الفترة التى خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسى منها – ويسمى أبرهة الأشرم ، كان قد بنى كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة ، وجمع لها كل أسباب الفخامة ، ليصرف بها العرب عن الحج إلى البيت الحرام ، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا ، وقيل : أججت رفقة من العرب نارا ، فحملتها الريح فأحرقت الكنيسة ، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ، ومعه فيل اسمه محمود وكان قويا عظيما ، واثنا عشر فيلا غيره ، وسار بجيشه إلى مكة ، وانتصر على كل من قاومه من العرب ، حتى وصل إلى المغمّس بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما أتى لهدم البيت ففزعوا منه ، وانطلقوا إلى شعف الجبال ينتظرون ما هو فاعل ، وأرسل أبرهة إلى سيد مكة ليقابله .

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، وهو يومئذ سيد مكة ، فقدم إلى أبرهة ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه ، وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه : قُلْ له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتى أن يردَّ علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قُلْ له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير

أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنّى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربًا سيمنعه ، قال : ما كان ليمتنع منى ، قال : أنت وذاك ، فردَّ عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى باب الكعبة فأمسك بحلقه ، وقام معه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه .

ورُوى عن عبد المطلب أنه أنشد :

لاهمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك

فأما أبرهة فوجَّه جيشه وفيله لما جاء له ، فبَرَكَ الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا فى حمله على اقتحامها فلم يُفلحوا .

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء ، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه ، كما تقول الروايات (١٧٣) .

«وكان بين عام الفيل وبين المبعث نيف وأربعون سنة ، وكان قد بقى بمكة من شهد تلك الواقعة ، وقد بلغت حد التواتر حينئذ ، فما ذاك إلا إرهاص للرسول ﷺ» (١٧٤) .

وسُئل أبو سعيد الخدرى عن الطير ، فقال : حمام مكة منها ، وقيل : جاءت عشية ثم صبحتهم هلكى .
وعن عكرمة : من أصابته أصابه الجدرى ، وهو أول جدرى ظهر فى الأرض (١٧٥) .

وقد ذهب الأستاذ الإمام محمد عبده إلى أن الذى أهلك الجيش «هو انتشار داء الجدرى والحصبة بين أفراده ، وقد نشأ هذا الداء من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، بواسطة فرق عظيمة من الطير ، مما يرسله الله مع الريح ، فهى أشبه بالميكروبات الفتاكة التى تعصف بالجسم» (١٧٦) .

فالأستاذ الإمام يريد أن يجعل هذه المعجزة الخارقة للعادة أمرا متفقا مع المعهود فى حياة الناس ، فيُرجع الهزيمة إلى انتشار وباء الحصبة أو الجدرى ، حتى يتسنى له إقناع العقول ، وفى نفس الوقت

يتخلص مما ورد فى بعض الروايات من المبالغة فى وصف هذه الطير ، والحجارة التى حملتها فى رجليها وفمها .

ونرى أن الأولى عدم إخضاع الآيات لمألوف الناس وما يحدث فى واقع حياتهم ، لأن الآيات تخبر عن خارقة وقعت بقدرة الله القادر ، الذى يقول للشىء كن فيكون .

وإذا سلمنا أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرا غير معهودة ، كان ذلك أدعى إلى تحقيق العبرة الظاهرة المكشوفة لجميع الأنظار فى جميع الأجيال ، حتى ليمنّ الله بها على قريش بعد البعثة ، ويضربها مثلا لرعاية الله لحرماته ، وغيرته عليها .

«فمما يتناسق مع جوِّ هذه الملابسات كله ، أن يجىء الحادث غير مألوف ولا معهود ، بكل مقوماته وبكل أجزائه ، ولا داعى للمحاولة فى تغليب صورة المألوف من الأمر ، فى حادث هو فى ذاته وبملابساته مفرد فذ» . [١٧٧]

ثم إن إصابة الجيش بالوباء ، وعدم إصابة أحد من العرب القريبين منه أمر خارق للعادة ، وما دامت المسألة خارقة ، فعلام العناء فى حصرها فى صورة معينة مألوفة للناس ، مع أن السورة تفيد أن أمرا خاصا قد أرسله الله على أصحاب الفيل .

إننا لا يجوز أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة ، بل ينبغى أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا الإيمانية ، ومنها نكوِّن قواعد منطقنا وتصوراتنا .

«وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة ، ولكن معناه أن العقل ليس وحده هو الحكم فى مقررات القرآن ، ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة ، فهى التى تقرر كيف تتلقاها عقولنا ، وكيف نصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها ، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى» . [١٧٨]

## مع آيات السورة

١ – أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ . ألم تنظر أو ألم تعلم عن الحالة التى وقع عليها عمل الله ، الذى يتولى أمرك ، بأصحاب الفيل الذين حاولوا هدم البيت الحرام ؟ والخطاب هنا للرسول ﷺ ، وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة ، لكنه شاهد آثارها ، وسمع بالتواتر أخبارها ، فالعلم بها مساو فى قوة الثبوت للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة .

٢ - أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . لقد دبروا كيدا للبيت الحرام ، ببناء الكنيسة وصرف وجوه الحجاج إليها ، فضلَّل الله كيدهم بأن أوقع الحريق فيها ، وكادوه ثانيا بإرادة هدم البيت ، فضلَّل الله كيدهم بإرسال الطير عليهم .

ومعنى تضليل كيدهم ، أى إضاعته وإبطاله ، يقال : ضلَّل كيده ، إذا جعله ضالا ضائعا ، ومنه قولهم لامرئ القيس : الملك الضليل ، لأنه ضلَّل ملك أبيه ، أى ضيعه .

٣ - وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . أبابيل : جماعات أو طوائف على هيئة أسراب ، أى : أرسل الله عليهم فرقا من الطير .

٤ - تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . السجيل : الطين الذى تحجر ، أو الحجارة المحروقة ، أى : أرسل الله عليهم جندا من جنوده ، وكم لله من جنود لا يعلمها إلا هو ، لقد أرسل الله على أبرهة وجنده جيشا من الطير ، أسلحتهم حجارة صغيرة فى مناقيرها ، ترمى الجندى بها ، فتنفذ من أعلى جسمه إلى أسفله ، فتنهرئ لحومهم ، وتتساقط متناثرة عن أجسادهم .

٥ - فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ . العصف : ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد الحصاد ، تفته الريح وتأكله المواشى .

وقال الفراء : هو أطراف الزرع ، وقيل : هو الحب الذى أُكل لبّه وبقى قشره .

ووصف العصف بأنه مأكول ، أى فتيت طحين ، حين تأكله الحشرات وتمزقه ، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ، وهى صورة حسية للتمزيق بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير .

وذهب مقاتل وقتادة وعطاء عن ابن عباس إلى أن معنى عصف مأكول ، أى : نبات أكلته الدواب وصار روثا ، إلا أنه جاء على أدب القرآن كقوله تعالى : كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ[١٧٩]... (المائدة : ٧٥) .

★ ★ ★

## مقاصد السورة

١ – بيان قدرة الله وحمايته لبيته .

٢ – لفت الأنظار إلى ما صنعه الله بأصحاب الفيل .

٣ – لقد ضلَّ كيدهم وخاب سعيهم .

٤ – أرسل الله عليهم جماعات من الطيور فى شكل أسراب .

٥ – أصابتهم الطير بحجارة مخلوطة بالطين تحمل الهلاك والدمار .

٦ – انتهى الجيش إلى ضياع وهزيمة منكرة ، كما ينتهى الزرع المأكول إلى روث مهمل ضائع .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾

**التفسير :**

١ - أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ .

ألم يصل إلى علمك ما فعله ربُّك ومربيك وحاميك يا محمد بأصحاب الفيل ، وهم أبرهة الأشرم وجيشه الذى قدم من اليمن ، وانتصر على من قاومه من العرب حتى وصل إلى المغمَّس بأطراف مكة ، واستولى على إبل مكة .

ثم رغب أبرهة فى الهجوم على الكعبة ، فتقدمت الفيلة ، ورئيسها فيل كبير يسمّى محمود ، فَبَرَكَ الفيل قَبْل الكعبة وامتنع تماما ، فإذا وجَّهوه جهة اليمن أو إلى أىّ جهة هرول مسرعا ، وإذا وجَّهوه إلى الكعبة امتنع .

٢ - أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ .

الكيد : أمر يدبَّر فى الخفاء للإيقاع بالعدوّ .

والتضليل : الضياع والهزيمة .

والمعنى : ألم يجعل تدبيرهم وخروجهم بالجيش الكبير ، ومعه الفيلة ، لهدم الكعبة فى ضلال وضياع وخسران ؟

وهو استفهام تقريرى ، معناه : قد حصل ذلك بأن هُزم أصحاب الفيل .

٣ - وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ .

وسلّط الله عليهم جماعات من الطير ، أتتهم مسرعة متتابعة ، وأحاطت بهم من كل جهة ، وقد جاءت هذه الطير من جهة البحر ، ولم تُرَ قبل ذلك ولا بعده .

إنها المعجزة ، إنها قدرة الله ، وهو على كل شيء قدير ، فهذا القائد الذى هزم كلَّ من قابله من العرب ، وجاء بالفيل ومعه مجموعة من الفيلة ، سلّط الله عليه جيشاً من الطير ، كان سببا فى قهره .

قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١) .

**جاء فى تفسير ابْن كثير :**

طَيْرًا أَبَابِيلَ . أى : قطعا قطعا ، صُفْرًا ، دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار ، وجاءت فحلّقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

**وقال المفسرون :** أبابيل ، أى : جماعات متفرقة .

٤ - تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ .

**سجّيل :** طين متحجّر .

وقيل : حجارة من طين طبخت من نار جهنم ، وسجّيل أصلها سجّين ، فأبدلت لامًا ، كما فى أصيلان بأصيلال .

**والمعنى :**

تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجُر ، كالحمصة وفوق العدسة ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى أو الحصبة حتى هلكوا .

والأولى أن نقول : إن الطير كانت تقذفهم بحجارة تحمل وباءً ، أو تحمل قَدَرًا إلهيا تسبب فى إهلاكهم .

فالأمر كان معجزة ، والمعجزة أمر خارق للعادة ، لقد أراد الله أن يصدَّ هذا الجيش المعتدى عن بيته الحرام ، فجعل هذه الطيور سببا ظاهريا ، فأرسلها جماعات متتابعة تقذفهم بحجارة مهلكة ، والمسبب الحقيقىّ فى ذلك هو الله تعالى .

٥ - فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ .

**العصف** : وَرَقُ زرع يبقى بعد الحصاد .

**مأكول** : أكلته الدواب وداسته وأَفَتَّتْه .

فجعلهم كزرع مأكول ، كان ناضرًا مترعرعا ، فأكلته الدواب ، فانتهت حياته .

**وقال آخرون :**

فجعلهم فضلات وبقايا ، مثل ورق الزرع أو الشجر إذا أكلته الدواب ، ثم أخرجته روثا متفتتا . والمراد أن الله أهلكهم عن آخرهم .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» [١٨٠] .

**قال ابن إسحاق** : لمَّا ردّ الله الحبشة عن مكة ، عظَّمت العرب قريشا ، وقالوا : أهلُ الله ، قاتل عنهمْ وكفاهم مؤنة عدوّهم ، فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

## إيحاء السورة

ظهر أن العرب لم يكن لهم وجود قوى قبل الإسلام ، فاليمن كانت تحت حكم الأحباش ، والشام كانت تحت حكم الرومان ، أو تحت حكم دولة عربية موالية للرومان .

أمّا جزيرة العرب فقد كانت قبائل متعددة متفرقة ، ولم يكن لها وزن دولى ، سواء كانت مجتمعة أو متفرقة .

ولم تكن لدى العرب فكرة عالمية غير الإسلام ، فلما جاء الإسلام على يد نبى عربى أُمّى قاوموه ، ثم انضموا تحت لوائه ، وجاهدوا فى سبيل الله تحت لواء الإسلام ، فجاءهم نصر الله والفتح ، وزلزلوا عروش الأكاسرة والقياصرة .

وحين جاهدوا فى سبيل الله لم يُجاهدوا فى سبيل تكوين إمبراطورية عربية ، إنما جاهدوا ، كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام [١٨١] .

«وما العرب بغير الإسلام ؟ ما الفكرة التى قدَّموها للبشرية ، أو يملكون تقديمها ، إذا هم تخلَّوا عن الإسلام ؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة .

والأمم التى لم تكن تمثل فكرة – كالتتار الذين اجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب – لم يستطيعوا الحياة طويلا ، وإنما ذابوا فى الأمم التى فتحوها .

والفكرة الوحيدة التى تقدم بها العرب للبشرية كانت هى العقيدة الإسلامية ، وهى التى رفعتهم إلى مكان القيادة» [١٨٢].

وبقدر التزام العرب بأحكام الإسلام، نصًّا وروحًا ، بقدر ما يكونون أهلاً للنصر والسؤدد ، والله ولى التوفيق .

★ ★ ★


تفسير سورة قريش

# أهـــداف ســـورة قريش

(سورة قريش مكية ، وآياتها ٤ آيات ، نزلت بعد سورة التين)

وهى امتداد لسورة الفيل ، فقد حفظ الله هذا البيت من كيد المعتدين ، «وكان لحادث الفيل أثر مضاعف فى زيادة حرمة البيت عند العرب فى جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا فى الأرض آمنين ، حيثما حلُّوا وجدوا الكرامة والرعاية . وشجعهم ذلك على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة – عن طريق القوافل – إلى اليمن فى الجنوب ، وإلى الشام فى الشمال ، وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن فى الشتاء ، والثانية إلى الشام فى الصيف» .[١٨٢]

وكانت حالة الأمن مضطربة فى شعاب الجزيرة ، يفتخر الناس فيها بالصعلكة والسلب والإغارة والنهب ، ويعتدون على قوافل التجارة ، إلا أن حرمة البيت فى أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرانه الأمن والسلامة ، وجعلت لقريش منزلة ظاهرة بين العرب ، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول فى أمان وسلامة وطمأنينة ، وأَلِفَتْ نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين ، فصارتا لهم عادة وإلفا . وقد امتنَّ الله على قريش بحادثة الفيل وحماية البيت ، وامتنَّ عليهم بالأمان والحماية لهم ، وسعة الرزق ورغد العيش من ربح التجارة ، وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله .

## مع آيات السورة

لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ * إِـۧلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ .

المعنى : ألفت قريش واعتادت ، أن ترحل إلى ما جاورها من البلاد ، سعيا وراء الرزق ، وجلبا لمعايشهم ، وترويجا لتجارتهم .

والله سبحانه يمتن عليهم بذلك ، ويقول لهم : من أجل إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال .

فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ... وأنقذهم من المجاعات التى تنزل بهم وبأمثالهم من سكان البرارى ، وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ . العدو ، أو كوارث الحياة . وكان الأصل بحسب ما هم فيه من ضعف ، وبحسب حالة البيئة أن يكونوا فى خوف ، فآمنهم من هذا الخوف .

فليشكر قومك يا محمد ربهم على هذه النعم ، وليؤمنوا بربوبيته ، وليُقروا بعبوديتهم ، وليعبدوه بما هو أهل له من العبادة .

وقريب من هذه السورة قوله تعالى : أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (القصص : ٥٧) .

## مقاصد السورة

١ – من نعمة الله على قريش أن منحهم الهيبة والأمان فألفوا رحلة الشتاء والصيف .

٢ – من الواجب أن يعترفوا بفضل الله عليهم فى حماية بيته ، وحماية تجارتهم .

٣ – يجب عليهم أن يعبدوا ربهم ، وأن يستجيبوا لدعوة النبى الكريم ﷺ فإنه رسول رب العالمين .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

**المفردات:**

**لإيلاف قريش :** إلاف الشيء وإلفه : لزومه والعكوف عليه ، وقريش اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة ، وأصل الكلمة تصغير للقرش ، وهو نوع من السمك مشهور ، ويمتاز بقوته على سائر الأسماك ، كما امتازت قريش على سائر القبائل بخدمة البيت الحرام .

**رحلة الشتاء :** كانت إلى اليمن .

**والصيف :** أي : ورحلة الصيف ، وكانت إلى الشام يتاجرون فيها ويمتارون .

**التفسير :**

١ – لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ .

لقد ألفت قريش أن تخرج إلى الشام عند شدة الحرارة في فصل الصيف ، لتبيع وتشترى الحبوب الزراعية ، وأن ترحل إلى اليمن جنوبًا في فصل الشتاء ، لجلب العطور والبهارات الآتية من الهند والخليج ، واليمن بلاد حارة تناسب فصل الشتاء .

**قال ابن هشام :**

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ .

إلْفهم الخروج إلى الشام في تجارتهم ، وكانت لهم خرجتان : خرجة في الشتاء ، وخَرْجة في الصيف ، والعرب تقول : ألفت الشيء إلفًا ، وألفته إيلافًا ، أي : أحببته واسترحت إليه . اهـ .

ومنه قوله تعالى : وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال : ٦٣) .

٢ - إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ .

هذه الآية بدل من الآية السابقة وشرح لها ، أى : من سبب نعم الله عليها ، أنها ألفت الخروج من أرضها الصعبة التى لا زرع فيها ولا ثمر ، وحبَّب الله إليها نعمة التجارة ، والخروج فى الشتاء إلى اليمن لجلب الأعطار والأفاوية ، والخروج فى الصيف إلى الشام لجلب الأقوات إلى بلادهم .

وكانت العرب تحترمهم لأنهم سدنة بيت الله ، ولأن الله عز وجل قد ردَّ عنهم أصحاب الفيل ، وأهلكهم قدرته ، فكان ذلك من أسباب عزة قريش ، وسعة أرزاقها ، لمحافظة العرب على تجارتها ، وكان العرب يغيرون على كثير من القبائل ، لكنَّ الله مكَّن لقريش .

قال تعالى : أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ... (القصص : ٥٧) .

ونلحظ أن الله تعالى منَّ عليهم فى السورة السابقة (سورة الفيل) بردّ كيد أصحاب الفيل، وحماية البيت الحرام وأهل مكة منهم ، ثم منَّ عليهم فى هذه السورة بنعمة الأمن والأمان ، وإلف السفر والتعوُّد عليه ، وكانت تجارتهم تربح ، والناس تحافظ عليها ، وكان الحجيج يحملون معهم ثمرات بلادهم أثناء الحج والعمرة .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... (العنكبوت : ٦٧) .

٣ - فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ .

فلتتجه قريش وأهل مكة إلى عبادة الله رب البيت الحرام والكعبة المشرَّفة ، بسبب أنه عظيم وكريم ، وصاحب أفضال ونعم .

٤ - الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ .

إن الله رب البيت العتيق ، هو الذى أطعمهم من جوع ، فيسَّر لهم التجارة الرابحة التى تجوب البلاد إلى الشام صيفا ، وإلى اليمن شتاءً ، فزادت ثروتهم ، وكانت مكة من البلاد الغنيَّة بسبب التجارة ، وبسبب محافظة الناس على تجارة قريش وأهل مكة .

وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ .

حيث ردّ أصحاب الفيل وأهلك جيشهم ، وجعل البيت الحرام منطقة أمان يقام عندها الحج ، ويؤدّى الناسُ المناسك والعبادة .

قال تعالى : جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ... (المائدة : ٩٧) .

أى : يقوم عندها أمر الدين ، وتتم عندها وحولها مناسك الحج والعمرة .

**والخلاصة :**

لتتّجه قريش بعبادتها إلى الله وحده ، الذى أنعم عليها بنعم عديدة ، يكفى أن يكون من بينها رحلة الشتاء والصيف ، وليشكروا الله الذى يسر لهم الرزق والأقوات ، كما جعلهم فى أمن بسبب البيت الحرام .

قال تعالى : وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ... (آل عمران : ٩٧) .

**قال ابن كثير :**

ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه .

كما قال تعالى :

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ[١٨٤] .

**(النحل : ١١٢، ١١٣)**

**(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة قريش)**

★ ★ ★



# تفسير سورة الماعون

# أهـداف سـورة المـاعـون

(الآيات الثلاث الأولى من سورة الماعون مكية ، وبقية السورة مدنية ،
وآياتها ٧ آيات ، نزلت بعد سورة التكاثر)

وهى سورة ذات معنى أصيل فى الشريعة ، تعالج حقيقة ضخمة ، هى أن هذا الدين ليس مظاهر وطقوسًا ، ولكنه عقيدة صادقة ، ويقين ثابت ، وإخلاص لله ، ويتمثل هذا اليقين فى سلوك نافع ، وحياة مستقيمة . كما أن هذا الدين ليس أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، وإنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره فى تحقيق الخير للفرد والجماعة .

## مع آيات السورة

١ - أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ . أى : هل عرفت ذلك الذى يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلهية والشئون الغيبية ، بعد أن ظهر له الدليل القاطع والبرهان الساطع .

**قال ابن جريج** : نزلت فى أبى سفيان ، كان ينحر جزورين فى كل أسبوع ، فأتاه يتيم فسأله لحمًا فقرعه بعصاه .

**وقال مقاتل** : نزلت فى العاص بن وائل السهمى ، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأفعال القبيحة .

وعن السدى : نزلت فى الوليد بن المغيرة .

وقيل : فى أبى جهل ، وحكى الماوردى أنه كان وصيًّا ليتيم فجاءه وهو عريان يسأله شيئًا من مال نفسه ، فدفعه ولم يعبأ به ، فأيس الصبى ، فقال له أكابر قريش استهزاء : قل لمحمد يشفع لك ، فجاء إلى النبى ﷺ والتمس منه الشفاعة ، وكان النبى ﷺ لا يرد محتاجًا ، فذهب معه إلى أبى جهل فقام أبو جهل ورحب به وبذل المال لليتيم ، فعيرته قريش وقالوا له : صبأت ، فقال : لا والله ما صبأت ، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة ، خفت إن لم أجبه أن يطعنها فىَّ .

وقال كثير من المفسرين : إنه عام لكل من كان مكذبًا بيوم الدين .

٢ – فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ . أى : فذلك المكذب بالدين هو الذى يدع اليتيم ، ويزجره زجرًا عنيفًا ، لقد خلا قلبه من الرحمة ، وامتلأ بالكبر والغطرسة ، ولذلك أهان اليتيم وآذاه ، واليتيم مظهر من مظاهر الضعف ، فَقَدْ فَقَدَ الأب الذى يحميه ، والعائل الذى يحنو عليه ، ومن واجب المجتمع أن يتعاون على إكرامه ، والأخذ بيده حتى ينشأ عزيزًا كريمًا . إن كل فرد معرض لأن يفاجئه الموت وأن يترك أولاده يتامى ، فليعامل اليتيم بما يحب أن يعامل به أولاده لو كانوا يتامى .

قال تعالى : وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا . (النساء : ٩) .

وقد تكررت وصايا القرآن برعاية اليتيم والمحافظة على ماله ، والتحذير من تضييع حقه ، ورد ذلك فى السور المكية والسور المدنية ، ففى هذه الآيات وفى سورة الضحى – وهى من أوائل ما نزل من القرآن – وصية باليتيم ، وفى صدر سورة النساء المدنية تفصيل واف لرعاية اليتيم بدأ بقوله تعالى : وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا . (النساء : ٢) .

وقد وردت عدة وصايا باليتيم فى الآيات : السادسة ، والعاشرة ، والسادسة والعشرين من سورة النساء . كما تكررت الوصية باليتيم فى آيات القرآن ، وأحاديث النبى ﷺ ، فقال ﷺ : «خير بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه ، وشر بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه» .

٣ – وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ . أى : ولا يحث غيره على إطعام المسكين .

**قال الإمام محمد عبده :** وهو كناية عن الذى لا يجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت ، الذى لا يستطيع كسبا .

وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه ، بل هذا هو المُلحف الذى يجوز الإعراض عنه ، وتأديبه بمنعه ما يطلب ، وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ما تعطيه ، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه ، وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم ، وهى طريقة الجمعيات الخيرية ، فأصلها ثابت فى الكتاب

بهذه الآية ، وبنحو قوله تعالى فى سورة الفجر : كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ . (الفجر : ١٧ ، ١٨) . ونعمت الطريقة هى لإغاثة الفقراء ، وسد شىء من حاجات المساكين .

«إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ، إنما هى تحول فى القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية ، والله لا يريد من الناس كلمات ، إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها ، وإلا فهى هباء لا وزن لها عنده ولا اعتبار . وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث فى تقرير هذه الحقيقة التى تمثل روح هذه العقيدة ، وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل»[١٨٥].

٤ ، ٥ – فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . أى : إذا عرفت أن المكذب بالدين هو الذى أقفر قلبه من الرحمة ، وأجدب من العدل والمكرمة ، «فويل لأولئك الذين يصلون ، ويؤدون ما يسمى صلاة فى عرفهم من الأقوال والأفعال وهم مع ذلك ساهون عن صلاتهم ، أى غافلة قلوبهم عما يقولون وما يفعلون ، فهو يركع فى ذهول عن ركوعه ، ويسجد فى لهو عن سجوده»[١٨٦]. وإنما هى حركات اعتادها ، وأدعية حفظها ، ولكن قلبه لا يعيش معها ، ولا يعيش بها ، وروحه لا تستحضر حقيقة الصلاة ، وحقيقة ما فيها .

٦ – ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ . أى : يفعلون ما يُرى للناس فقط ، ولا يستشعرون من روح العبادة ما أوجب الله على النفوس أن تستشعره .

«إنهم يُصلُّون رياء للناس لا إخلاصًا لله ، ومن ثم فهم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها ، ساهون عنها لم يقيموها ، والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها ، وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها»[١٨٧].

٧ – وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ . أى : يمنعون المساعدة عن المستحق لها ، أو يمنعون ما اعتاد الناس قضاءه وتداوله فيما بينهم ، تعاونًا وتآزرًا ، ولا يمنعه إلا كل شحيح يكره الخير .

«إنهم يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية ، يمنعون الماعون عن عباد الله ، ولو كانوا يقيمون الصلاة حقًا لله ما منعوا العون عن عباده ، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله»[١٨٨].

«وأكثر المفسرين على أن الماعون اسم جامع لما لا يُمنع فى العادة ، ويسأله الفقير والغنى فى أغلب الأحوال ، ولا ينسب سائله إلى لؤم بل ينسب مانعه إلى اللؤم والبخل ، كالفأس والقدر والدلو والغربال والقدوم ، ويدخل فيه الماء والملح والنار ، لما رُوى : (ثلاثة لا يحل منعها : الماء والنار والملح) .

وقد تُسمى الزكاة ماعونا ، لأنه بسببها يؤخذ من المال ربع العشر ، وهو قليل من كثير .

**قال العلماء** : ومن الفضائل أن يستكثر الرجل فى منزله مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ذلك ، ولا يقتصر على قدر الضرورة ، وقد يكون منعُ هذه الأشياء محظورًا فى الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار»[١٨٩] .

إن الشرائع السماوية إنما أنزلت لتهذيب الضمير ، ونقاء القلوب ، وصفاء النفوس ، وتقويم السلوك ، وبذلك تسمو الحياة ، ويسود الحب والتآلف ، والإخاء والتكافل الجميل .

## مقاصد السورة

١ – الدين ليس رسومًا وطقوسًا ، ولكنه عقيدة صادقة وسلوك مستقيم .

٢ – الدين الحق صلاة خاشعة ، ورعاية لليتيم ، وحماية للمسكين ، ومساعدة للمحتاجين .

٣ – المكذب بالدين له سمات وصفات ، هى : إذلاله لليتيم ، عدم رحمة المسكين ، الانشغال عن الصلاة ، الرياء والنفاق ، منع العون والمعونة عن المحتاج إليها .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

**المفردات :**

**أرأيت الذى يكذب بالدين :** الخطاب موجه للنبى ﷺ ابتداء ، والمراد بالدين : الحساب والجزاء

**يدعّ اليتيم :** يظلمه ويمنعه حقه ، أو يزجره وينهره لو قصده لعون أو مساعدة .

**يحض :** الحضّ هو الحثّ على الشىء والترغيب فيه بشدة .

**فويل :** الويل : الهلاك والعذاب ، وقيل : اسم لوادٍ فى جهنم شديد العذاب .

**الماعون :** المراد بالماعون : الزكاة ، ومن معانيه : المعروف ، والماء ، وكل ما يُنتفع به ، أو كل مستعار بين الجيران من فأس وقدر ودلو ونحو ذلك .

**التفسير :**

١ – أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ .

هل شاهدت هذا الصنف من الناس الذى يكذّب بيوم الجزاء ، ويكفر بالبعث والحشر ، والثواب والعقاب ، وقد ورد أنها نزلت فى عدد من رؤوس الكفر ، كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وظلموا اليتامى وأكلوا حقوقهم ، ولم يعطفوا على الضعفاء ولم يساعدوهم ، لذلك نجد فريقًا من المفسرين يقول : إن الآيات الثلاث الأولى تتحدث عن الكافرين ؛ والآيات الأربع الأخيرة تتحدث عن المنافقين .[١٩٠] وفريقًا آخر يرى أن الآيات الكريمة فى سورة الماعون تنطبق على المسلمين الذين يزعمون أنهم مسلمون ، لكن تصديقهم بالدين أصبح ضعيفًا أو باهتًا ، بدليل حبس أموالهم ومعروفهم عن اليتيم والمسكين ،

ودخولهم فى الصلاة بدون قلب حاضر ، وإنما هو الرياء والتظاهر ، ولا يهتمون بالتعاون لرفع مستوى معيشة الفقراء والمساكين[١٩١] .

وعند التأمل نجد أن السورة يمكن أن تنطبق على الكافرين والمنافقين كما ذهب الفريق الأوّل ، كما يمكن أن تشمل ضعفاء الإيمان الذين لا يقومون بحق الله كاملا ، ولا يؤدون حقوق العباد على الوجه السليم ، كما ذهب الفريق الثانى .

٢ - فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ .

أى : إن أردت أن تعرفه فهذه صفاته ، فذلك هو الذى يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا بجفوة وغلظة ، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه .

٣ - وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ .

أى : إنه لا يطعم المسكين ، ولا يحثّ غيره على ذلك ، والسبب هو ضعف الإيمان باليوم الآخر ، وعدم اليقين بالجزاء العادل من الله ، فلو أن الإيمان بالله كان ثابتًا فى القلب لرأيت صاحبه رحيمًا باليتيم ، متعاونًا مع غيره لإطعام المسكين ، وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا عجز عن مساعدة المسكين ، كان عليه أن يحث غيره من القادرين على ذلك ، ويدعوه إلى فعل الخير .

٤ ، ٥ - فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

عذاب شديد للمنافقين المتّصفين بهذه الأوصاف القبيحة ، وهى عدم الاهتمام بالصلاة ، وأنهم لا يستحضرون قلوبهم وخشوعهم فيها .

قال ابن عباس : هو المصلّى الذى إن صلّى لم يرج لها ثوابًا ، وإن تركها لم يخش عليها عقابًا[١٩٢] .

أى : إنهم من أهل الصلاة ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ، أو إخراجها عن وقتها .

وقال عطاء بن دينار :

الحمد لله الذى قال : عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . ولم يقل : فِى صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

فيؤخرونها إلى آخر الوقت ، أو لا يؤدونها بأركانها وشروطها ، من الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل ذلك كلّه ، كما ورد فى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «تلك صلاة

المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعًا ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[١٩٣] .

فالإيمان غير وثيق فى قلبه ، وذكر الله ضعيف باهت عنده ، ولعل الذى حمله على الصلاة هو الرياء .

قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً . (النساء : ١٤٢) .

قال ابن عباس : يعنى المنافقين الذين يُصلّون فى العلانية ولا يُصلّون فى السرّ[١٩٤] .

٦ - ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ .

يتظاهرون بالعبادة والصلاح أمام الناس ، وقلوبهم خاوية من التقوى والإيمان والإخلاص لله تعالى .

٧ - وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ .

أى : يمنعون الزكاة عن أصحابها ، أو يمنعون الصدقة والمعروف .

وسئل ابن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاطاه الناس بينهم من الفأس والقدر والدلو ، وأشباه ذلك من متاع البيت .

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال ، وأدناه المنخل والدلو والإبرة . ا هـ .

أى أن الماعون يشمل كل معونة كبيرة أو صغيرة ، للفرد أو الجماعة ، فالمؤمن نافع لإخوانه ، مهتم بشئون المسلمين ، ولهذا جاء فى الحديث : «كل معروف صدقة» .

**(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة الماعون)**

★ ★ ★


تفسير سورة الكوثر

# أهـداف سـورة الكـوثـر

(سورة الكوثر مكية ، وآياتها ٣ آيات ، نزلت بعد سورة العاديات)

وهى سورة خالصة لرسول الله ﷺ ، فقد كان أعداؤه يملكون المال والجاه والسلطان ، ويُعيّرونه بأن أتباعه من الفقراء ، وكانوا يرون أن أبناءه الذكور يموتون صغارًا ، فيُعيّرونه بأنه أبتر ، لا عقب له من الذكور ، وكانت هذه الأقاويل تلقى من يستمع إليها ويرددها ، فى بيئة تئد البنات ، وتحتكم إلى السيف والقوة ، وترى الفقر سُبَّة ومنقصة ، فنزلت هذه السورة تدافع عن النبى الكريم ﷺ ، وتفيد أن الله أعطاه من الخير الكثير ، لقد أعطاه الله النبوة والهدى ، وأيده بالصحابة الأوفياء ، وجعل سيرته عطرة منتشرة ، وشريعته باقية خالدة ، وآلاف الملايين تردد ذكره ، وتشهد له بالرسالة :

| | |
|---|---|
| وضمَّ الإله اسم النبى إلى اسمه | إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد |
| وشقَّ له من اسمه ليُجله | فذو العرش محمود وهذا محمد |

### مع ايات السورة

١ - إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ . الكوثر صيغة مبالغة من الكثرة ، ومعناه : الشيء البالغ من الكثرة حد الإفراط ، وهو مطلق غير محدود .

وقد ورد أن سفهاء قريش ، ممن كانوا يتابعون الرسول ﷺ ودعوته بالكيد والمكر ، وإظهار السخرية والاستهزاء ، من أمثال العاص بن وائل ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبى لهب ، وأبى جهل وغيرهم ، كانوا يقولون عن النبى ﷺ إنه أبتر ، يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده ، وقال أحدهم : دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهى أمره ؛ فنزلت هذه السورة لتشير إلى عطاء الله تعالى للنبى الكريم ﷺ ، وهو عطاء كثير لا حدَّ له .

وقد وردت روايات من طرق كثيرة تفيد أن الكوثر نهر فى الجنة ، أوتيه رسول الله ﷺ .

«وأخرج البخارى ، وابن جرير ، والحاكم ، وابن عساكر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الكوثر : الخير الذى أعطاه الله تعالى إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد : فإن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ، قال : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله عز وجل إياه ، عليه الصلاة والسلام ، ويُروى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضًا»[١٩٥] .

وفى تفسير النيسابورى أنه وردت عدة أقوال فى معنى الكوثر :

**القول الأول** : الخير الكثير ، إلا أن أكثر المفسرين خصُّوه فحملوه على أنه نهر فى الجنة .

**القول الثانى** : أن الكوثر أولاده من نسل فاطمة ، أى أن الله يعطيه منها نسلاً يبقون إلى آخر الزمان .

**القول الثالث** : الكوثر هم علماء أمته ، فهم رحمة إلى يوم القيامة .

ورُوى أن الكوثر هو النبوة والرسالة وكونه خاتم المرسلين[١٩٦] .

كما رُوى أن الكوثر هو تيسُير القرآن وتخفيف الشرائع ، وقيل : هو الإسلام ، وقيل : هو التوحيد ، وقيل : هو العلم والحكمة ، وقيل : هو الفضائل الكثيرة التى وهبه الله تعالى إياها .

«فقد أُسرى به ليلاً ، وانشق له القمر ، وكثر الزاد ببركة دعائه ، وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل ، وأعطاه الله القرآن هدى ورحمة للعالمين»[١٩٧] .

٢ - فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ . أى : فاجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك ذاكرًا اسم الله ، مخلصًا لله فى صلاتك ونحرك .

كما قال تعالى : قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ . (الأنعام : ١٦٢، ١٦٣) .

«والأكثرون على أن المقصود بالصلاة هنا جنس الصلاة ، لإطلاق اللفظ ، وقال الآخرون : إنها صلاة عيد الأضحى ، لاقترانها بقوله : وَٱنْحَرْ . وكانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فأُمروا بتأخيرها عنها ، والواو تفيد الترتيب استحسانًا وأدبًا وإن لم تفده قطعًا»[١٩٨] .

٣ – إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ . أى : إن مبغضك – كائنًا من كان – هو المقطوع ذكره من خيرى الدنيا والآخرة.

إنهم لم يبغضوه لشخصه ، فقد كان الصادق الأمين ، ولكنهم أبغضوه لما يحمله لهم من الرسالة والهدى ، فآثروا أهواءهم ، وتخبطوا فى ضلالهم ، حتى خذلهم الله وقطع أثرهم «فقد جرَّهم الخذلان إلى غاية الخسران ، ولم يبق لهم إلا سوء الذكر لبعضهم ، والنسيان التام لبقيتهم ، بخلاف النبى ﷺ ومن اهتدى بهديه فإن ذكرهم لا يزال رفيعًا ، وأثرهم لا يزال باقيًا فى نفوس الصالحين»[١٩٩] .

## مقاصد السورة

١ – أعطى الله محمدًا ﷺ الخير الكثير ، فرفع ذكره ، وأعلى شأنه ، ونصر دعوته ، وبارك فى أمته .

٢ – ينبغى إخلاص الصلاة والعبادة والنحر لله سبحانه وتعالى .

٣ – مَنْ أَبْغَضَ النبى ودعوته انقطع أثره وباء بالخذلان ، بينما بقى ذكر النبى ﷺ ودعوته على مرِّ الأزمان .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

**المفردات :**

**الكوثر :** الخير الكثير .

**فصلّ لربك :** فاعبد ربك الذى أعزّك وشرفك .

**وانحر :** لوجهه وباسمه إذا نحرت ، مخالفًا لعبدة الأوثان .

**شانئك :** مبغضك .

**الأبتر :** المنقطع من كل خير .

**التفسير :**

١ - إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ .

الكوثر : الخير ، وهو مبالغة من الكثرة ، والعرب تسمّى كل شىء كثير كوثرًا .

قال الشاعر :

وأنت كثيرٌ يا ابن مروان طيّبٌ وكان أبوك ابنُ العقائل كوثرًا

والمعنى :

إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير ، والفضل الوفير ، ومن ذلك : نزول الوحى والقرآن الكريم ، والرسالة الخاتمة ، والإسراء والمعراج ، وأنت أوّل من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع مشفع ، وكتابك مهيمن على

الكتب السابقة ، وشريعتك خاتمة الشرائع ، وأُعطيت الحنيفية السمحة ، وأعطاك الله الحكمة والعلم ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة الأتباع ، والنَّصر على الأعداء .

وقد ورد فى الصحيح أن النبى ﷺ فسّر الكوثر ، فقال : «فإنه نهر وعدنيه ربّى عز وجل فى الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدرّ والياقوت ،تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل»[٢٠٠] .

٢ - فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ .

اجعل صلاتك خالصة لوجه الله ، واجعل نحرك الإبل للّه وحده .

كما قال سبحانه وتعالى : قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . (الأنعام : ١٦٢) .

وقد كان المشركون يُصلُّون فى البيت الحرام بالتصفيق ، ويذبحون ذبائحهم للأصنام ، فأمره الله تعالى وأمرنا أن تكون صلاتنا خالصة لله ، وأن تكون ذبائحنا لله وحده لا شريك له .

وقيل : المعنى : صلِّ صلاة عيد الأضحى وانحر الأضحية .

٣ - إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ .

مبغضك هو المقطوع الأثر ، وقد رُوى أنه لمَّا مات القاسم شمت كفار مكة ، وقال العاص بن وائل : دَعُوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، ولا نسل له من الذكور ، فإذا مات انقطع ذكره ، فأنزل الله تعالى هذه السورة توضّح أن محمدًا ﷺ فى عز من الرحمن ، ومنعة من المسلمين ، ودينه فى انتصار ، وأن المسلمين جميعًا من زمانه إلى يوم القيامة فى منزلة أبنائه وأحفاده ، فهو كالوالد لهم ، أما أعداؤه فهم مبتورون من رحمة الله .

أما محمد ﷺ فقد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرًّا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمَعَاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد[٢٠١]

★ ★ ★

تم بحمد الله وفضله وتوفيقه تفسير سورة (الكوثر) مساء الثلاثاء ٢٠ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٢ / ٦ / ٢٠٠١ ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★


تفسير سورة الكافرون

# أهـــداف ســـورة الكـــافـــرون

(سورة الكافرون مكية ، وآياتها ٦ آيات ، نزلت بعد سورة الماعون)

وهى سورة تصدح بالحقيقة ، وترفض أنصاف الحلول ، وتعلن أن الإسلام إسلام ، وأن الكفر كفر ، ولن يلتقيا .

## أسباب النزول

رُوى أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمى ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف فى جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم ، أتوا النبى ﷺ فقالوا له : هلمَّ يا محمد فاتبع ديننا ونتبع دينك ، ونشركك فى أمرنا كله ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيرًا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا حظًّا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيرًا كنت قد شاركتنا فى أمرنا ، وأخذت حظك منه . فقال : «معاذ الله أن نشرك به غيره» ، وأنزل الله ردًّا على هؤلاء هذه السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأ من قريش ، فقام على رؤوسهم ، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فيئسوا منه ، وآذوه وصحبه ، حتى اضطر إلى الهجرة إلى المدينة[٢٠٢] .

## فكرة السورة

لم يكن العرب يجحدون الله ، ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التى وصف بها نفسه ، وهى أحد فرد صمد ، فكانوا يشركون به ، ولا يعبدونه حق عبادته ، كانوا يشركون به هذه الأصنام التى يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء ، أو يرمزون بها إلى الملائكة ، ويقولون : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... (الزمر : ٣) .

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم فى الجزيرة .

ولحسم هذه الشبهات نزلت هذه السورة بهذا الجزم ، وبهذا التوكيد ، توضح أنهم كافرون مشركون ، قد نبذوا التوحيد ، وخرجوا عن جادة الصواب ، فلن يعبد النبى ﷺ ما يعبدون من أصنام و أوثان .

قال تعالى : قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ . (الزمر : ٦٤) .

## مع آيات السورة

١ ـ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ . قال لهم : يا أيها الكافرون ، ناداهم باسمهم وحقيقتهم ، ووصفهم بوصفهم ، إنهم ليسوا على دين وليسوا بمؤمنين ، وإنما هم كافرون .

٢ ـ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . فعبادتى غير عبادتكم ، ومعبودى غير معبودكم ، وأنا لا أعبد أصنامكم ، ولا أسجد لآلهتكم ، وإنما أعبد إلهًا واحدًا منزهًا عن النظير والمثيل : لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١)

٣ ـ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وإنكم لكاذبون فى دعواكم أنكم تعبدون الله ، لأن الذى تزعمونه ربًّا تتخذون له الشفعاء ، وتجعلون له زوجة من الجن تلد له الملائكة[٢٠٣] ، وتنسبون إليه ما يتنزه عنه الله . فهذا الذى تعبدونه لن يكون إلهًا مستحقًا للعبادة .

٤ ـ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . تكرير وتوكيد للفقرة الأولى فى صيغة الجملة الاسمية ، وهى أدل على ثبات الصفة واستمرارها ، وقد كرر نفى عبادته آلهتهم قطعا لأطماعهم وتيئيسا لهم .

٥ ـ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . تكرار لتوكيد الفقرة الثانية ، كى لا تبقى مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر ، بكل وسائل التكرار والتوكيد .

قال أبو مسلم الأصفهانى : معناه : لا أنا عابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى .

وخلاصة ما سلف : الاختلاف التام فى المعبود ، والاختلاف البين فى العبادة ، فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، إن عبادتى خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك ، مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة .

٦ – لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ .

لَكُمْ دِينُكُمْ . مختص بكم لا يتعداكم إليَّ ، فلا تظنوا أنى عليه أو على شىء منه .

وَلِيَ دِينِ . أى : دينى هو دين خاص بى ، وهو الذى أدعو إليه ، ولا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

## مقاصد السورة

١ – إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر ولا يلتقيان .

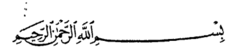
٢ – المؤمن لا يسجد للصنم ، ولا يعبد ما يعبده الكافر .

٣ – الكافر لا يعبد الله ، بل ضلَّ طريقه إلى عبادته .

٤ – المؤمن واضح صادق فلن يعبد عبادة الكافر ، كما أن الكافر لا يعبد عبادة المؤمن .

٥ – سيلقى المؤمن ثوابه ، وسيلقى الكافر جزاءه .

★ ★ ★



﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾

**المفردات :**

ما تعبدون : من الأصنام وغيرها .

دينكم : أى : الشرك بعبادة الأصنام .

ولى دين : دين التوحيد .

**التفسير :**

١ - قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ .

هى فى الأصل نداء لكفار مكة ، لكنها عامة ، أى : يا محمد ، يا رسول الله ، يا صاحب رسالة الإسلام ، إنك مكلّف أن تقول فى كلمة التوحيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وهؤلاء يعبدون الأصنام والأوثان ، ويجعلونها شفعاء لله ، والله تعالى واحد أحد ، منزه عن الصاحبة والولد ، وعن الشريك والمثيل ، مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... (البقرة : ٢٥٥) .

لذلك أعلنها النبى ﷺ ، وبيَّن أنهم كافرون بالله ، وعبادتهم للأصنام تخرجهم من الإيمان ، أى : قل يا محمد لهم : يا أيها الكافرون بالله الواحد الأحد .

٢ - لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ .

لا أعبد آلهتكم ، ولا أسجد لأصنامكم ، ولا أشارككم فى عقيدتكم .

٣ – وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ .

وأنتم لا تعبدون الله الواحد الذى أعبده ، فعبادتكم للأصنام فى ضياع وهباء .

قال تعالى : وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا . (الفرقان : ٢٣) .

٤ – وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ .

الظاهر أنه تكرار للتأكيد .

قال الفراء : إن القرآن نزل بلغة العرب ، ومن عادتهم تكرير الكلام للتأكيد والإفهام ، فيقول المجيب : بلى بلى ، والممتنع : لا ، لا .

ومنه قوله تعالى : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . (التكاثر : ٣ ، ٤) .

وهو كثير نظمًا ونثرًا ، وفائدة التوكيد هنا قطع أطماع الكافرين ، وتحقيق أنهم باقون على الكفر أبدًا ، والرسول ﷺ باقٍ على عبادة ربه أبدا .

٥ – وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ .

أى : ولا أنتم عابدون عبادتى ، فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة .

أنا أعبد الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن النظير والمثيل ، أوَّلٌ بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، بيده الخلق والأمر ، لا حدود لقدرته ، فهو على كل شىء قدير ، إذا أراد أمرًا كان وحصل ، فعّال لما يريد : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

أما معبودكم فهو هذه الأصنام والأوثان ، وعبادتى خالصة لله الواحد الأحد ، وعبادتكم تشوبها أفكار ملفّقة ، حيث تدّعون أن الله تزوج من أغنياء الجن فولدوا له الملائكة ، وتدَّعون أن الأصنام تقربكم من الله ، وهى أصنام صماء لا تسمع ولا تنفع ، ولا تجيب ولا تعقل شيئًا .

٦ – لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ .

لكم شرككم ولى توحيدى ، ودينكم مختص بكم لا يتعداكم إلىّ ، فلا تظنّوا أنى عليه ، أو على شىء منه .

وَلِيَ دِينِ .

ولى رسالتى ودعوتى ، وهى خاتمة الرسالات ، وخاتمة الشرائع ، اشتملت على تنزيه الله عن مشابهة الحوادث ، وعلى أنه تعالى متصف بكل كمال ، ومنزّه عن كل نقص ، وله الأسماء الحسنى ، فهو سميع قدير ، متكلّم مريد ، لطيف خبير قهار ، إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ١٦) .

قال المفسرون :

معنى الجملتين الأوليين : الاختلاف التام فى المعبود ، فإله المشركين الأوثان ، وإله محمد الرحمن .

ومعنى الجملتين الأخيرتين : الاختلاف التام فى العبادة ، كأنّه قال : لا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة الكافرون) .

★ ★ ★



# تفسير سورة النصر

# أهـــداف ســـورة النصـــر

(سورة النصر مدنية ، وآياتها ٣ آيات ، نزلت بعد سورة التوبة)

ومع قصرها فإنها حملت البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، ثم طلبت منه التسبيح والحمد والاستغفار .

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . وأظهرك على أعدائه ، وفتح لك مكة . وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا . فوجا بعد فوج .. فنزه ربك حامدا إياه على ما أولاك من النعم والمنن ، واستغفر الله لحظة الانتصار من الزهو والغرور والتقصير ، إنه كان ولم يزل توابا كثير القبول للتوبة، يحب التوابين ويحب المتطهرين .

ولما دخل النبى ﷺ مكة فاتحا منتصرا ، انحنى على راحلته حتى أوشك أن يسجد عليها، وهو يقول : «تائبون آيبون حامدون لربنا شاكرون» .

## سورة التوديع

وسورة النصر تحمل بين طياتها إتمام الرسالة ، وأداء الأمانة ، والاستعداد للحاق بالرفيق الأعلى .

قال البيضاوى : تسمى سورة التوديع .

ويقال : إن عمر لما سمعها بكى ، وقال : الكمال دليل الزوال .

وروى أن العباس بكى لما قرأها رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : «ما يبكيك» ؟ قال : نُعيت إليك نفسك . فقال النبى ﷺ : «إنها لكما تقول ، وإنما ذلك لأن فيها تمام الأمر» .

كما فى قوله تعالى : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... (المائدة :٣) .

وجاء فى رواية للبخارى أن عمر رضى الله عنه سأل أشياخ بدر ، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . حتى ختم السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا

وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال : أكذلك تقول يا بن عباس ؟ قلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له . قال : إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . فذلك علامة أجلك . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا . فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول .[٢٠٤].

وفى رواية الإمام أحمد ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قوله : «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه» .[٢٠٥].

## مقاصد السورة

١ - عند الفتح الأكبر ودخول الناس فى دين الإسلام ، ينبغى شكر الله والاستغفار من كل تقصير ، فإن باب الله مفتوح، وهو صاحب الطول ، ويقبل التوبة من جميع التائبين .

٢ - وفى السورة إيذان بأداء النبى ﷺ للرسالة العظمى ، وانتهاء المهمة الكبرى ، وتوجيه له بأن يستعد للموت بالاستغفار والتوبة وشكر الله والتسبيح بحمده .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾

**المفردات :**

**الفتح :** المراد به : فتح مكة .

**أفواجا :** زمرا وجماعات .

**سبح :** نزهه وقدسه .

**واستغفره :** مما قد يكون منك ، وهو لتعليمنا .

**توابا :** كثير المتاب والغفران لمن تاب .

**تمهيد :**

جاء فى كتب التفسير والحديث أن أحياء العرب كانت تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة ، فلما فُتحت مكة قالت العرب : إن الله منع أصحاب الفيل من دخول مكة ، ولم يفتحها لمحمد إلا لأنه رسول الله ، فأقبل الناس على الدخول فى الإسلام ، جماعات جماعات .

وهناك عدة روايات فى كتب السنّة تفيد أن هذه السورة القصيرة قد نَعَت إلى الرسول ﷺ حياته ، فإنَّه إذا نجح فى أداء الرسالة ، وفتحت مكة ، وعمّ الإسلام بلاد العرب ، يكون قد أدى مهمته فى الدنيا ، وحان الوقت أن يلحق بالرفيق الأعلى .

**التفسير :**

١ - إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ .

إذا كثر نصرك على االعباد ، وفتح الله لك البلاد ، وفُتحت مكة أم القرى .

ونلحظ أن الله أضاف النصر إليه ، فهو نصر الله ، لقد مكث المؤمنون فى مكة ثلاثة عشر عاما ، يتعرضون لأقسى ألوان الاضطهاد ، ثم هاجروا إلى المدينة ، وخاضوا مع النبى ﷺ غزوات وسرايا ، بلغ عددها اثنتين وخمسين غزوة وسرية خلال عشر سنوات ، كلُّها كفاح وجهاد ، يُمسون ويُصبحون فى الحديد ، أى فى الدروع والسيوف وآلات الحرب ، وكانت النفوس تتشوف إلى نصر حاسم ، وكان الله تعالى يدّخر ذلك لحكمة يعلمها ، وهو العليم الحكيم .

قال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠) .

٢ - وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا .

كان الناسُ يدخلون فى الإسلام أفرادًا ، فلما فُتحت مكة ودخل أهلها فى الإسلام ، وخضعت أم القرى ، جاء الناس أفواجا وجماعات للدخول فى دين الله تعالى ، وهو الإسلام .

٣ - فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا .

عند مجىء النصر والفتح والغلبة ، ينبغى أن تشكر الله تعالى وتلجأ إليه ذاكرا شاكرًا ، مستغفرا تائبا ، متجردًا من الغرور أو الإعجاب بالنصر .

فالنصر نصر الله ، والدِّين دين الله ، وأنت عبد الله ورسوله ، فعليك بذكره وتسبيحه واستغفاره ، ولما نزلت هذه السورة كان ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى» . يتأوَّل القرآن [٢٠٦] .

والمعنى :

إنه كان يجمع هذه الأوامر فى صيغة تجمع معانيها ، فيقول : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى» ، فهى ذكر وشكر ، واعتراف لله بالفضل ، ورغبة فى التوبة والمغفرة .

روى مسلم ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله أتوب إليه» [٢٠٧] .

## سيد الاستغفار

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

★ ★ ★

تمّ بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة (النصر) ظهر يوم الأربعاء ٢١ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١/٦/١٣م .

★ ★ ★



# تفسير سورة المسد

# أهداف سورة المسد

(سورة المسد مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد الفاتحة)

وتسمى سورة تبت ، وسورة أبى لهب ، وسورة المسد لذكرها فيها .

## مقصود السورة

قال الفيروزبادى :

مقصود السورة : تهديد أبى لهب على الجفاء والإعراض ، وضياع كسبه وأمره ، وبيان ابتلائه يوم القيامة ، وذم زوجه فى إيذاء النبى ﷺ ، وبيان ما هو مدخر لها من سوء العاقبة .

## مع السورة

سورة المسد ، وتسمى أيضا سورة أبى لهب ، وأبو لهب - واسمه عبد العزى بن عبد المطلب - هو عم النبى ﷺ ، وإنما سُمى بأبى لهب لإشراق وجهه ، وكان هو وامرأته أم جميل من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به .

أخرج البخارى بإسناده ، عن ابن عباس أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : «يا صباحاه» ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم مصدقىَّ» ؟ قالوا : نعم ، قال : «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» . فقال أبو لهب : تبًا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا . فأنزل الله السورة : تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . والتباب : الهلاك والبوار والقطع ، وتبت الأولى دعاء ، وتبت الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء : هلكت نفس أبى لهب ، وقد هلك ، ما نفعه ماله وما كسبه بماله من الربح والجاه ، سيدخل نارًا ذات لهب ، ونجد هنا تناسقا فى اللفظ ، فجهنم هنا ذات لهب يصلاها أبو لهب .

ومضمون السورة : خسر أبو لهب ، وضل عمله ، وبطل سعيه الذى كان يسعاه للصد عن دين الله ، ولم يغن عنه ماله الذى كان يتباهى به ، ولا جده واجتهاده فى ذلك ، فإن الله أعلى كلمة رسوله ، ونشر دعوته ،

وأذاع ذكره . وسيُعذب أبو لهب يوم القيامة بنار ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، أعدها الله لمثله من الكفار المعاندين ، فوق تعذيبه فى الدنيا بإبطال سعيه ودحض عمله ، وستُعذب معه امرأته التى كانت تعاونه على كفره وجحده ، وكانت عضده فى مشاكسة رسول الله ﷺ وإيذائه ، وكانت تمشى بالنميمة للإفساد ، وإيقاد نار الفتنة والعداوة .

وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ . أى : وستُعذب أيضا بهذه النار امرأته أروى بنت حرب ، أخت أبى سفيان بن حرب ، جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعى بالنميمة ، إطفاء لدعوة رسول الله ﷺ .

والعرب تقول لمن يسعى فى الفتنة ويفسد بين الناس : هو يحمل الحطب بينهم ، كأنه بعمله يحرق ما بينهم من صلات ، وقيل : إنها كانت تحمل حزم الشوك والحسك والسعدان وتنثرها بالليل فى طريق رسول الله ﷺ لإيذائه .

فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ . فى عنقها حبل مما مسد به من الحبال ، أى أُحكم فتله ، وقد صورها الله بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك ، وتربطها فى جيدها كبعض الحطَّابات الممتهنات ، احتقارًا لها ، واحتقارا لبعلها ، حين اختارت ذلك لنفسها .

وقصارى أمرها أنها فى تكليف نفسها المشقة الفادحة للإفساد بين الناس ، وإيقاد نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حاملة الحطب التى فى جيدها حبل خشن تشد به ما تحمله إلى عنقها ، حين تستقل به ، وهذه أبشع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب وهى على تلك الحال .

«ويرى بعض العلماء أن المراد بيان حالها وهى فى نار جهنم ، إذ تكون على الصورة التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك إيذاءً لرسول الله ﷺ ، فهى لا تزال تحمل حزمة من حطب النار ، ولا يزال فى جيدها حبل من سلاسلها ، ليكون جزاؤها من جنس عملها ، فقد رُوى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كانت لأم جميل قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها فى عداوة محمد ، فأعقبها الله فى جيدها حبلا من مسد النار» [٢٠٨] .

«وكل امرأة تمشى بالفتنة والفساد بين الناس لتفرق كلمتهم ، وتذهب مذاهب السوء ، فلها نصيب من هذا العذاب ، وجزء من هذا النكال» [٢٠٩] .

★ ★ ★

## مقاصد السورة

١ – هلاك لأبى لهب ثم هلاك .

٢ – لن ينفعه ماله وجاهه ، ولا سلطانه و أولاده .

٣ – سيصطلى بنار جهنم ويحترق بلهيبها .

٤ – ويكون معه زوجه فى صورة مهينة مزرية ، إذ تحمل الحطب وفى عنقها حبل من ليف ، أشبه بالمرأة المهينة ، أو الحمارة الكادحة .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

**المفردات :**

**تــــبت :** التبّ : الهلاك والبوار ، وهو دعاء عليه .

**أبـى لهب :** هو عبد العزى بن عبد المطلب ، عم النبى ﷺ ومن أشد الناس إيذاء له وللمسلمين .

**ما أغنـى :** ما نفعه ولا أفاده لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

**وما كسب :** المراد به الولد ، لأن الولد من كسب أبيه ، أو المال والجاه .

**ذات لهب :** لتأججها واستعارها .

**امـرأتـه :** هى أم جميل بنت حرب، أخت أبى سفيان .

**الـحطب :** المراد : الأشواك التى كانت تلقيها فى طريق النبى ﷺ والمؤمنين إيذاء لهم ، أو هو كناية عن إلقاء الفتنة بين النبى ﷺ والمشركين .

**جـيدها :** عنقها .

**مســـــد :** هو الليف ، أى : فى عنقها حبل من ليف تجمع فيه الحطب وتحزمه .

**تمهيد :**

ثبت فى كتب السيرة أن النبى ﷺ كان يتتبع القبائل لدعوتها إلى الإسلام ، وخلفه عمّه أبو لهب يقول : يابنى فلان ، هذا يريد منكم أن تنسلخوا من اللات والعزّى وحلفائكم من الجنّ إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه ، وكانت زوجته أمّ جميل من سادات مكة ، وقد وقفت مع زوجها

تؤازره ، وتشدّ أزره فى عداوة محمد ﷺ ، وتلقى الفتن بين محمد ﷺ وبين قبائل مكة ، وباعت قلادتها لتنفق ثمنها فى عداوة محمد ﷺ ، فنزلت فى زوجها وفيها هذه السورة التى تتلى إلى يوم القيامة .

**التفسير :**

١ - تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ .

أى : خسرت يداه ، وخسر هو ، ومعنى خسرت يداه : بطل كل كبير عمله .

**وقال ابن جرير :**

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ .

دعاء عليه من الله .

وَتَبَّ .

هذا خبر من الله ، أى : تحقق هلاكه .

٢ - مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ .

ما نفعه ماله ولا جاهه ولا منزلته ، ولا ميراثه الذى ورثه عن أبيه وكسبه .

قال المفسرون :

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ ...

ما نفعه رأس المال الذى يملكه .

وَمَا كَسَبَ . وما استفاد من الربح والمكسب ، لأن مآله إلى جهنم وبئس المصير ، والدنيا التى يملكها لا تزن عند الله جناح بعوضه .

أو المعنى : سيلقى العذاب النفسىّ فى الدنيا ، وعذاب النار فى الآخرة .

٣ - سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ .

سيصطلى بنار جهنم يوم القيامة ، والسورة نموذج من الأدب الرفيع ، فى توازن آياتها ، وحرف القافية فيها ، فالمعذّب اسمه أبو لهب ، ووسيلة العذاب نار ذات لهب .

٤ - وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ .

كانت زوجته أم جميل تضع الشوك فى طريق رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر ، وكانت تشيع عنه السوء ، وتمشى بالنميمة ، ويقال لمن يفسد العلاقات بين الناس : إنه يحمل الحطب ، أى : يشعل النار ويقطّع أواصر المودة .

٥ - فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ .

فى عنقها حبل من ليف ، أى هى فى جهنم بصورة زرية ، تحمل حطب النار على ظهرها ، وفى عنقها حبل من نار ، شأن حاملى الحطب الذين يربطون حبلا فى أعناقهم ، ويعلّقون فيه ما يجمعون .

لقد كانت نموذجا للعداوة هى وزوجها ، وقد آلمتها هذه السورة ونالت منها ، وذهبتْ للنبى ﷺ وفى يدها حجر لتقذفه به ، فأعمى الله بصرها عن النبى ﷺ ، فلم تشاهد غير أبى بكر الصديق .

والسورة تبيِّن عدالة الإسلام ، فأقرب الناس إلى الرسول ﷺ ذمّه القرآن وذم زوجته بسبب أعمالهما ، وقد مات أبو لهب حزينا كئيبا بعد هزيمة بدر ، ثمّ نصر الله رسوله محمدا ﷺ ، وخلّد ذكره .

★ ★ ★


تفسير سورة الإخلاص

# أهـــداف ســـورة الإخـــلاص

(سورة الإخلاص مكية ، وآياتها ٤ آيات ، نزلت بعد سورة الناس)

وتشتمل هذه السورة على أهم أركان الإسلام التى قامت عليها رسالة النبى ﷺ ، وهذه الأركان ثلاثة :

**الأول** : توحيد الله وتنزيهه .

**والثانى** : بيان الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات .

**والثالث** : أحوال النفس بعد الموت وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب ، وصفة اليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ، وحساب وجزاء ، وصراط وميزان ، وجنة ونار .

وأول هذه الأركان هو التوحيد والتنزيه لإخراج العرب وغيرهم من الشرك والتشبيه ، ولهذا ورد فى الحديث أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن ، لاشتمالها على التوحيد وهو أصل أصول الإسلام .

وفى كتب التفسير : أن هذه السورة نزلت جوابا للمشركين حين سألوا رسول الله ﷺ أن يصف لهم ربه ويبين لهم نسبه ، فوصفه لهم ونزهه عن النسب ، إذ نفى عنه أن يكون والدا أو مولودا أو أن يكون له شبيه ومثيل .

**هُوَ** . ضمير تفسره الجملة التالية . ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ . وهو يدل على فخامة ما يليه بإبهامه ثم تفسيره ، مما يزيده تقريرا .

**ٱللَّهُ أَحَدٌ** .

**ٱللَّهُ** . علم دال على الذات العلية دلالة مطلقة تجمع كل معانى أسمائه الحسنى ، وما تصوره من التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والجلال والكمال .

**أَحَدٌ** . صفة تقرر وحدانية الله من كل الوجوه ، فهو واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله وفى عبادته ، أما أحديته أو وحدانيته فى ذاته فمعناها أنه يستقل بوجوده عن وجود الكائنات والمخلوقات ،

فوجودها حادث بعد عدم ، وهى محتاجة إلى علة توجدها وتظل قائمة عليها حافظة وجودها طوال ما كتب لها من بقاء . أما وجود الله فوجود أزلى ، وجود لذاته ، ومنه انبثق كل الوجود ، إنه واجب الوجود الذى لا أول لوجوده ولا آخر ، والفرد الذى لا تركيب فى ذاته .

ٱللَّهُ أَحَدٌ . فلا إله سواه ولا شريك معه ، وكانوا قد عبدوا آلهة متعددة مثل الشمس والقمر ، واللات والعزى ، ومناة ونسر .

وكان منهم من اتخذ إلهين : إلها للنور ، وإلها للظلمة ، ومنهم مَنْ قال : إن الله ثالث ثلاثة من الآلهة وقد أعلن القرآن الكريم النكير على من اتخذ إلها غير الله تعالى ، وقرر القرآن أنه لا شريك له ولا مثيل .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا . (النساء : ١١٦) .

ووحدانية الصفات تعنى تنزيه الله عن صفات المخلوقين من البشر وغير البشر ، فهو متفرد بصفاته تفرده بذاته : لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ... (الشورى : ١١) . لا فى الذات ولا فى الصفات .

وقد تعددت صفات الله فى القرآن ، ولأنها ذاتية دعاها أسماء إذ يقول : وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ... (الأعراف :١٨٠) . ويقول تعالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ... (الحشر : ٢٤) .

وهذه الصفات منها ما يصور عظمة الله وجلاله ، مثل : العظيم ، المتعال ، الحميد ، المجيد ، القدوس ، ذى الجلال والإكرام . ومنها ما يصور خلق الكون وصنع الوجود ، مثل : البارئ ، المصور ، الخالق ، البديع ومنها ما يصور القدرة الإلهية ، مثل : القوى ، القادر ، القهار ، المهيمن . ومنها ما يصور العلم الربانى ، مثل : العليم ، الحكيم ، الخبير . ومنها ما يصور رحمة الله بعباده ، مثل : الرؤوف ، الرحمن ، الرحيم .. إلى غير ذلك من صفات قد تلتقى بصفات البشر ، ولكنها تختلف عنها فى الجنس والنوع ، هى وكل ما يتصل بالذات الإلهية .

ووحدانية الله فى أفعاله : هى التفرد فى خلق الكون والقيام عليه وتدبير نظامه المحكم بقوانين ماثلة فى جميع الأشياء .

يقول الحق سبحانه : أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ. (ق: ٦ –١١).

وهذا الكون العظيم بنظامه البديع وناموسه الرائع يدل دلالة واضحة على وحدانية الله وتفرده بالألوهية.

قال تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء: ٢٢).

وقال سبحانه: مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. (المؤمنون: ٩١).

ومضمون هذه الآيات أنه لو تعددت الآلهة فى الكون لفسد نظام السماوات والأرض، ولاختل تماسكها القائم على وحدة نظام، ووحدة تسيير، وبما أن الكون لم يفقد نظامه ولا تماسكه فدلَّ ذلك على نفى الآلهة وثبتت وحدانية الحق سبحانه. قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ.

ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ.

ٱلصَّمَدُ. هو المقصود فى الحوائج وحده، فهو الملاذ وهو الملجأ، وهو المستعان وهو المستغاث، ولا حول ولا طول لسواه، إنه الخالق الصانع الحافظ الوهاب النافع الضار، كل شيء بيده وفى قبضته، يُعطى ويمنع، ويبسط ويقبض، ويثيب ويعاقب، وكل شيء فى الكون متجه إليه يتلقى منه الوجود، إنه المحيى المميت، الذى يهب كل حىٍّ حياته، وكل حىٍّ بل كل كائن ينقاد إليه شاعرا بضعفه وعجزه، وأنه محتاج إلى بره وتفقده له، فهو الكالئ الحافظ بالليل والنهار وعلى مر الزمان، وهو الراعى المربى الذى يفتقر إليه كل شيء فى الوجود وينقاد بأزمته، وفى ذلك يقول جلَّ ذكره: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ. (النحل: ٤٩، ٥٠).

**قال الإمام محمد عبده:**

وقوله: ٱلصَّمَدُ. : يُشعر بأنه الذى ينتهى إليه الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع، وهو فى ذلك يخالف عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء، وكثير من أهل الأديان الأخرى يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغاهم فيلجأون إليهم أحياء وأمواتا، ويقومون بين أيديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين، كما يخشعون لله بل أشد خشية [٢١٠]

وقد نفى القرآن كل وساطة بين العبد وربه ، وبيّن أن باب الله مفتوح على مصراعيه ، للضارعين والتائبين والسائلين ، فهو قريب من عباده لا يحتاج إلى وساطة أو شفاعة .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

وبذلك نرى أن الله يرفع كل حجاب بينه وبين عباده ليتجهوا إليه بالمسألة حين تنزل بهم بعض الخطوب ، أو حين تصيبهم بعض الفواجع ، أو حين يلتمسون أى مقصد من مقاصد الدنيا أو مقاصد الآخرة .

قال تعالى : ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... (غافر : ٦٠) .

وقال سبحانه : ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . (الأعراف :٥٥) .

وعلى ذلك فالإسلام يُنكر بيع صكوك الغفران ، لأن المغفرة بيد الله وحده ، ويُنكر الإسلام الاعتراف بالذنب لرجل الدين حتى تصح التوبة ويُمحى الذنب ، إذ أساس الإسلام أن الله وحده هو المقصود فى كل شىء : وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ... (الشورى : ٢٥، ٢٦) .

وقد جعل الدين الدعاء مخ العبادة ، لأن الدعاء اعتراف ضمنى بقدرة الله وعظمته وأنه الخالق البارئ الرازق الفعال لما يريد ، وأن بيده الخير والأمر والنفع وأنه مسبب الأسباب . وللدعاء آداب منها :

التوبة النصوح ، وأكل الحلال ، وأداء الفرائض ، واجتناب المحرمات ، والتزام التضرع والخضوع فى مناجاة الله ودعائه ، واليقين الكامل بأن الله تعالى هو النافع الضار ، لا راد لقضائه ولا معقب لأمره : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس :٨٢ ) .

وتمكينا لهذه العقيدة الإسلامية فى النفوس ، علّمها رسول الله ﷺ إلى ابن عمه عبد الله بن عباس وهو غلام صغير وقد كان راكبا خلفه .

فعن عبد الله بن عباس قال : كنت رديف النبى ﷺ على بغلته فقال لى : «يا غلام ، هل أعلمك كلمات ينفعك الله بهن فى الدنيا والآخرة» ؟ .قلت : بلى يا رسول الله علمنى . فقال لى : «يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ما نفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن

يضروك بشئ ما ضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٢١١] . رواه أحمد ، والترمذى ، وهو حديث صحيح .

وحيث يعلم المؤمن هذه الحقيقة ويحيى فى فكره وقلبه صمدية الله تعالى ، فإنه لا يرجع فى أمر من أموره إلا إليه سبحانه ، ولا يتقرب بأى قربى إلا قربى تدنيه من طاعة ربه ومرضاته ، وتثبيتا لحقيقة صمدية الخالق من حقائق صفات الألوهية ، قال سبحانه : ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . أى : الله هو الغنى فى ذاته وفى صفاته غنى تاما ، وهو الذى يُصمد إليه ، أى : يُرجع إليه فى كل أمر صغر أو كبر .

قال أبو هريرة فى تفسير كلمة الصمد : هو المستغنى عن كل أحد ، المحتاج إليه كل أحد .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ .

لَمْ يَلِد. لم يتخذ ولدا . وَلَمْ يُولَدْ . ليس له والد يكنى به . والقرآن بهذا ينزه الله العلى العظيم عن الشبه بالآدميين الفانين الذى يوجدون بعد عدم ، ويعيشون وينجبون الولد والأولاد ، ثم تشتعل رؤوسهم شيبا ويبلغون من الكبر عتيا ثم يموتون ، وبذلك يكون الإنسان والدا ومولودا فى آن واحد ، أما الله سبحانه فتعالى علوا كبيرا عن أن يلد أو يولد ، فهو منزه عن مجانسة الآدميين فى اتخاذ الصاحبة أو الزوجة واتخاذ الأولاد .

قال تعالى : بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ * لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . (الأنعام : ١٠١ – ١٠٣) .

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ .

الكفء معناه المكافئ والمماثل فى العمل والقدرة ، وهو نفى لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله ندا فى أفعاله يعاكسه فى أعماله ، على نحو ما يعتقده بعض الوثنيين فى الشيطان مثلا ، فقد نفى بهذه السورة جميع أنواع الشرك ، وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه .

« وقد جعل الله الآية الأخيرة خاتمة للآيات قبلها ، فبعد أن قرر وحدانيته وعظيم سلطانه ، وأنه ملاذ الكون ومخلوقاته ، وأنه منزه عن مشابهة الإنسان ومماثلته لتفرده بقدمه وأزليته ، قال فى صيغة عامة إنه ليس له مثيل ولا نظير من الخلق فى أى صفة ولا فى أى فعل ولا فى أى شيء من الأشياء» [٢١٢] .

وقد سفَّه القرآن فى مواطن كثيرة من جعلوا لله أندادا من المخلوقات ، وبين أنه سبحانه الصانع الأعظم ، وما من كائن إلا ويفتقر إليه فى وجوده .

وفى معنى سورة الإخلاص يقول الله سبحانه : وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا . (مريم : ٨٨ – ٩٥) .

وقال سبحانه : وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ . (الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧) .

★ ★ ★



﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

**التفسير :**

١ – قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ .

قل لهم يا محمد : هو الله أحد .

هو الله أحد ، أى : واحد فى ذاته ، ليس له شريك ولا مثيل ، وهو واحد فى صفاته لأنه كامل القدرة، كامل الإرادة ، كامل الرحمة ، كامل القهر ، كامل الصِّفات الكاملة التى يتصف بها وحده .

وهو واحد فى أفعاله ، بمعنى أنه خالق الكون ، وغيره لا يقدر على أن يفعل مثل أفعاله .

قال تعالى : أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (النحل : ١٧) .

وهذه الجملة تكفى المؤمن حين ينطق بها ، ويتمثّل معناها ومبناها ، ويتأكد أن الكون له إله واحد ، هو المقصود ، وهو المعبود ، وهو خالق الوجود ، لذلك قالوا : من وجد الله وجد كلّ شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

٢ – ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ .

هو المقصود فى الحوائج ، والصمد بمعنى المصمود ، أى المقصود مباشرة بدون وسيط أو شفيع ، فهو غنى عن الوسائط ، يفتح بابه لكل سائل .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فينادى : ياعبادى ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه هل من طالب حاجة فأقضيها ، حتى يطلع الفجر» . [٢١٣] .

إن الله فى الإسلام ليس بعيدا عن خلقه ، ولم يخلقهم ويتركهم ، إنه يسمع ويرى ، وهو قائمٌ على كل نفس بما كسبت ، وهو الرقيب والحسيب والمحصى .

قال تعالى : أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

وقال سبحانه وتعالى : وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

قال أهل اللغة : ٱلصَّمَدُ . هو السيد الذى ليس فوقه أحد ، الذى يصمد إليه الناس فى حوائجهم وفى أمورهم ، وعن أبى هريرة : هو المستغنى عن كل أحد ، المحتاج إليه كل أحد .

إن الله أقرب إلينا من حبل الوريد ، وكان من دعاء الإمام زين العابدين : يا من ليس له بوَّاب يُرجى، ولا حاجب يُرشى ، صلِّ على محمد وآله ، واغفر ذنوبى ، واستر عيوبى ، وتقبَّل رجائى . اللهم آمين .

٣ - لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ .

لم يلد ولدًا ، ولم يولد من أب ، فهذا شأن المخلوق ، أن يكون مولودًا ثم شابا ، ثم يتزوج ويولد له ، ويصبح أبًا ، وهذا شأن البشر ، أما الإله فهو منزه عن ذلك .

قال تعالى : أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (الأنعام : ١٠١).

أخرج البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم»[٢١٤] .

وأخرج البخارى أيضا أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : كذَّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أوّل الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأمّا شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد»[٢١٥] .

٤ - وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ .

وكُفُوًا : أصلها كفوًا .

والكُفْء : هو المكافئ والمماثل والمشابه لغيره فى العمل أو القدرة .

أى : ولم يكن أحد من خلقه مكافئا ولا مشاكلا ولا مناظرا له تعالى ، فى ذاته أو صفاته أو أفعاله .

قال تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

وقد ورد فى السُّنة الصحيحة أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن ، لاشتمالها على التوحيد ، وتأكيد وحدانية الخالق ، ونفى التعدد بقوله سبحانه : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ .

ونفى عن ذاته النقص والاحتياج ، وأثبت حاجة الخلق كلهم إليه بقوله : ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ .

ونفى عن ذاته أن يكون والدًا أو مولودًا بقوله عز شأنه : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ .

ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه والنظراء بقوله تعالى : وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ .

فالسورة الكريمة إثباتٌ لصفات الجلال والكمال ، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص .

ومن أصول عقيدتنا أن الله تعالى يتصف إجمالاً بكل كمال، ويتنزه إجمالاً عن كل نقص ، ويتصف تفصيلا بصفاته الكاملة ، مثل : القدرة ، والإرادة ، والوحدانية ، والقيام بالنفس .

وفى الحديث الصحيح : «إن لله تسعة وتسعين اسمًا ، مائة إلا واحدًا ، والله تعالى وتر يُحب الوتر ، من أحصاها دخل الجنة» .[٢١٦]

**قال العلماء :** من حفظها دخل الجنة .

**وقال المحققون :** الإحصاء : هو الإحاطة بمعانيها علمًا وعملا ، فإذا أيقنت أنه الرزاق أخذت بالأسباب ، وعلمت يقينا أن المسبب الحقيقى هو الله تعالى .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة (الإخلاص) مساء الأربعاء ٢١ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١/٦/١٣ .



# تفسير سورة الفلق

# أهـداف سـورة الفلـق

(سورة الفلق مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد سورة الفيل)

وسورة الفلق توجيه من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين جميعًا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بجاهه من كل سوء ، والاعتصام بقدرته والاحتماء بجلاله من شرور مخلوقاته ، وما عسى أن يصدر عنهم من إفك وحسد .

## مع آيات السورة

١ ، ٢ - قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ .

الفلق هو الصبح ، وقال جمع من المفسرين : إن الفلق هو الموجود الممكن كله ، أى : قل : أستعيذ برب المخلوقات وبفالق الإصباح من كل أذى وشر يصيبنىّ من مخلوق من مخلوقاته جميعًا .

ثم خصص من بعض ما خلق أصنافًا يكثر وقوع الأذى منها :

٣ - وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . أصل المعنى فى مادة غسق : السيلان والانصباب ، وأصل الوقب : النقرة فى الجبل ونحوه ، ووقب بمعنى دخل دخولاً لم يترك شيئًا إلا مرَّ به .

والمراد من الغاسق هنا : الليل ، ووقب : أى دخل وغمر كل شىء كأنما انصب عليه واشتدت ظلمته .

أى : أستعيذ بالله من شر الليل إذا دخل وغمر كل شىء بظلامه . وأستعيذ بالله من الظلام الحالك ، وما يختبئ فيه من حشرة مؤذية ، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء ، أو من ظلمات النفس وغلبة الشك والحيرة .

وعن ابن عباس : هو ظلمة الشهوة البهيمية إذا غلبت داعية العقل[٢١٧].

٤ - وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ . أى : ومن شر النمامين الذين يقطعون روابط المحبة ، ويبددون شمل المودة ، «والنميمة تشبه أن تكون ضربًا من السحر لأنها تُحَوِّل ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة ، بوسيلة

خفية كاذبة ، والنميمة تضلل وجدان الصديقين ، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق إذا وقب ، ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمَّام ، فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه ، فلابد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه»[٢١٨] .

أو النفاثات فى العقد : الساحرات الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس ، والتأثير فى المشاعر ، وهن يعقدن العقد فى نحو خيط أو منديل ، وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء .

ويصح أن يُراد بالنفاثات فى العقد : النساء الكيادات اللواتى يفسدن عقد الزوجية ، بصرف الزوج عن زوجته واستمالته حتى يهجر زوجته الأولى ، فكأن الثانية أفسدت عقد الزوجية بين الزوج وزوجته الأولى[٢١٩] .

٥ – وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ . والحسد انفعال نفسى إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنى زوالها ، وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعى منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسى ، فإن شرًّا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالاً نفسيًّا معينًا إلى المحسود ، فإن شرًّا يمكن أن ينفذ إلى المحسود عن طريق العين أو النفس ، ونحن نستجير بالله ونستعيذ به ، ونلجأ إلى رحمته وفضله ، ليعيذنا من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً .

وقد روى البخارى بإسناده ، عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ . و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات[٢٢٠] . وهكذا رواه أصحاب السنن .

## مقاصد سورة الفلق

١ – الالتجاء إلى الله والتحصن بقدرته من شر الخلق .

٢ – ومن شر الظلام إذا انتشر وغطى الكون .

٣ – ومن شر النساء الكيادات صاحبات الحيل ، ومن شر أهل الفتنة والنميمة .

٤ – ومن شر الحسود إذا وجَّه كيده للحسد .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾

**المفردات :**

**أعـــوذ :** ألجأ وأتحصن .

**الـفـلـق :** الصبح ، أو جميع الموجودات .

**مـا خـلـق :** من الشر أو الأشرار .

**غـاسـق :** هو الليل المظلم .

**وقـــب :** دخل ، شمل ، غمر .

**النفاثات :** النفث : النفخ مع شيء من الريق .

**الـعـقـد :** ما أُحكم ربطه حسًا كعقدة الحبل ، أو معنى كعقد البيع والنكاح ، والمراد : عقد السحر أو النميمة والفتنة بين الناس التى تقطع روابط الألفة .

**تمهيد :**

سورة الفلق وسورة الناس سورتان كان النبى ﷺ يتعوَّذ بهما كل ليلة وكل صباح .

أخرج الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوَّذ من أعين الجان ، ومن أعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما[٢٢١] . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وأخرج مالك ، ورواه البخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركاتها[٢٢٢] .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، أن النبى ﷺ أمر أحد أصحابه أن يقرأ بهن كلما نام وكلما قام .

وفى حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن وينفث فى كفّيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده . (انظر تفسير ابن كثير) .

**التفسير :**

١ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ .

قل يا محمد : أعوذ وألوذ بربّ الفلق ، أى برب المخلوقات ومبدع الكائنات ، أو قل : أعتصم برب الصباح الذى يتجلى عنه الليل .

٢ - ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .

من كل شر فى الدنيا والآخرة ، وشر الإنس والجن والشياطين ، وشر السباع والهوام ، وشر النار ، وشر الذنوب والمعاصى ، وشر النَّفْس ، وشر العمل ، ومن شر الثقلين وغيرهما .

٣ - ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ .

ومن شر الليل إذا اعتكر ظلامه ، وعمّ سواده كل شىء ، أو من شر القمر إذا دخل فى الكسوف واسودّ ، أو دخل فى المحاق فى آخر الشهر ، وقيل : الغاسق إذا وقب : الحية إذا لدغت ، أو الشهوة إذا غلبت داعية العقل .

٤ - ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ .

المرأة الساحرة أو الكيَّادة التى تُفسد عقدة الزوجية بين الرجل وزوجته ، أو تتزين وتتلون وتتحسَّن أمام الزوج حتى يميل إليها ويتزوجها ، ويطلّق زوجته الأولى .

وذهب الزمخشرى فى تفسير الكشاف وغيره من المفسرين إلى أن المراد من النفّاثات فى العقد : من يمشون بين الناس بالنميمة ليقطعوا روابط المحبّة ، ويبددوا شمل المودة ، فقد أفسدوا عقدة الصداقة ، وحوَّلوا الأحبة إلى العداوة أو الجفوة .

٥ - ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ .

والحسد : هو تمنى زوال نعمة الغَيْر ، وكذلك العائن الذي ينظر بعينه للشىء فربما آذاه بدون قصد ، والحاسد يتمنى زوال النعمة قاصدًا ، وهو بلاء ومرض .

وقد صحَّ فى الحديث الشريف النهى عن الحسد وعن الاشتراك فيه ، فقال ﷺ : «لا تحاقدوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا»(٢٢٣) .

وقال ﷺ : «إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(٢٢٤) .

## السّحر

تكلم العلماء كلامًا طويلاً عن السِّحر ، وخلاصة كلامهم رأيان :

**الرأى الأول** : أن السحر خيال وخداع أو خفة يد ، أو وهم يوهم به الساحر الآخرين ، وقد ذهب إلى ذلك المعتزلة ، وقلَّدهم بعض العلماء .

**الرأى الثانى** : أن السحر يؤثِّر حُبًّا وبُغضًا ، وقد ذُكر فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ... (البقرة : ١٠٢) .

وقد علَّمنا الإسلام أن نلجأ ونتحصن بالله تعالى ، ويتم ذلك بما يأتى :

١ – قراءة سورة الفاتحة .

٢ – قراءة آية الكرسى .

٣ – قراءة خواتيم سورة البقرة ، الآيتين الأخيرتين : ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ... (البقرة : ٢٨٥) .

٤ – قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة (ن والقلم) ، وهما : وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ . (القلم : ٥١ ، ٥٢) .

٥ – قراءة : «بسم الله ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله» .

٦ – قراءة : قل هو الله أحد ، قل أعوذ برب الفلق ، قل أعوذ برب الناس .

٧ – إخراج صدقة .

٨ – دعاء الله بالحفظ ، مثل : فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . (يوسف : ٦٤) .

٩ – اليقين الجازم بأن كل أمر بيد الله ، فهو سبحانه المسبب الحقيقى ، والمخلوق ما هو إلا سبب ، قال تعالى : وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... (البقرة : ١٠٢) .

اللهم احفظنا من كل سوء ، اللهم احفظنا من السحر والحسد ، ومن شر كل نفس أنت آخذ بناصيتها ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن .

## خاتمة فى أدعية النّوم

اللهم غارت النجوم ، ونامت العيون ، وبقيت أنت يا حى يا قيوم ، اهْدِ ليلى وأنم عينى .

اللهم رب السماء وما أظلَّت ، والأرضين وما أقلَّت ، والشياطين وما أضلَّت ، كن لى جارًا من شرار خلقك عزّ جارك .

★ ★ ★

تم بفضل الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة (الفلق) بعد منتصف ليلة الخميس ٢٢ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٤ / ٦ / ٢٠٠١ .

★ ★ ★



# تفسير سورة الناس

# أهـداف سـورة الـنـاس

(سورة الناس مكية ، وآياتها ٦ آيات ، نزلت بعد سورة الفلق)

وهى سورة يلجأ فيها المؤمن إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعتصم به من وساوس الشيطان ، الذى يوسوس فى صدور الناس خفية وسرًا ، وهو أنواع ، منه شياطين الأنس ومنه شياطين الجن .

## مع آيات السورة

١ – قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ . ألجأ وأتحصن بالله خالق الخلق ، والمتفضل عليهم بالنعم والجود .

٢ – مَلِكِ ٱلنَّاسِ . فهو ملكهم وآخذ ناصيتهم بيده ، وهو الخالق الرازق ، مرسل الرسل ، ومنزل الشرائع ، والحاكم المتصرف الذى إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون .

٣ – إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ . هو معبودهم بحق ، وملاذهم إذا ضاق الأمر .

٤ – مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ . أصل الوسوسة : الصوت الخفى ، وقد قيل لأصوات الحلى عند الحركة : وسوسة ، و ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ . هو الشيطان الموسوس الذى يوحى بالشر ، ويهمس بالإثم .

**والخنوس** : الاختفاء والرجوع . والخناس هو الذى من طبعه كثرة الخنوس . أى : نعوذ بالله من وسوسة الشيطان الذى يغرى بالمعاصى والمفاسد ، ويلقى بالشرور فى قلوب الغافلين ، ويغرى بانتهاك الحرمات عن طريق الشهوات .

٥ – ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ . أى : يجول فى الصدور ، ويجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وخصَّ الصدور بالوسوسة لأنها محل القلوب ، والقلوب مجال الخواطر والهواجس ، وإن ذلك الشيطان الذى يجثم على قلب ابن آدم ويتسلط عليه إذا أصابته الغفلة ، هو من الضعف بمكان ، فإذا ذكرت الله خنس ورجع ، وإذا حكّمت عقلك وانتصرت للحق ضعف كيد الشيطان .

قال تعالى : إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا . (النساء : ٧٦) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال تعالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

٦ – مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ . هذا الوسواس الذى يغرى بالشر قسمان :

**القسم الأول** : الجنة الخفية تخطر للإنسان فى صورة خواطر ، توعز بالشر وتغرى بالإثم ، وتزين الخطيئة .

**القسم الثانى** : الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسوسون وسوسة الشيطان ، ومنهم : رفيق السوء الذى يجر رفيقه إلى الانحراف ويغريه بالفساد .

وحاشية الشر : التى توسوس لكل ذى سلطان ، حتى تتركه جبارًا طاغيًا مفسدًا ظالمًا .

والنمَّام الواشى : الذى يزين الكلام ويزيفه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح .

وبائع الشهوات : الذى يتدسس من منافذ الغريزة ، فى إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبًا .

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية ، ومن ثم يدلُّه الله على عدَّته وجُنَّته وسلاحه فى هذه المعركة الرهيبة . والمؤمن يستمد قوته من يقينه بربه ، وثقته بقدرته ، وتحصنه بحماه ، واستعاذته بالله من شر الوسواس الخناس ، الذى يخنس ويضعف أمام قوة الإيمان والاستعانة بالرحمن .

قال تعالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ . (الحجر : ٤٢) .

إن الصراع بين الخير والشر مستمر فى هذه الحياة ، وهناك جنود للرحمن هى المعونة والتثبيت ، وشرح الصدر للإيمان واليقين ، والعزيمة الصادقة ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر . وهناك طريق للشيطان ، يتولى بها على الضعفاء ، وستظل هذه المعركة ما بقيت السماوات والأرض .

يحاول الشيطان أن يُضل الناس ويُوسوس لهم ، وينصب الله للناس أدلة الهدى والرشاد من العقل والحكمة ، والرسالات السماوية ، وأئمة الحق ، والدعاة والهداة .

وقد ذكر القرآن ذلك فى كثير من الآيات .

قال تعالى : يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . (الأعراف : ٢٧) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (فاطر : ٦)

وقال تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ . (ص : ٧٩ – ٨٣) .

وقال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ... (النور : ٢١) .

وقال جلَّ ذكره : إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا . (الإسراء : ٥٣) .

وقال سبحانه : وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا . (النساء : ٣٨) .

وقال تعالى : وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا . (النساء : ١١٩ ، ١٢٠) .

## مقاصد سورة الناس

١ – التحصن بجلال الله وقدرته والاعتصام به : وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (آل عمران : ١٠١) .

٢ – الشيطان يوجه همَّته وجنوده لإغراء بنى آدم .

٣ – رفقاء السوء ودعاة الشر هم أعوان الشيطان .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

**المفردات :**

**أعوذ :** ألجأ وأستجير.

**الرب :** هو المربى والموجه والراعى والحامى.

**ملك :** هو الملك الحاكم المتصرف.

**الإله :** هو المستعلى المستولى المتسلط، المعبود بحق.

**الوسواس :** الشيطان يوسوس للناس ويزين لهم الشر والمعصية.

**الخناس :** صفة الشيطان، من الخنس وهو الابتعاد والاختفاء عند ذكر الله.

**يوسوس فى صدور الناس :** بالإغراء بالمعاصى، والحض على الشر.

**من الجنة والناس :** أى : من شياطين الجن والإنس.

**التفسير :**

١ - قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ.

هذه السورة نزلت بعد سورة الفلق، وقد ورد فى الصحيح فضل السور الثلاث : قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، والسور الثلاث لم يُر مثلهن، كما فى صحيح مسلم، أى أنهن التجاء وتحصُّن بالله تعالى وقدرته.

والآية الأولى أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ولكل مؤمن أن يلجأ ويتحصّن ويستعين بِرَبِّ ٱلنَّاسِ . أي : مربيهم ومالك أمورهم بإفاضة الخير عليهم ودفع ما يضرّهم .

٢ – مَلِكِ ٱلنَّاسِ .

إن الملوك يملكون بعض شئون الأرض ، والله تعالى هو المَلك الدائم المُلك ، صاحب التصرف الكامل والقهر والسلطان .

٣ – إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ .

إنه الخالق المتصرف ، وهو المستعلى المستولى المتسلط ، فهو سبحانه ربُّ كل شيء ، وملك كل شيء ، وإله كل شيء ، ولكن ذكر الناس هُنا يجعلهم يدركون القربى والانتماء ، والاعتماد والتحصُّن برب كل شيء ومليكه وإلهه ، فالله تعالى يوجّه عباده إلى التحصن به سبحانه .

٤ – مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ .

والوسوسة : الصوت الخفىّ .

والخنوس : الرجوع والاختباء والنكوص .

والخنّاس : هو الذى من طبعه كثرة الخنوس .

وقد ذكر البخارى ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس» .

إن السورة تعليم لنا أن نتحصن بالله من شرّ الشيطان الذى يوسوس لنا بالشرّ ، ويزين لنا المعاصى ، ويُغْرينا بالمخالفة ، فإذا ذكرنا الله تعالى ضعف هذا الشيطان وخنس ورجع وتصاغر ، وأيس من الإنسان .

وقد ورد فى الصحيح أن الشيطان يهرب عند سماع الأذان والإقامة[٢٢٥] ، ثم يعود يوسوس للإنسان فى صلاته ، يقول له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، حتى ينتهى من صلاته .

وتجارب الحياة وأوامر الدين ترشدنا إلى أنَّ الصلاة تحتاج إلى مشارطة ومراقبة ومحاسبة ، ومعاتبة ومعاقبة ، شأنها شأن الحياة ، فأنت تشرط على نفسك أن تلتزم بطاعة الله ، ثم تراقبها وتحاسبها ، وإذا أخطأت تعاتبها ، وإذا تكرر الخطأ تعاقبها ، وكذلك فى الصلاة تقول لنفسك : أريد الإخلاص فى الصلاة والخشوع ، والتأمل فى قراءة الفاتحة والسورة ، وتسبيح الركوع والسجود ، وحضور القلب ، وكلما انْصَرفْت

تلوم نفسك ، وتجدد الشرط والمراقبة لنفسك ، حتى تصبح لك عادة ، هى حضور القلب فى الصلاة ، والتركيز أثناء الصلاة ، وترك سائر شئون الدنيا ، ويعينك على ذلك أن تذكر أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن متاع الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأن تقرأ : قل هو الله أحد والمعوذتين .

٥ - ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ .

تلك وظيفة الشيطان ، أن يتحسس ويتدسس إلى صدرك بصوت خفى ، وإغراءٍ بأمور تصرفك عن الصلاة ، أو تزيّن لك الشرّ ، فهو عدو مبين ، أخرج أباك من الجنّة ، ويريد أن يُخرجك عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان .

الشيطان ابتلاء واختبار ، ورغبة فى إغواء بنى آدم ، وأنت أيها الإنسان تملك قهره وزجره ، والاستعاذة بالله منه ، فلا تضعف ولا تستسلم ، بل قاوم الشيطان بالإيمان وذكر الله .

قال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (فاطر : ٦) .

وفى يوم القيامة يقف الشيطان خطيبًا فى أهل جهنم ، فيُلقى عليهم اللَّوم ويبين أنه لم يجبرهم على الكفر أو ارتكاب المعاصى ، إنما زين لهم فقط ، لكنهم استجابوا وأهملوا عقولهم ، وأطاعوا نزواتهم وشهواتهم ، فاللَّوم عليهم .

قال تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ... (إبراهيم : ٢٢) .

٦ - مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ .

أى : إن الذى يوسوس فى صدور الناس صنفان :

الأول : الجنَّة ، وهم شياطين الجن ، ومهمتهم الوسوسة والإغراء والتزيين .

الثانى : شياطين الإنس ، الذين يزينون المعاصى للكبير والصغير والمرأة والرجل ، وهم قرناء السوء ، ورفقاء الشرّ ، ومن الواجب أن نستعيذ بالله منهم ، وأن نحذرهم ، وأن نتخير الرفيق الصالح الذى إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكّرك .

ومن رفقاء السوء النَّمام الواشى المفسد للعلاقات ، ومن رفقاء السوء بائع الهوى والشهوات ، وذو الوجهين والمنافق .

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ...﴾ (الأنعام : ١١٢) .

تلك سورة الناس ، ذكر الله تعالى فيها الناس ثلاث مرات ، فى ثلاث آيات تنتهى بحرف السين ، وهو حرف مهموس ، يناسب الصبىّ الصغير فى النطق ، ويُيسِّر عليه الحفظ .

★ ★ ★

## فى أعقاب تفسير سورة الناس

**١ – جاء فى صفوة التفاسير ما يأتى :**

**قال المفسرون :** إنما خصَّ الناس بالذكر – وإن كان جلت عظمته رب جميع الخلائق – تشريفًا وتكريمًا لهم ، من حيث إنه تعالى سخر لهم ما فى الكون ، وأمدهم بالعقل والعلم ، وأسجد لهم ملائكة قدسه ، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق . ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ . أى : مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين ، مُلكًا تامًّا شاملاً كاملاً ، يحكمهم ، ويضبط أعمالهم ، ويدبِّر شئونهم ، فيُعزّ ويُذلّ ، ويُغنى ويُفقر : ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ . أى : معبودهم الذى لا ربَّ لهم سواه .

**قال القرطبى :** وإنما قال : ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ . لأن فى الناس ملوكًا فذكر أنه ملكهم ، وفى الناس من يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذى يجب أن يستعاذ به ويُلجأ إليه دون الملوك والعظماء .

وترتيب السورة بهذا الشكل فى منتهى الإبداع ، وذلك لأن الإنسان أولاً يعرف أن له ربًّا ، لما يشاهده من أنواع التربية . ﴿رَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ . ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرفٌ فى خلقه ، غنى عن خلقه فهو الملك لهم : ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ . ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد ، لأنه لا عبادة إلا للغنى عن كل ما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه . ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ . وإنما كرر لفظ الناس ثلاثًا ولم يكتف بالضمير ، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم ، كما حسن التكرار فى قول الشاعر :

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شىء ... نغَّص الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

**قال ابن كثير :** هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل : **الربوبية ، والملك ، والإلهية** ، فهو رب كل شىء ومليكه وإلهه ، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له ، فأُمر المستعيذُ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات[٢٢٦] .

٢ – أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن ، وإما شيطان الإنس .

**قال الحسن :** هما شيطانان ، أمّا شيطان الجن فيوسوس فى صدور الناس ، وأمّا شيطان الإنس فيأتى علانية .

**وقال قتادة :** إن من الجنّ شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجنّ .

**٣ – جاء فى تفسير فخر الدين الرازى ما يأتى :**

يلاحظ أن المستعاذ به فى سورة الفلق مذكور بصفة واحدة ، وهى أنّه : **رب الفلق** ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع ، وهى : **الغاسق . والنفّاثات . والحاسد .**

وأما فى سورة الناس فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث ، وهى : **الربُّ ، والملك ، والإله** ، والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهى : **الوسوسة**[٢٢٧] .

وفى التحصُّن من الوسوسة سلامة الدين ، ومن سلم دينه سلم له كلُّ شىء .

## دعاء يورث الإخلاص

«اللهم إنى أعوذ بك أنْ أُشرك بك شيئًا أعلمه ، وأستغفرك لما لا أعلمه» .

## دعاء يورث السعادة

«اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سمَّيت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علَّمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، وذهاب غمّى وحزنى»[٢٢٨] .

## دعاء من صحيح البخارى

«اللهم إنى أعوذ بك من الهمِّ والحَزَن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبُخل ، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرِّجال»[٢٢٩] .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد النبى الأمىّ وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم لك الحمد ، حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه كما ترضى ربنا وتحب ، اللهم اجعل هذا العمل خالصًا لوجهك الكريم ، اللهم انفع به كلَّ من تعلَّمه ووفقه للعمل الصالح ، وللسير على الصراط المستقيم ، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧ ﴾ صدق الله العظيم (الجاثية: ٣٦، ٣٧)

مَكَثْتُ فى تفسير النصف الاول من القرآن الكريم ١٥ عامًا ، كنت أُفسِّر فى كل سنة جزءًا من القرآن ، حيث كنت أعمل أستاذًا ورئيسًا لقسم الشريعة الإسلامية فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، ثم فى كلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان .

ثمّ تفرغت تمامًا لتفسير النصف الثانى من القرآن الكريم لمدة خمس سنوات ، من ١٥ / ٦ / ١٩٩٦ إلى ١٤ / ٦ / ٢٠٠١ .

وتم بحمد الله تعالى الانتهاء من تفسير القرآن الكريم مساء يوم الخميس ٢٢ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٤ / ٦ / ٢٠٠١ م .

وتمت مراجعته بحمد الله فجر يوم الجمعة ٢٣ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٥ / ٦ / ٢٠٠١ م .

اللهم لك الحمد ولك الشكر ، ولك النعمة ولك الفضل ، ولك الثناء الحسن الجميل ، سبحان ربّك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

اللهم لك الحمد ، اللهم هذه دموعى أسكبها شكرًا لك وعرفانًا بفضلك ، اللهم لك الحمد يا ولي التوفيق ، يا أول يا آخر ، يا ظاهر يا باطن ، اللهم اجعل ذلك العمل خالصًا لوجهك الكريم . وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . (الأنعام : ١١٥) .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهاب غمنا وحزننا ، اللهم أكرمنا بالقرآن ، وبنور القرآن ، وبركة القرآن ، وتلاوة القرآن ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . (يونس : ١٠) .

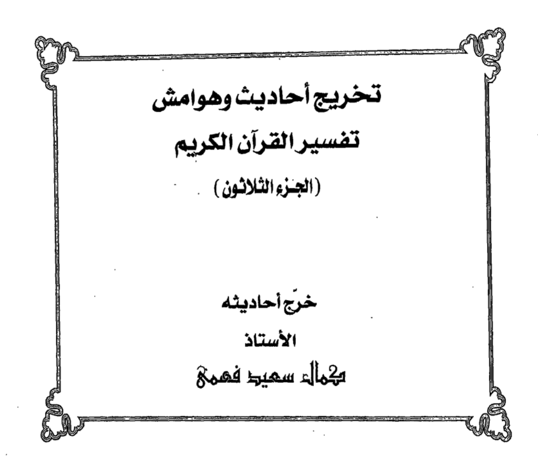
د/ عبد الله شحاتة

القاهرة فى ٢٠٠١/٦/١٥

# دعاء ختم القرآن

اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِالْقُرْآنِ وَاجْعَلْهُ لِي إِمَامًا وَنُورًا وَهُدًى وَرَحْمَةً
اللَّهُمَّ ذَكِّرْنِي مِنْهُ مَا نَسِيتُ وَعَلِّمْنِي مِنْهُ مَا جَهِلْتُ وَارْزُقْنِي تِلَاوَتَهُ
آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ وَاجْعَلْهُ لِي حُجَّةً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝
اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا
مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي
فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ ۝ اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عُمْرِي
آخِرَهُ وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلْقَاكَ فِيهِ ۝ اللَّهُمَّ إِنِّي
أَسْأَلُكَ عِيشَةً هَنِيَّةً وَمِيتَةً سَوِيَّةً وَمَرَدًّا غَيْرَ مُخْزٍ وَلَا فَاضِحٍ ۝ اللَّهُمَّ
إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَسْأَلَةِ وَخَيْرَ الدُّعَاءِ وَخَيْرَ النَّجَاحِ وَخَيْرَ الْعِلْمِ وَخَيْرَ
الْعَمَلِ وَخَيْرَ الثَّوَابِ وَخَيْرَ الْحَيَاةِ وَخَيْرَ الْمَمَاتِ وَثَبِّتْنِي وَثَقِّلْ مَوَازِينِي
وَحَقِّقْ إِيمَانِي وَارْفَعْ دَرَجَتِي وَتَقَبَّلْ صَلَاتِي وَاغْفِرْ خَطِيئَاتِي

وَأَسأَلُكَ ٱلعُلا مِنَ ٱلجَنَّةِ ۝ ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحمَتِكَ
وَعَزَائِمَ مَغفِرَتِكَ وَٱلسَّلَامَةَ مِن كُلِّ إِثمٍ وَٱلغَنِيمَةَ مِن كُلِّ بِرٍّ
وَٱلفَوزَ بِٱلجَنَّةِ وَٱلنَّجَاةَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝ ٱللَّهُمَّ أَحسِن عَاقِبَتَنَا فِي ٱلأُمُورِ كُلِّهَا
وَأَجِرنَا مِن خِزيِ ٱلدُّنيَا وَعَذَابِ ٱلآخِرَةِ ۝ ٱللَّهُمَّ ٱقسِم لَنَا مِن خَشيَتِكَ
مَا تَحُولُ بِهِ بَينَنَا وَبَينَ مَعصِيَتِكَ وَمِن طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهَا جَنَّتَكَ وَمِنَ ٱليَقِينِ
مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَينَا مَصَائِبَ ٱلدُّنيَا وَمَتِّعنَا بِأَسمَاعِنَا وَأَبصَارِنَا وَقُوَّتِنَا
مَا أَحيَيتَنَا وَٱجعَلهُ ٱلوَارِثَ مِنَّا وَٱجعَل ثَأرَنَا عَلَى مَن ظَلَمَنَا وَٱنصُرنَا
عَلَى مَن عَادَانَا وَلَا تَجعَل مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلَا تَجعَلِ ٱلدُّنيَا أَكبَرَ هَمِّنَا
وَلَا مَبلَغَ عِلمِنَا وَلَا تُسَلِّط عَلَينَا مَن لَّا يَرحَمُنَا ۝ ٱللَّهُمَّ لَا تَدَع لَنَا
ذَنبًا إِلَّا غَفَرتَهُ وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَّجتَهُ وَلَا دَينًا إِلَّا قَضَيتَهُ وَلَا حَاجَةً
مِّن حَوَائِجِ ٱلدُّنيَا وَٱلآخِرَةِ إِلَّا قَضَيتَهَا يَا أَرحَمَ ٱلرَّاحِمِينَ ۝ رَبَّنَا
آتِنَا فِي ٱلدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ
وَصَلَّى ٱللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا **مُحَمَّدٍ** وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ
ٱلأَخيَارِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا



# تخريج أحاديث وهوامش
# تفسير القرآن الكريم

(الجزء الثلاثون)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) فى ظلال القرآن ، للأستاذ سيد قطب ، ٦/٣.

(٢) يخرج عنق من النار :

رواه الترمذى فى صفة جهنم (٢٥٧٤) وأحمد فى مسنده (٨٢٢٥) من حديث أبى هريرة بلفظ : «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما» .

(٣) تفسير الطبرى المجلد ١٢ تفسير سورة النبأ ص ٤٣٤ دار الغد العربى .

(٤) ورد هذا المعنى فى سورة الزمر فى الآية ٦٨ حيث يقول سبحانه ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ .

(٥) يرحم الله موسى لقد أوذى :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٠٥) وفى الدعوات (٦٣٣٦) وأحمد فى مسنده (٣٨٩٢) من حديث عبد الله بلفظ : «يرحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر ...» الحديث .

(٦) طوى : علم للوادى ، وهو واد بأسفل جبل طور سيناء .

(٧) إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٨) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٢) وفى القدر (٦٥٩٤) ومسلم فى كتاب القدر (٢٦٤٣) والترمذى فى القدر (٢١٣٧) وابن ماجة فى المقدمة (٧٦) وأحمد فى مسنده (٣٦١٧) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه فى أربعين يوما ثم يكون ...» الحديث .

(٨) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، دار ومطابع الشعب ص ١١ وقد ورد هذا المعنى فى تفسير القرطبى ، وغيره من كتب التفسير .

(٩) من خاف أدلج :

رواه الترمذى فى صفة القيامة والرقائق (٢٤٥٠) من حديث أبى هريرة بلفظ : «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله ...» الحديث .

(١٠) متى الساعة :

رواه أحمد فى مسنده (١٢٢٨١) من حديث أنس بن مالك بلفظ : متى الساعة ؟ فقال رسول الله : و«ما أعددت لها» ؟ فقال الأعرابى ...» الحديث .

(١١) ما المسئول عنها بأعلم من السائل :

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) ، وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨ ، ٩) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجة فى المقدمة (٦٣ ، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١) من حديث أبى هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٢) بعثت أنا والساعة هكذا :

رواه أحمد فى مسنده (١٣٩٢٤ ، ١٤٠٢٢، ١٤٥٦٦) والنسائى فى صلاة العيدين (١٥٧٨) والدارمى فى المقدمة (٢٠٦) وابن ماجة فى المقدمة (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : «أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وإن أفضل الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة» . ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه ويشتد غضبه إذا ذكر الساعة كأنه منذر جيش ، قال : ثم يقول : «أتتكم الساعة ، بعثت أنا والساعة هكذا - وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى - صبحتكم الساعة ومستكم ، من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلىَّ وعلىَّ» . والضياع يعنى ولده المساكين .

ورواه أحمد فى مسنده (٢٢٤٣٨) من حديث بريدة قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى» .

(١٣) متى الساعة :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٠) .

(١٤) تفسير النيسابورى ٢٦/٣٠ .

(١٥) أترى بما أقول بأسا :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٣١) من حديث عائشة بلفظ : أترى بما أقول بأسا ، فيقول : لا ، ففى هذا أنزل ... الحديث .

(١٦) الماهر بالقرآن مع السفرة :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٣٧) من حديث عائشة بلفظ : «مثل الذى يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام ...» الحديث .

ورواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين (٧٩٨) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٤) وأبو داود فى الصلاة (١٤٥٤) وأحمد فى مسنده (٢٥٧٦٤) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٧٩) من حديث عائشة بلفظ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرؤه....» الحديث .

(١٧) سلمان منا أهل البيت :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٦٩٦) ونسبه للطبرانى فى الكبير، والحاكم فى المستدرك من حديث عمرو بن عوف . وصححه .

(١٨) قدمت أنا وأخى من اليمن :

رواه البخارى فى المغازى (٤٣٨٤) ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة (٢٤٦٠) والترمذى فى المناقب (٣٨٠٦) من حديث أبى موسى بلفظ : قدمت أنا وأخى من اليمن فكنا حينا وما نرى ابن مسعود ... الحديث .

(١٩) تحشرون حفاة عراة غرلا :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٣٢) من حديث عبد الله بن عباس بلفظ : «تحشرون حفاة عراة غرلا» . فقالت امرأة : أيبصر أو يرى بعضنا ... الحديث .

ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «تحشرون حفاة عراة غرلا» . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : «الأمر أشد من أن يهمهم ذاك».

ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٠) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٣) وفى تفسير القرآن (٣٣٣٢) والنسائىُ فى الجنائز (٢٠٨١) والدارمى فى الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد فى مسنده (١٩١٦ ، ٢٠٩٧) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا» ، ثم قرأ : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسا من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى أصحابى ، فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى...﴾ إلى قوله : ﴿العزيز الحكيم﴾ .

ورواه الدارمى فى الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود أن النبى ﷺ قيل له : ما المقام المحمود؟ قال : «ذاك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه يئط كما يئط الرجل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ، ويجاء بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى : اكسوا خليلى فيؤتى بريطتين بيضاوين من رياط الجنة ثم أكسى على إثره ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطنى الأولون والآخرون» .

(٢٠) ربى غضب غضبا لم يغضب قبله مثله :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى دعوة فرفعت إليه الذراع – وكانت تعجبه – فنهس منها نهسة وقال : «أنا سيد القوم يوم القيامة، هل تدرون بم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعى وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ، ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ، فيقول : ربى غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا أما ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك فيقول : ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسى نفسى ، ائتوا النبى ﷺ فيأتونى فأسجد تحت العرش فيقول : يا محمد، ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه» .

(٢١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٣/٤٨٢.

(٢٢) فى ظلال القرآن دار الشروق المجلد ٦ ص ٣٨٣٩.

(٢٣) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، دار الشعب ص ٢٢ .

(٢٤) فى حديث بالتليفزيون فى برنامج «نور على نور» ، وقد سجلته شركة صوت القاهرة للصوتيات ، وطرحته للبيع .

(٢٥) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده .

(٢٦) تفسير جزء عمّ ، كتاب الشعب ص ٢٣ .

(٢٧) التفسير القرآنى للقرآن ، عبد الكريم الخطيب ، المجلد الثامن ص ١٤٧٢.

(٢٨) قارن بكتاب : فى رحاب التفسير عبد الحميد كشك المجلد التاسع ص ٧٨٨٠.

(٢٩) تفسير النسفى ٤/٢٥٣ .

(٣٠) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٣٠/٤٩١.

(٣١) تفسير فى ظلال القرآن نقلا عن كتاب : الله والعلم الحديث ، للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

(٣٢) تفسير فى ظلال القرآن نقلا عن كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

(٣٣) تفسير فى ظلال القرآن نقلا عن كتاب : الله والعلم الحديث.

(٣٤) فى ظلال القرآن : نقلا عن كتاب (الله والعلم الحديث) مع التلخيص والتصرف .

(٣٥) ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

رواه البخارى فى الإيمان (١٦، ٢١) وفى الإكراه (٦٩٤١) ، ومسلم فى الإيمان (٤٣) والترمذى فى الإيمان (٢٦٢٤) ، والنسائى فى الإيمـــان (٤٩٨٨) وابن ماجـــة فى الفتن (٤٠٣٣) وأحمد فى مســنده (١١٥٩١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» .

(٣٦) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٥) ، وفى التوحيد (٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦) ، ومسلم فى المساجد (٦٣٢) ، والنسائى فى الصلاة (٤٨٥) ، وأحمد (٢٧٣٣٦، ٩٩٣٦) ، ومالك فى النداء للصلاة (٤١٣) ، من حديث أبى هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ...» ، ورواه البخارى فى الأذان (٦٤٩) ، وفى تفسير القرآن (٤٧١٧) ، ومسلم فى المساجد (٦٤٩) ، والترمذى فى التفسير (٣١٣٥) ، والنسائى فى الصلاة (٤٨٦) ، وابن ماجة فى الصلاة (٦٧٠) ، وأحمد (٧١٤٥، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضًا بلفظ : «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح» . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ .

(٣٧) يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٠٣) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٠٩)، والنسائى فى الوصايا (٣٥٨٤) ، وأحمد (٨٠٥١ ، ٨٣٧٢ ، ١٠٣٠٧).

(٣٨) اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٠٦ ، ٦٣٢٣) والنسائى فى الاستعاذة (٥٥٢٢) وأحمد فى مسنده (١٦٦٦٢) من حديث شداد بن أوس بلفظ : «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ...» الحديث .

ورواه ابن ماجة فى الدعاء (٣٨٧٢) من حديث بريدة بلفظ : «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ...» الحديث .

(٣٩) قال الترمذى : حسن صحيح ، وللحديث روايات أخرى بألفاظ قريبة فى المعنى .

(٤٠) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ، ط ٣ ، مصطفى البابى الحلبى ، ٣٠ / ٨٢ .

(٤١) تفسير جزء عم ، للأستاذ محمد عبده، الطبعة السادسة مطابع الشعب ، ص ٣٧ .

**(٤٢) قوموا إلى سيدكم :**

رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٤٣) ومسلم فى الجهاد (١٧٦٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد – هو ابن معاذ – بعث إليه رسول الله ﷺ وكان قريبا منه فجاء علي حمار، فلما دنا قال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى سيدكم» . فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال له : «إن هؤلاء نزلوا على حكمك» ، قال : فإنى أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية ، قال : «لقد حكمت فيهم بحكم الملك» .

**(٤٣) من أحب أن يمثل له الرجال قياما :**

رواه أبو داود فى الأدب (٥٢٢٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٥٥) عن أبى مجلز قال : خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر : اجلس فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار» .

(٤٤) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى المجلد العاشر الجزء ٣٠ ص ٧٥ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٤٥) تفسير القرطبى وبه مزيد من القول فى ذلك الموضوع .

(٤٦) تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ، دار الشعب ص ٣٨ .

(٤٧) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى المجلد الثالث ص ٦١٧.

(٤٨) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٣٠/٩٨ .

(٤٩) رواه الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن الزبير عن عائشة ، وهو صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه .

**(٥٠) من نوقش الحساب هلك :**

رواه البخارى فى العلم (١٠٣) وفى التفسير (٤٩٣٩) وفى الرقاق (٦٥٣٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٧٦) وأبو داود فى الجنائز (٣٠٩٣) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٦) وفى التفسير (٣٣٣٧) وأحمد فى مسنده (٢٣٦٨٠) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : «من حوسب عذب» . قالت عائشة : فقلت : أو ليس يقول الله تعالى : ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾ قالت : فقال : «إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك» .

**(٥١) اللهم حاسبنى حسابا يسرا :**

رواه أحمد فى مسنده (٢٣٦٩٥) من حديث عائشة بلفظ : «اللهم حاسبنى حسابا يسيرا» ، فلما انصرف قلت : يانبى الله ... الحديث .

**(٥٢) سترتها عليك فى الدنيا :**

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٤١) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٨) من حديث صفوان بن محرز المازنى قال : بينما أنا أمشى مع ابن عمر رضى الله عنهما آخذ بيده إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى فقال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أى رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» .

(٥٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٣ / ٦٢٠.

(٥٤) جاء فى تفسير البحر المحيط ما يأتى :

وإنما ذكر الأوصاف التى يستحق بها تعالى أن يؤمن به ، وهى كونه (عزيزا) أى : غالبًا قادرًا يخشى عقابه . (حميدًا) أى : منعما يجب له الحمد على نعمه ﴿ له ملك السماوات والأرض﴾ أى : وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له ، وإنما ذكر ذلك تقريرًا ، لأن ما نقموه منهم هو الحق ، ولا ينقمه إلا مبطل منهمك فى الغىّ والضلال .

(٥٥) فى ظلال القرآن ، الأستاذ سيد قطب ، دار الشروق المجلد ٦ ص ٣٨٧٤.

(٥٦) يقرأ فى العشاء الآخرة :

رواه أحمد فى مسنده (٨١٣٢) من حديث أبى هريرة بلفظ : يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ، يعنى : ذات البروج ، والسماء والطارق .

(٥٧) أمر أن يقرأ بالسماوات فى العشاء :

رواه أحمد فى مسنده (٨١٣٣) من حديث أبى هريرة بلفظ : أمر أن يقرأ بالسماوات فى العشاء .

(٥٨) وقال الضحاك : هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مَبْعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل ابن تُبَّع الحميرى ، وكانوا نيفًا وثمانين رجلاً ، وحفر لهم أخدودًا وأحرقهم فيه .

(٥٩) تفسير ابن كثير : ٥٤٩/٤.

(٦٠) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ، الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلى دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ، الجزء ١٥٢/٣٠ - ١٥٤.

(٦١) تفسير المراغى ١١٥/٣٠ نقلا عن تقرير للدكتور عبد الحميد العرابى وكيل مستشفى الملك سابقا .

(٦٢) فى ظلال القرآن ١١٩/٣٠ .

(٦٣) كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم :

رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٦) ، والدارمى فى فضائل القرآن (٣٣٣١) ، وأحمد (٧٠١) من حديث على بن أبى طالب . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفى الحارث مقال . قال السيوطى فى «الدر» : وأخرج ابن أبى شيبة والدارمى والترمذى وضعفه وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان عن على .. فذكره .

(٦٤) نهى أن يطرق الرجل أهله طروقًا :

رواه البخارى فى النكاح (٤٨٤٢) ، ومسلم فى الإمارة (٣٥٥٧ ، ٣٥٥٨) ، وأبو داود فى الجهاد (٢٣٩٥) ، وأحمد (١٣٦٧٦) .

(٦٥) ومن طوارق الليل والنهار :

رواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٧٣) من حديث يحيى بن سعيد أنه قال : أسرى برسول الله ﷺ فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رسول الله ﷺ رآه فقال له جبريل : أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه ، فقال رسول الله ﷺ : «بلى» . فقال جبريل : فقل : أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها ، وشر ما ذرأ فى الأرض وشر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن .

(٦٦) يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بسبح :

رواه مسلم فى الجمعة (٨٧٨) من حديث النعمان بن بشير قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد يقرأ بهما أيضا فى الصلاتين .

(٦٧) كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة :

رواه أحمد فى مسنده (٧٤٤) من حديث على رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ .

(٦٨) تفسير جزء عم ، سورة الأعلى ، ص ٥٢ .

(٦٩) اجعلوها فى ركوعكم :

رواه أبو داود فى الصلاة (٨٦٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٧) وأحمد فى مسنده (١٦٩٦١) من حديث عقبة بن عامر قال : لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال رسول الله ﷺ : «اجعلوها فى ركوعكم» ، فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ ، قال رسول الله ﷺ : «اجعلوها فى سجودكم» .

(٧٠) فى ظلال القرآن ٣٠/١٢٤ .

(٧١) فى ظلال القرآن ٣٠/١٢٥ نقلا عن كتاب (الإنسان لا يقوم وحده) للعالم «أ. كريس موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، وقد ترجم الكتاب الأستاذ الإمام محمود صالح الفلكى بعنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) .

(٧٢) تفسير جزء عم ، للأستاذ محمد عبده ، سورة الأعلى ص ٥٢ .

(٧٣) لن يشاد الدين أحد إلا غلبه :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٩) والنسائى فى الإيمان (٥٠٣٤) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة» .

(٧٤) لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم :

رواه أبو داود فى الأدب (٤٩٠٤) من حديث سعيد بن عبد الرحمن بن أبى العمياء أن سهل بن ابى أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة فى زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة فإذا هو يصلى صلاة خفيفة دقيقة كأنها صلاة مسافر أو قريب منها ، فلما سلم قال أبى : يرحمك الله ، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أو شيء تنفلته قال : إنها المكتوبة وإنها لصلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئا سهوت عنه . فقال : إن رسول الله ﷺ كان يقول : «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ ثم غدا من الغد فقال : ألا تركب لتنظر وتعتبر ؟ قال : نعم ، فركبوا جميعًا فإذا هم بديار باد أهلها وانقضوا وفنوا ، خاوية على عروشها ، فقال : أتعرف هذه الديار ؟ فقلت : ما أعرفنى بها وبأهلها ، قال : هذه ديار قوم أهلكهم البغى والحسد إن الحسد يطفئ نور الحسنات ، والبغى يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزنى والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .

(٧٥) المنبت : هو الذى يجهد دابته فى السير حتى تموت .

(٧٦) إن المنبت لا أرضا قطع :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢٥٠٩) ورمز لضعفه . قال المناوى فى الفيض : قال الهيثمى : وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب . انتهى . ورواه البيهقى فى السنن من طرق وفيه اضطراب روى موصولاً ومرسلاً ومرفوعاً وموقوفًا واضطراب فى الصحابى أهو جابر أو عائشة أو عمر؟ ورجح البخارى فى التاريخ إرساله . قال العجلونى فى كشف الخفاء : رواه البزار والحاكم فى علومه والبيهقى وابن طاهر وأبو نعيم والقضاعى والعسكرى والخطابى فى العزلة عن جابر مرفوعا بلفظ : «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» واختلف فى إرساله ووصله .

(٧٧) رحم الله رجلاً سمحا إذا باع :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٦) وابن ماجة فى التجارات (٢٢٠٣) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى» .

(٧٨) المؤمن يألف ويؤلف :

رواه أحمد فى مسنده (٢٢٣٣٣) من حديث سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن مألفة ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» .

ورواه أحمد فى مسنده أيضا (٨٩٤٥) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» .

(٧٩) اللدد فى الخصومة : تجاوز الحد والتقول على الخصم بالحق والباطل . وفى البخارى : «ثلاث من كن فيه كان منافقا: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان» . وفى رواية : وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر . وفى القرآن ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام﴾ (البقرة : ٢٠٤) . والفجور فى الخصومة هو الشدة واللدد والادعاء على الخصم بالحق والباطل . والمؤمن نزيه وصادق حتى فى خصومته .

(٨٠) إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٥٧) ومسلم فى العلم (٢٦٦٨) من حديث عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ قال : «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» .

(٨١) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٣٠/٧٣ ، طبعة بولاق .

(٨٢) تفسير جزء عم للأستاذ محمد عبده ، سورة الأعلى ص ٥٤ .

(٨٣) بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا» ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا» . ورواه البخارى فى الأدب (٦١٢٤) وفى المغازى (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢) ومسلم فى الأشربة (١٧٣٣) وأحمد فى مسنده (١٩٢٠٠) من حديث أبى موسى قال : لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما : «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا» قال أبو موسى : يا رسول الله ، إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له البتع . وشراب من الشعير يقال له المزر . فقال رسول الله ﷺ : «كل مسكر حرام» .

(٨٤) ما أنت بمحدث قوما حديثا :

رواه مسلم فى المقدمة من حديث عبد الله بن مسعود قال : ما أنت بمحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

(٨٥) حدثوا الناس بما يعرفون :

رواه البخارى فى العلم (١٢٧) قال : وقال على : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله . حدثنا عبيد الله بن موسى عن معروف بن خربوذ عن أبى الطفيل عن على بذلك .

(٨٦) إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ فقلنا : يا رسول الله ، كيف انشراح صدره؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» . قلنا: يا رسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه الحاكم فى المستدرك من حديث ابن مسعود .

(٨٧) من أحب دنياه أضر بآخرته :

رواه أحمد فى مسنده (١٩١٩٨) من حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى» .

(٨٨) تفسير جزء عم ، للأستاذ الإمام محمد عبده ، ص ٨.

(٨٩) فى ظلال القرآن ، نقلا عن فصل التناسق الفنى فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن . بتصرف .

(٩٠) التفسير القرآنى للقرآن – عبد الكريم الخطيب المجلد الثامن الجزء ٣٠ ص ١٥٤٠.

(٩١) تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ، سورة الفجر .

(٩٢) تفسير المراغى ، للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ١٥٠/٣٠ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٩٣) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٥٧/٣٠ ، بتصرف .

**(٩٤) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل:**

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٥) ، وفى التوحيد (٧٤٢٩، ٧٤٨٦) ، ومسلم فى المساجد (٦٣٢) ، والنسائى فى الصلاة (٤٨٥) ، وأحمد (٢٧٧٣٦، ٩٩٣٦) ، ومالك فى النداء للصلاة (٤١٣) ، من حديث أبى هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ...» الحديث .

**(٩٥) ما من أيام العمل الصالح فيهن :**

رواه الترمذى فى الصوم (٧٥٧) وأبو داود فى الصيام (٢٤٣٨) وابن ماجة فى الصيام (١٧٢٧) من حديث عبد الله بن عباس بلفظ : « ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه ...» الحديث .

**(٩٦) اللهم غارت النجوم وهدأت العيون :**

قال الهيثمى في المجمع : عن زيد بن ثابت قال : أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : «قل: اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وأنت حى قيوم ، يا حى يا قيوم أنم عينى وأهدئ ليلى» فقلتها فذهب عنى . وقال : رواه الطبرانى. وفيه عمرو بن الحصين العقيلى وهو متروك . وذكره مالك فى الموطأ كتاب النداء للصلاة فقال: وحدثنى عن مالك أنهم بلغهم أن أبا الدرداء كان يقوم من جوف الليل فيقول : نامت العيون وغارت النجوم وأنت الحى القيوم ... فذكره هكذا من قول أبى الدرداء . وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على من وصله ، ولا أسنده ابن عبد البر مع تتبعه لذلك ... إلخ . الفتوحات الربانية ١٧٧/٣ .

**(٩٧) إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :**

رواه البخارى فى التفسير ، باب قوله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (٤٤٠٩)، ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجة فى الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» قال : ثم قرأ : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

**(٩٨) إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :**

انظر ما قبله .

**(٩٩) أنا وكافل اليتيم :**

رواه البخارى فى الطلاق (٥٣٠٤) ، وفى الأدب (٦٠٠٥) ، والترمذى فى البر والصلة (١٩١٨) ، وأبو داود فى الأدب (٥١٥٠) ، وأحمد (٢٢٣١٣) ، من حديث سهل بن سعد ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ومالك فى الجامع (١٧٦٨) بلاغاً .

(١٠٠) خير بيت في المسلمين :

رواه ابن ماجة في الأدب (٣٦٧٩) من حديث عبد الرحمن بلفظ : «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت ...» الحديث .

(١٠١) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٩٣/٣٠ .

(١٠٢) انظر تفسير النيسابوري للسورة ٩٣/٣٠ .

(١٠٣) انظر تفسير النسفي ٢٦٧/٤ .

(١٠٤) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ٩٦ مطبعة الشعب .

(١٠٥) تفسير جزء عمَّ للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

(١٠٦) إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم :

رواه أبو داود في الأدب (٥١٥٨) والترمذي في البر والصلة (١٩٤٥) وابن ماجة في الأدب (٣٦٩٠) وأحمد في مسنده (٢٠٩٠٠) من حديث جندب بن جنادة بلفظ : «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه ...» الحديث .

(١٠٧) ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم :

البخاري في الأدب (٦٠١١) ، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦) ، وأحمد (١٧٦٣٢، ١٧٦٤٨) من حديث النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» .

(١٠٨) من نفّس عن مؤمن كربة من كرب :

رواه مسلم في الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

(١٠٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٧٠/٣٠ .

(١١٠) في ظلال القرآن ١٧٠/٣٠ .

(١١١) كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها :

رواه مسلم في الطهارة ، باب فضل الوضوء (٢٢٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٨٣) والنسائي في الزكاة ، وابن ماجة في الطهارة باب الوضوء شطر الإيمان (٢٨٠) والدارمي في الطهارة (٦٥٣) ، وأحمد (٢٢٣٩٥) . من حديث أبي مالك الأشعري . وتمام لفظه : «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

(١١٢) ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم فى الزكاة (١٠١٠) وأحمد (٧٩٩٣) من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبى الدرداء .

(١١٣) اعملوا فكل ميسر لما خلق له :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٤٩) ، وفى التوحيد (٧٥٥١) ، ومسلم فى القدر (٢٦٤٧ ، ٢٦٤٩) ، والترمذى فى القدر (٢١٣٦) ، وفى التفسير (٣١١١) ، وأبو داود فى السنة (٤٧٠٩) ، وابن ماجة فى المقدمة (٧٨ ، ٩١) ، وفى التجارات (٢١٤٢) ، وأحمد (٢٠ ، ٦٢٢ ، ١٣٥٢) ، من حديث علي، وعمر ، وعمران بن الحصين ، وأبى حميد ، وسراقة ، وأبى بكر الصديق .

(١١٤) أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٤٢) من حديث عبد الله بلفظ : «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله» ؟ قالوا : يا رسول الله ... الحديث.

(١١٥) دراسات فى السيرة النبوية د. حسين مؤنس ص ٧٨ طبعة بنك فيصل الإسلامى .

(١١٦) أنا وكافل اليتيم :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٩٩) .

(١١٧) إن الناس لكم تبع :

رواه الترمذى فى العلم (٢٦٥٠) وابن ماجة فى المقدمة (٢٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين ... الحديث .

(١١٨) من لا يشكر الناس لا يشكر الله :

رواه أبو داود فى الأدب (٤٨١١) والترمذى فى البر (١٩٥٤) (٧٤٥٢، ٧٨٧٩ ، ٨٨٠١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الترمذى فى البر (١٩٥٥) وأحمد فى مسنده (١٠٨٨٧) من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه أحمد فى مسنده (١٧٩٨١) من حديث النعمان بن بشير قال : قال النبى ﷺ على المنبر : «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب» . ورواه أحمد فى مسنده (٢١٣٣١) من حديث الأشعث بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .

(١١٩) التفسير الفريد للقرآن المجيد للدكتور محمد عبد المنعم الجمال . ص ٣٣٢٥ .

(١٢٠) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٨٩/٣٠ .

(١٢١) إن المؤمن يرى ذنوبه :

رواه الترمذى فى صفة القيامة والرقائق (٢٤٩٧) وأحمد فى مسنده (٣٦٢٢) من حديث عبد الله بلفظ : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع ... الحديث .

(١٢٢) انظر تفسير المراغى ، وتفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، وتفسير جزء عم للشيخ محيى الدين عبد الحميد ، وقد رجح هذا الرأى د. محمد سيد طُنطاوى فى تفسيره الوسيط ، وكذلك التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ص ١٩٥٤.

(١٢٣) تفسير المراغى ، أحمد مصطفى المراغى ، الجزء الثلاثون ص ١٨٩ .

(١٢٤) روى هذا القول عن ابن عباس وعكرمة ، حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿ ومن نعمره ننكِّسه فى الخلق﴾ (يس : ٦٨) . وقول تعالى : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ (النحل : ٧٠) .

حيث يتحول الإنسان من القوة إلى الضعف ، وحيث يتقوّس ظهره بعد اعتداله ، ويبيض شعره بعد سواده ، ويضعف سمعه وبصرُه ، فمشيه دليف كالمقيّد ، وصوته خافت .

قال تعالى : ﴿الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ (الروم: ٥٤) .

(١٢٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى المجلد الثالث ص ٦٥٥.

(١٢٦) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(١٢٧) أخرجه الشيخان والإمام أحمد واللفظ له . وانظر مختصر تفسير ابن كثير اختصار وتحقيق محمد على الصابوني المجلد الثالث ص ٦٥٦ .

(١٢٨) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٧٧) ، وأحمد (٥/ ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧) ، والترمذى (٢٤٩٥) ، وابن ماجة (٤٢٧٥) ، وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر .

(١٢٩) أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد :

رواه مسلم فى الصلاة (٤٨٢) وأبو داود فى الصلاة (٨٧٥) والنسائىْ فى الافتتاح (٢/ ٢٢٦) .

(١٣٠) إنى أريت ليلة القدر ثم أنسيتها :

رواه البخارى فى صلاة التراويح (٢٠١٦) من حديث سعد بن مالك بلفظ : «إنى أريت ليلة القدر ثم أنسيتها أو نسيتها فالتمسوها ...» الحديث .

(١٣١) إنى أريت ليلة القدر ثم أنسيتها :

انظر ما قبله .

(١٣٢) إذا دخل العشر أحيا الليل :

رواه البخارى فى صلاة التراويح (٢٠٢٤) ومسلم فى كتاب الاعتكاف (١١٧٤) وأبو داود فى الصلاة (١٣٧٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٦١١) من حديث عائشة بلفظ : إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المئزر ... الحديث .

(١٣٣) قولى اللهم إنك عفو كريم :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥١٣) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٥٠) وأحمد فى مسنده (٢٤٩٦٧) من حديث عائشة بلفظ : «قولى اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى...» الحديث

(١٣٤) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ٣٠/ ٢١٥ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، الطبعة الثالثة .

(١٣٥) إن الله أمرني أن أقرأ عليك :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٥٩) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٩) من حديث أنس بن مالك بلفظ : «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا ...» الحديث

(١٣٦) لو كان موسى حيا :

أخرجه على القارى فى الأسرار المرفوعة (٨٣ ، ٢٩٢) .

(١٣٧) وأنا العاقب :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٤) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٠) وأحمد فى مسنده(١٦٢٩٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس علي قدمى ، وأنا العاقب» .

(١٣٨) ليس الإيمان بالتمنى :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٧٠) وعزاه لابن النجار والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس . وقال السيوطى فى «الدر المنثور» : وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال : إن الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل . فذكره هكذا موقوفاً .

(١٣٩) هل تزوجت يا فلان :

رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٥) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : «هل تزوجت يا فلان» ؟ قال : لا والله يا رسول الله ولا عندى ما أتزوج به ، قال : «أليس معك قل هو الله أحد» ؟ قال : بلى ، قال : «ثلث القرآن» قال : «أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح» ؟ قال : بلى ، قال : «ربع القرآن» ، قال : «أليس معك قل يا أيها الكافرون»؟ قال : بلى ، قال : «ربع القرآن» قال : «أليس معك إذا زلزلت الأرض» ؟ قال : بلى ، قال : «ربع القرآن» قال : «تزوج» .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(١٤٠) تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان :

رواه مسلم فى الزكاة (١٠١٣) والترمذى فى الفتن (٢٢٠٨) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول : فى هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول : فى هذا قطعت رحمى ، ويجيء السارق فيقول : فى هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا» .

(١٤١) أتدرون ما أخبارها :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٩) وفى التفسير (٣٣٥٣) وأحمد فى مسنده (٨٦٥٠) من حديث أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ قال : «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا قال فهذه أخبارها» .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(١٤٢) تفسير المراغى : أحمد مصطفى المراغى ، الجزء الثلاثون ص ٢٢٠ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، وقد ورد ذلك موسعا فى تفسير جزء عم للإمام محمد عبده .

(١٤٣) أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى .

(١٤٤) أخرجه أحمد والنسائى .

(١٤٥) أخرجه البخارى .

(١٤٦) أخرجه البخارى أيضاً .

(١٤٧) أخرجه أحمد .

(١٤٨) أخرجه ابن جرير .

(١٤٩) أخرجه ابن أبى حاتم .

(١٥٠) أخرجه الإمام أحمد .

(١٥١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابونى المجلد الثالث ص ٦٦٦ ، ٦٦٧ .

(١٥٢) تفسير جزء عم ، للأستاذ الإمام محمد عبده ، ص ١٠٩ ، مطبعة الشعب الطبعة السادسة .

(١٥٣) مختصر تفسير ابن كثير محمد على الصابونى المجلد الثالث ص ٦٧٠.

(١٥٤) أخرجه ابن جرير .

(١٥٥) أخرجه مالك ورواه البخارى ومسلم بنحوه .

(١٥٦) أخرجه الإمام أحمد .

(١٥٧) أخرجه الترمذى وابن ماجة .

(١٥٨) أخرجاه فى الصحيحين .

(١٥٩) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ٦٧٠ .

(١٦٠) تفسير النسفى ٢٧٩/٤ .

**(١٦١) يقول ابن آدم مالى مالى :**

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٥٨) والترمذى فى الزهد (٢٣٤٢) وفى التفسير (٣٣٥٤) والنسائى فى الوصايا (٣٦١٣) وأحمد فى مسنده (١٥٨٧٠) من حديث مطرف عن أبيه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : يقول ابن آدم مالى مالى ، قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت .

**(١٦٢) من أصبح منكم آمنا فى سربه :**

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجة فى الزهد (٤١٤١) من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمى عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم آمنا فى سربه معافى فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية . وحيزت : جمعت .

(١٦٣) انظر تفسير القرطبى للآية .

(١٦٤) التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر ، الجزء الثلاثون ، سورة التكاثر ص ٦٩٨ .

(١٦٥) نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤١٢) والترمذى فى الزهد (٢٣٠٤) وابن ماجة فى الزهد (٤١٧٠) والدارمى فى الرقاق (٢٧٠٧) وأحمد فى مسنده (٢٣٣٦ ، ٣١٧٩) من حديث ابن عباس يرفعه : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» .

(١٦٦) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ٦٧٣ .

(١٦٧) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦٥١/٣٠.

(١٦٨) فى ظلال القرآن ٢٤٣/٣٠ ، بتصرف .

(١٦٩) لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر :

رواه مسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦) وأحمد فى مسنده (٨٨٩٢) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» .

(١٧٠) أوقد على النار ألف سنة :

رواه الترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩١) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة» .

وقال الترمذى : حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك عن شريك عن عاصم عن أبى صالح أو رجل آخر عن أبى هريرة نحوه ولم يرفعه ، قال أبو عيسى : حديث أبى هريرة فى هذا موقوفًا أصح ، ولا أعلم أحدا رفعه غير يحيى بن أبى بكير عن شريك .

(١٧١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده دار ومطابع الشعب ص ١١٨ .

(١٧٢) مختصر تفسير ابن كثير ٦٧٥/٣ .

(١٧٣) انظر تفسير النسفى ٢٨٠/٤ ، وفى ظلال القرآن ٢٤٨/٣٠ ، وتفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ص ١٢٠، وتفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ٢٤٢/٣٠ .

(١٧٤) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ١٦٤/٣٠ .

(١٧٥) المرجع السابق ١٦٥/٣٠ .

(١٧٦) تفسير جزء عم للأستاذ محمد عبده ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(١٧٧) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦٦٩/٣٠.

(١٧٨) المرجع السابق ، بتصرف ، ٦٧٢/٣٠ .

(١٧٩) الآية ٧٥ من سورة المائدة وتمامها : ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ .

والمراد أنهما من جنس البشر كانا يأكلان ويتخلصان من فضلات الطعام بالبول والغائط ، ومن كان كذلك كان إنسانا محتاجا للأكل والشرب وقضاء الحاجة ، والاحتياج نقص والنقص على الله محال .

(١٨٠) إن الله حبس عن مكة الفيل :

رواه البخارى فى اللقطة (٢٤٣٤) ومسلم فى الحج (١٣٥٥) وأبو داود فى المناسك (٢٠١٧) وأحمد فى مسنده (٧٢٠١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين فإنها لا تحل لأحد كان قبلى وإنها أحلت لى ساعة من نهار وإنها لا تحل لأحد بعدى فلا ينفر صيدها ولايختلى شوكها ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدى وإما أن يقيد» ، فقال العباس : إلا الإذخر فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا ، فقال رسول الله ﷺ : «إلا الإذخر» . فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال : اكتبوا لى يا رسول فقال ﷺ : «اكتبوا لأبى شاه» . قلت للأوزاعى : ما قوله : اكتبوا لى يا رسول الله ؟ قال : هذه الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ .

(١٨١) البداية والنهاية لابن كثير .

(١٨٢) انظر فى ظلال القرآن ، الجزء الثلاثون ، ص ٦٧٤ ، ٦٧٥ . (اقتباس واختصار) .

(١٨٣) فى ظلال القرآن ٣٠/٦٧٦ .

(١٨٤) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ٦٨٠ . تحقيق محمد على الصابونى دار القرآن الكريم دمشق .

(١٨٥) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٣٠/ ٦٨٠ .

(١٨٦) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ١٢٤ .

(١٨٧) فى ظلال القرآن ٣٠/ ٦٨١ .

(١٨٨) المرجع السابق .

(١٨٩) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٣٠/ ١٩٧٤ ، طبعة بولاق .

(١٩٠) صفوة التفاسير محمد على الصابونى ٣/ ٦٠٨ – ٦٠٩ .

(١٩١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده مطابع الشعب ١٢٤ .

(١٩٢) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .

(١٩٣) تلك صلاة المنافق :

رواه مالك فى النداء للصلاة (٥١٢) ومسلم فى المساجد (٦٢٢) وأبو داود فى الصلاة (٤١٣) والترمذى فى الصلاة (١٦٠) والنسائى فى المواقيت (٥١١) وأحمد فى مسنده (١١٥٨٨) من حديث العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس ابن مالك فى داره بالبصرة حين انصرف من الظهر وداره بجنب المسجد فلما دخلنا عليه قال : أصليتم العصر ؟ فقلنا له : إنما انصرفنا الساعة من الظهر قال : فصلوا العصر ، فقمنا فصلينا فلما انصرفنا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا» .

ورواه البخارى فى المواقيت (٥٤٩) مختصرا ولم يذكر فيه شاهد الحديث : «تلك صلاة المنافق ....»

(١٩٤) صفوة التفاسير محمد على الصابونى ٣/ ٦٨١ .

(١٩٥) تفسير جزء عم ، للإمام محمد عبده ، ص ١٢٦، وقارن بتفسير النيسابورى ٣٠/ ١٧٥ .

(١٩٦) تفسير النيسابورى ٣٠/١٧٦ ، وقد أورد صفحات عدة فى فضائله ﷺ ، وقد جمع الله له جميع خصائص الرسل أجمعين ، فقد أعطاه الله كتابا خالدا ، وكتاب آدم كان كلمات ، وأعطى إبراهيم وموسى صحفا محدودة ، وكتاب محمد ﷺ مهيمن على الجميع .

(١٩٧) المرجع السابق .

(١٩٨) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٣٠/١٧٩ .

(١٩٩) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ١٢٨ ، مطبعة الشعب ، الطبعة السادسة .

**(٢٠٠) نهر وعدنيه ربى عز وجل :**

رواه مسلم فى الصلاة (٤٠٠) وأبو داود فى الصلاة (٧٨٤) وفى السنة (٤٧٤٧) والنسائى فى الافتتاح (٩٠٤) من حديث أنس قال : بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : «أنزلت على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر﴾ . ثم قال : «أتدرون ما الكوثر» ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول : رب إنه من أمتى فيقول : ما تدرى ما أحدثت بعدك» . زاد ابن حجر فى حديثه : بين أظهرنا فى المسجد ، وقال : ما أحدث بعدك .

(٢٠١) مختصر تفسير ابن كثير المجلد ٣ ص ٦٨٤. تحقيق محمد على الصابونى .

(٢٠٢) انظر تفسير النيسابورى والبيضاوى ، وتفسير المراغى ، وتفسير الطبرى ٣٠/٢١٤ .

(٢٠٣) قال تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ . (الصافات : ١٥٨) .

وقال سبحانه : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ . (الزخرف : ١٩) .

**(٢٠٤) هو أجل رسول الله :**

رواه البخارى فى المغازى (٤٢٩٤) وأحمد فى مسنده (٣١١٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فقال بعضهم : لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال : إنه ممن قد علمتم قال : فدعاهم ذات يوم ودعانى معهم قال : وما رئيته دعانى يومئذ إلا ليريهم منى فقال : ما تقولون فى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا﴾ حتى ختم السورة فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وقال بعضهم : لا ندرى أو لم يقل بعضهم شيئا فقال لى : يا ابن عباس ، أكذاك تقول ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفرة إنه كان توابا﴾ قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم .

**(٢٠٥) يكثر فى آخر أمره من قول سبحان الله وبحمده :**

رواه أحمد فى مسنده (٢٣٥٤٥) ومسلم فى الصلاة (٤٨٤) من حديث عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما لى أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، قال : «إن ربى عز وجل كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا فقد رأيتها ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ .

**(٢٠٦) يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده :**

رواه البخارى فى الأذان (٨١٧) وفى التفسير (٤٩٦٨) ومسلم فى الصلاة (٤٨٤) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى» يتأول القرآن .

**(٢٠٧) يكثر من قول سبحان الله وبحمده :**

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٢٠٥) .

(٢٠٨) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ، ٣٠/٢٦٣ .

(٢٠٩) مقتبس من تفسير جزء عم ، للأستاذ الإمام محمد عبده ، ص ١٣٣.

(٢١٠) تفسير جزء عم، للأستاذ محمد عبده ، ص ١٢٥ ، مطابع الشعب .

**(٢١١) يا غلام إنى أعلمك :**

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال : «يا غلام ، إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلونى فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلىَّ ، فقال : «يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله ...» – الحديث ، وفيه : قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه ، وفيه واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . وأورده الضياء فى المختارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ : «يا ابن عباس ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ...» وذكره مطولا بسند ضعيف ، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال فى المقاصد : وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعين .

(٢١٢) دكتور شوقى ضيف ، سورة الرحمن وسور قصار ص ٣٨٠ ، مطابع دار المعارف .

**(٢١٣) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة :**

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥) ، وفى الدعوات (٦٣٢١) ، وفى التوحيد (٧٤٩٤) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨) ، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦) ، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣) ، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦) ، وفى الدعوات (٣٤٩٨) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٤) ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٦٦) ، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٣٨ ، ٧٥٦٧ ، ٣٧٣٣ ، ٨٧٥١، ٩٩٤٠ ، ١٠١٦٦ ، ١٠٣٧٧ ، ١٠٩٠٢ ، ١١٤٨٢ ، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠) ، وأحمد (١٦٣٠٣ ، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم . ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى . ورواه أحمد (٣٦٦٤ ، ٣٨١١ ، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على .

(٢١٤) لا أحد أصبر على أذى :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٩٩) ، وفى التوحيد (٧٣٧٨) ، ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٤) ، وأحمد (١٩٠٩٢، ١٩١٣٦) . من حديث أبى موسى مرفوعًا : «ليس أحد أو ليس شىء أصبر على أذى سمعه من الله ....» الحديث .

(٢١٥) كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٧٤ ، ٤٩٧٥) والنسائى فى الجنائز (٢٠٧٨) وأحمد فى مسنده (٨٣٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «قال الله : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوًا أحدًا» .

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٨٢) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «قال الله : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياى فقوله : لى ولد ، فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا » .

(٢١٦) إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها :

رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣٦) وفى التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٨) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة» . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار ...» الحديث . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ولا نعلم فى كبير شىء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث وقد روى آدم بن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح .

(٢١٧) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ، ٣٠/٢١٤ .

(٢١٨) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ، ص ١٣٨ .

(٢١٩) وفى الحديث : «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صفحتها» .

أى : لا ينبغى للمرأة أن تطلب من الزوج طلاق زوجته لتحل محلها ، وتأكل فى إنائها وتحتل مكانتها . ومن النساء من يحلو لهن إفساد ما بين الزوج وزوجته ، أو خطف الرجل من امرأته وهو كيد نستعيذ بالله منه .

(٢٢٠) كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٨) وأبو داود فى الأدب (٥٠٥٦) والترمذى فى الدعوات (٣٤٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٤٣٣٢) من حديث عائشة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .

(٢٢١) كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان :

رواه الترمذى فى الطب (٢٠٥٨) والنسائى فى الاستعاذة (٥٤٩٤) من حديث أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما .

قال أبو عيسى : وفى الباب عن أنس ، وهذا حديث حسن غريب .

(٢٢٢) كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات :

رواه البخارى فى المغازى (٤٤٣٩) ومسلم فى السلام (٢١٩٢) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التى كان ينفث وأمسح بيد النبى ﷺ عنه .

(٢٢٣) لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) والترمذى فى البر (١٩٢٧) وأحمد فى مسنده (٧٦٧٠ ، ٨٠٤٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» .

(٢٢٤) إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات :

رواه أبو داود فى الأدب (٤٩٠٣) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب» .

ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤٢١٠) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار والصلاة نور المؤمن والصيام جنة من النار» .

(٢٢٥) إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان :

رواه البخارى فى الأذان (٦٠٨) ومسلم فى الصلاة (٣٨٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى إذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى» .

(٢٢٦) صفوة التفاسير أ . محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ٦٢٢ .

(٢٢٧) انظر التفسير المنير أ.د وهبة الزحيلى ٣٠/٤٨٣ .

(٢٢٨) اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك :

رواه أحمد فى مسنده (٣٧٠٤) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا» ، قال : فقيل : يا رسول الله ، ألا نتعلمها ؟ فقال : «بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها» .

(٢٢٩) اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٦٩) من حديث أنس بن مالك قال : كان النبى ﷺ يقول : «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال» .

★ ★ ★

## محتويات الكتاب

**تم بحمد الله تعالى الجزء الثلاثون.**

**ولله الفضل والمنة .**

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه الانتهاء من إصدار «تفسير القرآن الكريم» كاملاً لفضيلة الدكتور عبدالله شحاتة أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ؛ بمطابع «دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع» بالقاهرة بإشراف الأستاذ هانى أحمد غريب رئيس مجلس الإدارة وذلك تحقيقًا لرغبة المغفور له الحاج أحمد غريب – رحمه الله – فى نشر تفسير القرآن الكريم جعله الله خالصًا لوجهه الكريم فى ميزان حسناته ومغفرة له وسببًا فى الخير والثواب والسعادة وفاتحة خير لأبنائه وأحفاده وللمسلمين أجمعين .

و«دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع» إذ تقدّم للأمة الإسلامية أغلى هدية وأثمن كتاب «تفسير القرآن الكريم كاملاً من سورة الفاتحة وحتى سورة الناس» – فى ١٥ مجلدًا فى ثوب قشيب وطباعة فخمة أنيقة ، تتمنى للأمة الإسلامية العزة والانتصار والسير على نهج القرآن الكريم والتمسك بسنة النبى الأمين ﷺ جيلاً بعد جيل ، وتَعِد القارئ الكريم أن تكون دائمًا عند ثقته وتقدّم دائمًا كل جديد ومفيد ونافع للمكتبة الإسلامية خدمة للأجيال المقبلة راجين أن يتقبل الله منا هذا الجهد .

ويُعَد هذا التفسير إضافة جديدة وجليلة للمكتبة الإسلامية استغرق مؤلفه فى كتابة تفسير النصف الأول من القرآن الكريم ١٥ عامًا والنصف الثانى استغرق فيه خمسة أعوام متفرغًا تمامًا لتفسير القرآن الكريم كتابةً .

وكان الفراغ منه فى مساء الخميس ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٢ من هجرة المصطفى ﷺ الموافق ١٤ يونية عام ٢٠٠١ من ميلاد السيد المسيح عليه السلام .

اللهم انفع بهذا العمل كل من قرأه وتعلمه واغفر لكل من ساهم فى إخراجه للنور ، واختم لنا بخاتمة السعادة يا كريم وصلى اللهم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين

